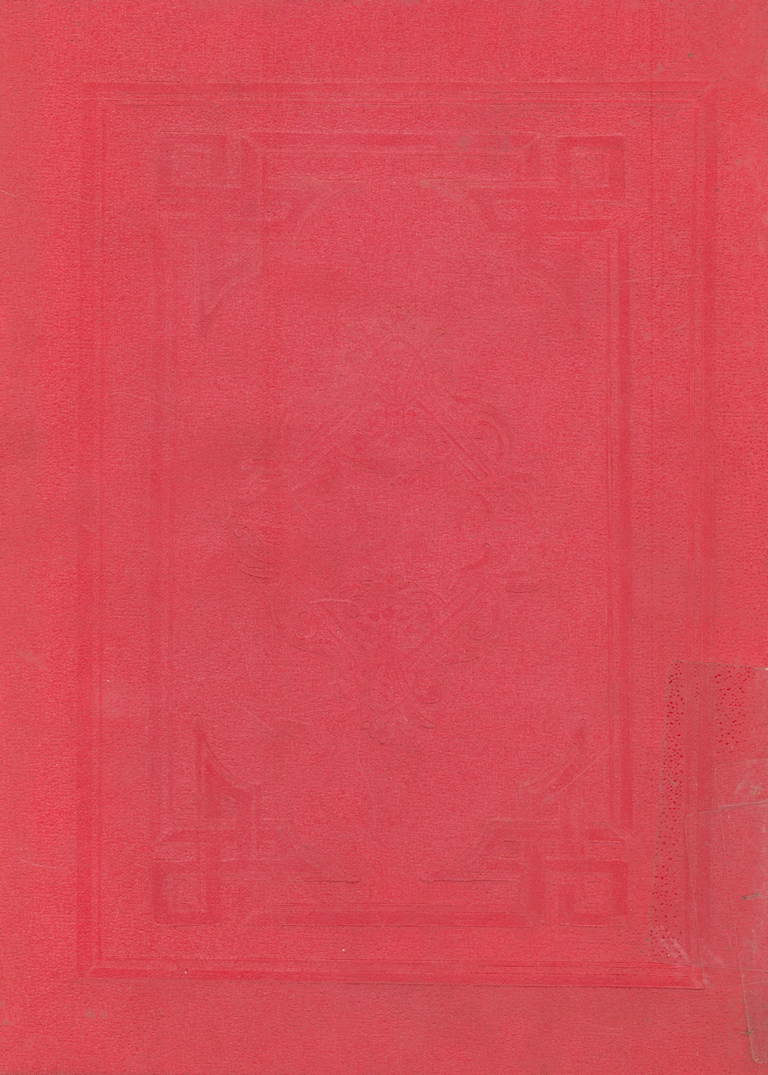


الجزء الثالث

من كتاب احياء علوم الدين تأليف الامام
العالم العلامة المحقق المدقق حجة الاسلام
أبي حامد محمد بن محمد بن محمد
الغزالي قدس الله روحه
ونور ضريحه
آمين

* وبهامشه باقي كتاب عوارف المعارف للعارف بالله تعالى
الامام السهروردي نفعنا الله بهم آمين *

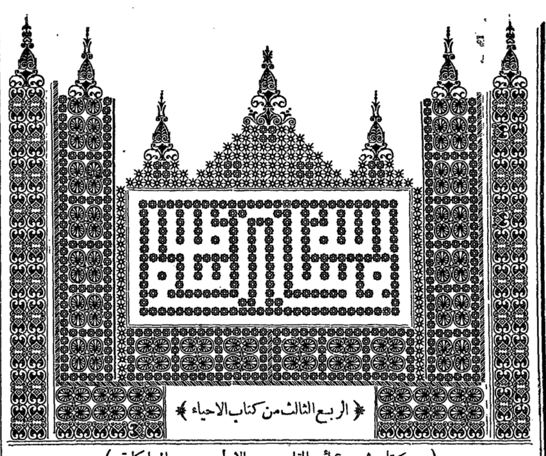
* ترجمة الامام السهروردي *

هو أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عمويه واسمه عبد الله البكري الملقب شهاب الدين بن سعد بن الحسين بن القاسم بن النضر بن القاسم بن النضر بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد ابن أبي بكر الصديق رضي الله عنه * كان فقيها شافعي المذهب تخرج عليه خلق كثير من الصوفية في المجاهدة والخلوة وصحب عمه أبا النجيب والشيخ أبا محمد عبد القادر بن أبي صالح الجيلي وكان شيخ الشيوخ ببغداد وله تآليف حسنة منها كتاب عوارف المعارف وله أشعار كثيرة في كلام القوم * مولده بسهرورد في أواخر رجب سنة تسع وثلاثين وخمسمائة * وتوفي في المحرم * سنة ٦٣٢ ببغداد كذا في ابن خلكان وسهرورد بضم السين وسكون الهاء وفتح الراء والواو وسكون الراء الثانية وفي آخره دال مهملة وهي بلدة عند زنجان من عراق العجم اهـ

* طبع *

* على نفقة حضرة الشيخ سيد موسى شريف الكتبي *
* وشريكه حضرة حسين أفندي شرف *

بالمطبعة العامرة الشرفية بمصر المحميه
سنة ١٣٢٦ هجريه



(كتاب شرح عجائب القلب وهو الاول من ربع المهلكات)

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الذى تتحير دون ادراك جلاله القلوب والخواطر * وتدهش فى مبادى اشراق أنواره الاحداق والنواظر * المطلع على خفيات السرائر * العالم بمكنونات الضمائر * المستغنى فى تدبير مملكته عن المشاور والموازر * مقلب القلوب وغفار الذنوب * وستار العيوب * ومفرج الكروب * والصلاة على سيد المرسلين * وجامع شمل الدين * وقاطع دابر الملحدين * وعلى آله الطيبين الطاهرين * وسلم كثيرا (أما بعد) فشرف الانسان وفضيلته التى فاق بها جملة من أصناف الخلق باستعداده لمعرفة الله سبحانه التى هى فى الدنيا جماله وكماله وفخره وفى الآخرة عدته وذخره وانما استعد للمعرفة بقلبه لا بجارحة من جوارحه فالقلب هو العالم بالله وهو المتقرب الى الله وهو العامل لله وهو الساعى الى الله وهو المكاشف بما عند الله ولديه وانما الجوارح أتباع وخدم وآلات يستخدمها القلب ويستعملها استعمال المالك للعبد واستخدام الراعى للرعية والصانع للآلة فالقلب هو المقبول عند الله اذا سلم من غير الله وهو المحجوب عن الله اذا صار مستغرقا بغير الله وهو المطالب وهو المخاطب وهو المعاتب وهو الذى يسعد بالقرب من الله فيفلح اذا زكاه وهو الذى يخيب ويشقى اذا دنسه ودساه وهو المطيع بالحقيقة لله تعالى وانما الذى ينتشر على الجوارح من العبادات أنواره * وهو العاصى المتمرد على الله تعالى وانما السارى الى الاعضاء من الفواحش آثاره * وباظلامه واستنارته تظهر محاسن الظاهر ومساويه اذ كل اناء ينضح بما فيه وهو الذى اذا عرفه الانسان فقد عرف نفسه واذا عرف نفسه فقد عرف ربه وهو الذى اذا جهله الانسان فقد جهل نفسه واذا جهل نفسه فقد جهل ربه ومن جهل قلبه فهو بغيره أجهل اذ أكثر الخلق جاهلون بقلوبهم وأنفسهم وقد حيل بينهم وبين أنفسهم فان الله يحول بين المرء وقلبه وحيلولته بان يمنعه عن مشاهدته ومراقبته ومعرفة صفاته وكيفية تقلبه بين أصبعين من أصابع الرحمن وانه كيف يهوى مرة الى أسفل السافلين وينخفض الى أفق الشياطين وكيف يرتفع أخرى

﴿ الباب الثلاثون فى تفاصيل أخلاق الصوفية ﴾

من أحسن أخلاق الصوفية التواضع ولا يلبس العبد لبسة أفضل من التواضع ومن ظفر بكنز التواضع والحكمة يقيم نفسه عند كل أحد مقدارا يعلم أنه يقيمه ويقيم كل أحد على ما عنده من نفسه ومن رزق هذا فقد استراح وأراح وما يعقلها الا العالمون (أخبرنا) أبو زرعة عن أبيه الحافظ المقدسى قال أنا عثمان ابن عبد الله قال أنا عبد الرحمن بن ابراهيم قال ثنا عبد الرحمن بن حمدان قال ثنا أبو حاتم الرازى قال ثنا النضر بن عبد الجبار قال أنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب عن سنان بن سعد عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله تعالى أوحى الى أن تواضعوا ولا يبغى بعضكم على بعض وقال عليه

الى أعلى عليين و يرتقى الى عالم الملائكة المقربين ومن لم يعرف قلبه ليراقبه و يراعيه و يترصد لما يلوح من خزائن الملكوت عليه وفيه فهو ممن قال الله تعالى فيه نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون فمعرفة القلب وحقيقة أوصافه أصل الدين وأساس طريق السالكين واذ فرغنا من الشطر الاول من هذا الكتاب من النظر فيما يجرى على الجوارح من العبادات والعادات وهو العلم الظاهر و وعدنا أن نشرح فى الشطر الثانى ما يجرى على القلب من الصفات المهلكات والمنجيات وهو العلم الباطن فلابد أن نقدم عليه كتابين كتابا فى شرح عجائب صفات القلب وأخلاقه وكتابا فى كيفية رياضة القلب وتهذيب أخلاقه ثم نندفع بعد ذلك فى تفصيل المهلكات والمنجيات فلنذكر الآن من شرح عجائب القلب بطريق ضرب الامثال ما يقرب من الافهام فان التصريح بعجائبه وأسراره الداخلة فى جملة عالم الملكوت مما يكل عن دركه أكثر الافهام

﴿ بيان معنى النفس والروح والقلب والعقل وما هو المراد بهذه الاسامى ﴾

اعلم أن هذه الاسماء الاربعة تستعمل فى هذه الابواب ويقل فى فحول العلماء من يحيط بهذه الاسامى واختلاف معانيها وحدودها ومسمياتها وأكثر الاغاليط منشؤها الجهل بمعنى هذه الاسامى واشتراكها بين مسميات مختلفة ونحن نشرح فى معنى هذه الاسامى ما يتعلق بغرضنا * (اللفظ الاول) لفظ القلب وهو يطلق لمعنيين * أحدهما اللحم الصنوبرى الشكل المودع فى الجانب الايسر من الصدر وهو لحم مخصوص وفى باطنه تجويف وفى ذلك التجويف دم أسود هو منبع الروح ومعدنه ولسنا نقصد الآن شرح شكله وكيفيته اذ يتعلق به غرض الاطباء ولا يتعلق به الاغراض الدينية وهذا القلب موجود للبهائم بل هو موجود للميت ونحن اذا أطلقنا لفظ القلب فى هذا الكتاب لم نعن به ذلك فانه قطعة لحم لا قدر له وهو من عالم الملك والشهادة اذ تدركه البهائم بحاسة البصر فضلا عن الآدميين * والمعنى الثانى هو لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسمانى تعلق وتلك اللطيفة هى حقيقة الانسان وهو المدرك العالم العارف من الانسان وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب ولها علاقة مع القلب الجسمانى وقد تحيرت عقول أكثر الخلق فى ادراك وجه علاقته فان تعلقه به يضاهى تعلق الاعراض بالاجسام والاوصاف بالموصوفات أو تعلق المستعمل للآلة بالآلة أو تعلق المتمكن بالمكان وشرح ذلك مما نتوقاه لمعنيين أحدهما أنه متعلق بعلوم المكاشفة وليس غرضنا من هذا الكتاب الا علوم المعاملة * والثانى أن تحقيقه يستدعى افشاء سر الروح وذلك مما لم يتكلم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فليس لغيره أن يتكلم فيه والمقصود أنا اذا أطلقنا لفظ القلب فى هذا الكتاب أردنا به هذه اللطيفة وغرضنا ذكر أوصافها وأحوالها لا ذكر حقيقتها فى ذاتها وعلم المعاملة يفتقر الى معرفة صفاتها وأحوالها ولا يفتقر الى ذكر حقيقتها * (اللفظ الثانى) الروح وهو أيضا يطلق فيما يتعلق بجنس غرضنا لمعنيين * أحدهما جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسمانى فينتشر بواسطة العروق الضوارب الى سائر أجزاء البدن وجريانه فى البدن وفيضان أنوار الحياة والحس والبصر والسمع والشم منها على أعضائها يضاهى فيضان النور من السراج الذى يدار فى زوايا البيت فانه لا ينتهى الى جزء من البيت الا و يستنير به والحياة مثالها النور الحاصل فى الحيطان والروح مثالها السراج وسريان الروح وحركته فى الباطن مثال حركة السراج فى جوانب البيت بتحريك محركه والاطباء اذا أطلقوا لفظ الروح أرادوا به هذا المعنى وهو بخار لطيف أنضجته حرارة القلب وليس شرحه من غرضنا اذ المتعلق به غرض الاطباء الذين يعالجون الابدان فأما غرض أطباء الدين المعالجين للقلب حتى ينساق الى جوار رب العالمين فليس يتعلق بشرح هذه الروح أصلا * المعنى الثانى هو اللطيفة العالمة المدركة من الانسان وهو الذى شرحناه فى أحد معانى القلب وهو الذى أراده الله تعالى بقوله قل الروح من أمر ربى وهو أمر عجيب ربانى تعجز أكثر العقول والافهام عن درك حقيقته * (اللفظ الثالث) النفس وهو أيضا مشترك بين معان و يتعلق بغرضنا منه معنيان أحدهما أنه يراد به المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة فى الانسان على ما سيأتى شرحه وهذا الاستعمال هو الغالب على أهل التصوف لانهم يريدون بالنفس الاصل الجامع للصفات المذمومة من الانسان فيقولون لابد من مجاهدة النفس وكسرها واليه الاشارة بقوله عليه السلام أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك * المعنى الثانى هى اللطيفة التى ذكرناها التى هى الانسان بالحقيقة وهى نفس الانسان وذاته

السلام فى قوله تعالى قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى قال على البر والتقوى والرهبة وذلة النفس (وكان) من تواضع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجيب دعوة الحر والعبد و يقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن أو فخذ أرنب و يكافئ عليها و يأكلها ولا يستكبر عن اجابة الامة والمسكين (وأخبرنا) أبو زرعة اجازة عن ابن خلف اجازة عن السلمى قال أنا أحمد بن على المقرى قال أنا محمد بن المنهال قال حدثنى أبى عن محمد بن جابر اليمانى عن سليمان بن عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان من رأس التواضع أن تبدأ بالسلام على من لقيت وترد على من سلم عليك وأن ترضى بالدون من المجلس وأن لا تحب المدحة والتزكية والبر

ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها فاذا سكنت تحت الامر و زايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت النفس المطمئنة قال الله تعالى في مثلها يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية والنفس بالمعنى الاول لا يتصور رجوعها الى الله تعالى فانها مبعدة عن الله وهي من حزب الشيطان واذا لم يتم سكونها ولكنها صارت مدافعة للنفس الشهوانية ومعترضة عليها سميت النفس اللوامة لانها تلوم صاحبها عند تقصيره في عبادة مولاه قال الله تعالى ولا أقسم بالنفس اللوامة وان تركت الاعتراض وأذعنت وأطاعت لمقتضى الشهوات ودواعي الشيطان سميت النفس الامارة بالسوء قال الله تعالى اخبارا عن يوسف عليه السلام أو امرأة العزيز وما أبرئ نفسي ان النفس لامارة بالسوء وقد يجوز أن يقال المراد بالامارة بالسوء هي النفس بالمعنى الاول فاذا النفس بالمعنى الاول مذمومة غاية الذم و بالمعنى الثاني محمودة لانها نفس الانسان أي ذاته وحقيقته العالمة بالله تعالى وسائر المعلومات * (اللفظ الرابع) العقل وهو أيضا مشترك لمعان مختلفة ذكرناها في كتاب العلم والمتعلق بغرضنا من جملتها معنيان أحدهما انه قد يطلق ويراد به العلم بحقائق الامور فيكون عبارة عن صفة العلم الذي محله القلب والثاني انه قد يطلق ويراد به المدرك للعلوم فيكون هو القلب أعني تلك اللطيفة ونحن نعلم أن كل عالم فله في نفسه وجود هو أصل قائم بنفسه والعلم صفة حالة فيه والصفة غير الموصوف والعقل قد يطلق ويراد به صفة العالم وقد يطلق ويراد به محل الادراك أعني المدرك وهو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم أول ما خلق الله العقل فان العلم عرض لا يتصور أن يكون أول مخلوق بل لا بد وأن يكون المحل مخلوقا قبله أو معه ولانه لا يمكن الخطاب معه وفي الخبر أنه قال له تعالى أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر الحديث فاذا قد انكشف لك أن معاني هذه الاسماء موجودة وهي القلب الجسماني والروح الجسماني والنفس الشهوانية والعلوم فهذه أربعة معان يطلق عليها الالفاظ الاربعة ومعنى خامس وهي اللطيفة العالمة المدركة من الانسان والالفاظ الاربعة بجملتها تتوارد عليها فالمعاني خمسة والالفاظ أربعة وكل لفظ أطلق لمعنيين وأكثر العلماء قد التبس عليهم اختلاف هذه الالفاظ وتواردها فتراهم يتكلمون في الخواطر ويقولون هذا خاطر العقل وهذا خاطر الروح وهذا خاطر القلب وهذا خاطر النفس وليس يدري الناظر اختلاف معاني هذه الاسماء ولاجل كشف الغطاء عن ذلك قدمنا شرح هذه الاسامي وحيث ورد في القرآن والسنة لفظ القلب فالمراد به المعنى الذي يفقه من الانسان ويعرف حقيقة الاشياء وقد يكنى عنه بالقلب الذي في الصدر لان بين تلك اللطيفة وبين جسم القلب علاقة خاصة فانها وان كانت متعلقة بسائر البدن ومستعملة له ولكنها تتعلق به بواسطة القلب فتعلقها الاول بالقلب وكأنه محلها ومملكتها وعالمها ومطيتها ولذلك شبه سهل التستري القلب بالعرش والصدر بالكرسي فقال القلب هو العرش والصدر هو الكرسي ولا يظن به انه يرى أنه عرش الله وكرسيه فان ذلك محال بل أراد به أنه مملكته والمجرى الاول لتدبيره وتصرفه فهما بالنسبة اليه كالعرش والكرسي بالنسبة الى الله تعالى ولا يستقيم هذا التشبيه أيضا الا من بعض الوجوه وشرح ذلك أيضا لا يليق بغرضنا فلنجاوزه

﴿ بيان جنود القلب ﴾

قال الله تعالى وما يعلم جنود ربك الا هو فلله سبحانه في القلوب والارواح وغيرها من العوالم جنود مجندة لا يعرف حقيقتها وتفصيل عددها الا هو ونحن الآن نشير الى بعض جنود القلب فهو الذي يتعلق بغرضنا وله جندان جند يرى بالابصار وجند لا يرى الا بالبصائر وهو في حكم الملك والجنود في حكم الخدم والاعوان فهذا معنى الجند فأما جنده المشاهد بالعين فهو اليد والرجل والعين والاذن واللسان وسائر الاعضاء الظاهرة والباطنة فان جميعها خادمة للقلب ومسخرة له فهو المتصرف فيها والمردد لها وقد خلقت مجبولة على طاعته لا تستطيع له خلافا ولا عليه تمردا فاذا أمر العين بالانفتاح انفتحت واذا أمر الرجل بالحركة تحركت واذا أمر اللسان بالكلام وجزم الحكم به تكلم وكذا سائر الاعضاء وتسخير الاعضاء والحواس للقلب يشبه من وجه تسخير الملائكة لله تعالى فانهم مجبولون على الطاعة لا يستطيعون له خلافا بل لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وانما يفترقان في شيء وهو أن الملائكة عليهم السلام عالمة بطاعتها وامتثالها والاجفان تطيع القلب في الانفتاح والانطباق على سبيل

(وورد) أيضا عنه عليه السلام طوبى لمن تواضع من غير منقصة وذل في نفسه من غير مسكنة (سئل الجنيد) عن التواضع فقال خفض الجناح ولين الجانب (وسئل) الفضيل عن التواضع فقال تخضع للحق وتنقاد له وتقبله ممن قاله وتسمع منه (وقال أيضا) من رأى لنفسه قيمة فليس له في التواضع نصيب (وقال) وهب بن منبه مكتوب في كتب الله اني أخرجت الذر من صلب آدم فلم أجد قلبا أشد تواضعا لي من قلب موسى عليه السلام فلذلك اصطفيته وكلمته (وقيل) من عرف كوامن نفسه لم يطمع في العلو والشرف وسلك سبيل التواضع فلا يخاصم من يذمه ويشكر الله لمن يحمده وقال أبو حفص من أحب أن يتواضع قلبه فليصحب الصالحين وليلتزم بحرمتهم فمن شدة

التسخير ولا خبر لها من نفسها ومن طاعتها للقلب وانما افتقر القلب الى هذه الجنود من حيث افتقاره الى المركب والزاد لسفره الذى لاجله خلق وهو السفر الى الله سبحانه وقطع المنازل الى لقائه فلاجله خلقت القلوب قال الله تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون وانما مركبه البدن وزاده العلم وانما الاسباب التى توصله الى الزاد وتمكنه من التزود منه هو العمل الصالح وليس يمكن العبد أن يصل الى الله سبحانه مالم يسكن البدن ولم يجاوز الدنيا فان المنزل الادنى لابد من قطعه للوصول الى المنزل الاقصى فالدنيا مزرعة الآخرة وهى منزل من منازل الهدى وانما سميت دنيا لانها أدنى المنزلتين فاضطر الى أن يتزود من هذا العالم فالبدن مركبه الذى يصل به الى هذا العالم فافتقر الى تعهد البدن وحفظه وانما يحفظ البدن بان يجلب اليه مايوافقه من الغذاء وغيره وأن يدفع عنه ماينافيه من أسباب الهلاك فافتقر لاجل جلب الغذاء الى جندين باطن وهو الشهوة وظاهر وهو اليد والاعضاء الجالبة للغذاء فخلق فى القلب من الشهوات ما احتاج اليه وخلقت الاعضاء التى هى آلات الشهوات فافتقر لاجل دفع المهلكات الى جندين باطن وهو الغضب الذى به يدفع المهلكات وينتقم من الاعداء وظاهر وهو اليد والرجل الذى بهما يعمل بمقتضى الغضب وكل ذلك بأمور خارجة فالجوارح من البدن كالاسلحة وغيرها ثم المحتاج الى الغذاء مالم يعرف الغذاء لم تنفعه شهوة الغذاء والفه فافتقر للمعرفة الى جندين باطن وهو ادراك السمع والبصر والشم واللمس والذوق وظاهر وهو العين والاذن والانف وغيرها وتفصيل وجه الحاجة اليها ووجه الحكمة فيها يطول ولا تحويه مجلدات كثيرة وقد أشرنا الى طرف يسير منها فى كتاب الشكر فليقتنع به فجملة جنود القلب تحصرها ثلاثة أصناف صنف باعث ومستحث اما الى جلب النافع الموافق كالشهوة واما الى دفع الضار المنافى كالغضب وقد يعبر عن هذا الباعث بالارادة والثانى هو المحرك للاعضاء الى تحصيل هذه المقاصد ويعبر عن هذا الثانى بالقدرة وهى جنود مبثوثة فى سائر الاعضاء لاسيما العضلات منها والاوتار والثالث هو المدرك المتعرف للاشياء كالجواسيس وهى قوة البصر والسمع والشم والذوق واللمس وهى مبثوثة فى أعضاء معينة ويعبر عن هذا بالعلم والادراك ومع كل واحد من هذه الجنود الباطنة جنود ظاهرة وهى الاعضاء المركبة من الشحم واللحم والعصب والدم والعظم التى أعدت آلات لهذه الجنود فان قوة البطش انما هى بالاصابع وقوة البصر انما هى بالعين وكذا سائر القوى ولسنا نتكلم فى الجنود الظاهرة أعنى الاعضاء فانها من عالم الملك والشهادة وانما نتكلم الآن فيما أيدت به من جنود لم تروها وهذا الصنف الثالث وهو المدرك من هذه الجملة ينقسم الى ما قد أسكن المنازل الظاهرة وهى الحواس الخمس أعنى السمع والبصر والشم والذوق واللمس والى ما أسكن منازل باطنة وهى تجاويف الدماغ وهى أيضا خمسة فان الانسان بعد رؤية الشئ يغمض عينه فيدرك صورته فى نفسه وهو الخيال ثم تبقى تلك الصورة معه بسبب شئ يحفظه وهو الجند الحافظ ثم يتفكر فيما حفظه فيركب بعض ذلك الى البعض ثم يتذكر ما قد نسيه ويعود اليه ثم يجمع جملة معانى المحسوسات فى خياله بالحس المشترك بين المحسوسات ففى الباطن حس مشترك وتخيل وتفكر وتذكر وحفظ ولولا خلق الله قوة الحفظ والفكر والذكر والتخيل لكان الدماغ يخلو عنه كما تخلو اليد والرجل عنه فتلك القوى أيضا جنود باطنة وأماكنها أيضا باطنة فهذه هى أقسام جنود القلب وشرح ذلك بحيث يدركه فهم الضعفاء بضرب الامثلة يطول ومقصود مثل هذا الكتاب أن ينتفع به الاقوياء والفحول من العلماء ولكنا نجتهد فى تفهيم الضعفاء بضرب الامثلة ليقرب ذلك من أفهامهم

﴿بيان أمثلة القلب مع جنوده الباطنة﴾

اعلم أن جندى الغضب والشهوة قد ينقادان للقلب انقيادا تاما فيعينه ذلك على طريقه الذى يسلكه وتحسن مرافقتهما فى السفر الذى هو بصدده وقد يستعصيان عليه استعصاء بغى وتمرد حتى يملكاه ويستعبداه وفيه هلاكه وانقطاعه عن سفره الذى به وصوله الى سعادة الابد وللقلب جند آخر وهو العلم والحكمة والتفكر كما سيأتى شرحه وحقه أن يستعين بهذا الجند فانه حزب الله تعالى على الجندين الآخرين فانهما قد يلتحقان بحزب الشيطان فان ترك الاستعانة وسلط على نفسه جند الغضب والشهوة هلك يقينا وخسر خسرانا مبينا وذلك حالة أكثر الخلق فان عقولهم صارت مسخرة لشهواتهم فى استنباط الحيل لقضاء الشهوة وكان ينبغى أن تكون

تواضعهم فى أنفسهم يقتدى بهم ولا يتكبر (وقال لقمان عليه السلام) لكل شئ مطية ومطية العمل التواضع (وقال النورى) خمسة أنفس أعز الخلق فى الدنيا عالم زاهد وفقيه صوفى وغنى متواضع وفقير شاكر وشريف سنى (وقال الجلاء) لولا شرف التواضع كنا اذا مشينا نخطر وقال يوسف بن أسباط وقد سئل ما غاية التواضع قال أن تخرج من بيتك فلا تلقى أحدا الا رأيته خيرا منك ، ورأيت شيخنا ضياء الدين أبا النجيب وكنت معه فى سفره الى الشام وقد بعث بعض أبناء الدنيا له طعاما على رؤس الاسارى من الافرنج وهم فى قيودهم فلما مدت السفرة والاسارى ينتظرون الاوانى حتى تفرغ قال للخادم أحضر الاسارى حتى يقعدوا على السفرة مع الفقراء فجاء بهم

الشهوة مسخرة لعقولهم فيما يفتقر العقل اليه ونحن نقرب ذلك الى فهمك بثلاثة أمثلة ﴿المثال الاول﴾ أن نقول مثل نفس الانسان فى بدنه أعنى بالنفس اللطيفة المذكورة كمثل ملك فى مدينته ومملكته فان البدن مملكة النفس وعالمها ومستقرها ومدينتها وجوارحها وقواها بمنزلة الصناع والعملة والقوة العقلية المفكرة له كالمشير الناصح والوزير العاقل والشهوة له كالعبد السوء يجلب الطعام والميرة الى المدينة والغضب والحمية له كصاحب الشرطة والعبد الجالب للميرة كذاب مكار خداع خبيث يتمثل بصورة الناصح وتحت نصحه الشر الهائل والسم القاتل وديدنه وعادته منازعة الوزير الناصح فى آرائه وتدبيراته حتى أنه لا يخلو من منازعته ومعارضته ساعة فكما أن الوالى فى مملكته اذا كان مستغنيا فى تدبيراته بوزيره ومستشيرا له ومعرضا عن اشارة هذا العبد الخبيث مستدلا باشارته فى أن الصواب فى نقيض رأيه وأدبه صاحب شرطته وساسه لوزيره وجعله مؤتمرا له مسلطا من جهته على هذا العبد الخبيث وأتباعه وأنصاره حتى يكون العبد مسوسا لا سائسا ومأمورا ومدبرا لا أميرا مدبرا استقام أمر بلده وانتظم العدل بسببه فكذا النفس متى استعانت بالعقل وأدبت بحمية الغضب وسلطتها على الشهوة واستعانت باحداهما على الاخرى تارة بأن تقلل مرتبة الغضب وغلوائه بمخالفة الشهوة واستدراجها وتارة بقمع الشهوة وقهرها بتسليط الغضب والحمية عليها وتقبيح مقتضياتها اعتدلت قواها وحسنت أخلاقها ومن عدل عن هذه الطريقة كان كمن قال الله تعالى فيه أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم وقال تعالى واتبع هواه فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث وقال عز وجل فيمن نهى النفس عن الهوى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى وسيأتى كيفية مجاهدة الجنود وتسليط بعضها على بعض فى كتاب رياضة النفس ان شاء الله تعالى (المثال الثانى) اعلم أن البدن كالمدينة والعقل أعنى المدرك من الانسان كملك مدبر لها وقواه المدركة من الحواس الظاهرة والباطنة كجنوده وأعوانه وأعضاؤه كرعيته والنفس الامارة بالسوء التى هى الشهوة والغضب كعدو ينازعه فى مملكته ويسعى فى اهلاك رعيته فصار بدنه كرباط وثغر ونفسه كمقيم فيه مرابط فان هو جاهد عدوه وهزمه وقهره على ما يحب حمد أثره اذا عاد الى الحضرة كما قال تعالى والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وان ضيع ثغره وأهمل رعيته ذم أثره فانتقم منه عند الله تعالى فيقال له يوم القيامة يا راعى السوء أكلت اللحم وشربت اللبن ولم تأو الضالة ولم تجبر الكسير اليوم أنتقم منك كما ورد فى الخبر والى هذه المجاهدة الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر (المثال الثالث) مثل العقل مثال فارس متصيد وشهوته كفرسه وغضبه ككلبه فمتى كان الفارس حاذقا وفرسه مروضا وكلبه مؤدبا معلما كان جديرا بالنجاح ومتى كان هو فى نفسه أخرق وكان الفرس جموحا والكلب عقورا فلا فرسه ينبعث تحته منقادا ولا كلبه يسترسل باشارته مطيعا فهو خليق بأن يعطب فضلا عن أن ينال ما طلب وانما خرق الفارس مثل جهل الانسان وقلة حكمته وكلال بصيرته وجماح الفرس مثل غلبة الشهوة خصوصا شهوة البطن والفرج وعقر الكلب مثل غلبة الغضب واستيلائه نسأل الله حسن التوفيق بلطفه

﴿ بيان خاصية قلب الانسان ﴾

اعلم أن جملة ما ذكرناه قد أنعم الله به على سائر الحيوانات سوى الآدمى اذ للحيوان الشهوة والغضب والحواس الظاهرة والباطنة أيضا حتى ان الشاة ترى الذئب بعينها فتعلم عداوته بقلبها فتهرب منه فذلك هو الادراك الباطن فلنذكر ما يختص به قلب الانسان ولاجله عظم شرفه واستأهل القرب من الله تعالى وهو راجع الى علم وارادة أما العلم فهو العلم بالامور الدنيوية والاخروية والحقائق العقلية فان هذه أمور وراء المحسوسات ولا يشاركه فيها الحيوانات بل العلوم الكلية الضرورية من خواص العقل اذ يحكم الانسان بأن الشخص الواحد لا يتصور أن يكون فى مكانين فى حالة واحدة هذا حكم منه على كل شخص ومعلوم أنه لم يدرك بالحس الا بعض الاشخاص فحكمه على جميع الاشخاص زائد على ما أدركه الحس واذا فهمت هذا فى العلم الظاهر الضرورى فهو فى سائر النظريات أظهر وأما الارادة فانه اذا أدرك بالعقل عاقبة الامر وطريق الصلاح فيه انبعث من ذاته

وأقعدهم على السفرة صفا واحدا وقام الشيخ من سجادته ومشى اليهم وقعد بينهم كالواحد منهم فأكل وأكلوا وظهر لنا على وجهه ما نازل باطنه من التواضع لله والانكسار فى نفسه وانسلاخه من التكبر عليهم بايمانه وعلمه وعمله (أخبرنا) أبو زرعة اجازة عن أبى بكر بن خلف اجازة عن السلمى قال سمعت أبا الحسين الفارسى يقول سمعت الجريرى يقول صح عند أهل المعرفة أن للدين رأس مال خمسة فى الظاهر وخمسة فى الباطن فأما اللواتى فى الظاهر فصدق فى اللسان وسخاوة فى الملك وتواضع فى الابدان وكف الاذى واحتماله بلا اباء وأما اللواتى فى الباطن فحب وجود سيده وخوف الفراق من سيده ورجاء الوصول الى سيده والندم على فعله والحياء من ربه

شوق الى جهة المصلحة والى تعاطى أسبابها والارادة لها وذلك غير ارادة الشهوة وارادة الحيوانات بل يكون على ضد الشهوة فان الشهوة تنفر عن الفصد والحجامة والعقل يريدها ويطلبها ويبذل المال فيها والشهوة تميل الى لذائذ الاطعمة فى حين المرض والعاقل يجد فى نفسه زاجرا عنها وليس ذلك زاجر الشهوة ولو خلق الله العقل المعرف بعواقب الامور ولم يخلق هذا الباعث المحرك للاعضاء على مقتضى حكم العقل لكان حكم العقل ضائعا على التحقيق فاذا قلب الانسان اختص بعلم وارادة ينفك عنها سائر الحيوان بل ينفك عنها الصبى فى أول الفطرة وانما يحدث ذلك فيه بعد البلوغ وأما الشهوة والغضب والحواس الظاهرة والباطنة فانها موجودة فى حق الصبى ثم الصبى فى حصول هذه العلوم فيه له درجتان *احداهما أن يشتمل قلبه على سائر العلوم الضرورية الاولية كالعلم باستحالة المستحيلات وجواز الجائزات الظاهرة فتكون العلوم النظرية فيه غير حاصلة الا أنها صارت ممكنة قريبة الامكان والحصول ويكون حاله بالاضافة الى العلوم كحال الكاتب الذى لا يعرف من الكتابة الا الدواة والقلم والحروف المفردة دون المركبة فانه قد قارب الكتابة ولم يبلغها بعد * الثانية أن تتحصل له العلوم المكتسبة بالتجارب والفكر فتكون كالمخزونة عنده فاذا شاء رجع اليها وحاله حال الحاذق بالكتابة اذ يقال له كاتب وان لم يكن مباشر الكتابة بقدرته عليها وهذه هى غاية درجة الانسانية ولكن فى هذه الدرجة مراتب لا تحصى يتفاوت الخلق فيها بكثرة المعلومات وقلتها وبشرف المعلومات وخستها وبطريق تحصيلها اذ تحصل لبعض القلوب بالهام الهى على سبيل المبادأة والمكاشفة ولبعضهم بتعلم واكتساب وقد يكون سريع الحصول وقد يكون بطىء الحصول وفى هذا المقام تتباين منازل العلماء والحكماء والانبياء والاولياء فدرجات الترقى فيه غير محصورة اذ معلومات الله سبحانه لانهاية لها وأقصى الرتب رتبة النبى الذى تنكشف له كل الحقائق أو أكثرها من غير اكتساب وتكلف بل بكشف الهى فى أسرع وقت وبهذه السعادة يقرب العبد من الله تعالى قربا بالمعنى والحقيقة والصفة لا بالمكان والمسافة ومراقى هذه الدرجات هى منازل السائرين الى الله تعالى ولا حصر لتلك المنازل وانما يعرف كل سالك منزله الذى بلغه فى سلوكه فيعرفه ويعرف ما خلفه من المنازل فاما ما بين يديه فلا يحيط بحقيقته علما لكن قد يصدق به ايمانا بالغيب كما أنا نؤمن بالنبوة والنبى ونصدق بوجوده ولكن لا يعرف حقيقة النبوة الا النبى وكما لا يعرف الجنين حال الطفل ولا الطفل حال المميز وما يفتح له من العلوم الضرورية ولا المميز حال العاقل وما اكتسبه من العلوم النظرية فكذلك لا يعرف العاقل ما افتتح الله على أوليائه وأنبيائه من مزايا لطفه ورحمته ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وهذه الرحمة مبذولة بحكم الجود والكرم من الله سبحانه وتعالى غير مضنون بها على أحد ولكن انما تظهر فى القلوب المتعرضة لنفحات رحمة الله تعالى كما قال صلى الله عليه وسلم ان لربكم فى أيام دهركم لنفحات ألا فتعرضوا لها والتعرض لها بتطهير القلب وتزكيته من الخبث والكدورة الحاصلة من الاخلاق المذمومة كما سيأتى بيانه والى هذا الجود الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم ينزل الله كل ليلة الى سماء الدنيا فيقول هل من داع فاستجيب له وبقوله عليه الصلاة والسلام حكاية عن ربه عز وجل لقد طال شوق الابرار الى لقائى وأنا الى لقائهم أشد شوقا وبقوله تعالى من تقرب الى شبرا تقربت اليه ذراعا كل ذلك اشارة الى أن أنوار العلوم لم تحتجب عن القلوب لبخل ومنع من جهة المنعم تعالى عن البخل والمنع علوا كبيرا ولكن حجبت لخبث وكدورة وشغل من جهة القلوب فان القلوب كالاوانى فما دامت ممتلئة بالماء لا يدخلها الهواء فالقلوب المشغولة بغير الله لا تدخلها المعرفة بجلال الله تعالى واليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا الى ملكوت السماء ومن هذه الجملة يتبين أن خاصية الانسان العلم والحكمة وأشرف أنواع العلم هو العلم بالله وصفاته وأفعاله فيه كمال الانسان وفى كماله سعادته وصلاحه لجوار حضرة الجلال والكمال فالبدن مركب للنفس والنفس محل للعلم والعلم هو مقصود الانسان وخاصيته التى لاجله خلق وكما أن الفرس يشارك الحمار فى قوة الحمل ويختص عنه بخاصية الكر والفر وحسن الهيئة فيكون الفرس مخلوقا لاجل تلك الخاصية فان تعطلت منه نزل الى حضيض رتبة الحمار وكذلك الانسان يشارك الحمار والفرس فى أمور ويفارقهما فى أمور هى خاصيته وتلك الخاصية من صفات الملائكة المقربين من رب العالمين والانسان على رتبة

وقال يحيى بن معاذ التواضع فى الخلق حسن ولكن فى الاغنياء أحسن والتكبر سمج فى الخلق ولكن فى الفقراء أسمج (وقال ذوالنون) ثلاثة من علامات التواضع تصغير النفس معرفة بالعيب وتعظيم الناس حرمة للتوحيد وقبول الحق والنصيحة من كل واحد (وقيل لابى يزيد متى يكون الرجل متواضعا قال اذا لم ير لنفسه حقاما ولا حالا من علمه بشرها وازدرائها ولا يرى أن فى الخلق شرا منه (قال) بعض الحكماء وجدنا التواضع مع الجهل والبخل أحمد من الكبر مع الادب والسخاء وقيل لبعض الحكماء هل تعرف نعمة لا يحسد عليها وبلاء لا يرحم صاحبه عليه قال نعم أما النعمة فالتواضع وأما البلاء فالكبر والكشف عن حقيقة التواضع ان

بين البهائم والملائكة فان الانسان من حيث يتغذى و ينسل فنبات ومن حيث يحس و يتحرك بالاختيار فحيوان ومن حيث صورته وقامته فكالصورة المنقوشة على الحائط وانما خاصيته معرفة حقائق الاشياء فمن استعمل جميع أعضائه وقواه على وجه الاستعانة بها على العلم والعمل فقد تشبه بالملائكة فحقيق بأن يلحق بهم وجدير بان يسمى ملكا و ربانيا كما أخبر الله تعالى عن صواحبات يوسف عليه السلام بقوله ماهذا بشرا ان هذا الاملك كريم ومن صرف همته الى اتباع اللذات البدنية يأكل كما تأكل الانعام فقد انحط الى حضيض أفق البهائم فيصير اما غمرا كثور واما شرها كخنزير واما ضريا ككلب أوسنور أوحقودا كجمل أومتكبرا كنمر أوذا روغان كثعلب أو يجمع ذلك كله كشيطان مريد ومامن عضو من الاعضاء ولاحاسة من الحواس الاو يمكن الاستعانة به على طريق الوصول الى الله تعالى كما سيأتى بيان طرف منه فى كتاب الشكر فمن استعمله فيه فقد فاز ومن عدل عنه فقد خسر وخاب وجملة السعادة فى ذلك أن يجعل لقاء الله تعالى مقصده والدار الآخرة مستقره والدنيا منزله والبدن مركبه والاعضاء خدمه فيستقر هو أعنى المدرك من الانسان فى القلب الذى هو وسط مملكته كالملك و يجرى القوة الخيالية المودعة فى مقدم الدماغ مجرى صاحب بريده اذ تجتمع أخبار المحسوسات عنده و يجرى القوة الحافظة التى مسكنها مؤخر الدماغ مجرى خازنه و يجرى اللسان مجرى ترجمانه و يجرى الاعضاء المتحركة مجرى كتابه و يجرى الحواس الخمس مجرى جواسيسه فيوكل كل واحد منها بأخبار صقع من الاصقاع فيوكل العين بعالم الالوان والسمع بعالم الاصوات والشم بعالم الروائح وكذلك سائرها فانها أصحاب أخبار يلتقطونها من هذه العوالم و يؤدونها الى القوة الخيالية التى هى كصاحب البريد و يسلمها صاحب البريد الى الخازن وهى الحافظة و يعرضها الخازن على الملك فيقتبس الملك منها مايحتاج اليه فى تدبير مملكته واتمام سفره الذى هو بصدده وقمع عدوه الذى هو مبتلى به ودفع قواطع الطريق عليه فاذا فعل ذلك كان موفقا سعيدا شاكرا نعمة الله واذا عطل هذه الجملة أو استعملها لكن فى مراعاة أعدائه وهى الشهوة والغضب وسائر الحظوظ العاجلة أوفى عمارة طريقه دون منزله اذ الدنيا طريقه التى عليها عبوره ووطنه ومستقره الآخرة كان مخذولا شقيا كافرا بنعمة الله تعالى مضيعا لجنود الله تعالى ناصرا لاعداء الله مخذلا لحزب الله فيستحق المقت والابعاد فى المنقلب والمعاد نعوذ بالله من ذلك والى المثال الذى ضربناه أشار كعب الاحبار حيث قال دخلت على عائشة رضى الله عنها فقلت الانسان عيناه هاد وأذناه قمع ولسانه ترجمان و يداه جناحان و رجلاه بريد والقلب منه ملك فاذا طاب الملك طابت جنوده فقالت هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وقال على رضى الله عنه فى تمثيل القلوب ان لله تعالى فى أرضه آنية وهى القلوب فأحبها اليه تعالى أرقها وأصفاها وأصلبها ثم فسره فقال أصلبها فى الدين وأصفاها فى اليقين وأرقها على الاخوان وهو اشارة الى قوله تعالى أشداء على الكفار رحماء بينهم وقوله تعالى مثل نوره كمشكاة فيها مصباح قال أبى بن كعب رضى الله عنه معناه مثل نور المؤمن وقلبه وقوله تعالى أو كظلمات فى بحر لجى مثل قلب المنافق وقال زيد بن أسلم فى قوله تعالى فى لوح محفوظ وهو قلب المؤمن وقال سهل مثل القلب والصدر مثل العرش والكرسى فهذه أمثلة القلب

﴿بيان مجامع أوصاف القلب وأمثلته﴾

اعلم أن الانسان قد اصطحب فى خلقته وتركيبه أربع شوائب فلذلك اجتمع عليه أربعة أنواع من الاوصاف وهى الصفات السبعية والبهيمية والشيطانية والربانية فهو من حيث سلط عليه الغضب يتعاطى أفعال السباع من العداوة والبغضاء والتهجم على الناس بالضرب والشتم ومن حيث سلطت عليه الشهوة يتعاطى أفعال البهائم من الشره والحرص والشبق وغيره ومن حيث انه فى نفسه أمر ربانى كما قال الله تعالى قل الروح من أمر ربى فانه يدعى لنفسه الربوبية و يحب الاستيلاء والاستعلاء والتخصص والاستبداد بالامور كلها والتفرد بالرياسة والانسلال عن ربقة العبودية والتواضع و يشتهى الاطلاع على العلوم كلها بل يدعى لنفسه العلم والمعرفة والاحاطة بحقائق الامور و يفرح اذا نسب الى العلم و يحزن اذا نسب الى الجهل والاحاطة بجميع الحقائق والاستيلاء بالقهر على جميع الخلائق من أوصاف الربوبية وفى الانسان حرص على ذلك ومن حيث يختص من البهائم بالتمييز مع

التواضع رعاية الاعتدال بين الكبر والضعة فالكبر رفع الانسان نفسه فوق قدره والضعة وضع الانسان نفسه مكانا يزرى به و يفضى الى تضييع حقه وقد انقهم من كثير من اشارات المشايخ فى شرح التواضع أشياء الى حد أقاموا التواضع فيه مقام الضعة و يلوح فيه الهوى من أوج الافراط الى حضيض التفريط و يوهم انحرافا عن حد الاعتدال و يكون قصدهم فى ذلك المبالغة فى قمع نفوس المريدين خوفا عليهم من العجب والكبر فقل أن ينفك مريد فى مبادى ظهور سلطان الحال من العجب حتى لقد نقل عن جمع من الكبار كلمات مؤذنة بالاعجاب وكل ما نقل من ذلك القبيل من المشايخ لبقايا السكر عندهم وانحصارهم فى مضيق سكر الحال وعدم

مشاركته لها في الغضب والشهوة حصلت فيه شيطانية فصار شريرا يستعمل التمييز في استنباط وجوه الشر ويتوصل الى الاغراض بالمكر والحيلة والخداع ويظهر الشر في معرض الخير وهذه أخلاق الشياطين وكل انسان فيه شوب من هذه الاصول الاربعة أعني الربانية والشيطانية والسبعية والبهيمية وكل ذلك مجموع في القلب فكان المجموع في اهاب الانسان خنزير وكلب وشيطان وحكيم فالخنزير هو الشهوة فانه لم يكن الخنزير مذموما للونه وشكله وصورته بل لجشعه وكلبه وحرصه والكلب هو الغضب فان السبع الضاري والكلب العقور ليس كلبا وسبعا باعتبار الصورة واللون والشكل بل روح معنى السبعية الضراوة والعدوان والعقر وفي باطن الانسان ضراوة السبع وغضبه وحرص الخنزير وشبقه فالخنزير يدعو بالشره الى الفحشاء والمنكر والسبع يدعو بالغضب الى الظلم والايذاء والشيطان لا يزال يهيج شهوة الخنزير وغيظ السبع ويغري أحدهما بالآخر ويحسن لهما ما هما مجبولان عليه والحكيم الذي هو مثال العقل مأمور بأن يدفع كيد الشيطان ومكره بأن يكشف عن تلبيسه ببصيرته النافذة ونوره المشرق الواضح وأن يكسر شره هذا الخنزير بتسليط الكلب عليه اذ بالغضب يكسر سورة الشهوة ويدفع ضراوة الكلب بتسليط الخنزير عليه ويجعل الكلب مقهورا تحت سياسته فان فعل ذلك وقدر عليه اعتدل الامر وظهر العدل في مملكة البدن وجرى الكل على الصراط المستقيم وان عجز عن قهرها قهروه واستخدموه فلا يزال في استنباط الحيل وتدقيق الفكر ليشبع الخنزير ويرضي الكلب فيكون دائما في عبادة كلب وخنزير وهذا حال أكثر الناس مهما كان أكثر همتهم البطن والفرج ومنافسة الاعداء والعجب منه أن ينكر على عبدة الاصنام عبادتهم للحجارة ولو كشف الغطاء عنه وكوشف بحقيقة حاله ومثل له حقيقة حاله كما يمثل للمكاشفين اما في النوم أو في اليقظة لرأى نفسه ماثلا بين يدي خنزير ساجدا له مرة وراكعا أخرى ومنتظرا لاشارته وأمره فهما هاج الخنزير لطلب شيء من شهواته انبعث على الفور في خدمته واحضار شهوته أو رأى نفسه ماثلا بين يدي كلب عقور عابدا له مطيعا سامعا لما يقتضيه ويلتمسه مدققا بالفكر في حيل الوصول الى طاعته وهو بذلك ساع في مسرة شيطانه فانه الذي يهيج الخنزير ويثير الكلب ويبعثهما على استخدامه فهو من هذا الوجه يعبد الشيطان بعبادتهما فليراقب كل عبد حركاته وسكناته وسكوته ونطقه وقيامه وقعوده ولينظر بعين البصيرة فلا يرى ان أنصف نفسه الا ساعيا طول النهار في عبادة هؤلاء وهذا غاية الظلم اذ جعل المالك مملوكا والرب مربوبا والسيد عبدا والقاهر مقهورا اذ العقل هو المستحق للسيادة والقهر والاستيلاء وقد سخره لخدمة هؤلاء الثلاثة فلا جرم ينتشر الى قلبه من طاعة هؤلاء الثلاثة صفات تتراكم عليه حتى يصير طابعا ورينا مهلكا للقلب ومميتا له أما طاعة خنزير الشهوة فيصدر منها صفة الوقاحة والخبث والتبذير والتقتير والرياء والهتكة والمجانة والعبث والحرص والجشع والملق والحسد والحقد والشماتة وغيرها وأما طاعة كلب الغضب فتنتشر منها الى القلب صفة التهور والنذالة والبذخ والصلف والاستشاطة والتكبر والعجب والاستهزاء والاستخفاف وتحقير الخلق وارادة الشر وشهوة الظلم وغيرها وأما طاعة الشيطان بطاعة الشهوة والغضب فيحصل منها صفة المكر والخداع والحيلة والدهاء والجراءة والتلبيس والتضريب والغش والخب والخنا وأمثالها ولو عكس الامر وقهر الجميع تحت سياسة الصفة الربانية لاستقر في القلب من الصفات الربانية العلم والحكمة واليقين والاحاطة بحقائق الاشياء ومعرفة الامور على ما هي عليه والاستيلاء على الكل بقوة العلم والبصيرة واستحقاق التقدم على الخلق لكمال العلم وجلاله ولاستغنى عن عبادة الشهوة والغضب ولانتشر اليه من ضبط خنزير الشهوة ورده الى حد الاعتدال صفات شريفة مثل العفة والقناعة والهدو والزهد والورع والتقوى والانبساط وحسن الهيئة والحياء والظرف والمساعدة وأمثالها ويحصل فيه من ضبط قوة الغضب وقهرها وردها الى حد الواجب صفة الشجاعة والكرم والنجدة وضبط النفس والصبر والحلم والاحتمال والعفو والثبات والنبل والشهامة والوقار وغيرها فالقلب في حكم مرآة قد اكتنفته هذه الامور المؤثرة فيه وهذه الآثار على التواصل واصلة الى القلب أما الآثار المحمودة التي ذكرناها فانها تزيد مرآة القلب جلاء واشراقا ونورا وضياء حتى يتلالا فيه جلية الحق وينكشف فيه حقيقة الامر المطلوب في الدين والى مثل هذا

الخروج الى قضاء الصحو في ابتداء أمرهم وذلك اذا حدق صاحب البصيرة نظره يعلم أنه من استراق النفس السمع عند نزول الوارد على القلب والنفس اذا استرقت السمع عند ظهور الوارد على القلب ظهرت بصفتها على وجه لا يجفو على الوقت وصلافة الحال فيكون من ذلك كلمات مؤذنة بالعجب كقول بعضهم من تحت خضراء السماء مثلي وقول بعضهم قدمي على رقبة جميع الاولياء وكقول بعضهم أسرجت وألجمت وطفت في أقطار الارض وقلت هل من مبارز فلم يخرج الى أحد اشارة منه في ذلك الى تفرده في وقته ومن أشكل عليه ذلك ولم يعلم انه من استراق النفس السمع فليزن ذلك بميزان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتواضعهم واجتنابهم

القلب الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم اذا أراد الله بعبد خيرا جعل له واعظا من قلبه و بقوله صلى الله عليه وسلم من كان له من قلبه واعظ كان عليه من الله حافظ وهذا القلب هو الذي يستقر فيه الذكر قال الله تعالى ألا بذكر الله تطمئن القلوب وأما الآثار المذمومة فانها مثل دخان مظلم يتصاعد الى مرآة القلب ولا يزال يتراكم عليه مرة بعد أخرى الى أن يسود و يظلم و يصير بالكلية محجوبا عن الله تعالى وهو الطبع وهو الرين قال الله تعالى كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون وقال عز وجل أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون فربط عدم السماع بالطبع بالذنوب كما ربط السماع بالتقوى فقال تعالى واتقوا الله واسمعوا واتقوا الله و يعلمكم الله ومهما تراكمت الذنوب طبع على القلوب وعند ذلك يعمى القلب عن ادراك الحق وصلاح الدين و يستهين بأمر الآخرة و يستعظم أمر الدنيا و يصير مقصور الهم عليها فاذا قرع سمعه أمر الآخرة وما فيها من الاخطار دخل من اذن وخرج من اذن ولم يستقر في القلب ولم يحركه الى التوبة والتدارك أولئك الذين يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور وهذا هو معنى اسوداد القلب بالذنوب كما نطق به القرآن والسنة قال ميمون بن مهران اذا أذنب العبد ذنبا نكتت في قلبه نكتة سوداء فاذا هو نزع وتاب صقل وان عاد زيد فيها حتى يعلو قلبه فهو الران وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم قلب المؤمن أجرد فيه سراج يزهر وقلب الكافر أسود منكوس فطاعة الله سبحانه بمخالفة الشهوات مصقلة للقلب ومعاصيه مسودات له فمن أقبل على المعاصي اسود قلبه ومن اتبع السيئة الحسنة ومحا أثرها لم يظلم قلبه ولكن ينقص نوره كالمرآة التي يتنفس فيها ثم تمسح و يتنفس ثم تمسح فانها لا تخلو عن كدورة وقد قال صلى الله عليه وسلم القلوب أربعة قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن وقلب أسود منكوس فذلك قلب الكافر وقلب أغلف مربوط على غلافه فذلك قلب المنافق وقلب مصفح فيه ايمان ونفاق فمثل الايمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والصديد فأي المادتين غلبت عليه حكم له بها وفي رواية ذهبت به قال الله تعالى ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون فاخبر أن جلاء القلب وابصاره يحصل بالذكر وأنه لا يتمكن منه الا الذين اتقوا فالتقوى باب الذكر والذكر باب الكشف والكشف باب الفوز الاكبر وهو الفوز بلقاء الله تعالى

﴿بيان مثال القلب بالاضافة الى العلوم خاصة﴾

اعلم أن محل العلم هو القلب أعني اللطيفة المدبرة لجميع الجوارح وهي المطاعة المخدومة من جميع الاعضاء وهي بالاضافة الى حقائق المعلومات كالمرآة بالاضافة الى صور المتلونات فكما أن للمتلون صورة ومثال تلك الصورة ينطبع في المرآة و يحصل بها كذلك لكل معلوم حقيقة ولتلك الحقيقة صورة تنطبع في مرآة القلب وتتضح فيها وكما أن المرآة غير وصور الاشخاص غير وحصول مثالها في المرآة غير فهي ثلاثة أمور فكذلك ههنا ثلاثة أمور القلب وحقائق الاشياء وحصول نفس الحقائق في القلب وحضورها فيه فالعالم عبارة عن القلب الذي فيه يحل مثال حقائق الاشياء والمعلوم عبارة عن حقائق الاشياء والعلم عبارة عن حصول المثال في المرآة وكما أن القبض مثلا يستدعي قابضا كاليد ومقبوضا كالسيف ووصولا بين السيف واليد بحصول السيف في اليد ويسمى قبضا فكذلك وصول مثال المعلوم الى القلب يسمى علما وقد كانت الحقيقة موجودة والقلب موجودا ولم يكن العلم حاصلا لان العلم عبارة عن وصول الحقيقة الى القلب كما أن السيف موجود واليد موجودة ولم يكن اسم القبض والاخذ حاصلا لعدم وقوع السيف في اليد نعم القبض عبارة عن حصول السيف بعينه في اليد والمعلوم بعينه لا يحصل في القلب فمن علم النار لم تحصل عين النار في قلبه ولكن الحاصل حدها وحقيقتها المطابقة لصورتها فتمثيله بالمرآة أولى لان عين الانسان لا تحصل في المرآة وانما يحصل مثال مطابق له وكذلك حصول مثال مطابق لحقيقة المعلوم في القلب يسمى علما وكما أن المرآة لا تنكشف فيها الصور لخمسة أمور *أحدها نقصان صورتها كجوهر الحديد قبل أن يدور و يشكل و يصقل *والثاني لخبثه وصدئه وكدورته وان كان تام الشكل *والثالث لكونه معدولا به عن جهة الصورة الى غيرها كما اذا كانت الصورة وراء المرآة *والرابع لحجاب مرسل بين المرآة والصورة *والخامس للجهل بالجهة التي فيها الصورة المطلوبة حتى يتعذر بسببه أن يحاذي بها شطر الصورة وجهتها فكذلك القلب مرآة مستعدة لان ينجلي فيها حقيقة الحق في الامور كلها وانما خلت القلوب عن العلوم

التي

أمثال هذه الكلمات واستبعادهم ان يجوز للعبد التظاهر بشئ من ذلك ولكن يحمل لكلام الصادقين وجه في الصحة و يقال ان ذلك طفح عليهم في سكر الحال وكلام السكارى يحمل فالمشايخ أرباب التمكين لما علموا في النفوس هذا الداء الدفين بالغوا في شرح التواضع الى حد ألحقوه بالضعة تداويا للمريدين والاعتدال في التواضع أن يرضى الانسان بمنزلة دون ما يستحقه ولو أمن الشخص جموح النفس لاوقفها على حد يستحقه من غير زيادة ولا نقصان ولكن لما كان الجموح في جبلة النفس لكونها مخلوقة من صلصال كالفخار فيها نسبة النارية وطلب الاستعلاء بطبعها الى مركز النار احتاجت للتداوي بالتواضع وايقافها دون ما تستحقه لئلا يتطرق اليها الكبر

التى خلت عنها لهذه الاسباب الخمسة أولها نقصان فى ذاته كقلب الصبى فانه لا ينجلى له المعلومات لنقصانه * والثانى لكدورة المعاصى والخبث الذى يتراكم على وجه القلب من كثرة الشهوات فان ذلك يمنع صفاء القلب وجلاءه فيمتنع ظهور الحق فيه لظلمته وتراكمه واليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم من قارف ذنبا فارقه عقل لا يعود اليه أبدا أى حصل فى قلبه كدورة لا يزول أثرها اذ غايته أن يتبعه بحسنة يمحوه بها فلو جاء بالحسنة ولم تتقدم السيئة لازداد لا محالة اشراق القلب فلما تقدمت السيئة سقطت فائدة الحسنة لكن عاد القلب بها الى ما كان قبل السيئة ولم يزدد بها نورا فهذا خسران مبين ونقصان لا حيلة له فليست المرآة التى تتدنس ثم تمسح بالمصقلة كالتى تمسح بالمصقلة لزيادة جلائها من غير دنس سابق فالاقبال على طاعة الله والاعراض عن مقتضى الشهوات هو الذى يجلو القلب ويصفيه ولذلك قال الله تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وقال صلى الله عليه وسلم من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم الثالث أن يكون معدولا به عن جهة الحقيقة المطلوبة فان قلب المطيع الصالح وان كان صافيا فانه ليس يتضح فيه جلية الحق لانه ليس يطلب الحق وليس محاذيا بمرآته شطر المطلوب بل ربما يكون مستوعب الهم بتفصيل الطاعات البدنية أو بتهيئة أسباب المعيشة ولا يصرف فكره الى التأمل فى حضرة الربوبية والحقائق الخفية الالهية فلا ينكشف له الا ما هو متفكر فيه من دقائق آفات الاعمال وخفايا عيوب النفس ان كان متفكرا فيها أو مصالح المعيشة ان كان متفكرا فيها واذا كان تقييد الهم بالاعمال وتفصيل الطاعات مانعا عن انكشاف جلية الحق فما ظنك فيمن صرف الهم الى الشهوات الدنيوية ولذاتها وعلائقها فكيف لا يمنع عن الكشف الحقيقى * الرابع الحجاب فان المطيع القاهر لشهواته المتجرد الفكر فى حقيقة من الحقائق قد لا ينكشف له ذلك لكونه محجوبا عنه باعتقاد سبق اليه منذ الصبا على سبيل التقليد والقبول بحسن الظن فان ذلك يحول بينه وبين حقيقة الحق ويمنع من أن ينكشف فى قلبه خلاف ما تلقفه من ظاهر التقليد وهذا أيضا حجاب عظيم به حجب أكثر المتكلمين والمتعصبين للمذاهب بل أكثر الصالحين المتفكرين فى ملكوت السموات والارض لانهم محجوبون باعتقادات تقليدية جمدت فى نفوسهم ورسخت فى قلوبهم وصارت حجابا بينهم وبين درك الحقائق * الخامس الجهل بالجهة التى يقع منها العثور على المطلوب فان طالب العلم ليس يمكنه أن يحصل العلم بالمجهول الا بالتذكر للعلوم التى تناسب مطلوبه حتى اذا تذكرها ورتبها فى نفسه ترتيبا مخصوصا يعرفه العلماء بطرق الاعتبار فعند ذلك يكون قد عثر على جهة المطلوب فتنجلى حقيقة المطلوب لقلبه فان العلوم المطلوبة التى ليست فطرية لا تقتنص الا بشبكة العلوم الحاصلة بل كل علم لا يحصل الا عن علمين سابقين يأتلفان ويزدوجان على وجه مخصوص فيحصل من ازدواجهما علم ثالث على مثال ما يحصل النتاج من ازدواج الفحل والانثى ثم كما أن من أراد أن يستنتج رمكة لم يمكنه ذلك من حمار وبعير وانسان بل من أصل مخصوص من الخيل الذكر والانثى وذلك اذا وقع بينهما ازدواج مخصوص فكذلك كل علم فله أصلان مخصوصان وبينهما طريق فى الازدواج يحصل من ازدواجهما العلم المستفاد المطلوب فالجهل بتلك الاصول وبكيفية الازدواج هو المانع من العلم ومثاله ما ذكرناه من الجهل بالجهة التى الصورة فيها بل مثاله أن يريد الانسان أن يرى قفاه مثلا بالمرآة فانه اذا رفع المرآة بازاء وجهه لم يكن قد حاذى بها شطر القفا فلا يظهر فيها القفا وان رفعها وراء القفا وحاذاه كان قد عدل بالمرآة عن عينه فلا يرى المرآة ولا صورة القفا فيها فيحتاج الى مرآة أخرى ينصبها وراء القفا وهذه فى مقابلتها بحيث يبصرها ويرعى مناسبة بين وضع المرآتين حتى تنطبع صورة القفا فى المرآة المحاذية للقفا ثم تنطبع صورة هذه المرآة فى المرآة الاخرى التى فى مقابلة العين ثم تدرك العين صورة القفا فكذلك فى اقتناص العلوم طرق عجيبة فيها ازورارات وتحريفات أعجب مما ذكرناه فى المرآة يعز على بسيط الارض من يهتدى الى كيفية الحيلة فى تلك الازورارات فهذه هى الاسباب المانعة للقلوب من معرفة حقائق الامور والا فكل قلب فهو بالفطرة صالح لمعرفة الحقائق لانه أمر ربانى شريف فارق سائر جواهر العالم بهذه الخاصية والشرف واليه الاشارة بقوله عز وجل انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان اشارة الى أن له خاصية تميز بها عن السموات والارض والجبال بها صار مطيقا لحمل أمانة الله تعالى وتلك الامانة هى المعرفة والتوحيد وقلب كل

فالكبر ظن الانسان انه أكبر من غيره والتكبر اظهاره ذلك وهذه صفة لا يستحقها الا الله تعالى ومن ادعاها من المخلوقين يكون كاذبا والكبر يتولد من الاعجاب والاعجاب من الجهل بحقيقة المحاسن والجهل الانسلاخ من الانسانية حقيقة وقد عظم الله تعالى شأن الكبر بقوله تعالى انه لا يحب المستكبرين وقال تعالى أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين وقد ورد بقول الله تعالى الكبرياء ردائى والعظمة ازارى فمن نازعنى واحدا منهما قصمته وفى رواية قذفته فى نار جهنم وقال عز وجل ردا للانسان فى طغيانه الى حده ولا تمش فى الارض مرحا انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا وقال تعالى فلينظر الانسان مم خلق خلق من ماء دافق وأبلغ من هذا

آدمي مستعد لحمل الامانة ومطيق لها في الاصل ولكن يشطه عن النهوض باعبائها والوصول الى تحقيقها الاسباب التي ذكرناها ولذلك قال صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة وانما أبواه يهودانه و ينصرانه و يمجسانه وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا الى ملكوت السماء اشارة الى بعض هذه الاسباب التي هي الحجاب بين القلب و بين الملكوت واليه الاشارة بما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال قيل لرسول الله يارسول الله أين الله في الارض أوفي السماء قال في قلوب عباده المؤمنين وفي الخبر قال الله تعالى لم يسعني أرضي ولا سمائي و وسعني قلب عبدي المؤمن اللين الوادع وفي الخبر أنه قيل يارسول الله من خير الناس فقال كل مؤمن مخموم القلب فقيل وما مخموم القلب فقال هو التقي النقي الذي لاغش فيه ولا بغي ولا غدر ولا غل ولا حسد ولذلك قال عمر رضي الله عنه رأى قلبي ربي اذ كان قد رفع الحجاب بالتقوى ومن ارتفع الحجاب بينه و بين الله تجلى صورة الملك والملكوت في قلبه فيرى جنة عرض بعضها السموات والارض أما جلتها فأكثر سعة من السموات والارض لان السموات والارض عبارة عن عالم الملك والشهادة وهو وان كان واسع الاطراف متباعد الاكناف فهو متناه على الجملة وأما عالم الملكوت وهي الاسرار الغائبة عن مشاهدة الابصار المخصوصة بادراك البصائر فلا نهاية له نعم الذي يلوح للقلب منه مقدار متناه ولكنه في نفسه و بالاضافة الى علم الله لانهاية له وجلة عالم الملك والملكوت اذا أخذت دفعة واحدة تسمى الحضرة الربوبية لان الحضرة الربوبية محيطة بكل الموجودات اذ ليس في الوجود شيء سوى الله تعالى وأفعاله ومملكته وعبيده من أفعاله فما يتجلى من ذلك للقلب هي الجنة بعينها عند قوم وهو سبب استحقاق الجنة عند أهل الحق و يكون سعة ملكه في الجنة بحسب سعة معرفته و بمقدار ما تجلى له من الله وصفاته وأفعاله وانما مراد الطاعات وأعمال الجوارح كلها تصفية القلب وتزكيته وجلاؤه وقد أفلح من زكاها ومراد تزكيته حصول أنوار الايمان فيه أعني اشراق نور المعرفة وهو المراد بقوله تعالى فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام و بقوله أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه نعم هذا التجلي وهذا الايمان له ثلاث مراتب (المرتبة الاولى) ايمان العوام وهو ايمان التقليد المحض (والثانية) ايمان المتكلمين وهو ممزوج بنوع استدلال ودرجته قريبة من درجة ايمان العوام (والثالثة) ايمان العارفين وهو المشاهد بنور اليقين ونبين لك هذه المراتب بمثال وهو أن تصديقك بكون زيد مثلا في الدار له ثلاث درجات (الاولى) أن يخبرك من جربته بالصدق ولم تعرفه بالكذب ولا اتهمته في القول فان قلبك يسكن اليه و يطمئن بخبره بمجرد السماع وهذا هو الايمان بمجرد التقليد وهو مثل ايمان العوام فانهم لما بلغوا سن التمييز سمعوا من آبائهم وأمهاتهم وجود الله تعالى وعلمه وارادته وقدرته وسائر صفاته و بعثة الرسل وصدقهم وما جاؤا به وكما سمعوا به قبلوه وثبتوا عليه واطمأنوا اليه ولم يخطر ببالهم خلاف ما قالوه لهم لحسن ظنهم بآبائهم وأمهاتهم ومعلميهم وهذا الايمان سبب النجاة في الآخرة وأهله من أوائل رتب أصحاب اليمين وليسوا من المقربين لانه ليس فيه كشف و بصيرة وانشراح صدر بنور اليقين اذ الخطأ ممكن فيما سمع من الآحاد بل من الاعداد فيما يتعلق بالاعتقادات فقلوب اليهود والنصارى أيضا مطمئنة بما يسمعونه من آبائهم وأمهاتهم الا أنهم اعتقدوا ما اعتقدوه خطأ لانهم ألقي اليهم الخطأ والمسلمون اعتقدوا الحق لا لاطلاعهم عليه ولكن ألقي اليهم كلمة الحق (الرتبة الثانية) أن تسمع كلام زيد وصوته من داخل الدار ولكن من وراء جدار فتستدل به على كونه في الدار فيكون ايمانك وتصديقك و يقينك بكونه في الدار أقوى من تصديقك بمجرد السماع فانك اذا قيل لك انه في الدار ثم سمعت صوته ازددت به يقينا لان الاصوات تدل على الشكل والصورة عند من سمع الصوت في حال مشاهدة الصورة فيحكم قلبه بأن هذا صوت ذلك الشخص وهذا ايمان ممزوج بدليل والخطأ أيضا ممكن أن يتطرق اليه اذ الصوت قد يشبه الصوت وقد يمكن التكلف بطريق المحاكاة الا أن ذلك قد لا يخطر ببال السامع لانه ليس يجعل للتهمة موضعا ولا يقدر في هذا التلبيس والمحاكاة غرضا (الرتبة الثالثة) أن تدخل الدار فتنظر اليه بعينك وتشاهده وهذه هي المعرفة الحقيقية والمشاهدة اليقينية وهي تشبه معرفة المقربين والصديقين لانهم يؤمنون عن مشاهدة فينطوي في ايمانهم ايمان العوام والمتكلمين و يتميزون بمزية بينة يستحيل معها امكان

قوله تعالى قتل الانسان ما أكفره من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره وقد قال بعضهم لبعض المتكبرين أولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة وأنت فيما بين ذلك حامل العذرة وقد نظم الشاعر هذا المعنى

كيف يزهو من رجيعه أبد الدهر ضجيعه

واذا ارتحل التواضع من القلب وسكن الكبر انتشر أثره في بعض الجوارح ويرشح الاناء بما فيه فتارة يظهر أثره في العنق بالتمايل وتارة في الخد بالتصعير قال الله تعالى ولا تصعر خدك للناس وتارة يظهر في الرأس عند استعصاء النفس قال الله تعالى لووا رؤسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون وكما أن الكبر له انقسام على الجوارح والاعضاء تتشعب منه شعب فكذلك بعضها كشف من البعض كالتيه والزهو والعزة وغير

الخطأ نعم وهم أيضا يتفاوتون بمقادير العلوم و بدرجات الكشف أما درجات العلوم فمثاله أن يبصر زيدا في الدار عن قرب وفي صحن الدار في وقت اشراق الشمس فيكمل له ادراكه والآخر يدركه في بيت أومن بعد أو في وقت عشية فيتمثل له في صورته ما يستيقن معه أنه هو ولكن لا يتمثل في نفسه الدقائق والخفايا من صورته ومثل هذا متصور في تفاوت المشاهدة للامور الالهية وأما مقادير العلوم فهو بأن يرى في الدار زيدا وعمرا و بكرا وغير ذلك وآخر لا يرى الا زيدا فمعرفة ذلك تزيد بكثرة المعلومات لا محالة فهذا حال القلب بالاضافة الى العلوم والله تعالى أعلم بالصواب

﴿بيان حال القلب بالاضافة الى أقسام العلوم العقلية والدينية والدنيوية والاخروية﴾

اعلم أن القلب بغريزته مستعد لقبول حقائق المعلومات كما سبق ولكن العلوم التي تحل فيه تنقسم الى عقلية والى شرعية والعقلية تنقسم الى ضرورية ومكتسبة والمكتسبة الى دنيوية وأخروية أما العقلية فنعني بها ما تقتضي بها غريزة العقل ولا توجد بالتقليد والسماع وهي تنقسم الى ضرورية لا يدرى من أين حصلت وكيف حصلت كعلم الانسان بان الشخص الواحد لا يكون في مكانين والشيء الواحد لا يكون حادثا قديما موجودا معدوما معا فان هذه علوم يجد الانسان نفسه منذ الصبا مفطورا عليها ولا يدرى متى حصل له هذا العلم ولا من أين حصل له أعني أنه لا يدرى له سببا قريبا والا فليس يخفى عليه أن الله هو الذي خلقه وهداه والى علوم مكتسبة وهي المستفادة بالتعلم والاستدلال وكلا القسمين قد يسمى عقلا قال علي رضي الله عنه

رأيت العقل عقلين * فمطبوع ومسموع * ولا ينفع مسموع
اذا لم يك مطبوع * كما لا تنفع الشمس * وضوء العين ممنوع

والاول هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم لعلي ما خلق الله خلقا أكرم عليه من العقل والثاني هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه اذا تقرب الناس الى الله تعالى بأنواع البر فتقرب أنت بعقلك اذ لا يمكن التقرب بالغريزة الفطرية ولا بالعلوم الضرورية بل بالمكتسبة ولكن مثل علي رضي الله عنه هو الذي يقدر على التقرب باستعمال العقل في اقتناص العلوم التي بها ينال القرب من رب العالمين فالقلب جار مجرى العين وغريزة العقل فيه جارية مجرى قوة البصر في العين وقوة الابصار لطيفة تفقد في العمى وتوجد في البصر وان كان قد غمض عينيه أوجن عليه الليل والعلم الحاصل منه في القلب جار مجرى قوة ادراك البصر في العين ورؤيته لاعيان الاشياء وتأخر العلوم عن عين العقل في مدة الصبا الى أوان التمييز أو البلوغ يضاهي تأخر الرؤية عن البصر الى أوان اشراق الشمس وفيضان نورها على المبصرات والقلم الذي سطر الله به العلوم على صفحات القلوب يجري مجرى قرص الشمس وانما لم يحصل العلم في قلب الصبي قبل التمييز لان لوح قلبه لم يتهيأ بعد لقبول نفس العلم والقلم عبارة عن خلق من خلق الله تعالى جعله سببا لحصول نقش العلوم في قلوب البشر قال الله تعالى الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم وقلم الله تعالى لا يشبه قلم خلقه كما لا يشبه وصفه وصف خلقه فليس قلمه من قصب ولا خشب كما أنه تعالى ليس من جوهر ولا عرض فالموازنة بين البصيرة الباطنة والبصر الظاهر صحيحة من هذه الوجوه الا أنه لا مناسبة بينهما في الشرف فان البصيرة الباطنة هي عين النفس التي هي اللطيفة المدركة وهي كالفارس والبدن كالفرس وعمى الفارس أضر على الفارس من عمى الفرس بل لا نسبة لاحد الضررين الى الآخر ولموازنة البصيرة الباطنة للبصر الظاهر سماه الله تعالى باسمه فقال ما كذب الفؤاد ما رأى سمى ادراك الفؤاد رؤية وكذلك قوله تعالى وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والارض وما أراد به الرؤية الظاهرة فان ذلك غير مخصوص بابراهيم عليه السلام حتى يعرض في معرض الامتنان ولذلك سمى ضد ادراكه عمى فقال تعالى فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور وقال تعالى ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا فهذا بيان العلم العقلي * أما العلوم الدينية فهي المأخوذة بطريق التقليد من الانبياء صلوات الله عليهم وسلامه وذلك يحصل بالتعلم لكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وفهم معانيهما بعد السماع وبه كمال صفة القلب وسلامته عن الادواء والامراض فالعلوم العقلية غير كافية في سلامة القلب وان كان محتاجا اليها كما أن العقل غير كاف في استدامة صحة أسباب البدن بل يحتاج الى معرفة خواص الادوية والعقاقير بطريق التعلم من

ذلك الا أن العزة تشتبه بالكبر من حيث الصورة وتختلف من حيث الحقيقة كاشتباه التواضع بالضعة والتواضع محمود والضعة مذمومة والكبر مذموم والعزة محمودة قال الله تعالى ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين والعزة غير الكبر ولا يحل للمؤمن أن يذل نفسه فالعزة معرفة الانسان بحقيقة نفسه واكرامها أن لا يضعها لاغراض عاجلة دنيوية كما أن الكبر جهل الانسان بنفسه وانزالها فوق منزلتها (قال بعضهم) للحسن ما أعظمك في نفسك قال لست بعظيم ولكني عزيز ولما كانت العزة غير مذمومة وفيها مشاكلة بالكبر قال الله تعالى تستكبرون في الارض بغير الحق فيه اشارة خفية لاثبات العزة بالحق فالوقوف على حد التواضع من غير انحراف الى الضعة ووقوف على صراط العزة المنصوب على

الاطباء اذ مجرد العقل لا يهتدى اليه ولكن لا يمكن فهمه بعد سماعه الا بالعقل فلا غنى بالعقل عن السماع ولا غنى بالسماع عن العقل فالداعى الى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل والمكتفى بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنة مغرور فاياك أن تكون من أحد الفريقين وكن جامعا بين الاصلين فان العلوم العقلية كالاغذية والعلوم الشرعية كالادوية والشخص المريض يستضر بالغذاء متى فاته الدواء فكذلك أمراض القلوب لا يمكن علاجها الا بالادوية المستفادة من الشريعة وهى وظائف العبادات والاعمال التى ركبها الانبياء صلوات الله عليهم لاصلاح القلوب فمن لا يداوى قلبه المريض بمعالجات العبادة الشرعية واكتفى بالعلوم العقلية استضر بها كما يستضر المريض بالغذاء وظن من يظن أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية وأن الجمع بينهما غير ممكن هو ظن صادر عن عمى فى عين البصيرة نعوذ بالله منه بل هذا القائل ربما يناقض عنده بعض العلوم الشرعية لبعض فيعجز عن الجمع بينهما فيظن أنه تناقض فى الدين فيتحير به فينسل من الدين انسلال الشعرة من العجين وانما ذلك لان عجزه فى نفسه خيل اليه نقصا فى الدين وهيهات وانما مثاله مثال الاعمى الذى دخل دار قوم فتعثر فيها بأوانى الدار فقال لهم ما بال هذه الاوانى تركت على الطريق لم لا ترد الى مواضعها فقالوا له تلك الاوانى فى مواضعها وانما أنت لست تهتدى للطريق لعماك فالعجب منك أنك لا تحيل عثرتك على عماك وانما تحيلها على تقصير غيرك فهذه نسبة العلوم الدينية الى العلوم العقلية والعلوم العقلية تنقسم الى دنيوية وأخروية فالدنيوية كعلم الطب والحساب والهندسة والنجوم وسائر الحرف والصناعات والاخروية كعلم أحوال القلب وآفات الاعمال والعلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله كما فصلنا فى كتاب العلم وهما علمان متنافيان أعنى أن من صرف عنايته الى أحدهما حتى تعمق فيه قصرت بصيرته عن الآخر على الاكثر ولذلك ضرب على رضى الله عنه للدنيا والآخرة ثلاثة أمثلة فقال هما ككفتى الميزان وكالمشرق والمغرب وكالضرتين اذا أرضيت احداهما أسخطت الاخرى ولذلك ترى الاكياس فى أمور الدنيا وفى علم الطب والحساب والهندسة والفلسفة جهالا فى أمور الآخرة والاكياس فى دقائق علوم الآخرة جهالا فى أكثر علوم الدنيا لان قوة العقل لا تفى بالامرين جميعا فى الغالب فيكون أحدهما مانعا من الكمال فى الثانى ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ان أكثر أهل الجنة البله أى البله فى أمور الدنيا وقال الحسن فى بعض مواعظه لقد أدركنا أقواما لو رأيتموهم لقلتم مجانين ولو أدركوكم لقالوا شياطين فمهما سمعت أمرا غريبا من أمور الدين جحده أهل الكياسة فى سائر العلوم فلا يغرنك جحودهم عن قبوله اذ من المحال أن يظفر سالك طريق المشرق بما يوجد فى المغرب فكذلك يجرى أمر الدنيا والآخرة ولذلك قال تعالى ان الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها الآية وقال تعالى يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون وقال عز وجل فاعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم فالجمع بين كمال الاستبصار فى مصالح الدنيا والدين لا يكاد يتيسر الا لمن رسخه الله لتدبير عباده فى معاشهم ومعادهم وهم الانبياء المؤيدون بروح القدس المستمدون من القوة الالهية التى تتسع لجميع الامور ولا تضيق عنها فاما قلوب سائر الخلق فانها اذا استقلت بأمر الدنيا انصرفت عن الآخرة وقصرت عن الاستكمال فيها

(بيان الفرق بين الالهام والتعلم والفرق بين طريق الصوفية فى استكشاف الحق وطريق النظار)

اعلم أن العلوم التى ليست ضرورية وانما تحصل فى القلب فى بعض الاحوال تختلف الحال فى حصولها فتارة تهجم على القلب كأنه ألقى فيه من حيث لا يدرى وتارة تكتسب بطريق الاستدلال والتعلم فالذى يحصل لا بطريق الاكتساب وحيلة الدليل يسمى الهاما والذى يحصل بالاستدلال يسمى اعتبارا واستبصارا ثم الواقع فى القلب بغير حيلة وتعلم واجتهاد من العبد ينقسم الى ما لا يدرى العبد أنه كيف حصل له ومن أين حصل والى ما يطلع معه على السبب الذى منه استفاد ذلك العلم وهو مشاهدة الملك الملقى فى القلب والاول يسمى الهاما ونفثا فى الروع والثانى يسمى وحيا وتختص به الانبياء والاول يختص به الاولياء والاصفياء والذى قبله وهو المكتسب بطريق الاستدلال يختص به العلماء وحقيقة القول فيه أن القلب مستعد لان تنجلى فيه حقيقة الحق فى الاشياء كلها وانما

متن نار الكبر ولا يؤيد فى ذلك ولا يثبت عليه الاقدام العلماء الراسخين والسادة المقربين ورؤساء الابدال والصديقين (قال بعضهم) من تكبر فقد أخبر عن نذالة نفسه ومن تواضع فقد أظهر كرم طبعه (وقال الترمذى) التواضع على ضربين الاول أن يتواضع العبد لامر الله ونهيه فان النفس لطلب الراحة تتلهى عن أمره والشهوة التى فيها تهوى فى نهيه فاذا وضع نفسه لامره ونهيه فهو تواضع والثانى أن يضع نفسه لعظمة الله فان اشتهت نفسه شيأ مما أطلق له من كل نوع من الانواع منعها ذلك وجملة ذلك أن يترك مشيئته لمشيئة الله تعالى *واعلم أن العبد لا يبلغ حقيقة التواضع الا عند لمعان نور المشاهدة فى قلبه فعند ذلك تذوب النفس وفى ذوبانها صفاؤها من غش الكبر

حيل

حيل بينه و بينها بالاسباب الحسية التى سبق ذكرها فهى كالحجاب المسدل الحائل بين مرآة القلب و بين اللوح
المحفوظ الذى هو منقوش بجميع ماقضى الله به الى يوم القيامة وتجلى حقائق العلوم من مرآة اللوح فى مرآة
القلب يضاهى انطباع صورة من مرآة فى مرآة تقابلها والحجاب بين المرآتين تارة يزال باليد وأخرى يزول بهبوب
الرياح تحركه وكذلك قد تهب رياح الالطاف وتنكشف الحجب عن أعين القلوب فينجلى فيها بعض ماهو مسطور فى
اللوح المحفوظ ويكون ذلك تارة عند المنام فيعلم به مايكون فى المستقبل وتمام ارتفاع الحجاب بالموت فبه ينكشف
الغطاء وينكشف أيضا فى اليقظة حتى يرتفع الحجاب بلطف خفى من الله تعالى فيلمع فى القلوب من وراء ستر الغيب
شئ من غرائب العلم تارة كالبرق الخاطف وأخرى على التوالى الى حد ما ودوامه فى غاية الندور فلم يفارق الالهام
الاكتساب فى نفس العلم ولا فى محله ولا فى سببه ولكن يفارقه من جهة زوال الحجاب فان ذلك ليس باختيار العبد
ولم يفارق الوحى الالهام فى شئ من ذلك بل فى مشاهدة الملك المفيد للعلم فان العلم انما يحصل فى قلوبنا بواسطة
الملائكة واليه الاشارة بقوله تعالى وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى
باذنه مايشاء فاذا عرفت هذا فاعلم أن ميل أهل التصوف الى العلوم الالهامية دون التعليمية فلذلك لم يحرصوا على
دراسة العلم وتحصيل ماصنفه المصنفون والبحث عن الاقاويل والادلة المذكورة بل قالوا الطريق تقديم المجاهدة
ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى ومهما حصل ذلك كان الله هو
المتولى لقلب عبده والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم واذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة وأشرق النور فى
القلب وانشرح الصدر وانكشف له سر الملكوت وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة وتلألأت
فيه حقائق الامور الالهية فليس على العبد الا الاستعداد بالتصفية المجردة واحضار الهمة مع الارادة الصادقة
والتعطش التام والترصد بدوام الانتظار بما يفتحه الله تعالى من الرحمة فالانبياء والاولياء انكشف لهم الامر
وفاض على صدورهم النور لا بالتعلم والدراسة والكتابة للكتب بل بالزهد فى الدنيا والتبرى من علائقها وتفريغ
القلب من شواغلها والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى فمن كان لله كان الله له وزعموا أن الطريق فى ذلك أولا
بانقطاع علائق الدنيا بالكلية وتفريغ القلب منها وبقطع الهمة عن الاهل والمال والولد والوطن وعن العلم
والولاية والجاه بل يصير قلبه الى حالة يستوى فيها وجود كل شئ وعدمه ثم يخلو بنفسه فى زاوية مع الاقتصار على
الفرائض والرواتب ويجلس فارغ القلب مجموع الهم ولا يفرق فكره بقراءة قرآن ولا بالتأمل فى تفسير ولا
بكتب حديث ولا غيره بل يجتهد أن لا يخطر بباله شئ سوى الله تعالى فلا يزال بعد جلوسه فى الخلوة قائلا بلسانه
الله الله على الدوام مع حضور القلب حتى ينتهى الى حالة يترك تحريك اللسان ويرى كان الكلمة جارية على
لسانه ثم يصبر عليه الى أن يمحى أثره عن اللسان ويصادف قلبه مواظبا على الذكر ثم يواظب عليه الى أن يمحى عن
القلب صورة اللفظ وحروفه وهيئة الكلمة ويبقى معنى الكلمة مجردا فى قلبه حاضرا فيه كأنه لازم له لا يفارقه وله
اختيار الى أن ينتهى الى هذا الحد واختيار فى استدامة هذه الحالة بدفع الوسواس وليس له اختيار فى استجلاب
رحمة الله تعالى بل هو بما فعله صار متعرضا لنفحات رحمة الله فلا يبقى الا الانتظار لما يفتح الله من الرحمة كما فتحها
على الانبياء والاولياء بهذه الطريق وعند ذلك اذا صدقت ارادته وصفت همته وحسنت مواظبته فلم تجاذبه
شهواته ولم يشغله حديث النفس بعلائق الدنيا تلمع لوامع الحق فى قلبه ويكون فى ابتدائه كالبرق الخاطف لا يثبت
ثم يعود وقد يتأخر وان عاد فقد يثبت وقد يكون مختطفا وان ثبت قد يطول ثباته وقد لا يطول وقد يتظاهر
أمثاله على التلاحق وقد يقتصر على فن واحد ومنازل أولياء الله تعالى فيه لا تنحصر كما لا يحصى تفاوت خلقهم
وأخلاقهم وقد رجع هذا الطريق الى تطهير محض من جانبك وتصفية وجلاء ثم استعداد وانتظار فقط وأما
النظار وذوو الاعتبار فلم ينكروا وجود هذا الطريق وامكانه وافضاءه الى هذا المقصد على الندور فانه أكثر
أحوال الانبياء والاولياء ولكن استوعروا هذا الطريق واستبطؤا ثمرته واستبعدوا استجماع شروطه وزعموا أن
محو العلائق الى ذلك الحد كالمتعذر وان حصل فى حال فثباته أبعد منه اذ أدنى وسواس وخاطر يشوش القلب
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم القلب المؤمن أشد تقلبا من القدر فى غليانها وقال عليه أفضل الصلاة والسلام

والعجب فتلين وتطيع
للحق والخلق لمحو
آثارها وسكون وهجها
وغبارها * وكان الحظ
الاوفر من التواضع لنبينا
عليه السلام فى أوطان
القرب كما روى عن
عائشة رضى الله عنها فى
الحديث الطويل قالت
فقدت رسول الله صلى الله
عليه وسلم ذات ليلة
فأخذنى ما يأخذ النساء
من الغيرة ظنا منى أنه عند
بعض أزواجه فطلبته
فى حجر نسائه فلم أجده
فوجدته فى المسجد
ساجدا كالثوب الخلق
وهو يقول فى سجوده
سجد لك سوادى وخيالى
وآمن بك فؤادى وأقر
بك لسانى وها أنا ذا بين
يديك ياعظيم ياغافر
الذنب العظيم وقوله
عليه السلام سجد لك
سوادى وخيالى
استقصاء فى التواضع
بمحو آثار الوجود حيث
لم تتخلف ذرة منه عن
السجود ظاهرا وباطنا

قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن وفى أثناء هذه المجاهدة قد يفسد المزاج ويختلط العقل و يمرض البدن واذا لم تتقدم رياضة النفس وتهذيبها بحقائق العلوم نشبت بالقلب خيالات فاسدة تطمئن النفس اليها مدة طويلة الى أن يزول و ينقضى العمر قبل النجاح فيها فكم من صوفى سلك هذا الطريق ثم بقى فى خيال واحد عشرين سنة ولو كان قد أتقن العلم من قبل لانفتح له وجه التباس ذلك الخيال فى الحال فالاشتغال بطريق التعلم أوثق وأقرب الى الغرض و زعموا أن ذلك يضاهى مالو ترك الانسان تعلم الفقه و زعم أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يتعلم ذلك وصار فقيها بالوحى والالهام من غير تكرير وتعليق فأنا أيضا ربما انتهت بى الرياضة والمواظبة اليه ومن ظن ذلك فقد ظلم نفسه وضيع عمره بل هو كمن يترك طريق الكسب والحراثة رجاء العثور على كنز من الكنوز فان ذلك ممكن ولكنه بعيد جدا فكذلك هذا وقالوا لابد أولا من تحصيل ما حصله العلماء وفهم ما قالوه ثم لا بأس بعد ذلك بالانتظار لما لم ينكشف لسائر العلماء فعساه ينكشف بعد ذلك بالمجاهدة

﴿ بيان الفرق بين المقامين بمثال محسوس ﴾

اعلم أن عجائب القلب خارجة عن مدركات الحواس لان القلب أيضا خارج عن ادراك الحس وماليس مدركا بالحواس تضعف الافهام عن دركه الا بمثال محسوس ونحن نقرب ذلك الى الافهام الضعيفة بمثالين * أحدهما أنه لو فرضنا حوضا محفورا فى الارض احتمل أن يساق اليه الماء من فوقه بأنهار تفتح فيه و يحتمل أن يحفر أسفل الحوض و يرفع منه التراب الى أن يقرب من مستقر الماء الصافى فينفجر الماء من أسفل الحوض و يكون ذلك الماء أصفى وأدوم وقد يكون أغزر وأكثر فذلك القلب مثل الحوض والعلم مثل الماء وتكون الحواس الخمس مثل الانهار وقد يمكن أن تساق العلوم الى القلب بواسطة أنهار الحواس والاعتبار بالمشاهدات حتى يمتلئ علما و يمكن أن تسد هذه الانهار بالخلوة والعزلة وغض البصر و يعمد الى عمق القلب بتطهيره و رفع طبقات الحجب عنه حتى تنفجر ينابيع العلم من داخله فان قلت فكيف يتفجر العلم من ذات القلب وهو خال عنه فاعلم أن هذا من عجائب أسرار القلب ولا يسمح بذكره فى علم المعاملة بل القدر الذى يمكن ذكره أن حقائق الاشياء مسطورة فى اللوح المحفوظ بل فى قلوب الملائكة المقربين فكما أن المهندس يصور أبنية الدار فى بياض ثم يخرجها الى الوجود على وفق تلك النسخة فكذلك فاطر السموات والارض كتب نسخة العالم من أوله الى آخره فى اللوح المحفوظ ثم أخرجه الى الوجود على وفق تلك النسخة والعالم الذى خرج الى الوجود بصورته تتأدى منه صورة أخرى الى الحس والخيال فان من ينظر الى السماء والارض ثم يغض بصره يرى صورة السماء والارض فى خياله حتى كأنه ينظر اليها ولو انعدمت السماء والارض و بقى هو فى نفسه لوجد صورة السماء والارض فى نفسه كأنه يشاهدهما و ينظر اليهما ثم يتأدى من خياله أثر الى القلب فيحصل فيه حقائق الاشياء التى دخلت فى الحس والخيال والحاصل فى القلب موافق للعالم الحاصل فى الخيال والحاصل فى الخيال موافق للعالم الموجود فى نفسه خارجا من خيال الانسان وقلبه والعالم الموجود موافق للنسخة الموجودة فى اللوح المحفوظ فكان للعالم أربع درجات فى الوجود وجود فى اللوح المحفوظ وهو سابق على وجوده الجسمانى و يتبعه وجوده الحقيقى و يتبع وجوده الحقيقى وجوده الخيالى أعنى وجود صورته فى الخيال و يتبع وجوده الخيالى وجوده العقلى أعنى وجود صورته فى القلب و بعض هذه الوجودات روحانية و بعضها جسمانية والروحانية بعضها أشد روحانية من البعض وهذا اللطف من الحكمة الالهية اذ جعل حدقتك على صغر حجمها بحيث ينطبع فيها صورة العالم السموات والارض على اتساع أكنافها ثم يسرى من وجودها فى الحس وجود الى الخيال ثم منه وجود فى القلب فانك أبدا لاتدرك الا ما هو واصل اليك فلو لم يجعل للعالم كله مثالا فى ذاتك لما كان لك خبر مما يباين ذاتك فسبحان من دبر هذه العجائب فى القلوب والابصار ثم أعمى عن دركها القلوب والابصار حتى صارت قلوب أكثر الخلق جاهلة بأنفسها و بعجائبها ولنرجع الى الغرض المقصود فنقول القلب قد يتصور أن يحصل فيه حقيقة العالم وصورته تارة من الحواس وتارة من اللوح المحفوظ كما أن العين يتصور أن يحصل فيها صورة الشمس تارة من النظر اليها وتارة من النظر الى الماء الذى يقابل الشمس و يحكى صورتها فهما ارتفع الحجاب بينه و بين اللوح المحفوظ

ومتى لم يكن للصوفى حظ من التواضع الخاص على بساط القرب لايتوفر حظه من التواضع للخلق وهذه سعادات ان أقبلت جاءت بكليتها والتواضع من أشرف أخلاق الصوفية (ومن أخلاق الصوفية) المداراة واحتمال الاذى من الخلق وبلغ من مداراة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه وجد قتيلا من أصحابه بين اليهود فلم يحف عليهم ولم يزد على مر الحق بل وداه بمائة ناقة من قبله وان بأصحابه لحاجة الى بعير واحد يتقوون به * وكان من حسن مداراته أن لايذم طعاما ولاينهر خادما (أخبرنا) الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب ابن على قال أنا أبو الفتح الكرخى قال أنا أبو نصر الترياقى قال أنا الجراحى قال أنا أبو العباس المحبوبى قال أنا أبو عيسى الترمذى

رأى الاشياء فيه وتفجر اليه العلم منه فاستغنى عن الاقتباس من داخل الحواس فيكون ذلك كتفجر الماء من عمق الارض ومهما أقبل على الخيالات الحاصلة من المحسوسات كان ذلك حجابا له عن مطالعة اللوح المحفوظ كما أن الماء اذا اجتمع فى الانهار منع ذلك من التفجر فى الارض وكما أن من نظر الى الماء الذى يحكى صورة الشمس لايكون ناظرا الى نفس الشمس فاذا القلب بابان باب مفتوح الى عالم الملكوت وهو اللوح المحفوظ وعالم الملائكة وباب مفتوح الى الحواس الخمس المتمسكة بعالم الملك والشهادة وعالم الشهادة والملك أيضا يحاكى عالم الملكوت نوعا من المحاكاة فاما انفتاح باب القلب الى الاقتباس من الحواس فلايخفى عليك وأما انفتاح بابه الداخل الى عالم الملكوت ومطالعة اللوح المحفوظ فتعلمه علما يقينا بالتأمل فى عجائب الرؤيا واطلاع القلب فى النوم على ماسيكون فى المستقبل أوكان فى الماضى من غير اقتباس من جهة الحواس وانما ينفتح ذلك الباب لمن انفرد بذكر الله تعالى وقال صلى الله عليه وسلم سبق المفردون قيل ومن هم المفردون يارسول الله قال المتنزهون بذكر الله تعالى وضع الذكر عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خفافا ثم قال فى وصفهم اخبارا عن الله تعالى ثم أقبل بوجهى عليهم أترى من واجهته بوجهى يعلم أحد أى شئ أريد أن أعطيه ثم قال تعالى أول ما أعطيهم أن أقذف النور فى قلوبهم فيخبرون عنى كما أخبر عنهم ومدخل هذه الاخبار هو الباب الباطن فاذا الفرق بين علوم الاولياء والانبياء وبين علوم العلماء والحكماء هذا وهو أن علومهم تأتى من داخل القلب من الباب المنفتح الى عالم الملكوت وعلم الحكمة يأتى من أبواب الحواس المفتوحة الى عالم الملك وعجائب عالم القلب وتردده بين عالمى الشهادة والغيب لايمكن أن يستقصى فى علم المعاملة فهذا مثال يعلمك الفرق بين مدخل العالمين * المثال الثانى يعرفك الفرق بين العملين أعنى عمل العلماء وعمل الاولياء فان العلماء يعملون فى اكتساب نفس العلوم واجتلابها الى القلب وأولياء الصوفية يعملون فى جلاء القلب وتطهيرها وتصفيتها وتصقيلها فقط فقد حكى أن أهل الصين وأهل الروم تباهوا بين يدى بعض الملوك بحسن صناعة النقش والصور فاستقر رأى الملك على أن يسلم اليهم صفة لينقش أهل الصين منها جانبا وأهل الروم جانبا ويرخى بينهما حجاب يمنع اطلاع كل فريق عن الآخر ففعل ذلك فجمع أهل الروم من الاصباغ الغريبة مالاينحصر ودخل أهل الصين من غير صبغ وأقبلوا يجلون جانبهم ويصقلونه فلما فرغ أهل الروم ادعى أهل الصين أنهم قد فرغوا أيضا فعجب الملك من قولهم وأنهم كيف فرغوا من النقش من غير صبغ فقيل وكيف فرغتم من غير صبغ فقالوا ماعليكم ارفعوا الحجاب فرفعوا واذا بجانبهم يتلألأ منه عجائب الصنائع الرومية مع زيادة اشراق وبريق اذ كان قد صار كالمرآة المجلوة لكثرة التصقيل فازداد حسن جانبهم بمزيد التصقيل فكذلك عناية الاولياء بتطهير القلب وجلائه وتزكيته وصفائه حتى يتلألأ فيه جلية الحق بنهاية الاشراق كفعل أهل الصين وعناية الحكماء والعلماء بالاكتساب ونقش العلوم وتحصيل نقشها فى القلب كفعل أهل الروم فكيفما كان الامر فقلب المؤمن لايموت وعلمه عند الموت لايمحى وصفاؤه لايتكدر واليه أشار الحسن رحمة الله عليه بقوله التراب لايأكل محل الايمان بل يكون وسيلة وقربة الى الله تعالى وأما ما حصله من نفس العلم وما حصله من الصفاء والاستعداد لقبول نفس العلم فلاغنى به عنه ولاسعادة لاحد الا بالعلم والمعرفة وبعض السعادات أشرف من بعض كما أنه لاغنى الا بالمال فصاحب الدرهم غنى وصاحب الخزائن المترعة غنى وتفاوت درجات السعداء بحسب تفاوت المعرفة والايمان كما تتفاوت درجات الاغنياء بحسب قلة المال وكثرته فالمعارف أنوار ولايسعى المؤمنون الى لقاء الله تعالى الا بانوارهم قال الله تعالى يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم وقد روى فى الخبر ان بعضهم يعطى نورا مثل الجبل وبعضهم أصغر حتى يكون آخرهم رجلا يعطى نورا على ابهام قدميه فيضئ مرة وينطفئ أخرى فاذا أضاء قدم قدمه فمشى واذا طفئ قام ومرورهم على الصراط على قدر نورهم فمنهم من يمر كطرف العين ومنهم من يمر كالبرق ومنهم من يمر كالسحاب ومنهم من يمر كانقضاض الكواكب ومنهم من يمر كالفرس اذا اشتد فى ميدانه والذى أعطى نورا على ابهام قدمه يحبو حبوا على وجهه ويديه ورجليه يجر يدا ويعلق أخرى ويصيب جوانبه النار فلايزال كذلك حتى يخلص الحديث فبهذا يظهر تفاوت الناس فى الايمان ولو وزن ايمان أبى بكر بايمان العالمين سوى النبيين والمرسلين لرجح فهذا أيضا يضاهى قول القائل لو وزن نور الشمس بنور السرج كلها لرجح فايمان آحاد العوام نوره مثل نور

قال حدثنا قتيبة قال ثنا جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس قال خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لى أف قط وما قال لشئ صنعته لم صنعته ولا لشئ تركته لم تركته وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحسن الناس خلقا وما مسست خزا قط ولا حريرا ولا شيأ كان ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا شممت مسكا قط ولا عطرا كان أطيب من عرق رسول الله صلى الله عليه وسلم فالمداراة مع كل أحد من الاهل والاولاد والجيران والاصحاب والخلق كافة من أخلاق الصوفية وباحتمال الاذى يظهر جوهر النفس وقد قيل لكل شئ جوهر وجوهر الانسان العقل وجوهر العقل الصبر (أخبرنا) أبو زرعة طاهر عن أبيه الحافظ المقدسى قال أنا أبو محمد

السراج و بعضهم نوره كنور الشمع وايمان الصديقين كنور القمر والنجوم وايمان الانبياء كالشمس وكما ينكشف فى نور الشمس صورة الآفاق مع اتساع أقطارها ولا ينكشف فى نور السراج الازاوية ضيقة من البيت فكذلك تفاوت انشراح الصدر بالمعارف وانكشاف الملكوت لقلوب العارفين ولذلك جاء فى الخبر أنه يقال يوم القيامة أخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من ايمان ونصف مثقال وربع مثقال وشعيرة وذرة كل ذلك تنبيه على تفاوت درجات الايمان وان هذه المقادير من الايمان لا تمنع دخول النار وفى مفهومه ان من ايمانه يزيد على مثقال فانه لا يدخل النار اذ لو دخل لامر باخراجه أولا وأن من فى قلبه مثقال ذرة لا يستحق الخلود فى النار وان دخلها وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم ليس شئ خيرا من ألف مثله الا الانسان المؤمن اشارة الى تفضيل قلب العارف بالله تعالى الموقن فانه خير من ألف قلب من العوام وقد قال تعالى وأنتم الاعلون ان كنتم مؤمنين تفضيلا للمؤمنين على المسلمين والمراد به المؤمن العارف دون المقلد وقال عز وجل يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات فاراد ههنا بالذين آمنوا الذين صدقوا من غير علم وميزهم عن الذين أوتوا العلم و يدل ذلك على ان اسم المؤمن يقع على المقلد وان لم يكن تصديقه عن بصيرة وكشف وفسر ابن عباس رضى الله عنهما قوله تعالى والذين أوتوا العلم درجات فقال يرفع الله العالم فوق المؤمن بسبعمائة درجة بين كل درجتين كما بين السماء والارض وقال صلى الله عليه وسلم أكثر أهل الجنة البله وعليون لذوى الالباب وقال صلى الله عليه وسلم فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابى وفى رواية كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب فبهذه الشواهد يتضح لك تفاوت درجات أهل الجنة بحسب تفاوت قلوبهم ومعارفهم ولهذا كان يوم القيامة يوم التغابن اذ المحروم من رحمة الله عظيم الغبن والخسران والمحروم يرى فوق درجته درجات عظيمة فيكون نظره اليها كنظر الغنى الذى يملك عشرة دراهم الى الغنى الذى يملك الارض من المشرق الى المغرب وكل واحد منهما غنى ولكن ما أعظم الفرق بينهما وما أعظم الغبن على من يخسر حظه من ذلك وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا

﴿ بيان شواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف فى اكتساب المعرفة لا من التعلم ولا من الطريق المعتاد ﴾

اعلم أن من انكشف له شئ ولو الشئ اليسير بطريق الالهام والوقوع فى القلب من حيث لا يدرى فقد صار عارفا بصحة الطريق ومن لم يدرك ذلك من نفسه قط فينبغى أن يؤمن به فان درجة المعرفة فيه عزيزة جدا ويشهد لذلك شواهد الشرع والتجارب والحكايات أما الشواهد فقوله تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا فكل حكمة تظهر من القلب بالمواظبة على العبادة من غير تعلم فهو بطريق الكشف والالهام وقال صلى الله عليه وسلم من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم ووفقه فيما يعمل حتى يستوجب الجنة ومن لم يعمل بما يعلم تاه فيما يعلم ولم يوفق فيما يعمل حتى يستوجب النار وقال الله تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجا من الاشكالات والشبه ويرزقه من حيث لا يحتسب يعلمه علما من غير تعلم ويفطنه من غير تجربة وقال تعالى يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا قيل نورا يفرق به بين الحق والباطل ويخرج به من الشبهات ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يكثر فى دعائه من سؤال النور فقال عليه الصلاة والسلام اللهم أعطنى نورا وزدنى نورا واجعل لى فى قلبى نورا وفى قبرى نورا وفى سمعى نورا وفى بصرى نورا حتى قال فى شعرى وفى بشرى وفى لحمى ودمى وعظامى وسئل صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه ما هذا الشرح فقال هو التوسعة ان النور اذا قذف به فى القلب اتسع له الصدر وانشرح وقال صلى الله عليه وسلم لابن عباس اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل وقال على رضى الله عنه ما عندنا شئ أسره النبى صلى الله عليه وسلم الينا الا أن يؤتى الله تعالى عبدا فهما فى كتابه وليس هذا بالتعلم وقيل فى تفسير قوله تعالى يؤتى الحكمة من يشاء انه الفهم فى كتاب الله تعالى وقال تعالى ففهمناها سليمان خص ما انكشف باسم الفهم وكان أبو الدرداء يقول المؤمن من ينظر بنور الله من وراء ستر رقيق والله انه للحق يقذفه الله فى قلوبهم ويجريه على ألسنتهم وقال بعض السلف ظن المؤمن كهانة وقال صلى الله عليه وسلم اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله تعالى واليه يشير قوله تعالى ان فى ذلك لآيات للمتوسمين وقوله تعالى قد

الصريفينى قال أنا أبو القاسم عبيد الله بن حبابة قال أنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز قال حدثنا على ابن الجعد قال أنا شعبة عن الاعمش عن يحيى ابن وثاب عن شيخ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت من هو قال ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال المؤمن الذى يعاشر الناس و يصبر على أذاهم خير من الذى لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم (وفى الخبر) أيعجز أحدكم أن يكون كابى ضمضم قيل ماذا كان يصنع أبو ضمضم قال كان اذا أصبح قال اللهم انى تصدقت اليوم بعرضى على من ظلمنى فمن ضربنى لا أضربه ومن شتمنى لا أشتمه ومن ظلمنى لا أظلمه (وأخبرنا) ضياء الدين عبد الوهاب قال أنا أبو الفتح الهروى قال حدثنا الترياقى قال أنا الجراحى قال أنا

بينا الآيات لقوم يوقنون وروى الحسن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال العلم علمان فعلم باطن في القلب فذلك هو العلم النافع وسئل بعض العلماء عن العلم الباطن ما هو فقال هو سر من أسرار الله تعالى يقذفه الله تعالى في قلوب أحبابه لم يطلع عليه ملكا ولا بشرا وقد قال صلى الله عليه وسلم ان من أمتي محدثين ومعلمين ومكلمين وان عمر منهم وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا محدث يعني الصديقين والمحدث هو الملهم والملهم هو الذي انكشف له في باطن قلبه من جهة الداخل لا من جهة المحسوسات الخارجة والقرآن مصرح بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف وذلك علم من غير تعلم وقال الله تعالى وما خلق الله في السموات والارض لآيات لقوم يتقون خصصها بهم وقال تعالى هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين وكان أبو يزيد وغيره يقول ليس العالم الذي يحفظ من كتاب فاذا نسي ما حفظه صار جاهلا انما العالم الذي يأخذ علمه من ربه أي وقت شاء بلا حفظ ولا درس وهذا هو العلم الرباني واليه الاشارة بقوله تعالى وعلمناه من لدنا علما مع أن كل علم من لدنه ولكن بعضها بوسائط تعليم الخلق فلا يسمى ذلك علما لدنيا بل اللدني الذي ينفتح في سر القلب من غير سبب مألوف من خارج فهذه شواهد النقل ولو جمع كل ما ورد فيه من الآيات والاخبار والآثار لخرج عن الحصر * واما مشاهدة ذلك بالتجارب فذلك أيضا خارج عن الحصر وظهر ذلك على الصحابة والتابعين ومن بعدهم وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لعائشة رضي الله عنها عند موته انما هما أخواك وأختاك وكانت زوجته حاملا فولدت بنتا فكان قد عرف قبل الولادة أنها بنت وقال عمر رضي الله عنه في أثناء خطبته ياسارية الجبل الجبل اذ انكشف له أن العدو قد أشرف عليه فحذره لمعرفته ذلك ثم بلوغ صوته اليه من جملة الكرامات العظيمة * وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال دخلت على عثمان رضي الله عنه وكنت قد لقيت امرأة في طريقي فنظرت اليها شزرا وتأملت محاسنها فقال عثمان رضي الله عنه لما دخلت يدخل على أحدكم وأثر الزنا ظاهر على عينيه أما علمت أن زنا العينين النظر لتتوبن أو لاعزرنك فقلت أوحي بعد النبي فقال لا ولكن بصيرة وبرهان وفراسة صادقة * وعن أبي سعيد الخراز قال دخلت المسجد الحرام فرأيت فقيرا عليه خرقتان فقلت في نفسي هذا وأشباهه كل على الناس فناداني وقال والله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه فاستغفرت الله في سري فناداني وقال وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ثم غاب عني ولم أره وقال زكريا بن داود دخل أبو العباس بن مسروق على أبي الفضل الهاشمي وهو عليل وكان ذا عيال ولم يعرف له سبب يعيش به قال فلما قمت قلت في نفسي من أين يأكل هذا الرجل قال فصاح بي يا أبا العباس رد هذه الهمة الدنية فان لله تعالى ألطافا خفية وقال أحمد النقيب دخلت على الشبلي فقال مفتونا يا أحمد فقلت ما الخبر قال كنت جالسا فجرى بخاطري انك بخيل فقلت ما أنا بخيل فعاد مني خاطري وقال بل أنت بخيل فقلت ما فتح اليوم على بشيء الا دفعته الى أول فقير يلقاني قال فما استتم الخاطر حتى دخل على صاحب لمؤنس الخادم ومعه خمسون دينارا فقال اجعلها في مصالحك قال وقمت فأخذتها وخرجت واذا بفقير مكفوف بين يدي مزين يحلق رأسه فتقدمت اليه وناولته الدنانير فقال اعطها المزين فقلت ان جملتها كذا وكذا قال أوليس قد قلنا لك انك بخيل قال فناولتها المزين فقال المزين قد عقدنا لما جلس هذا الفقير بين أيدينا أن لا نأخذ عليه أجرا قال فرميت بها في دجلة وقلت ما أعزك أحد الا أذله الله عز وجل وقال حمزة بن عبد الله العلوي دخلت على أبي الخير التيناني واعتقدت في نفسي أن أسلم عليه ولا آكل في داره طعاما فلما خرجت من عنده اذا به قد لحقني وقد حمل طبقا فيه طعام وقال يا فتى كل فقد خرجت الساعة من اعتقادك وكان أبو الخير التيناني هذا مشهورا بالكرامات وقال ابراهيم الرقي قصدته مسلما عليه فحضرت صلاة المغرب فلم يكد يقرأ الفاتحة مستويا فقلت في نفسي ضاعت سفرتي فلما سلم خرجت الى الطهارة فقصدني سبع فعدت الى أبي الخير وقلت قصدني سبع فخرج وصاح به وقال ألم أقل لك لا تتعرض لضيفاني فتنحى الاسد فتطهرت فلما رجعت قال لي اشتغلتم بتقويم الظاهر فخفتم الاسد واشتغلنا بتقويم البواطن فخافنا الاسد * وما حكي من تفرس المشايخ واخبارهم عن اعتقادات الناس وضمائرهم يخرج عن الحصر بل ما حكي عنهم من مشاهدة الخضر عليه السلام والسؤال منه ومن سماع صوت الهاتف ومن فنون الكرامات خارج عن الحصر والحكاية لا تنفع الجاحد ما لم يشاهد ذلك

المحبوبي قال أنا أبو عيسى الترمذي قال ثنا ابن أبي عمر قال ثنا سفيان عن محمد بن المنكدر عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا عنده فقال بئس ابن العشيرة أو أخو العشيرة ثم أذن له فألان له القول فلما خرج قلت يارسول الله قلت له ما قلت ثم ألنت له القول قال ياعائشة ان من شر الناس من يتركه الناس أو يدعه الناس اتقاء فحشه (وروى) أبو ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال اتق الله حيثما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن فما شيء يستدل به على قوة عقل الشخص ووفور علمه وحلمه كحسن المداراة والنفس لا تزال تشمئز ممن يعكس مرادها ويستفزها الغيظ والغضب وبالمداراة قطع حمة

من نفسه ومن أنكر الاصل أنكر التفصيل * والدليل القاطع الذى لا يقدر أحد على جحده أمران * أحدهما عجائب الرؤيا الصادقة فانه ينكشف بها الغيب واذا جاز ذلك فى النوم فلا يستحيل أيضا فى اليقظة فلم يفارق النوم اليقظة الا فى ركود الحواس وعدم اشتغالها بالمحسوسات فكم من مستيقظ غائص لا يسمع ولا يبصر لاشتغاله بنفسه * الثانى اخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيب وأمور فى المستقبل كما اشتمل عليه القرآن واذا جاز ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم جاز لغيره اذ النبى عبارة عن شخص كوشف بحقائق الامور وشغل باصلاح الخلق فلا يستحيل أن يكون فى الوجود شخص مكاشف بالحقائق ولا يشتغل باصلاح الخلق وهذا لا يسمى نبيا بل يسمى وليا فمن آمن بالانبياء وصدق بالرؤيا الصحيحة لزمه لا محالة أن يقر بأن القلب له بابان باب الى خارج وهو الحواس و باب الى الملكوت من داخل القلب وهو باب الالهام والنفث فى الروع والوحى فاذا أقر بهما جميعا لم يمكنه أن يحصر العلوم فى التعلم ومباشرة الاسباب المألوفة بل يجوز أن تكون المجاهدة سبيلا اليه فهذا مما ينبه على حقيقة ما ذكرناه من عجيب تردد القلب بين عالم الشهادة وعالم الملكوت وأما السبب فى انكشاف الامر فى المنام بالمثال المحوج الى التعبير وكذلك تمثل الملائكة للانبياء والاولياء بصور مختلفة فذلك أيضا من أسرار عجائب القلب ولا يليق ذلك الا بعلم المكاشفة فلنقتصر على ما ذكرناه فانه كاف للاستحثاث على المجاهدة وطلب الكشف منها فقد قال بعض المكاشفين ظهر لى الملك فسألنى أن أملى عليه شيأ من ذكرى الخفى عن مشاهدتى من التوحيد وقال ما نكتب لك عملا ونحن نحب أن نصعد لك بعمل تتقرب به الى الله عز وجل فقلت ألستما تكتبان الفرائض قالا بلى قلت فيكفيكما ذلك وهذه اشارة الى أن الكرام الكاتبين لا يطلعون على أسرار القلب وانما يطلعون على الاعمال الظاهرة وقال بعض العارفين سألت بعض الابدال عن مسألة من مشاهدة اليقين فالتفت الى شماله فقال ما تقول رحمك الله ثم التفت الى يمينه فقال ما تقول رحمك الله ثم أطرق الى صدره وقال ما تقول رحمك الله ثم أجاب بأغرب جواب سمعته فسألته عن التفاته فقال لم يكن عندى فى المسألة جواب عتيد فسألت صاحب الشمال فقال لا أدرى فسألت صاحب اليمين وهو أعلم منه فقال لا أدرى فنظرت الى قلبى وسألته فحدثنى بما أجبتك فاذا هو أعلم منهما وكان هذا هو معنى قوله عليه السلام ان فى أمتى محدثين وان عمر منهم وفى الاثر ان الله تعالى يقول أيما عبد اطلعت على قلبه فرأيت الغالب عليه التمسك بذكرى توليت سياسته وكنت جليسه ومحادثه وأنيسه وقال أبو سليمان الدارانى رحمة الله عليه القلب بمنزلة القبة المضروبة حولها أبواب مغلقة فأى باب فتح له عمل فيه فقد ظهر انفتاح باب من أبواب القلب الى جهة الملكوت والملا الاعلى و ينفتح ذلك الباب بالمجاهدة والورع والاعراض عن شهوات الدنيا ولذلك كتب عمر رضى الله عنه الى أمراء الاجناد احفظوا ما تسمعون من المطيعين فانهم ينجلى لهم أمور صادقة وقال بعض العلماء يد الله على أفواه الحكماء لا ينطقون الا بما هيأ الله لهم من الحق وقال آخر لو شئت لقلت ان الله تعالى يطلع الخاشعين على بعض سره

* بيان تسلط الشيطان على القلب بالوسواس ومعنى الوسوسة وسبب غلبتها *

اعلم أن القلب كما ذكرناه فى مثال قبة مضروبة لها أبواب تنصب اليه الاحوال من كل باب ومثاله أيضا مثال هدف تنصب اليه السهام من الجوانب أو هو مثال مرآة منصوبة تجتاز عليها أصناف الصور المختلفة فتتراءى فيها صورة بعد صورة ولا تخلو عنها أو مثال حوض تنصب فيه مياه مختلفة من أنهار مفتوحة اليه وانما مداخل هذه الآثار المتجددة فى القلب فى كل حال أما من الظاهر فالحواس الخمس وأما من الباطن فالخيال والشهوة والغضب والاخلاق المركبة من مزاج الانسان فانه اذا أدرك بالحواس شيأ حصل منه أثر فى القلب وكذلك اذا هاجت الشهوة مثلا بسبب كثرة الاكل و بسبب قوة فى المزاج حصل منها فى القلب أثر وان كف عن الاحساس فالخيالات الحاصلة فى النفس تبقى وينتقل الخيال من شئ الى شئ و بحسب انتقال الخيال ينتقل القلب من حال الى حال آخر والمقصود أن القلب فى التغير والتأثر دائما من هذه الاسباب وأخص الآثار الحاصلة فى القلب هو الخواطر وأعنى بالخواطر ما يحصل فيه من الافكار والاذكار وأعنى به ادراكاته علوما اما على سبيل التجدد واما على سبيل التذكر فانها تسمى خواطر من حيث انها تخطر بعد أن كان القلب غافلا عنها والخواطر هى المحركات للارادات

النفس ورد طيشها ونفورها * وقد ورد من كظم غيظا وهو يستطيع أن ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رؤس الخلائق حتى يخيره فى أى الحور شاء (وروى جابر) رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ألا أخبركم على من تحرم النار على كل هين لين سهل قريب (وروى) أبو مسعود الانصارى رضى الله عنه قال أتى النبى عليه السلام برجل فكلمه فارعد فقال هون عليك فانى لست بملك انما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد (وعن بعضهم) فى معنى لين جانب الصوفية
هينون لينون أيسار بنو يسر
سواس مكرمة أبناء أيسار
لا ينطقون عن الفحشاء ان نطقوا
ولا يمارون ان ماروا بإكثار

فان النية والعزم والارادة انما تكون بعد خطور المنوى بالبال لامحالة فمبدأ الافعال الخواطر ثم الخاطر يحرك الرغبة والرغبة تحرك العزم والعزم يحرك النية والنية تحرك الاعضاء والخواطر المحركة للرغبة تنقسم الى مايدعو الى الشر أعنى الى مايضر فى العاقبة والى مايدعو الى الخير أعنى الى ماينفع فى الدار الآخرة فهما خاطران مختلفان فافتقرا الى اسمين مختلفين فالخاطر المحمود يسمى الهاما والخاطر المذموم أعنى الداعى الى الشر يسمى وسواسا ثم انك تعلم أن هذه الخواطر حادثة ثم ان كل حادث فلابد له من محدث ومهما اختلفت الحوادث دل ذلك على اختلاف الاسباب هذا ما عرف من سنة الله تعالى فى ترتيب المسببات على الاسباب فهما استنارت حيطان البيت بنور النار وأظلم سقفه واسود بالدخان علمت أن سبب السواد غير سبب الاستنارة وكذلك لانوار القلب وظلماته سببان مختلفان فسبب الخاطر الداعى الى الخير يسمى ملكا وسبب الخاطر الداعى الى الشر يسمى شيطانا واللطف الذى يتهيأ به القلب لقبول الهام الخير يسمى توفيقا والذى به يتهيأ لقبول وسواس الشيطان يسمى اغواء وخذلانا فان المعانى المختلفة تفتقر الى أسامى مختلفة والملك عبارة عن خلق خلقه الله تعالى شأنه افاضة الخير وافادة العلم وكشف الحق والوعد بالخير والامر بالمعروف وقد خلقه وسخره لذلك والشيطان عبارة عن خلق شأنه ضد ذلك وهو الوعد بالشر والامر بالفحشاء والتخويف عند الهم بالخير بالفقر فالوسوسة فى مقابلة الالهام والشيطان فى مقابلة الملك والتوفيق فى مقابلة الخذلان واليه الاشارة بقوله تعالى ومن كل شئ خلقنا زوجين فان الموجودات كلها متقابلة مزدوجة الا الله تعالى فانه فرد لامقابل له بل هو الواحد الحق الخالق للازواج كلها فالقلب متجاذب بين الشيطان والملك وقد قال صلى الله عليه وسلم فى القلب لمتان لمة من الملك ايعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله سبحانه وليحمد الله ولمة من العدو ايعاد بالشر وتكذيب بالحق ونهى عن الخير فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم ثم تلا قوله تعالى الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء الآية وقال الحسن انما هما همان يجولان فى القلب هم من الله تعالى وهم من العدو فرحم الله عبدا وقف عند همه فما كان من الله تعالى أمضاه وما كان من عدوه جاهده ولتجاذب القلب بين هذين المسلطين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن فالله يتعالى عن أن يكون له أصبع مركبة من لحم وعظم ودم وعصب منقسمة بالانامل ولكن روح الاصبع سرعة التقليب والقدرة على التحريك والتغيير فانك لاتريد أصبعك لشخصه بل لفعله فى التقليب والترديد كما أنك تتعاطى الافعال بأصابعك والله تعالى يفعل مايفعل باستسخار الملك والشيطان وهما مسخران بقدرته فى تقليب القلوب كما أن أصابعك مسخرة لك فى تقليب الاجسام مثلا والقلب بأصل الفطرة صالح لقبول آثار الملك ولقبول آثار الشيطان صلاحا متساويا ليس يترجح أحدهما على الآخر وانما يترجح أحد الجانبين باتباع الهوى والاكباب على الشهوات أو الاعراض عنها ومخالفتها فان اتبع الانسان مقتضى الغضب والشهوة ظهر تسلط الشيطان بواسطة الهوى وصار القلب عش الشيطان ومعدنه لان الهوى هو مرعى الشيطان ومرتعه وان جاهد الشهوات ولم يسلطها على نفسه وتشبه بأخلاق الملائكة عليهم السلام صار قلبه مستقر الملائكة ومهبطهم ولما كان لايخلو قلب عن شهوة وغضب وحرص وطمع وطول أمل الى غير ذلك من صفات البشرية المتشعبة عن الهوى لاجرم لم يخل قلب عن أن يكون للشيطان فيه جولان بالوسوسة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم مامنكم من أحد الا وله شيطان قالوا وأنت يارسول الله قال وأنا الا أن الله أعاننى عليه فأسلم فلا يأمر الا بخير وانما كان هذا لان الشيطان لايتصرف الا بواسطة الشهوة فمن أعانه الله على شهوته حتى صارت لاتنبسط الا حيث ينبغى والى الحد الذى ينبغى فشهوته لاتدعو الى الشر فالشيطان المتدرع بها لايأمر الا بالخير ومهما غلب على القلب ذكر الدنيا بمقتضيات الهوى وجد الشيطان مجالا فوسوس ومهما انصرف القلب الى ذكر الله تعالى ارتحل الشيطان وضاق مجاله وأقبل الملك وألهم والتطارد بين جندى الملائكة والشياطين فى معركة القلب دائم الى أن ينفتح القلب لاحدهما فيستوطن ويستمكن ويكون اجتياز الثانى اختلاسا وأكثر القلوب قد فتحتها جنود الشياطين وتملكتها فامتلأت بالوساوس الداعية الى ايثار العاجلة واطراح الآخرة ومبدأ استيلائها اتباع

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم
مثل النجوم التى يسرى بها السارى

(وروى) أبو الدرداء عن النبى صلى الله عليه وسلم قال من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من الخير ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من الخير (حدثنا) شيخنا ضياء الدين أبو النجيب املاء قال ثنا أبو عبد الرحمن محمد ابن أبى عبد الله المالينى قال أنا أبو الحسين عبد الرحمن بن أبى طلحة الداودى قال أنا أبو محمد عبد الله الحموى السرخسى قال أنا أبو عمران عيسى بن عمر السمرقندى قال أنا عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى قال أنا محمد بن أحمد بن أبى خلف قال ثنا عبد الرحمن بن محمد عن محمد بن اسحق قال حدثنى عبد الله بن أبى بكر عن رجل من العرب قال زحمت رسول الله صلى الله

الشهوات والهوى ولا يمكن فتحها بعد ذلك الا بتخلية القلب عن قوت الشيطان وهو الهوى والشهوات وعمارته
بذكر الله تعالى الذى هو مطرح أثر الملائكة وقال جابر بن عبيدة العدوى شكوت الى العلاء بن زياد ما أجد فى
صدرى من الوسوسة فقال انما مثل ذلك مثل البيت الذى يمر به اللصوص فان كان فيه شئ عالجوه والا مضوا
وتركوه يعنى أن القلب الخالى عن الهوى لا يدخله الشيطان ولذلك قال الله تعالى ان عبادى ليس لك عليهم سلطان
فكل من اتبع الهوى فهو عبد الهوى لا عبد الله ولذلك سلط الله عليه الشيطان وقال تعالى أفرأيت من اتخذ
الهه هواه وهو اشارة الى أن من الهوى الهه ومعبوده فهو عبد الهوى لا عبد الله ولذلك قال عمرو بن العاص
للنبى صلى الله عليه وسلم يا رسول الله حال الشيطان بينى وبين صلاتى وقراءتى فقال ذلك شيطان يقال له خنزب
فاذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل على يسارك ثلاثا قال ففعلت ذلك فأذهبه الله عنى وفى الخبر ان للوضوء شيطانا
يقال له الولهان فاستعيذوا بالله منه ولا يمحو وسوسة الشيطان من القلب الا ذكر ما سوى ما يوسوس به لانه اذا
خطر فى القلب ذكر شئ انعدم منه ما كان فيه من قبل ولكن كل شئ سوى الله تعالى وسوى ما يتعلق به فيجوز
أيضا أن يكون مجالا للشيطان وذكر الله هو الذى يؤمن جانبه ويعلم أنه ليس للشيطان فيه مجال ولا يعالج الشئ الا
بضده وضد جميع وساوس الشيطان ذكر الله بالاستعاذة والتبرى عن الحول والقوة وهو معنى قولك أعوذ بالله
من الشيطان الرجيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم وذلك لا يقدر عليه الا المتقون الغالب عليهم ذكر الله
تعالى وانما الشيطان يطوف عليهم فى أوقات الفلتات على سبيل الخلسة قال الله تعالى ان الذين اتقوا اذا مسهم
طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون وقال مجاهد فى معنى قول الله تعالى من شر الوسواس الخناس قال
هو منبسط على القلب فاذا ذكر الله تعالى خنس وانقبض واذا غفل انبسط على قلبه فالتطارد بين ذكر الله تعالى
ووسوسة الشيطان كالتطارد بين النور والظلام وبين الليل والنهار ولتضادهما قال الله تعالى استحوذ عليهم
الشيطان فأنساهم ذكر الله وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الشيطان واضع خرطومه على قلب
ابن آدم فان هو ذكر الله تعالى خنس وان نسى الله تعالى التقم قلبه وقال ابن وضاح فى حديث ذكره اذا بلغ
الرجل أربعين سنة ولم يتب مسح الشيطان وجهه بيده وقال بأبى وجه من لا يفلح وكما أن الشهوات ممتزجة بلحم ابن
آدم ودمه فسلطنة الشيطان أيضا سارية فى لحمه ودمه ومحيطة بالقلب من جوانبه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم
ان الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع وذلك لان الجوع يكسر الشهوة ومجرى
الشيطان الشهوات ولاجل اكتناف الشهوات للقلب من جوانبه قال الله تعالى اخبارا عن ابليس لأقعدن
لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم وقال صلى الله عليه
وسلم ان الشيطان قعد لابن آدم بطرق فقعد له بطريق الاسلام فقال أتسلم وتترك دينك ودين آبائك فعصاه
وأسلم ثم قعد له بطريق الهجرة فقال أتهاجر أتدع أرضك وسماءك فعصاه وهاجر ثم قعد له بطريق الجهاد فقال
أتجاهد وهو تلف النفس والمال فتقاتل فتقتل فتنكح نساؤك ويقسم مالك فعصاه وجاهد وقال رسول الله صلى
الله عليه وسلم فمن فعل ذلك فمات كان حقا على الله أن يدخله الجنة فذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم معنى
الوسوسة وهى هذه الخواطر التى تخطر للمجاهد أنه يقتل وتنكح نساؤه وغير ذلك مما يصرفه عن الجهاد وهذه
الخواطر معلومة فاذا الوسواس معلوم بالمشاهدة وكل خاطر فله سبب ويفتقر الى اسم يعرفه فاسم سببه الشيطان
ولا يتصور أن ينفك عنه آدمى وانما يختلفون بعصيانه ومتابعته ولذلك قال عليه السلام ما من أحد الا وله شيطان
فقد اتضح بهذا النوع من الاستبصار معنى الوسوسة والالهام والملك والشيطان والتوفيق والخذلان فبعد هذا
نظر من ينظر فى ذات الشيطان انه جسم لطيف أو ليس بجسم وان كان جسما فكيف يدخل بدن الانسان
ما هو جسم فهذا الآن غير محتاج اليه فى علم المعاملة بل مثال الباحث عن هذا مثال من دخلت فى ثيابه حية وهو
محتاج الى ازالتها ودفع ضررها فاشتغل بالبحث عن لونها وشكلها وطولها وعرضها وذلك عين الجهل فصادمة
الخواطر الباعثة على الشر قد علمت ودل ذلك على انه عن سبب لا محالة وعلم أن الداعى الى الشر المحذور فى
المستقبل عدو فقد عرف العدو لا محالة فينبغى أن يشتغل بمجاهدته وقد عرف الله سبحانه عداوته فى مواضع

كثيرة

عليه وسلم يوم حنين
وفى رجلى نعل كثيفة
فوطئت بها على رجل
رسول الله صلى الله
عليه وسلم فنفحنى
نفحة بسوط فى يده
وقال بسم الله أوجعتنى
قال فبت لنفسى لائما
أقول أوجعت رسول
الله قال فبت بليلة كما
يعلم الله فلما أصبحنا
اذا رجل يقول أين
فلان قلت هذا والله
الذى كان منى بالامس
قال فانطلقت وأنا
متخوف فقال لى انك
وطئت بنعلك على
رجلى بالامس
فأوجعتنى فنفحتك
نفحة بالسوط فهذه
ثمانون نعجة فخذها
بها * ومن أخلاق
الصوفية الايثار
والمواساة ويحملهم
على ذلك فرط الشفقة
والرحمة طبعا وقوة
اليقين شرعا يؤثرون
بالموجود ويصبرون
على المفقود * قال
أبو يزيد البسطامى
ما غلبنى أحد ما غلبنى
شاب من أهل بلخ
قدم علينا حاجا فقال
لى يا أبا يزيد ما حد الزهد

كثيرة من كتابه ليؤمن به ويحترز عنه فقال تعالى ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا انما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير وقال تعالى ألم أعهد اليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين فينبغى للعبد أن يشتغل بدفع العدو عن نفسه لا بالسؤال عن أصله ونسبه ومسكنه نعم ينبغى أن يسأل عن سلاحه ليدفعه عن نفسه وسلاح الشيطان الهوى والشهوات وذلك كاف للعالمين فأما معرفة ذاته وصفاته وحقيقته نعوذ بالله منه وحقيقة الملائكة فذلك ميدان العارفين المتغلغلين فى علوم المكاشفات فلا يحتاج فى علم المعاملة الى معرفته نعم ينبغى أن يعلم أن الخواطر تنقسم الى ما يعلم قطعا أنه داع الى الشر فلا يخفى كونه وسوسة والى ما يعلم أنه داع الى الخير فلا يشك فى كونه الهاما والى ما يتردد فيه فلا يدرى أنه من لمة الملك أو من لمة الشيطان فان من مكايد الشيطان أن يعرض الشر فى معرض الخير والتمييز فى ذلك غامض وأكثر العباد به يهلكون فان الشيطان لا يقدر على دعائهم الى الشر الصريح فيصوّر الشر بصورة الخير كما يقول للعالم بطريق الوعظ أما تنظر الى الخلق وهم موتى من الجهل هلكى من الغفلة قد أشرفوا على النار أمالك رحمة على عباد الله تنقذهم من المعاطب بنصحك ووعظك وقد أنعم الله عليك بقلب بصير ولسان ذلق ولهجة مقبولة فكيف تكفر نعمة الله تعالى وتتعرض لسخطه وتسكت عن اشاعة العلم ودعوة الخلق الى الصراط المستقيم ولا يزال يقرر ذلك فى نفسه ويستجره بلطيف الحيل الى أن يشتغل بوعظ الناس ثم يدعوه بعد ذلك الى أن يتزين لهم ويتصنع بتحسين اللفظ واظهار الخير ويقول له ان لم تفعل ذلك سقط وقع كلامك من قلوبهم ولم يهتدوا الى الحق ولا يزال يقرر ذلك عنده وهو فى أثنائه يؤكد فيه شوائب الرياء وقبول الخلق ولذة الجاه والتعزز بكثرة الاتباع والعلم والنظر الى الخلق بعين الاحتقار فيستدرج المسكين بالنصح الى الهلاك فيتكلم وهو يظن أن قصده الخير وانما قصده الجاه والقبول فيهلك بسببه وهو يظن أنه عند الله بمكان وهو من الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله ليؤيد هذا الدين بقوم لا خلاق لهم وان الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ولذلك روى أن ابليس لعنه الله تمثل لعيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم فقال له قل لا اله الا الله فقال كلمة حق ولا أقولها بقولك لان له أيضا تحت الخير تلبيسات وتلبيسات الشيطان من هذا الجنس لا تتناهى وبها يهلك العلماء والعباد والزهاد والفقراء والاغنياء وأصناف الخلق ممن يكرهون ظاهر الشر ولا يرضون لانفسهم الخوض فى المعاصى المكشوفة وسنذكر جملة من مكايد الشيطان فى كتاب الغرور فى آخر هذا الربع ولعلنا ان أمهل الزمان صنفنا فيه كتابا على الخصوص نسميه تلبيس ابليس فانه قد انتشر الآن تلبيسه فى البلاد والعباد لا سيما فى المذاهب والاعتقادات حتى لم يبق من الخيرات الا رسمها كل ذلك اذعانا للتلبيسات الشيطان ومكايده فحق على العبد أن يقف عند كل هم يخطر له ليعلم أنه من لمة الملك أو لمة الشيطان وأن يمعن النظر فيه بعين البصيرة لا بهوى من الطبع ولا يطلع عليه الا بنور التقوى والبصيرة وغزارة العلم كما قال تعالى ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا أى رجعوا الى نور العلم فاذا هم مبصرون أى ينكشف لهم الاشكال فأما من لم يرض نفسه بالتقوى فيميل طبعه الى الاذعان بتلبيسه بمتابعة الهوى فيكثر فيه غلطه ويتعجل فيه هلاكه وهو لا يشعر وفى مثلهم قال سبحانه وتعالى وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون قيل هى أعمال ظنوها حسنات فاذا هى سيئات وأغمض أنواع علوم المعاملة الوقوف على خدع النفس ومكايد الشيطان وذلك فرض عين على كل عبد وقد أهمله الخلق واشتغلوا بعلوم تستجر اليهم الوسواس وتسلط عليهم الشيطان وتنسيهم عداوته وطريق الاحتراز عنه ولا ينجى من كثرة الوسواس الا سد أبواب الخواطر وأبوابها الحواس الخمس وأبوابها من داخل الشهوات وعلائق الدنيا والخلوة فى بيت مظلم تسد باب الحواس والتجرد عن الاهل والمال يقلل مداخل الوسواس من الباطن ويبقى مع ذلك مداخل باطنه فى التخيلات الجارية فى القلب وذلك لا يدفع الا بشغل القلب بذكر الله تعالى ثم انه لا يزال يجاذب القلب وينازعه ويلهيه عن ذكر الله تعالى فلابد من مجاهدته وهذه مجاهدة لا آخر لها الا الموت اذ لا يتخلص أحد من الشيطان ما دام حيا نعم قد يقوى بحيث لا ينقاد له ويدفع عن نفسه شره بالجهاد ولكن لا يستغنى قط عن الجهاد والمدافعة ما دام الدم يجرى فى بدنه فانه ما دام حيا فأبواب الشيطان مفتوحة الى قلبه لا تنغلق وهى الشهوة والغضب والحسد والطمع والشره وغيرها كما سيأتى شرحها ومهما كان الباب مفتوحا والعدو غير غافل لم يدافع

عندكم قلت اذا وجدنا أكلنا واذا فقدنا صبرنا فقال هكذا عندنا كلاب بلخ فقلت له وما حد الزهد عندكم قال اذا فقدنا شكرنا واذا وجدنا آثرنا (وقال ذو النون) من علامة الزاهد المشروح صدره ثلاث تفريق المجموع وترك طلب المفقود والايثار بالقوت (روى) عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم النضير للانصار ان شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وتشاركونهم فى هذه الغنيمة وان شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم نقسم لكم شيأ من الغنيمة فقالت الانصار بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها فأنزل الله تعالى ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة (وروى) أبو هريرة رضى الله عنه قال جاء

الا بالحراسة والمجاهدة قال رجل للحسن يا أبا سعيد أينام الشيطان فتبسم وقال لو نام لاسترحنا فاذا الاخلاص للمؤمن منه نعم له سبيل الى دفعه وتضعيف قوته قال صلى الله عليه وسلم ان المؤمن ينضي شيطانه كما ينضي أحدكم بعيره في سفره وقال ابن مسعود شيطان المؤمن مهزول وقال قيس بن الحجاج قال لي شيطاني دخلت فيك وأنا مثل الجزور وأنا الآن مثل العصفور قلت ولم ذاك قال تذيبني بذكر الله تعالى فأهل التقوى لا يتعذر عليهم سد أبواب الشيطان وحفظها بالحراسة أعني الابواب الظاهرة والطرق الجلية التي تفضي الى المعاصي الظاهرة وانما يتعثرون في طرقه الغامضة فانهم لا يهتدون اليها فيحرسونها كما أشرنا اليه في غرور العلماء والوعاظ والمشكل أن الابواب المفتوحة الى القلب للشيطان كثيرة وباب الملائكة باب واحد وقد التبس ذلك الباب الواحد بهذه الابواب الكثيرة فالعبد فيها كالمسافر الذي يبقى في بادية كثيرة الطرق غامضة المسالك في ليلة مظلمة فلا يكاد يعلم الطريق الا بعين بصيرة وطلوع شمس مشرقة والعين البصيرة ههنا هي القلب المصفى بالتقوى والشمس المشرقة هو العلم الغزير المستفاد من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم مما يهدي الى غوامض طرقه والا فطرقه كثيرة وغامضة * قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما خطا وقال هذا سبيل الله ثم خط خطوطا عن يمين الخط وعن شماله ثم قال هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو اليه ثم تلا وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل لتلك الخطوط فبين صلى الله عليه وسلم كثرة طرقه وقد ذكرنا مثالا للطريق الغامض من طرقه وهو الذي يخدع به العلماء والعباد المالكين لشهواتهم الكافين عن المعاصي الظاهرة فلنذكر مثالا لطريقه الواضح الذي لا يخفى الا أن يضطر الآدمي الى سلوكه وذلك كما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال كان راهب في بني اسرائيل فعمد الشيطان الى جارية فخنقها وألقى في قلوب أهلها أن دواءها عند الراهب فأتوا بها اليه فأبى أن يقبلها فلم يزالوا به حتى قبلها فلما كانت عنده ليعالجها أتاه الشيطان فزين له مقاربتها ولم يزل به حتى واقعها فحملت منه فوسوس اليه وقال الآن تفتضح يأتيك أهلها فاقتلها فان سألوك فقل ماتت فقتلها ودفنها فأتى الشيطان أهلها فوسوس اليهم وألقى في قلوبهم انه أحبلها ثم قتلها ودفنها فأتاه أهلها فسألوه عنها فقال ماتت فأخذوه ليقتلوه بها فأتاه الشيطان فقال أنا الذي خنقتها وأنا الذي ألقيت في قلوب أهلها فأطعني تنج وأخلصك منهم قال بماذا قال اسجد لي سجدتين فسجد له سجدتين فقال له الشيطان اني بريء منك فهو الذي قال الله تعالى فيه كمثل الشيطان اذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال اني بريء منك فانظر الآن الى حيله واضطراره الراهب الى هذه الكبائر وكل ذلك لطاعته له في قبول الجارية للمعالجة وهو أمر هين وربما يظن صاحبه انه خير وحسنة فيحسن ذلك في قلبه بخفي الهوى فيقدم عليه كالراغب في الخير فيخرج الامر بعد ذلك عن اختياره ويجره البعض الى البعض بحيث لا يجد محيصا فنعوذ بالله من تضييع أوائل الامور واليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه

* بيان تفصيل مداخل الشيطان الى القلب *

اعلم أن مثال القلب مثال حصن والشيطان عدو يريد أن يدخل الحصن فيملكه ويستولي عليه ولا يقدر على حفظ الحصن من العدو الا بحراسة أبواب الحصن ومداخله ومواضع ثلمه ولا يقدر على حراسة أبوابه من لا يدري أبوابه فحماية القلب من وساوس الشيطان واجبة وهو فرض عين على كل عبد مكلف وما لا يتوصل الى الواجب الا به فهو أيضا واجب ولا يتوصل الى دفع الشيطان الا بمعرفة مداخله فصارت معرفة مداخله واجبة ومداخل الشيطان وأبوابه صفات العبد وهي كثيرة ولكنا نشير الى الابواب العظيمة الجارية مجرى الدروب التي لا تضيق عن كثرة جنود الشيطان * فمن أبوابه العظيمة الغضب والشهوة فان الغضب هو غول العقل واذا ضعف جند العقل هجم جند الشيطان ومهما غضب الانسان لعب الشيطان به كما يلعب الصبي بالكرة فقد روي أن موسى عليه السلام لقيه ابليس فقال له يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالته وكلمك تكليما وأنا خلق من خلق الله أذنبت وأريد أن أتوب فاشفع لي الى ربي أن يتوب علي فقال موسى نعم فلما صعد موسى الجبل وكلم ربه عز وجل وأراد النزول قال له ربه أد الامانة فقال موسى يا رب عبدك ابليس يريد أن تتوب عليه فأوحى الله تعالى الى موسى يا موسى قد قضيت حاجتك مره أن يسجد لقبر آدم حتى يتاب عليه فلقي موسى ابليس فقال له قد قضيت حاجتك

رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أصابه جهد فقال يا رسول الله اني جائع فأطعمني فبعث النبي صلى الله عليه وسلم الى أزواجه هل عندكن شيء فكلهن قلن والذي بعثك بالحق نبيا ما عندنا الا الماء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما عندنا ما نطعمك هذه الليلة ثم قال من يضيف هذا هذه الليلة رحمه الله فقام رجل من الانصار فقال أنا يا رسول الله فأتى به منزله فقال لاهله هذا ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكرميه ولا تدخري عنه شيئا فقالت ما عندنا الا قوت الصبية فقال فقومي عليهم عن قوتهم حتى يناموا ولا يطعمون شيئا ثم اسرجي فاذا أخذ الضيف ليأكل فقومي كأنك تصلحين السراج فأطفئيه وتعالي نمضغ ألسنتنا لضيف رسول الله حتى يشبع ضيف رسول الله فقامت الى الصبية فعللتهم حتى ناموا

أمرت أن تسجد لقبر آدم حتى يتاب عليك فغضب واستكبر وقال لم أسجد له حيا أأسجد له ميتا ثم قال ياموسى ان لك على حقا بما شفعت لي الى ربك فاذكرني عند ثلاث لا أهلكك فيهن اذكرني حين تغضب فان روحي في قلبك وعيني في عينك وأجري منك مجرى الدم اذكرني اذا غضبت فانه اذا غضب الانسان نفخت في أنفه فما يدري مايصنع واذكرني حين تلقى الزحف فاني آتي ابن آدم حين يلقى الزحف فاذكره زوجته وولده وأهله حتى يولي واياك أن تجلس الى امرأة ليست بذات محرم فاني رسولها اليك ورسولك اليها فلا أزال حتى أفتنك بها وأفتنها بك فقد أشار بهذا الى الشهوة والغضب والحرص فان الفرار من الزحف حرص على الدنيا وامتناعه من السجود لآدم ميتا هو الحسد وهو أعظم مداخله وقد ذكر أن بعض الاولياء قال لابليس أرني كيف تغلب ابن آدم فقال آخذه عند الغضب وعند الهوى فقد حكى أن ابليس ظهر لراهب فقال له الراهب أي أخلاق بني آدم أعون لك قال الحدة فان العبد اذا كان حديدا قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة وقيل ان الشيطان يقول كيف يغلبني ابن آدم واذا رضي جئت حتى أكون في قلبه واذا غضب طرت حتى أكون في رأسه ومن أبوابه العظيمة الحسد والحرص فهما كان العبد حريصا على كل شيء أعماه حرصه وأصمه اذ قال صلى الله عليه وسلم حبك للشيء يعمي ويصم ونور البصيرة هو الذي يعرف مداخل الشيطان فاذا غطاه الحسد والحرص لم يبصر فحينئذ يجد الشيطان فرصة فيحسن عند الحريص كل مايوصله الى شهوته وان كان منكرا وفاحشا فقد روي ان نوحا عليه السلام لما ركب السفينة حمل فيها من كل زوجين اثنين كما أمره الله تعالى فرأى في السفينة شيخا لم يعرفه فقال له نوح ما أدخلك فقال دخلت لاصيب قلوب أصحابك فتكون قلوبهم معي وأبدانهم معك فقال له نوح أخرج منها ياعدو الله فانك لعين فقال له ابليس خمس أهلك بهن الناس سأحدثك منهن بثلاث ولا أحدثك باثنتين فأوحى الله تعالى الى نوح انه لا حاجة لك بالثلاث فليحدثك بالاثنتين فقال له نوح ما الاثنتان فقال هما اللتان لا تكذباني هما اللتان لا تخلفاني بهما أهلك الناس الحرص والحسد فبالحسد لعنت وجعلت شيطانا رجيما وأما الحرص فانه أبيح لآدم الجنة كلها الا الشجرة فأصبت حاجتي منه بالحرص * ومن أبوابه العظيمة الشبع من الطعام وان كان حلالا صافيا فان الشبع يقوي الشهوات والشهوات أسلحة الشيطان فقد روي أن ابليس ظهر ليحيى بن زكريا عليهما السلام فرأى عليه معاليق من كل شيء فقال له يا ابليس ماهذه المعاليق قال هذه الشهوات التي أصبت بها ابن آدم فقال فهل لي فيها من شيء قال ربما شبعت فثقلناك عن الصلاة وعن الذكر قال فهل غير ذلك قال لا قال لله علي أن لا أملأ بطني من الطعام أبدا فقال له ابليس ولله علي أن لا أنصح مسلما أبدا ويقال في كثرة الاكل ست خصال مذمومة أولها أن يذهب خوف الله من قلبه الثاني أن يذهب رحمة الخلق من قلبه لانه يظن أنهم كلهم شباع والثالث انه يثقل عن الطاعة والرابع انه اذا سمع كلام الحكمة لا يجد له رقة والخامس انه اذا تكلم بالموعظة والحكمة لا يقع في قلوب الناس والسادس أن يهيج فيه الامراض * ومن أبوابه حب التزين من الاثاث والثياب والدار فان الشيطان اذا رأى ذلك غالبا على قلب الانسان باض فيه وفرخ فلا يزال يدعوه الى عمارة الدار وتزيين سقوفها وحيطانها وتوسيع أبنيتها ويدعوه الى التزين بالثياب والدواب ويستسخره فيها طول عمره واذا أوقعه في ذلك فقد استغنى أن يعود اليه ثانية فان بعض ذلك يجره الى البعض فلا يزال يؤديه من شيء الى شيء الى أن يساق اليه أجله فيموت وهو في سبيل الشيطان واتباع الهوى ويخشى من ذلك سوء العاقبة بالكفر نعوذ بالله منه * ومن أبوابه العظيمة الطمع في الناس لانه اذا غلب الطمع على القلب لم يزل الشيطان يحبب اليه التصنع والتزين لمن طمع فيه بأنواع الرياء والتلبيس حتى يصير المطموع فيه كأنه معبوده فلا يزال يتفكر في حيلة التودد والتحبب اليه ويدخل كل مدخل للوصول الى ذلك وأقل أحواله الثناء عليه بما ليس فيه والمداهنة له بترك الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد روى صفوان بن سليم أن ابليس تمثل لعبد الله بن حنظلة فقال له يا ابن حنظلة احفظ عني شيأ أعلمك به فقال لا حاجة لي به قال انظر فان كان خيرا أخذت وان كان شرا رددت يا ابن حنظلة لا تسأل أحدا غير الله سؤال رغبة وانظر كيف تكون اذا غضبت فاني أملكك اذا غضبت ومن أبوابه العظيمة العجلة وترك التثبت في الامور وقال صلى الله عليه وسلم العجلة من الشيطان والتأني

عن قوتهم ولم يطعموا شيأ ثم قامت فاثردت وأسرجت فلما أخذ الضيف ليأكل قامت كأنها تصلح السراج فأطفأته فجعلا يمضغان ألسنتهما الضيف رسول الله وظن الضيف أنهما يأكلان معه حتى شبع الضيف وباتا طاويين فلما أصبحوا غدوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما نظر اليهما تبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال لقد عجب الله من فلان وفلانة هذه الليلة وأنزل الله تعالى ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة (وقال) أنس رضي الله عنه أهدى لبعض أصحابه رأس شاة مشوي وكان مجهودا فوجهه به الى جار له فتداوله سبعة أنفس ثم عاد الى الاول فانزلت الآية لذلك وروى أن أبا الحسن الانطاكي اجتمع عنده نيف وثلاثون رجلا بقرية بقرى الري وله

من الله تعالى وقال عز وجل خلق الانسان من عجل وقال تعالى وكان الانسان عجولا وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه وهذا لان الاعمال ينبغى أن تكون بعد التبصرة والمعرفة والتبصرة تحتاج الى تأمل وتمهل والعجلة تمنع من ذلك وعند الاستعجال يروج الشيطان شره على الانسان من حيث لا يدرى فقد روى انه لما ولد عيسى بن مريم عليه السلام أتت الشياطين ابليس فقالوا أصبحت الاصنام قد نكست رؤسها فقال هذا حادث قد حدث مكانكم فطار حتى أتى خافقى الارض فلم يجد شيأ ثم وجد عيسى عليه السلام قد ولد واذا الملائكة حافين به فرجع اليهم فقال ان نبيا قد ولد البارحة ما حملت أنثى قط ولا وضعت الا وأنا حاضرها الا هذا فايسوا من أن تعبد الاصنام بعد هذه الليلة ولكن ائتوا بنى آدم من قبل العجلة والخفة * ومن أبوابه العظيمة الدراهم والدنانير وسائر أصناف الاموال من العروض والدواب والعقار فان كل ما يزيد على قدر القوت والحاجة فهو مستقر الشيطان فان من معه قوته فهو فارغ القلب فلو وجد مائة دينار مثلا على طريق انبعث من قلبه عشر شهوات تحتاج كل شهوة منها الى مائة دينار أخرى فلا يكفيه ما وجد بل يحتاج الى تسعمائة أخرى وقد كان قبل وجود المائة مستغنيا فالآن لما وجد مائة ظن أنه صار بها غنيا وقد صار محتاجا الى تسعمائة ليشترى دارا يعمرها وليشترى جارية وليشترى أثاث البيت ويشترى الثياب الفاخرة وكل شئ من ذلك يستدعى شيأ آخر يليق به وذلك لا آخر له فيقع فى هاوية آخرها عمق جهنم فلا آخر لها سواه * قال ثابت البنانى لما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابليس لشياطينه لقد حدث أمر فانظروا ما هو فانطلقوا حتى أعيوا ثم جاؤا وقالوا ما ندرى قال أنا آتيكم بالخبر فذهب ثم جاء وقال قد بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم قال فجعل يرسل شياطينه الى أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فينصرفون خائبين ويقولون ما صحبنا قوما قط مثل هؤلاء نصيب منهم ثم يقومون الى صلاتهم فيمحى ذلك فقال لهم ابليس رويدا بهم عسى الله أن يفتح لهم الدنيا فنصيب منهم حاجتنا وروى أن عيسى عليه السلام توسد يوما حجرا فمر به ابليس فقال يا عيسى رغبت فى الدنيا فأخذه عيسى صلى الله عليه وسلم فرمى به من تحت رأسه وقال هذا لك مع الدنيا وعلى الحقيقة من يملك حجرا يتوسد به عند النوم فقد ملك من الدنيا ما يمكن أن يكون عدة للشيطان عليه فان القائم بالليل مثلا للصلاة مهما كان بالقرب منه حجر يمكن أن يتوسده فلا يزال يدعوه الى النوم والى أن يتوسده ولو لم يكن ذلك لكان لا يخطر له ذلك ببال ولا تتحرك رغبته الى النوم هذا فى حجر فكيف بمن يملك المخاد الميثرة والفرش الوطيئة والمتنزهات الطيبة فمتى ينشط لعبادة الله تعالى * ومن أبوابه العظيمة البخل وخوف الفقر فان ذلك هو الذى يمنع من الانفاق والتصدق ويدعو الى الادخار والكنز والعذاب الاليم وهو الموعود للمكاثرين كما نطق به القرآن العزيز قال خيثمة بن عبد الرحمن ان الشيطان يقول ما غلبنى ابن آدم غلبة فلن يغلبنى على ثلاث ان آمره أن يأخذ المال من غير حقه وانفاقه فى غير حقه ومنعه من حقه وقال سفيان ليس للشيطان سلاح مثل خوف الفقر فاذا قبل ذلك منه أخذ فى الباطل ومنع من الحق وتكلم بالهوى وظن بربه ظن السوء ومن آفات البخل الحرص على ملازمة الاسواق لجمع المال والاسواق هى معشش الشياطين وقال أبو أمامة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان ابليس لما نزل الى الارض قال يارب أنزلتنى الى الارض وجعلتنى رجيما فاجعل لى بيتا قال الحمام قال اجعل لى مجلسا قال الاسواق ومجامع الطرق قال اجعل لى طعاما قال طعامك ما لم يذكر اسم الله عليه قال اجعل لى شرابا قال كل مسكر قال اجعل لى مؤذنا قال المزامير قال اجعل لى قرآنا قال الشعر قال اجعل لى كتابا قال الوشم قال اجعل لى حديثا قال الكذب قال اجعل لى مصايد قال النساء * ومن أبوابه العظيمة التعصب للمذاهب والاهواء والحقد على الخصوم والنظر اليهم بعين الازدراء والاستحقار وذلك مما يهلك العباد والفساق جميعا فان الطعن فى الناس والاشتغال بذكر نقصهم صفة مجبولة فى الطبع من الصفات السبعية فاذا خيل اليه الشيطان أن ذلك هو الحق وكان موافقا للطبع غلبت حلاوته على قلبه فاشتغل به بكل همته وهو بذلك فرحان مسرور يظن أنه يسعى فى الدين وهو ساع فى اتباع الشياطين فترى الواحد منهم يتعصب لابى بكر الصديق رضى الله عنه وهو آكل الحرام ومطلق اللسان بالفضول والكذب ومتعاط لانواع الفساد ولو رآه أبو بكر لكان أول عدو له اذ موالى أبى بكر من أخذ سبيله وسار بسيرته وحفظ ما بين لحييه وكان

أرغفة ممدودة لم تشبع خمسة منهم فكسروا الرغفان وأطفؤا السراج وجلسوا للطعام فلما رفعوا الطعام فاذا هو بحاله لم يأكل أحد منهم ايثارا منه على نفسه (وحكى) عن حذيفة العدوى قال انطلقت يوم اليرموك لطلب ابن عم لى ومعى شئ من ماء وأنا أقول ان كان به رمق سقيته ومسحت وجهه فاذا أنا به فقلت أسقيك فاشار الى نعم فاذا رجل يقول آه فقال ابن عمى انطلق به اليه فجئت اليه فاذا هو هشام ابن العاص فقلت أسقيك فسمع هشام آخر يقول آه فقال انطلق به اليه فجئت اليه فاذا هو قد مات ثم رجعت الى هشام فاذا هو أيضا قد مات ثم رجعت الى ابن عمى فاذا هو أيضا قد مات (وسئل) أبو الحسين البوشنجى عن الفتوة فقال الفتوة عندى ما وصف الله تعالى به

من سيرته رضي الله عنه أن يضع حصاة في فيه ليكف لسانه عن الكلام فيما لا يعنيه فأني لهذا الفضولي أن يدعي ولاءه وحبه ولا يسير بسيرته ونرى فضوليا آخر يتعصب لعلي رضي الله عنه وكان من زهد علي وسيرته أنه لبس في خلافته ثوبا اشتراه بثلاثة دراهم وقطع رأس الكمين الى الرسغ ونرى الفاسق لابسا الثياب الحرير ومتجملا بأموال اكتسبها من حرام وهو يتعاطى حب علي رضي الله عنه ويدعيه وهو أول خصمائه يوم القيامة وليت شعري من أخذ ولدا عزيزا لانسان هو قرة عينه وحياة قلبه فأخذ يضربه ويمزقه وينتف شعره ويقطعه بالمقراض وهو مع ذلك يدعي حب أبيه وولاءه فكيف يكون حاله عنده ومعلوم أن الدين والشرع كان أحب الى أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وسائر الصحابة رضي الله عنهم من الاهل والولد بل من أنفسهم والمقتحمون لمعاصي الشرع هم الذين يمزقون الشرع ويقطعونه بمقاريض الشهوات ويتوددون به الى عدو الله ابليس وعدو أوليائه فترى كيف يكون حالهم يوم القيامة عند الصحابة وعند أولياء الله تعالى لا بل لو كشف الغطاء وعرف هؤلاء ما تحبه الصحابة في أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم لاستحيوا أن يجروا على اللسان ذكرهم مع قبح أفعالهم ثم ان الشيطان يخيل اليهم أن من مات محبا لابي بكر وعمر فالنار لا تحوم حوله ويخيل الى الآخر أنه اذا مات محبا لعلي لم يكن عليه خوف وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لفاطمة رضي الله عنها وهي بضعة منه اعملي فاني لا أغني عنك من الله شيأ وهذا مثال أوردناه من جملة الاهواء وهكذا حكم المتعصبين للشافعي وأبي حنيفة ومالك وأحمد وغيرهم من الائمة فكل من ادعى مذهب امام وهو ليس يسير بسيرته فذلك الامام هو خصمه يوم القيامة اذ يقول له كان مذهبي العمل دون الحديث باللسان وكان الحديث باللسان لاجل العمل لا لاجل الهذيان فما بالك خالفتني في العمل والسيرة التي هي مذهبي ومسلكي الذي سلكته وذهبت فيه الى الله تعالى ثم ادعيت مذهبي كاذبا وهذا مدخل عظيم من مداخل الشيطان قد أهلك به أكثر العالم وقد سلمت المدارس لاقوام قل من الله خوفهم وضعفت في الدين بصيرتهم وقويت في الدنيا رغبتهم واشتد على الاستتباع حرصهم ولم يتمكنوا من الاستتباع واقامة الجاه الا بالتعصب فحبسوا ذلك في صدورهم ولم ينبهوهم على مكايد الشيطان فيه بل نابوا عن الشيطان في تنفيذ مكيدته فاستمر الناس عليه ونسوا أمهات دينهم فقد هلكوا وأهلكوا فالله تعالى يتوب علينا وعليهم وقال الحسن بلغنا أن ابليس قال سولت لامة محمد صلى الله عليه وسلم المعاصي فقصموا ظهري بالاستغفار فسولت لهم ذنوبا لا يستغفرون الله تعالى منها وهي الاهواء وقد صدق الملعون فانهم لا يعلمون أن ذلك من الاسباب التي تجر الى المعاصي فكيف يستغفرون منها * ومن عظيم حيل الشيطان أن يشغل الانسان عن نفسه بالاختلافات الواقعة بين الناس في المذاهب والخصومات قال عبد الله بن مسعود جلس قوم يذكرون الله تعالى فأتاهم الشيطان ليقيمهم عن مجلسهم ويفرق بينهم فلم يستطع فأتى رفقة أخرى يتحدثون بحديث الدنيا فأفسد بينهم فقاموا يقتتلون وليس اياهم يريد فقام الذين يذكرون الله تعالى فاشتغلوا بهم يفصلون بينهم فتفرقوا عن مجلسهم وذلك مراد الشيطان منهم ومن أبوابه حمل العوام الذين لم يمارسوا العلم ولم يتبحروا فيه على التفكر في ذات الله تعالى وصفاته وفي أمور لا يبلغها حد عقولهم حتى يشككهم في أصل الدين أو يخيل اليهم في الله تعالى خيالات يتعالى الله عنها يصير بها كافرا أو مبتدعا وهو به فرح مسرور مبتهج بما وقع في صدره يظن ذلك هو المعرفة والبصيرة وانه انكشف له ذلك بذكائه وزيادة عقله فأشد الناس حماقة أقواهم اعتقادا في عقل نفسه وأثبت الناس عقلا أشدهم اتهاما لنفسه وأكثرهم سؤالا من العلماء قالت عائشة رضي الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الشيطان يأتي أحدكم فيقول من خلقك فيقول الله تبارك وتعالى فيقول فمن خلق الله فاذا وجد أحدكم ذلك فليقل آمنت بالله ورسوله فان ذلك يذهب عنه والنبي صلى الله عليه وسلم لم يأمر بالبحث في علاج هذا الوسواس فان هذا وسواس يجده عوام الناس دون العلماء وانما حق العوام أن يؤمنوا ويسلموا ويشتغلوا بعباداتهم ومعايشهم ويتركوا العلم للعلماء فالعامي لو يزني ويسرق كان خيرا له من أن يتكلم في العلم فانه من تكلم في الله وفي دينه من غير اتقان العلم وقع في الكفر من حيث لا يدري كمن يركب لجة البحر وهو لا يعرف السباحة ومكايد الشيطان فيما يتعلق بالعقائد والمذاهب لا تحصر وانما أردنا بما أوردناه المثال * ومن

الانصار في قوله والذين تبوؤا الدار والايمان قال ابن عطاء يؤثرون على أنفسهم جودا وكرما ولو كان بهم خصاصة يعني جوعا وفقرا (قال) أبو حفص الايثار هو أن يقدم حظوظ الاخوان على حظوظه في أمر الدنيا والآخرة (وقال) بعضهم الايثار لا يكون عن اختيار انما الايثار أن تقدم حقوق الخلق أجمع على حقك ولا تميز في ذلك بين أخ وصاحب وذي معرفة (وقال يوسف) بن الحسين من رأى لنفسه ملكا لا يصح منه الايثار لانه يرى نفسه أحق بالشئ برؤية ملكه انما الايثار ممن يرى الاشياء كلها للحق فمن وصل اليه فهو أحق به فاذا وصل شئ من ذلك اليه يرى نفسه ويده فيه يد أمانة يوصلها الى صاحبها أو يؤديها اليه وقال بعضهم حقيقة الايثار ان تؤثر بحظ

أبوابه سوء الظن بالمسلمين قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم فمن يحكم بشر على غيره بالظن بعثه الشيطان على أن يطول فيه اللسان بالغيبة فيهلك أو يقصر في القيام بحقوقه أو يتوانى في اكرامه و ينظر اليه بعين الاحتقار و يرى نفسه خيرا منه وكل ذلك من المهلكات ولاجل ذلك منع الشرع من التعرض للتهم فقال صلى الله عليه وسلم اتقوا مواضع التهم حتى احترز هو صلى الله عليه وسلم من ذلك روى عن علي بن حسين أن صفية بنت حيي بن أخطب أخبرته أن النبي صلى الله عليه وسلم كان معتكفا في المسجد قالت فأتيته فتحدثت عنده فلما أمسيت انصرفت فقام يمشي معي فمر به رجلان من الانصار فسلما ثم انصرفا فناداهما وقال انها صفية بنت حيي فقالا يا رسول الله ما نظن بك الا خيرا فقال ان الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم من الجسد واني خشيت أن يدخل عليكما فانظر كيف أشفق صلى الله عليه وسلم على دينهما فحرسهما وكيف أشفق على أمته فعلمهم طريق الاحتراز من التهمة حتى لا يتساهل العالم الورع المعروف بالدين في أحواله فيقول مثلي لا يظن به الا الخير اعجابا منه بنفسه فان أورع الناس وأتقاهم وأعلمهم لا ينظر الناس كلهم اليه بعين واحدة بل بعين الرضا بعضهم و بعين السخط بعضهم ولذلك قال الشاعر

وعين الرضا عن كل عيب كليلة * ولكن عين السخط تبدي المساويا

فيجب الاحتراز عن ظن السوء وعن تهمة الاشرار فان الاشرار لا يظنون بالناس كلهم الا الشر فمهما رأيت انسانا يسيء الظن بالناس طالبا للعيوب فاعلم أنه خبيث في الباطن وان ذلك خبثه يترشح منه وانما رأى غيره من حيث هو فان المؤمن يطلب المعاذير والمنافق يطلب العيوب والمؤمن سليم الصدر في حق كافة الخلق فهذه بعض مداخل الشيطان الى القلب ولو أردت استقصاء جميعها لم أقدر عليه وفي هذا القدر ما ينبه على غيره فليس في الآدمي صفة مذمومة الا وهي سلاح الشيطان ومدخل من مداخله * فان قلت فما العلاج في دفع الشيطان وهل يكفي في ذلك ذكر الله تعالى وقول الانسان لا حول ولا قوة الا بالله فاعلم أن علاج القلب في ذلك سد هذه المداخل بتطهير القلب من هذه الصفات المذمومة وذلك مما يطول ذكره وغرضنا في هذا الربع من الكتاب بيان علاج الصفات المهلكات وتحتاج كل صفة الى كتاب منفرد على ما سيأتي شرحه نعم اذا قطعت من القلب أصول هذه الصفات كان للشيطان بالقلب اجتيازات وخطرات ولم يكن له استقرار و يمنعه من الاجتياز ذكر الله تعالى لان حقيقة الذكر لا تتمكن من القلب الا بعد عمارة القلب بالتقوى وتطهيره من الصفات المذمومة والا فيكون الذكر حديث نفس لا سلطان له على القلب فلا يدفع سلطان الشيطان ولذلك قال الله تعالى ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون خصص بذلك المتقي فمثل الشيطان كمثل كلب جائع يقرب منك فان لم يكن بين يديك خبز أو لحم فانه ينزجر بأن تقول له اخسأ فمجرد الصوت يدفعه فان كان بين يديك لحم وهو جائع فانه يهجم على اللحم ولا يندفع بمجرد الكلام فالقلب الخالي عن قوت الشيطان ينزجر عنه بمجرد الذكر فأما الشهوة اذا غلبت على القلب دفعت حقيقة الذكر الى حواشي القلب فلم يتمكن من سويدائه فيستقر الشيطان في سويداء القلب وأما قلوب المتقين الخالية من الهوى والصفات المذمومة فانه يطرقها الشيطان لا للشهوات بل لخلوها بالغفلة عن الذكر فاذا عاد الى الذكر خنس الشيطان ودليل ذلك قوله تعالى فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم وسائر الاخبار والآيات الواردة في الذكر قال أبو هريرة التقى شيطان المؤمن وشيطان الكافر فاذا شيطان الكافر دهين سمين كاس وشيطان المؤمن مهزول أشعث أغبر عار فقال شيطان الكافر لشيطان المؤمن مالك مهزول قال أنا مع رجل اذا أكل سمى الله فأظل جائعا واذا شرب سمى الله فأظل عطشانا واذا لبس سمى الله فأظل عريانا واذا ادهن سمى الله فأظل شعثا فقال لكني مع رجل لا يفعل شيأ من ذلك فأنا أشاركه في طعامه وشرابه ولباسه * وكان محمد بن واسع يقول كل يوم بعد صلاة الصبح اللهم انك سلطت علينا عدوا بصيرا بعيوبنا يرانا هو وقبيله من حيث لا نراهم اللهم فايسه منا كما أيسته من رحمتك وقنطه منا كما قنطته من عفوك و باعد بيننا و بينه كما باعدت بينه و بين رحمتك انك على كل شيء قدير قال فتمثل له ابليس يوما في طريق المسجد فقال له يا ابن واسع هل تعرفني قال ومن أنت قال أنا ابليس فقال وما تريد قال أريد أن لا تعلم

آخرتك على اخوانك فان الدنيا أقل خطرا من أن يكون لايثارها محل أو ذكر ومن هذا المعنى ما نقل أن بعضهم رأى أخاله فلم يظهر البشر الكثير في وجهه فأنكر أخوه ذلك منه فقال يا أخي سمعت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا التقى المسلمان ينزل عليهما مائة رحمة تسعون لأكثرهما بشرا وعشرة لاقلهما بشرا فأردت أن أكون أقل بشرا منك ليكون لك الاكثر (أخبرنا) الشيخ ضياء الدين أبو النجم اجازة قال أنا أبو حفص عمر بن الصفار النيسابوري قال أنا أبو بكر أحمد بن خلف الشيرازي قال أنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي قال سمعت أبا القاسم الرازي يقول سمعت أبا بكر بن أبي سعدان يقول من صحب الصوفية فليصحبهم بلا نفس ولا قلب ولا ملك فمن نظر

أحداهذه الاستعاذة ولا أتعرض لك قال والله لا أمنعها من أرادها فاصنع ماشئت *وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال كان شيطان يأتي النبي صلى الله عليه وسلم بيده شعلة من نار فيقوم بين يديه وهو يصلي فيقرأ ويتعوذ فلا يذهب فأتاه جبرائيل عليه السلام فقال له قل أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما يلج في الارض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ومن فتن الليل والنهار ومن طوارق الليل والنهار الا طارقا يطرق بخير يارحمن فقال ذلك فطفئت شعلته وخر على وجهه وقال الحسن نبئت أن جبرائيل عليه السلام أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ان عفريتا من الجن يكيدك فاذا أويت الى فراشك فاقرأ آية الكرسي وقال صلى الله عليه وسلم لقد أتاني الشيطان فنازعني ثم نازعني فاخذت بحلقه فوالذي بعثني بالحق ما أرسلته حتى وجدت برد ماء لسانه على يدي ولولا دعوة أخي سليمان عليه السلام لاصبح طريحا في المسجد وقال صلى الله عليه وسلم ماسلك عمر فجا الاسلك الشيطان فجا غير الذي سلكه عمر وهذا لان القلوب كانت مطهرة عن مرعى الشيطان وقوته وهي الشهوات فمهما طمعت في أن يندفع الشيطان عنك بمجرد الذكر كما اندفع عن عمر رضي الله عنه كان محالا وكنت كمن يطمع أن يشرب دواء قبل الاحتماء والمعدة مشغولة بغليظ الاطعمة ويطمع أن ينفعه كما نفع الذي شربه بعد الاحتماء وتخلية المعدة والذكر الدواء والتقوى احتماء وهي تخلي القلب عن الشهوات فاذا نزل الذكر قلبا فارغا عن غير الذكر اندفع الشيطان كما تندفع العلة بنزول الدواء في المعدة الخالية عن الاطعمة قال الله تعالى ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب وقال تعالى كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه الى عذاب السعير ومن ساعد الشيطان بعمله فهو مواليه وان ذكر الله بلسانه وان كنت تقول الحديث قد ورد مطلقا بان الذكر يطرد الشيطان ولم تفهم أن أكثر عمومات الشرع مخصوصة بشروط نقلها علماء الدين فانظر الى نفسك فليس الخبر كالعيان وتأمل أن منتهى ذكرك وعبادتك الصلاة فراقب قلبك اذا كنت في صلاتك كيف يجاذبه الشيطان الى الاسواق وحساب العاملين وجواب المعاندين وكيف يمر بك في أودية الدنيا ومهالكها حتى انك لا تذكر ماقد نسيته من فضول الدنيا الا في صلاتك ولا يزدحم الشيطان على قلبك الا اذا صليت فالصلاة محك القلوب فيها يظهر محاسنها ومساويها فالصلاة لا تقبل من القلوب المشحونة بشهوات الدنيا فلاجرم لا ينطرد عنك الشيطان بل ربما يزيد عليك الوسواس كما أن الدواء قبل الاحتماء ربما يزيد عليك الضرر فان أردت الخلاص من الشيطان فقدم الاحتماء بالتقوى ثم أردفه بدواء الذكر يفر الشيطان منك كما فر من عمر رضي الله عنه ولذلك قال وهب بن منبه اتق الله ولا تسب الشيطان في العلانية وأنت صديقه في السر أي أنت مطيع له وقال بعضهم ياعجبا لمن يعصي المحسن بعد معرفته باحسانه ويطيع اللعين بعد معرفته بطغيانه وكما أن الله تعالى قال ادعوني أستجب لكم وأنت تدعوه ولا يستجيب لك فكذلك تذكر الله ولا يهرب الشيطان منك لفقد شروط الذكر والدعاء قيل لابراهيم بن أدهم مابالنا ندعو فلا يستجاب لنا وقد قال تعالى ادعوني أستجب لكم قال لان قلوبكم ميتة قيل وما الذي أماتها قال ثمان خصال عرفتم حق الله ولم تقوموا بحقه وقرأتم القرآن ولم تعملوا بحدوده وقلتم نحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تعملوا بسنته وقلتم نخشى الموت ولم تستعدوا له وقال تعالى ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا فواطأتموه على المعاصي وقلتم نخاف النار وأرهقتم أبدانكم فيها وقلتم نحب الجنة ولم تعملوا لها واذا قمتم من فرشكم رميتم عيوبكم وراء ظهوركم وافترشتم عيوب الناس أمامكم فاسخطتم ربكم فكيف يستجيب لكم فان قلت فالداعي الى المعاصي المختلفة شيطان واحد أو شياطين مختلفون فاعلم أنه لا حاجة لك الى معرفة ذلك في المعاملة فاشتغل بدفع العدو ولا تسأل عن صفته كل البقل من حيث يؤتى ولا تسأل عن المبقلة ولكن الذي يتضح بنور الاستبصار في شواهد الاخبار أنهم جنود مجندة وان لكل نوع من المعاصي شيطانا يخصه ويدعو اليه فاما طريق الاستبصار فذكره يطول ويكفيك القدر الذي ذكرناه وهو ان اختلاف المسببات يدل على اختلاف الاسباب كما ذكرناه في نور النار وسواد الدخان وأما الاخبار فقد قال مجاهد لابليس خمسة من الاولاد قد جعل كل واحد منهم على شيء من أمره ثبر والاعور ومبسوط وداسم وزلنبور فاما ثبر فهو صاحب المصائب الذي يأمر بالثبور وشق الجيوب ولطم الخدود ودعوى الجاهلية وأما الاعور فانه صاحب الزنا يأمر به ويزينه

الى شيء من أسبابه قطعه ذلك عن بلوغ مقصده (وقال سهل ابن عبدالله) الصوفي من يرى دمه هدرا وملكه مباحا وقال رويم التصوف مبني على ثلاث خصال التمسك بالفقر والافتقار والتحقق بالبذل والايثار وترك التعرض والاختيار (قيل) لما سعي بالصوفية وتميز الجنيد بالفقه وقبض على الشحام والرقام والنوري وبسط النطع لضرب رقابهم تقدم النوري فقيل له الى ماذا تبادر فقال أوثر اخواني بفضل حياة ساعة وقيل دخل الروذباري دار بعض أصحابه فوجده غائبا وباب بيته مغلق فقال صوفي وله باب مغلق اكسروا الباب فكسروه وأمر بجميع ماوجده في البيت أن يباع فأنفذوه الى السوق واتخذوا رفقا من الثمن وقعدوا في الدار فدخل صاحب المنزل ولم يقل

وأما مبسوط فهو صاحب الكذب وأما داسم فانه يدخل مع الرجل الى أهله يرميهم بالعيب عنده ويغضبه عليهم وأما زلنبور فهو صاحب السوق فبسببه لا يزالون متظالمين وشيطان الصلاة يسمى خنزب وشيطان الوضوء يسمى الولهان وقد ورد في ذلك أخبار كثيرة وكما أن الشياطين فيهم كثرة فكذلك في الملائكة كثرة وقد ذكرنا في كتاب الشكر السر في كثرة الملائكة واختصاص كل واحد منهم بعمل منفرد به وقد قال أبو أمامة الباهلي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل بالمؤمن مائة وستون ملكا يذبون عنه مالم يقدر عليه من ذلك للبصر سبعة أملاك يذبون عنه كما يذب الذباب عن قصعة العسل في اليوم الصائف وما لو بدا لكم لرأيتموه على كل سهل وجبل كل باسط يده فاغر فاه ولو وكل العبد الى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين وقال أيوب بن يونس بن يزيد بلغنا أنه يولد مع أبناء الانس من أبناء الجن ثم ينشؤن معهم وروى جابر بن عبد الله ان آدم عليه السلام لما أهبط الى الارض قال يارب هذا الذي جعلت بيني وبينه عداوة ان لم تعني عليه لا أقوى عليه قال لا يولد لك ولد الا وكل به ملك قال يارب زدني قال أجزي بالسيئة سيئة وبالحسنة عشرا الى ما أريد قال رب زدني قال باب التوبة مفتوح مادام في الجسد الروح قال ابليس يارب هذا العبد الذي كرمته على ان لا تعني عليه لا أقوى عليه قال لا يولد له ولد الا ولد لك ولد قال يارب زدني قال تجري منهم مجرى الدم وتتخذون صدورهم بيوتا قال رب زدني قال اجلب عليهم بخيلك ورجلك الى قوله غرورا وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خلق الله الجن ثلاثة أصناف صنف حيات وعقارب وخشاش الارض وصنف كالريح في الهواء وصنف عليهم الثواب والعقاب وخلق الله تعالى الانس ثلاثة أصناف صنف كالبهائم كما قال تعالى لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالانعام بل هم أضل وصنف أجسامهم أجسام بني آدم وأرواحهم أرواح الشياطين وصنف في ظل الله تعالى يوم القيامة يوم لا ظل الا ظله وقال وهيب ابن الورد بلغنا أن ابليس تمثل ليحيى بن زكريا عليهما السلام وقال اني أريد أن أنصحك قال لا حاجة لي في نصحك ولكن اخبرني عن بني آدم قال هم عندنا ثلاثة أصناف أما صنف منهم وهم أشد الاصناف علينا نقبل على أحدهم حتى نفتنه ونتمكن منه فيفزع الى الاستغفار والتوبة فيفسد علينا كل شئ أدركنا منه ثم نعود عليه فيعود فلا نحن نيأس منه ولا نحن ندرك منه حاجتنا فنحن منه في عناء وأما الصنف الآخر فهم في أيدينا بمنزلة الكرة في أيدي صبيانكم نقلبهم كيف شئنا قد كفونا أنفسهم وأما الصنف الثالث فهم مثلك معصومون لا نقدر منهم على شئ فان قلت فكيف يتمثل الشيطان لبعض الناس دون البعض واذا رأى صورة فهل هي صورته الحقيقية أو هو مثال يمثل له به فان كان على صورته الحقيقية فكيف يرى بصور مختلفة وكيف يرى في وقت واحد في مكانين وعلى صورتين حتى يراه شخصان بصورتين مختلفتين فاعلم أن الملك والشيطان لهما صورتان هي حقيقة صورتهما ولا تدرك حقيقة صورتهما بالمشاهدة الا بأنوار النبوة فما رأى النبي صلى الله عليه وسلم جبرائيل عليه أفضل الصلاة والسلام في صورته الا مرتين وذلك أنه سأله أن يريه نفسه على صورته فواعده بالبقيع وظهر له بحراء فسد الافق من المشرق الى المغرب ورآه مرة أخرى على صورته ليلة المعراج عند سدرة المنتهى وانما كان يراه في صورة الآدمي غالبا فكان يراه في صورة دحية الكلبي وكان رجلا حسن الوجه والاكثر انه يكاشف أهل المكاشفة من أرباب القلوب بمثال صورته فيتمثل الشيطان له في اليقظة فيراه بعينه ويسمع كلامه باذنه فيقوم ذلك مقام حقيقة صورته كما ينكشف في المنام لاكثر الصالحين وانما المكاشف في اليقظة هو الذي انتهى الى رتبة لا يمنعه اشتغال الحواس بالدنيا عن المكاشفة التي تكون في المنام فيرى في اليقظة ما يراه غيره في المنام كما روى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أن رجلا سأل ربه أن يريه موضع الشيطان من قلب ابن آدم فرأى في النوم جسد رجل شبه البلور يرى داخله من خارجه ورأى الشيطان في صورة ضفدع قاعد على منكبه الايسر بين منكبه وأذنه له خرطوم طويل دقيق قد أدخله من منكبه الايسر الى قلبه يوسوس اليه فاذا ذكر الله تعالى خنس ومثل هذا قد يشاهد بعينه في اليقظة فقد رآه بعض المكاشفين في صورة كلب جاثم على جيفة يدعو الناس اليها وكانت الجيفة مثال الدنيا وهذا يجري مجرى مشاهدة صورته الحقيقية فان القلب لابد وان تظهر فيه حقيقة من الوجه الذي يقابل عالم الملكوت وعند ذلك يشرق أثره على وجهه الذي يقابل عالم الملك والشهادة لان

شيأ ودخلت امرأته وعليها كساء قد خلت بيتا فرمت بالكساء وقالت هذا أيضا من بقية المتاع فبيعوه فقال الزوج لها لم تكلفت هذا باختيارك قالت اسكت مثل الشيخ يباسطنا ويحكم علينا ويبقى لنا شئ ندخره عنه (وقيل) مرض قيس بن سعد فاستبطأ اخوانه في عيادته فسأل عنهم فقالوا انهم يستحيون بمالك عليهم من الدين فقال أخزى الله مالا يمنع الاخوان عن الزيارة ثم أمر مناديا ينادي من كان لقيس عليه مال فهو منه في حل فكسرت عتبة داره بالعشي لكثرة عواده (وقيل) أتى رجل صديقا له ودق عليه الباب فلما خرج قال لما جئتني قال لاربعمائة درهم دين علي فدخل الدار ووزن أربعمائة درهم وأخرجها اليه ودخل الدار باكيا فقالت امرأته هلا تعللت حين شق عليك الاجابة

أحدهما متصل بالآخر وقد بينا أن القلب له وجهان وجه الى عالم الغيب وهو مدخل الالهام والوحي ووجه الى عالم الشهادة فالذي يظهر منه في الوجه الذي يلي جانب عالم الشهادة لايكون الا صورة متخيلة لان عالم الشهادة كله متخيلات الا أن الخيال تارة يحصل من النظر الى ظاهر عالم الشهادة بالحس فيجوز أن لاتكون الصورة على وفق المعنى حتى يرى شخصا جميل الصورة وهو خبيث الباطن قبيح السر لان عالم الشهادة عالم كثير التلبيس اما الصورة التي تحصل في الخيال من اشراق عالم الملكوت على باطن سر القلوب فلاتكون الا محاكية للصفة وموافقة لها لان الصورة في عالم الملكوت تابعة للصفة وموافقة لها فلاجرم لايرى المعنى القبيح الا بصورة قبيحة فيرى الشيطان في صورة كلب وضفدع وخنزير وغيرها ويرى الملك في صورة جميلة فتكون تلك الصورة عنوان المعاني ومحاكية لها بالصدق ولذلك يدل القرد والخنزير في النوم على مثال خبيث وتدل الشاة على انسان سليم الصدر وهكذا جميع أبواب الرؤيا والتعبير وهذه أسرار عجيبة وهي من أسرار عجائب القلب ولايليق ذكرها بعلم المعاملة وانما المقصود أن تصدق بأن الشيطان ينكشف لارباب القلوب وكذلك الملك تارة بطريق التمثيل والمحاكاة كما يكون ذلك في النوم وتارة بطريق الحقيقة والاكثر هو التمثيل بصورة محاكية للمعنى هو مثال المعنى لاعين المعنى الا أنه يشاهد بالعين مشاهدة محققة وينفرد بمشاهدته المكاشف دون من حوله كالنائم

﴿بيان مايؤاخذ به العبد من وساوس القلوب وهمها وخواطرها وقصودها ومايعفى عنه ولايؤاخذ به﴾

اعلم أن هذا أمر غامض وقد وردت فيه آيات وأخبار متعارضة يلتبس طريق الجمع بينها الا على سماسرة العلماء بالشرع فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال عفى عن أمتي ماحدثت به نفوسها مالم تتكلم به أو تعمل به وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى يقول للحفظة اذا هم عبدي بسيئة فلاتكتبوها فان عملها فاكتبوها سيئة واذا هم بحسنة لم يعملها فاكتبوها حسنة فان عملها فاكتبوها عشرا وقد خرجه البخاري ومسلم في الصحيحين وهو دليل على العفو عن عمل القلب وهمه بالسيئة وفي لفظ آخر من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ومن هم بحسنة فعملها كتبت له الى سبعمائة ضعف ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه وان عملها كتبت وفي لفظ آخر واذا تحدث بأن يعمل سيئة فأنا أغفرها له مالم يعملها وكل ذلك يدل على العفو فاما مايدل على المؤاخذة فقوله سبحانه ان تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وقوله تعالى ولاتقف ماليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا فدل على أن عمل الفؤاد كعمل السمع والبصر فلايعفى عنه وقوله تعالى ولاتكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه وقوله تعالى لايؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والحق عندنا في هذه المسألة لايوقف عليه مالم تقع الاحاطة بتفصيل أعمال القلوب من مبدا ظهورها الى أن يظهر العمل على الجوارح فنقول أول مايرد على القلب الخاطر كما لو خطر له مثلا صورة امرأة وأنها وراء ظهره في الطريق لو التفت اليها لرآها والثاني هيجان الرغبة الى النظر وهو حركة الشهوة التي في الطبع وهذا يتولد من الخاطر الاول ونسميه ميل الطبع ويسمى الاول حديث النفس والثالث حكم القلب بأن هذا ينبغي أن يفعل أي ينبغي أن ينظر اليها فان الطبع اذا مال لم تنبعث الهمة والنية مالم تندفع الصوارف فانه قد يمنعه حياء أو خوف من الالتفات وعدم هذه الصوارف ربما يكون بتأمل وهو على كل حال حكم من جهة العقل ويسمى هذا اعتقادا وهو يتبع الخاطر والميل الرابع تصميم العزم على الالتفات وجزم النية فيه وهذا نسميه هما بالفعل ونية وقصدا وهذا الهم قد يكون له مبدأ ضعيف ولكن اذا أصغى القلب الى الخاطر الاول حتى طالت مجاذبته للنفس تأكد هذا الهم وصار ارادة مجزومة فاذا انجزمت الارادة فربما يندم بعد الجزم فيترك العمل وربما يغفل بعارض فلايعمل به ولايلتفت اليه وربما يعوقه عائق فيتعذر عليه العمل فههنا أربع أحوال للقلب قبل العمل بالجارحة الخاطر وهو حديث النفس ثم الميل ثم الاعتقاد ثم الهم فنقول أما الخاطر فلايؤاخذ به لانه لايدخل تحت الاختيار وكذلك الميل وهيجان الشهوة لانهما لايدخلان أيضا تحت الاختيار وهما المرادان بقوله صلى الله عليه وسلم عفى عن أمتي ماحدثت به نفوسها فحديث النفس عبارة عن الخواطر التي تهجس في النفس ولايتبعها عزم على الفعل فأما الهم والعزم فلايسمى

فقال انما أبكي لاني لم أتفقد حاله حتى احتاج أن يفاتحني به (وأخبرنا الشيخ أبو زرعة عن) أبيه الحافظ المقدسي قال أنا محمد بن محمد امام جامع أصفهان قال ثنا أبو عبد الله الجرجاني قال أنا أبو طاهر محمد ابن الحسن المحمداباذي قال ثنا أبو البحتري قال ثنا أبو أسامة قال ثنا بريد ابن أبي بردة عن أبي موسى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الاشعريين اذا أرملوا في الغزو وقل طعام عيالهم جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموا في اناء واحد بالسوية فهم مني وأنا منهم (وحدث) جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه اذا أراد أن يغزو قال يا معشر المهاجرين والانصار ان من اخوانكم قوما ليس لهم مال ولاعدة فليضم أحدكم اليه الرجل والرجلين والثلاثة فما

حديث النفس بل حديث النفس كما روى عن عثمان بن مظعون حيث قال للنبى صلى الله عليه وسلم يارسول الله نفسى تحدثنى أن أطلق خولة قال مهلاان من سنتى النكاح قال نفسى تحدثنى أن أجب نفسى قال مهلا خصاء أمتى دؤب الصيام قال نفسى تحدثنى أن أترهب قال مهلا رهبانية أمتى الجهاد والحج قال نفسى تحدثنى أن أترك اللحم قال مهلا فانى أحبه ولو أصبته لا كلته ولوسألت الله لاطعمنيه فهذه الخواطر التى ليس معها عزم على الفعل هى حديث النفس ولذلك شاور رسول الله صلى الله عليه وسلم اذلم يكن معه عزم وهم بالفعل وأما الثالث وهو الاعتقاد وحكم القلب بأنه ينبغى أن يفعل فهذا تردد بين أن يكون اضطرارا أواختيارا والاحوال تختلف فيه فالاختيارى منه يؤاخذ به والاضطرارى لايؤاخذ به وأما الرابع وهو الهم بالفعل فانه مؤاخذ به الا انه ان لم يفعل نظر فان كان قد تركه خوفا من الله تعالى وندما على همه كتبت له حسنة لان همه سيئة وامتناعه ومجاهدته نفسه حسنة والهم على وفق الطبع مما يدل على تمام الغفلة عن الله تعالى والامتناع بالمجاهدة على خلاف الطبع يحتاج الى قوة عظيمة فجده فى مخالفة الطبع هو العمل لله تعالى والعمل لله تعالى أشد من جده فى موافقة الشيطان بموافقة الطبع فكتب له حسنة لانه رجح جهده فى الامتناع وهمه به على همه بالفعل وان تعوق الفعل بعائق أوتركه بعذر لاخوفا من الله تعالى كتبت عليه سيئة فان همه فعل من القلب احتيارى والدليل على هذا التفصيل ماروى فى الصحيح مفصلا فى لفظ الحديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت الملائكة عليهم السلام رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به فقال ارقبوه فان هو عملها فاكتبوها له بمثلها وان تركها فاكتبوها له حسنة انما تركها من جرائى وحيث قال فان لم يعملها أراد به تركها لله فأما اذا عزم على فاحشة فتعذرت عليه بسبب أوغفلة فكيف تكتب له حسنة وقد قال صلى الله عليه وسلم انما يحشر الناس على نياتهم ونحن نعلم ان من عزم ليلا على أن يصبح ليقتل مسلما أويزنى بامرأة فمات تلك الليلة مات مصرا ويحشر على نيته وقد هم بسيئة ولم يعملها والدليل القاطع فيه ماروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار فقيل يارسول الله هذا القاتل فما بال المقتول قال لانه أراد قتل صاحبه وهذا نص فى أنه صار بمجرد الارادة من أهل النار مع أنه قتل مظلوما فكيف يظن أن الله لايؤاخذ بالنية والهم بل كل هم دخل تحت اختيار العبد فهو مؤاخذ به الا أن يكفره بحسنة ونقض العزم بالندم حسنة فلذلك كتبت له حسنة فأما فوت المراد بعائق فليس بحسنة وأما الخواطر وحديث النفس وهيجان الرغبة فكل ذلك لايدخل تحت اختيار فالمؤاخذة به تكليف مالايطاق ولذلك لما نزل قوله تعالى وان تبدوا مافى أنفسكم أوتخفوه يحاسبكم به الله جاء ناس من الصحابة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا كلفنا مالانطيق ان أحدنا ليحدث نفسه بمالايحب أن يثبت فى قلبه ثم يحاسب بذلك فقال صلى الله عليه وسلم لعلكم تقولون كما قالت اليهود سمعنا وعصينا قولوا سمعنا وأطعنا فقالوا سمعنا وأطعنا فأنزل الله الفرج بعد سنة بقوله لايكلف الله نفسا الا وسعها فظهر به أن كل مالايدخل تحت الوسع من أعمال القلب هو الذى لايؤاخذ به فهذا هو كشف الغطاء عن هذا الالتباس وكل من يظن أن كل مايجرى على القلب يسمى حديث النفس ولم يفرق بين هذه الاقسام الثلاثة فلابد وان يغلط وكيف لايؤاخذ بأعمال القلب من الكبر والعجب والرياء والنفاق والحسد وجملة الخبائث من أعمال القلب بل السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا أى مايدخل تحت الاختيار فلو وقع البصر بغير اختيار على غير ذى محرم لم يؤاخذ به فان أتبعها نظرة ثانية كان مؤاخذا به لانه مختار فكذا خواطر القلب تجرى هذا المجرى بل القلب أولى بمؤاخذته لانه الاصل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم التقوى ههنا وأشار الى القلب وقال الله تعالى لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم وقال صلى الله عليه وسلم الاثم حزاز القلوب وقال البر مااطمأن اليه القلب وان أفتوك وأفتوك حتى انانقول اذا حكم القلب المفتى بايجاب شىء وكان مخطئا فيه صار مثابا عليه بل من قد ظن أنه تطهر فعليه أن يصلى فان صلى ثم تذكر انه لم يتوضأ كان له ثواب بفعله فان تذكر ثم تركه كان معاقبا عليه ومن وجد على فراشه امرأة فظن أنها زوجته لم يعص بوطئها وان كانت أجنبية فان ظن أنها أجنبية ثم وطئها عصى بوطئها وان كانت زوجته وكل ذلك نظر الى القلب دون الجوارح

لاحدكم من ظهر جمله الاعقبة كعقبة أحدهم قال فضممت الى اثنين أوثلاثة مالى الا عقبة كعقبة أحدهم من جمله (وروى) أنس قال لما قدم عبد الرحمن بن عوف المدينة آخى النبى عليه السلام بينه وبين سعد ابن الربيع فقال له أقاسمك مالى نصفين ولى امرأتان فأطلق احداهما فاذا انقضت عدتها فتزوجها فقال له عبد الرحمن بارك الله لك فى أهلك ومالك فما حمل الصوفى على الايثار الاطهارة نفسه وشرف غريزته وما جعله الله تعالى صوفيا الابعد أن سوى غريزته لذلك وكل من كانت غريزته السخاء والسخى يوشك أن يصير صوفيا لان السخاء صفة الغريزة وفى مقابلته الشح والشح من لوازم صفة النفس قال الله تعالى ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون

﴿ بيان أن الوسواس هل يتصوّر أن ينقطع بالكلية عند الذكر أم لا ﴾

اعلم أن العلماء المراقبين للقلوب الناظرين في صفاتها وعجائبها اختلفوا في هذه المسئلة على خمس فرق * فقالت فرقة الوسوسة تنقطع بذكر الله عز وجل لانه عليه السلام قال فاذا ذكر الله خنس والخنس هو السكوت فكانه يسكت * وقالت فرقة لا ينعدم أصله ولكن يجرى في القلب ولا يكون له أثر لان القلب اذا صار مستوعبا بالذكر كان محجوبا عن التأثر بالوسوسة كالمشغول بهمه فانه قد يكلم ولا يفهم وان كان الصوت يمر على سمعه * وقالت فرقة لا تسقط الوسوسة ولا أثرها أيضا ولكن تسقط غلبتها للقلب فكانه يوسوس من بعد وعلى ضعف وقالت فرقة ينعدم عند الذكر في لحظة وينعدم الذكر في لحظة ويتعاقبان في أزمنة متقاربة يظن لتقاربها أنها متساوقة وهي كالكرة التي عليها نقط متفرقة فانك اذا أدرتها بسرعة رأيت النقط دوائر بسرعة تواصلها بالحركة واستدل هؤلاء بأن الخنس قد ورد ونحن نشاهد الوسوسة مع الذكر ولا وجه له الا هذا وقالت فرقة الوسوسة والذكر يتساوقان في الدوام على القلب تساوقا لا ينقطع وكما أن الانسان قد يرى بعينيه شيئين في حالة واحدة فكذلك القلب قد يكون مجرى لشيئين فقد قال صلى الله عليه وسلم ما من عبد الا وله أربعة أعين عينان في رأسه يبصر بهما أمر دنياه وعينان في قلبه يبصر بهما أمر دينه والى هذا ذهب المحاسبي والصحيح عندنا أن كل هذه المذاهب صحيحة ولكن كلها قاصرة عن الاحاطة بأصناف الوسواس وانما نظر كل واحد منهم الى صنف واحد من الوسواس فأخبر عنه * والوسواس أصناف (الاول) أن يكون من جهة التلبيس بالحق فان الشيطان قد يلبس بالحق فيقول للانسان تترك التنعم باللذات فان العمر طويل والصبر عن الشهوات طول العمر ألمه عظيم فعند هذا اذا ذكر العبد عظيم حق الله تعالى وعظيم ثوابه وعقابه وقال لنفسه الصبر عن الشهوات شديد ولكن الصبر على النار أشد منه ولا بد من أحدهما فاذا ذكر العبد وعد الله تعالى ووعيده وجدد ايمانه ويقينه خنس الشيطان وهرب اذ لا يستطيع أن يقول له النار أيسر من الصبر على المعاصي ولا يمكنه أن يقول المعصية لا تفضي الى النار فان ايمانه بكتاب الله عز وجل يدفعه عن ذلك فينقطع وسواسه وكذلك يوسوس اليه بالعجب بعمله فيقول أي عبد يعرف الله كما تعرفه وبعبده كما تعبده فما أعظم مكانك عند الله تعالى فيتذكر العبد حينئذ أن معرفته وقلبه وأعضاءه التي بها عمله وعلمه كل ذلك من خلق الله تعالى فمن أين يعجب به فيخنس الشيطان اذ لا يمكنه أن يقول ليس هذا من الله فان المعرفة والايمان يدفعه فهذا نوع من الوسواس ينقطع بالكلية عن العارفين المستبصرين بنور الايمان والمعرفة (الصنف الثاني) أن يكون وسواسه بتحريك الشهوة وهيجانها وهذا ينقسم الى ما يعلم العبد يقينا أنه معصية والى ما يظنه بغالب الظن فان علمه يقينا خنس الشيطان عن تهييج يؤثر في تحريك الشهوة ولم يخنس عن التهييج وان كان مظنونا فربما يبقى مؤثرا بحيث يحتاج الى مجاهدة في دفعه فتكون الوسوسة موجودة ولكنها مدفوعة غير غالبة (الصنف الثالث) أن تكون وسوسة بمجرد الخواطر وتذكر الاحوال الغائبة والتفكر في غير الصلاة مثلا فاذا أقبل على الذكر تصوّر أن يندفع ساعة ويعود ويندفع ويعود فيتعاقب الذكر والوسوسة ويتصوّر أن يتساوقا جميعا حتى يكون الفهم مشتملا على فهم معنى القراءة وعلى تلك الخواطر كانهما في موضعين من القلب وبعيد جدا أن يندفع هذا الخنس بالكلية بحيث لا يخطر ولكنه ليس محالا اذ قال عليه السلام من صلى ركعتين لم يحدث فيهما نفسه بشئ من أمر الدنيا غفر له ما تقدم من ذنبه فلولا أنه متصوّر لما ذكره الا أنه لا يتصوّر ذلك الا في قلب استولى عليه الحب حتى صار كالمستهتر فانا قد نرى المستوعب القلب بعدوّ تأذى به قد يتفكر بمقدار ركعتين وركعات في مجادلة عدوه بحيث لا يخطر بباله غير حديث عدوه وكذلك المستغرق في الحب قد يتفكر في محادثة محبوبه بقلبه ويغوص في فكره بحيث لا يخطر بباله غير حديث محبوبه ولو كلمه غيره لم يسمع ولو اجتاز بين يديه أحد لكان كانه لا يراه واذا تصور هذا في خوف من عدو وعند الحرص على مال وجاه فكيف لا يتصوّر من خوف النار والحرص على الجنة ولكن ذلك عزيز لضعف الايمان بالله تعالى واليوم الآخر واذا تأملت جملة هذه الاقسام وأصناف الوسواس علمت أن لكل مذهب من المذاهب وجها ولكن في محل مخصوص وبالجملة فالخلاص من الشيطان في لحظة أو ساعة غير بعيد ولكن الخلاص منه عمرا طويلا بعيد جدا ومحال في الوجود ولو تخلص أحد من وساوس الشيطان بالخواطر وتهييج

حكم بالفلاح لمن يوق الشح وحكم بالفلاح لمن أنفق وبذل فقال ومما رزقناهم ينفقون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون والفلاح أجمع اسم لسعادة الدارين والنبي عليه السلام نبه بقوله ثلاث مهلكات وثلاث منجيات فجعل احدى المهلكات شحا مطاعا ولم يقل مجرد الشح يكون مهلكا بل يكون مهلكا اذا كان مطاعا فأما كونه موجودا في النفس غير مطاع فانه لا ينكر ذلك لانه من لوازم النفس مستمدا من أصل جبلتها الترابي وفي التراب قبض وامساك وليس ذلك بالعجب من الآدمي وهو جبلي فيه وانما العجب وجود السخاء في الغريزة وهو لنفوس الصوفية الداعي لهم الى البذل والايثار والسخاء أتم وأكمل من الجود ففي مقابلة

الرغبة لتخلص رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد روى أنه نظر الى علم ثوبه في الصلاة فلما سلم رمى بذلك الثوب وقال شغلني عن الصلاة وقال اذهبوا به الى أبي جهم وائتوني بانبجانيته وكان في يده خاتم من ذهب فنظر اليه وهو على المنبر ثم رمى به وقال نظرة اليه ونظرة اليكم وكان ذلك لوسوسة الشيطان بتحريك لذة النظر الى خاتم الذهب وعلم الثوب وكان ذلك قبل تحريم الذهب فلذلك لبسه ثم رمى به فلا تنقطع وسوسة عروض الدنيا ونقدها الا بالرمي والمفارقة فما دام يملك شيأ وراء حاجته ولو دينارا واحدا لا يدعه الشيطان في صلاته من الوسوسة في الفكر في ديناره وانه كيف يحفظه وفيماذا ينفقه وكيف يخفيه حتى لا يعلم به أحد أو كيف يظهره حتى يتباهى به الى غير ذلك من الوساوس فمن أنشب مخالبه في الدنيا وطمع في أن يتخلص من الشيطان كان كمن انغمس في العسل وظن أن الذباب لا يقع عليه فهو محال فالدنيا باب عظيم لوسوسة الشيطان وليس له باب واحد بل أبواب كثيرة قال حكيم من الحكماء الشيطان يأتي ابن آدم من قبل المعاصي فان امتنع أتاه من وجه النصيحة حتى يلقيه في بدعة فان أبى أمره بالتحرج والشدة حتى يحرم ما ليس بحرام فان أبى شككه في وضوئه وصلاته حتى يخرجه عن العلم فان أبى خفف عليه أعمال البر حتى يراه الناس صابرا عفيفا فتميل قلوبهم اليه فيعجب بنفسه وبه يهلكه وعند ذلك تشتد الحاجة فانها آخر درجة ويعلم أنه لو جاوزها أفلت منه الى الجنة

﴿ بيان سرعة تقلب القلب وانقسام القلوب في التغير والثبات ﴾

اعلم أن القلب كما ذكرناه تكتنفه الصفات التي ذكرناها وتنصب اليه الآثار والاحوال من الابواب التي وصفناها فكأنه هدف يصاب على الدوام من كل جانب فاذا أصابه شيء يتأثر به أصابه من جانب آخر ما يضاده فتتغير صفته فان نزل به الشيطان فدعاه الى الهوى نزل به الملك وصرفه عنه وان جذبه شيطان الى شر جذبه شيطان آخر الى غيره وان جذبه ملك الى خير جذبه آخر الى غيره فتارة يكون متنازعا بين ملكين وتارة بين شيطانين وتارة بين ملك وشيطان لا يكون قط مهملا واليه الاشارة بقوله تعالى ونقلب أفئدتهم وأبصارهم ولاطلاع رسول الله صلى الله عليه وسلم على عجيب صنع الله تعالى في عجائب القلب وتقلبه كان يحلف به فيقول لا ومقلب القلوب وكان كثيرا ما يقول يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك قالوا أوتخاف يا رسول الله قال وما يؤمنني والقلب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء وفي لفظ آخر ان شاء أن يقيمه أقامه وان شاء أن يزيغه أزاغه وضرب له صلى الله عليه وسلم ثلاثة أمثلة فقال مثل القلب مثل العصفور يتقلب في كل ساعة وقال عليه السلام مثل القلب في تقلبه كالقدر اذا استجمعت غليانا وقال مثل القلب كمثل ريشة في أرض فلاة تقلبها الرياح ظهرا لبطن وهذه التقلبات وعجائب صنع الله تعالى في تقليبها من حيث لا تهتدي اليه المعرفة لا يعرفها الا المراقبون والمراعون لاحوالهم مع الله تعالى * والقلوب في الثبات على الخير والشر والتردد بينهما ثلاثة * قلب عمر بالتقوى وزكا بالرياضة وطهر عن خبائث الاخلاق تنقدح فيه خواطر الخير من خزائن الغيب ومداخل الملكوت فينصرف العقل الى التفكر فيما خطر له ليعرف دقائق الخير فيه ويطلع على أسرار فوائده فينكشف له بنور البصيرة وجهه فيحكم بأنه لا بد من فعله فيستحثه عليه ويدعوه الى العمل به وينظر الملك الى القلب فيجده طيبا في جوهره طاهرا بتقواه مستنيرا بضياء العقل معمورا بأنوار المعرفة فيراه صالحا لان يكون له مستقرا ومهبطا فعند ذلك يمده بجنود لا ترى ويهديه الى خيرات أخرى حتى ينجر الخير الى الخير وكذلك على الدوام ولا يتناهى امداده بالترغيب بالخير وتيسير الامر عليه واليه الاشارة بقوله تعالى فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وفي مثل هذا القلب يشرق نور المصباح من مشكاة الربوبية حتى لا يخفى فيه الشرك الخفي الذي هو أخفى من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء فلا يخفى على هذا النور خافية ولا يروج عليه شيء من مكايد الشيطان بل يقف الشيطان ويوحي زخرف القول غرورا فلا يلتفت اليه وهذا القلب بعد طهارته من المهلكات يصير على القرب معمورا بالمنجيات التي سنذكرها من الشكر والصبر والخوف والرجاء والفقر والزهد والمحبة والرضا والشوق والتوكل والتفكر والمحاسبة وغير ذلك وهو القلب الذي أقبل الله عز وجل بوجهه عليه وهو القلب المطمئن المراد بقوله تعالى ألا بذكر الله تطمئن القلوب وبقوله عز وجل يا أيتها النفس المطمئنة

الجود البخل وفي مقابلة السخاء الشح والجود والبخل يتطرق اليهما الا كتساب بطريق العادة بخلاف الشح والسخاء اذا كان من ضرورة الغريزة وكل سخي جواد وليس كل جواد سخيا والحق سبحانه وتعالى لا يوصف بالسخاء لان السخاء من نتيجة الغرائز والله تعالى منزه عن الغريزة والجود يتطرق اليه الرياء ويأتي به الانسان متطلعا الى عوض من الخلق أو الحق بمقابل ما من الثناء وغيره من الخلق والثواب من الله تعالى والسخاء لا يتطرق اليه الرياء لانه ينبع من النفس الزكية المرتفعة عن الاعواض دنيا وآخرة لان طلب العوض مشعر بالبخل لكونه معلولا بطلب العوض فما تمحض سخاء فالسخاء لاهل الصفاء والايثار لاهل الانوار ويجوز أن يكون قوله تعالى

(القلب الثانى) القلب المخذول المشحون بالهوى المدنس بالاخلاق المذمومة والخبائث المفتوح فيه أبواب الشياطين المسدود عنه أبواب الملائكة ومبدأ الشر فيه أن ينقدح فيه خاطر من الهوى ويهجس فيه فينظر القلب الى حاكم العقل ليستفتى منه ويستكشف وجه الصواب فيه فيكون العقل قد ألف خدمة الهوى وأنس به واستمر على استنباط الحيل له وعلى مساعدة الهوى فتستولى النفس وتساعد عليه فينشرح الصدر بالهوى وتنبسط فيه ظلماته لانحباس جند العقل عن مدافعته فيقوى سلطان الشيطان لاتساع مكانه بسبب انتشار الهوى فيقبل عليه بالتزين والغرور والامانى ويوحى بذلك زخرفا من القول غرورا فيضعف سلطان الايمان بالوعد والوعيد ويخبو نور اليقين لخوف الآخرة اذ يتصاعد عن الهوى دخان مظلم الى القلب يملأ جوانبه حتى تنطفئ أنواره فيصير العقل كالعين التى ملأ الدخان أجفانها فلا يقدر على أن ينظر وهكذا تفعل غلبة الشهوة بالقلب حتى لا يبقى للقلب امكان التوقف والاستبصار ولو بصره واعظ وأسمعه ما هو الحق فيه عمى عن الفهم وصم عن السمع وهاجت الشهوة فيه وسطا الشيطان وتحركت الجوارح على وفق الهوى فظهرت المعصية الى عالم الشهادة من عالم الغيب بقضاء من الله تعالى وقدره والى مثل هذا القلب الاشارة بقوله تعالى أرأيت من اتخذ الهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم الا كالانعام بل هم أضل سبيلا وبقوله عز وجل لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون وبقوله تعالى سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ورب قلب هذا حاله بالاضافة الى بعض الشهوات كالذى يتورع عن بعض الاشياء ولكنه اذا رأى وجها حسنا لم يملك عينه وقلبه وطاش عقله وسقط امساك قلبه أو كالذى لا يملك نفسه فيما فيه الجاه والرياسة والكبر ولا يبقى معه مسكة للتثبت عند ظهور أسبابه أو كالذى لا يملك نفسه عند الغضب مهما استحقر وذكر عيب من عيوبه أو كالذى لا يملك نفسه عند القدرة على أخذ درهم أو دينار بل يتهالك عليه تهالك الواله المستهتر فينسى فيه المروءة والتقوى فكل ذلك لتصاعد دخان الهوى الى القلب حتى يظلم وتنطفئ منه أنواره فينطفئ نور الحياء والمروءة والايمان ويسعى فى تحصيل مراد الشيطان (القلب الثالث) قلب تبدو فيه خواطر الهوى فتدعوه الى الشر فيلحقه خاطر الايمان فيدعوه الى الخير فتنبعث النفس بشهوتها الى نصرة خاطر الشر فتقوى الشهوة وتحسن التمتع والتنعم فينبعث العقل الى خاطر الخير ويدفع فى وجه الشهوة ويقبح فعلها وينسبها الى الجهل ويشبهها بالبهيمة والسبع فى تهجمها على الشر وقلة اكتراثها بالعواقب فتميل النفس الى نصح العقل فيحمل الشيطان حملة على العقل فيقوى داعى الهوى ويقول ما هذا التحرج البارد ولم تمتنع عن هواك فتؤذى نفسك وهل ترى أحدا من أهل عصرك يخالف هواه أو يترك غرضه أفتترك لهم ملاذ الدنيا يتمتعون بها وتحجر على نفسك حتى تبقى محروما شقيا متعوبا يضحك عليك أهل الزمان أفتريد أن يزيد منصبك على فلان وفلان وقد فعلوا مثل ما اشتهيت ولم يمتنعوا أما ترى العالم الفلانى ليس يحترز من مثل ذلك ولو كان ذلك شرا لامتنع منه فتميل النفس الى الشيطان وتنقلب اليه فيحمل الملك حملة على الشيطان ويقول هل هلك الا من اتبع لذة الحال ونسى العاقبة أفتقنع بلذة يسيرة وتترك لذة الجنة ونعيمها أبدا الآباد أم تستثقل ألم الصبر عن شهوتك ولا تستثقل ألم النار أتغتر بغفلة الناس عن أنفسهم واتباعهم هواهم ومساعدتهم الشيطان مع أن عذاب النار لا يخففه عنك معصية غيرك أرأيت لو كنت فى يوم صائف شديد الحر ووقف الناس كلهم فى الشمس وكان لك بيت بارد أكنت تساعد الناس أو تطلب لنفسك الخلاص فكيف تخالف الناس خوفا من حر الشمس ولا تخالفهم خوفا من حر النار فعند ذلك تمتثل النفس الى قول الملك فلا يزال يتردد بين الجندين متجاذبا بين الحزبين الى أن يغلب على القلب ما هو أولى به فان كانت الصفات التى فى القلب الغالب عليها الصفات الشيطانية التى ذكرناها غلب الشيطان ومال القلب الى جنسه من أحزاب الشيطان معرضا عن حزب الله تعالى وأوليائه ومساعدا لحزب الشيطان وأعدائه وجرى على جوارحه بسابق القدر ما هو سبب بعده عن الله تعالى وان كان الاغلب على القلب الصفات الملكية لم يصغ القلب الى اغواء الشيطان وتحريضه اياه على العاجلة وتهوينه أمر الآخرة بل مال الى حزب الله تعالى وظهرت الطاعة بموجب ما سبق من القضاء على جوارحه فقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع

انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا انه نفى فى الآية الاطعام لطلب الاعواض حيث قال لا نريد بعد قوله لوجه الله فما كان لله لا يشعر بطلب العوض بل الغريزة لطهارتها تنجذب الى مراد الحق لا للعوض وذلك أكمل السخاء من أطهر الغرائز روت أسماء بنت أبى بكر قالت قلت يا رسول الله ليس لى من شئ الا ما أدخل على الزبير فأعطى قال نعم لا توكى فيوكى عليك *ومن أخلاق الصوفية التجاوز والعفو ومقابلة السيئة بالحسنة (قال) سفيان الاحسان أن تحسن الى من أساء اليك فان الاحسان الى المحسن متاجرة كنقد السوق خذ شيأ وهات شيأ وقال الحسن الاحسان أن تعم ولا تخص كالشمس والريح والغيث (وروى) أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

الرحمن أي بين تجاذب هذين الجندين وهو الغالب أعني التقلب والانتقال من حزب الى حزب أما الثبات على الدوام مع حزب الملائكة أو مع حزب الشيطان فنادر من الجانبين وهذه الطاعات والمعاصي تظهر من خزائن الغيب الى عالم الشهادة بواسطة خزانة القلب فانه من خزائن الملكوت وهي أيضا اذا ظهرت كانت علامات تعرف أرباب القلوب سابق القضاء فمن خلق للجنة يسرت له أسباب الطاعات ومن خلق للنار يسرت له أسباب المعاصي وسلط عليه أقران السوء وألقي في قلبه حكم الشيطان فانه بأنواع الحكم يغر الحمق بقوله ان الله رحيم فلا تبال وان الناس كلهم ما يخافون الله فلا تخالفهم وان العمر طويل فاصبر حتى تتوب غدا يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان الا غرورا ويعدهم التوبة ويمنيهم المغفرة فيهلكهم باذن الله تعالى بهذه الحيل وما يجري مجراها فيوسع قلبه لقبول الغرور ويضيقه عن قبول الحق وكل ذلك بقضاء من الله وقدر فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء ان ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده فهو الهادي والمضل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه خلق الجنة وخلق لها أهلا فاستعملهم بالطاعة وخلق النار وخلق لها أهلا فاستعملهم بالمعاصي وعرف الخلق علامة أهل الجنة وأهل النار فقال ان الابرار لفي نعيم وان الفجار لفي جحيم ثم قال تعالى فيما روي عن نبيه صلى الله عليه وسلم هؤلاء في الجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي فتعالى الله الملك الحق لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ولنقتصر على هذا القدر اليسير من ذكر عجائب القلب فان استقصاءه لا يليق بعلم المعاملة وانما ذكرنا منه ما يحتاج اليه لمعرفة أغوار علوم المعاملة وأسرارها لينتفع بها من لا يقنع بالظواهر ولا يجتزي بالقشر عن اللباب بل يتشوق الى معرفة دقائق حقائق الاسباب وفيما ذكرناه كفاية له ومقنع ان شاء الله تعالى والله ولي التوفيق

* تم كتاب عجائب القلب ولله الحمد والمنة * ويتلوه كتاب رياضة النفس وتهذيب الاخلاق والحمد لله وحده وصلى الله على كل عبد مصطفى

* كتاب رياضة النفس وتهذيب الاخلاق ومعالجة أمراض القلب وهو الكتاب الثاني من ربع المهلكات *

* بسم الله الرحمن الرحيم *

الحمد لله الذي صرف الامور بتدبيره وعدل تركيب الخلق فأحسن في تصويره وزين صورة الانسان بحسن تقويمه وتقديره وحرسه من الزيادة والنقصان في شكله ومقاديره وفوض تحسين الاخلاق الى اجتهاد العبد وتشميره واستحثه على تهذيبها بتخويفه وتحذيره وسهل على خواص عباده تهذيب الاخلاق بتوفيقه وتيسيره وامتن عليهم بتسهيل صعبه وعسيره والصلاة والسلام على محمد عبد الله ونبيه وحبيبه وصفيه وبشيره ونذيره الذي كان يلوح أنوار النبوة من بين أساريره ويستشرف حقيقة الحق من مخايله وتباشيره وعلى آله وأصحابه الذين طهروا وجه الاسلام من ظلمة الكفر ودياجيره وحسموا مادة الباطل فلم يتدنسوا بقليله ولا بكثيره (أما بعد) فالخلق الحسن صفة سيد المرسلين وأفضل أعمال الصديقين وهو على التحقيق شطر الدين وثمرة مجاهدة المتقين ورياضة المتعبدين والاخلاق السيئة هي السموم القاتلة والمهلكات الدامغة والمخازي الفاضحة والرذائل الواضحة والخبائث المبعدة عن جوار رب العالمين المنخرطة بصاحبها في سلك الشياطين وهي الابواب المفتوحة الى نار الله الموقدة التي تطلع على الافئدة كما أن الاخلاق الجميلة هي الابواب المفتوحة من القلب الى نعيم الجنان وجوار الرحمن والاخلاق الخبيثة أمراض القلوب واسقام النفوس الا أنه مرض يفوت حياة الابد * وأين منه المرض الذي لا يفوت الا حياة الجسد * ومهما اشتدت عناية الاطباء بضبط قوانين العلاج للابدان وليس في مرضها الا فوت الحياة الفانية فالعناية بضبط قوانين العلاج لامراض القلوب وفي مرضها فوت حياة باقية أولى وهذا النوع من الطب واجب تعلمه على كل ذي لب اذ لا يخلو قلب من القلوب عن أسقام لو أهملت تراكمت وترادفت العلل وتظاهرت فيحتاج العبد الى تأنق في معرفة عللها وأسبابها ثم الى تشمير في علاجها واصلاحها فمعالجتها هو المراد بقوله تعالى قد أفلح من زكاها واهمالها هو المراد بقوله وقد خاب من دساها ونحن نشير في هذا الكتاب الى جمل من أمراض القلوب وكيفية القول في معالجتها على الجملة من غير تفصيل لعلاج خصوص

الامراض

رأيت قصورا مشرفة على الجنة فقلت يا جبرائيل لمن هذه قال للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس (روى) أبو هريرة رضي الله عنه أن أبا بكر رضي الله عنه كان مع النبي صلى الله عليه وسلم في مجلس فجاء رجل فوقع في أبي بكر وهو ساكت والنبي عليه السلام يتبسم ثم رد أبو بكر عليه بعض الذي قال فغضب النبي وقام فلحقه أبو بكر فقال يا رسول الله شتمني وأنت تتبسم ثم رددت عليه بعض ما قال فغضبت وقمت فقال انك حيث كنت ساكتا كان معك ملك يرد عليه فلما تكلمت وقع الشيطان فلم أكن لاقعد في مقعد فيه الشيطان يا أبا بكر ثلاث كلهن حق ليس عبد يظلم بمظلمة فيعفو عنها الا أعز الله نصره وليس عبد يفتح باب مسئلة يريد بها كثرة الا زاده الله قلة وليس عبد يفتح باب

الامراض فان ذلك يأتى فى بقية الكتب من هذا الربع وغرضنا الآن النظر الكلى فى تهذيب الاخلاق وتمهيد منهاجها ونحن نذكر ذلك ونجعل علاج البدن مثالا له ليقرب من الافهام دركه ويتضح ذلك ببيان فضيلة حسن الخلق ثم بيان حقيقة حسن الخلق ثم بيان قبول الاخلاق للتغير بالرياضة ثم بيان السبب الذى به ينال حسن الخلق ثم بيان الطرق التى بها يعرف تفصيل الطرق الى تهذيب الاخلاق ورياضة النفوس ثم بيان العلامات التى بها يعرف مرض القلب ثم بيان الطرق التى بها يعرف الانسان عيوب نفسه ثم بيان شواهد النقل على ان طريق المعالجة للقلوب بترك الشهوات لاغير ثم بيان علامات حسن الخلق ثم بيان الطريق فى رياضة الصبيان فى أول النشو ثم بيان شروط الارادة ومقدمات المجاهدة فهى أحد عشر فصلا يجمع مقاصدها هذا الكتاب ان شاء الله تعالى

﴿بيان فضيلة حسن الخلق ومذمة سوء الخلق﴾

قال الله تعالى لنبيه وحبيبه مثنيا عليه ومظهرا نعمته لديه وانك لعلى خلق عظيم وقالت عائشة رضى الله عنها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خلقه القرآن وسأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حسن الخلق فتلا قوله تعالى خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ثم قال صلى الله عليه وسلم هو أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك وقال صلى الله عليه وسلم انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق وقال صلى الله عليه وسلم أثقل ما يوضع فى الميزان يوم القيامة تقوى الله وحسن الخلق وجاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين يديه فقال يارسول الله ما الدين قال حسن الخلق فأتاه من قبل يمينه فقال يارسول الله ما الدين قال حسن الخلق ثم أتاه من قبل شماله فقال ما الدين فقال حسن الخلق ثم أتاه من ورائه فقال يارسول الله ما الدين فالتفت اليه وقال أما تفقه هو أن لا تغضب وقيل يارسول الله ما الشؤم قال سوء الخلق وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أوصنى فقال اتق الله حيث كنت قال زدنى قال أتبع السيئة الحسنة تمحها قال زدنى قال خالق الناس بخلق حسن وسئل عليه السلام أى الاعمال أفضل قال خلق حسن وقال صلى الله عليه وسلم ما حسن الله خلق عبد وخلقه فيطعمه النار وقال الفضيل قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وهى سيئة الخلق تؤذى جيرانها بلسانها قال لاخير فيها هى من أهل النار وقال أبو الدرداء سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أول ما يوضع فى الميزان حسن الخلق والسخاء ولما خلق الله الايمان قال اللهم قونى فقواه بحسن الخلق والسخاء ولما خلق الله الكفر قال اللهم قونى فقواه بالبخل وسوء الخلق وقال صلى الله عليه وسلم ان الله استخلص هذا الدين لنفسه ولا يصلح لدينكم الا السخاء وحسن الخلق ألا فزينوا دينكم بهما وقال عليه السلام حسن الخلق خلق الله الاعظم وقيل يارسول الله أى المؤمنين أفضل ايمانا قال أحسنهم خلقا وقال صلى الله عليه وسلم انكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق وقال أيضا صلى الله عليه وسلم سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل وعن جرير بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انك امرؤ قد حسن الله خلقك فحسن خلقك وعن البراء بن عازب قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وجها وأحسنهم خلقا وعن أبى سعيد الخدرى قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى دعائه اللهم حسنت خلقى فحسن خلقى وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر الدعاء فيقول اللهم انى أسألك الصحة والعافية وحسن الخلق وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال كرم المؤمن دينه وحسبه حسن خلقه ومروءته عقله وعن أسامة بن شريك قال شهدت الاعاريب يسألون النبى صلى الله عليه وسلم يقولون ما خير ما أعطى العبد قال خلق حسن وقال صلى الله عليه وسلم ان أحبكم الى وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث من لم تكن فيه أو واحدة منهن فلا تعتدوا بشئ من عمله تقوى تحجزه عن معاصى الله أو حلم يكف به السفيه أو خلق يعيش به بين الناس وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم فى افتتاح الصلاة اللهم اهدنى لاحسن الاخلاق لا يهدى لاحسنها الا أنت واصرف عنى سيئها لا يصرف عنى سيئها الا أنت وقال أنس بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما اذ قال ان حسن الخلق ليذيب الخطيئة كما تذيب الشمس الجليد وقال عليه السلام من سعادة المرء حسن الخلق وقال صلى الله عليه وسلم

عطية أو صلة يبتغى بها وجه الله الا زاده الله بها كثرة (أخبرنا) ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال أنا الكرخى قال أنا الترياقى قال أنا الجراحى قال أنا المحبوبى قال أنا أبو عيسى الترمذى قال ثنا أبو هشام الرفاعى قال ثنا محمد بن فضيل عن الوليد بن عبد الله بن جميع عن أبى الطفيل عن حذيفة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تكونوا امعة تقولون ان أحسن الناس أحسنا وان ظلموا ظلمنا ولكن وطنوا أنفسكم ان أحسن الناس أن تحسنوا وان أساؤا فلا تظلموا (وقال) بعض الصحابة يارسول الله الرجل أمر به فلا يقرينى ولا يضيفنى فيمر بى أفأجزيه قال لا أقره وقال الفضيل الفتوة الصفح عن عثرات الاخوان وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس الواصل المكافئ ولكن الواصل

اليمن حسن الخلق وقال عليه السلام لابى ذر يا أباذر لاعقل كالتدبير ولاحسب كحسن الخلق وعن أنس قال قالت أم حبيبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم أرأيت المرأة يكون لها زوجان في الدنيا فتموت ويموتان ويدخلون الجنة لايهما هي تكون قال لاحسنهما خلقا كان عندها في الدنيا يا أم حبيبة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة وقال صلى الله عليه وسلم ان المسلم المسدد ليدرك درجة الصائم القائم بحسن خلقه وكرم مرتبته وفي رواية درجة الظمآن في الهواجر وقال عبد الرحمن بن سمرة كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال انى رأيت البارحة عجبا رأيت رجلا من أمتي جاثيا على ركبتيه وبينه وبين الله حجاب فجاء حسن خلقه فادخله على الله تعالى وقال أنس قال النبي صلى الله عليه وسلم ان العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة وشرف المنازل وانه لضعيف في العبادة وروى أن عمر رضي الله عنه استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده نساء من نساء قريش يكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهن على صوته فلما استأذن عمر رضي الله عنه تبادرن الحجاب فدخل عمر ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك فقال عمر رضي الله عنه مم تضحك بأبي أنت وأمي يا رسول الله فقال عجبت لهؤلاء اللاتي كن عندي لما سمعن صوتك تبادرن الحجاب فقال عمر أنت كنت أحق أن يهبنك يا رسول الله ثم أقبل عليهن عمر فقال ياعدوات أنفسهن أتهبنني ولاتهبن رسول الله صلى الله عليه وسلم قلن نعم أنت أغلظ وأفظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم ايها يا ابن الخطاب والذى نفسى بيده مالقيك الشيطان قط سالكا فجا الا سلك فجا غير فجك وقال صلى الله عليه وسلم سوء الخلق ذنب لايغفر وسوء الظن خطيئة تفوح وقال عليه السلام ان العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل درك جهنم (الآثار) قال ابن لقمان الحكيم لابيه يا أبت أى الخصال من الانسان خير قال الدين قال فاذا كانت اثنتين قال الدين والمال قال فاذا كانت ثلاثا قال الدين والمال والحياء قال فاذا كانت أربعا قال الدين والمال والحياء وحسن الخلق قال فاذا كانت خمسا قال الدين والمال والحياء وحسن الخلق والسخاء قال فاذا كانت ستا قال يابنى اذا اجتمعت فيه الخمس خصال فهو نقى تقى ولله ولى ومن الشيطان برى وقال الحسن من ساء خلقه عذب نفسه وقال أنس بن مالك ان العبد ليبلغ بحسن خلقه أعلى درجة في الجنة وهو غير عابد ويبلغ بسوء خلقه أسفل درك في جهنم وهو عابد وقال يحيى بن معاذ في سعة الاخلاق كنوز الارزاق وقال وهب بن منبه مثل السيء الخلق كمثل الفخارة المكسورة لاترقع ولاتعاد طينا وقال الفضيل لان يصحبنى فاجر حسن الخلق أحب الى من أن يصحبنى عابد سيء الخلق * وصحب ابن المبارك رجل سيء الخلق في سفره فكان يحتمل منه ويداريه فلما فارقه بكى فقيل له في ذلك فقال بكيته رحمة له فارقته وخلقه معه لم يفارقه وقال الجنيد أربع ترفع العبد الى أعلى الدرجات وان قل عمله وعلمه الحلم والتواضع والسخاء وحسن الخلق وهو كمال الايمان وقال الكتاني التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف وقال عمر رضي الله عنه خالطوا الناس بالاخلاق وزايلوهم بالاعمال وقال يحيى بن معاذ سوء الخلق سيئة لاتنفع معها كثرة الحسنات وحسن الخلق حسنة لاتضر معها كثرة السيئات وسئل ابن عباس ما الكرم فقال هو مابين الله في كتابه العزيز أكرمكم عند الله أتقاكم قيل فما الحسب قال أحسنكم خلقا أفضلكم حسبا وقال لكل بنيان أساس وأساس الاسلام حسن الخلق وقال عطاء ماارتفع من ارتفع الا بالخلق الحسن ولم ينل أحد كماله الا المصطفى صلى الله عليه وسلم فأقرب الخلق الى الله عز وجل السالكون آثاره بحسن الخلق

الذي اذا قطعت رحمه وصلها (وروى) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكارم الاخلاق أن تعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك وتعطى من حرمك * ومن أخلاق الصوفية البشر وطلاقة الوجه الصوفي بكاؤه في خلوته وبشره وطلاقة وجهه مع الناس فالبشر على وجهه من آثار أنوار قلبه وقد تنازل باطن الصوفي منازلات الهية ومواهب قدسية يرتوى منها القلب ويمتلئ فرحا وسرورا قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا والسرور اذا تمكن من القلب فاض على الوجه آثاره قال الله تعالى وجوه يومئذ مسفرة أى مضيئة مشرقة مستبشرة أى فرحة قيل أشرقت من طول مااغبرت في سبيل الله ومثال فيض النور على الوجه من القلب كفيضان نور السراج على الزجاج والمشكاة

﴿ بيان حقيقة حسن الخلق وسوء الخلق ﴾

اعلم أن الناس قد تكلموا في حقيقة حسن الخلق وانه ماهو وماتعرضوا لحقيقته وانما تعرضوا لثمرته ثم لم يستوعبوا جميع ثمراته بل ذكر كل واحد من ثمراته ماخطر له وما كان حاضرا في ذهنه ولم يصرفوا العناية الى ذكر حده وحقيقته المحيطة بجميع ثمراته على التفصيل والاستيعاب وذلك كقول الحسن حسن الخلق بسط الوجه وبذل الندى وكف الاذى وقال الواسطى هو أن لايخاصم ولايخاصم من شدة معرفته بالله تعالى وقال شاه الكرمانى هو كف الاذى واحتمال المؤن وقال بعضهم هو أن يكون من الناس قريبا وفيما بينهم غريبا وقال الواسطى مرة هو ارضاء الخلق في السراء والضراء وقال أبو عثمان هو الرضا عن الله تعالى وسئل سهل التسترى

عن حسن الخلق فقال أردناه الاحتمال وترك المكافأة والرحمة للظالم والاستغفار له والشفقة عليه وقال مرة أن لا يتهم الحق في الرزق ويثق به ويسكن الى الوفاء بما ضمن فيطيعه ولا يعصيه في جميع الامور فيما بينه وبينه وفيما بينه وبين الناس وقال على رضى الله عنه حسن الخلق في ثلاث خصال اجتناب المحارم وطلب الحلال والتوسعة على العيال وقال الحسين بن منصور هو أن لا يؤثر فيك جفاء الخلق بعد مطالعتك للحق وقال أبو سعيد الخراز هو أن لا يكون لك هم غير الله تعالى فهذا وأمثاله كثير وهو تعرض لثمرات حسن الخلق لا لنفسه ثم ليس هو محيطا بجميع الثمرات أيضا وكشف الغطاء عن الحقيقة أولى من نقل الاقاويل المختلفة فنقول الخلق والخلق عبارتان مستعملتان معا يقال فلان حسن الخلق والخلق أى حسن الباطن والظاهر فيراد بالخلق الصورة الظاهرة ويراد بالخلق الصورة الباطنة وذلك لان الانسان مركب من جسد مدرك بالبصر ومن روح ونفس مدرك بالبصيرة ولكل واحد منهما هيئة وصورة اما قبيحة واما جميلة فالنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدرا من الجسد المدرك بالبصر ولذلك عظم الله أمره باضافته اليه اذ قال تعالى انى خالق بشرا من طين فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين فنبه على أن الجسد منسوب الى الطين والروح الى رب العالمين والمراد بالروح والنفس في هذا المقام واحد فالخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة عنها تصدر الافعال بسهولة ويسر من غير حاجة الى فكر وروية فان كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الافعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سميت تلك الهيئة خلقا حسنا وان كان الصادر عنها الافعال القبيحة سميت الهيئة التى هى المصدر خلقا سيئا وانما قلنا انها هيئة راسخة لان من يصدر منه بذل المال على الندور لحاجة عارضة لا يقال خلقه السخاء ما لم يثبت ذلك فى نفسه ثبوت رسوخ وانما اشترطنا أن تصدر منه الافعال بسهولة من غير روية لان من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد وروية لا يقال خلقه السخاء والحلم فههنا أربعة أمور أحدها فعل الجميل والقبيح والثانى القدرة عليهما والثالث المعرفة بهما والرابع هيئة للنفس بها تميل الى أحد الجانبين ويتيسر عليها أحد الامرين اما الحسن واما القبيح وليس الخلق عبارة عن الفعل فرب شخص خلقه السخاء ولا يبذل اما لفقد المال أو لمانع وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل اما لباعث أو لرياء وليس هو عبارة عن القوة لان نسبة القوة الى الامساك والاعطاء بل الى الضدين واحد وكل انسان خلق بالفطرة قادر على الاعطاء والامساك وذلك لا يوجب خلق البخل ولا خلق السخاء وليس هو عبارة عن المعرفة فان المعرفة تتعلق بالجميل والقبيح جميعا على وجه واحد بل هو عبارة عن المعنى الرابع وهو الهيئة التى بها تستعد النفس لان يصدر منها الامساك أو البذل فالخلق اذا عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة وكما أن حسن الصورة الظاهرة مطلقا لا يتم بحسن العينين دون الانف والفم والخد بل لا بد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر فكذلك في الباطن أربعة أركان لا بد من الحسن في جميعها حتى يتم حسن الخلق فاذا استوت الاركان الاربعة واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق وهو قوة العلم وقوة الغضب وقوة الشهوة وقوة العدل بين هذه القوى الثلاث أما قوة العلم فحسنها وصلاحها في أن تصير بحيث يسهل بها درك الفرق بين الصدق والكذب في الاقوال وبين الحق والباطل في الاعتقادات وبين الجميل والقبيح في الافعال فاذا صلحت هذه القوة حصل منها ثمرة الحكمة والحكمة رأس الاخلاق الحسنة وهى التى قال الله فيها ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وأما قوة الغضب فحسنها في أن يصير انقباضها وانبساطها على حد ما تقتضيه الحكمة وكذلك الشهوة حسنها وصلاحها في أن تكون تحت اشارة الحكمة أعنى اشارة العقل والشرع وأما قوة العدل فهو ضبط الشهوة والغضب تحت اشارة العقل والشرع فالعقل مثاله مثال الناصح المشير وقوة العدل هى القدرة ومثالها مثال المنفذ الممضى لاشارة العقل والغضب هو الذى تنفذ فيه الاشارة ومثاله مثال كلب الصيد فانه يحتاج الى أن يؤدب حتى يكون استرساله وتوقفه بحسب الاشارة لا بحسب هيجان شهوة النفس والشهوة مثالها مثال الفرس الذى يركب فى طلب الصيد فانه تارة يكون مروضا مؤدبا وتارة يكون جموحا فمن استوت فيه هذه الخصال واعتدلت فهو حسن الخلق مطلقا ومن اعتدل فيه بعضها دون البعض فهو حسن الخلق بالاضافة الى ذلك المعنى خاصة كالذى يحسن بعض أجزاء وجهه دون بعض وحسن القوة الغضبية واعتدالها

فالوجه مشكاة والقلب زجاج والروح مصباح فاذا تنعم القلب بلذيذ المسامرة ظهر البشر على الوجه قال الله تعالى تعرف فى وجوههم نضرة النعيم أى نضارته وبريقه يقال أنضر النبات اذا أزهر ونور وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة فلما نظرت نضرت فأرباب المشاهدة من الصوفية تنورت بصائرهم بنور المشاهدة وانصقلت مرآة قلوبهم وانعكس فيها نور الجمال الازلى واذا شرقت الشمس على المرآة المصقولة استنارت الجدران قال الله تعالى سيماهم فى وجوههم من أثر السجود واذا تأثر الوجه بسجود الظلال وهى القوالب فى قول الله تعالى وظلالهم بالغدو والآصال كيف لا يتأثر بشهود الجمال (أخبرنا) ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال أنا الكرخى قال أنا الترياقى قال أنا

يعبر عنه بالشجاعة وحسن قوة الشهوة واعتدالها يعبر عنه بالعفة فان مالت قوة الغضب عن الاعتدال الى طرف الزيادة تسمى تهورا وان مالت الى الضعف والنقصان تسمى جبنا وخورا وان مالت قوة الشهوة الى طرف الزيادة تسمى شرها وان مالت الى النقصان تسمى جمودا والمحمود هو الوسط وهو الفضيلة والطرفان رذيلتان مذمومتان والعدل اذا فات فليس له طرفا زيادة ونقصان بل له ضد واحد ومقابل وهو الجور وأما الحكمة فيسمى افراطها عند الاستعمال فى الاغراض الفاسدة خبثا وجربزة ويسمى تفريطها بلها والوسط هو الذى يختص باسم الحكمة فاذا أمهات الاخلاق وأصولها أربعة الحكمة والشجاعة والعفة والعدل ونعنى بالحكمة حالة للنفس بها تدرك الصواب من الخطأ فى جميع الافعال الاختيارية ونعنى بالعدل حالة للنفس وقوة بها تسوس الغضب والشهوة وتحملهما على مقتضى الحكمة وتضبطهما فى الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاها ونعنى بالشجاعة كون قوة الغضب منقادة للعقل فى اقدامها واحجامها ونعنى بالعفة تأدب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع فمن اعتدال هذه الاصول الاربعة تصدر الاخلاق الجميلة كلها اذ من اعتدال قوة العقل يحصل حسن التدبير وجودة الذهن وثقابة الرأى واصابة الظن والتفطن لدقائق الاعمال وخفايا آفات النفوس ومن افراطها تصدر الجربزة والمكر والخداع والدهاء ومن تفريطها يصدر البله والغمارة والحمق والجنون وأعنى بالغمارة قلة التجربة فى الامور مع سلامة التخيل فقد يكون الانسان غمرا فى شئ دون شئ والفرق بين الحمق والجنون أن الاحمق مقصوده صحيح ولكن سلوكه الطريق فاسد فلا تكون له روية صحيحة فى سلوك الطريق الموصل الى الغرض وأما المجنون فانه يختار ما لا ينبغى أن يختار فيكون أصل اختياره وايثاره فاسدا وأما خلق الشجاعة فيصدر منه الكرم والنجدة والشهامة وكسر النفس والاحتمال والحلم والثبات وكظم الغيظ والوقار والتودد وأمثالها وهى أخلاق محمودة وأما افراطها وهو التهور فيصدر منه الصلف والبذخ والاستشاطة والتكبر والعجب وأما تفريطها فيصدر منه المهانة والذلة والجزع والخساسة وصغر النفس والانقباض عن تناول الحق الواجب وأما خلق العفة فيصدر منه السخاء والحياء والصبر والمسامحة والقناعة والورع واللطافة والمساعدة والظرف وقلة الطمع وأما ميلها الى الافراط أو التفريط فيحصل منه الحرص والشره والوقاحة والخبث والتبذير والتقتير والرياء والهتكة والمجانة والعبث والملق والحسد والشماتة والتذلل للاغنياء واستحقار الفقراء وغير ذلك فأمهات محاسن الاخلاق هذه الفضائل الاربعة وهى الحكمة والشجاعة والعفة والعدل والباقى فروعها ولم يبلغ كمال الاعتدال فى هذه الاربع الا رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس بعده متفاوتون فى القرب والبعد منه فكل من قرب منه فى هذه الاخلاق فهو قريب من الله تعالى بقدر قربه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل من جمع كمال هذه الاخلاق استحق أن يكون بين الخلق ملكا مطاعا يرجع الخلق كلهم اليه ويقتدون به فى جميع الافعال ومن انفك عن هذه الاخلاق كلها واتصف باضدادها استحق أن يخرج من بين البلاد والعباد فانه قد قرب من الشيطان اللعين المبعد فينبغى أن يبعد كما أن الاول قريب من الملك المقرب فينبغى أن يقتدى به ويتقرب اليه فان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبعث الا ليتمم مكارم الاخلاق كما قال وقد أشار القرآن الى هذه الاخلاق فى أوصاف المؤمنين فقال تعالى انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون فالايمان بالله وبرسوله من غير ارتياب هى قوة اليقين وهى ثمرة العقل ومنتهى الحكمة والمجاهدة بالمال هو السخاء الذى يرجع الى ضبط قوة الشهوة والمجاهدة بالنفس هى الشجاعة التى ترجع الى استعمال قوة الغضب على شرط العقل وحد الاعتدال فقد وصف الله تعالى الصحابة فقال أشداء على الكفار رحماء بينهم اشارة الى أن للشدة موضعا وللرحمة موضعا فليس الكمال فى الشدة بكل حال ولا فى الرحمة بكل حال فهذا بيان معنى الخلق وحسنه وقبحه وبيان أركانه وثمراته وفروعه

﴿ بيان قبول الاخلاق للتغيير بطريق الرياضة ﴾

اعلم أن بعض من غلبت البطالة عليه استثقل المجاهدة والرياضة والاشتغال بتزكية النفس وتهذيب الاخلاق فلم تسمح نفسه بأن يكون ذلك لقصوره ونقصه وخبث دخلته فزعم أن الاخلاق لا يتصور تغييرها فان الطباع لا تتغير

واستدل

الجراحى قال أنا المحبوبى قال أنا أبو عيسى الترمذى قال ثنا قتيبة قال ثنا المنكدر ابن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل معروف صدقة وان من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق وان تفرغ من دلوك فى اناء أخيك (وقال) سعد بن عبد الرحمن الزبيدى يعجبنى من القراء كل سهل طلق مضحاك فأما من تلقاه بالبشر ويلقاك بالعبوس كأنه يمن عليك فلا أكثر الله فى القراء مثله (ومن أخلاق الصوفية) السهولة ولين الجانب والنزول مع الناس الى أخلاقهم وطباعهم وترك التعسف والتكلف وقد روى فى ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبار وأخلاق الصوفية تحاكى أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يقول عليه

واستدل فيه بأمرين أحدهما ان الخلق هو صورة الباطن كما ان الخلق هو صورة الظاهر فالخلقة الظاهرة لايقدر على تغييرها فالقصير لايقدر أن يجعل نفسه طويلا ولا الطويل يقدر أن يجعل نفسه قصيرا ولا القبيح يقدر على تحسين صورته فكذلك القبح الباطن يجرى هذا المجرى والثانى انهم قالوا حسن الخلق بقمع الشهوة والغضب وقد جربنا ذلك بطول المجاهدة وعرفنا أن ذلك من مقتضى المزاج والطبع فانه قط لا ينقطع عن الآدمى فاشتغاله به تضييع زمان بغير فائدة فان المطلوب هو قطع التفات القلب الى الحظوظ العاجلة وذلك محال وجوده فنقول لو كانت الاخلاق لاتقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حسنوا أخلاقكم وكيف ينكر هذا فى حق الآدمى وتغيير خلق البهيمة ممكن اذ ينقل البازى من الاستيحاش الى الانس والكلب من شره الاكل الى التأدب والامساك والتخلية والفرس من الجماح الى السلاسة والانقياد وكل ذلك تغيير للاخلاق والقول الكاشف للغطاء عن ذلك أن نقول الموجودات منقسمة الى ما لا مدخل للآدمى واختياره فى أصله وتفصيله كالسماء والكواكب بل أعضاء البدن داخلا وخارجا وسائر أجزاء الحيوانات وبالجملة كل ما هو حاصل كامل وقع الفراغ من وجوده وكماله والى ما وجد وجودا ناقصا وجعل فيه قوة لقبول الكمال بعد أن وجد شرطه وشرطه قد يرتبط باختيار العبد فان النواة ليست بتفاح ولا نخل الا انها خلقت خلقة يمكن أن تصير نخلة اذا انضاف التربية اليها ولا تصير تفاحا أصلا ولا بالتربية فاذا صارت النواة متأثرة بالاختيار حتى تقبل بعض الاحوال دون بعض فكذلك الغضب والشهوة لو أردنا قمعهما وقهرهما بالكلية حتى لا يبقى لهما أثر لم نقدر عليه أصلا ولو أردنا سلاستهما وقودهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه وقد أمرنا بذلك وصار ذلك سبب نجاتنا ووصولنا الى الله تعالى نعم الجبلات مختلفة بعضها سريعة القبول وبعضها بطيئة القبول ولاختلافها سببان أحدهما قوة الغريزة فى أصل الجبلة وامتداد مدة الوجود فان قوة الشهوة والغضب والتكبر موجودة فى الانسان ولكن أصعبها أمرا وأعصاها على التغيير قوة الشهوة فانها أقدم وجودا اذ الصبى فى مبدا الفطرة تخلق له الشهوة ثم بعد سبع سنين ربما يخلق له الغضب وبعد ذلك يخلق له قوة التمييز والسبب الثانى أن الخلق قد يتأكد بكثرة العمل بمقتضاه والطاعة له وباعتقاد كونه حسنا ومرضيا والناس فيه على أربع مراتب * الاولى وهو الانسان المغفل الذى لا يميز بين الحق والباطل والجميل والقبيح بل بقى كما فطر عليه خاليا عن جميع الاعتقادات ولم تستتم شهوته أيضا باتباع اللذات فهذا سريع القبول للعلاج جدا فلا يحتاج الا الى معلم ومرشد والى باعث من نفسه يحمله على المجاهدة فيحسن خلقه فى أقرب زمان * والثانية أن يكون قد عرف قبح القبيح ولكنه لم يتعود العمل الصالح بل زين له سوء عمله فتعاطاه انقيادا لشهواته واعراضا عن صواب رأيه لاستيلاء الشهوة عليه ولكن علم تقصيره فى عمله فأمره أصعب من الاول اذ قد تضاعفت الوظيفة عليه اذ عليه قلع ما رسخ فى نفسه أولا من كثرة الاعتياد للفساد والآخر أن يغرس فى نفسه صفة الاعتياد للصلاح ولكنه بالجملة محل قابل للرياضة ان انتهض لها بجد وتشمير وحزم * والثالثة أن يعتقد فى الاخلاق القبيحة انها الواجبة المستحسنة وانها حق وجميل وتربى عليها فهذا تكاد تمتنع معالجته ولا يرجى صلاحه الا على الندور وذلك لتضاعف أسباب الضلال * والرابعة أن يكون مع الشهوة على الرأى الفاسد وتربيته على العمل به يرى الفضيلة فى كثرة الشر واستهلاك النفوس ويباهى به ويظن أن ذلك يرفع قدره وهذا هو أصعب المراتب وفى مثله قيل ومن العناء رياضة الهرم ومن التعذيب تهذيب الذيب والاول من هؤلاء جاهل فقط والثانى جاهل وضال والثالث جاهل وضال وفاسق والرابع جاهل وضال وفاسق وشرير وأما الخيال الآخر الذى استدلوا به وهو قولهم ان الآدمى ما دام حيا فلا ينقطع عنه الشهوة والغضب وحب الدنيا وسائر هذه الاخلاق فهذا غلط وقع لطائفة ظنوا أن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها وهيهات فان الشهوة خلقت لفائدة وهى ضرورية فى الجبلة فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الانسان ولو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الانسان عن نفسه ما يهلكه ولهلك ومهما بقى أصل الشهوة فيبقى لا محالة حب المال الذى يوصله الى الشهوة حتى يحمله ذلك على امساك المال وليس المطلوب اماطة ذلك بالكلية بل المطلوب ردها الى الاعتدال الذى هو وسط بين الافراط

الصلاة والسلام أمانى أمزح ولا أقول الاحقا روى أن رجلا يقال له زاهر بن حرام وكان بدويا وكان لا يأتى الى رسول الله الا جاء بطرفة يهديها الى رسول الله فجاء يوما من الايام فوجده رسول الله فى سوق المدينة يبيع سلعة له ولم يكن أتاه ذلك اليوم فاحتضنه النبى عليه السلام من ورائه بكفيه فالتفت فأبصر النبى عليه السلام فقبل كفيه فقال النبى عليه السلام من يشترى العبد فقال اذا تجدنى كاسدا يارسول الله فقال ولكن عند الله ربيح ثم قال عليه السلام لكل أهل حضر بادية وبادية آل محمد زاهر بن حرام (وأخبرنا) أبو زرعة طاهر ابن الحافظ المقدسى عن أبيه قال أنا المطهر بن محمد الفقيه قال أنا أبو الحسن قال أنا أبو عمرو ابن حكيم قال أنا أبو أمية قال ثنا عبيد بن

والتفريط والمطلوب في صفة الغضب حسن الحمية وذلك بأن يخلو عن التهور وعن الجبن جميعا وبالجملة أن يكون في نفسه قويا ومع قوته منقادا للعقل ولذلك قال الله تعالى أشداء على الكفار رحماء بينهم وصفهم بالشدة وانما تصدر الشدة عن الغضب ولو بطل الغضب لبطل الجهاد وكيف يقصد قلع الشهوة والغضب بالكلية والانبياء عليهم السلام لم ينفكوا عن ذلك اذ قال صلى الله عليه وسلم انما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر وكان اذا تكلم بين يديه بما يكرهه يغضب حتى تحمر وجنتاه ولكن لا يقول الا حقا فكان عليه السلام لا يخرجه غضبه عن الحق وقال تعالى والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ولم يقل والفاقدين الغيظ فرد الغضب والشهوة الى حد الاعتدال بحيث لا يقهر واحد منهما العقل ولا يغلبه بل يكون العقل هو الضابط لهما والغالب عليهما ممكن وهو المراد بتغيير الخلق فانه ربما تستولي الشهوة على الانسان بحيث لا يقوى عقله على دفعها عن الانبساط الى الفواحش وبالرياضة تعود الى حد الاعتدال فدل أن ذلك ممكن والتجربة والمشاهدة تدل على ذلك دلالة لا شك فيها والذي يدل على أن المطلوب هو الوسط في الاخلاق دون الطرفين أن السخاء خلق محمود شرعا وهو وسط بين طرفي التبذير والتقتير وقد أثنى الله تعالى عليه فقال والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما وقال تعالى ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط وكذلك المطلوب في شهوة الطعام الاعتدال دون الشره والجمود قال الله تعالى كلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين وقال في الغضب أشداء على الكفار رحماء بينهم وقال صلى الله عليه وسلم خير الامور أوساطها وهذا له سر وتحقيق وهو أن السعادة منوطة بسلامة القلب عن عوارض هذا العالم قال الله تعالى الا من أتى الله بقلب سليم والبخل من عوارض الدنيا والتبذير أيضا من عوارض الدنيا وشرط القلب أن يكون سليما منهما أي لا يكون ملتفتا الى المال ولا يكون حريصا على انفاقه ولا على امساكه فان الحريص على الانفاق مصروف القلب الى الانفاق كما ان الحريص على الامساك مصروف القلب الى الامساك فكان كمال القلب أن يصفو عن الوصفين جميعا واذا لم يكن ذلك في الدنيا طلبنا ما هو الاشبه لعدم الوصفين وأبعد عن الطرفين وهو الوسط فان الفاتر لا حار ولا بارد بل هو وسط بينهما فكأنه خال عن الوصفين فكذلك السخاء بين التبذير والتقتير والشجاعة بين الجبن والتهور والعفة بين الشره والجمود وكذلك سائر الاخلاق فكلا طرفي الامور ذميم هذا هو المطلوب وهو ممكن نعم يجب على الشيخ المرشد للمريد أن يقبح عنده الغضب رأسا ويذم امساك المال رأسا ولا يرخص له في شئ منه لانه لو رخص له في أدنى شئ اتخذ ذلك عذرا في استبقاء بخله وغضبه وظن انه القدر المرخص فيه فاذا قصد قطع الاصل وبالغ فيه ولم يتيسر له الا كسر سورته بحيث يعود الى الاعتدال فالصواب له أن يقصد قلع الاصل حتى يتيسر له القدر المقصود فلا يكشف هذا السر للمريد فانه موضع غرور الحمق اذ يظن بنفسه أن غضبه بحق وان امساكه بحق

﴿ بيان السبب الذي به ينال حسن الخلق على الجملة ﴾

قد عرفت أن حسن الخلق يرجع الى اعتدال قوة العقل وكمال الحكمة والى اعتدال قوة الغضب والشهوة وكونها للعقل مطيعة وللشرع أيضا وهذا الاعتدال يحصل على وجهين * أحدهما بجود الهي وكمال فطري بحيث يخلق الانسان ويولد كامل العقل حسن الخلق قد كفي سلطان الشهوة والغضب بل خلقتا معتدلتين منقادتين للعقل والشرع فيصير عالما بغير تعلم ومؤدبا بغير تأديب كعيسى بن مريم ويحيى بن زكريا عليهما السلام وكذا سائر الانبياء صلوات الله عليهم أجمعين ولا يبعد أن يكون في الطبع والفطرة ما قد ينال بالاكتساب فرب صبي خلق صادق اللهجة سخيا جريا وربما يخلق بخلافه فيحصل ذلك فيه بالاعتياد ومخالطة المتخلقين بهذه الاخلاق وربما يحصل بالتعلم والوجه الثاني اكتساب هذه الاخلاق بالمجاهدة والرياضة وأعني به حمل النفس على الاعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب فمن أراد مثلا أن يحصل لنفسه خلق الجود فطريقه أن يتكلف تعاطي فعل الجواد وهو بذل المال فلا يزال يطالب نفسه ويواظب عليه تكلفا مجاهدا نفسه فيه حتى يصير ذلك طبعا له ويتيسر عليه فيصير به جوادا وكذا من أراد أن يحصل لنفسه خلق التواضع وقد غلب عليه الكبر فطريقه أن يواظب على أفعال المتواضعين مدة مديدة وهو فيها مجاهد نفسه ومتكلف الى أن يصير ذلك خلقا له وطبعا فيتيسر عليه وجميع الاخلاق المحمودة شرعا تحصل بهذا الطريق وغايته أن يصير الفعل الصادر منه لذيذا فالسخي هو الذي يستلذ

بذل

اسحق العطار قال ثنا سنان بن هرون عن حميد عن أنس قال جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله احملني على جمل فقال أحملك على ابن الناقة قال أقول لك احملني على جمل وتقول أحملك على ابن الناقة فقال عليه السلام فالجمل ابن الناقة (وروى صهيب) فقال أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين يديه تمر يأكل فقال أصب من هذا الطعام فجعلت آكل من التمر فقال أتأكل وأنت رمد فقلت انا أمضغ من الجانب الآخر فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم (وروى) أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له ذات يوم ياذا الاذنين (وسئلت) عائشة رضي الله عنها كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا خلا في البيت قالت كان

بذل المال الذي يبذله دون الذي يبذله عن كراهة والمتواضع هو الذي يستلذ التواضع ولن ترسخ الاخلاق الدينية في النفس مالم تتعود النفس جميع العادات الحسنة ولم تترك جميع الافعال السيئة ومالم تواظب عليها مواظبة من يشتاق الى الافعال الجميلة و يتنعم بها و يكره الافعال القبيحة و يتألم بها كما قال صلى الله عليه وسلم وجعلت قرة عيني في الصلاة ومهما كانت العبادات وترك المحظورات مع كراهة واستثقال فهو النقصان ولا ينال كمال السعادة به نعم المواظبة عليها بالمجاهدة خير ولكن بالاضافة الى تركها لا بالاضافة الى فعلها عن طوع ولذلك قال الله تعالى وانها لكبيرة الا على الخاشعين وقال صلى الله عليه وسلم اعبد الله في الرضا فان لم تستطع ففي الصبر على ماتكره خير كثير ثم لا يكفي في نيل السعادة الموعودة على حسن الخلق استلذاذ الطاعة واستكراه المعصية في زمان دون زمان بل ينبغي أن يكون ذلك على الدوام وفي جملة العمر وكلما كان العمر أطول كانت الفضيلة أرسخ وأكمل ولذلك لما سئل صلى الله عليه وسلم عن السعادة فقال طول العمر في طاعة الله تعالى ولذلك كره الانبياء والاولياء الموت فان الدنيا مزرعة الآخرة وكلما كانت العبادات أكثر بطول العمر كان الثواب أجزل والنفس أزكى وأطهر والاخلاق أقوى وأرسخ وانما مقصود العبادات تأثيرها في القلب وانما يتأكد تأثيرها بكثرة المواظبة على العبادات وغاية هذه الاخلاق أن ينقطع عن النفس حب الدنيا و يرسخ فيها حب الله تعالى فلا يكون شيء أحب اليه من لقاء الله تعالى عز وجل فلا يستعمل جميع ماله الا على الوجه الذي يوصله اليه وغضبه وشهوته من المسخرات له فلا يستعملهما الا على الوجه الذي يوصله الى الله تعالى وذلك بأن يكون موزونا بميزان الشرع والعقل ثم يكون بعد ذلك فرحا به مستلذا له ولا ينبغي أن يستبعد مصير الصلاة الى حد تصير هي قرة العين ومصير العبادات لذيذة فان العادة تقتضي في النفس عجائب أغرب من ذلك فانا قد نرى الملوك والمنعمين في أحزان دائمة ونرى المقامر المفلس قد يغلب عليه من الفرح واللذة بقماره وما هو فيه ما يستثقل معه فرح الناس بغير قمار مع أن القمار ربما سلبه ماله وخرب بيته وتركه مفلسا ومع ذلك فهو يحبه و يلتذ به وذلك لطول الفه له وصرف نفسه اليه مدة وكذلك اللاعب بالحمام قد يقف طول النهار في حر الشمس قائما رجليه وهو لا يحس بألمها لفرحه بالطيور وحركاتها وطيرانها وتحليقها في جو السماء بل نرى الفاجر العيار يفتخر بما يلقاه من الضرب والقطع والصبر على السياط وعلى أن يتقدم به للصلب وهو مع ذلك متبجح بنفسه و بقوته في الصبر على ذلك حتى يرى ذلك فخرا لنفسه و يقطع الواحد منهم اربا اربا على أن يقر بما تعاطاه أو تعاطاه غيره فيصر على الانكار ولا يبالي بالعقوبات فرحا بما يعتقده كمالا وشجاعة و رجولية فقد صارت أحواله مع مافيها من النكال قرة عينه وسبب افتخاره بل لا حالة أخس وأقبح من حال المخنث في تشبهه بالاناث في نتف الشعر ووشم الوجه ومخالطة النساء فترى المخنث في فرح بحاله وافتخار بكماله في تخنثه يتباهى به مع المخنثين حتى يجري بين الحجامين والكناسين التفاخر والمباهاة كما يجري بين الملوك والعلماء فكل ذلك نتيجة العادة والمواظبة على نمط واحد على الدوام مدة مديدة ومشاهدة ذلك في المخالطين والمعارف فاذا كانت النفس بالعادة تستلذ الباطل وتميل اليه والى القبائح فكيف لا تستلذ الحق لو ردت اليه مدة والتزمت المواظبة عليه بل ميل النفس الى هذه الامور الشنيعة خارج عن الطبع يضاهي الميل الى أكل الطين فقد يغلب على بعض الناس ذلك بالعادة فأما ميله الى الحكمة وحب الله تعالى ومعرفته وعبادته فهو كالميل الى الطعام والشراب فانه مقتضى طبع القلب فانه أمر رباني وميله الى مقتضيات الشهوة غريب من ذاته وعارض على طبعه وانما غذاء القلب الحكمة والمعرفة وحب الله عز وجل ولكن انصرف عن مقتضى طبعه لمرض قد حل به كما قد يحل المرض بالمعدة فلا تشتهي الطعام والشراب وهما سببان لحياتها فكل قلب مال الى حب شيء سوى الله تعالى فلا ينفك عن مرض بقدر ميله الا اذا كان أحب ذلك الشيء لكونه معينا له على حب الله تعالى وعلى دينه فعند ذلك لا يدل ذلك على المرض فاذا عرفت بهذا قطعا أن هذه الاخلاق الجميلة يمكن اكتسابها بالرياضة وهي تكلف الافعال الصادرة عنها ابتداء لتصير طبعا انتهاء وهذا من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح أعني النفس والبدن فان كل صفة تظهر في القلب يفيض أثرها على الجوارح حتى لا تتحرك الا على وفقها لا محالة وكل فعل يجري على الجوارح فانه قد يرتفع منه أثر الى القلب والامر فيه دور و يعرف ذلك بمثال وهو أن من

السين الناس بساما ضحاكا (وروت) أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سابقها فسبقته ثم سابقها بعد ذلك فسبقها فقال هذه بتلك (وأخبرنا) الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن علي قال أنا أبو الفتح الهروي قال أنا أبو نصر الترياقي قال أنا أبو محمد الجراحي قال أنا أبو العباس المحبوبي قال أنا أبو عيسى الحافظ الترمذي قال ثنا عبد الله بن الوضاح الكوفي قال ثنا عبد الله بن ادريس عن شعبة عن أبي التياح عن أنس رضي الله عنه قال ان كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخالطنا حتى انه كان يقول لأخ لي صغير يا أبا عمير مافعل النغير والنغير عصفور صغير (وروى) أن عمر سابق الزبير رضي الله عنهما فسبقه الزبير فقال سبقتك ورب الكعبة ثم سابقه مرة أخرى

أراد أن يصير الحذق في الكتابة له صفة نفسية حتى يصير كاتبا بالطبع فلا طريق له الا أن يتعاطى بجارحة اليد ما يتعاطاه الكاتب الحاذق و يواظب عليه مدة طويلة يحاكي الخط الحسن فان فعل الكاتب هو الخط الحسن فيتشبه بالكاتب تكلفا ثم لا يزال يواظب عليه حتى يصير صفة راسخة في نفسه فيصدر منه في الآخر الخط الحسن طبعا كما كان يصدر منه في الابتداء تكلفا فكان الخط الحسن هو الذي جعل خطه حسنا ولكن الاول بتكلف الا انه ارتفع منه أثر الى القلب ثم انخفض من القلب الى الجارحة فصار يكتب الخط الحسن بالطبع وكذلك من أراد أن يصير فقيه النفس فلا طريق له الا أن يتعاطى أفعال الفقهاء وهو التكرار للفقه حتى تنعطف منه على قلبه صفة الفقه فيصير فقيه النفس وكذلك من أراد أن يصير سخيا عفيف النفس حليما متواضعا فيلزمه أن يتعاطى أفعال هؤلاء تكلفا حتى يصير ذلك طبعا له فلا علاج له الا ذلك وكما أن طالب فقه النفس لا ييأس من نيل هذه الرتبة بتعطيل ليلة ولا ينالها بتكرار ليلة فكذلك طالب تزكية النفس وتكميلها وتحليتها بالاعمال الحسنة لا ينالها بعبادة يوم ولا يحرم عنها بعصيان يوم وهو معنى قولنا ان الكبيرة الواحدة لا توجب الشقاء المؤبد ولكن العطلة في يوم واحد تدعو الى مثلها ثم تتداعى قليلا قليلا حتى تأنس النفس بالكسل وتهجر التحصيل رأسا فيفوتها فضيلة الفقه وكذلك صغائر المعاصي يجر بعضها الى بعض حتى يفوت أصل السعادة بهدم أصل الايمان عند الخاتمة وكما أن تكرار ليلة لا يحس تأثيره في فقه النفس بل يظهر فقه النفس شيأ فشيأ على التدريج مثل نمو البدن وارتفاع القامة فكذلك الطاعة الواحدة لا يحس تأثيرها في تزكية النفس وتطهيرها في الحال ولكن لا ينبغي أن يستهان بقليل الطاعة فان الجملة الكثيرة منها مؤثرة وانما اجتمعت الجملة من الآحاد فلكل واحد منها تأثير فما من طاعة الا ولها أثر وان خفي فله ثواب لا محالة فان الثواب بازاء الاثر وكذلك المعصية وكم من فقيه يستهين بتعطيل يوم وليلة وهكذا على التوالي يسوف نفسه يوما فيوما الى أن يخرج طبعه عن قبول الفقه فكذا من يستهين صغائر المعاصي ويسوف نفسه بالتوبة على التوالي الى أن يختطفه الموت بغتة أو تتراكم ظلمة الذنوب على قلبه وتتعذر عليه التوبة اذ القليل يدعو الى الكثير فيصير القلب مقيدا بسلاسل شهوات لا يمكن تخليصه من مخالبها وهو المعنى بانسداد باب التوبة وهو المراد بقوله تعالى وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا الآية ولذلك قال علي رضي الله عنه ان الايمان ليبدو في القلب نكتة بيضاء كلما ازداد الايمان ازداد ذلك البياض فاذا استكمل العبد الايمان ابيض القلب كله وان النفاق ليبدو في القلب نكتة سوداء كلما ازداد النفاق ازداد ذلك السواد فاذا استكمل النفاق اسود القلب كله فاذا عرفت أن الاخلاق الحسنة تارة تكون بالطبع والفطرة وتارة تكون باعتياد الافعال الجميلة وتارة بمشاهدة أرباب الفعال الجميلة ومصاحبتهم وهم قرناء الخير واخوان الصلاح اذ الطبع يسرق من الطبع الشر والخير جميعا فمن تظاهرت في حقه الجهات الثلاث حتى صار ذا فضيلة طبعا واعتيادا وتعلما فهو في غاية الفضيلة ومن كان رذلا بالطبع واتفق له قرناء السوء فتعلم منهم وتيسرت له أسباب الشر حتى اعتادها فهو في غاية البعد من الله عز وجل وبين الرتبتين من اختلفت فيه هذه الجهات ولكل درجة في القرب والبعد بحسب ما تقتضيه صفته وحالته فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون

(بيان تفصيل الطريق الى تهذيب الاخلاق)

قد عرفت من قبل أن الاعتدال في الاخلاق هو صحة النفس والميل عن الاعتدال سقم ومرض فيها كما أن الاعتدال في مزاج البدن هو صحة له والميل عن الاعتدال مرض فيه فلنتخذ البدن مثالا فنقول مثال النفس في علاجها بمحو الرذائل والاخلاق الرديئة عنها وجلب الفضائل والاخلاق الجميلة اليها مثال البدن في علاجه بمحو العلل عنه وكسب الصحة له وجلبها اليه وكما أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال وانما تعتري المعدة المضرة بعوارض الاغذية والاهوية والاحوال فكذلك كل مولود يولد معتدلا صحيح الفطرة وانما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه أي بالاعتياد والتعليم تكتسب الرذائل وكما أن البدن في الابتداء لا يخلق كاملا وانما يكمل و يقوى بالنشو والتربية بالغذاء فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال وانما تكمل بالتربية وتهذيب الاخلاق والتغذية بالعلم وكما أن البدن ان كان صحيحا فشأن الطبيب تمهيد القانون الحافظ للصحة وان كان مريضا فشأنه

فسبقه عمر فقال عمر سبقتك ورب الكعبة و روى عبد الله بن عباس قال قال لي عمر تعال أنافسك في الماء أينا أطول نفسا ونحن محرمون (و روى) بكر بن عبد الله قال كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمازحون حتى يتبادحون بالبطيخ فاذا كانت الحقائق كانوا هم الرجال يقال بدح يبدح اذا رمى أي يترامون بالبطيخ (وأخبرنا) أبو زرعة عن أبيه قال أنا الحسن بن أحمد الكرخي قال ثنا أبو طالب محمد بن محمد ابن ابراهيم قال ثنا أبو بكر محمد بن محمد بن عبد الله قال حدثني اسحق الحربي قال ثنا أبو سلمة قال ثنا حماد بن خالد قال أنا محمد بن عمرو بن علقمة قال ثنا أبو الحسن بن محصن الليثي عن يحيي ابن عبد الرحمن بن حاطب بن أبي بلتعة

جلب الصحة اليه فكذلك النفس مثلا ان كانت زكية طاهرة مهذبة فينبغي أن تسعى لحفظها وجلب مزيد قوة اليها واكتساب زيادة صفائها وان كانت عديمة الكمال والصفاء فينبغي أن تسعى لجلب ذلك اليها وكما أن العلة المغيرة لاعتدال البدن الموجبة للمرض لا تعالج الا بضدها فان كانت من حرارة فبالبرودة وان كانت من برودة فبالحرارة فكذلك الرذيلة التي هي مرض القلب علاجها بضدها فيعالج مرض الجهل بالتعلم ومرض البخل بالتسخي ومرض الكبر بالتواضع ومرض الشره بالكف عن المشتهى تكلفا وكما أنه لا بد من الاحتمال لمرارة الدواء وشدة الصبر عن المشتهيات لعلاج الابدان المريضة فكذلك لا بد من احتمال مرارة المجاهدة والصبر لمداواة مرض القلب بل أولى فان مرض البدن يخلص منه بالموت ومرض القلب والعياذ بالله تعالى مرض يدوم بعد الموت أبد الآبادو كما أن كل مبرد لا يصلح لعلة سببها الحرارة الا اذا كان على حد مخصوص ويختلف ذلك بالشدة والضعف والدوام وعدمه وبالكثرة والقلة ولا بد له من معيار يعرف به مقدار النافع منه فانه ان لم يحفظ معياره زاد الفساد فكذلك النقائص التي تعالج بها الاخلاق لا بد لها من معيار وكما أن معيار الدواء مأخوذ من عيار العلة حتى ان الطبيب لا يعالج مالم يعرف أن العلة من حرارة أو برودة فان كانت من حرارة فيعرف درجتها أهي ضعيفة أم قوية فاذا عرف ذلك التفت الى أحوال البدن وأحوال الزمان وصناعة المريض وسنه وسائر أحواله ثم يعالج بحسبها فكذلك الشيخ المتبوع الذي يطب نفوس المريدين ويعالج قلوب المسترشدين ينبغي أن لا يهجم عليهم بالرياضة والتكاليف في فن مخصوص وفي طريق مخصوص مالم يعرف أخلاقهم وأمراضهم وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم فكذلك الشيخ لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم وأمات قلوبهم بل ينبغي أن ينظر في مرض المريد وفي حاله وسنه ومزاجه وما تحتمله بنيته من الرياضة ويبني على ذلك رياضته فان كان المريد مبتدئا جاهلا بحدود الشرع فيعلمه أولا الطهارة والصلاة وظواهر العبادات وان كان مشغولا بمال حرام أو مقارف لمعصية فيأمره أولا بتركها فاذا تزين ظاهره بالعبادات وطهر عن المعاصي الظاهرة جوارحه نظر بقرائن الاحوال الى باطنه ليتفطن لاخلاقه وأمراض قلبه فان رأى معه مالا فاضلا عن قدر ضرورته أخذه منه وصرفه الى الخيرات وفرغ قلبه منه حتى لا يلتفت اليه وان رأى الرعونة والكبر وعزة النفس غالبة عليه فيأمره أن يخرج الى الاسواق للكدية والسؤال فان عزة النفس والرياسة لا تنكسر الا بالذل ولا ذل أعظم من ذل السؤال فيكلفه المواظبة على ذلك مدة حتى ينكسر كبره وعز نفسه فان الكبر من الامراض المهلكة وكذلك الرعونة وان رأى الغالب عليه النظافة في البدن والثياب ورأى قلبه مائلا الى ذلك فرحا به ملتفتا اليه استخدمه في تعهد بيت الماء وتنظيفه وكنس المواضع القذرة وملازمة المطبخ ومواضع الدخان حتى تتشوش عليه رعونته في النظافة فان الذين ينظفون ثيابهم ويزينونها ويطلبون المرقعات النظيفة والسجادات الملونة لا فرق بينهم وبين العروس التي تزين نفسها طول النهار فلا فرق بين أن يعبد الانسان نفسه أو يعبد صنما فهما عبد غير الله تعالى فقد حجب عن الله ومن راعى في ثوبه شيأ سوى كونه حلالا وطاهرا مراعاة يلتفت اليها قلبه فهو مشغول بنفسه ومن لطائف الرياضة اذا كان المريد لا يسخو بترك الرعونة رأسا أو بترك صفة أخرى ولم يسمح بضدها دفعة فينبغي أن ينقله من الخلق المذموم الى خلق مذموم آخر أخف منه كالذي يغسل الدم بالبول ثم يغسل البول بالماء اذا كان الماء لا يزيل الدم كما يرغب الصبي في المكتب باللعب بالكرة والصولجان وما أشبهه ثم ينقل من اللعب الى الزينة وفاخر الثياب ثم ينقل من ذلك بالترغيب في الرياسة وطلب الجاه ثم ينقل من الجاه بالترغيب في الآخرة فكذلك من لم تسمح نفسه بترك الجاه دفعة فلينقل الى جاه أخف منه وكذلك سائر الصفات وكذلك اذا رأى شره الطعام غالبا عليه ألزمه الصوم وتقليل الطعام ثم يكلفه أن يهيء الاطعمة اللذيذة ويقدمها الى غيره وهو لا يأكل منها حتى يقوى بذلك نفسه فيتعود الصبر وينكسر شرهه وكذلك اذا رآه شابا متشوقا الى النكاح وهو عاجز عن الطول فيأمره بالصوم وربما لا تسكن شهوته بذلك فيأمره أن يفطر ليلة على الماء دون الخبز وليلة على الخبز دون الماء ويمنعه اللحم والادم رأسا حتى تذل نفسه وتنكسر شهوته فلا علاج في مبدأ الارادة أنفع من الجوع وان رأى الغضب غالبا عليه ألزمه الحلم والسكوت وسلط عليه من يصحبه ممن فيه سوء خلق ويلزمه خدمة من ساء خلقه

قال ان عائشة رضي الله عنها قالت أتيت النبي صلى الله عليه وسلم بحريرة طبختها له وقلت لسودة والنبي صلى الله عليه وسلم بيني وبينها كلي فابت فقلت لها كلي فابت فقلت لتأكلن أو لالطخن بها وجهك فابت فوضعت يدي في الحريرة فلطخت بها وجهها فضحك النبي صلى الله عليه وسلم فوضع فخذه وقال لسودة الطخي وجهها فلطخت بها وجهي فضحك النبي صلى الله عليه وسلم فمر عمر رضي الله عنه على الباب فنادى يا عبد الله يا عبد الله فظن النبي صلى الله عليه وسلم انه سيدخل فقال قوما فاغسلا وجهيكما فقالت عائشة رضي الله عنها فما زلت أهاب عمر لهيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم اياه ووصف بعضهم ابن طاوس فقال كان مع الصبي صبيا ومع الكهل كهلا

حتى يمرن نفسه على الاحتمال معه كما حكى عن بعضهم انه كان يعود نفسه الحلم و يزيل عن نفسه شدة الغضب فكان يستأجر من يشتمه على ملا من الناس و يكلف نفسه الصبر و يكظم غيظه حتى صار الحلم عادة له بحيث كان يضرب به المثل و بعضهم كان يستشعر في نفسه الجبن وضعف القلب فاراد ان يحصل لنفسه خلق الشجاعة فكان يركب البحر في الشتاء عند اضطراب الامواج وعباد الهند يعالجون الكسل عن العبادة بالقيام طول الليل على نصبة واحدة وبعض الشيوخ في ابتداء ارادته كان يكسل عن القيام فالزم نفسه القيام على رأسه طول الليل ليسمح بالقيام على الرجل عن طوع وعالج بعضهم حب المال بأن باع جميع ماله و رمى به في البحر اذ خاف من تفرقته على الناس رعونة الجود والرياء بالبذل فهذه الامثلة تعرفك طريق معالجة القلوب وليس غرضنا ذكر دواء كل مرض فان ذلك سيأتي في بقية الكتب وانما غرضنا الآن التنبيه على أن الطريق الكلي فيه سلوك مسلك المضادة لكل ما تهواه النفس وتميل اليه وقد جمع الله ذلك كله في كتابه العزيز في كلمة واحدة فقال تعالى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى والاصل المهم في المجاهدة الوفاء بالعزم فاذا عزم على ترك شهوة فقد تيسرت أسبابها و يكون ذلك ابتلاء من الله تعالى واختبارا فينبغي أن يصبر و يستمر فانه ان عود نفسه ترك العزم ألفت ذلك ففسدت واذا اتفق منه نقض عزم فينبغي أن يلزم نفسه عقوبة عليه كما ذكرناه في معاقبة النفس في كتاب المحاسبة والمراقبة واذا لم يخوف النفس بعقوبة غلبته وحسنت عنده تناول الشهوة فتفسد بها الرياضة بالكلية

﴿ بيان علامات أمراض القلوب وعلامات عودها الى الصحة ﴾

اعلم أن كل عضو من أعضاء البدن خلق لفعل خاص به وانما مرضه أن يتعذر عليه فعله الذي خلق له حتى لا يصدر منه أصلا أو يصدر منه مع نوع من الاضطراب فمرض اليد أن يتعذر عليها البطش ومرض العين أن يتعذر عليها الابصار وكذلك مرض القلب أن يتعذر عليه فعله الخاص به الذي خلق لاجله وهو العلم والحكمة والمعرفة وحب الله تعالى وعبادته والتلذذ بذكره وايثاره ذلك على كل شهوة سواه والاستعانة بجميع الشهوات والاعضاء عليه قال الله تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ففي كل عضو فائدة وفائدة القلب الحكمة والمعرفة وخاصية النفس التي للآدمي ما يتميز بها عن البهائم فانه لم يتميز عنها بالقوة على الاكل والوقاع والابصار أو غيرها بل بمعرفة الاشياء على ما هي عليه وأصل الاشياء وموجدها ومخترعها هو الله عز وجل الذي جعلها أشياء فلو عرف كل شئ ولم يعرف الله عز وجل فكانه لم يعرف شيأ وعلامة المعرفة المحبة فمن عرف الله تعالى أحبه وعلامة المحبة أن لا يؤثر عليه الدنيا ولا غيرها من المحبوبات كما قال الله تعالى قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم الى قوله أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره فمن عنده شئ أحب اليه من الله فقلبه مريض كما أن كل معدة صار الطين أحب اليها من الخبز والماء أو سقطت شهوتها عن الخبز والماء فهي مريضة فهذه علامات المرض و بهذا يعرف أن القلوب كلها مريضة الا ما شاء الله الا أن من الامراض ما لا يعرفها صاحبها ومرض القلب مما لا يعرفه صاحبه فلذلك يغفل عنه وان عرفه صعب عليه الصبر على مرارة دوائه فان دواءه مخالفة الشهوات وهو نزع الروح فان وجد من نفسه قوة الصبر عليه لم يجد طبيبا حاذقا يعالجه فان الاطباء هم العلماء وقد استولى عليهم المرض فالطبيب المريض قلما يلتفت الى علاجه فلهذا صار الداء عضالا والمرض مزمنا واندرس هذا العلم وأنكر بالكلية طب القلوب وأنكر مرضها وأقبل الخلق على حب الدنيا وعلى أعمال ظاهرها عبادات و باطنها عادات ومراآت فهذه علامات أصول الامراض وأما علامات عودها الى الصحة بعد المعالجة فهو أن ينظر في العلة التي يعالجها فان كان يعالج داء البخل فهو المهلك المبعد عن الله عز وجل وانما علاجه ببذل المال وانفاقه ولكنه قد يبذل المال الى حد يصير به مبذرا فيكون التبذير أيضا داء فكان كمن يعالج البرودة بالحرارة حتى تغلب الحرارة فهو أيضا داء بل المطلوب الاعتدال بين الحرارة والبرودة وكذلك المطلوب الاعتدال بين التبذير والتقتير حتى يكون على الوسط وفي غاية البعد عن الطرفين فان أردت أن تعرف الوسط فانظر الى الفعل الذي يوجبه الخلق المحذور فان كان أسهل عليك وألذ من الذي يضاده فالغالب عليك ذلك الخلق الموجب

وكان فيه مزاحة اذا خلا (وروى) معاوية ابن عبد الكريم قال كنا نتذاكر الشعر عند محمد بن سيرين وكان يقول ونمزح عنده ويمازحنا وكنا نخرج من عنده ونحن نضحك وكنا اذا دخلنا على الحسن نخرج من عنده ونحن نكاد نبكي فهذه الاخبار والآثار دالة على حسن لين الجانب وصحة حال الصوفية وحسن أخلاقهم فيما يعتمدونه من المداعبة في الربط وينزلون مع الناس على حسب طباعهم لنظرهم الى سعة رحمة الله فاذا خلوا وقفوا موقف الرجال واكتسوا ملابس الاعمال والاحوال ولا يقف في هذا المعنى على حد الاعتدال الا صوفي قاهر للنفس عالم بأخلاقها وطباعها سائس لها بوفور العلم حتى يقف في ذلك على صراط الاعتدال بين الافراط

له مثل أن يكون امساك المال وجمعه ألذ عندك وأيسر عليك من بذله لمستحقه فاعلم ان الغالب عليك خلق البخل فزد في المواظبة على البذل فان صار البذل على غير المستحق ألذ عندك وأخف عليك من الامساك بالحق فقد غلب عليك التبذير فارجع الى المواظبة على الامساك فلا تزال تراقب نفسك وتستدل على خلقك بتيسير الافعال وتعسيرها حتى تنقطع علاقة قلبك عن الالتفات الى المال فلا تميل الى بذله ولا الى امساكه بل يصير عندك كالماء فلا تطلب فيه الا امساكه لحاجة محتاج أو بذله لحاجة محتاج ولا يترجح عندك البذل على الامساك فكل قلب صار كذلك فقد أتى الله سليما عن هذا المقام خاصة ويجب أن يكون سليما عن سائر الاخلاق حتى لا يكون له علاقة بشئ مما يتعلق بالدنيا حتى ترتحل النفس عن الدنيا منقطعة العلائق منها غير ملتفتة اليها ولا متشوفة الى أسبابها فعند ذلك ترجع الى ربها رجوع النفس المطمئنة راضية مرضية داخلة في زمرة عباد الله المقربين من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا * ولما كان الوسط الحقيقي بين الطرفين في غاية الغموض بل هو أدق من الشعر وأحد من السيف فلا جرم من استوى على هذا الصراط المستقيم في الدنيا جاز على مثل هذا الصراط في الآخرة وقلما ينفك العبد عن ميل عن الصراط المستقيم أعني الوسط حتى لا يميل الى أحد الجانبين فيكون قلبه متعلقا بالجانب الذي مال اليه ولذلك لا ينفك عن عذاب ما واجتياز على النار وان كان مثل البرق قال الله تعالى وان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجي الذين اتقوا أي الذين كان قربهم الى الصراط المستقيم أكثر من بعدهم عنه ولاجل عسر الاستقامة وجب على كل عبد أن يدعو الله تعالى في كل يوم سبع عشرة مرة في قوله اهدنا الصراط المستقيم اذ وجب قراءة الفاتحة في كل ركعة فقد روي أن بعضهم رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقال قد قلت يا رسول الله شيبتني هود فلم قلت ذلك فقال عليه السلام لقوله تعالى فاستقم كما أمرت فالاستقامة على سواء السبيل في غاية الغموض ولكن ينبغي أن يجتهد الانسان في القرب من الاستقامة ان لم يقدر على حقيقتها فكل من أراد النجاة فلا نجاة له الا بالعمل الصالح ولا تصدر الاعمال الصالحة الا عن الاخلاق الحسنة فليتفقد كل عبد صفاته وأخلاقه وليعددها وليشتغل بعلاج واحد فيها على الترتيب فنسأل الله الكريم أن يجعلنا من المتقين

﴿ بيان الطريق الذي يعرف به الانسان عيوب نفسه ﴾

اعلم أن الله عز وجل اذا أراد بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه فمن كانت بصيرته نافذة لم تخف عليه عيوبه فاذا عرف العيوب أمكنه العلاج ولكن أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم يرى أحدهم القذى في عين أخيه ولا يرى الجذع في عين نفسه فمن أراد أن يعرف عيوب نفسه فله أربعة طرق (الاول) أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس مطلع على خفايا الآفات ويحكمه في نفسه ويتبع اشارته في مجاهدته وهذا شأن المريد مع شيخه والتلميذ مع أستاذه فيعرفه أستاذه وشيخه عيوب نفسه ويعرفه طريق علاجه وهذا قد عز في هذا الزمان وجوده (الثاني) أن يطلب صديقا صدوقا بصيرا متدينا فينصبه رقيبا على نفسه ليلاحظ أحواله وأفعاله فما كره من أخلاقه وأفعاله وعيوبه الباطنة والظاهرة ينبهه عليه فهكذا كان يفعل الاكياس والاكابر من أئمة الدين كان عمر رضي الله عنه يقول رحم الله امرأ أهدى الي عيوبي وكان يسأل سلمان عن عيوبه فلما قدم عليه قال له ما الذي بلغك عني مما تكرهه فاستعفى فألح عليه فقال بلغني انك جمعت بين ادامين على مائدة وان لك حلتين حلة بالنهار وحلة بالليل قال وهل بلغك غير هذا قال لا فقال أما هذان فقد كفيتهما وكان يسأل حذيفة ويقول له أنت صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنافقين فهل ترى علي شيأ من آثار النفاق فهو على جلالة قدره وعلو منصبه هكذا كانت تهمته لنفسه رضي الله عنه فكل من كان أوفر عقلا وأعلى منصبا كان أقل اعجابا وأعظم اتهاما لنفسه الا ان هذا أيضا قد عز فقل في الاصدقاء من يترك المداهنة فيخبر بالعيب أو يترك الحسد فلا يزيد على قدر الواجب فلا تخلو في أصدقائك عن حسود أو صاحب غرض يرى ما ليس بعيب عيبا أو عن مداهن يخفي عنك بعض عيوبك ولهذا كان داود الطائي قد اعتزل الناس فقيل له لم لا تخالط الناس فقال وماذا أصنع بأقوام يخفون عني عيوبي فكانت شهوة ذوي الدين أن يتنبهوا لعيوبهم بتنبيه غيرهم وقد آل الامر في أمثالنا الى أن أبغض الخلق الينا من ينصحنا ويعرفنا عيوبنا ويكاد هذا أن يكون مفصحا عن ضعف الايمان فان الاخلاق

والتفريط ولا يصلح الاكثار من ذلك للمريدين المبتدئين لقلة علمهم ومعرفتهم بالنفس وتعديهم حد الاعتدال فالنفس في هذه المواطن نهضات ووثبات تجر الى الفساد وتجنح الى العناد فالنزول الى طباع الناس يحسن بمن صعد عنهم وترقى لعلو حاله ومقامه فينزل اليهم والى طباعهم حين ينزل بالعلم فاما من لم يصعد بصفاء حاله عنهم وفيه بقية مزج من طباعهم ونفوسهم الجامحة الامارة بالسوء اذا دخلت في هذه المداخل أخذت النفس حظها واغتنمت مآربها واستروحت الى الرخصة والنزول الى الرخصة يحسن لمن يركب العزيمة غالب أوقاته وليس ذلك شأن المبتدئ فللصوفية العلماء فيما ذكرناه ترويح يعلمون حاجة القلب الى ذلك والشئ اذا وضع للحاجة يتقدر بقدر الحاجة

السيئة حيات وعقارب لداغة فلو نبهنا منبه على أن تحت ثوبنا عقربا بالتقلد نامنه منة وفرحنا له واشتغلنا بازالة العقرب وابعادها وقتلها وانما نكايتها على البدن ويدوم ألمها يوما فما دونه ونكاية الاخلاق الرديئة على صميم القلب أخشى أن تدوم بعد الموت أبدا أو آلافا من السنين ثم انا لانفرح بمن ينبهنا عليها ولانشتغل بازالتها بل نشتغل بمقابلة الناصح بمثل مقالته فنقول له وأنت أيضا تصنع كيت وكيت وتشغلنا العداوة معه عن الانتفاع بنصحه ويشبه أن يكون ذلك من قساوة القلب التي أثمرتها كثرة الذنوب وأصل كل ذلك ضعف الايمان فنسأل الله عز وجل أن يلهمنا رشدنا ويبصرنا بعيوبنا ويشغلنا بمداواتها ويوفقنا للقيام بشكر من يطلعنا على مساوينا بمنه وفضله (الطريق الثالث) أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه فان عين السخط تبدى المساويا ولعل انتفاع الانسان بعدو مشاحن يذكره عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يثنى عليه ويمدحه ويخفى عنه عيوبه الا أن الطبع مجبول على تكذيب العدو وحمل مايقوله على الحسد ولكن البصير لايخلو عن الانتفاع بقول أعدائه فان مساويه لابد وأن تنتشر على ألسنتهم (الطريق الرابع) أن يخالط الناس فكل مارآه مذموما فيما بين الخلق فليطالب نفسه به وينسبها اليه فان المؤمن مرآة المؤمن فيرى من عيوب غيره عيوب نفسه ويعلم أن الطباع متقاربة فى اتباع الهوى فما يتصف به واحد من الاقران لاينفك القرن الآخر عن أصله أو عن أعظم منه أو عن شئ منه فليتفقد نفسه ويطهرها من كل مايذمه من غيره وناهيك بهذا تأديبا فلو ترك الناس كلهم مايكرهونه من غيرهم لاستغنوا عن المؤدب * قيل لعيسى عليه السلام من أدبك قال ماأدبنى أحد رأيت جهل الجاهل شينا فاجتنبته وهذا كله حيل من فقد شيخا عارفا ذكيا بصيرا بعيوب النفس مشفقا ناصحا فى الدين فارغا من تهذيب نفسه مشتغلا بتهذيب عباد الله تعالى ناصحا لهم فمن وجد ذلك فقد وجد الطبيب فليلازمه فهو الذى يخلصه من مرضه وينجيه من الهلاك الذى هو بصدده

(بيان شواهد النقل من أرباب البصائر وشواهد الشرع على أن الطريق فى معالجة أمراض القلوب ترك الشهوات وأن مادة أمراضها هى اتباع الشهوات)

اعلم أن ماذكرناه ان تأملته بعين الاعتبار انفتحت بصيرتك وانكشفت لك علل القلوب وأمراضها وأدويتها بنور العلم واليقين فان عجزت عن ذلك فلا ينبغى أن يفوتك التصديق والايمان على سبيل التلقى والتقليد لمن يستحق التقليد فان للايمان درجة كما أن للعلم درجة والعلم يحصل بعد الايمان وهو وراءه قال الله تعالى يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات فمن صدق بأن مخالفة الشهوات هى الطريق الى الله عز وجل ولم يطلع على سببه وسره فهو من الذين آمنوا واذا اطلع على ماذكرناه من أعوان الشهوات فهو من الذين أوتوا العلم وكلا وعد الله الحسنى والذى يقتضى الايمان بهذا الامر فى القرآن والسنة وأقاويل العلماء أكثر من أن يحصر قال الله تعالى ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى وقال تعالى أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى قيل نزع منها محبة الشهوات وقال صلى الله عليه وسلم المؤمن بين خمس شدائد مؤمن يحسده ومنافق يبغضه وكافر يقاتله وشيطان يضله ونفس تنازعه فبين أن النفس عدو منازع يجب عليه مجاهدتها ويروى أن الله تعالى أوحى الى داود عليه السلام ياداود حذر وأنذر أصحابك أكل الشهوات فان القلوب المتعلقة بشهوات الدنيا عقولها عنى محجوبة وقال عيسى عليه السلام طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعود غائب لم يره وقال نبينا صلى الله عليه وسلم لقوم قدموا من الجهاد مرحبا بكم قدمتم من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر قيل يارسول الله وما الجهاد الاكبر قال جهاد النفس وقال صلى الله عليه وسلم المجاهد من جاهد نفسه فى طاعة الله عز وجل وقال صلى الله عليه وسلم كف أذاك عن نفسك ولاتتابع هواها فى معصية الله تعالى اذا تخاصمك يوم القيامة فيلعن بعضك بعضا الا أن يغفر الله تعالى ويستر وقال سفيان الثورى ماعالجت شيأ أشد على من نفسى مرة لى ومرة على وكان أبو العباس الموصلى يقول لنفسه يانفس لافى الدنيا مع أبناء الملوك تتنعمين ولا فى طلب الآخرة مع العباد تجتهدين كأنى بك بين الجنة والنار تحبسين يانفس ألا تستحين وقال الحسن ما الدابة الجموح بأحوج الى اللجام الشديد من نفسك وقال يحيى بن معاذ الرازى جاهد نفسك بأسياف الرياضة والرياضة على أربعة أوجه القوت من الطعام

ومعيار مقدار الحاجة فى ذلك علم غامض لايسلم لكل أحد (قال) سعيد بن العاص لابنه اقتصد فى مزاحك فالافراط فيه يذهب بالبهاء ويجرئ عليك السفهاء وتركه يغيظ المؤانسين ويوحش المخالطين قال بعضهم المزاح مسلبة للبهاء مقطعة للاخاء وكما يصعب معرفة الاعتدال فى ذلك يصعب معرفة الاعتدال فى الضحك والضحك من خصائص الانسان ويميزه عن جنس الحيوان ولا يكون الضحك الا عن سابقة تعجب والتعجب يستدعى الفكر والفكر شرف الانسان وخاصيته ومعرفة الاعتدال فيه أيضا شأن من ترسخ قدمه فى العلم ولهذا قيل اياك وكثرة الضحك فانه يميت القلب وقيل وكثرة الضحك من الرعونة (وروى) عن عيسى عليه السلام انه قال ان الله تعالى يبغض الضحاك

والغمض من المنام والحاجة من الكلام وحمل الاذى من جميع الانام فيتولد من قلة الطعام موت الشهوة ومن قلة المنام صفو الارادة ومن قلة الكلام السلامة من الآفات ومن احتمال الاذى البلوغ الى الغايات وليس على العبد شيء أشد من الحلم عند الجفاء والصبر على الاذى واذا تحركت من النفس ارادة الشهوات والآثام وهاجت منها حلاوة فضول الكلام جردت عليها سيوف قلة الطعام من غمد التهجد وقلة المنام وضربتها بأيدي الخمول وقلة الكلام حتى تنقطع عن الظلم والانتقام فتأمن من بوائقها من بين سائر الانام وتصفيها من ظلمة شهواتها فتنجو من غوائل آفاتها فتصير عند ذلك نظيفة ونورية خفيفة روحانية فتجول في ميدان الخيرات وتسير في مسالك الطاعات كالفرس الفاره في الميدان وكالملك المتنزه في البستان وقال أيضا أعداء الانسان ثلاثة دنياه وشيطانه ونفسه فاحترس من الدنيا بالزهد فيها ومن الشيطان بمخالفته ومن النفس بترك الشهوات وقال بعض الحكماء من استولت عليه النفس صار أسيرا في حب شهواتها محصورا في سجن هواها مقهورا مغلولا زمامه في يدها تجره حيث شاءت فتمنع قلبه من الفوائد وقال جعفر بن حميد أجمعت العلماء والحكماء على أن النعيم لا يدرك الا بترك النعيم وقال أبو يحيى الوراق من أرضى الجوارح بالشهوات فقد غرس في قلبه شجر الندامات وقال وهيب بن الورد ما زاد على الخبز فهو شهوة وقال أيضا من أحب شهوات الدنيا فليتهيأ للذل ويروى ان امرأة العزيز قالت ليوسف عليه السلام بعد أن ملك خزائن الارض وقعدت له على رابية الطريق في يوم موكبه وكان يركب في زهاء اثني عشر ألفا من عظماء مملكته سبحان من جعل الملوك عبيدا بالمعصية وجعل العبيد ملوكا بطاعتهم له ان الحرص والشهوة صيرا الملوك عبيدا وذلك جزاء المفسدين وان الصبر والتقوى صيرا العبيد ملوكا فقال يوسف كما أخبر الله تعالى عنه انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين وقال الجنيد أرقت ليلة فقمت الى وردي فلم أجد الحلاوة التي كنت أجدها فأردت أن أنام فلم أقدر فجلست فلم أطق الجلوس فخرجت فاذا رجل ملتف في عباءة مطروح على الطريق فلما أحس بي قال يا أبا القاسم الي الساعة فقلت يا سيدي من غير موعد فقال بلى سألت الله عز وجل أن يحرك لي قلبك فقلت قد فعل فما حاجتك قال فمتى يصير داء النفس دواءها فقلت اذا خالفت النفس هواها فاقبل على نفسه فقال اسمعي فقد أجبتك بهذا سبع مرات فأبيت أن تسمعيه الا من الجنيد ها قد سمعتيه ثم انصرف وما عرفته وقال يزيد الرقاشي اليكم عني الماء البارد في الدنيا لعلي لا أحرمه في الآخرة وقال رجل لعمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى متى أتكلم قال اذا اشتهيت الصمت قال متى أصمت قال اذا اشتهيت الكلام وقال علي رضي الله عنه من اشتاق الى الجنة سلا عن الشهوات في الدنيا *وكان مالك بن دينار يطوف في السوق فاذا رأى الشيء يشتهيه قال لنفسه اصبري فوالله ما أمنعك الا من كرامتك علي فاذا قد اتفق العلماء والحكماء على أن لا طريق الى سعادة الآخرة الا بنهي النفس عن الهوى ومخالفة الشهوات فالايمان بهذا واجب *وأما علم تفصيل ما يترك من الشهوات وما لا يترك لا يدرك الا بما قدمناه وحاصل الرياضة وسرها أن لا تتمتع النفس بشيء مما لا يوجد في القبر الا بقدر الضرورة فيكون مقتصرا من الاكل والنكاح واللباس والمسكن وكل ما هو مضطر اليه على قدر الحاجة والضرورة فانه لو تمتع بشيء منه أنس به وألفه فاذا مات تمنى الرجوع الى الدنيا بسببه ولا يتمنى الرجوع الى الدنيا الا من لا حظ له في الآخرة بحال ولا خلاص منه الا بأن يكون القلب مشغولا بمعرفة الله وحبه والتفكر فيه والانقطاع اليه ولا قوة على ذلك الا بالله ويقتصر من الدنيا على ما يدفع عوائق الذكر والفكر فقط فمن لم يقدر على حقيقة ذلك فليقرب منه والناس فيه أربعة رجل مستغرق قلبه بذكر الله فلا يلتفت الى الدنيا الا في ضرورات المعيشة فهو من الصديقين ولا ينتهي الى هذه الرتبة الا بالرياضة الطويلة والصبر عن الشهوات مدة مديدة الثاني رجل استغرقت الدنيا قلبه ولم يبق لله تعالى ذكر في قلبه الا من حيث حديث النفس حيث يذكره باللسان لا بالقلب فهذا من الهالكين والثالث رجل اشتغل بالدنيا والدين ولكن الغالب على قلبه هو الدين فهذا لابد له من ورود النار الا أنه ينجو منها سريعا بقدر غلبة ذكر الله تعالى على قلبه والرابع رجل اشتغل بهما جميعا لكن الدنيا أغلب على قلبه فهذا يطول مقامه في النار لكن يخرج منها لا محالة لقوة ذكر الله تعالى في قلبه وتمكنه من صميم فؤاده وان كان ذكر الدنيا أغلب على قلبه اللهم انا نعوذ بك من خزيك

من غير عجب المشاء في غير ارب وذكر فرق بين المداعبة والمزاح فقيل المداعبة ما لا يغضب جده والمزاح ما يغضب جده وقد جعل أبو حنيفة رحمه الله القهقهة في الصلاة من الذنب وحكم ببطلان الوضوء بها وقال يقوم الاثم مقام خروج الخارج فالاعتدال في المزاح والضحك لا يتأتى الا اذا خلص وخرج من مضيق الخوف والقبض والهيبة فانه يتقوم بكل مضيق من هذه المضايق بعض التقويم فيعتدل الحال فيه ويستقيم فالبسط والرجاء ينشئان المزاح والضحك والخوف والقبض يحكمان فيه بالعدل *ومن أخلاق الصوفية ترك التكلف وذلك أن التكلف تصنع وتعمل وتمايل على النفس لاجل الناس وذلك يباين حال الصوفية وفي بعضه خفي منازعة للاقدار وعدم الرضا بها

فانك أنت المعاذ و ربما يقول القائل ان التنعم بالمباح مباح فكيف يكون التنعم سبب البعد من الله عز وجل
وهذا خيال ضعيف بل حب الدنيا رأس كل خطيئة وسبب احباط كل حسنة والمباح الخارج عن قدر الحاجة
أيضا من الدنيا وهو سبب البعد وسيأتى ذلك فى كتاب ذم الدنيا وقد قال ابراهيم الخواص كنت مرة فى جبل
اللكام فرأيت رمانا فاشتهيته فأخذت منه واحدة فشققتها فوجدتها حامضة فمضيت وتركتها فرأيت رجلا
مطروحا وقد اجتمعت عليه الزنابير فقلت السلام عليك فقال وعليك السلام يا ابراهيم فقلت كيف عرفتنى فقال
من عرف الله عز وجل لم يخف عليه شئ فقلت أرى لك حالا مع الله عز وجل فلو سألته أن يحميك من هذه
الزنابير فقال وأرى لك حالا مع الله تعالى فلو سألته أن يحميك من شهوة الرمان فان لدغ الرمان يجد الانسان ألمه فى
الآخرة ولدغ الزنابير يجد ألمه فى الدنيا فتركته ومضيت وقال السرى أنا منذ أربعين سنة تطالبنى نفسى أن أغمس
خبزة فى دبس فما أطعمتها فاذا لا يمكن اصلاح القلب لسلوك طريق الآخرة ما لم يمنع نفسه عن التنعم بالمباح فان
النفس اذا لم تمنع بعض المباحات طمعت فى المحظورات فمن أراد حفظ لسانه عن الغيبة والفضول فحقه أن يلزمه
السكوت الا عن ذكر الله والا عن المهمات فى الدين حتى تموت منه شهوة الكلام فلا يتكلم الا بحق فيكون سكونه
عبادة وكلامه عبادة ومهما اعتادت العين رمى البصر الى كل شئ جميل لم تتحفظ عن النظر الى ما لا يحل وكذلك
سائر الشهوات لان الذى يشتهى به الحلال هو بعينه الذى يشتهى به الحرام فالشهوة واحدة وقد وجب على
العبد منعها من الحرام فان لم يعودها الاقتصار على قدر الضرورة من الشهوات غلبته فهذه احدى آفات
المباحات ووراءها آفات عظيمة أعظم من هذه وهو أن النفس تفرح بالتنعم فى الدنيا وتركن اليها وتطمئن
اليها أشرا وبطرا حتى تصير ثملة كالسكران الذى لا يفيق من سكره وذلك الفرح بالدنيا سم قاتل يسرى فى
العروق فيخرج من القلب الخوف والحزن وذكر الموت وأهوال يوم القيامة وهذا هو موت القلب قال الله
تعالى ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها وقال تعالى وما الحياة الدنيا فى الآخرة الا متاع وقال تعالى اعلموا أنما
الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الاموال والاولاد الآية وكل ذلك ذم لها فنسأل الله السلامة
فأولو الحزم من أرباب القلوب جربوا قلوبهم فى حال الفرح بمؤاتاة الدنيا فوجدوها قاسية نفرة بعيدة التأثر
عن ذكر الله واليوم الآخر وجربوها فى حالة الحزن فوجدوها لينة رقيقة صافية قابلة لاثر الذكر فعلموا أن النجاة
فى الحزن الدائم والتباعد من أسباب الفرح والبطر ففطموها عن ملاذها وعودوها الصبر عن شهواتها
حلالها وحرامها وعلموا أن حلالها حساب وحرامها عقاب ومتشابهها عتاب وهو نوع عذاب فمن نوقش
الحساب فى عرصات القيامة فقد عذب فخلصوا أنفسهم من عذابها وتوصلوا الى الحرية والملك الدائم فى الدنيا
والآخرة بالخلاص من أسر الشهوات ورقها والانس بذكر الله عز وجل والاشتغال بطاعته وفعلوا بها ما يفعل
بالبازى اذا قصد تأديبه ونقله من التوثب والاستيحاش الى الانقياد والتأديب فانه يحبس أولا فى بيت مظلم
وتخاط عيناه حتى يحصل به الفطام عن الطيران فى جو الهواء وينسى ما قد كان ألفه من طبع الاسترسال ثم يرفق به
باللحم حتى يأنس بصاحبه ويألفه الفا اذا دعاه أجابه ومهما سمع صوته رجع اليه فكذلك النفس لا تألف ربها
ولا تأنس بذكره الا اذا فطمت عن عادتها بالخلوة والعزلة أولا ليحفظ السمع والبصر عن المألوفات ثم عودت الثناء
والذكر والدعاء ثانيا فى الخلوة حتى يغلب عليها الانس بذكر الله عز وجل عوضا عن الانس بالدنيا وسائر
الشهوات وذلك يثقل على المريد فى البداية ثم يتنعم به فى النهاية كالصبى يفطم عن الثدى وهو شديد عليه اذ كان
لا يصبر عنه ساعة فلذلك يشتد بكاؤه وجزعه عند الفطام ويشتد نفوره عن الطعام الذى يقدم اليه بدلا عن اللبن
ولكنه اذا منع اللبن رأسا يوما فيوما وعظم تعبه فى الصبر عليه وغلبه الجوع تناول الطعام تكلفا ثم يصير له
طبعا فلو رد بعد ذلك الى الثدى لم يرجع اليه فيهجر الثدى ويعاف اللبن ويألف الطعام وكذلك الدابة فى
الابتداء تنفر عن السرج واللجام والركوب فتحمل على ذلك قهرا وتمنع عن السرح الذى ألفته بالسلاسل
والقيود أولا ثم تأنس به بحيث تترك فى موضعها فتقف فيه من غير قيد فكذلك تؤدب النفس كما يؤدب
الطير والدواب وتأديبها بأن تمنع من النظر والانس والفرح بنعيم الدنيا بل بكل ما يزايلها بالموت اذ قيل
له أحبب ما أحببت فانك مفارقه فاذا علم أن من أحب شيأ يلزمه فراقه ويشقى لا محالة لفراقه شغل

قسم الجبار ويقال التصوف ترك التكلف ويقال التكلف تخلف وهو تخلف عن شأو الصادقين (روى) أنس ابن مالك قال شهدت وليمة لرسول الله ما فيها خبز ولا لحم (وروى) عن جابر أنه أتاه ناس من أصحابه فأتاهم بخبز وخل وقال كلوا فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول نعم الادام الخل وعن سفيان بن سلمة قال دخلت على سلمان الفارسى فاخرج الى خبزا وملحا وقال كل لولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهانا أن يتكلف أحد لاحد لتكلفت لكم والتكلف مذموم فى جميع الاشياء كالتكلف بالملبوس للناس من غير نية فيه والتكلف فى الكلام وزيادة التملق الذى صار دأب أهل الزمان فما يكاد يسلم من ذلك الا آحاد وأفراد وكم من متملق لا يعرف أنه

قلبه يحب مالا يفارقه وهو ذكر الله تعالى فان ذلك يصحبه فى القبر ولا يفارقه وكل ذلك يتم بالصبر أولا أياما قلائل فان العمر قليل بالاضافة الى مدة حياة الآخرة وما من عاقل الا وهو راض باحتمال المشقة فى سفر وتعلم صناعة وغيرها شهرا ليتنعم به سنة أو دهرا وكل العمر بالاضافة الى الابد أقل من الشهر بالاضافة الى عمر الدنيا فلابد من الصبر والمجاهدة فعند الصباح يحمد القوم السرى وتذهب عنهم عمايات الكرى كما قاله على رضى الله عنه وطريق المجاهدة والرياضة لكل انسان تختلف بحسب اختلاف أحواله والاصل فيه أن يترك كل واحد مابه فرحه من أسباب الدنيا فالذى يفرح بالمال أو بالجاه أو بالقبول فى الوعظ أو بالعز فى القضاء والولاية أو بكثرة الاتباع فى التدريس والافادة فينبغى أن يترك أولا مابه فرحه فانه ان منع عن شئ من ذلك فقيل له ثوابك فى الآخرة لم ينقص بالمنع فكره ذلك وتألم به فهو ممن فرح بالحياة الدنيا واطمأن بها وذلك مهلك فى حقه ثم اذا ترك أسباب الفرح فليعتزل الناس ولينفرد بنفسه وليراقب قلبه حتى لا يشتغل الا بذكر الله تعالى والفكر فيه وليترصد لما يبدو فى نفسه من شهوة ووسواس حتى يقمع مادته مهما ظهر فان لكل وسوسة سببا ولا تزول الا بقطع ذلك السبب والعلاقة وليلازم ذلك بقية العمر فليس للجهاد آخر الا الموت

﴿ بيان علامات حسن الخلق ﴾

اعلم أن كل انسان جاهل بعيوب نفسه فاذا جاهد نفسه أدنى مجاهدة حتى ترك فواحش المعاصى ربما يظن بنفسه أنه قد هذب نفسه وحسن خلقه واستغنى عن المجاهدة فلابد من ايضاح علامة حسن الخلق فان حسن الخلق هو الايمان وسوء الخلق هو النفاق وقد ذكر الله تعالى صفات المؤمنين والمنافقين فى كتابه وهى بجملتها ثمرة حسن الخلق وسوء الخلق فلنورد جملة من ذلك لتعلم آية حسن الخلق * قال الله تعالى * قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون الى قوله أولئك هم الوارثون وقال عز وجل التائبون العابدون الحامدون الى قوله وبشر المؤمنين وقال عز وجل انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم الى قوله أولئك هم المؤمنون حقا وقال تعالى وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما الى آخر السورة فمن أشكل عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق وفقد جميعها علامة سوء الخلق ووجود بعضها دون بعض يدل على البعض دون البعض فليشتغل بتحصيل مافقده وحفظ ماوجده وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمن بصفات كثيرة وأشار بجميعها الى محاسن الاخلاق فقال المؤمن يحب لاخيه مايحب لنفسه وقال عليه السلام من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه وقال صلى الله عليه وسلم من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره وقال من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت وذكر أن صفات المؤمنين هى حسن الخلق فقال صلى الله عليه وسلم أكمل المؤمنين ايمانا أحسنهم أخلاقا وقال صلى الله عليه وسلم اذا رأيتم المؤمن صموتا وقورا فادنوا منه فانه يلقن الحكمة وقال من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن وقال لا يحل لمؤمن أن يشير الى أخيه بنظرة تؤذيه وقال عليه السلام لا يحل لمسلم أن يروع مسلما وقال صلى الله عليه وسلم انما يتجالس المتجالسان بأمانة الله عز وجل فلا يحل لاحدهما أن يفشى على أخيه مايكرهه وجمع بعضهم علامات حسن الخلق فقال هو أن يكون كثير الحياء قليل الاذى كثير الصلاح صدوق اللسان قليل الكلام كثير العمل قليل الزلل قليل الفضول برا وصولا وقورا صبورا شكورا رضيا حليما رفيقا عفيفا شفيقا لا لعانا ولا سبابا ولا نماما ولا مغتابا ولا عجولا ولا حقودا ولا بخيلا ولا حسودا بشاشا هشاشا يحب فى الله ويبغض فى الله ويرضى فى الله ويغضب فى الله فهذا هو حسن الخلق وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن علامة المؤمن والمنافق فقال ان المؤمن همته فى الصلاة والصيام والعبادة والمنافق همته فى الطعام والشراب كالبهيمة وقال حاتم الاصم المؤمن مشغول بالفكر والعبر والمنافق مشغول بالحرص والامل والمؤمن آيس من كل أحد الا من الله والمنافق راج كل أحد الا الله والمؤمن آمن من كل أحد الا من الله والمنافق خائف من كل أحد الا من الله والمؤمن يقدم ماله دون دينه والمنافق يقدم دينه دون ماله والمؤمن يحسن ويبكى والمنافق يسىء ويضحك والمؤمن يحب الخلوة والوحدة والمنافق يحب الخلطة والملأ والمؤمن يزرع ويخشى الفساد والمنافق يقلع ويرجو الحصاد والمؤمن يأمر وينهى للسياسة فيصلح والمنافق يأمر وينهى للرياسة فيفسد وأولى

تملق ولا يفطن له فقد يتملق الشخص الى حد يخرجه الى صريح النفاق وهو مباين لحال الصوفى (أخبرنا) الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب ابن على قال أنا أبو الفتح الهروى قال أنا أبو نصر الترياقى قال أنا أبو محمد الجراحى قال أنا أبو العباس المحبوبى قال أنا أبو عيسى الترمذى ثنا أحمد بن منيع قال ثنا يزيد بن هرون عن محمد بن مطرف عن حسان بن عطية عن أبى أمامة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال الحياء والعى شعبتان من الايمان والبذاء والبيان شعبتان من النفاق البذاء الفحش وأراد بالبيان ههنا كثرة الكلام والتكلف للناس بزيادة تملق وثناء عليهم واظهار التفصح وذلك ليس من شأن أهل الصدق (وحكى) عن أبى وائل قال مضيت مع

مايمتحن به حسن الخلق الصبر على الاذى واحتمال الجفاء ومن شكا من سوء خلق غيره دل ذلك على سوء خلقه فان حسن الخلق احتمال الاذى فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يوما يمشى ومعه انس فادركه اعرابى فجذبه جذبا شديدا وكان عليه برد نجرانى غليظ الحاشية قال أنس رضى الله عنه حتى نظرت الى عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أثرت فيه حاشية البرد من شدة جذبه فقال يا محمد هب لى من مال الله الذى عندك فالتفت اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وضحك ثم أمر باعطائه ولما أكثرت قريش ايذاءه وضربه قال اللهم اغفر لقومى فانهم لا يعلمون قيل ان هذا يوم أحد فلذلك أنزل الله تعالى فيه وانك لعلى خلق عظيم ويحكى أن ابراهيم بن أدهم خرج يوما الى بعض البرارى فاستقبله رجل جندى فقال أنت عبد قال نعم فقال له أين العمران فاشار الى المقبرة فقال الجندى انما أردت العمران فقال هو المقبرة فغاظه ذلك فضرب رأسه بالسوط فشجه ورده الى البلد فاستقبله أصحابه فقالوا ما الخبر فأخبرهم الجندى ما قال له فقالوا هذا ابراهيم بن أدهم فنزل الجندى عن فرسه وقبل يديه ورجليه وجعل يعتذر اليه فقيل بعد ذلك له لم قلت له أنا عبد فقال انه لم يسألنى عبد من أنت بل قال أنت عبد فقلت نعم لانى عبد الله فلما ضرب رأسى سألت الله له الجنة قيل كيف وقد ظلمك فقال علمت أننى أوجر على ما نالنى منه فلم أرد أن يكون نصيبى منه الخير ونصيبه منى الشر ودعى أبو عثمان الحيرى الى دعوة وكان الداعى قد أراد تجربته فلما بلغ منزله قال له ليس لى وجه فرجع أبو عثمان فلما ذهب غير بعيد دعاه ثانيا فقال له يا أستاذ ارجع فرجع أبو عثمان فقال له مثل مقالته الاولى فرجع ثم دعاه الثالثة وقال ارجع على ما يوجب الوقت فرجع فلما بلغ الباب قال له مثل مقالته الاولى فرجع أبو عثمان ثم جاءه الرابعة فرده حتى عامله بذلك مرات وأبو عثمان لا يتغير من ذلك فاكب على رجليه وقال يا أستاذ انما أردت أن أختبرك فما أحسن خلقك فقال ان الذى رأيت منى هو خلق الكلب ان الكلب اذا دعى أجاب واذا زجر انزجر وروى عنه أيضا أنه اجتاز يوما فى سكة فطرحت عليه اجانة رماد فنزل عن دابته فسجد سجدة الشكر ثم جعل ينفض الرماد عن ثيابه ولم يقل شيأ فقيل ألا زبرتهم فقال ان من استحق النار فصولح على الرماد لم يجز له أن يغضب انتهى وروى أن على بن موسى الرضا رحمة الله عليه كان لونه يميل الى السواد اذ كانت أمه سوداء وكان بنيسابور حمام على باب داره وكان اذا أراد دخول الحمام فرغه له الحمامى فدخل ذات يوم فأغلق الحمامى الباب ومضى فى بعض حوائجه فتقدم رجل رستاقى الى باب الحمام ففتحه ودخل فنزع ثيابه ودخل فرأى على بن موسى الرضا فظن أنه بعض خدام الحمام فقال له قم واحمل الى الماء فقام على ابن موسى وامتثل جميع ما كان يأمره به فرجع الحمامى فرأى ثياب الرستاقى وسمع كلامه مع على بن موسى الرضا فخاف وهرب وخلاهما فلما خرج على بن موسى سأل عن الحمامى فقيل له انه خاف مما جرى فهرب قال لا ينبغى له أن يهرب انما الذنب لمن وضع ماءه عند أمة سوداء وروى أن أبا عبد الله الخياط كان يجلس على دكانه وكان له حريف مجوسى يستعمله فى الخياطة فكان اذا خاط له شيأ حمل اليه دراهم زائفة فكان أبو عبد الله يأخذها منه ولا يخبره بذلك ولا يردها عليه فاتفق يوما أن أبا عبد الله قام لبعض حاجته فأتى المجوسى فلم يجده فدفع الى تلميذه الاجرة واسترجع ما قد خاطه فكان درهما زائفا فلما نظر اليه التلميذ عرف أنه زائف فرده عليه فلما عاد أبو عبد الله أخبره بذلك فقال بئس ما عملت هذا المجوسى يعاملنى بهذه المعاملة منذ سنة وأنا أصبر عليه وآخذ الدراهم منه وألقيها فى البئر لئلا يغر بها مسلما وقال يوسف بن أسباط علامة حسن الخلق عشر خصال قلة الخلاف وحسن الانصاف وترك طلب العثرات وتحسين ما يبدو من السيئات والتماس المعذرة واحتمال الاذى والرجوع بالملامة على النفس والتفرد بمعرفة عيوب نفسه دون عيوب غيره وطلاقة الوجه للصغير والكبير ولطف الكلام لمن دونه ولمن فوقه * وسئل سهل عن حسن الخلق فقال أدناه احتمال الاذى وترك المكافأة والرحمة للظالم والاستغفار له والشفقة عليه وقيل للاحنف بن قيس ممن تعلمت الحلم فقال من قيس بن عاصم قيل وما بلغ من حلمه قال بينما هو جالس فى داره اذ أتته جارية له بسفود عليه شواء فسقط من يدها فوقع على ابن له صغير فمات فدهشت الجارية فقال لها لا روع عليك أنت حرة لوجه الله تعالى وقيل ان أويسا القرنى كان اذا رآه الصبيان يرمونه بالحجارة فكان يقول لهم يا اخوتاه ان كان ولا بد فارمونى بالصغار حتى لا تدموا ساقى فتمنعونى عن الصلاة وشتم رجل الاحنف بن قيس وهو لا يجيبه وكان يتبعه فلما قرب من الحى وقف

صاحب لى نزور سلمان فقدم الينا خبز شعير وملحا جريشا فقال صاحبى لو كان فى هذا الملح سعتر كان أطيب فخرج سلمان ورهن مطهرته وأخذ سعترا فلما أكلنا قال صاحبى الحمد لله الذى قنعنا بما رزقنا فقال سلمان لو قنعت بما رزقك لم تكن مطهرتى مرهونة وفى هذا من سلمان ترك التكلف قولا وفعلا وفى حديث يونس النبى عليه السلام انه زاره اخوانه فقدم اليهم كسرا من خبز شعير وجز لهم بقلا كان يزرعه ثم قال لولا ان الله لعن المتكلفين لتكلفت لكم قال بعضهم اذا قصدت للزيارة فقدم ما حضر واذا استزرت فلا تبق ولا تذر (وروى) الزبير بن العوام قال نادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما اللهم اغفر للذين يدعون لاموات أمتى ولا يتكلفون ألا انى

وقال

وقال ان كان قد بقي في نفسك شيء فقله كي لا يسمعك بعض سفهاء الحي فيؤذوك وروى أن عليا كرم الله وجهه
دعا غلاما فلم يجبه فدعاه ثانيا وثالثا فلم يجبه فقام اليه فرآه مضطجعا فقال أما تسمع يا غلام قال بلى قال فما حملك على
ترك اجابتي قال أمنت عقوبتك فتكاسلت فقال امض فأنت حر لوجه الله تعالى وقالت امرأة لمالك بن دينار رحمه
الله يا مرائي فقال يا هذه وجدت اسمي الذي أضله أهل البصرة وكان ليحيى بن زياد الحارثي غلام سوء فقيل له لم
تمسكه فقال لاتعلم الحلم عليه فهذه نفوس قد ذللت بالرياضة فاعتدلت أخلاقها ونقيت من الغش والغل والحقد
بواطنها فأثمرت الرضا بكل ما قدره الله تعالى وهو منتهى حسن الخلق فان من يكره فعل الله تعالى ولا يرضى به فهو
غاية سوء خلقه فهؤلاء ظهرت العلامات على ظواهرهم كما ذكرناه فمن لم يصادف من نفسه هذه العلامات فلا ينبغي
أن يغتر بنفسه فيظن بها حسن الخلق بل ينبغي أن يشتغل بالرياضة والمجاهدة الى ان يبلغ درجة حسن الخلق
فانها درجة رفيعة لا ينالها الا المقربون والصديقون

* بيان الطريق في رياضة الصبيان في أول نشوهم ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم *

اعلم ان الطريق في رياضة الصبيان من أهم الامور وأوكدها والصبي امانة عند والديه وقلبه الطاهر جوهرة
نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة وهو قابل لكل ما نقش ومائل الى كل ما يمال به اليه فان عود الخير وعلمه
نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة وشاركه في ثوابه أبواه وكل معلم له ومؤدب وان عود الشر وأهمل اهمال البهائم
شقي وهلك وكان الوزر في رقبة القيم عليه والوالي له وقد قال الله عز وجل يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم
نارا ومهما كان الاب يصونه عن نار الدنيا فبأن يصونه عن نار الآخرة أولى وصيانته بان يؤدبه ويهذبه ويعلمه
محاسن الاخلاق ويحفظه من القرناء السوء ولا يعوده التنعم ولا يحبب اليه الزينة وأسباب الرفاهية فيضيع عمره
في طلبها اذا كبر فيهلك هلاك الابد بل ينبغي أن يراقبه من أول أمره فلا يستعمل في حضانته وارضاعه الا امرأة صالحة
متدينة تأكل الحلال فان اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه فاذا وقع عليه نشو الصبي انعجنت طينته من الخبث
فيميل طبعه الى ما يناسب الخبائث ومهما رأى فيه مخايل التمييز فينبغي أن يحسن مراقبته وأول ذلك ظهور أوائل
الحياء فانه اذا كان يحتشم ويستحي ويترك بعض الافعال فليس ذلك الا لاشراق نور العقل عليه حتى يرى بعض
الاشياء قبيحا ومخالفا للبعض فصار يستحي من شيء دون شيء وهذه هدية من الله تعالى اليه وبشارة تدل على
اعتدال الاخلاق وصفاء القلب وهو مبشر بكمال العقل عند البلوغ فالصبي المستحي لا ينبغي أن يهمل بل يستعان
على تأديبه بحيائه وتمييزه وأول ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام فينبغي أن يؤدب فيه مثل أن لا يأخذ الطعام
الا بيمينه وان يقول عليه بسم الله عند أخذه وان يأكل مما يليه وأن لا يبادر الى الطعام قبل غيره وأن لا يحدق
النظر اليه ولا الى من يأكل وأن لا يسرع في الاكل وأن يجيد المضغ وأن لا يوالي بين اللقم ولا يلطخ يده ولا ثوبه
وأن يعود الخبز القفار في بعض الاوقات حتى لا يصير بحيث يرى الادم حتما ويقبح عنده كثرة الاكل بأن يشبه كل
من يكثر الاكل بالبهائم وبأن يذم بين يديه الصبي الذي يكثر الاكل ويمدح عنده الصبي المتأدب القليل الاكل وان
يحبب اليه الايثار بالطعام وقلة المبالاة به والقناعة بالطعام الخشن أي طعام كان وان يحبب اليه من الثياب البيض
دون الملون والابريسم ويقرر عنده أن ذلك شأن النساء والمخنثين وان الرجال يستنكفون منه ويكرر ذلك
عليه ومهما رأى على صبي ثوبا من ابريسم أو ملون فينبغي أن يستنكره ويذمه ويحفظ الصبي عن الصبيان الذين
عودوا التنعم والرفاهية ولبس الثياب الفاخرة وعن مخالطة كل من يسمعه ما يرغبه فيه فان الصبي مهما أهمل في
ابتداء نشوه خرج في الاغلب رديء الاخلاق كذابا حسودا سروقا نماما لحوحا ذا فضول وضحك وكياد ومجانة
وانما يحفظ عن جميع ذلك بحسن التأديب ثم يشغل في المكتب فيتعلم القرآن وأحاديث الاخبار وحكايات
الابرار وأحوالهم لينغرس في نفسه حب الصالحين ويحفظ من الاشعار التي فيها ذكر العشق وأهله ويحفظ من
مخالطة الادباء الذين يزعمون ان ذلك من الظرف ورقة الطبع فان ذلك يغرس في قلوب الصبيان بذر الفساد ثم
مهما ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود فينبغي أن يكرم عليه ويجازى عليه بما يفرح به ويمدح بين أظهر
الناس فان خالف ذلك في بعض الاحوال مرة واحدة فينبغي أن يتغافل عنه ولا يهتك ستره ولا يكاشفه ولا يظهر له

بريء من التكلف
وصالحو أمتي وروى
أن عمر رضي الله عنه
قرأ قوله تعالى فأنبتنا
فيها حبا وعنبا وقضبا
وزيتونا ونخلا وحدائق
غلبا وفاكهة وأبا ثم
قال كل هذا قد عرفناه
فما الاب قال وبيد
عمر عصاه فضرب بها
الارض ثم قال هذا
لعمر الله هو التكلف
خذوا ايها الناس
ما بين لكم منه فما عرفتم
اعملوا به ومن لم تعرفوا
فكلوا علمه الى الله *
ومن أخلاق الصوفية
الانفاق من غير اقتار
وترك الادخار وذلك
ان الصوفي يرى
خزائن فضل الحق
فهو بمثابة من هو مقيم
على شاطئ بحر والمقيم
على شاطئ البحر
لا يدخر الماء في قربته
وراويته (روى)
أبو هريرة رضي الله
عنه عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم أنه
قال ما من يوم الا له
ملكان يناديان فيقول
أحدهما اللهم أعط
منفقا خلفا ويقول
الآخر اللهم أعط ممسكا

أنه يتصور أن يتجاسر أحد على مثله ولاسيما اذا ستره الصبي واجتهد في اخفائه فان اظهار ذلك عليه ربما يفيده
جسارة حتى لا يبالي بالمكاشفة فعند ذلك ان عاد ثانيا فينبغي أن يعاتب سرا و يعظم الامر فيه و يقال له اياك أن تعود
بعد ذلك لمثل هذا وان يطلع عليك في مثل هذا فتفتضح بين الناس ولا تكثر القول عليه بالعتاب في كل حين فانه
يهون عليه سماع الملامة و ركوب القبائح و يسقط وقع الكلام من قلبه وليكن الاب حافظا هيبة الكلام معه فلا
يوبخه الا أحيانا والام تخوفه بالاب و تزجره عن القبائح و ينبغي أن يمنع عن النوم نهارا فانه يورث الكسل ولا يمنع
منه ليلا ولكن يمنع الفرش الوطيئة حتى تتصلب أعضاؤه ولا يسمن بدنه فلا يصبر عن التنعم بل يعود الخشونة في
المفرش والملبس والمطعم و ينبغي أن يمنع من كل ما يفعله في خفية فانه لا يخفيه الا وهو يعتقد أنه قبيح فاذا ترك
تعود فعل القبيح و يعود في بعض النهار المشي والحركة والرياضة حتى لا يغلب عليه الكسل و يعود أن لا يكشف
أطرافه ولا يسرع المشي ولا يرخي يديه بل يضمهما الى صدره و يمنع من أن يفتخر على أقرانه بشيء مما يملكه
والداه أو بشيء من مطاعمه وملابسه أو لوحه ودواته بل يعود التواضع والاكرام لكل من عاشره والتلطف في
الكلام معهم و يمنع من أن يأخذ من الصبيان شيأ بدا له حشمة ان كان من أولاد المحتشمين بل يعلم أن الرفعة في
الاعطاء لا في الاخذ وان الاخذ لؤم وخسة ودناءة وان كان من أولاد الفقراء فيعلم أن الطمع والاخذ مهانة وذلة
وأن ذلك من دأب الكلب فانه يبصبص في انتظار لقمة والطمع فيها وبالجملة يقبح الى الصبيان حب الذهب
والفضة والطمع فيهما و يحذر منهما أكثر مما يحذر من الحيات والعقارب فان آفة حب الذهب والفضة والطمع
فيهما أضر من آفة السموم على الصبيان بل على الاكابر أيضا و ينبغي أن يعود أن لا يبصق في مجلسه ولا يتمخط ولا
يتثاءب بحضرة غيره ولا يستدبر غيره ولا يضع رجلا على رجل ولا يضع كفه تحت ذقنه ولا يعمد رأسه بساعده فان
ذلك دليل الكسل و يعلم كيفية الجلوس و يمنع كثرة الكلام و يبين له أن ذلك يدل على الوقاحة وانه فعل أبناء اللئام
و يمنع اليمين رأسا صادقا كان أو كاذبا حتى لا يعتاد ذلك في الصغر و يمنع أن يبتدئ بالكلام و يعود أن لا يتكلم
الا جوابا و بقدر السؤال وأن يحسن الاستماع مهما تكلم غيره ممن هو أكبر منه سنا وان يقوم لمن فوقه و يوسع له
المكان و يجلس بين يديه و يمنع من لغو الكلام و فحشه ومن اللعن والسب ومن مخالطة من يجري على لسانه
شيء من ذلك فان ذلك يسري لا محالة من القرناء السوء وأصل تأديب الصبيان الحفظ من قرناء السوء و ينبغي اذا
ضربه المعلم أن لا يكثر الصراخ والشغب ولا يستشفع بأحد بل يصبر و يذكر له أن ذلك دأب الشجعان والرجال
وان كثرة الصراخ دأب المماليك والنسوان و ينبغي أن يؤذن له بعد الانصراف من الكتاب أن يلعب لعبا جميلا
يستريح اليه من تعب المكتب بحيث لا يتعب في اللعب فان منع الصبي من اللعب وارهاقه الى التعلم دائما يميت
قلبه و يبطل ذكاءه و ينغص عليه العيش حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأسا و ينبغي أن يعلم طاعة والديه
ومعلمه ومؤدبه وكل من هو أكبر منه سنا من قريب وأجنبي وأن ينظر اليهم بعين الجلالة والتعظيم وأن يترك
اللعب بين أيديهم ومهما بلغ سن التمييز فينبغي أن لا يسامح في ترك الطهارة والصلاة و يؤمر بالصوم في بعض أيام
رمضان و يجنب لبس الديباج والحرير والذهب و يعلم كل ما يحتاج اليه من حدود الشرع و يخوف من السرقة
وأكل الحرام ومن الخيانة والكذب والفحش وكل ما يغلب على الصبيان فاذا وقع نشوه كذلك في الصبا فمهما
قارب البلوغ أمكن أن يعرف أسرار هذه الامور فيذكر له أن الاطعمة أدوية وانما المقصود منها أن يقوى
الانسان بها على طاعة الله عز وجل وان الدنيا كلها لا أصل لها اذ لا بقاء لها وان الموت يقطع نعيمها
وأنها دار ممر لا دار مقر وأن الآخرة دار مقر لا دار ممر وان الموت منتظر في كل ساعة وان الكيس العاقل من
تزود من الدنيا للآخرة حتى تعظم درجته عند الله تعالى و يتسع نعيمه في الجنان فاذا كان النشو صالحا كان
هذا الكلام عند البلوغ واقعا مؤثرا ناجعا يثبت في قلبه كما يثبت النقش في الحجر وان وقع النشو بخلاف ذلك
حتى ألف الصبي اللعب والفحش والوقاحة وشره الطعام واللباس والتزين والتفاخر نبا قلبه عن قبول الحق
نبوة الحائط عن التراب اليابس فاوائل الامور هي التي ينبغي أن تراعى فان الصبي بجوهره خلق قابلا للخير والشر
جميعا وانما أبواه يميلان به الى أحد الجانبين قال صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة وانما

تلفا و روى أنس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدخر شيأ لغد و روى أنه أهدي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث طوائر فأطعم خادمه طيرا فلما كان الغد أتاه به فقال رسول الله ألم أنهك أن تخبأ شيأ لغد فان الله تعالى يأتي برزق كل غد و روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على بلال وعنده صبرة من تمر فقال ما هذا يا بلال فقال أدخره يا رسول الله قال أما تخشى أنفق بلالا ولا تخش من ذي العرش اقلالا و روى ان عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم كان يأكل الشجر و يلبس الشعر و يبيت حيث أمسى ولم يكن له ولد يموت ولا بيت يخرب ولا يخبأ شيأ لغد فالصوفي كل خباياه في خزائن الله لصدق توكله وثقته بربه فالدنيا للصوفي

أبواه

أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه قال سهل بن عبد الله التستري كنت وأنا ابن ثلاث سنين أقوم بالليل فانظر
الى صلاة خالي محمد بن سوار فقال لي يوما ألا تذكر الله الذي خلقك فقلت كيف أذكره قال قل بقلبك عند تقلبك
في ثيابك ثلاث مرات من غير أن تحرك به لسانك الله معي الله ناظر الي الله شاهدي فقلت ذلك ليالي ثم أعلمته
فقال قل في كل ليلة سبع مرات فقلت ذلك ثم أعلمته فقال قل ذلك كل ليلة احدى عشرة مرة فقلته فوقع في قلبي
حلاوته فلما كان بعد سنة قال لي خالي احفظ ما علمتك ودم عليه الى أن تدخل القبر فانه ينفعك في الدنيا والآخرة
فلم أزل على ذلك سنين فوجدت لذلك حلاوة في سري ثم قال لي خالي يوما يا سهل من كان الله معه وناظرا اليه
وشاهده أيعصيه اياك والمعصية فكنت أخلو بنفسي فبعثوا بي الى المكتب فقلت اني لأخشى أن يتفرق علي همي
ولكن شارطوا المعلم اني أذهب اليه ساعة فأتعلم ثم أرجع فمضيت الى الكتاب فتعلمت القرآن وحفظته وأنا ابن
ست سنين أو سبع سنين وكنت أصوم الدهر وقوتي من خبز الشعير اثنتي عشرة سنة فوقعت لي مسئلة وأنا
ابن ثلاث عشرة سنة فسألت أهلي أن يبعثوني الى أهل البصرة لأسأل عنها فأتيت البصرة فسألت علماءها فلم يشف
أحد عني شيأ فخرجت الى عبادان الى رجل يعرف بأبي حبيب حمزة بن أبي عبد الله العباداني فسألته عنها فأجابني
فأقمت عنده مدة أنتفع بكلامه وأتأدب بآدابه ثم رجعت الى تستر فجعلت قوتي اقتصادا على أن يشترى لي بدرهم
من الشعير الفرق فيطحن ويخبز لي فأفطر عند السحر على أوقية كل ليلة بحتا بغير ملح ولا أدم فكان يكفيني ذلك
الدرهم سنة ثم عزمت على أن أطوي ثلاث ليال ثم أفطر ليلة ثم خمسا ثم سبعا ثم خمسا وعشرين ليلة فكنت على
ذلك عشرين سنة ثم خرجت أسيح في الأرض سنين ثم رجعت الى تستر وكنت أقوم الليل كله ما شاء الله تعالى
قال أحمد فما رأيته أكل الملح حتى لقي الله تعالى

﴿ بيان شروط الارادة ومقدمات المجاهدة وتدريج المريد في سلوك سبيل الرياضة ﴾

واعلم أن من شاهد الآخرة بقلبه مشاهدة يقين أصبح بالضرورة مريدا حرث الآخرة مشتاقا اليها سالكا سبيلها
مستهينا بنعيم الدنيا ولذاتها فان من كانت عنده خرزة فرأى جوهرة نفيسة لم يبق له رغبة في الخرزة وقويت ارادته
في بيعها بالجوهرة ومن ليس مريدا حرث الآخرة ولا طالبا للقاء الله تعالى فهو لعدم ايمانه بالله واليوم الآخر
ولست أعني بالايمان حديث النفس وحركة اللسان بكلمتي الشهادة من غير صدق واخلاص فان ذلك يضاهي
قول من صدق بأن الجوهرة خير من الخرزة الا أنه لا يدري من الجوهرة الا لفظها وأما حقيقتها فلا ومثل هذا
المصدق اذا ألف الخرزة قد لا يتركها ولا يعظم اشتياقه الى الجوهرة فاذا المانع من الوصول عدم السلوك والمانع
من السلوك عدم الارادة والمانع من الارادة عدم الايمان وسبب عدم الايمان عدم الهداة والمذكرين والعلماء
بالله تعالى الهادين الى طريقه والمنبهين على حقارة الدنيا وانقراضها وعظم أمر الآخرة ودوامها فالخلق غافلون
قد انهمكوا في شهواتهم وغاصوا في رقدتهم وليس في علماء الدين من ينبههم فان تنبه منهم متنبه عجز عن سلوك
الطريق لجهله فان طلب الطريق من العلماء وجدهم مائلين الى الهوى عادلين عن نهج الطريق فصار ضعف
الارادة والجهل بالطريق ونطق العلماء بالهوى سببا لخلو طريق الله تعالى عن السالكين فيه ومهما كان
المطلوب محجوبا والدليل مفقودا والهوى غالبا والطالب غافلا امتنع الوصول وتعطلت الطرق لا محالة فان تنبه
متنبه من نفسه أو من تنبيه غيره وانبعث له ارادة في حرث الآخرة وتجارتها فينبغي أن يعلم أن له شروطا لا بد من
تقديمها في بداية الارادة وله معتصم لا بد من التمسك به وله حصن لا بد من التحصن به ليأمن من الأعداء القطاع
لطريقه وعليه وظائف لا بد من ملازمتها في وقت سلوك الطريق * أما الشروط التي لا بد من تقديمها في الارادة
فهي رفع السد والحجاب الذي بينه وبين الحق فان حرمان الخلق عن الحق سببه تراكم الحجب ووقوع السد على
الطريق قال الله تعالى وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون والسد بين المريد
وبين الحق أربعة المال والجاه والتقليد والمعصية وانما يرفع حجاب المال بخروجه عن ملكه حتى لا يبقى له الا قدر
الضرورة فما دام يبقى له درهم يلتفت اليه قلبه فهو مقيد به محجوب عن الله عز وجل وانما يرتفع حجاب الجاه بالبعد
عن موضع الجاه بالتواضع وايثار الخمول والهرب من أسباب الذكر وتعاطي أعمال تنفر قلوب الخلق عنه وانما

كدار الغربة ليس له
فيها ادخار ولا له منها
استكثار قال عليه
السلام لو توكلتم على الله
حق توكله لرزقكم كما
يرزق الطير تغدو خماصا
وتروح بطانا (أخبرنا)
شيخنا ضياء الدين أبو
النجيب قال أنا أبو عبد
الرحمن محمد بن أبي عبد
الله الماليني قال أنا أبو
الحسن عبد الرحمن
الداودي قال أنا أبو محمد
عبد الله السرخسي قال
أنا أبو عمران السمرقندي
قال أنا عبد الله بن عبد
الرحمن الدارمي قال أنا
محمد بن يوسف عن
سفيان عن ابن المنكدر
عن جابر قال ما سئل
النبي صلى الله عليه وسلم
شيأ قط فقال لا قال ابن
عيينة اذا لم يكن عنده
وعد وبالاسناد عن
الدارمي قال أنا يعقوب
ابن حميد قال أنا عبد
العزيز بن محمد عن ابن
أخي الزهري قال ان
جبريل عليه السلام
قال ما في الأرض أهل

يرتفع حجاب التقليد بأن يترك التعصب للمذاهب وأن يصدق بمعنى قوله لا اله الا الله محمد رسول الله تصديق ايمان ويحرص فى تحقيق صدقه بأن يرفع كل معبود له سوى الله تعالى وأعظم معبود له الهوى حتى اذا فعل ذلك انكشف له حقيقة الامر فى معنى اعتقاده الذى تلقفه تقليدا فينبغى أن يطلب كشف ذلك من المجاهدة لا من المجادلة فان غلب عليه التعصب لمعتقده ولم يبق فى نفسه متسع لغيره صار ذلك قيدا له وحجابا اذ ليس من شرط المريد الانتماء الى مذهب معين أصلا وأما المعصية فهى حجاب ولا يرفعها الا التوبة والخروج من المظالم وتصميم العزم على ترك العود وتحقيق الندم على ما مضى ورد المظالم وارضاء الخصوم فان من لم يصحح التوبة ولم يهجر المعاصى الظاهرة وأراد أن يقف على أسرار الدين بالمكاشفة كان كمن يريد أن يقف على أسرار القرآن وتفسيره وهو بعد لم يتعلم لغة العرب فان ترجمة عربية القرآن لابد من تقديمها أولا ثم الترقى منها الى أسرار معانيه فكذلك لابد من تصحيح ظاهر الشريعة أولا وآخرا ثم الترقى الى أغوارها وأسرارها فاذا قدم هذه الشروط الاربعة وتجرد عن المال والجاه كان كمن تطهر وتوضأ ورفع الحدث وصار صالحا للصلاة فيحتاج الى امام يقتدى به فكذلك المريد يحتاج الى شيخ وأستاذ يقتدى به لا محالة ليهديه الى سواء السبيل فان سبيل الدين غامض وسبل الشيطان كثيرة ظاهرة فمن لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان الى طرقه لا محالة فمن سلك سبل البوادى المهلكة بغير خفير فقد خاطر بنفسه وأهلكها ويكون المستقل بنفسه كالشجرة التى تنبت بنفسها فانها تجف على القرب وان بقيت مدة وأورقت لم تثمر فمعتصم المريد بعد تقديم الشروط المذكورة شيخه فليتمسك به تمسك الاعمى على شاطئ النهر بالقائد بحيث يفوض أمره اليه بالكلية ولا يخالفه فى ورده ولا صدره ولا يبقى فى متابعته شيأ ولا يذر وليعلم أن نفعه فى خطأ شيخه لو أخطأ أكثر من نفعه فى صواب نفسه لو أصاب فاذا وجد مثل هذا المعتصم وجب على معتصمه أن يحميه ويعصمه بحصن حصين يدفع عنه قواطع الطريق وهو أربعة أمور * الخلوة والصمت والجوع والسهر وهذا تحصن من القواطع فان مقصود المريد اصلاح قلبه ليشاهد به ربه ويصلح لقربه وأما الجوع فانه ينقص دم القلب ويبيضه وفى بياضه نوره ويذيب شحم الفؤاد وفى ذوبانه رقته ورقته مفتاح المكاشفة كما أن قساوته سبب الحجاب ومهما نقص دم القلب ضاق مسلك العدو فان مجاريه العروق الممتلئة الشهوات وقال عيسى عليه السلام يا معشر الحواريين جوعوا بطونكم لعل قلوبكم ترى ربكم وقال سهل بن عبد الله التسترى ما صار الابدال ابدالا الا بأربع خصال باخماص البطون والسهر والصمت والاعتزال عن الناس ففائدة الجوع فى تنوير القلب أمر ظاهر يشهد له التجربة وسيأتى بيان وجه التدريج فيه فى كتاب كسر الشهوتين وأما السهر فانه يجلو القلب ويصفيه وينوره فيضاف ذلك الى الصفاء الذى حصل من الجوع فيصير القلب كالكوكب الدرى والمرآة المجلوة فيلوح فيه جمال الحق ويشاهد فيه رفيع الدرجات فى الآخرة وحقارة الدنيا وآفاتها فتتم بذلك رغبته عن الدنيا واقباله على الآخرة والسهر أيضا نتيجة الجوع فان السهر مع الشبع غير ممكن والنوم يقسى القلب ويميته الا اذا كان بقدر الضرورة فيكون سبب المكاشفة لاسرار الغيب فقد قيل فى صفة الابدال ان أكلهم فاقة ونومهم غلبة وكلامهم ضرورة وقال ابراهيم الخواص رحمه الله أجمع رأى سبعين صديقا على أن كثرة النوم من كثرة شرب الماء * وأما الصمت فانه تسهله العزلة ولكن المعتزل لا يخلو عن مشاهدة من يقوم له بطعامه وشرابه وتدبير أمره فينبغى أن لا يتكلم الا بقدر الضرورة فان الكلام يشغل القلب وشره القلوب الى الكلام عظيم فانه يستروح اليه ويستثقل التجرد للذكر والفكر فيستريح اليه فالصمت يلقح العقل ويجلب الورع ويعلم التقوى وأما الخلوة ففائدتها دفع الشواغل وضبط السمع والبصر فانهما دهليز القلب والقلب فى حكم حوض تنصب اليه مياه كريهة كدرة قذرة من أنهار الحواس ومقصود الرياضة تفريغ الحوض من تلك المياه ومن الطين الحاصل منها ليتفجر أصل الحوض فيخرج منه الماء النظيف الطاهر وكيف يصح له أن ينزح الماء من الحوض والانهار مفتوحة اليه فيتجدد فى كل حال أكثر مما ينقص فلابد من ضبط الحواس الا عن قدر الضرورة وليس يتم ذلك الا بالخلوة فى بيت مظلم وان لم يكن له مكان مظلم فليلف رأسه فى جيبه أو يتدثر بكساء أو ازار ففى مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق ويشاهد جلال الحضرة الربوبية أما ترى ان نداء رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغه وهو على مثل هذه الصفة فقيل

عشيرة من أبيات الا قلبتهم فما وجدت أحدا أشد انفاقا لهذا المال من رسول الله صلى الله عليه وسلم * ومن أخلاق الصوفية القناعة باليسير من الدنيا (قال ذو النون المصرى) من قنع استراح من أهل زمانه واستطال على أقرانه وقال بشر بن الحرث لو لم يكن فى القناعة الا التمتع بالعز لكفى صاحبه وقال بنان الحمال

الحر عبد ما طمع
والعبد حر ما قنع

وقال بعضهم انتقم من حرصك بالقناعة كما تنتقم من عدوك بالقصاص وقال أبو بكر المراغى العاقل من دبر أمر الدنيا بالقناعة والتسويف ودبر أمر الآخرة بالحرص والتعجيل وقال يحيى بن معاذ من قنع بالرزق فقد ذهب بالآخرة وطاب عيشه (وقال) أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم

له يا أيها المزمل يا أيها المدثر فهذه الاربعة جنة وحصن بها تدفع عنه القواطع وتمنع العوارض القاطعة للطريق فاذا فعل ذلك اشتغل بعده بسلوك الطريق وانما سلوكه بقطع العقبات ولا عقبة على طريق الله تعالى الا صفات القلب التي سببها الالتفات الى الدنيا وبعض تلك العقبات أعظم من بعض والترتيب في قطعها أن يشتغل بالاسهل فالاسهل وهي تلك الصفات أعني أسرار العلائق التي قطعها في أول الارادة وآثارها أعني المال والجاه وحب الدنيا والالتفات الى الخلق والتشوف الى المعاصي فلابد أن يخلي الباطن عن آثارها كما أخلى الظاهر عن أسبابها الظاهرة وفيه تطول المجاهدة ويختلف ذلك باختلاف الاحوال فرب شخص قد كفي أكثر الصفات فلا تطول عليه المجاهدة وقد ذكرنا أن طريق المجاهدة مضادة الشهوات ومخالفة الهوى في كل صفة غالبة على نفس المريد كما سبق ذكره فاذا كفي ذلك أو ضعف بالمجاهدة ولم يبق في قلبه علاقة تشغله بعد ذلك يلزم قلبه على الدوام ويمنعه من تكثير الاوراد الظاهرة بل يقتصر على الفرائض والرواتب ويكون ورده وردا واحدا وهو لباب الاوراد وثمرتها أعني ملازمة القلب لذكر الله تعالى بعد الخلو من ذكر غيره ولا يشغله به ما دام قلبه ملتفتا الى علائقه قال الشبلي للحصري ان كان يخطر بقلبك من الجمعة التي تأتيني فيها الى الجمعة الاخرى شئ غير الله تعالى فحرام عليك أن تأتيني وهذا التجرد لا يحصل الا مع صدق الارادة واستيلاء حب الله تعالى على القلب حتى يكون في صورة العاشق المستهتر الذي ليس له الا هم واحد فاذا كان كذلك ألزمه الشيخ زاوية ينفرد بها ويوكل به من يقوم له بقدر يسير من القوت الحلال فان أصل طريق الدين القوت الحلال وعند ذلك يلقنه ذكرا من الاذكار حتى يشغل به لسانه وقلبه فيجلس ويقول مثلا الله الله أو سبحان الله سبحان الله أو ما يراه الشيخ من الكلمات فلا يزال يواظب عليه حتى تسقط حركة اللسان وتكون الكلمة كأنها جارية على اللسان من غير تحريك ثم لا يزال يواظب عليه حتى يسقط الاثر عن اللسان وتبقى صورة اللفظ في القلب ثم لا يزال كذلك حتى يمحى عن القلب حروف اللفظ وصورته وتبقى حقيقة معناه لازمة للقلب حاضرة معه غالبة عليه قد فرغ عن كل ما سواه لان القلب اذا شغل بشئ خلا عن غيره أي شئ كان فاذا اشتغل بذكر الله تعالى وهو المقصود خلا لا محالة عن غيره وعند ذلك يلزمه أن يراقب وساوس القلب والخواطر التي تتعلق بالدنيا وما يتذكر فيه مما قد مضى من أحواله وأحوال غيره فانه مهما اشتغل بشئ منه ولو في لحظة خلا قلبه عن الذكر في تلك اللحظة وكان أيضا نقصانا فليجتهد في دفع ذلك ومهما دفع الوساوس كلها ورد النفس الى هذه الكلمة جاءته الوساوس من هذه الكلمة وأنها ما هي وما معنى قولنا الله ولاي معنى كان الها وكان معبودا ويعتريه عند ذلك خواطر تفتح عليه باب الفكر وربما يرد عليه من وساوس الشيطان ما هو كفر وبدعة ومهما كان كارها لذلك ومتشمرا لاماطته عن القلب لم يضره ذلك وهي منقسمة الى ما يعلم قطعا ان الله تعالى منزه عنه ولكن الشيطان يلقي ذلك في قلبه ويجريه على خاطره فشرطه أن لا يبالي به ويفزع الى ذكر الله تعالى ويبتهل اليه ليدفعه عنه كما قال تعالى واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع عليم وقال تعالى ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون والى ما يشك فيه فينبغي ان يعرض ذلك على شيخه بل كل ما يجد في قلبه من الاحوال من فترة أو نشاط أو التفات الى علاقة أو صدق في ارادة فينبغي ان يظهر ذلك لشيخه وان يستره عن غيره فلا يطلع عليه أحدا ثم ان شيخه ينظر في حاله ويتأمل في ذكائه وكياسته فلو علم أنه لو تركه وأمره بالفكر تنبه من نفسه على حقيقة الحق فينبغي أن يحيله على الفكر ويأمره بملازمته حتى يقذف في قلبه من النور ما يكشف له حقيقته وان علم أن ذلك مما لا يقوى عليه مثله رده الى الاعتقاد القاطع بما يحتمله قلبه من وعظ وذكر ودليل قريب من فهمه وينبغي أن يتأنق الشيخ ويتلطف به فان هذه مهالك الطريق ومواضع أخطارها فكم من مريد اشتغل بالرياضة فغلب عليه خيال فاسد لم يقو على كشفه فانقطع عليه طريقه فاشتغل بالبطالة وسلك طريق الاباحة وذلك هو الهلاك العظيم ومن تجرد للذكر ودفع العلائق الشاغلة عن قلبه لم يخل عن أمثال هذه الافكار فانه قد ركب سفينة الخطر فان سلم كان من ملوك الدين وان أخطأ كان من الهالكين ولذلك قال صلى الله عليه وسلم عليكم بدين العجائز وهو تلقي أصل الايمان وظاهر الاعتقاد بطريق التقليد والاشتغال باعمال الخير فان الخطر في العدول عن ذلك كثير

الله وجهه القناعة سيف لا ينبو (أخبرنا) أبو زرعة عن أبيه أبي الفضل قال أنا أبو القاسم عبد الله بن الحسن الخلال ببغداد قال أنا أبو حفص عمر بن ابراهيم قال حدثنا أبو القاسم البغوي قال حدثنا محمد بن عباد قال حدثنا أبو سعيد عن صدقة بن الربيع عن عمارة بن غزية عن عبد الرحمن بن أبي سعيد عن أبيه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على الاعواد يقول ما قل وكفى خير مما كثر وألهى (وروى) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال قد أفلح من أسلم وكان رزقه كفافا ثم صبر عليه (وروى أبو هريرة) رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا وقال اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا (وروى جابر) رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه

ولذلك قيل يجب على الشيخ أن يتفرس فى المريد فان لم يكن ذكيا فطنا متمكنا من اعتقاد الظاهر لم يشغله بالذكر والفكر بل يرده الى الاعمال الظاهرة والاوراد المتواترة أو يشغله بخدمة المتجردين للفكر لتشمله بركتهم فان العاجز عن الجهاد فى صف القتال ينبغي أن يسقي القوم و يتعهد دوابهم ليحشر يوم القيامة فى زمرتهم وتعمه بركتهم وان كان لا يبلغ درجتهم ثم المريد المتجرد للذكر والفكر قد يقطعه قواطع كثيرة من العجب والرياء والفرح بما ينكشف له من الاحوال وما يبدو من أوائل الكرامات ومهما التفت الى شيء من ذلك وشغلت به نفسه كان ذلك فتورا فى طريقه و وقوفا بل ينبغي أن يلازم حاله جملة عمره ملازمة العطشان الذي لا تر و يه البحار ولو أفيضت عليه و يدوم على ذلك ورأس ماله الانقطاع عن الخلق الى الحق والخلوة قال بعض السياحين قلت لبعض الابدال المنقطعين عن الخلق كيف الطريق الى التحقيق فقال أن تكون فى الدنيا كانك عابر طريق وقال مرة قلت له دلني على عمل أجد قلبي فيه مع الله تعالى على الدوام فقال لي لا تنظر الى الخلق فان النظر اليهم ظلمة قلت لابد لي من ذلك قال فلا تسمع كلامهم فان كلامهم قسوة قلت لابد لي من ذلك قال فلا تعاملهم فان معاملتهم وحشة قلت أنا بين أظهرهم لابد لي من معاملتهم قال فلا تسكن اليهم فان السكون اليهم هلكة قال قلت هذه العلة قال يا هذا أتنظر الى الغافلين وتسمع كلام الجاهلين وتعامل البطالين وتريد أن تجد قلبك مع الله تعالى على الدوام هذا ما لا يكون أبدا فاذا منتهى الرياضة أن يجد قلبه مع الله تعالى على الدوام ولا يمكن ذلك الا بان يخلو عن غيره ولا يخلو عن غيره الا بطول المجاهدة فاذا حصل قلبه مع الله تعالى انكشف له جلال الحضرة الربوبية وتجلى له الحق وظهر له من لطائف الله تعالى ما لا يجوز أن يوصف بل لا يحيط به الوصف أصلا واذا انكشف للمريد شيء من ذلك فاعظم القواطع عليه أن يتكلم به وعظا ونصحا و يتصدى للتذكير فتجد النفس فيه لذة ليس وراءها لذة فتدعوه تلك اللذة الى أن يتفكر فى كيفية ايراد تلك المعاني وتحسين الالفاظ المعبرة عنها وترتيب ذكرها وتزيينها بالحكايات وشواهد القرآن والاخبار وتحسين صنعة الكلام لتميل اليه القلوب والاسماع فر بما يخيل اليه الشيطان أن هذا احياء منك لقلوب الموتى الغافلين عن الله تعالى وانما أنت واسطة بين الله تعالى و بين الخلق تدعو عباده اليه ومالك فيه نصيب ولا لنفسك فيه لذة و يتضح كيد الشيطان بان يظهر فى أقرانه من يكون أحسن كلاما منه وأجزل لفظا وأقدر على استجلاب قلوب العوام فانه يتحرك فى باطنه عقرب الحسد لا محالة ان كان محركه كيد القبول وان كان محركه هو الحق حرصا على دعوة عباد الله تعالى الى صراطه المستقيم فيعظم به فرحه و يقول الحمد لله الذي عضدني وأيدني عن وازرني على اصلاح عباده كالذي وجب عليه مثلا أن يحمل ميتا ليدفنه اذ وجده ضائعا وتعين عليه ذلك شرعا فجاء من أعانه عليه فانه يفرح به ولا يحسد من يعينه والغافلون موتى القلوب والوعاظ هم المنبهون والمحيون لهم ففي كثرتهم استرواح وتناصر فينبغي ان يعظم الفرح بذلك وهذا اعز بز الوجود جدا فينبغي ان يكون المريد على حذر منه فانه أعظم حبائل الشيطان فى قطع الطريق على من انفتحت له أوائل الطريق فان ايثار الحياة الدنيا طبع غالب على الانسان ولذلك قال الله تعالى بل تؤثرون الحياة الدنيا ثم بين أن الشر قديم فى الطباع وأن ذلك مذكور فى الكتب السالفة فقال ان هذا لفي الصحف الاولى صحف ابراهيم وموسى فهذا منهاج رياضة المريد وتربيته فى التدريج الى لقاء الله تعالى فاما تفصيل الرياضة فى كل صفة فسيأتى فان أغلب الصفات على الانسان بطنه وفرجه ولسانه أعني به الشهوات المتعلقة بها ثم الغضب الذي هو كالجند لحماية الشهوات ثم مهما أحب الانسان شهوة البطن والفرج وأنس بهما أحب الدنيا ولم يتمكن منها الا بالمال والجاه واذا طلب المال والجاه حدث فيه الكبر والعجب والرياسة واذا ظهر ذلك لم تسمح نفسه بترك الدنيا رأسا وتمسك من الدين بما فيه الرياسة وغلب عليه الغرور فلهذا وجب علينا بعد تقديم هذين الكتابين أن نستكمل ربع المهلكات بثمانية كتب ان شاء الله تعالى كتاب فى كسر شهوة البطن والفرج وكتاب فى آفات اللسان وكتاب فى كسر الغضب والحقد والحسد وكتاب فى ذم الدنيا وتفصيل خدعها وكتاب فى كسر حب المال وذم البخل وكتاب فى ذم الرياء وحب الجاه وكتاب فى ذم الكبر والعجب وكتاب فى مواقع الغرور و بذكر هذه المهلكات وتعليم طرق المعالجة فيها يتم غرضنا من ربع المهلكات ان شاء الله تعالى فان ما ذكرناه فى

الكتاب

قال القناعة مال لا ينفد (وروى) عن عمر رضي الله عنه أنه قال كونوا أوعية الكتاب وينابيع الحكمة وعدوا أنفسكم فى الموتى واسألوا الله تعالى الرزق يوما بيوم ولا يضركم ان لا يكثر لكم (وأخبرنا) أبو زرعة طاهر عن أبي الفضل والده قال أنا أبو القاسم اسمعيل بن عبد الله الشاوي قال أنا أحمد بن علي الحافظ قال أنا أبو عمرو بن حمدان قال حدثنا الحسن بن سفيان قال حدثنا عمرو بن مالك البصري قال حدثنا مروان بن معاوية قال حدثنا عبد الرحمن بن أبي سلمة الانصاري قال أخبرني سلمة بن عبد الله ابن محصن عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصبح آمنا فى سربه معافى فى بدنه عنده قوت يومه فكانما حيزت له الدنيا (وقيل) فى تفسير قوله تعالى فلنحيينه حياة طيبة هي القناعة

الكتاب الاول هو شرح لصفات القلب الذى هو معدن المهلكات والمنجيات وما ذكرناه فى الكتاب الثانى هو اشارة كلية الى طريق تهذيب الاخلاق ومعالجة أمراض القلوب أما تفصيلها فانه يأتى فى هذه الكتب ان شاء الله تعالى * تم كتاب رياضة النفس وتهذيب الاخلاق بحمد الله وعونه وحسن توفيقه يتلوه ان شاء الله تعالى كتاب كسر الشهوتين والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وعلى كل عبد مصطفى من أهل الارض والسماء وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب

﴿ كتاب كسر الشهوتين وهو الكتاب الثالث من ربع المهلكات ﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله المنفرد بالجلال فى كبريائه وتعاليه * المستحق للتحميد والتقديس والتسبيح والتنزيه * القائم بالعدل فيما يبرمه ويقضيه المتطول بالفضل فيما ينعم به ويسديه المتكفل بحفظ عبده فى جميع موارده ومجاريه المنعم عليه بما يزيد على مهمات مقاصده بل بما يفى بأمانيه فهو الذى يرشده ويهديه وهو الذى يميته ويحييه واذا مرض فهو يشفيه واذا ضعف فهو يقويه وهو الذى يوفقه للطاعة ويرتضيه وهو الذى يطعمه ويسقيه ويحفظه من الهلاك ويحميه ويحرسه بالطعام والشراب عما يهلكه ويرديه ويمكنه من القناعة بقليل القوت ويقربه حتى تضيق به مجارى الشيطان الذى يناويه ويكسر به شهوة النفس التى تعاديه فيدفع شرها ثم يعبد ربه ويتقيه هذا بعد أن يوسع عليه ما يلتذ به ويشتهيه ويكثر عليه ما يهيج بواعثه ويؤكد دواعيه كل ذلك يمتحنه به ويبتليه فينظر كيف يؤثره على ما يهواه وينتحيه وكيف يحفظ أوامره وينتهى عن نواهيه ويواظب على طاعته وينزجر عن معاصيه والصلاة على محمد عبده النبيه ورسوله الوجيه صلاة تزلفه وتحظيه وترفع منزلته وتعليه وعلى الابرار من عترته وأقربيه والاخيار من صحابته وتابعيه (أما بعد) فاعظم المهلكات لابن آدم شهوة البطن فبها أخرج آدم عليه السلام وحواء من دار القرار الى دار الذل والافتقار اذ نهيا عن الشجرة فغلبتهما شهواتهما حتى أكلا منها فبدت لهما سوآتهما والبطن على التحقيق ينبوع الشهوات ومنبت الادواء والآفات اذ يتبعها شهوة الفرج وشدة الشبق الى المنكوحات ثم تتبع شهوة الطعام والنكاح شدة الرغبة فى المال والجاه اللذين هما وسيلة الى التوسع فى المنكوحات والمطعومات ثم يتبع استكثار المال والجاه أنواع الرعونات وضروب المنافسات والمحاسدات ثم يتولد بينهما آفة الرياء وغائلة التفاخر والتكاثر والكبرياء ثم يتداعى ذلك الى الحقد والحسد والعداوة والبغضاء ثم يفضى ذلك بصاحبه الى اقتحام البغى والمنكر والفحشاء وكل ذلك ثمرة اهمال المعدة وما يتولد منها من بطر الشبع والامتلاء ولو ذلل العبد نفسه بالجوع وضيق به مجارى الشيطان لاذعنت لطاعة الله عز وجل ولم تسلك سبيل البطر والطغيان ولم ينجر به ذلك الى الانهماك فى الدنيا وايثار العاجلة على العقبى ولم يتكالب كل هذا التكالب على الدنيا واذا عظمت آفة شهوة البطن الى هذا الحد وجب شرح غوائلها وآفاتها تحذيرا منها ووجب ايضاح طريق المجاهدة لها والتنبيه على فضلها ترغيبا فيها وكذلك شرح شهوة الفرج فانها تابعة لها ونحن نوضح ذلك بعون الله تعالى فى فصول يجمعها بيان فضيلة الجوع ثم فوائده ثم طريق الرياضة فى كسر شهوة البطن بالتقليل من الطعام والتأخير ثم بيان اختلاف حكم الجوع وفضيلته باختلاف أحوال الناس ثم بيان الرياضة فى ترك الشهوة ثم القول فى شهوة الفرج ثم بيان ما على المريد فى التزويج وفعله ثم بيان فضيلة من يخالف شهوة البطن والفرج والعين

﴿ بيان فضيلة الجوع وذم الشبع ﴾

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش فان الاجر فى ذلك كاجر المجاهد فى سبيل الله وانه ليس من عمل أحب الى الله من جوع وعطش وقال ابن عباس قال النبى صلى الله عليه وسلم لا يدخل ملكوت السماء من ملأ بطنه وقيل يا رسول الله أى الناس أفضل قال من قل مطعمه وضحكه ورضى بما يستر به عورته وقال النبى صلى الله عليه وسلم سيد الاعمال الجوع وذل النفس لباس الصوف وقال أبو سعيد الخدرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم البسوا وكلوا واشربوا فى أنصاف البطون فانه جزء من النبوة وقال الحسن قال النبى صلى الله

فالصوفى قوام على نفسه بالقسط عالم بطبائع النفس وجدوى القناعة والتوصل الى استخراج ذلك من النفس لعلمه بدائها ودوائها (وقال أبو سليمان) الدارانى القناعة من الرضا كما ان الورع من الزهد * ومن أخلاق الصوفية ترك المراء والمجادلة والغضب الا بحق واعتماد الرفق والحلم وذلك ان النفوس تثب وتظهر فى الممارين والصوفى كلما رأى نفس صاحبه ظاهرة قابلها بالقلب واذا قوبلت النفس بالقلب ذهبت الوحشة وانطفأت الفتنة قال الله تعالى تعليما لعباده ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ولا ينزع المراء الا من نفوس زكية انتزع منها الغل ووجود الغل فى النفوس مراء الباطن واذا انتزع المراء من الباطن ذهب من الظاهر أيضا وقد

عليه وسلم الفكر نصف العبادة وقلة الطعام هي العبادة وقال الحسن أيضا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
أفضلكم عند الله منزلة يوم القيامة أطولكم جوعا وتفكرا في الله سبحانه وأبغضكم عند الله عز وجل يوم القيامة
كل نؤوم أكول شروب وفي الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجوع من غير عوز أي مختارا لذلك وقال صلى الله
عليه وسلم ان الله تعالى يباهي الملائكة بمن قل مطعمه ومشربه في الدنيا يقول الله تعالى انظروا الى عبدي
ابتليته بالطعام والشراب في الدنيا فصبر وتركهما اشهدوا يا ملائكتي ما من أكلة يدعها الا أبدلته بها درجات في
الجنة وقال صلى الله عليه وسلم لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب فان القلب كالزرع يموت اذا كثر عليه الماء
وقال صلى الله عليه وسلم ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه وان كان لا بد فاعلا
فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه وفي حديث أسامة بن زيد وحديث أبي هريرة الطويل ذكر فضيلة
الجوع اذ قال فيه ان أقرب الناس من الله عز وجل يوم القيامة من طال جوعه وعطشه وحزنه في الدنيا الاخفياء
الاتقياء الذين ان شهدوا لم يعرفوا وان غابوا لم يفتقدوا تعرفهم بقاع الارض وتحف بهم ملائكة السماء نعم الناس
بالدنيا ونعموا بطاعة الله عز وجل افترش الناس الفرش الوثيرة وافترشوا الجباه والركب ضيع الناس فعل
النبيين وأخلاقهم وحفظوها هم تبكي الارض اذا فقدتهم ويسخط الجبار على كل بلدة ليس فيها منهم أحد لم
يتكالبوا على الدنيا تكالب الكلاب على الجيف أكلوا العلق ولبسوا الخرق شعثا غبرا يراهم الناس فيظنون
ان بهم داء وما بهم داء ويقال قد خولطوا فذهبت عقولهم وما ذهبت عقولهم ولكن نظر القوم بقلوبهم الى أمر
الله الذي أذهب عنهم الدنيا فهم عند أهل الدنيا يمشون بلا عقول عقلوا حين ذهبت عقول الناس لهم الشرف في
الآخرة يا أسامة اذا رأيتهم في بلدة فاعلم أنهم أمان لاهل تلك البلدة ولا يعذب الله قوما هم فيهم الارض بهم فرحة
والجبار عنهم راض اتخذهم لنفسك اخوانا عسى أن تنجو بهم وان استطعت أن يأتيك الموت وبطنك جائع
وكبدك ظمآن فافعل فانك تدرك بذلك شرف المنازل وتحل مع النبيين وتفرح بقدوم روحك الملائكة ويصلي
عليك الجبار * روى الحسن عن أبي هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال البسوا الصوف وشمروا وكلوا في
أنصاف البطون تدخلوا في ملكوت السماء وقال عيسى عليه السلام يا معشر الحواريين أجيعوا أكبادكم وأعروا
أجسادكم لعل قلوبكم ترى الله عز وجل وروى ذلك أيضا عن نبينا صلى الله عليه وسلم رواه طاوس وقيل مكتوب
في التوراة ان الله ليبغض الحبر السمين لان السمن يدل على الغفلة وكثرة الاكل وذلك قبيح خصوصا بالحبر ولاجل
ذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه ان الله تعالى يبغض القارئ السمين من الشبع وفي خبر مرسل ان الشيطان
ليجري من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع والعطش وفي الخبر ان الاكل على الشبع يورث البرص
وقال صلى الله عليه وسلم المؤمن يأكل في معي واحد والمنافق يأكل في سبعة أمعاء أي يأكل سبعة أضعاف ما يأكل
المؤمن أو تكون شهوته سبعة أضعاف شهوته وذكر المعي كناية عن الشهوة لان الشهوة هي التي تقبل الطعام
وتأخذه كما يأخذه المعي وليس المعنى زيادة عدد معي المنافق على معي المؤمن وروى الحسن عن عائشة رضي الله عنها
أنها قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أديموا قرع باب الجنة يفتح لكم فقلت كيف نديم قرع باب
الجنة قال بالجوع والظمأ وروي أن أبا جحيفة تجشأ في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له اقصر من
جشائك فان أطول الناس جوعا يوم القيامة أكثرهم شبعا في الدنيا وكانت عائشة رضي الله عنها تقول ان رسول
الله صلى الله عليه وسلم لم يمتلئ قط شبعا وربما بكيت رحمة له مما أرى به من الجوع فامسح بطنه بيدي وأقول نفسي
لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقدر ما يقوتك ويمنعك من الجوع فيقول يا عائشة اخواني من أولي العزم من الرسل
قد صبروا على ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم فأجدني أستحي
ان ترفهت في معيشتي أن يقصر بي غدا دونهم فاصبر أياما يسيرة أحب الي من أن ينقص حظي غدا في الآخرة وما
من شيء أحب الي من اللحوق بأصحابي واخواني قالت عائشة فوالله ما استكمل بعد ذلك جمعة حتى قبضه الله اليه
وعن أنس قال جاءت فاطمة رضوان الله عليها بكسرة خبز الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما هذه الكسرة
قالت قرص خبزته ولم تطب نفسي حتى أتيتك منه بهذه الكسرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما انه أول

يكون الغل في النفس مع من يشاكله ويماثله لوجود المنافسة ومن استقصى في تذويب النفس بنار الزهادة في الدنيا يمحى الغل من باطنه ولا يبقى عنده منافسة دنيوية في حظوظ عاجلة من جاه ومال قال الله تعالى في وصف أهل الجنة المتقين ونزعنا ما في صدورهم من غل قال أبو حفص كيف يبقى الغل في قلوب ائتلفت بالله واتفقت على محبته واجتمعت على مودته وأنست بذكره فان تلك قلوب صافية من هواجس النفوس وظلمات الطبائع بل كحلت بنور التوفيق فصارت اخوانا فهكذا قلوب أهل التصوف والمجتمعين على الكلمة الواحدة ومن التلازم بشروط الطريق والانكباب على الظفر بالتحقيق * والناس رجلان رجل طالب ما عند الله تعالى ويدعو الى ما عند الله نفسه وغيره فما

طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام وقال أبو هريرة ما أشبع النبي صلى الله عليه وسلم أهله ثلاثة أيام تباعا من خبز الحنطة حتى فارق الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم ان أهل الجوع في الدنيا هم أهل الشبع في الآخرة وان أبغض الناس الى الله المتخمون الملاى وما ترك عبد أكلة يشتهيها الا كانت له درجة في الجنة (وأما الآثار) فقد قال عمر رضي الله عنه اياكم والبطنة فانها ثقل في الحياة نتن في الممات وقال شقيق البلخي العبادة حرفة حانوتها الخلوة وآلاتها المجاعة وقال لقمان لابنه يا بني اذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الاعضاء عن العبادة وكان الفضيل بن عياض يقول لنفسه أي شيء تخافين أتخافين أن تجوعي لا تخافي ذلك أنت أهون على الله من ذلك انما يجوع محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه وكان كهمس يقول الهي أجعتني وأعريتني وفي ظلم الليالي بلا مصباح أجلستني فبأي وسيلة بلغتني ما بلغتني وكان فتح الموصلي اذا اشتد مرضه وجوعه يقول الهي ابتليتني بالمرض والجوع وكذلك تفعل بأوليائك فبأي عمل أؤدي شكر ما أنعمت به علي وقال مالك بن دينار قلت لمحمد بن واسع يا أبا عبد الله طوبى لمن كانت له غليلة تقوته وتغنيه عن الناس فقال لي يا أبا يحيى طوبى لمن أمسى وأصبح جائعا وهو عن الله راض وكان الفضيل بن عياض يقول الهي أجعتني وأجعت عيالي وتركتني في ظلم الليالي بلا مصباح وانما تفعل ذلك بأوليائك فبأي منزلة نلت هذا منك وقال يحيى بن معاذ جوع الراغبين منبهة وجوع التائبين تجربة وجوع المجتهدين كرامة وجوع الصابرين سياسة وجوع الزاهدين حكمة وفي التوراة اتق الله واذا شبعت فاذكر الجياع وقال أبو سليمان لان أترك لقمة من عشائي أحب الي من قيام ليلة الى الصبح وقال أيضا الجوع عند الله في خزائنه لا يعطيه الا من أحبه وكان سهل بن عبد الله التستري يطوي نيفا وعشرين يوما لا يأكل وكان يكفيه لطعامه في السنة درهم وكان يعظم الجوع ويبالغ فيه حتى قال لا يوافي القيامة عمل بر أفضل من ترك فضول الطعام اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم في أكله وقال لم ير الاكياس شيأ أنفع من الجوع للدين والدنيا وقال لا أعلم شيأ أضر على طلاب الآخرة من الاكل وقال وضعت الحكمة والعلم في الجوع ووضعت المعصية والجهل في الشبع وقال ما عبد الله بشيء أفضل من مخالفة الهوى في ترك الحلال وقد جاء في الحديث ثلث للطعام فمن زاد عليه فانما يأكل من حسناته وسئل عن الزيادة فقال لا يجد الزيادة حتى يكون الترك أحب اليه من الاكل ويكون اذا جاع ليلة سأل الله أن يجعلها ليلتين فاذا كان ذلك وجد الزيادة وقال ما صار الابدال أبدالا الا باخماص البطون والسهر والصمت والخلوة وقال رأس كل بر نزل من السماء الى الارض الجوع ورأس كل فجور بينهما الشبع وقال من جوع نفسه انقطعت الوساوس وقال اقبال الله عز وجل على العبد بالجوع والسقم والبلاء الا من شاء الله وقال اعلموا ان هذا زمان لا ينال أحد فيه النجاة الا بذبح نفسه وقتلها بالجوع والسهر والجهد وقال ما مر على وجه الارض أحد شرب من هذا الماء حتى روي فسلم من المعصية وان شكر الله تعالى فكيف الشبع من الطعام وسئل حكيم بأي قيد أقيد نفسي قال قيدها بالجوع والعطش وذللها باخمال الذكر وترك العز وصغرها بوضعها تحت أرجل أبناء الآخرة واكسرها بترك زي القراء عن ظاهرها وانج من آفاتها بدوام سوء الظن بها واصحبها بخلاف هواها وكان عبد الواحد بن زيد يقسم بالله تعالى أن الله تعالى ما صافى أحدا الا بالجوع ولا مشوا على الماء الا به ولا طويت لهم الارض الا بالجوع ولا تولاهم الله تعالى الا بالجوع وقال أبو طالب المكي مثل البطن مثل المزهر وهو العود المجوف ذو الاوتار انما حسن صوته لخفته ورقته ولانه أجوف غير ممتلئ وكذلك الجوف اذا خلا كان أعذب للتلاوة وأدوم للقيام وأقل للمنام وقال أبو بكر بن عبد الله المزني ثلاثة يحبهم الله تعالى رجل قليل النوم قليل الاكل قليل الراحة وروي أن عيسى عليه السلام مكث يناجي ربه ستين صباحا لم يأكل فخطر بباله الخبز فانقطع عن المناجاة فاذا رغيف موضوع بين يديه فجلس يبكي على فقد المناجاة واذا شيخ قد أظله فقال له عيسى بارك الله فيك يا ولي الله ادع الله تعالى لي فاني كنت في حالة فخطر ببالي الخبز فانقطعت عني فقال الشيخ اللهم ان كنت تعلم أن الخبز خطر ببالي منذ عرفتك فلا تغفر لي بل كان اذا حضر لي شيء أكلته من غير فكر وخاطر وروي أن موسى عليه السلام لما قربه الله عز وجل نجيا كان قد ترك الاكل أربعين يوما ثلاثين ثم عشرا على ما ورد به القرآن لانه أمسك بغير تبييت يوما فزيد عشرة لاجل ذلك

للمحقق الصوفي مع هذا منافسة ومراء وغل فان هذا معه في طريق واحد ووجهة واحدة وأخوه ومعينه والمؤمنون كالبنيان يشد بعضه بعضا ورجل مفتتن بشيء من محبة الجاه والمال والرياسة ونظر الخلق فالصوفي مع هذا منافسة لانه زهد فيما فيه رغب فمن شأن الصوفي أن ينظر الى مثل هذا نظر رحمة وشفقة حيث يراه محجوبا مفتتنا فلا ينطوي له على غل ولا يماريه في الظاهر على شيء لعلمه بظهور نفسه الامارة بالسوء في المراء والمجادلة (أخبرنا) الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن علي قال أنا أبو الفتح الهروي قال أنا أبو نصر الترياقي قال أنا أبو محمد الجراحي قال أنا أبو العباس المحبوبي قال أنا أبو عيسى الترمذي قال حدثنا زياد بن أيوب قال حدثنا المحاربي عن ليث عن عبد الملك عن عكرمة عن ابن عباس رضي

﴿ بيان فوائد الجوع وآفات الشبع ﴾

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش فان الاجر في ذلك ولعلك تقول هذا الفضل العظيم للجوع ومن أين هو وماسببه وليس فيه الا ايلام المعدة ومقاساة الاذى فان كان كذلك فينبغي أن يعظم الاجر في كل مايتأذى به الانسان من ضرب بالنفسه وقطعه للحمه وتناوله الاشياء المكروهة وما يجري مجراه فاعلم أن هذا يضاهي قول من شرب دواء فانتفع به وظن أن منفعته لكراهة الدواء ومرارته فأخذ يتناول كل مايكرهه من المذاق وهو غلط بل نفعه في خاصية الدواء وليس لكونه مرا وانما يقف على تلك الخاصية الاطباء فكذلك لايقف على علة نفع الجوع الا سماسرة العلماء ومن جوع نفسه مصدقا لما جاء في الشرع من مدح الجوع انتفع به وان لم يعرف علة المنفعة كما أن من شرب الدواء انتفع به وان لم يعلم وجه كونه نافعا ولكنا نشرح لك ذلك ان أردت ان ترتقي من درجة الايمان الى درجة العلم قال الله تعالى يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات فنقول في الجوع عشر فوائد (الفائدة الاولى) صفاء القلب وايقاد القريحة وانفاذ البصيرة فان الشبع يورث البلادة ويعمي القلب ويكثر البخار في الدماغ شبه السكر حتى يحتوي على معادن الفكر فيثقل القلب بسببه عن الجريان في الافكار وعن سرعة الادراك بل الصبي اذا أكثر الاكل بطل حفظه وفسد ذهنه وصار بطيء الفهم والادراك وقال أبو سليمان الداراني عليك بالجوع فانه مذلة للنفس ورقة للقلب وهو يورث العلم السماوي وقال صلى الله عليه وسلم أحيوا قلوبكم بقلة الضحك وقلة الشبع وطهروها بالجوع تصفو وترق ويقال مثل الجوع مثل الرعد ومثل القناعة مثل السحاب والحكمة كالمطر وقال النبي صلى الله عليه وسلم من أجاع بطنه عظمت فكرته وفطن قلبه وقال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم من شبع ونام قسا قلبه ثم قال لكل شيء زكاة وزكاة البدن الجوع وقال الشبلي ما جعت لله يوما الا رأيت في قلبي بابا مفتوحا من الحكمة والعبرة مارأيته قط وليس يخفى أن غاية المقصود من العبادات الفكر الموصل الى المعرفة والاستبصار بحقائق الحق والشبع يمنع منه والجوع يفتح بابه والمعرفة باب من أبواب الجنة فبالحري أن تكون ملازمة الجوع قرعا لباب الجنة ولهذا قال لقمان لابنه يابني اذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الاعضاء عن العبادة وقال أبو يزيد البسطامي الجوع سحاب فاذا جاع العبد أمطر القلب الحكمة وقال النبي صلى الله عليه وسلم نور الحكمة الجوع والتباعد من الله عز وجل الشبع والقربة الى الله عز وجل حب المساكين والدنو منهم لاتشبعوا فتطفئوا نور الحكمة من قلوبكم ومن بات في خفة من الطعام بات الحور حوله حتى يصبح (الفائدة الثانية) رقة القلب وصفاؤه الذي به يتهيأ لادراك لذة المناجاة والتأثر بالذكر فكم من ذكر يجري على اللسان مع حضور القلب ولكن القلب لايلتذ به ولا يتأثر حتى كأن بينه وبينه حجابا من قسوة القلب وقد يرق في بعض الاحوال فيعظم تأثره بالذكر وتلذذه بالمناجاة وخلو المعدة هو السبب الاظهر فيه وقال أبو سليمان الداراني أحلى ماتكون الي العبادة اذا التصق ظهري ببطني وقال الجنيد يجعل أحدهم بينه وبين صدره مخلاة من الطعام ويريد أن يجد حلاوة المناجاة وقال أبو سليمان اذا جاع القلب وعطش صفا ورق واذا شبع عمي وغلظ فاذا تأثر القلب بلذة المناجاة أمر وراء تيسير الفكر واقتناص المعرفة فهي فائدة ثانية (الفائدة الثالثة) الانكسار والذل وزوال البطر والفرح والاشر الذي هو مبدأ الطغيان والغفلة عن الله تعالى فلا تنكسر النفس ولا تذل بشيء كما تذل بالجوع فعنده تسكن لربها وتخشع له وتقف على عجزها وذلها اذ ضعفت منتها وضاقت حيلتها بلقيمة طعام فاتتها وأظلمت عليها الدنيا لشربة ماء تأخرت عنها ومالم يشاهد الانسان ذل نفسه وعجزه لايرى عزة مولاه ولا قهره وانما سعادته في أن يكون دائما مشاهدا نفسه بعين الذل والعجز ومولاه بعين العز والقدرة والقهر فليكن دائما جائعا مضطرا الى مولاه مشاهدا للاضطرار بالذوق ولاجل ذلك لما عرضت الدنيا وخزائنها على النبي صلى الله عليه وسلم قال لابل أجوع يوما وأشبع يوما فاذا جعت صبرت وتضرعت واذا شبعت شكرت أو كما قال فالبطن والفرج باب من أبواب النار وأصله الشبع والذل والانكسار باب من أبواب الجنة وأصله الجوع ومن أغلق بابا من أبواب النار فقد فتح بابا من أبواب الجنة بالضرورة لانهما متقابلان كالمشرق والمغرب فالقرب من أحدهما بعد من الآخر (الفائدة الرابعة) أن

الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لاتمار أخاك ولا تعده موعدا فتخلفه وفي الخبر من ترك المراء وهو مبطل بني له بيت في ربض الجنة ومن ترك المراء وهو محق بني له في وسطها ومن حسن خلقه بني له في أعلاها (وأخبرنا) شيخنا شيخ الاسلام أبو النجيب قال أنا أبو عبد الرحمن السهروردي محمد بن أبي عبد الله الماليني قال أنا أبو الحسن عبد الرحمن الداودي قال أنا أبو محمد عبد الله بن أحمد الحموي قال أنا أبو عمران عيسى السمرقندي قال أنا أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي قال حدثنا يحيى بن بسطام عن يحيى بن حمزة قال حدثني النعمان بن مكحول عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من طلب العلم ليباهي به العلماء أو يماري به السفهاء أو يريد

لا ينسى بلاء الله وعذابه ولا ينسى أهل البلاء فان الشبعان ينسى الجائع وينسى الجوع والعبد الفطن لا يشاهد بلاء من غيره الا ويتذكر بلاء الآخرة فيذكر من عطشه عطش الخلق في عرصات القيامة ومن جوعه جوع أهل النار حتى انهم ليجوعون فيطعمون الضريع والزقوم ويسقون الغساق والمهل فلا ينبغي أن يغيب عن العبد عذاب الآخرة وآلامها فانه هو الذي يهيج الخوف فمن لم يكن في ذلة ولا علة ولا قلة ولا بلاء نسي عذاب الآخرة ولم يتمثل في نفسه ولم يغلب على قلبه فينبغي أن يكون العبد في مقاساة بلاء أو مشاهدة بلاء وأولى ما يقاسيه من البلاء الجوع فان فيه فوائد جمة سوى تذكر عذاب الآخرة وهذا أحد الاسباب الذي اقتضى اختصاص البلاء بالانبياء والاولياء والامثل فالامثل ولذلك قيل ليوسف عليه السلام لم تجوع وفي يديك خزائن الارض فقال أخاف أن أشبع فانسى الجائع فذكر الجائعين والمحتاجين احدى فوائد الجوع فان ذلك يدعو الى الرحمة والاطعام والشفقة على خلق الله عز وجل والشبعان في غفلة عن ألم الجائع (الفائدة الخامسة) وهي من أكبر الفوائد كسر شهوات المعاصي كلها والاستيلاء على النفس الامارة بالسوء فان منشأ المعاصي كلها الشهوات والقوى ومادة القوى والشهوات لا محالة الاطعمة فتقليلها يضعف كل شهوة وقوة وانما السعادة كلها في أن يملك الرجل نفسه والشقاوة في أن تملكه نفسه وكما أنك لا تملك الدابة الجموح الا بضعف الجوع فاذا شبعت قويت وشردت وجمحت فكذلك النفس كما قيل لبعضهم ما بالك مع كبرك لا تتعهد بدنك وقد انهد فقال لانه سريع المرح فاحش الاشر فاخاف أن يجمح بي فيورطني فلأن أحمله على الشدائد أحب الي من أن يحملني على الفواحش وقال ذو النون ما شبعت قط الا عصيت أو هممت بمعصية وقالت عائشة رضي الله عنها أول بدعة حدثت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الشبع ان القوم لما شبعت بطونهم جمحت بهم نفوسهم الى هذه الدنيا وهذه ليست فائدة واحدة بل هي خزائن الفوائد ولذلك قيل الجوع خزانة من خزائن الله تعالى وأقل ما يندفع بالجوع شهوة الفرج وشهوة الكلام فان الجائع لا يتحرك عليه شهوة فضول الكلام فيتخلص به من آفات اللسان كالغيبة والفحش والكذب والنميمة وغيرها فيمنعه الجوع من كل ذلك واذا شبع افتقر الى فاكهة فيتفكه لا محالة بأعراض الناس ولا يكب الناس في النار على مناخرهم الا حصائد ألسنتهم * وأما شهوة الفرج فلا تخفى غائلتها والجوع يكفي شرها واذا شبع الرجل لم يملك فرجه وان منعته التقوى فلا يملك عينه فالعين تزني كما أن الفرج يزني فان ملك عينه بغض الطرف فلا يملك فكره فيخطر له من الافكار الرديئة وحديث النفس بأسباب الشهوة ما يتشوش به مناجاته وربما عرض له ذلك في أثناء الصلاة وانما ذكرنا آفة اللسان والفرج مثالا والا فجميع معاصي الاعضاء السبعة سببها القوة الحاصلة بالشبع قال حكيم كل مريد صبر على السياسة فصبر على الخبز البحت سنة لا يخلط به شيأ من الشهوات ويأكل في نصف بطنه رفع الله عنه مؤنة النساء (الفائدة السادسة) دفع النوم ودوام السهر فان من شبع شرب كثيرا ومن كثر شربه كثر نومه ولاجل ذلك كان بعض الشيوخ يقول عند حضور الطعام معاشر المريدين لا تأكلوا كثيرا فتشربوا كثيرا فترقدوا كثيرا فتخسروا كثيرا وأجمع رأى سبعين صديقا على أن كثرة النوم من كثرة الشرب وفي كثرة النوم ضياع العمر وفوت التهجد وبلادة الطبع وقساوة القلب والعمر أنفس الجواهر وهو رأس مال العبد فيه يتجر والنوم موت فتكثيره ينقص العمر ثم فضيلة التهجد لا تخفى وفي النوم فواتها ومهما غلب النوم فان تهجد لم يجد حلاوة العبادة ثم المتعزب اذا نام على الشبع احتلم ويمنعه ذلك أيضا من التهجد ويحوجه الى الغسل اما بالماء البارد فيتأذى به أو يحتاج الى الحمام وربما لا يقدر عليه بالليل فيفوته الوتر ان كان قد أخره الى التهجد ثم يحتاج الى مؤنة الحمام وربما تقع عينه على عورة في دخول الحمام فان فيه أخطارا ذكرناها في كتاب الطهارة وكل ذلك أثر الشبع وقد قال أبو سليمان الداراني الاحتلام عقوبة وانما قال ذلك لانه يمنع من عبادات كثيرة لتعذر الغسل في كل حال فالنوم منبع الآفات والشبع مجلبة له والجوع مقطعة له (الفائدة السابعة) تيسير المواظبة على العبادة فان الاكل يمنع من كثرة العبادات لانه يحتاج الى زمان يشتغل فيه بالاكل وربما يحتاج الى زمان في شراء الطعام وطبخه ثم يحتاج الى غسل اليد والخلال ثم يكثر تردداه الى بيت الماء لكثرة شربه والاوقات المصروفة الى هذا لو صرفها الى الذكر والمناجاة وسائر العبادات لكثر ربحه

أن يقبل بوجوه الناس اليه أدخله الله تعالى جهنم انظر كيف جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم المماراة مع السفهاء سببا لدخول النار وذلك بظهور نفوسهم في طلب القهر والغلبة والقهر والغلبة من صفات الشيطنة في الآدمي (قال بعضهم) المجادل المماري يضع في نفسه عند الخوض في الجدال أن لا يقنع بشيء ومن لا يقنع الا أن لا يقنع فالى قناعته سبيل فنفس الصوفي تبدلت صفاتها وذهب عنه صفة الشيطنة والسبعية وتبدل باللين والرفق والسهولة والطمأنينة (روى) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال والذي نفسي بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه انظر كيف جعل النبي صلى الله عليه وسلم من شرط الاسلام سلامة

قال السرى رأيت مع على الجرجانى سويقا يستف منه فقلت ما حملك على هذا قال انى حسبت ما بين المضغ الى الاستفاف سبعين تسبيحة فما مضغت الخبز منذ أربعين سنة فانظر كيف أشفق على وقته ولم يضيعه فى المضغ وكل نفس من العمر جوهرة نفيسة لا قيمة لها فينبغى أن يستوفى منه خزانة باقية فى الآخرة لا آخر لها وذلك بصرفه الى ذكر الله وطاعته ومن جملة ما يتعذر بكثرة الاكل الدوام على الطهارة وملازمة المسجد فانه يحتاج الى الخروج لكثرة شرب الماء واراقته ومن جملته الصوم فانه يتيسر لمن تعوّد الجوع فالصوم ودوام الاعتكاف ودوام الطهارة وصرف أوقات شغله بالاكل وأسبابه الى العبادة أرباح كثيرة وانما يستحقرها الغافلون الذين لم يعرفوا قدر الدين لكن رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون وقد أشار أبو سليمان الدارانى الى ست آفات من الشبع فقال من شبع دخل عليه ست آفات فقد حلاوة المناجاة وتعذر حفظ الحكمة وحرمان الشفقة على الخلق لانه اذا شبع ظن أن الخلق كلهم شباع وثقل العبادة وزيادة الشهوات وأن سائر المؤمنين يدورون حول المساجد والشباع يدورون حول المزابل (الفائدة الثامنة) يستفيد من قلة الاكل صحة البدن ودفع الامراض فان سببها كثرة الاكل وحصول فضلة الاخلاط فى المعدة والعروق ثم المرض يمنع من العبادات ويشوّش القلب ويمنع من الذكر والفكر وينغص العيش ويحوج الى الفصد والحجامة والدواء والطبيب وكل ذلك يحتاج الى مؤن ونفقات لا يخلو الانسان منها بعد التعب عن أنواع المعاصى واقتحام الشهوات وفى الجوع ما يمنع ذلك كله * حكى أن الرشيد جمع أربعة أطباء هندى ورومى وعراقى وسوادى وقال ليصف كل واحد منكم الدواء الذى لا داء فيه فقال الهندى الدواء الذى لا داء فيه عندى هو الهليلج الاسود وقال العراقى هو حب الرشاد الابيض وقال الرومى هو عندى الماء الحار وقال السوادى وكان أعلمهم الهليلج يعفص المعدة وهذا داء وحب الرشاد يزلق المعدة وهذا داء والماء الحار يرخى المعدة وهذا داء قالوا فما عندك فقال الدواء الذى لا داء معه عندى أن لا تأكل الطعام حتى تشتهيه وأن ترفع يدك عنه وأنت تشتهيه فقالوا صدقت وذكر لبعض الفلاسفة من أطباء أهل الكتاب قول النبى صلى الله عليه وسلم ثلث طعام وثلث شراب وثلث للنفس فتعجب منه وقال ما سمعت كلاما فى قلة الطعام أحكم من هذا وانه لكلام حكيم وقال صلى الله عليه وسلم البطنة أصل الداء والحمية أصل الدواء وعودوا كل جسم ما اعتاد واظن تعجب الطبيب جرى من هذا الخبر لا من ذاك وقال ابن سالم من أكل خبز الحنطة بحتا بأدب لم يعتل الا علة الموت قيل وما الادب قال تأكل بعد الجوع وترفع قبل الشبع وقال بعض الافاضل الاطباء فى ذم الاستكثار ان أنفع ما أدخل الرجل بطنه الرمان وأضر ما أدخل معدته المالح ولان يقال من المالح خير له من أن يستكثر من الرمان وفى الحديث صوموا تصحوا ففى الصوم والجوع وتقليل الطعام صحة الاجسام من الاسقام وصحة القلوب من سقم الطغيان والبطر وغيرهما (الفائدة التاسعة) خفة المؤنة فان من تعوّد قلة الاكل كفاه من المال قدر يسير والذى تعوّد الشبع صار بطنه غريما ملازما له آخذا بمخنقه فى كل يوم فيقول ماذا تأكل اليوم فيحتاج الى أن يدخل المداخل فيكتسب من الحرام فيعصى أو من الحلال فيذل وربما يحتاج الى أن يمد أعين الطمع الى الناس وهو غاية الذل والقماءة والمؤمن خفيف المؤنة وقال بعض الحكماء انى لاقضى عامة حوائجى بالترك فيكون ذلك أروح لقلبى وقال آخر اذا أردت أن أستقرض من غيرى لشهوة أو زيادة استقرضت من نفسى فتركت الشهوة فهى خير غريم لى وكان ابراهيم بن أدهم رحمه الله يسأل أصحابه عن سعر المأكولات فيقال انها غالية فيقول أرخصوها بالترك وقال سهل رحمه الله الاكول مذموم فى ثلاثة أحوال ان كان من أهل العبادة فيكسل وان كان مكتسبا فلا يسلم من الآفات وان كان ممن يدخل عليه شئ فلا ينصف الله تعالى من نفسه وبالجملة سبب هلاك الناس حرصهم على الدنيا وسبب حرصهم على الدنيا البطن والفرج وسبب شهوة الفرج شهوة البطن وفى تقليل الاكل ما يحسم هذه الاحوال كلها وهى أبواب النار وفى حسمها فتح أبواب الجنة كما قال صلى الله عليه وسلم أديموا قرع باب الجنة بالجوع فمن قنع برغيف فى كل يوم قنع فى سائر الشهوات أيضا وصار حرا واستغنى عن الناس واستراح من التعب وتخلى لعبادة الله عز وجل وتجارة الآخرة فيكون من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن

القلب واللسان وروى عنه عليه السلام أنه مر بقوم وهم يجذبون حجرا قال ما هذا قالوا هذا حجر الاشداء فقال ألا أخبركم بأشد من هذا رجل كان بينه وبين أخيه غضب فأتاه فغلب شيطانه وشيطان أخيه فكلمه وروى أنه جاء غلام لابى ذر وقد كسر رجل شاة فقال أبو ذر من كسر رجل هذه الشاة فقال أنا قال ولم فعلت ذلك قال عمدا فعلت قال ولم قال أغيظك فتضربنى فتأثم فقال أبو ذر لاغيظن من حضك على غيظى فأعتقه (وروى) الاصمعى عن اعرابى قال اذا أشكل عليك أمران لا تدرى أيهما أرشد فخالف أقربهما الى هواك فان أكثر ما يكون الخطأ مع متابعة الهوى (أخبرنا) أبو زرعة عن أبيه أبى الفضل قال أنا أبو بكر محمد بن أحمد بن على قال أنا خورشيد قال ثنا ابراهيم بن عبد الله قال

ذكر الله وانما الا تلهيهم لاستغنائهم عنها بالقناعة وأما المحتاج فتلهيه لامحالة (الفائدة العاشرة) ان يتمكن من الايثار والتصدق بما فضل من الاطعمة على اليتامى والمساكين فيكون يوم القيامة في ظل صدقته كما ورد به الخبر فما يأكله كان خزانته الكنيف ومايتصدق به كان خزانته فضل الله تعالى فليس للعبد من ماله الا ماتصدق فابقى أو أكل فافنى أولبس فابلى فالتصدق بفضلات الطعام أولى من التخمة والشبع وكان الحسن رحمة الله عليه اذا تلا قوله تعالى انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فابين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا قال عرضها على السموات السبع الطباق والطرائق التي زينها بالنجوم وحملة العرش العظيم فقال لها سبحانه وتعالى هل تحملين الامانة بما فيها قالت ومافيها قال ان أحسنت جوزيت وان أسأت عوقبت فقالت لاثم عرضها كذلك على الارض فابت ثم عرضها على الجبال الشم الشوامخ الصلاب الصعاب فقال لها هل تحملين الامانة بما فيها قالت ومافيها فذكر الجزاء والعقوبة فقالت لاثم عرضها على الانسان فحملها انه كان ظلوما لنفسه جهولا بأمر ربه فقد رأيناهم والله اشتروا الامانة بأموالهم فأصابوا آلافا فماذا صنعوا فيها وسعوا بها دورهم وضيقوا بها قبورهم وأسمنوا براذينهم وأهزلوا دينهم وأتعبوا أنفسهم بالغدو والرواح الى باب السلطان يتعرضون للبلاء وهم من الله في عافية يقول أحدهم تبيعني أرض كذا وكذا وأزيدك كذا وكذا يتكئ على شماله ويأكل من غير ماله حديثه سخرة وماله حرام حتى اذا أخذته الكظة ونزلت به البطنة قال ياغلام ائتني بشئ أهضم به طعامي يالكع اطعامك تهضم انما دينك تهضم أين الفقير أين الارملة أين المسكين أين اليتيم الذي أمرك الله تعالى بهم فهذه اشارة الى هذه الفائدة وهو صرف فاضل الطعام الى الفقير ليدخر به الاجر فذلك خير له من ان يأكله حتى يتضاعف الوزر عليه ونظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى رجل سمين البطن فأومأ الى بطنه باصبعه وقال لو كان هذا في غير هذا لكان خيرا لك أي لو قدمته لآخرتك وآثرت به غيرك وعن الحسن قال والله لقد أدركت أقواما كان الرجل منهم يمسي وعنده من الطعام مايكفيه ولو شاء لاكله فيقول والله لا أجعل هذا كله لبطني حتى أجعل بعضه لله فهذه عشرة فوائد للجوع يتشعب من كل فائدة فوائد لا ينحصر عددها ولا تتناهى فوائدها فالجوع خزانة عظيمة لفوائد الآخرة ولاجل هذا قال بعض السلف الجوع مفتاح الآخرة وباب الزهد والشبع مفتاح الدنيا وباب الرغبة بل ذلك صريح في الاخبار التي رويناها وبالوقوف على تفصيل هذه الفوائد تدرك معاني تلك الاخبار ادراك علم وبصيرة فاذا لم تعرف هذا وصدقت بفضل الجوع كانت لك رتبة المقلدين في الايمان والله أعلم بالصواب

﴿بيان طريق الرياضة في كسر شهوة البطن﴾

اعلم أن على المريد في بطنه ومأكوله أربع وظائف * الاولى أن لا يأكل الا حلالا فان العبادة مع أكل الحرام كالبناء على أمواج البحار وقد ذكرنا ما تجب مراعاته من درجات الورع في كتاب الحلال والحرام وتبقى ثلاث وظائف خاصة بالاكل وهو تقدير قدر الطعام في القلة والكثرة وتقدير وقته في الابطاء والسرعة وتعيين الجنس المأكول في تناول المشتهيات وتركها (أما الوظيفة الاولى) في تقليل الطعام فسبيل الرياضة فيه التدريج فمن اعتاد الاكل الكثير وانتقل دفعة واحدة الى القليل لم يحتمله مزاجه وضعف وعظمت مشقته فينبغي أن يتدرج اليه قليلا قليلا وذلك بأن ينقص قليلا قليلا من طعامه المعتاد فان كان يأكل رغيفين مثلا وأراد ان يرد نفسه الى رغيف واحد فينقص كل يوم ربع سبع رغيف وهو أن ينقص جزأ من ثمانية وعشرين جزأ أو جزأ من ثلاثين جزأ فيرجع الى رغيف في شهر ولا يستضر به ولا يظهر أثره فان شاء فعل في ذلك بالوزن وان شاء بالمشاهدة فيترك كل يوم مقدار لقمة وينقصه عما أكله بالامس ثم هذا فيه أربع درجات أقصاها أن يرد نفسه الى قدر القوام الذي لا يبقى دونه وهو عادة الصديقين وهو اختيار سهل التستري رحمة الله عليه اذ قال ان الله استعبد الخلق بثلاث بالحياة والعقل والقوة فان خاف العبد على اثنين منها وهي الحياة والعقل أكل وأفطر ان كان صائما وتكلف الطلب ان كان فقيرا وان لم يخف عليهما بل على القوة قال فينبغي أن لا يبالي ولو ضعف حتى صلى قاعدا ورأى أن صلاته قاعدا مع ضعف الجوع أفضل من صلاته قائما مع كثرة الاكل وسئل سهل عن بدايته وما كان يقتات به فقال كان قوتي في كل سنة ثلاثة دراهم كنت آخذ بدرهم دبسا وبدرهم دقيق الارز وبدرهم سمنا

ثنا أحمد بن محمد بن سليم قال ثنا الزبير بن بكار قال ثنا سعيد بن سعد عن أخيه عن جده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ثلاث منجيات وثلاث مهلكات فاما المنجيات فخشية الله في السر والعلانية والحكم بالحق عند الغضب والرضا والاقتصاد عند الفقر والغنى وأما المهلكات فشح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه فالحكم بالحق عند الغضب والرضا لا يصح الا من عالم رباني أمير على نفسه يصرفها بعقل حاضر وقلب يقظان ونظر الى الله بحسن الاحتساب (نقل) أنهم كانوا يتوضؤن عن ايذاء المسلم يقول بعضهم لان أتوضأ من كلمة خبيثة أحب الي من أن أتوضأ من طعام طيب (وقال) عبد الله بن عباس رضي الله عنهما الحدث

وأخلط الجميع وأسوى منه ثلثمائة وستين أكرة آخذ فى كل ليلة أكرة أفطر عليها فقيل له فالساعة كيف تأكل قال بغير حد ولا توقيت ويحكى عن الرهابين أنهم قد يردون أنفسهم الى مقدار درهم من الطعام * الدرجة الثانية أن يرد نفسه بالرياضة فى اليوم والليلة الى نصف مد وهو رغيف وشئ مما يكون الار بعة منه منا ويشبه أن يكون هذا مقدار ثلث البطن فى حق الاكثرين كما ذكر النبى صلى الله عليه وسلم وهو فوق اللقيمات لان هذه الصيغة فى الجمع للقلة فهو لما دون العشرة وقد كان ذلك عادة عمر رضى الله عنه اذ كان يأكل سبع لقم أو تسع لقم * الدرجة الثالثة أن يردها الى مقدار المد وهو رغيفان ونصف وهذا يزيد على ثلث البطن فى حق الاكثرين ويكاد ينتهى الى ثلثى البطن ويبقى ثلث للشراب ولا يبقى شئ للذكر وفى بعض الالفاظ ثلث للذكر بدل قوله للنفس * الدرجة الرابعة أن يزيد على المد الى المن ويشبه أن يكون ما وراء المن اسرافا مخالفا لقوله تعالى ولا تسرفوا أعنى فى حق الاكثرين فان مقدار الحاجة الى الطعام يختلف بالسن والشخص والعمل الذى يشتغل به وههنا طريق خامس لا تقدير فيه ولكنه موضع غلط وهو أن يأكل اذا صدق جوعه ويقبض يده وهو على شهوة صادقة بعد ولكن الاغلب ان من لم يقدر لنفسه رغيفا أو رغيفين فلا يتبين له حد الجوع الصادق ويشتبه عليه ذلك بالشهوة الكاذبة وقد ذكر للجوع الصادق علامات احداها أن لا تطلب النفس الادم بل تأكل الخبز وحده بشهوة أى خبز كان فهما طلبت نفسه خبزا بعينه أو طلبت أدما فليس ذلك بالجوع الصادق وقد قيل من علامته أن يبصق فلا يقع الذباب عليه أى لم يبق فيه دهنية ولا دسومة فيدل ذلك على خلو المعدة ومعرفة ذلك غامض فالصواب للمريد أن يقدر مع نفسه القدر الذى لا يضعفه عن العبادة التى هو بصددها فاذا انتهى اليه وقف وان بقيت شهوته وعلى الجملة فتقدير الطعام لا يمكن لانه يختلف بالاحوال والاشخاص نعم قد كان قوت جماعة من الصحابة صاعا من حنطة فى كل جمعة فاذا أكلوا التمر اقتاتوا منه صاعا ونصفا وصاع الحنطة أربعة أمداد فيكون كل يوم قريبا من نصف مد وهو ما ذكرنا أنه قدر ثلث البطن واحتيج فى التمر الى زيادة لسقوط النوى منه وقد كان أبو ذر رضى الله عنه يقول طعامى فى كل جمعة صاع من شعير على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لا أزيد عليه شيأ حتى ألقاه فانى سمعته يقول أقربكم منى مجلسا يوم القيامة وأحبكم الى من مات على ما هو عليه اليوم وكان يقول فى انكاره على بعض الصحابة قد غيرتم ينخل لكم الشعير ولم يكن ينخل وخبزتم المرقق وجمعتم بين ادامين واختلف عليكم بألوان الطعام وغدا أحدكم فى ثوب وراح فى آخر ولم تكونوا هكذا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كان قوت أهل الصفة مدا من تمر بين اثنين فى كل يوم والمد رطل وثلث ويسقط منه النوى وكان الحسن رحمة الله عليه يقول المؤمن مثل العنيزة يكفيه الكف من الحشف والقبضة من السويق والجرعة من الماء والمنافق مثل السبع الضارى بلعا بلعا وسرطا سرطا لا يطوى بطنه لجاره ولا يؤثر أخاه بفضله وجهوا هذه الفضول أمامكم وقال سهل لو كانت الدنيا دما عبيطا لكان قوت المؤمن منها حلالا لان أكل المؤمن عند الضرورة بقدر القوام فقط (الوظيفة الثانية) فى وقت الاكل ومقدار تأخيره وفيه أيضا أربع درجات * الدرجة العليا أن يطوى ثلاثة أيام فما فوقها وفى المريدين من رد الرياضة الى الطى لا الى المقدار حتى انتهى بعضهم الى ثلاثين يوما وأربعين يوما وانتهى اليه جماعة من العلماء يكثر عددهم منهم محمد بن عمر والعرنى وعبد الرحمن بن ابراهيم دحيم وابراهيم التيمى وحجاج بن فرافصة وحفص العابد المصيصى والمسلم بن سعيد وزهير وسليمان الخواص وسهل بن عبد الله التسترى وابراهيم بن أحمد الخواص وقد كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يطوى ستة أيام وكان عبد الله ابن الزبير يطوى سبعة أيام وكان أبو الجوزاء صاحب ابن عباس يطوى سبعا وروى أن الثورى وابراهيم ابن أدهم كانا يطويان ثلاثا ثلاثا كل ذلك كانوا يستعينون بالجوع على طريق الآخرة قال بعض العلماء من طوى لله أربعين يوما ظهرت له قدرة من الملكوت أى كوشف ببعض الاسرار الالهية وقد حكى أن بعض أهل هذه الطائفة مر براهب فذاكره بحاله وطمع فى اسلامه وترك ما هو عليه من الغرور فكلمه فى ذلك كلاما كثيرا الى أن قال له الراهب ان المسيح كان يطوى أربعين يوما وان ذلك معجزة لا تكون الا لنبى أو صديق فقال له الصوفى فان طويت خمسين يوما تترك ما أنت عليه وتدخل فى دين الاسلام وتعلم انه حق وأنك على باطل

حدثان حدث من فوقك وحدث من فيك فلا يحل حبوة الوقار والحلم الا الغضب ويخرج عن حد العدل الى العدوان بتجاوز الحد فبالغضب يثور دم القلب فان كان الغضب على من فوقه مما يعجز عن انفاذ الغضب فيه ذهب الدم من ظاهر الجلد واجتمع فى القلب ويصير منه الهم والحزن والانكاد ولا ينطوى الصوفى على مثل هذا لانه يرى الحوادث والاعراض من الله تعالى فلا ينكمد ولا يغتم والصوفى صاحب الرضا صاحب الروح والراحة والنبى عليه السلام أخبر أن الهم والحزن فى الشك والسخط (سئل) عبد الله بن عباس رضى الله عنهما عن الغم والغضب قال مخرجهما واحد واللفظ يختلف فمن نازع من يقوى عليه أظهره غضبا ومن نازع من

قال نعم فجلس لايبرح الاحيث يراه حتى طوى خمسين يوما ثم قال وأزيدك أيضا فطوى الى تمام الستين فتعجب الراهب منه وقال ماكنت اظن أن أحدا يجاوز المسيح فكان ذلك سبب اسلامه وهذه درجة عظيمة قل من يبلغها الامكاشف محمول شغل بمشاهدة ماقطعه عن طبعه وعادته واستوفى نفسه فى لذته وأنساه جوعته وحاجته

* الدرجة الثانية أن يطوى يومين الى ثلاثة وليس ذلك خارجا عن العادة بل هو قريب يمكن الوصول اليه بالجد والمجاهدة

* الدرجة الثالثة وهى أدناها أن يقتصر فى اليوم والليلة على أكلة واحدة وهذا هو الاقل وماجاوز ذلك اسراف ومداومة للشبع حتى لا يكون له حالة جوع وذلك فعل المترفين وهو بعيد من السنة فقد روى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا تغدى لم يتعش واذا تعشى لم يتغد وكان السلف يأكلون فى كل يوم أكلة وقال النبى صلى الله عليه وسلم لعائشة اياك والسرف فان أكلتين فى يوم من السرف وأكلة واحدة فى كل يومين اقتار وأكلة فى كل يوم قوام بين ذلك وهو المحمود فى كتاب الله عز وجل ومن اقتصر فى اليوم على أكلة واحدة فيستحب له أن يأكلها سحرا قبل طلوع الفجر فيكون أكله بعد التهجد وقبل الصبح فيحصل له جوع النهار للصيام وجوع الليل للقيام وخلو القلب لفراغ المعدة ورقة الفكر واجتماع الهم وسكون النفس الى المعلوم فلا تنازعه قبل وقته وفى حديث عاصم بن كليب عن أبيه عن أبى هريرة قال ماقام رسول الله صلى الله عليه وسلم قيامكم هذا قط وان كان ليقوم حتى تورم قدماه وماواصل وصالكم هذا قط غير انه قد أخر الفطر الى السحر وفى حديث عائشة رضى الله عنها قالت كان النبى صلى الله عليه وسلم يواصل الى السحر فان كان يلتفت قلب الصائم بعد المغرب الى الطعام وكان ذلك يشغله عن حضور القلب فى التهجد فالاولى أن يقسم طعامه نصفين فان كان رغيفين مثلا أكل رغيفا عند الفطر ورغيفا عند السحر لتسكن نفسه ويخف بدنه عند التهجد ولا يشتد بالنهار جوعه لاجل التسحر فيستعين بالرغيف الاول على التهجد وبالثانى على الصوم ومن كان يصوم يوما ويفطر يوما فلا بأس أن يأكل كل يوم فطره وقت الظهر ويوم صومه وقت السحر فهذه الطرق فى مواقيت الاكل وتباعده وتقاربه (الوظيفة الثالثة) فى نوع الطعام وترك الادام وأعلى الطعام مخ البر فان نخل فهو غاية الترفه وأوسطه شعير منخول وادناه شعير لم ينخل وأعلى الادم اللحم والحلاوة وأدناه الملح والخل وأوسطه المزورات بالادهان من غير لحم وعادة سالكى طريق الآخرة الامتناع من الادام على الدوام بل الامتناع عن الشهوات فان كل لذيذ يشتهيه الانسان وأكله اقتضى ذلك بطرا فى نفسه وقسوة فى قلبه وأنساله بلذات الدنيا حتى يألفها ويكره الموت ولقاء الله تعالى وتصير الدنيا جنة فى حقه ويكون الموت سجناله واذا منع نفسه عن شهواتها وضيق عليها وحرمها لذاتها صارت الدنيا سجنا عليه ومضيقاله فاشتهت نفسه الافلات منها فيكون الموت اطلاقها واليه الاشارة بقول يحيى بن معاذ حيث قال معاشر الصديقين جوعوا أنفسكم لوليمة الفردوس فان شهوات الطعام على قدر تجويع النفس فكل ماذكرناه من آفات الشبع فانه يجرى فى كل الشهوات وتناول اللذات فلا نطول باعادته فلذلك يعظم الثواب فى ترك الشهوات من المباحات ويعظم الخطر فى تناولها حتى قال صلى الله عليه وسلم شرار أمتى الذين يأكلون مخ الحنطة وهذا ليس بتحريم بل هو مباح على معنى ان من أكله مرة أو مرتين لم يعص ومن داوم عليه أيضا فلا يعصى بتناوله ولكن تتربى نفسه بالنعيم فتأنس بالدنيا وتألف اللذات وتسعى فى طلبها فيجرها ذلك الى المعاصى فهم شرار الامة لان مخ الحنطة يقودهم الى اقتحام أمور تلك الامور معاص وقال صلى الله عليه وسلم شرار أمتى الذين غذوا بالنعيم ونبتت عليه أجسامهم وانما همتهم ألوان الطعام وأنواع اللباس ويتشدقون فى الكلام وأوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام اذكر أنك ساكن القبر فان ذلك يمنعك من كثير الشهوات وقد اشتد خوف السلف من تناول لذيذ الاطعمة وتمرين النفس عليها ورأوا أن ذلك علامة الشقاوة ورأوا منع الله تعالى منه غاية السعادة حتى روى أن وهب بن منبه قال التقى ملكان فى السماء الرابعة فقال أحدهما للآخر من أين قال أمرت بسوق حوت من البحر اشتهاه فلان اليهودى لعنه الله وقال الآخر أمرت باهراق زيت اشتهاه فلان العابد فهذا تنبيه على ان تيسير أسباب الشهوات ليس من علامات الخير ولهذا امتنع عمر رضى الله عنه عن شربة ماء بارد بعسل وقال اعزلوا عنى حسابها فلا عبادة لله تعالى أعظم من مخالفة النفس فى الشهوات وترك اللذات كما أوردناه

لايقوى عليه كظمه حزنا والحزن غضب أيضا ولكن يستعمل اذا قصد المغضوب عليه وان كان الغضب على من يشاكله ويماثله ممن يتردد فى الانتقام منه يتردد القلب بين الانقباض والانبساط فيتولد منه الغل والحقد ولا يأوى مثل هذا الى قلب الصوفى قال الله تعالى ونزعنا مافى صدورهم من غل وسلامة قلب الصوفى وحاله يقذف زبد الغل والحقد كما يقذف البحر الزبد لما فيه من تلاطم أمواج الانس والهيبة وان كان الغضب على من دونه ممن يقدر على الانتقام منه ثار دم القلب والقلب اذا ثار دمه يحمر ويقسو ويتصلب وتذهب عنه الرقة والبياض ومنه تحمر الوجنتان لان الدم فى القلب ثار وطلب الاستعلاء وانتفخت منه العروق فظهر عكسه وأثره على الخد

في كتاب رياضة النفس وقد روى نافع أن ابن عمر رضي الله عنهما كان مريضا فاشتهى سمكة طرية فالتمست له بالمدينة فلم توجد ثم وجدت بعد كذا وكذا فاشتريت له بدرهم ونصف فشويت وحملت اليه على رغيف فقام سائل على الباب فقال للغلام لفها برغيفها وادفعها اليه فقال له الغلام أصلحك الله قد اشتهيتها منذ كذا وكذا فلم نجدها فلما وجدتها اشتريتها بدرهم ونصف فنحن نعطيه ثمنها فقال لفها وادفعها اليه ثم قال الغلام للسائل هل لك أن تأخذ درهما وتتركها قال نعم فأعطاه درهما وأخذها وأتى بها فوضعها بين يديه وقال قد أعطيته درهما وأخذتها منه فقال لفها وادفعها اليه ولا تأخذ منه الدرهم فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أيما امرئ اشتهى شهوة فرد شهوته وآثر بها على نفسه غفر الله له وقال صلى الله عليه وسلم اذا شددت كلب الجوع برغيف وكوز من الماء القراح فعلى الدنيا وأهلها الدمار أشار الى أن المقصود رد ألم الجوع والعطش ودفع ضررهما دون التنعم بلذات الدنيا وبلغ عمر رضي الله عنه ان يزيد بن أبي سفيان يأكل أنواع الطعام فقال عمر لمولى له اذا علمت أنه قد حضر عشاؤه فأعلمني فأعلمه فدخل عليه فقرب عشاؤه فأتوه بثريد لحم فأكل معه عمر ثم قرب الشواء وبسط يزيد يده وكف عمر يده وقال الله الله يا يزيد بن أبي سفيان أطعام بعد طعام والذي نفس عمر بيده لئن خالفتم عن سنتهم ليخالفن بكم عن طريقهم وعن يسار بن عمير قال ما نخلت لعمر دقيقا قط الا وأنا له عاص وروى ان عتبة الغلام كان يعجن دقيقه ويجففه في الشمس ثم يأكله ويقول كسرة وملح حتى يتهيأ في الآخرة الشواء والطعام الطيب وكان يأخذ الكوز فيغرف به من حب كان في الشمس نهاره فتقول مولاة له يا عتبة لو أعطيتني دقيقك فخبزته لك وبردت لك الماء فيقول لها يا أم فلان قد شردت عني كلب الجوع قال شقيق بن ابراهيم لقيت ابراهيم بن أدهم بمكة في سوق الليل عند مولد النبي صلى الله عليه وسلم يبكي وهو جالس بناحية من الطريق فعدلت اليه وقعدت عنده وقلت ايش هذا البكاء يا أبا اسحق فقال خير فعاودته مرة واثنتين وثلاثا فقال يا شقيق استر علي فقلت يا أخي قل ما شئت فقال لي اشتهت نفسي منذ ثلاثين سنة سكباجا فمنعتها جهدي حتى اذا كان البارحة كنت جالسا وقد غلبني النعاس اذ أنا بفتى شاب بيده قدح أخضر يعلو منه بخار ورائحة سكباج قال فاجتمعت بهمتي عنه فقربه وقال يا ابراهيم كل فقلت ما آكل قد تركته لله عز وجل فقال له قد أطعمك الله كل فما كان لي جواب الا أني بكيت فقال لي كل رحمك الله فقلت قد أمرنا أن لا نطرح في وعائنا الا من حيث نعلم فقال كل عافاك الله فانما أعطيته فقيل لي يا خضر اذهب بهذا وأطعمه نفس ابراهيم بن أدهم فقد رحمها الله من طول صبرها على ما يحملها من منعها اعلم يا ابراهيم اني سمعت الملائكة يقولون من أعطى فلم يأخذ طلب فلم يعط فقلت ان كان كذلك فها أنا بين يديك لاجل العقد مع الله تعالى ثم التفت فاذا أنا بفتى آخر ناوله شيأ وقال يا خضر لقمه أنت فلم يزل يلقمني حتى نعست فانتبهت وحلاوته في فمي قال شقيق فقلت أرني كفك فأخذت بكفه فقبلتها وقلت يا من يطعم الجياع الشهوات اذا صححوا المنع يا من يقدح في الضمير اليقين يا من يشفي قلوبهم من محبته أترى لشقيق عندك حالا ثم رفعت يد ابراهيم الى السماء وقلت بقدر هذا الكف عندك وبقدر صاحبه وبالجود الذي وجد منك جد على عبدك الفقير الى فضلك واحسانك ورحمتك وان لم يستحق ذلك قال فقام ابراهيم ومشى حتى أدركنا البيت وروي عن مالك بن دينار أنه بقي أربعين سنة يشتهي لبنا فلم يأكله وأهدي اليه يوما رطب فقال لاصحابه كلوا فاذقته منذ أربعين سنة وقال أحمد بن أبي الحواري اشتهى أبو سليمان الداراني رغيفا حارا بملح فجئت به اليه فعض منه عضة ثم طرحه وأقبل يبكي وقال عجلت الى شهوتي بعد اطالة جهدي وشقوتي قد عزمت على التوبة فأقلني قال أحمد فما رأيته أكل الملح حتى لقي الله تعالى وقال مالك بن ضيغم مررت بالبصرة في السوق فنظرت الى البقل فقالت لي نفسي لو أطعمتني الليلة من هذا فأقسمت أن لا أطعمها اياه أربعين ليلة ومكث مالك ابن دينار بالبصرة خمسين سنة ما أكل رطبة لاهل البصرة ولا بسرة قط وقال يا أهل البصرة عشت فيكم خمسين سنة ما أكلت لكم رطبة ولا بسرة فما زاد فيكم ما نقص مني ولا نقص مني ما زاد فيكم وقال طلقت الدنيا منذ خمسين سنة اشتهت نفسي لبنا منذ أربعين سنة طعاما فوالله لا أطعمها حتى ألحق بالله تعالى وقال حماد بن أبي حنيفة أتيت داود الطائي والباب مغلق عليه فسمعته يقول نفسي اشتهيت جزرا فأطعمتك جزرا ثم اشتهيت تمرا فآليت أن لا تأكليه أبدا فسلمت ودخلت فاذا هو وحده ومر أبو حازم يوما في السوق فرأى الفاكهة

فاشتهاها

فيتعدى الحدود حينئذ بالضرب والشتم ولا يكون هذا في الصوفي الا عند هتك الحرمات والغضب لله تعالى فأما في غير ذلك فينظر الصوفي عند الغضب الى الله تعالى ثم تقواه تحمله على أن يزن حركته وقوله بميزان الشرع والعدل ويتهم النفس بعدم الرضا بالقضاء (قيل) لبعضهم من أقهر الناس لنفسه قال أرضاهم بالمقدور وقال بعضهم أصبحت ومالي سرور الا مواقع القضاء واذا اتهم الصوفي النفس عند الغضب تداركه العلم واذا لاح علم العلم قوى القلب وسكنت النفس وعاد دم القلب الى موضعه ومقره واعتدل الحال وغاضت حمرة الخد وبانت فضيلة العلم قال عليه السلام السمت الحسن والتؤدة والاقتصاد جزء من أربعة وعشرين

فاشتهاها فقال لابنه اشترلنا من هذه الفاكهة المقطوعة الممنوعة لعلنا نذهب الى الفاكهة التى لا مقطوعة ولا
ممنوعة فلما اشتراها وأتى بها اليه قال لنفسه قد خدعتنى حتى نظرت واشتهيت وغلبتينى حتى اشتريت والله لا ذقتيه
فبعث بها الى يتامى ومن الفقراء * وعن موسى الاشج أنه قال نفسى تشتهى ملحا جريشا منذ عشرين سنة وعن
أحمد بن خليفة قال نفسى تشتهى منذ عشرين سنة ما طلبت منى الا الماء حتى تروى فما أرويتها و روى أن عتبة
الغلام اشتهى لحما سبع سنين فلما كان بعد ذلك قال استحييت من نفسى أن أدافعها منذ سبع سنين سنة بعد سنة
فاشتريت قطعة لحم على خبز وشويتها وتركتها على رغيف فلقيت صبيا فقلت ألست أنت ابن فلان وقد مات أبوك
قال بلى فناولته اياها قالوا وأقبل يبكى ويقرأ ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا ثم لم يذقه بعد ذلك
ومكث يشتهى تمرا سنين فلما كان ذات يوم اشترى تمرا بقيراط ورفعه الى الليل ليفطر عليه قال فهبت ريح
شديدة حتى أظلمت الدنيا ففزع الناس فأقبل عتبة على نفسه يقول هذا لجراءتى عليك وشرائى التمر بالقيراط
ثم قال لنفسه ما أظن أخذ الناس الا بذنبك على أن لا تذوقيه واشترى داود الطائى بنصف فلس بقلا وبفلس خلا
وأقبل ليلته كلها يقول لنفسه ويلك ياداود ما أطول حسابك يوم القيامة ثم لم يأكل بعده الا قفارا وقال عتبة الغلام
يوما لعبد الواحد بن زيد ان فلانا يصف من نفسه منزلة ما أعرفها من نفسى فقال لانك تأكل مع خبزك تمرا وهو
لا يزيد على الخبز شيأ قال فان أنا تركت أكل التمر عرفت تلك المنزلة قال نعم وغيرها فأخذ يبكى فقال له بعض
أصحابه لا أبكى الله عينك أعلى التمر تبكى فقال عبد الواحد دعه فان نفسه قد عرفت صدق عزمه فى الترك وهو
اذا ترك شيأ لم يعاوده وقال جعفر بن نصر أمرنى الجنيد أن أشترى له التين الوزيرى فلما اشتريته أخذ واحدة
عند الفطور فوضعها فى فيه ثم ألقاها وجعل يبكى ثم قال احمله فقلت له فى ذلك فقال هتف بى هاتف أما تستحى
تركته من أجلى ثم تعود اليه وقال صالح المرى قلت لعطاء السلمى انى متكلف لك شيأ فلا ترد على كرامتى فقال
افعل ما تريد قال فبعثت اليه مع ابنى شربة من سويق قد لتته بسمن وعسل فقلت لا تبرح حتى يشربها فلما كان
من الغد جعلت له نحوها فردها ولم يشربها فعاتبته ولمته على ذلك وقلت سبحان الله رددت على كرامتى فلما رأى
وجدى لذلك قال لا يسوؤك هذا انى قد شربتها أول مرة وقد راودت نفسى فى المرة الثانية على شربها فلم أقدر على
ذلك كلما أردت ذلك ذكرت قوله تعالى يتجرعه ولا يكاد يسيغه الآية قال صالح فبكيت وقلت فى نفسى أنا فى واد
وأنت فى واد آخر وقال السرى السقطى نفسى منذ ثلاثين سنة تطالبنى أن أغمس جزرة فى دبس فما أطعمتها
وقال أبو بكر الجلاء أعرف رجلا تقول له نفسه أنا أصبر لك على طى عشرة أيام وأطعمنى بعد ذلك شهوة أشتهيها
فيقول لها لا أريد أن تطوى عشرة أيام ولكن اتركى هذه الشهوة و روى أن عابدا دعا بعض اخوانه فقرب اليه
رغفانا فجعل أخوه يقلب الارغفة ليختار أجودها فقال له العابد مه أى شئ تصنع أما علمت ان فى الرغيف الذى
رغبت عنه كذا وكذا حكمة وعمل فيه كذا وكذا صانع حتى استدار من السحاب الذى يحمل الماء والماء الذى
يسقى الارض والرياح والارض والبهائم وبنى آدم حتى صار اليك ثم أنت بعد هذا تقلبه ولا ترضى به وفى الخبر
لا يستدير الرغيف ويوضع بين يديك حتى يعمل فيه ثلثمائة وستون صانعا أولهم ميكائيل عليه السلام الذى يكيل
الماء من خزائن الرحمة ثم الملائكة التى تزجى السحاب والشمس والقمر والافلاك وملائكة الهواء ودواب
الارض وآخرهم الخباز وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها وقال بعضهم أتيت قاسما الجزعى فسألته عن الزهد أى
شئ هو فقال أى شئ سمعت فيه فعددت أقوالا فسكت فقلت وأى شئ تقول أنت فقال اعلم أن البطن دنيا العبد
فبقدر ما يملك من بطنه يملك من الزهد وبقدر ما يملكه بطنه تملكه الدنيا وكان بشر بن الحرث قد اعتل مرة فأتى
عبد الرحمن الطبيب يسأله عن شئ يوافقه من المأكولات فقال تسألنى فاذا وصفت لك لم تقبل منى قال صف لى
حتى أسمع قال تشرب سكنجبينا وتمص سفرجلا وتأكل بعد ذلك اسفيذباجا فقال له بشر هل تعلم شيأ أقل من
السكنجبين يقوم مقامه قال لا قال أنا أعرف قال ما هو قال الهندبا بالخل ثم قال أتعرف شيأ أقل من السفرجل
يقوم مقامه قال لا قال أنا أعرف قال ما هو قال الخرنوب الشامى قال فتعرف شيأ أقل من الاسفيذباج يقوم مقامه
قال لا قال أنا أعرف ماء الحمص بسمن البقر فى معناه فقال له عبد الرحمن أنت أعلم منى بالطب فلم تسألنى فقد

جزأ من النبوة * وروى
حارثة بن قدامة قال
قلت يارسول الله
أوصنى واقلل لعلى أعيه
قال لا تغضب فأعاد
عليه كل ذلك يقول
لا تغضب قال عليه
السلام ان الغضب
جمرة من النار ألم
تنظروا حمرة عينيه
وانتفاخ أوداجه
من وجد ذلك منكم
فان كان قائما فليجلس
وان كان جالسا
فليضطجع (أخبرنا)
ضياء الدين عبد الوهاب
ابن على قال أنا أبو
الفتح الهروى قال أنا
أبو نصر الترياقى قال
أنا الجراحى قال أنا
المحبوبى قال أنا أبو
عيسى الترمذى قال
حدثنا محمد بن عبد الله
قال حدثنا بشر بن
المفضل عن قرة بن
خالد عن أبى جمرة عن
ابن عباس رضى الله
عنهما أن النبى صلى الله
عليه وسلم قال لاشج
عبد القيس ان فيك
خصلتين يحبهما الله
تعالى الحلم والأناة * ومن

عرفت بهذا أن هؤلاء امتنعوا من الشهوات ومن الشبع من الاقوات وكان امتناعهم للفوائد التى ذكرناها وفى بعض الاوقات لانهم كانوا لا يصفو لهم الحلال فلم يرخصوا لانفسهم الا فى قدر الضرورة والشهوات ليست من الضرورات حتى قال أبو سليمان الملح شهوة لانه زيادة على الخبز وما وراء الخبز شهوة وهذا هو النهاية فمن لم يقدر على ذلك فينبغى أن لا يغفل عن نفسه ولا ينهمك فى الشهوات فكفى بالمرء اسرافا أن يأكل كل ما يشتهيه ويفعل كل ما يهواه فينبغى أن لا يواظب على أكل اللحم وقال على كرم الله وجهه من ترك اللحم أربعين يوما ساء خلقه ومن داوم عليه أربعين يوما قسا قلبه وقيل ان للمداومة على اللحم ضراوة كضراوة الخمر ومهما كان جائعا وتاقت نفسه الى الجماع فلا ينبغى أن يأكل ويجامع فيعطى نفسه شهوتين فتقوى عليه وربما طلبت النفس الاكل لينشط فى الجماع ويستحب أن لا ينام على الشبع فيجمع بين غفلتين فيعتاد الفتور ويقسو قلبه لذلك ولكن ليصل أو يجلس فيذكر الله تعالى فانه أقرب الى الشكر وفى الحديث أذيبوا طعامكم بالذكر والصلاة ولا تناموا عليه فتقسو قلوبكم وأقل ذلك أن يصلى أربع ركعات أو يسبح مائة تسبيحة أو يقرأ جزأ من القرآن عقيب أكله فقد كان سفيان الثورى اذا شبع ليلة أحياها واذا شبع فى يوم واصله بالصلاة والذكر وكان يقول أشبع الزنجى وكده ومرة يقول أشبع الحمار وكده ومهما اشتهى شيأ من الطعام وطيبات الفواكه فينبغى أن يترك الخبز ويأكلها بدلا منه لتكون قوتا ولا يكون تفكها لئلا يجمع للنفس بين عادة وشهوة * نظر سهل الى ابن سالم وفى يده خبز وتمر فقال له ابدأ بالتمر فان قامت كفايتك به والا أخذت من الخبز بقدر حاجتك ومهما وجد طعاما لطيفا وغليظا فليقدم اللطيف فانه لا يشتهى الغليظ بعده ولو قدم الغليظ لاكل اللطيف أيضا للطافته وكان بعضهم يقول لاصحابه لا تأكلوا الشهوات فان أكلتموها فلا تطلبوها فان طلبتموها فلا تحبوها وطلب بعض أنواع الخبز شهوة قال عبد الله بن عمر رحمة الله عليهما ما تأتينا من العراق فاكهة أحب الينا من الخبز فرأى ذلك الخبز فاكهة وعلى الجملة لا سبيل الى اهمال النفس فى الشهوات فى المباحات واتباعها بكل حال فبقدر ما يستوفى العبد من شهوته يخشى أن يقال له يوم القيامة أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها وبقدر ما يجاهد نفسه ويترك شهوته يتمتع فى الدار الآخرة بشهواته قال بعض أهل البصرة نازعتنى نفسى خبز أرز وسمكا فمنعتها فقويت مطالبتها واشتدت مجاهدتى لها عشرين سنة فلما مات قال بعضهم رأيته فى المنام فقلت ماذا فعل الله بك قال لا أحسن أن أصف ما تلقانى به ربى من النعم والكرامات وكان أول شئ استقبلنى به خبز أرز وسمكا وقال كل اليوم شهوتك هنيأ بغير حساب وقد قال تعالى كلوا واشربوا هنيأ بما أسلفتم فى الايام الخالية وكانوا قد أسلفوا ترك الشهوات ولذلك قال أبو سليمان ترك شهوة من الشهوات أنفع للقلب من صيام سنة وقيامها وفقنا الله لما يرضيه

* بيان اختلاف حكم الجوع وفضيلته واختلاف أحوال الناس فيه *

اعلم أن المطلوب الاقصى فى جميع الامور والاخلاق الوسط اذ خير الامور أوساطها وكلا طرفى قصد الامور ذميم وما أوردناه فى فضائل الجوع ربما يومئ الى أن الافراط فيه مطلوب وهيهات لكن من أسرار حكمة الشريعة ان كل ما يطلب الطبع فيه الطرف الاقصى وكان فيه فساد جاء الشرع بالمبالغة فى المنع منه على وجه يومئ عند الجاهل الى أن المطلوب مضادة ما يقتضيه الطبع بغاية الامكان والعالم يدرك أن المقصود الوسط لان الطبع اذا طلب غاية الشبع فالشرع ينبغى أن يمدح غاية الجوع حتى يكون الطبع باعثا والشرع مانعا فيتقاومان ويحصل الاعتدال فان من يقدر على قمع الطبع بالكلية بعيد فيعلم أنه لا ينتهى الى الغاية فانه ان أسرف مسرف فى مضادة الطبع كان فى الشرع أيضا ما يدل على اساءته كما أن الشرع بالغ فى الثناء على قيام الليل وصيام النهار ثم لما علم النبى صلى الله عليه وسلم من حال بعضهم أنه يصوم الدهر كله ويقوم الليل كله نهى عنه فاذا عرفت هذا فاعلم أن الافضل بالاضافة الى الطبع المعتدل أن يأكل بحيث لا يحس بثقل المعدة ولا يحس بألم الجوع بل ينسى بطنه فلا يؤثر فيه الجوع أصلا فان مقصود الاكل بقاء الحياة وقوة العبادة وثقل المعدة يمنع من العبادة وألم الجوع أيضا يشغل القلب ويمنع منها فالمقصود أن يأكل أكلا لا يبقى للمأكول فيه أثر ليكون متشبها

أخلاق الصوفية التودد والتألف والموافقة مع الاخوان وترك المخالفة قال الله تعالى فى وصف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أشداء على الكفار رحماء بينهم وقال الله تعالى لو أنفقت ما فى الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم والتودد والتألف من ائتلاف الارواح على ما ورد فى الخبر الذى أوردناه فما تعارف منها ائتلف قال الله تعالى فأصبحتم بنعمته اخوانا وقال سبحانه وتعالى واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا وقال عليه السلام المؤمن آلف مألوف لا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف وقال عليه السلام مثل المؤمنين اذا التقيا مثل اليدين تغسل احداهما الاخرى وما التقى مؤمنان الا استفاد أحدهما من صاحبه خيرا (وقال)

بالملائكة فانهم مقدسون عن ثقل الطعام وألم الجوع وغاية الانسان الاقتداء بهم واذا لم يكن للانسان خلاص من الشبع والجوع فابعد الاحوال عن الطرفين الوسط وهو الاعتدال ومثال طلب الآدمي البعد عن هذه الاطراف المتقابلة بالرجوع الى الوسط مثال نملة ألقيت في وسط حلقة محمية على النار مطروحة على الارض فان النملة تهرب من حرارة الحلقة وهي محيطة بها لاتقدر على الخروج منها فلا تزال تهرب حتى تستقر على المركز الذي هو الوسط فلو ماتت ماتت على الوسط لان الوسط هو أبعد المواضع عن الحرارة التي في الحلقة المحيطة فكذلك الشهوات محيطة بالانسان احاطة تلك الحلقة بالنملة والملائكة خارجون عن تلك الحلقة ولا مطمع للانسان في الخروج وهو يريد أن يتشبه بالملائكة في الخلاص فأشبه أحواله بهم البعد وأبعد المواضع عن الاطراف الوسط فصار الوسط مطلوبا في جميع هذه الاحوال المتقابلة وعنه عبر بقوله صلى الله عليه وسلم خير الامور أوساطها واليه الاشارة بقوله تعالى كلوا واشربوا ولا تسرفوا ومهما لم يحس الانسان بجوع ولا شبع تيسرت له العبادة والفكر وخف في نفسه وقوي على العمل مع خفته ولكن هذا بعد اعتدال الطبع اما في بداية الامر اذا كانت النفس جموحا متشوقة الى الشهوات مائلة الى الافراط فالاعتدال لا ينفعها بل لابد من المبالغة في ايلامها بالجوع كما يبالغ في ايلام الدابة التي ليست مروضة بالجوع والضرب وغيره الى أن تعتدل فاذا ارتاضت واستوت ورجعت الى الاعتدال ترك تعذيبها وايلامها ولاجل هذا السر يأمر الشيخ مريده بما لا يتعاطاه هو في نفسه فيأمره بالجوع وهو لا يجوع ويمنعه الفواكه والشهوات وقد لا يمتنع هو منها لانه قد فرغ من تأديب نفسه فاستغنى عن التعذيب ولما كان أغلب أحوال النفس الشره والشهوة والجماح والامتناع عن العبادة كان الاصلح لها الجوع الذي تحس بألمه في أكثر الاحوال لتنكسر نفسه والمقصود أن تنكسر حتى تعتدل فترد بعد ذلك في الغذاء أيضا الى الاعتدال وانما يمتنع من ملازمة الجوع من سالكي طريق الآخرة اما صديق واما مغرور وأحمق أما الصديق فلاستقامة نفسه على الصراط المستقيم واستغنائه عن أن يساق بسياط الجوع الى الحق وأما المغرور فلظنه بنفسه انه الصديق المستغني عن تأديب نفسه الظان بها خيرا وهذا غرور وعظيم وهو الاغلب فان النفس قلما تتأدب تأدبا كاملا وكثيرا ما تغتر فتنظر الى الصديق ومسامحته نفسه في ذلك فيسامح نفسه كالمريض ينظر الى من قد صح من مرضه فيتناول ما يتناوله ويظن بنفسه الصحة فيهلك والذي يدل على أن تقدير الطعام بمقدار يسير في وقت مخصوص ونوع مخصوص ليس مقصودا في نفسه وانما هو مجاهدة نفس متنائية عن الحق غير بالغة رتبة الكمال أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن له تقدير وتوقيت لطعامه قالت عائشة رضي الله عنها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم حتى نقول لا يفطر ويفطر حتى نقول لا يصوم وكان يدخل على أهله فيقول هل عندكم من شيء فان قالوا نعم أكل وان قالوا لا قال اني اذا صائم وكان يقدم اليه الشيء فيقول أما اني قد كنت أردت الصوم ثم يأكل وخرج صلى الله عليه وسلم يوما وقال اني صائم فقالت له عائشة رضي الله عنها قد أهدي الينا حيس فقال كنت أردت الصوم ولكن قربيه ولذلك حكي عن سهل أنه قيل له كيف كنت في بدايتك فأخبر بضروب من الرياضات منها انه كان يقتات بورق النبق مدة ومنها انه أكل دقاق التين مدة ثلاث سنين ثم ذكر انه اقتات بثلاثة دراهم في ثلاث سنين فقيل له فكيف أنت في وقتك هذا فقال آكل بلا حد ولا توقيت وليس المراد بقوله بلا حد ولا توقيت اني آكل كثيرا بل اني لا أقدر بمقدار واحد ما آكله وقد كان معروف الكرخي يهدى اليه طيبات الطعام فيأكل فقيل له ان أخاك بشرا لا يأكل مثل هذا فقال ان أخي بشرا قبضه الورع وأنا بسطتني المعرفة ثم قال انما أنا ضيف في دار مولاي فاذا أطعمني أكلت واذا جوعني صبرت مالي والاعتراض والتمييز ودفع ابراهيم بن أدهم الى بعض اخوانه دراهم وقال خذ لنا بهذه الدراهم زبدا وعسلا وخبزا حواري فقيل يا أبا اسحق بهذا كله قال ويحك اذا وجدنا أكلنا أكل الرجال واذا عدمنا صبرنا صبر الرجال وأصلح ذات يوم طعاما كثيرا ودعا اليه نفرا يسيرا فيهم الاوزاعي والثوري فقال له الثوري يا أبا اسحق أما تخاف أن يكون هذا اسرافا فقال ليس في الطعام اسراف انما الاسراف في اللباس والاثاث فالذي أخذ العلم من السماع والنقل تقليدا يرى هذا من ابراهيم بن أدهم ويسمع عن مالك بن دينار أنه قال ما دخل بيتي الملح منذ عشرين سنة وعن سري السقطي أنه منذ

أبو ادريس الخولاني لمعاذ اني أحبك في الله فقال أبشر ثم أبشر فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ينصب لطائفة من الناس كراسي حول العرش يوم القيامة وجوههم كالقمر ليلة البدر يفزع الناس وهم لا يفزعون ويخاف الناس وهم لا يخافون وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فقيل من هؤلاء يا رسول الله قال المتحابون في الله (وقيل) لو تحاب الناس وتعاطوا أسباب المحبة لاستغنوا بها عن العدالة وقيل العدالة خليفة المحبة تستعمل حيث لا توجد المحبة وقيل طاعة المحبة أفضل من طاعة الرهبة فان طاعة المحبة من داخل وطاعة الرهبة من خارج ولهذا المعنى كانت محبة الصوفية مؤثرة من البعض في البعض لانهم لما تحابوا

أربعين سنة يشتهي أن يغمس جزرة في دبس فما فعل فيراه متناقضا فيتحير أو يقطع بأن أحدهما مخطئ والبصير بأسرار القول يعلم أن كل ذلك حق ولكن بالاضافة الى اختلاف الاحوال ثم هذه الاحوال المختلفة يسمعها فطن محتاط أوغبي مغرور فيقول المحتاط ما أنا من جملة العارفين حتى أسامح نفسي فليس نفسي أطوع من نفس سري السقطي ومالك بن دينار وهؤلاء من الممتنعين عن الشهوات فيقتدي بهم والمغرور يقول مانفسي بأعصى علي من نفس معروف الكرخي وابراهيم بن أدهم فاقتدي بهم وأرفع التقدير في مأكولي فانا أيضا ضيف في دار مولاي فالي وللاعتراض ثم انه لو قصر أحد في حقه وتوقيره أو في ماله وجاهه بطربقة واحدة قامت القيامة عليه واشتغل بالاعتراض وهذا مجال رحب للشيطان مع الحمقى بل رفع التقدير في الطعام والصيام وأكل الشهوات لايسلم الالمن ينظر من مشكاة الولاية والنبوة فيكون بينه و بين الله علامة في استرساله وانقباضه ولايكون ذلك الا بعد خروج النفس عن طاعة الهوى والعادة بالكلية حتى يكون أكله اذا أكل على نية كما يكون امساكه بنية فيكون عاملا لله في أكله وافطاره فينبغي أن يتعلم الحزم من عمر رضي الله عنه فانه كان يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب العسل و يأكله ثم لم يقس نفسه عليه بل لما عرضت عليه شربة باردة ممزوجة بعسل جعل يدير الاناء في يده و يقول أشربها وتذهب حلاوتها وتبقى تبعتها اعزلوا عني حسابها وتركها وهذه الاسرار لايجوز للشيخ أن يكاشف بها مريده بل يقتصر على مدح الجوع فقط ولايدعوه الى الاعتدال فانه يقصر لامحالة عما يدعوه اليه فينبغي أن يدعوه الى غاية الجوع حتى يتيسر له الاعتدال ولايذكر له أن العارف الكامل يستغني عن الرياضة فان الشيطان يجد متعلقا من قلبه فيلقي اليه كل ساعة انك عارف كامل وماالذي فاتك من المعرفة والكمال بل كان من عادة ابراهيم الخواص أن يخوض مع المريد في كل رياضة كان يأمره بها كي لايخطر بباله أن الشيخ لم يأمره بما لم يفعل فينفره ذلك من رياضته والقوي اذا اشتغل بالرياضة واصلاح الغير لزمه النزول الى حد الضعفاء تشبها بهم وتلطفا في سياقتهم الى السعادة وهذا ابتلاء عظيم للانبياء والاولياء واذا كان حد الاعتدال خفيا في حق كل شخص فالحزم والاحتياط ينبغي أن لايترك في كل حال ولذلك أدب عمر رضي الله عنه ولده عبد الله اذ دخل عليه فوجده يأكل لحما مأدوما بسمن فعلاه بالدرة وقال لا أم لك كل يوما خبزا ولحما يوما خبزا ولبنا يوما خبزا وسمنا يوما خبزا وزيتا يوما خبزا وملحا يوما خبزا قفارا وهذا هو الاعتدال فاما المواظبة على اللحم والشهوات فافراط واسراف ومهاجرة اللحم بالكلية اقتار وهذا قوام بين ذلك والله تعالى أعلم

﴿ بيان آفة الرياء المتطرق الى من ترك أكل الشهوات وقلل الطعام ﴾

اعلم انه يدخل على تارك الشهوات آفتان عظيمتان هما أعظم من أكل الشهوات * احداهما أن لاتقدر النفس على ترك بعض الشهوات فتشتهيها ولكن لايريد أن يعرف بانه يشتهيها فيخفي الشهوة و يأكل في الخلوة مالا يأكل مع الجماعة وهذا هو الشرك الخفي سئل بعض العلماء عن بعض الزهاد فسكت عنه فقيل له هل تعلم به بأسا قال يأكل في الخلوة مالا يأكل مع الجماعة وهذه آفة عظيمة بل حق العبد اذا ابتلي بشهوات وأحبها ان يظهرها فان هذا اصدق الحال وهو بدل عن فوات المجاهدات بالاعمال فان اخفاء النقص واظهار ضده من الكمال هو نقصانان متضاعفان والكذب مع الاخفاء كذبان فيكون مستحقا لمقتين ولايرضى منه الا بتوبتين صادقتين ولذلك شدد أمر المنافقين فقال تعالى ان المنافقين في الدرك الاسفل من النار لان الكافر كفر وأظهر وهذا كفر وستر فكان ستره لكفره كفرا آخر لانه استخف بنظر الله سبحانه وتعالى الى قلبه وعظم نظر المخلوقين فمحا الكفر عن ظاهره والعارفون يبتلون بالشهوات بل بالمعاصي ولايبتلون بالرياء والغش والاخفاء بل كمال العارف أن يترك الشهوات لله تعالى و يظهر من نفسه الشهوة اسقاطا لمنزلته من قلوب الخلق وكان بعضهم يشتري الشهوات و يعلقها في البيت وهو فيها من الزاهدين وانما يقصد به تلبيس حاله ليصرف عن نفسه قلوب الغافلين حتى لايشوشون عليه حاله فنهاية الزهد الزهد في الزهد باظهار ضده وهذا عمل الصديقين فانه جمع بين صدقين كما أن الاول جمع بين كذبين وهذا قد حمل على النفس ثقلين وجرعها كاس الصبر مرتين مرة بشربه ومرة برميه فلا جرم أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا وهذا ايضاهي طريق من يعطى جهرا فيأخذ و يرد سرا ليكسر نفسه

في الله تواصوا بمحاسن الاخلاق ووقع القبول بينهم لوجود المحبة فانتفع لذلك المريد بالشيخ والاخ بالاخ ولهذا المعنى أمر الله تعالى باجتماع الناس في كل يوم خمس مرات في المساجد أهل كل درب وكل محلة وفي الجامع في الاسبوع مرة أهل كل بلد وانضمام أهل السواد الى البلدان في الاعياد في جميع السنة مرتين وأهل الاقطار من البلدان المتفرقة في العمر مرة للحج كل ذلك لحكم بالغة منها تأكيد الالفة والمودة بين المؤمنين وقال عليه السلام المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا (أخبرنا) أبو زرعة قال أنا والدي أبو الفضل قال أنا أبو نصر محمد بن سلمان العدل قال أنا أبو طاهر محمد بن محمد ابن محمد الزيادي قال أنا أبو العباس عبد الله بن يعقوب الكرماني قال

بالذل جهرا او بالفقر سرا فمن فاته هذا فلا ينبغي أن يفوته اظهار شهوته ونقصانه والصدق فيه ولا ينبغي أن يغره قول الشيطان انك اذا أظهرت اقتدى بك غيرك فاستره اصلاحا لغيرك فانه لو قصد اصلاح غيره لكان اصلاح نفسه أهم عليه من غيره فهذا انما يقصد الرياء المجرد ويروجه الشيطان عليه في معرض اصلاح غيره فلذلك ثقل عليه ظهور ذلك منه وان علم أن من اطلع عليه ليس يقتدي به في الفعل أو لا ينزجر باعتقاده أنه تارك للشهوات * الآفة الثانية أن يقدر على ترك الشهوات لكنه يفرح أن يعرف به فيشتهر بالتعفف عن الشهوات فقد خالف شهوة ضعيفة وهي شهوة الاكل وأطاع شهوة هي شر منها وهي شهوة الجاه وتلك هي الشهوة الخفية فهما أحس بذلك من نفسه فكسر هذه الشهوة آكد من كسر شهوة الطعام فليأكل فهو أولى له قال أبو سليمان اذا قدمت اليك شهوة وقد كنت تاركا لها فاصب منها شيأ يسيرا ولا تعط نفسك مناها فتكون قد أسقطت عن نفسك الشهوة وتكون قد نغصت عليها اذ لم تعطها شهوتها وقال جعفر بن محمد الصادق اذا قدمت الى شهوة نظرت الى نفسي فان هي أظهرت شهوتها أطعمتها منها وكان ذلك أفضل من منعها وان أخفت شهوتها وأظهرت العزوب عنها عاقبتها بالترك ولم أنلها منها شيأ وهذا طريق في عقوبة النفس على هذه الشهوة الخفية وبالجملة من ترك شهوة الطعام ووقع في شهوة الرياء كان كمن هرب من عقرب وفزع الى حية لان شهوة الرياء أضر كثيرا من شهوة الطعام والله ولي التوفيق

* القول في شهوة الفرج *

اعلم ان شهوة الوقاع سلطت على الانسان لفائدتين * احداهما أن يدرك لذته فيقيس به لذات الآخرة فان لذة الوقاع لو دامت لكانت أقوى لذات الاجساد كما أن النار وآلامها أعظم آلام الجسد والترغيب والترهيب يسوق الناس الى سعادتهم وليس ذلك الا بألم محسوس ولذة محسوسة مدركة فان ما لا يدرك بالذوق لا يعظم اليه الشوق * الفائدة الثانية بقاء النسل ودوام الوجود فهذه فائدتها ولكن فيها من الآفات ما يهلك الدين والدنيا ان لم تضبط ولم تقهر ولم ترد الى حد الاعتدال وقد قيل في تأويل قوله تعالى ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به معناه شدة الغلمة وعن ابن عباس في قوله تعالى ومن شر غاسق اذا وقب قال هو قيام الذكر وقد أسنده بعض الرواة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم الا أنه قال في تفسيره الذكر اذا دخل وقد قيل اذا قام ذكر الرجل ذهب ثلثا عقله وكان صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه أعوذ بك من شر سمعي وبصري وقلبي وهني ومني وقال عليه السلام النساء حبائل الشيطان ولولا هذه الشهوة لما كان للنساء سلطنة على الرجال وروى ان موسى عليه السلام كان جالسا في بعض مجالسه اذ أقبل اليه ابليس وعليه برنس يتلون فيه ألوانا فلما دنا منه خلع البرنس فوضعه ثم أتاه فقال السلام عليك يا موسى فقال له موسى من أنت فقال أنا ابليس فقال لا حياك الله ما جاء بك قال جئت لاسلم عليك لمنزلتك من الله ومكانتك منه قال فما الذي رأيت عليك قال برنس أختطف به قلوب بني آدم قال فما الذي اذا صنعه الانسان استحوذت عليه قال اذا أعجبته نفسه واستكثر عمله ونسي ذنوبه وأحذرك ثلاثا لا تخل بامرأة لا تحل لك فانه ما خلا رجل بامرأة لا تحل له الا كنت صاحبه دون أصحابي حتى أفتنه بها وأفتنها به ولا تعاهد الله عهدا الا وفيت به ولا تخرجن صدقة الا أمضيتها فانه ما أخرج رجل صدقة فلم يمضها الا كنت صاحبه دون أصحابي حتى أحول بينه وبين الوفاء بها ثم ولى وهو يقول يا ويلتاه علم موسى ما يحذر به بني آدم * وعن سعيد بن المسيب قال ما بعث الله نبيا فيما خلا الا لم ييأس ابليس أن يهلكه بالنساء ولا شئ أخوف عندي منهن وما بالمدينة بيت أدخله الا بيتي وبيت ابنتي أغتسل فيه يوم الجمعة ثم أروح وقال بعضهم ان الشيطان يقول للمرأة أنت نصف جندي وأنت سهمي الذي أرمي به فلا أخطئ وأنت موضع سري وأنت رسولي في حاجتي فنصف جنده الشهوة ونصف جنده الغضب وأعظم الشهوات شهوة النساء وهذه الشهوة أيضا لها افراط وتفريط واعتدال فالافراط ما يقهر العقل حتى يصرف همة الرجال الى الاستمتاع بالنساء والجواري فيحرم عن سلوك طريق الآخرة أو يقهر الدين حتى يجر الى اقتحام الفواحش وقد ينتهي افراطها بطائفة الى أمرين شنيعين * أحدهما أن يتناولوا ما يقوي شهواتهم على الاستكثار من الوقاع كما قد يتناول بعض الناس أدوية تقوي المعدة لتعظم شهوة الطعام وما مثال ذلك الا كمن ابتلي بسباع ضارية وحيات عادية فتنام عنه في بعض الاوقات فيحتال لاثارتها وتهييجها ثم يشتغل

حدثنا يحيى الكرماني قال حدثنا حماد بن زيد عن مجالد بن سعد عن الشعبي عن النعمان ابن بشير قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ألا ان مثل المؤمنين في توادهم وتحابهم وتراحمهم كمثل الجسد اذا اشتكى عضو منه تداعى سائره بالسهر والحمى والتألف والتودد يؤكد أسباب الصحبة والصحبة مع الاخيار مؤثرة جدا (وقد قيل) لقاء الاخوان لقاح ولا شك أن البواطن تتلقح ويتقوى البعض بالبعض بل مجرد النظر الى أهل الصلاح يؤثر صلاحا والنظر في الصور يؤثر أخلاقا مناسبة لخلق المنظور اليه كدوام النظر الى المحزون يحزن ودوام النظر الى المسرور يسر (وقد قيل) من لا ينفعك لحظه لا ينفعك لفظه والجمل الشرود يصير ذلولا بمقارنة الجمل

باصلاحها وعلاجها فان شهوة الطعام والوقاع على التحقيق آلام يريد الانسان الخلاص منها فيدرك لذة بسبب
الخلاص فان قلت فقد روى فى غريب الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال شكوت الى جبرائيل ضعف
الوقاع فامرنى بأكل الهريسة فاعلم انه صلى الله عليه وسلم كان تحته تسع نسوة ووجب عليه تحصينهن بالامتاع
وحرم على غيره نكاحهن وان طلقهن فكان طلبه القوة لهذا لا للتمتع * والامر الثانى أنه قد تنتهى هذه
الشهوة ببعض الضلال الى العشق وهو غاية الجهل بما وضع له الوقاع وهو مجاوزة فى البهيمية لحد البهائم لان
المتعشق ليس يقنع باراقة شهوة الوقاع وهى أقبح الشهوات وأجدرها أن يستحى منه حتى اعتقد أن الشهوة
لا تنقضى الا من محل واحد والبهيمة تقضى الشهوة أين اتفق فتكتفى به وهذا لا يكتفى الا بشخص واحد معين
حتى يزداد به ذلا الى ذل وعبودية الى عبودية وحتى يستسخر العقل لخدمة الشهوة وقد خلق ليكون مطاعا
لا ليكون خادما للشهوة ومحتالا لاجلها وما العشق الا سعة افراط الشهوة وهو مرض قلب فارغ لا هم له وانما يجب
الاحتراز من أوائله بترك معاودة النظر والفكر والا فاذا استحكم عسر دفعه فكذلك عشق المال والجاه والعقار
والاولاد حتى حب اللعب بالطيور والنرد والشطرنج فان هذه الامور قد تستولى على طائفة بحيث تنغص عليهم
الدين والدنيا ولا يصبرون عنها البتة ومثال من يكسر سورة العشق فى أول انبعاثه مثال من يصرف عنان الدابة
عند توجهها الى باب لتدخله وما أهون منعها بصرف عنانها ومثال من يعالجها بعد استحكامها مثال من يترك
الدابة حتى تدخل وتجاوز الباب ثم يأخذ بذنبها ويجرها الى ورائها وما أعظم التفاوت بين الامرين فى اليسر
والعسر فليكن الاحتياط فى بدايات الامور فاما فى أواخرها فلا تقبل العلاج الا بجهد جهيد يكاد يؤدى الى نزع
الروح فاذا افراط الشهوة أن يغلب العقل الى هذا الحد وهو مذموم جدا وتفريطها بالعنة أو بالضعف عن
امتاع المنكوحة وهو أيضا مذموم وانما المحمود ان تكون معتدلة ومطيعة للعقل والشرع فى انقباضها
وانبساطها ومهما أفرطت فكسرها بالجوع والنكاح قال صلى الله عليه وسلم معاشر الشباب عليكم بالباءة فمن لم
يستطع فعليه بالصوم فالصوم له وجاء

* بيان ما على المريد فى ترك التزويج وفعله *

اعلم أن المريد فى ابتداء أمره ينبغى أن لا يشغل قلبه ونفسه بالتزويج فان ذلك شغل شاغل يمنعه من السلوك
ويستجره الى الانس بالزوجة ومن أنس بغير الله تعالى شغل عن الله ولا يغرنه كثرة نكاح رسول الله صلى الله
عليه وسلم فانه كان لا يشغل قلبه جميع ما فى الدنيا عن الله تعالى فلا تقاس الملائكة بالحدادين ولذلك قال أبو
سليمان الدارانى من تزوج فقد ركن الى الدنيا وقال ما رأيت مريدا تزوج فثبت على حاله الاول وقيل له مرة
ما أحوجك الى امرأة تأنس بها فقال لا آنسنى الله بها أى ان الانس بها يمنع الانس بالله تعالى وقال أيضا كل
ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشؤم فكيف يقاس غير رسول الله صلى الله عليه وسلم به وقد
كان استغراقه بحب الله تعالى بحيث كان يجد احتراقه فيه الى حد كان يخشى منه فى بعض الاحوال أن يسرى
ذلك الى قالبه فيهدمه فلذلك كان يضرب بيده على فخذ عائشة أحيانا ويقول كلمينى يا عائشة لتشغله بكلامها
عن عظيم ما هو فيه لقصور طاقة قالبه عنه فقد كان طبعه الانس بالله عز وجل وكان أنسه بالخلق عارضا رفقا
ببدنه ثم انه كان لا يطيق الصبر مع الخلق اذا جالسهم فاذا ضاق صدره قال أرحنا بها يا بلال حتى يعود الى ما هو قرة
عينه فالضعيف اذا لاحظ أحواله فى مثل هذه الامور فهو مغرور لان الافهام تقصر عن الوقوف على أسرار أفعاله
صلى الله عليه وسلم فشرط المريد العزبة فى الابتداء الى أن يقوى فى المعرفة هذا اذا لم تغلبه الشهوة فان غلبته
الشهوة فليكسرها بالجوع الطويل والصوم الدائم فان لم تنقمع الشهوة بذلك وكان بحيث لا يقدر على حفظ
العين مثلا وان قدر على حفظ الفرج فالنكاح له أولى لتسكن الشهوة والا فمهما لم يحفظ عينه لم يحفظ عليه فكره
ويتفرق عليه همه وربما وقع فى بلية لا يطيقها وزنا العين من كبار الصغائر وهو يؤدى على القرب الى الكبيرة
الفاحشة وهى زنا الفرج ومن لم يقدر على غض بصره لم يقدر على حفظ فرجه قال عيسى عليه السلام اياكم والنظرة
فانها تزرع فى القلب شهوة وكفى بها فتنة وقال سعيد بن جبير انما جاءت الفتنة لداود عليه السلام من قبل النظرة
ولذلك قال لابنه عليه السلام يا بنى امش خلف الاسد والاسود ولا تمش خلف المرأة وقيل ليحيى عليه السلام ما بدء

الذلول فالمقارنة لها
تأثير فى الحيوان
والنبات والجماد والماء
والهواء يفسدان بمقارنة
الجيف والزروع تنقى
عن أنواع العروق فى
الارض والنبات
لموضع الافساد بالمقارنة
واذا كانت المقارنة
مؤثرة فى هذه الاشياء
فى النفوس الشريفة
البشرية أكثر تأثيرا
وسمى الانسان انسانا
لانه يأنس بما يراه من
خير وشر والتألف
والتودد مستجلب
للمزيد وانما العزلة
والوحدة تحمد بالنسبة
الى أراذل الناس وأهل
الشر فأما أهل العلم
والصفاء والوفاء
والاخلاق الجيدة
فيغتنم مقارنتهم
والاستئناس بهم
استئناس بالله تعالى
كما أن محبتهم محبة الله
والجامع معهم رابطة
الحق ومع غيرهم رابطة
الطبع فالصوفى مع
غير الجنس كائن بائن
ومع الجنس كائن معاين

الزنا قال النظر والتمني وقال الفضيل يقول ابليس هو قوسي القديمة وسهمي الذي لا أخطى به يعني النظر وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم النظرة سهم مسموم من سهام ابليس فمن تركها خوفا من الله تعالى أعطاه الله تعالى ايمانا يجد حلاوته في قلبه وقال صلى الله عليه وسلم ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء وقال صلى الله عليه وسلم اتقوا فتنة الدنيا وفتنة النساء فان أول فتنة بني اسرائيل كانت من قبل النساء وقال تعالى قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم الآية وقال عليه السلام لكل ابن آدم حظ من الزنا فالعينان تزنيان وزناهما النظر واليدان تزنيان وزناهما البطش والرجلان تزنيان وزناهما المشي والفم يزني وزناه القبلة والقلب يهم أو يتمنى ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه * وقالت أم سلمة استأذن ابن مكتوم الاعمى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا وميمونة جالستان فقال عليه السلام احتجبا فقلنا أوليس بأعمى لا يبصرنا فقال وأنتما لا تبصرانه وهذا يدل على أنه لا يجوز للنساء مجالسة العميان كما جرت به العادة في المآتم والولائم فيحرم على الاعمى الخلوة بالنساء ويحرم على المرأة مجالسة الاعمى وتحديق النظر اليه لغير حاجة وانما جوز للنساء محادثة الرجال والنظر اليهم لاجل عموم الحاجة وان قدر على حفظ عينه عن النساء ولم يقدر على حفظها عن الصبيان فالنكاح أولى به فان الشرف الصبيان أكثر فانه لو مال قلبه الى امرأة أمكنه الوصول الى استباحتها بالنكاح والنظر الى وجه الصبي بالشهوة حرام بل كل من يتأثر قلبه بجمال صورة الامرد بحيث يدرك التفرقة بينه وبين الملتحي لم يحل له النظر اليه فان قلت كل ذي حس يدرك التفرقة بين الجميل والقبيح لا محالة ولم تزل وجوه الصبيان مكشوفة فأقول لست أعني تفرقة العين فقط بل ينبغي أن يكون ادراكه التفرقة كادراكه التفرقة بين شجرة خضراء وأخرى يابسة وبين ماء صاف وماء كدر وبين شجرة عليها أزهارها وأنوارها وشجرة تساقطت أوراقها فانه يميل الى احداهما بعينه وطبعه ولكن ميلا خاليا عن الشهوة ولاجل ذلك لا يشتهي ملامسة الازهار والانوار وتقبيلها ولا تقبيل الماء الصافي وكذلك الشيبة الحسنة قد تميل العين اليها وتدرك التفرقة بينها وبين الوجه القبيح ولكنها تفرقة لا شهوة فيها ويعرف ذلك بميل النفس الى القرب والملامسة ومهما وجد ذلك الميل في قلبه وأدرك تفرقة بين الوجه الجميل وبين النبات الحسن والاثواب المنقشة والسقوف المذهبة فنظره نظر شهوة فهو حرام وهذا مما يتهاون به الناس ويجرهم ذلك الى المعاطب وهم لا يشعرون وقال بعض التابعين ما أنا بأخوف من السبع الضاري على الشاب الناسك من غلام أمرد يجلس اليه * وقال سفيان لو أن رجلا عبث بغلام بين أصبعين من أصابع رجله يريد الشهوة لكان لوطا وعن بعض السلف قال سيكون في هذه الامة ثلاثة أصناف لوطيون صنف ينظرون وصنف يصافحون وصنف يعملون فاذا آفة النظر الى الاحداث عظيمة فمهما عجز المريد عن غض بصره وضبط فكره فالصواب له أن يكسر شهوته بالنكاح فرب نفس لا يسكن توقانها بالجوع (وقال بعضهم) غلبت على شهوتي في بدء ارادتي عالم أطق فأكثرت الضجيج الى الله تعالى فرأيت شخصا في المنام فقال مالك فشكوت اليه فقال تقدم الي فتقدمت اليه فوضع يده على صدري فوجدت بردها في فؤادي وجميع جسدي فأصبحت وقد زال ما بي فبقيت معافى سنة ثم عاودني ذلك فأكثرت الاستغاثة فأتاني شخص في المنام فقال لي أتحب أن يذهب ما تجده وأضرب عنقك قلت نعم فقال مد رقبتك فمددتها فجرد سيفا من نور فضرب به عنقي فأصبحت وقد زال ما بي فبقيت معافى سنة ثم عاودني ذلك أو أشد منه فرأيت كأن شخصا فيما بين جنبي وصدري يخاطبني ويقول ويحك كم تسأل الله تعالى رفع ما لا يحب رفعه قال فتزوجت فانقطع ذلك عني وولد لي ومهما احتاج المريد الى النكاح فلا ينبغي أن يترك شرط الارادة في ابتداء النكاح ودوامه أما في ابتدائه فبالنية الحسنة وفي دوامه بحسن الخلق وسداد السيرة والقيام بالحقوق الواجبة كما فصلنا جميع ذلك في كتاب آداب النكاح فلا نطول باعادته وعلامة صدق ارادته أن ينكح فقيرة متدينة ولا يطلب الغنية (قال بعضهم) من تزوج غنية كان له منها خمس خصال مغالاة الصداق وتسويف الزفاف وفوت الخدمة وكثرة النفقة واذا أراد طلاقها لم يقدر خوفا على ذهاب مالها والفقيرة بخلاف ذلك وقال بعضهم ينبغي أن تكون المرأة دون الرجل بأربع والا استحقرته بالسن والطول والمال والحسب وان تكون فوقه بأربع بالجمال والادب والورع والخلق وعلامة صدق الارادة في دوام النكاح الخلق * تزوج بعض

والمؤمن مرآة المؤمن اذا نظر الى أخيه يستشف من وراء أقواله وأعماله وأحواله تجليات الهيبة وتعريفات وتلويحات من الله الكريم خفية غابت عن الاغيار وأدركها أهل الانوار * ومن أخلاق الصوفية شكر المحسن على الاحسان والدعاء له وذلك منهم مع كمال توكلهم على ربهم وصفاء توحيدهم وقطعهم النظر عن الاغيار ورؤيتهم النعم من المنعم الجبار ولكن يفعلون ذلك اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم على ما ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب فقال ما من الناس أحد أمن علينا في صحبته وذات يده من ابن أبي قحافة ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا وقال ما نفعني مال كمال أبي بكر فالخلق حجبوا عن الله بالخلق في المنع

المريدين بامرأة فلم يزل يخدمها حتى استحيت المرأة وشكت ذلك الى أبيها وقالت قد تحيرت في هذا الرجل أنا في منزله منذ سنين ماذهبت الى الخلاء قط الا وحمل الماء قبلي اليه وتزوج بعضهم امرأة ذات جمال فلما اقرب زفافها أصابها الجدري فاشتد حزن أهلها لذلك خوفا من أن يستقبحها فاراهم الرجل انه قد أصابه رمد ثم أراهم أن بصره قد ذهب حتى زفت اليه فزال عنهم الحزن فبقيت عنده عشرين سنة ثم توفيت ففتح عينيه حين ذلك فقيل له في ذلك فقال تعمدته لاجل أهلها حتى لا يحزنوا فقيل له قد سبقت اخوانك بهذا الخلق * وتزوج بعض الصوفية امرأة سيئة الخلق فكان يصبر عليها فقيل له لم لا تطلقها فقال أخشى أن يتزوجها من لا يصبر عليها فيتأذى بها فان تزوج المريد فهكذا ينبغي أن يكون وان قدر على الترك فهو أولى له اذا لم يمكنه الجمع بين فضل النكاح وسلوك الطريق وعلم ان ذلك يشغله عن حاله كما روى ان محمد بن سليمان الهاشمي كان يملك من غلة الدنيا ثمانين ألف درهم في كل يوم فكتب الى أهل البصرة وعلمائها في امرأة يتزوجها فأجمعوا كلهم على رابعة العدوية رحمها الله تعالى فكتب اليها بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فان الله تعالى قد ملكني من غلة الدنيا ثمانين ألف درهم في كل يوم وليس تمضي الايام والليالي حتى أتممها مائة ألف وأنا أصير لك مثلها ومثلها فأجيبيني فكتبت اليه بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فان الزهد في الدنيا راحة القلب والبدن والرغبة فيها تورث الهم والحزن فاذا أتاك كتابي هذا فهيئ زادك وقدم لمعادك وكن وصي نفسك ولا تجعل الرجال أوصياءك فيقتسموا تراثك فصم الدهر وليكن فطرك الموت وأما أنا فلو أن الله تعالى خولني أمثال الذي خولك وأضعافه ماسرني أن أشتغل عن الله طرفة عين وهذه اشارة الى ان كل ما يشغل عن الله تعالى فهو نقصان فلينظر المريد الى حاله وقلبه فان وجده في العزوبة فهو الاقرب وان عجز عن ذلك فالنكاح أولى به ودواء هذه العلة ثلاثة أمور الجوع وغض البصر والاشتغال بشغل يستولي على القلب فان لم تنفع هذه الثلاثة فالنكاح هو الذي يستأصل مادتها فقط ولهذا كان السلف يبادرون الى النكاح والى تزويج البنات قال سعيد بن المسيب ما أيس ابليس من أحد الا وأتاه من قبل النساء وقال سعيد أيضا وهو ابن أربع وثمانين سنة وقد ذهبت احدى عينيه وهو يعشو بالاخرى ما شئ أخوف عندي من النساء وعن عبد الله بن أبي وداعة قال كنت أجالس سعيد بن المسيب ففقدني أياما فلما أتيته قال أين كنت قلت توفيت أهلي فاشتغلت بها فقال هلا أخبرتنا فشهدناها قال ثم أردت أن أقوم فقال هل استحدثت امرأة فقلت يرحمك الله تعالى ومن يزوجني وما أملك الا درهمين أو ثلاثة فقال أنا فقلت وتفعل قال نعم فحمد الله تعالى وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم وزوجني على درهمين أو قال ثلاثة قال فقمت وما أدري ما أصنع من الفرح فصرت الى منزلي وجعلت أفكر ممن آخذ وممن أستدين فصليت المغرب وانصرفت الى منزلي فاسرجت وكنت صائما فقدمت عشائي لافطر وكان خبزا وزيتا واذا بابي يقرع فقلت من هذا قال سعيد قال فافكرت في كل انسان اسمه سعيد الا سعيد بن المسيب وذلك انه لم ير أربعين سنة الا بين داره والمسجد قال فخرجت اليه فاذا به سعيد بن المسيب فظننت انه قد بدا له فقلت يا أبا محمد لو أرسلت الي لاتيتك فقال لا أنت أحق أن تؤتى قلت فما تأمر قال انك كنت رجلا عزبا فتزوجت فكرهت أن أبيتك الليلة وحدك وهذه امرأتك واذا هي قائمة خلفه في طوله ثم أخذ بيدها فدفعها في الباب ورده فسقطت المرأة من الحياء فاستوثقت من الباب ثم تقدمت الى القصعة التي فيها الخبز والزيت فوضعتها في ظل السراج لكيلا تراه ثم صعدت السطح فرميت الجيران فجاؤني وقالوا ما شأنك قلت ويحكم زوجني سعيد بن المسيب ابنته اليوم وقد جاء بها الليلة على غفلة فقالوا أوسعيد زوجك قلت نعم قالوا وهي في الدار قلت نعم فنزلوا اليها وبلغ ذلك أمي فجاءت وقالت وجهي من وجهك حرام ان مسستها قبل أن أصلحها الى ثلاثة أيام قال فاقمت ثلاثا ثم دخلت بها فاذا هي من أجمل النساء وأحفظ الناس لكتاب الله تعالى وأعلمهم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعرفهم بحق الزوج قال فمكثت شهرا لا يأتيني سعيد ولا آتيه فلما كان بعد الشهر أتيته وهو في حلقته فسلمت عليه فرد علي السلام ولم يكلمني حتى تفرق الناس من المجلس فقال ما حال ذلك الانسان فقلت بخير يا أبا محمد على ما يحب الصديق ويكره العدو وقال ان رابك منه أمر فدونك والعصا فانصرفت الى منزلي فوجه الي بعشرين ألف درهم قال عبد الله بن سليمان وكانت بنت سعيد بن المسيب هذه قد خطبها منه عبد الملك

والعطاء فالصوفي في الابتداء يفنى عن الخلق ويرى الاشياء من الله حيث طالع ناصيته التوحيد وخرق الحجاب الذي منع الخلق عن صرف التوحيد فلا يثبت للخلق منعا ولا عطاء ويحجبه الحق عن الخلق فاذا ارتقى الى ذروة التوحيد يشكر الخلق بعد شكر الحق ويثبت لهم وجودا في المنع والعطاء بعد ان يرى المسبب أولا وذلك لسعة علمه وقوة معرفته يثبت الوسائط فلا يحجبه الخلق عن الحق كعامة المسلمين ولا يحجبه الحق عن الخلق كارباب الارادة والمبتدئين فيكون شكره للحق لانه المنعم والمعطي والمسبب ويشكر الخلق لانهم واسطة وسبب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أول ما يدعى الى الجنة الحامدون الذين يحمدون الله تعالى في السراء والضراء وقال عليه

ابن

ابن مروان لابنه الوليد حين ولاه العهد فأبى سعيد أن يزوجه فلم يزل عبد الملك يحتال على سعيد حتى ضربه مائة سوط فى يوم بارد وصب عليه جرة ماء وألبسه جبة صوف فاستعجال سعيد فى الزفاف تلك الليلة يعرفك غائلة الشهوة ووجوب المبادرة فى الدين الى تطفئة نارها بالنكاح رضى الله عنه ورحمه

﴿ بيان فضيلة من يخالف شهوة الفرج والعين ﴾

اعلم أن هذه الشهوة هى أغلب الشهوات على الانسان وأعصاها عند الهيجان على العقل الا أن مقتضاها قبيح يستحيا منه ويخشى من اقتحامه وامتناع أكثر الناس عن مقتضاها اما العجز أو لخوف أو لحياء أو لمحافظة على جسمه وليس فى شئ من ذلك ثواب فانه ايثار حظ من حظوظ النفس على حظ آخر نعم من العصمة أن لا يقدر ففى هذه العوائق فائدة وهى دفع الاثم فان من ترك الزنا اندفع عنه اثمه بأى سبب كان تركه وانما الفضل والثواب الجزيل فى تركه خوفا من الله تعالى مع القدرة وارتفاع الموانع وتيسر الاسباب لاسيما عند صدق الشهوة وهذه درجة الصديقين ولذلك قال صلى الله عليه وسلم من عشق فعف فكتم فمات فهو شهيد وقال عليه السلام سبعة يظلهم الله يوم القيامة فى ظل عرشه يوم لا ظل الا ظله وعد منهم رجلا دعته امرأة ذات جمال وحسب الى نفسها فقال انى أخاف الله رب العالمين وقصة يوسف عليه السلام وامتناعه من زليخا مع القدرة ومع رغبتها معروفة وقد أثنى الله تعالى عليه بذلك فى كتابه العزيز وهو امام لكل من وفق لمجاهدة الشيطان فى هذه الشهوة العظيمة وروى أن سليمان بن يسار كان من أحسن الناس وجها فدخلت عليه امرأة فسألته نفسه فامتنع عليها وخرج هاربا من منزله وتركها فيه قال سليمان فرأيت تلك الليلة فى المنام يوسف عليه السلام وكأنى أقول له أنت يوسف قال نعم أنا يوسف الذى هممت وأنت سليمان الذى لم تهم أشار به الى قوله تعالى ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه وعنه أيضا ما هو أعجب من هذا وذلك انه خرج من المدينة حاجا ومعه رفيق له حتى نزلا بالابواء فقام رفيقه وأخذ السفرة وانطلق الى السوق ليبتاع شيأ وجلس سليمان فى الخيمة وكان من أجمل الناس وجها فبصرت به اعرابية من قلة الجبل وانحدرت اليه حتى وقفت بين يديه وعليها البرقع والقفازان فاسفرت عن وجه لها كأنه فلقة قمر وقالت أهنئنى فظن انها تريد طعاما فقام الى فضلة السفرة ليعطيها فقالت لست أريد هذا انما أريد ما يكون من الرجل الى أهله فقال جهزك الى ابليس ثم وضع رأسه بين ركبتيه وأخذ فى النحيب فلم يزل يبكى فلما رأت منه ذلك سدلت البرقع على وجهها وانصرفت راجعة حتى بلغت أهلها وجاء رفيقه فرآه وقد انتفخت عيناه من البكاء وانقطع حلقه فقال ما يبكيك قال خير ذكرت صبيتى قال لا والله الا ان لك قصة انما عهدك بصبيتك منذ ثلاث أو نحوها فلم يزل به حتى أخبره خبر الاعرابية فوضع رفيقه السفرة وجعل يبكى بكاء شديدا فقال له سليمان وأنت ما يبكيك قال أنا أحق بالبكاء منك لانى أخشى ان لو كنت مكانك لما صبرت عنها فلم يزالا يبكيان فلما انتهى سليمان الى مكة فسعى وطاف ثم أتى الحجر فاحتبى بثوبه فأخذته عينه فنام واذا رجل وسيم طوال له شارة حسنة ورائحة طيبة فقال له سليمان رحمك الله من أنت قال له أنا يوسف قال يوسف الصديق قال نعم قال ان فى شأنك وشأن امرأة العزيز لعجبا فقال له يوسف شأنك وشأن صاحبة الابواء أعجب وروى عن عبد الله بن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى أواهم المبيت الى غار فدخلوا فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار فقالوا انه لا ينجيكم من هذه الصخرة الا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم فقال رجل منهم اللهم انك تعلم أنه كان لى أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما أهلا ولا مالا فنأى بى طلب الشجر يوما فلم أرح عليهما حتى ناما فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين فكرهت أن أغبق قبلهما أهلا ومالا فلبثت والقدح فى يدى أنتظر استيقاظهما حتى طلع الفجر والصبية يتضاغون حول قدمى فاستيقظا فشربا غبوقهما اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرجت شيأ لا يستطيعون الخروج منه وقال الآخر اللهم انك تعلم انه كان لى ابنة عم من أحب الناس الى فراودتها عن نفسها فامتنعت منى حتى ألمت بها سنة من السنين فجاءتنى فأعطيتها مائة وعشرين دينارا على أن تخلى بينى وبين نفسها ففعلت حتى اذا قدرت عليها قالت اتق الله ولا تفض الخاتم الا بحقه فتحرجت من الوقوع

السلام من عطس أو تحشا فقال الحمد لله على كل حال دفع الله تعالى بها عنه سبعين داء أهونها الجذام (وروى) جابر رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من عبد ينعم عليه بنعمة فحمد الله الا كان الحمد أفضل منها فقوله عليه السلام كان الحمد أفضل منها يحتمل أن يرضى الحق بها شكرا ويحتمل ان الحمد أفضل منها نعمة فتكون نعمة الحمد أفضل من النعمة التى حمد عليها فاذا شكروا المنعم الاول يشكرون الواسطة المنعم من الناس ويدعون له (روى) أنس رضى الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أفطر عند قوم قال أفطر عندكم الصائمون وأكل طعامكم الابرار ونزلت عليكم السكينة (أخبرنا) أبو زرعة عن أبيه قال أنا أحمد بن محمد بن أحمد البزار قال

عليها فانصرفت عنها وهي من أحب الناس الي وتركت الذهب الذي أعطيتها اللهم ان كنت فعلته ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة عنهم غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها وقال الثالث اللهم اني استأجرت أجراء وأعطيتهم أجورهم غير رجل واحد فانه ترك الاجر الذي له وذهب فنميت له أجره حتى كثرت منه الاموال فجاءني بعد حين فقال يا عبد الله أعطني أجري فقلت كل ما ترى من أجرك من الابل والبقر والغنم والرقيق فقال يا عبد الله أتهزأ بي فقلت لا أستهزئ بك فخذه فاستاقه وأخذه كله ولم يترك منه شيأ اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون فهذا أفضل من تمكن من قضاء هذه الشهوة فعف وقريب منه من تمكن من قضاء شهوة العين فان العين مبدأ الزنا فحفظها مهم وهو عسر من حيث انه قد يستهان به ولا يعظم الخوف منه والآفات كلها منه تنشأ والنظرة الاولى اذا لم تقصد لا يؤاخذ بها والمعاودة يؤاخذ بها قال صلى الله عليه وسلم لك الاولى وعليك الثانية أي النظرة وقال العلاء بن زياد لا تتبع بصرك رداء المرأة فان النظر يزرع في القلب شهوة وقلما يخلو الانسان في ترداده عن وقوع البصر على النساء والصبيان فهما تخايل اليه الحسن تقاضى الطبع المعاودة وعنده ينبغي أن يقرر في نفسه ان هذه المعاودة عين الجهل فانه ان حقق النظر فاستحسن ثارت الشهوة وعجز عن الوصول فلا يحصل له الا التحسر وان استقبح لم يلتذ وتألم لانه قصد الالتذاذ فقد فعل ما آلمه فلا يخلو في كلتا حالتيه عن معصية وعن تألم وعن تحسر ومهما حفظ العين بهذا الطريق اندفع عن قلبه كثير من الآفات فان أخطأت عينه وحفظ الفرج مع التمكن فذلك يستدعي غاية القوة ونهاية التوفيق فقد روي عن أبي بكر بن عبد الله المزني أن قصابا أولع بجارية لبعض جيرانه فأرسلها أهلها في حاجة لهم الى قرية أخرى فتبعها وراودها عن نفسها فقالت له لا تفعل لانا أشد حبا لك منك لي ولكني أخاف الله قال فأنت تخافينه وأنا لا أخافه فرجع تائبا فأصابه العطش حتى كاد يهلك فاذا هو برسول لبعض أنبياء بني اسرائيل فسأله فقال مالك قال العطش قال تعال حتى ندعو الله بأن تظلنا سحابة حتى ندخل القرية قال مالي من عمل صالح فأدعو فادع أنت قال أنا أدعو وأمن أنت على دعائي فدعا الرسول وأمن هو فأظلتهما سحابة حتى انتهيا الى القرية فأخذ القصاب الى مكانه فمالت السحابة معه فقال له الرسول زعمت أن ليس لك عمل صالح وأنا الذي دعوت وأنت الذي أمنت فأظلتنا سحابة ثم تبعتك لتخبرني بأمرك فأخبره فقال الرسول ان التائب عند الله تعالى بمكان ليس أحد من الناس بمكانه وعن أحمد بن سعيد العابد عن أبيه قال كان عندنا بالكوفة شاب متعبد لازم المسجد الجامع لا يكاد يفارقه وكان حسن الوجه حسن القامة حسن السمت فنظرت اليه امرأة ذات جمال وعقل فشغفت به وطال عليها ذلك فلما كان ذات يوم وقفت له على الطريق وهو يريد المسجد فقالت له يا فتى اسمع مني كلمات أكلمك بها ثم اعمل ما شئت فمضى ولم يكلمها ثم وقفت له بعد ذلك على طريقه وهو يريد منزله فقالت له يا فتى اسمع مني كلمات أكلمك بها فأطرق مليا وقال لها هذا موقف تهمة وأنا أكره أن أكون للتهمة موضعا فقالت له والله ما وقفت موقفي هذا جهالة مني بأمرك ولكن معاذ الله أن يتشوف العباد الى مثل هذا مني والذي حملني على أن لقيتك في مثل هذا الامر بنفسي لمعرفتي ان القليل من هذا عند الناس كثير وأنتم معاشر العباد على مثال القوارير أدنى شئ يعيبها وجملة ما أقول لك ان جوارحي كلها مشغولة بك فالله الله في أمري وأمرك قال فمضى الشاب الى منزله وأراد أن يصلي فلم يعقل كيف يصلي فأخذ قرطاسا وكتب كتابا ثم خرج من منزله واذا بالمرأة واقفة في موضعها فألقى الكتاب اليها ورجع الى منزله وكان فيه بسم الله الرحمن الرحيم اعلمي أيتها المرأة أن الله عز وجل اذا عصاه العبد حلم فاذا عاد الى المعصية مرة أخرى ستره فاذا لبس لها ملابسها غضب الله تعالى لنفسه غضبة تضيق منها السموات والارض والجبال والشجر والدواب فمن ذا يطيق غضبه فان كان ما ذكرت باطلا فاني أذكرك يوما تكون السماء فيه كالمهل وتصير الجبال كالعهن وتجثو الامم لصولة الجبار العظيم واني والله قد ضعفت عن اصلاح نفسي فكيف باصلاح غيري وان كان ما ذكرت حقا فاني أدلك على طبيب هدى يداوي الكلوم الممرضة والاوجاع المرمضة ذلك الله رب العالمين فاقصديه بصدق المسألة فاني مشغول عنك بقوله تعالى وأنذرهم يوم الآزفة اذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور فأين المهرب من هذه الآية ثم جاءت بعد

أنا أبو حفص عمر بن ابراهيم قال ثنا عبد الله ابن محمد البغوي قال أنا عمرو بن زرارة قال ثنا عيينة بن يونس عن موسى بن عبيدة عن محمد بن ثابت عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قال لاخيه جزاك الله خيرا فقد أبلغ في الثناء * ومن أخلاق الصوفية بذل الجاه للاخوان والمسلمين كافة فاذا كان الرجل وافر العلم بصيرا بعيوب النفس وآفاتها وشهواتها فليتوصل الى قضاء حوائج المسلمين ببذل الجاه والمعاونة في اصلاح ذات البين وفي هذا المعنى يحتاج الى مزيد علم لانها أمور تتعلق بالخلق ومخالطتهم ومعاشرتهم ولا يصلح ذلك الا لصوفي تام الحال عالم رباني (روي) عن زيد بن أسلم أنه قال كان نبي من الانبياء يأخذ بركاب الملك يتألفه بذلك لقضاء حوائج الناس (وقال

ذلك بأيام فوقفت له على الطريق فلما رآها من بعيد أراد الرجوع لمنزله كيلا يراها فقالت يافتى لاترجع فلا كان الملتقى بعد هذا اليوم أبدا الاغدا بين يدى الله تعالى ثم بكت بكاء شديدا وقالت أسأل الله الذى بيده مفاتيح قلبك أن يسهل ماقد عسر من أمرك ثم انها تبعته وقالت امنن على بموعظة أحملها عنك وأوصنى بوصية أعمل عليها فقال لها أوصيك بحفظ نفسك من نفسك وأذكرك قوله تعالى وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ماجرحتم بالنهار قال فأطرقت وبكت بكاء شديدا أشد من بكائها الاول ثم انها أفاقت ولزمت بيتها وأخذت فى العبادة فلم تزل على ذلك حتى ماتت كمدا فكان الفتى يذكرها بعد موتها ثم يبكى فيقال له مم بكاؤك وأنت قد أيأستها من نفسك فيقول انى قد ذبحت طمعها فى أول أمرها وجعلت قطيعتها ذخيرة لى عند الله تعالى فانا أستحى منه ان أسترد ذخيرة ادخرتها عنده تعالى * تم كتاب كسر الشهوتين بحمد الله تعالى وكرمه يتلوه ان شاء الله تعالى كتاب آفات اللسان والحمد لله أولا وآخرا وظاهرا وباطنا وصلاته على سيدنا محمد خير خلقه وعلى كل عبد مصطفى من أهل الارض والسماء وسلم تسليما كثيرا

﴿ كتاب آفات اللسان وهو الكتاب الرابع من ربع المهلكات من كتاب احياء علوم الدين ﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الذى أحسن خلق الانسان وعدله وألهمه نور الايمان فزينه به وجمله وعلمه البيان فقدمه به وفضله وأفاض على قلبه خزائن العلوم فاكمله ثم أرسل عليه سترا من رحمته وأسبله ثم أمده بلسان يترجم به عما حواه القلب وعقله ويكشف عنه ستره الذى أرسله وأطلق بالحق مقوله وأفصح بالشكر عما أولاه وخوله من علم حصله ونطق سهله وأشهد أن لا اله الا الله وحده لاشريك له وأن محمدا عبده ورسوله الذى أكرمه وبجله ونبيه الذى أرسله بكتاب أنزله وأسمى فضله وبين سبله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن قبله ما كبر الله عبد وهلله (أما بعد) فان اللسان من نعم الله العظيمة ولطائف صنعه الغريبة فانه صغير جرمه عظيم طاعته وجرمه اذ لايستبين الكفر والايمان الا بشهادة اللسان وهما غاية الطاعة والعصيان ثم انه مامن موجود أو معدوم خالق أو مخلوق متخيل أو معلوم مظنون أو موهوم الا واللسان يتناوله ويتعرض له باثبات أو نفى فان كل مايتناوله العلم يعرب عنه اللسان اما بحق أو باطل ولاشئ الا والعلم متناول له وهذه خاصية لاتوجد فى سائر الاعضاء فان العين لاتصل الى غير الالوان والصور والآذان لاتصل الى غير الاصوات واليد لاتصل الى غير الاجسام وكذا سائر الاعضاء واللسان رحب الميدان ليس له مرد ولا لمجاله منتهى وحد له فى الخير مجال رحب وله فى الشر ذيل سحب فمن أطلق عذبة اللسان وأهمله مرخى العنان سلك به الشيطان فى كل ميدان وساقه الى شفا جرف هار الى أن يضطره الى البوار ولايكب الناس فى النار على مناخرهم الا حصائد ألسنتهم ولاينجو من شر اللسان الا من قيده بلجام الشرع فلا يطلقه الا فيما ينفعه فى الدنيا والآخرة ويكفه عن كل مايخشى غائلته فى عاجله وآجله وعلم مايحمد فيه اطلاق اللسان أو يذم غامض عزيز والعمل بمقتضاه على من عرفه ثقيل عسير وأعصى الاعضاء على الانسان اللسان فانه لاتعب فى اطلاقه ولامؤنة فى تحريكه وقد تساهل الخلق فى الاحتراز عن آفاته وغوائله والحذر من مصايده وحبائله وانه أعظم آلة الشيطان فى استغواء الانسان ونحن بتوفيق الله وحسن تدبيره نفصل مجامع آفات اللسان ونذكرها واحدة واحدة بحدودها وأسبابها وغوائلها ونعرف طريق الاحتراز عنها ونورد ماورد من الاخبار والآثار فى ذمها فنذكر أولا فضل الصمت ونردفه بذكر آفة الكلام فيما لايعنى ثم آفة فضول الكلام ثم آفة الخوض فى الباطل ثم آفة المراء والجدال ثم آفة الخصومة ثم آفة التقعر فى الكلام بالتشدق وتكلف السجع والفصاحة والتصنع فيه وغير ذلك مما جرت به عادة المتفاصحين المدعين للخطابة ثم آفة الفحش والسب وبذاءة اللسان ثم آفة اللعن اما لحيوان أو جماد أو انسان ثم آفة الغناء بالشعر وقد ذكرنا فى كتاب السماع مايحرم من الغناء ومايحل فلا نعيده ثم آفة المزاح ثم آفة السخرية والاستهزاء ثم آفة افشاء السر ثم آفة الوعد الكاذب ثم آفة الكذب فى القول واليمين ثم بيان التعاريض فى الكذب ثم آفة الغيبة ثم آفة النميمة ثم آفة ذى اللسانين الذى يتردد بين المتعادين فيكلم كل واحد

عطاء) لان يرائى الرجل سنين فيكتسب جاها يعيش فيه مؤمن أتم له من أن يخلص العمل لنجاة نفسه وهذا باب غامض لايؤمن ان يفتتن به خلق من الجهال المدعين ولايصلح هذا الا لعبد اطلع الله على باطنه فعلم منه أن لارغبة له فى شئ من الجاه والمال ولو أن ملوك الارض وقفوا فى خدمته ماطغى ولا استطال ولو دخل الى أتون بوقد ماظهرت نفسه بصريح الانكار لهذا الحال وهذا لايصلح الا لآحاد من الخلق وأفراد من الصادقين ينسلخون عن اراداتهم واختيارهم ويكاشفهم الله تعالى بمراده منهم فيدخلون فى الاشياء بمراد الله تعالى فاذا علموا أن الحق يريد منهم المخالطة وبذل الجاه يدخلون فى ذلك بغيبة صفات النفس وهذه الاقوام ماتواثم حشروا وأحكموا مقام الفناء ثم رقوا الى

بكلام يوافقه ثم آفة المدح ثم آفة الغفلة عن دقائق الخطا في فحوى الكلام لاسيما فيما يتعلق بالله وصفاته و يرتبط بأصول الدين ثم آفة سؤال العوام عن صفات الله عز وجل وعن كلامه وعن الحروف أهي قديمة أو محدثة وهي آخر الآفات وما يتعلق بذلك وجملتها عشرون آفة ونسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه

﴿ بيان عظيم خطر اللسان وفضيلة الصمت ﴾

اعلم أن خطر اللسان عظيم ولا نجاة من خطره الا بالصمت فلذلك مدح الشرع الصمت وحث عليه فقال صلى الله عليه وسلم من صمت نجا وقال عليه السلام الصمت حكم وقليل فاعله أي حكمة وحزم و روى عبد الله بن سفيان عن أبيه قال قلت يارسول الله أخبرني عن الاسلام بأمر لا أسأل عنه أحدا بعدك قال قل آمنت بالله ثم استقم قال قلت فما أتقي فأومأ بيده الى لسانه وقال عقبة بن عامر قلت يارسول الله ما النجاة قال أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك وقال سهل بن سعد الساعدي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يتكفل لي بما بين لحييه و رجليه أتكفل له بالجنة وقال صلى الله عليه وسلم من وقي شر قبقبه وذبذبه ولقلقه فقد وقي الشر كله القبقب هو البطن والذبذب الفرج واللقلق اللسان فهذه الشهوات الثلاث بها يهلك أكثر الخلق ولذلك اشتغلنا بذكر آفات اللسان لما فرغنا من ذكر آفة الشهوتين البطن والفرج وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكبر ما يدخل الناس الجنة فقال تقوى الله وحسن الخلق وسئل عن أكبر ما يدخل النار فقال الاجوفان الفم والفرج فيحتمل أن يكون المراد بالفم آفات اللسان لانه محله و يحتمل أن يكون المراد به البطن لانه منفذه فقد قال معاذ بن جبل قلت يارسول الله أنؤاخذ بما نقول فقال ثكلتك أمك يا ابن جبل وهل يكب الناس في النار على مناخرهم الا حصائد ألسنتهم وقال عبد الله الثقفي قلت يارسول الله حدثني بأمر أعتصم به فقال قل ربي الله ثم استقم قلت يارسول الله ما أخوف ما تخاف علي فاخذ بلسانه وقال هذا و روى أن معاذا قال يارسول الله أي الاعمال أفضل فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لسانه ثم وضع عليه أصبعه وقال أنس بن مالك قال صلى الله عليه وسلم لا يستقيم ايمان العبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ولا يدخل الجنة رجل لا يأمن جاره بوائقه وقال صلى الله عليه وسلم من سره أن يسلم فليلزم الصمت وعن سعيد بن جبير مرفوعا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا أصبح ابن آدم أصبحت الاعضاء كلها تذكر اللسان أي تقول اتق الله فينا فانك ان استقمت استقمنا وان اعوججت اعوججنا و روى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى أبا بكر الصديق رضي الله عنه وهو يمد لسانه بيده فقال له ما تصنع يا خليفة رسول الله قال هذا أوردني الموارد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ليس شئ من الجسد الا يشكو الى الله اللسان على حدته وعن ابن مسعود أنه كان على الصفا يلبي و يقول يا لسان قل خيرا تغنم واسكت عن شر تسلم من قبل أن تندم فقيل له يا أبا عبد الرحمن أهذا شئ تقوله أو شئ سمعته فقال لا بل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان أكثر خطايا ابن آدم في لسانه وقال ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كف لسانه ستر الله عورته ومن ملك غضبه وقاه الله عذابه ومن اعتذر الى الله قبل الله عذره و روى أن معاذ بن جبل قال يارسول الله أوصني قال اعبد الله كانك تراه وعد نفسك في الموتى وان شئت أنبأتك بما هو أملك لك من هذا كله وأشار بيده الى لسانه وعن صفوان بن سليم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن الصمت وحسن الخلق وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت وقال الحسن ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال رحم الله عبدا تكلم فغنم أو سكت فسلم وقيل لعيسى عليه السلام دلنا على عمل ندخل به الجنة قال لا تنطقوا أبدا قالوا لا نستطيع ذلك فقال فلا تنطقوا الا بخير وقال سليمان بن داود عليهما السلام ان كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب وعن البراء بن عازب قال جاء اعرابي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال دلني على عمل يدخلني الجنة قال أطعم الجائع واسق الظمآن وأمر بالمعروف وانه عن المنكر فان لم تطق فكف لسانك الا من خير وقال صلى الله عليه وسلم اخزن لسانك الا من خير فانك بذلك تغلب الشيطان وقال صلى الله عليه وسلم ان الله عند لسان كل قائل فليتق الله امرؤ علم ما يقول وقال عليه السلام اذا رأيتم المؤمن صموتا

مقام البقاء فيكون لهم في كل مدخل ومخرج برهان و بيان واذن من الله تعالى فهم على بصيرة من ربهم وهذا ليس فيهم ارتياب لصاحب قلب مكاشف بصريح المراد في خفي الخطاب فيأخذ وقته أبدا من الاشياء ولم تأخذ الاشياء من وقته ولا يكون في قطر من الاقطار الاواحد متحقق بهذا الحال (قال) أبو عثمان الحيري لا يكمل الرجل حتى يستوي قلبه في أربعة أشياء المنع والعطاء والعز والذل ولمثل هذا الرجل يصلح بذل الجاه والدخول فيما ذكرناه (قال) سهل بن عبد الله لا يستحق الانسان الرياسة حتى تجتمع فيه ثلاث خصال يصرف جهله عن الناس و يحتمل جهل الناس و يترك ما في أيديهم و يبذل ما في يده لهم وهذه الرياسة ليست عين

وقو رافادنوا منه فانه يلقن الحكمة وقال ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس ثلاثة غانم وسالم وشاحب فالغانم الذي يذكر الله تعالى والسالم الساكت والشاحب الذي يخوض في الباطل وقال عليه السلام ان لسان المؤمن وراء قلبه فاذا أراد أن يتكلم بشئ تدبره بقلبه ثم أمضاه بلسانه وان لسان المنافق أمام قلبه فاذاهم بشئ أمضاه بلسانه ولم يتدبره بقلبه وقال عيسى عليه السلام العبادة عشرة أجزاء تسعة منها في الصمت وجزء في الفرار من الناس وقال نبينا صلى الله عليه وسلم من كثر كلامه كثر سقطه ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه ومن كثرت ذنوبه كانت النار أولى به (الآثار) كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يضع حصاة في فيه يمنع بها نفسه عن الكلام وكان يشير الى لسانه ويقول هذا الذي أوردني الموارد وقال عبد الله بن مسعود والله الذي لا اله الا هو ما شئ أحوج الى طول سجن من لسان وقال طاوس لساني سبع ان أرسلته أكلني وقال وهب بن منبه في حكمة آل داود حق على العاقل أن يكون عارفا بزمانه حافظا للسانه مقبلا على شأنه وقال الحسن ما عقل دينه من لم يحفظ لسانه وقال الاوزاعي كتب الينا عمر بن عبد العزيز رحمه الله أما بعد فان من أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير ومن عد كلامه من عمله قل كلامه الا فيما يعنيه وقال بعضهم الصمت يجمع للرجل فضيلتين السلامة في دينه والفهم عن صاحبه وقال محمد بن واسع لمالك بن دينار يا أبا يحيى حفظ اللسان أشد على الناس من حفظ الدينار والدرهم وقال يونس بن عبيد ما من الناس أحد يكون منه لسانه على بال الا رأيت صلاح ذلك في سائر عمله وقال الحسن تكلم قوم عند معاوية رحمه الله والاحنف بن قيس ساكت فقال له مالك يا أبا بحر لا تتكلم فقال أخشى الله ان كذبت وأخشاك ان صدقت وقال أبو بكر بن عياش اجتمع أربعة ملوك ملك الهند وملك الصين وكسرى وقيصر فقال أحدهم أنا أندم على ما قلت ولا أندم على ما لم أقل وقال الآخر اني اذا تكلمت بكلمة ملكتني ولم أملكها واذا لم أتكلم بها ملكتها ولم تملكني وقال الثالث عجبت للمتكلم ان رجعت عليه الكلمة ضرته وان لم ترجع لم تنفعه وقال الرابع أنا على رد ما لم أقل أقدر مني على رد ما قلت وقيل أقام المنصور بن المعتز لم يتكلم بكلمة بعد العشاء الآخرة أربعين سنة وقيل ما تكلم الربيع بن خيثم بكلام الدنيا عشرين سنة وكان اذا أصبح وضع دواة وقرطاسا وقلما فكل ما تكلم به كتبه ثم يحاسب نفسه عند المساء فان قلت فهذا الفضل الكبير للصمت ما سببه فاعلم ان سببه كثرة آفات اللسان من الخطأ والكذب والغيبة والنميمة والرياء والنفاق والفحش والمراء وتزكية النفس والخوض في الباطل والخصومة والفضول والتحريف والزيادة والنقصان وايذاء الخلق وهتك العورات فهذه آفات كثيرة وهي سباقة الى اللسان لا تثقل عليه ولها حلاوة في القلب وعليها بواعث من الطبع ومن الشيطان والخائض فيها قلما يقدر أن يمسك اللسان فيطلقه بما يحب ويمسكه ويكفه عما لا يحب فان ذلك من غوامض العلم كما سيأتي تفصيله ففي الخوض خطر وفي الصمت سلامة فلذلك عظمت فضيلته هذا مع ما فيه من جمع الهم ودوام الوقار والفراغ للفكر والذكر والعبادة والسلامة من تبعات القول في الدنيا ومن حسابه في الآخرة فقد قال الله تعالى ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد ويدلك على فضل لزوم الصمت أمر وهو أن الكلام أربعة أقسام قسم هو ضرر محض وقسم هو نفع محض وقسم فيه ضرر ومنفعة وقسم ليس فيه ضرر ولا منفعة * أما الذي هو ضرر محض فلا بد من السكوت عنه وكذلك ما فيه ضرر ومنفعة لا تفي بالضرر وأما ما لا منفعة فيه ولا ضرر فهو فضول والاشتغال به تضييع زمان وهو عين الخسران فلا يبقى الا القسم الرابع فقد سقط ثلاثة أرباع الكلام وبقي ربع وهذا الربع فيه خطر اذ يمتزج بما فيه اثم من دقائق الرياء والتصنع والغيبة وتزكية النفس وفضول الكلام امتزاجا يخفى دركه فيكون الانسان به مخاطرا ومن عرف دقائق آفات اللسان على ما سنذكره علم قطعا أن ما ذكره صلى الله عليه وسلم هو فصل الخطاب حيث قال من صمت نجا فلقد أوتي والله جواهر الحكم قطعا وجوامع الكلم ولا يعرف ما تحت آحاد كلماته من بحار المعاني الا خواص العلماء وفيما سنذكره من الآفات وعسر الاحتراز عنها ما يعرفك حقيقة ذلك ان شاء الله تعالى ونحن الآن نعد آفات اللسان ونبتدئ بأخفها ونترقى الى الاغلظ قليلا ونؤخر الكلام في الغيبة والنميمة والكذب فان النظر فيها أطول وهي عشرون آفة فاعلم ذلك ترشد بعون الله تعالى

الرياسة التي زهد فيها وتعين الزهد فيها اضرورة صدقه وسلوكه وانما هذه رياسة أقامها الحق لصلاح خلقه فهو فيها بالله يقوم بواجب حقها وشكر نعمتها الله تعالى

﴿الباب الحادي والثلاثون في ذكر الادب ومكانه من التصوف﴾

روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال أدبني ربي فأحسن تأديبي فالادب تهذيب الظاهر والباطن فاذا تهذب ظاهر العبد وباطنه صار صوفيا أديبا وانما سميت المأدبة مأدبة لاجتماعها على أشياء ولا يتكامل الادب في العبد الا بتكامل مكارم الاخلاق ومكارم الاخلاق مجموعها من تحسين الخلق فالخلق صورة الانسان والخلق معناه وقال بعضهم الخلق لا سبيل الى تغييره كالخلق وقد ورد فرغ

﴿ الآفة الاولى الكلام فيما لا يعنيك ﴾

اعلم ان أحسن أحوالك أن تحفظ ألفاظك من جميع الآفات التي ذكرناها من الغيبة والنميمة والكذب والمراء والجدال وغيرها وتتكلم فيما هو مباح لاضرر عليك فيه ولا على مسلم أصلا الا أنك تتكلم بما أنت مستغن عنه ولا حاجة بك اليه فانك مضيع به زمانك ومحاسب على عمل لسانك وتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير لانك لو صرفت زمان الكلام الى الفكر ربما كان ينفتح لك من نفحات رحمة الله عند الفكر ما يعظم جدواه ولو هللت الله سبحانه وذكرته وسبحته لكان خيرا لك فكم من كلمة يبنى بها قصر في الجنة ومن قدر على أن يأخذ كنزا من الكنوز فأخذ مكانه مدرة لا ينتفع بها كان خاسرا خسرانا مبينا وهذا مثال من ترك ذكر الله تعالى واشتغل بمباح لا يعنيه فانه وان لم يأثم فقد خسر حيث فاته الربح العظيم بذكر الله تعالى فان المؤمن لا يكون صمته الا فكرا ونظره الا عبرة ونطقه الا ذكرا هكذا قال النبي صلى الله عليه وسلم بل رأس مال العبد أوقاته ومهما صرفها الى ما لا يعنيه ولم يدخر بها ثوابا في الآخرة فقد ضيع رأس ماله ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه بل ورد ما هو أشد من هذا قال أنس استشهد غلام منا يوم أحد فوجدنا على بطنه حجرا مربوطا من الجوع فمسحت أمه عن وجهه التراب وقالت هنيئا لك الجنة يا بني فقال صلى الله عليه وسلم وما يدريك لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه ويمنع ما لا يضره وفي حديث آخر ان النبي صلى الله عليه وسلم فقد كعبا فسأل عنه فقالوا مريض فخرج يمشي حتى أتاه فلما دخل عليه قال أبشر يا كعب فقالت أمه هنيئا لك الجنة يا كعب فقال صلى الله عليه وسلم من هذه المتألية على الله قال هي أمي يا رسول الله قال وما يدريك يا أم كعب لعل كعبا قال ما لا يعنيه أو منع ما لا يغنيه ومعناه انه انما تتهيأ الجنة لمن لا يحاسب ومن تكلم فيما لا يعنيه حوسب عليه وان كان كلامه مباحا فلا تتهيأ الجنة له مع المناقشة في الحساب فانه نوع من العذاب وعن محمد بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أول من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة فدخل عبد الله بن سلام فقام اليه ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبروه بذلك وقالوا أخبرنا بأوثق عمل في نفسك ترجو به فقال اني لضعيف وان أوثق ما أرجو به الله سلامة الصدر وترك ما لا يعنيني وقال أبو ذر قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن ثقيل في الميزان قلت بلى يا رسول الله قال هو الصمت وحسن الخلق وترك ما لا يعنيك وقال مجاهد سمعت ابن عباس يقول خمس لهن أحب الي من الدهم الموقوفة لا تتكلم فيما لا يعنيك فانه فضل ولا آمن عليك الوزر ولا تتكلم فيما يعنيك حتى تجد له موضعا فانه رب متكلم في أمر يعنيه قد وضعه في غير موضعه فعنت ولا تمار حليما ولا سفيها فان الحليم يقليك والسفيه يؤذيك واذكر أخاك اذا غاب عنك بما تحب أن يذكرك به واعفه مما تحب أن يعفيك منه وعامل أخاك بما تحب أن يعاملك به واعمل عمل رجل يعلم أنه مجازى بالاحسان مأخوذ بالاجترام وقيل للقمان الحكيم ما حكمتك قال لا أسأل عما كفيت ولا أتكلف ما لا يعنيني وقال مورق العجلي أمر أنا في طلبه منذ عشرين سنة لم أقدر عليه ولست بتارك طلبه قالوا وما هو قال السكوت عما لا يعنيني وقال عمر رضي الله عنه لا تتعرض لما لا يعنيك واعتزل عدوك واحذر صديقك من القوم الا الامين ولا أمين الا من خشي الله تعالى ولا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره ولا تطلعه على سرك واستشر في أمرك الذين يخشون الله تعالى وحد الكلام فيما لا يعنيك أن تتكلم بكلام لو سكت عنه لم تأثم ولم تستضر به في حال ولا مال مثاله أن تجلس مع قوم فتذكر لهم أسفارك وما رأيت فيها من جبال وأنهار وما وقع لك من الوقائع وما استحسنته من الاطعمة والثياب وما تعجبت منه من مشايخ البلاد ووقائعهم فهذه أمور لو سكت عنها لم تأثم ولم تستضر واذا بالغت في الجهاد حتى لم يمتزج بحكايتك زيادة ولا نقصان ولا تزكية نفس من حيث التفاخر بمشاهدة الاحوال العظيمة ولا اغتياب لشخص ولا مذمة لشيء مما خلقه الله تعالى فانت مع ذلك كله مضيع زمانك وأنى تسلم من الآفات التي ذكرناها ومن جملتها أن تسأل غيرك عما لا يعنيك فانت بالسؤال مضيع وقتك وقد ألجأت صاحبك أيضا بالجواب الى التضييع هذا اذا كان الشيء مما لا يتطرق الى السؤال عنه آفة وأكثر الاسئلة فيها آفات فانك تسأل غيرك عن عبادته مثلا فتقول له هل أنت صائم فان قال نعم كان مظهرا لعبادته فيدخل عليه الرياء وان لم يدخل سقطت

ربكم من الخلق والخلق والرزق والاجل وقد قال تعالى لا تبديل لخلق الله والاصح أن تبديل الاخلاق ممكن مقدور عليه بخلاف الخلق وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال حسنوا أخلاقكم وذلك ان الله تعالى خلق الانسان وهيأه لقبول الصلاح والفساد وجعله أهلا للادب ومكارم الاخلاق ووجود الاهلية فيه كوجود النار في الزناد ووجود النخل في النوى ثم ان الله تعالى بقدرته ألهم الانسان ومكنه من اصلاحه بالتربية الى أن يصير النوى نخلا والزناد بالعلاج حتى تخرج منه نار وكما جعل في نفس الانسان صلاحية الخير جعل فيها صلاحية الشر حال الاصلاح والافساد فقال سبحانه وتعالى ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها

عبادته

عبادته من ديوان السر وعبادة السر تفضل عبادة الجهر بدرجات وان قال لا كان كاذبا وان سكت كان مستحقرا لك وتأذيت به وان احتال لمدافعة الجواب افتقر الى جهد وتعب فيه فقد عرضته بالسؤال اما للرياء أو للكذب أو للاستحقار أو للتعب فى حيلة الدفع وكذلك سؤالك عن سائر عباداته وكذلك سؤالك عن المعاصى وعن كل ما يخفيه ويستحى منه وسؤالك عما حدث به غيرك فتقول له ماذا تقول وفيم أنت وكذلك ترى انسانا فى الطريق فتقول من أين فربما يمنعه مانع من ذكره فان ذكره تأذى به واستحيا وان لم يصدق وقع فى الكذب وكنت السبب فيه وكذلك تسأل عن مسألة لا حاجة بك اليها والمسؤل ربما لم تسمح نفسه بأن يقول لا أدرى فيجيب عن غير بصيرة ولست أعنى بالتكلم فيما لا يعنى هذه الاجناس فان هذا يتطرق اليه اثم أو ضرر وانما مثال ما لا يعنى ما روى أن لقمان الحكيم دخل على داود عليه السلام وهو يسرد درعا ولم يكن رآها قبل ذلك اليوم فجعل يتعجب مما رأى فأراد أن يسأله عن ذلك فمنعته حكمته فأمسك نفسه ولم يسأله فلما فرغ قام داود ولبسه ثم قال نعم الدرع للحرب فقال لقمان الصمت حكم وقليل فاعله أى حصل العلم به من غير سؤال فاستغنى عن السؤال وقيل انه كان يتردد اليه سنة وهو يريد أن يعلم ذلك من غير سؤال فهذا وأمثاله من الاسئلة اذا لم يكن فيه ضرر وهتك ستر وتوريط فى رياء وكذب فهو مما لا يعنى وتركه من حسن الاسلام فهذا حده * وأما سببه الباعث عليه فالحرص على معرفة ما لا حاجة به اليه أو المباسطة بالكلام على سبيل التودد أو تزجية الاوقات بحكايات أحوال لا فائدة فيها وعلاج ذلك كله أن يعلم أن الموت بين يديه وانه مسؤل عن كل كلمة وان أنفاسه رأس ماله وان لسانه شبكة يقدر على أن يقتنص بها الحور العين فاهماله ذلك وتضييعه خسران مبين هذا علاجه من حيث العلم واما من حيث العمل فالعزلة أو أن يضع حصاة فى فيه وأن يلزم نفسه السكوت بها عن بعض ما يعنيه حتى يعتاد اللسان ترك ما لا يعنيه وضبط اللسان فى هذا على غير المعتزل شديد جدا

﴿ الآفة الثانية فضول الكلام ﴾

وهو أيضا مذموم وهذا يتناول الخوض فيما لا يعنى والزيادة فيما يعنى على قدر الحاجة فان من يعنيه أمر يمكنه أن يذكره بكلام مختصر ويمكنه أن يجسمه ويقرره ويكرره ومهما تأدى مقصوده بكلمة واحدة فذكر كلمتين فالثانية فضول أى فضل عن الحاجة وهو أيضا مذموم لما سبق وان لم يكن فيه اثم ولا ضرر قال عطاء بن أبى رباح ان من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام وكانوا يعدون فضول الكلام ما عدا كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أمرا بمعروف أو نهيا عن منكر أو تنطق بحاجتك فى معيشتك التى لا بد لك منها أتنكرون أن عليكم حافظين كراما كاتبين عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد أما يستحى أحدكم اذا نشرت صحيفته التى أملاها صدر نهاره كان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه وعن بعض الصحابة قال ان الرجل ليكلمنى بالكلام لجوابه أشهى الى من الماء البارد الى الظمآن فأترك جوابه خيفة أن يكون فضولا وقال مطرف ليعظم جلال الله فى قلوبكم فلا تذكروه عند مثل قول أحدكم للكلب والحمار اللهم اخزه وما أشبه ذلك * واعلم أن فضول الكلام لا ينحصر بل المهم محصور فى كتاب الله تعالى قال الله عز وجل لا خير فى كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس وقال صلى الله عليه وسلم طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه وأنفق الفضل من ماله فانظر كيف قلب الناس الامر فى ذلك فامسكوا فضل المال وأطلقوا فضل اللسان وعن مطرف بن عبد الله عن أبيه قال قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رهط من بنى عامر فقالوا أنت والدنا وأنت سيدنا وأنت أفضلنا علينا فضلا وأنت أطولنا علينا طولا وأنت الجفنة الغراء وأنت وأنت فقال قولوا قولكم ولا يستهوينكم الشيطان اشارة الى أن اللسان اذا أطلق بالثناء ولو بالصدق فيخشى أن يستهويه الشيطان الى الزيادة المستغنى عنها وقال ابن مسعود أنذركم فضول كلامكم حسب امرئ من الكلام ما بلغ به حاجته وقال مجاهد ان الكلام ليكتب حتى ان الرجل ليسكت ابنه فيقول أبتاع لك كذا وكذا فيكتب كذابا وقال الحسن يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ووكل بها ملكان كريمان يكتبان أعمالك فاعمل ما شئت وأكثر أو أقلل وروى أن سليمان عليه السلام بعث بعض عفاريته وبعث نفرا ينظرون ما يقول ويخبرونه فأخبروه بانه مر

فتسوية ما بصلاحيتها للشيئين جميعا ثم قال عز وجل قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها فاذا زكت النفس تدبرت بالعقل واستقامت أحوالها الظاهرة والباطنة وتهذبت الاخلاق وتكونت الآداب فالادب استخراج ما فى القوة الى الفعل وهذا يكون لمن ركبت السجية الصالحة فيه والسجية فعل الحق لا قدرة للبشر على تكوينها كتكون النار فى الزناد اذ هو فعل الله المحض واستخراجه بكسب الآدمى فهكذا الآداب منبعها السجايا الصالحة والمنح الالهية ولما هيأ الله تعالى بواطن الصوفية بتكميل السجايا فيها توصلوا بحسن الممارسة والرياضة الى استخراج ما فى النفوس مركوز بخلق الله تعالى الى الفعل فصاروا مؤدبين مهذبين والآداب تقع فى حق

فى السوق فرفع رأسه الى السماء ثم نظر الى الناس وهز رأسه فسأله سليمان عن ذلك فقال عجبت من الملائكة على رؤس الناس ما أسرع مايكتبون ومن الذين أسفل منهم ما أسرع مايملون وقال ابراهيم التيمى اذا أراد المؤمن أن يتكلم نظر فان كان له تكلم والا أمسك والفاجر انما لسانه رسلا رسلا وقال الحسن من كثر كلامه كثر كذبه ومن كثر ماله كثرت ذنوبه ومن ساء خلقه عذب نفسه وقال عمرو بن دينار تكلم رجل عند النبى صلى الله عليه وسلم فأكثر فقال له صلى الله عليه وسلم كم دون لسانك من حجاب فقال شفتاى وأسنانى قال أفما كان لك فى ذلك مايرد كلامك وفى رواية انه قال ذلك فى رجل أثنى عليه فاستهتر فى الكلام ثم قال ما أوتى رجل شرا من فضل فى لسانه وقال عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه انه ليمنعنى من كثير الكلام خوف المباهاة وقال بعض الحكماء اذا كان الرجل فى مجلس فأعجبه الحديث فليسكت وان كان ساكتا فأعجبه السكوت فليتكلم وقال يزيد ابن أبى حبيب من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب اليه من الاستماع فان وجد من يكفيه فان فى الاستماع سلامة وفى الكلام تزيين وزيادة ونقصان وقال ابن عمران أحق ماطهر الرجل لسانه ورأى أبو الدرداء امرأة سليطة فقال لو كانت هذه خرساء كان خيرا لها وقال ابراهيم يهلك الناس خلتان فضول المال وفضول الكلام فهذه مذمة فضول الكلام وكثرته وسببه الباعث عليه وعلاجه ماسبق فى الكلام فيما لايعنى

﴿ الآفة الثالثة الخوض فى الباطل ﴾

وهو الكلام فى المعاصى كحكاية أحوال النساء ومجالس الخمر ومقامات الفساق وتنعم الاغنياء وتجبر الملوك ومراسمهم المذمومة وأحوالهم المكروهة فان كل ذلك مما لايحل الخوض فيه وهو حرام وأما الكلام فيما لايعنى أو أكثر مما يعنى فهو ترك الاولى ولا تحريم فيه نعم من يكثر الكلام فيما لايعنى لايؤمن عليه الخوض فى الباطل وأكثر الناس يتجالسون للتفرج بالحديث ولا يعدو كلامهم التفكه بأعراض الناس أو الخوض فى الباطل وأنواع الباطل لايمكن حصرها لكثرتها وتفننها فلذلك لامخلص منها الا بالاقتصار على مايعنى من مهمات الدين والدنيا وفى هذا الجنس تقع كلمات يهلك بها صاحبها وهو يستحقرها فقد قال بلال بن الحرث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله مايظن أن تبلغ به مابلغت فيكتب الله بها رضوانه الى يوم القيامة وان الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله مايظن أن تبلغ به مابلغت فيكتب الله عليه بها سخطه الى يوم القيامة وكان علقمة يقول كم من كلام منعنيه حديث بلال بن الحرث وقال النبى صلى الله عليه وسلم ان الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أبعد من الثريا وقال أبو هريرة ان الرجل ليتكلم بالكلمة مايلقى لها بالا يهوى بها فى جهنم وان الرجل ليتكلم بالكلمة مايلقى لها بالا يرفعه الله بها فى أعلى الجنة وقال صلى الله عليه وسلم أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضا فى الباطل واليه الاشارة بقوله تعالى وكنا نخوض مع الخائضين وبقوله تعالى فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره انكم اذا مثلهم وقال سلمان أكثر الناس ذنوبا يوم القيامة أكثرهم كلاما فى معصية الله وقال ابن سيرين كان رجل من الانصار يمر بمجلس لهم فيقول لهم توضؤا فان بعض ماتقولون شر من الحدث فهذا هو الخوض فى الباطل وهو وراء ماسيأتى من الغيبة والنميمة والفحش وغيرها بل هو الخوض فى ذكر محظورات سبق وجودها أو تدبر للتوصل اليها من غير حاجة دينية الى ذكرها ويدخل فيه أيضا الخوض فى حكاية البدع والمذاهب الفاسدة وحكاية ماجرى من قتال الصحابة على وجه يوهم الطعن فى بعضهم وكل ذلك باطل والخوض فيه خوض فى الباطل نسأل الله حسن العون بلطفه وكرمه

﴿ الآفة الرابعة المراء والجدال ﴾

وذلك منهى عنه قال صلى الله عليه وسلم لاتمار أخاك ولا تمازحه ولا تعده موعدا فتخلفه وقال عليه السلام ذروا المراء فانه لاتفهم حكمته ولا تؤمن فتنته وقال صلى الله عليه وسلم من ترك المراء وهو محق بنى له بيت فى أعلى الجنة ومن ترك المراء وهو مبطل بنى له بيت فى ربض الجنة وعن أم سلمة رضى الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أول ماعهد الى ربى ونهانى عنه بعد عبادة الاوثان وشرب الخمر ملاحاة الرجال وقال أيضا ماضل قوم بعد أن هداهم الله الا أوتوا الجدل وقال أيضا لايستكمل عبد حقيقة الايمان حتى يدع المراء وان كان محقا وقال أيضا

بعض الاشخاص من غير زيادة ممارسة ورياضة لقوة ما أودع الله تعالى فى غرائزهم كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أدبنى ربى فأحسن تأديبى وفى بعض الناس من يحتاج الى طول الممارسة لنقصان قوى أصولها فى الغريزة فلهذا احتاج المريدون الى صحبة المشايخ لتكون الصحبة والتعلم عونا على استخراج مافى الطبيعة الى الفعل قال الله تعالى قوا أنفسكم وأهليكم نارا قال ابن عباس رضى الله عنهما فقهوهم وأدبوهم وفى لفظ آخر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أدبنى ربى فأحسن تأديبى ثم أمرنى بمكارم الاخلاق فقال خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين * قال يوسف بن الحسين بالادب يفهم العلم وبالعلم يصح العمل وبالعمل تنال الحكمة وبالحكمة

ست من كن فيه بلغ حقيقة الايمان الصيام في الصيف وضرب أعداء الله بالسيف وتعجيل الصلاة في يوم الدجن والصبر على المصيبات واسباغ الوضوء على المكاره وترك المراء وهو صادق وقال الزبير لابنه لا تجادل الناس بالقرآن فانك لا تستطيعهم ولكن عليك بالسنة وقال عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه من جعل دينه عرضة للخصومات أكثر التنقل وقال مسلم بن يسار اياكم والمراء فانه ساعة جهل العالم وعندها يبتغي الشيطان زلته وقيل ماضل قوم بعد اذ هداهم الله الا بالجدال وقال مالك بن أنس رحمة الله عليه ليس هذا الجدال من الدين في شئ وقال أيضا المراء يقسي القلوب ويورث الضغائن وقال لقمان لابنه يا بني لا تجادل العلماء فيمقتوك وقال بلال بن سعد اذا رأيت الرجل لجوجا مماريا معجبا برأيه فقد تمت خسارته وقال سفيان لو خالفت أخي في رمانة فقال حلوة وقلت حامضة لسعى بي الى السلطان وقال أيضا صاف من شئت ثم أغضبه بالمراء فليرمينك بداهية تمنعك العيش وقال ابن أبي ليلى لا أماري صاحبي فاما أن أكذبه واما أن أغضبه وقال أبو الدرداء كفى بك اثما أن لا تزال مماريا وقال صلى الله عليه وسلم تكفير كل لحاء ركعتان وقال عمر رضي الله عنه لا تتعلم العلم لثلاث ولا تتركه لثلاث لا تتعلمه لتماري به ولا لتباهي به ولا لترائي به ولا تتركه حياء من طلبه ولا زهادة فيه ولا رضا بالجهل منه وقال عيسى عليه السلام من كثر كذبه ذهب جماله ومن لاحى الرجال سقطت مروءته ومن كثر همه سقم جسمه ومن ساء خلقه عذب نفسه وقيل لميمون بن مهران مالك لا تترك أخاك عن قلى قال لاني لا أشاريه ولا أماريه وما ورد في ذم المراء والجدال أكثر من أن يحصى وحد المراء هو كل اعتراض على كلام الغير باظهار خلل فيه اما في اللفظ واما في المعنى واما في قصد المتكلم وترك المراء بترك الانكار والاعتراض فكل كلام سمعته فان كان حقا فصدق به وان كان باطلا أو كذبا ولم يكن متعلقا بأمور الدين فاسكت عنه والطعن في كلام الغير تارة يكون في لفظه باظهار خلل فيه من جهة النحو أو من جهة اللغة أو من جهة العربية أو من جهة النظم والترتيب بسوء تقديم أو تأخير وذلك يكون تارة من قصور المعرفة وتارة يكون بطغيان اللسان وكيفما كان فلا وجه لاظهار خلله وأما في المعنى فبان يقول ليس كما تقول وقد أخطأت فيه من وجه كذا وكذا وأما في قصده فمثل أن يقول هذا الكلام حق ولكن ليس قصدك منه الحق وانما أنت فيه صاحب غرض وما يجري مجراه وهذا الجنس ان جرى في مسألة علمية ربما خص باسم الجدل وهو أيضا مذموم بل الواجب السكوت أو السؤال في معرض الاستفادة لا على وجه العناد والنكارة أو التلطف في التعريف لا في معرض الطعن وأما المجادلة فعبارة عن قصد افحام الغير وتعجيزه وتنقيصه بالقدح في كلامه ونسبته الى القصور والجهل فيه وآية ذلك أن يكون تنبيهه للحق من جهة أخرى مكروها عند المجادل يحب أن يكون هو المظهر له خطأه ليبين به فضل نفسه ونقص صاحبه ولا نجاة من هذا الا بالسكوت عن كل مالا يأثم به لو سكت عنه وأما الباعث على هذا فهو الترفع باظهار العلم والفضل والتهجم على الغير باظهار نقصه وهما شهوتان باطنتان للنفس قويتان لها أما اظهار الفضل فهو من قبل تزكية النفس وهي من مقتضى ما في العبد من طغيان دعوى العلو والكبر ياء وهي من صفات الربوبية وأما تنقيص الآخر فهو من مقتضى طبع السبعية فانه يقتضي أن يمزق غيره ويقصمه ويصدمه ويؤذيه وهاتان صفتان مذمومتان مهلكتان وانما قوتهما المراء والجدال فالمواظب على المراء والجدال مقو لهذه الصفات المهلكة وهذا مجاوز حد الكراهة بل هو معصية مهما حصل فيه ايذاء الغير ولا تنفك المماراة عن الايذاء وتهييج الغضب وحمل المعترض عليه على أن يعود فينصر كلامه بما يمكنه من حق أو باطل ويقدح في قائله بكل ما يتصور له فيثور الشجار بين المتمارين كما يثور الهراش بين الكلبين يقصد كل واحد منهما ان يعض صاحبه بما هو أعظم نكاية وأقوى في افحامه والجامه وأما علاجه فهو بأن يكسر الكبر الباعث له على اظهار فضله والسبعية الباعثة له على تنقيص غيره كما سيأتي ذلك في كتاب ذم الكبر والعجب وكتاب ذم الغضب فان علاج كل علة باماطة سببها وسبب المراء والجدال ما ذكرناه ثم المواظبة عليه تجعله عادة وطبعا حتى يتمكن من النفس ويعسر الصبر عنه روي أن أبا حنيفة رحمة الله عليه قال لداود الطائي لم آثرت الانزواء قال لاجاهد نفسي بترك الجدال فقال احضر المجالس واستمع ما يقال ولا تتكلم قال ففعلت ذلك فما رأيت مجاهدة أشد علي منها وهو كما قال لان من سمع الخطأ من غيره وهو قادر على كشفه تعسر عليه الصبر عنه

يقام الزهد وبالزهد تترك الدنيا وبترك الدنيا يرغب في الآخرة وبالرغبة في الآخرة تنال الرتبة عند الله تعالى (قيل) لما ورد أبو حفص العراق جاء اليه الجنيد فرأى أصحاب أبي حفص وقوفا على رأسه يأتمرون لامره لا يخطئ أحد منهم فقال يا أبا حفص أدبت أصحابك أدب الملوك فقال لا يا أبا القاسم ولكن حسن الادب في الظاهر عنوان الادب في الباطن قال أبو الحسين النوري ليس لله في عبده مقام ولا حال ولا معرفة تسقط معها آداب الشريعة وآداب الشريعة حلية الظاهر والله تعالى لا يبيح تعطيل الجوارح من التحلي بمحاسن الآداب قال عبد الله ابن المبارك أدب الخدمة أعز من الخدمة (حكي) عن أبي عبيد القاسم بن سلام قال دخلت مكة فكنت ربما أقعد بحذاء الكعبة وربما كنت أستلقي وأمد رجلي

ذلك جدا ولذلك قال صلى الله عليه وسلم من ترك المراء وهو محق بنى الله له بيتا فى أعلى الجنة لشدة ذلك على النفس وأكثر ما يغلب ذلك فى المذاهب والعقائد فان المراء طبع فاذا ظن أن له عليه ثوابا اشتد عليه حرصه وتعاون الطبع والشرع عليه وذلك خطأ محض بل ينبغى للانسان أن يكف لسانه عن أهل القبلة واذا رأى مبتدعا تلطف فى نصحه فى خلوة لا بطريق الجدال فان الجدال يخيل اليه انها حيلة منه فى التلبيس وان ذلك صنعة يقدر المجادلون من أهل مذهبه على أمثالها لو أرادوا فتستمر البدعة فى قلبه بالجدل وتتأكد فاذا عرف أن النصح لا ينفع اشتغل بنفسه وتركه وقال صلى الله عليه وسلم رحم الله من كف لسانه عن أهل القبلة الا بأحسن ما يقدر عليه وقال هشام بن عروة كان عليه السلام يردد قوله هذا سبع مرات وكل من اعتاد المجادلة مدة وأثنى الناس عليه ووجد لنفسه بسببه عزا وقبولا قويت فيه هذه المهلكات ولا يستطيع عنها نزوعا اذا اجتمع عليه سلطان الغضب والكبر والرياء وحب الجاه والتعزز بالفضل وآحاد هذه الصفات يشق مجاهدتها فكيف بمجموعها

فجاءتنى عائشة المكية فقالت لى يا أبا عبيد يقال انك من أهل العلم اقبل منى كلمة لا تجالسه الا بأدب والا فيمحى اسمك من ديوان القرب قال أبو عبيد وكانت من العارفات وقال ابن عطاء النفس مجبولة على سوء الادب والعبد مأمور بملازمة الادب والنفس تجول بطباعها فى ميدان المخالفة والعبد يردها بجهده الى حسن المطالبة فمن أعرض عن الجهد فقد أطلق عنان النفس وغفل عن الرعاية ومهما أعانها فهو شريكها وقال الجنيد من أعان نفسه على هواها فقد أشرك فى قتل نفسه لان العبودية ملازمة الادب والطغيان سوء الادب (أخبرنا) الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب ابن على قال أنا أبو الفتح الهروى قال أنا أبو النصر الترياقى قال أنا أبو محمد الجراحى قال أنا أبو العباس المحبوبى	

﴿الآفة الخامسة الخصومة﴾

وهى أيضا مذمومة وهى وراء الجدال والمراء فالمراء طعن فى كلام الغير باظهار خلل فيه من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير واظهار مزية الكياسة والجدال عبارة عن أمر يتعلق باظهار المذاهب وتقريرها والخصومة لجاج فى الكلام ليستوفى به مال أو حق مقصود وذلك تارة يكون ابتداء وتارة يكون اعتراضا والمراء لا يكون الا باعتراض على كلام سبق فقد قالت عائشة رضى الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أبغض الرجال الى الله الالد الخصم وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من جادل فى خصومة بغير علم لم يزل فى سخط الله حتى ينزع وقال بعضهم اياك والخصومة فانها تمحق الدين ويقال ما خاصم ورع قط فى الدين وقال ابن قتيبة مر بى بشر بن عبد الله بن أبى بكرة فقال ما يجلسك ههنا قلت خصومة بينى وبين ابن عم لى فقال ان لابيك عندى يدا وانى أريد أن أجزيك بها وانى والله ما رأيت شيأ أذهب للدين ولا أنقص للمروءة ولا أضيع للذة ولا أشغل للقلب من الخصومة قال فقمت لانصرف فقال لى خصمى مالك قلت لا أخاصمك قال انك عرفت ان الحق لى قلت لا ولكن أكرم نفسى عن هذا قال فانى لا أطلب منك شيأ هو لك فان قلت فاذا كان للانسان حق فلا بد له من الخصومة فى طلبه أو فى حفظه مهما ظلمه ظالم فكيف يكون حكمه وكيف تذم خصومته فاعلم ان هذا الذم يتناول الذى يخاصم بالباطل والذى يخاصم بغير علم مثل وكيل القاضى فانه قبل أن يتعرف أن الحق فى أى جانب هو يتوكل فى الخصومة من أى جانب كان فيخاصم بغير علم ويتناول الذى يطلب حقه ولكنه لا يقتصر على قدر الحاجة بل يظهر اللدد فى الخصومة على قدر التسلط أو على قصد الايذاء ويتناول الذى يمزج بالخصومة كلمات مؤذية ليس يحتاج اليها فى نصرة الحجة واظهار الحق ويتناول الذى يحمله على الخصومة محض العناد لقهر الخصم وكسره مع انه قد يستحقر ذلك القدر من المال وفى الناس من يصرح به ويقول انما قصدى عناده وكسر عرضه وانى ان أخذت منه هذا المال ربما رميت فى بئر ولا أبالى وهذا مقصوده اللدد والخصومة واللجاج وهو مذموم جدا فأما المظلوم الذى ينصر حجته بطريق الشرع من غير لدد واسراف وزيادة لجاج على قدر الحاجة ومن غير قصد عناد وايذاء ففعله ليس بحرام ولكن الاولى تركه ما وجد اليه سبيلا فان ضبط اللسان فى الخصومة على حد الاعتدال متعذر والخصومة توغر الصدر وتهيج الغضب واذا هاج الغضب نسى المتنازع فيه وبقى الحقد بين المتخاصمين حتى يفرح كل واحد بمساءة صاحبه ويحزن بمسرته ويطلق اللسان فى عرضه فمن بدأ بالخصومة فقد تعرض لهذه المحذورات وأقل ما فيه تشويش خاطره حتى انه فى صلاته يشتغل بمحاجة خصمه فلا يبقى الامر على حد الواجب فالخصومة مبدأ كل شر وكذا المراء والجدال فينبغى أن لا يفتح بابه الا لضرورة وعند الضرورة ينبغى أن يحفظ اللسان والقلب عن تبعات الخصومة وذلك متعذر جدا فمن اقتصر على الواجب فى خصومته سلم من الاثم ولا تذم خصومته الا انه ان كان مستغنيا عن الخصومة فيما خاصم فيه لان عنده ما يكفيه فيكون تاركا للاولى ولا يكون آثما نعم أقل ما يفوته فى الخصومة والمراء والجدال طيب الكلام وما ورد فيه من الثواب اذ أقل درجات طيب الكلام اظهار الموافقة ولا خشونة فى الكلام أعظم من الطعن والاعتراض الذى حاصله اما تجهيل واما تكذيب

فاما

فان من جادل غيره أو ماراه أو خاصمه فقد جهله أو كذبه فيفوت به طيب الكلام وقد قال صلى الله عليه وسلم يمكنكم من الجنة طيب الكلام واطعام الطعام وقد قال الله تعالى وقولوا للناس حسنا وقال ابن عباس رضي الله عنهما من سلم عليك من خلق الله فاردد عليه السلام وان كان مجوسيا ان الله تعالى يقول واذا حييتم بتحية فحيوا باحسن منها أو ردوها وقال ابن عباس أيضا لو قال لي فرعون خيرا لرددت عليه وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان في الجنة لغرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدها الله تعالى لمن أطعم الطعام وألان الكلام وروى أن عيسى عليه السلام مر به خنزير فقال مر بسلام فقال يا روح الله أتقول هذا الخنزير فقال أكره أن أعود لساني الشر وقال نبينا عليه السلام الكلمة الطيبة صدقة وقال اتقوا النار ولو بشق تمرة فان لم تجدوا فبكلمة طيبة وقال عمر رضي الله عنه البر شيء هين وجه طليق وكلام لين وقال بعض الحكماء الكلام اللين يغسل الضغائن المستكنة في الجوارح وقال بعض الحكماء كل كلام لا يسخط ربك الا أنك لا ترضى به جليسك فلا تكن به عليه بخيلا فانه لعله يعوضك منه ثواب المحسنين هذا كله في فضل الكلام الطيب وتضاده الخصومة والمراء والجدال واللجاج فانه الكلام المستكره الموحش المؤذي للقلب المنغص للعيش المهيج للغضب الموغر للصدر نسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه

﴿الآفة السادسة﴾

التقعر في الكلام بالتشدق وتكلف السجع والفصاحة والتصنع فيه بالتشبيبات والمقدمات وما جرت به عادة المتفاصحين المدعين للخطابة وكل ذلك من التصنع المذموم ومن التكلف الممقوت الذي قال فيه صلى الله عليه وسلم أنا وأتقياء أمتي برآء من التكلف وقال صلى الله عليه وسلم ان أبغضكم الي وأبعدكم مني مجلسا الثرثارون المتفيهقون المتشدقون في الكلام وقالت فاطمة رضي الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم يأكلون ألوان الطعام ويلبسون ألوان الثياب ويتشدقون في الكلام وقال صلى الله عليه وسلم ألا هلك المتنطعون ثلاث مرات والتنطع هو التعمق والاستقصاء وقال عمر رضي الله عنه ان شقاشق الكلام من شقاشق الشيطان وجاء عمر بن سعد بن أبي وقاص الى أبيه سعد يسأله حاجة فتكلم بين يدي حاجته بكلام فقال له سعد ما كنت من حاجتك بابعد منك اليوم اني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يأتي على الناس زمان يتخللون الكلام بالسنتهم كما تتخلل البقر الكلأ بالسنتها وكانه أنكر عليه ما قدمه على الكلام من التشبب والمقدمة المصنوعة المتكلفة وهذا أيضا من آفات اللسان ويدخل فيه كل سجع متكلف وكذلك التفاصح الخارج عن حد العادة وكذلك التكلف بالسجع في المحاورات اذ قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بغرة في الجنين فقال بعض قوم الجاني كيف ندي من لا شرب ولا أكل ولا صاح ولا استهل ومثل ذلك يطل فقال أسجعا كسجع الاعراب وأنكر ذلك لان أثر التكلف والتصنع بين عليه بل ينبغي أن يقتصر في كل شيء على مقصوده ومقصود الكلام التفهيم للغرض وما وراء ذلك تصنع مذموم ولا يدخل في هذه تحسين ألفاظ الخطابة والتذكير من غير افراط واغراب فان المقصود منها تحريك القلوب وتشويقها وقبضها وبسطها فلرشاقة اللفظ تأثير فيه فهو لائق به فاما المحاورات التي تجري لقضاء الحاجات فلا يليق بها السجع والتشدق والاشتغال به من التكلف المذموم ولا باعث عليه الا الرياء واظهار الفصاحة والتميز بالبراعة وكل ذلك مذموم يكرهه الشرع ويزجر عنه

﴿الآفة السابعة الفحش والسب وبذاءة اللسان﴾

وهو مذموم ومنهي عنه ومصدره الخبث واللؤم قال صلى الله عليه وسلم اياكم والفحش فان الله تعالى لا يحب الفحش ولا التفحش ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن تسب قتلى بدر من المشركين فقال لا تسبوا هؤلاء فانه لا يخلص اليهم شيء مما تقولون وتؤذون الاحياء ألا ان البذاء لؤم وقال صلى الله عليه وسلم ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذي وقال صلى الله عليه وسلم الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها وقال صلى الله عليه وسلم أربعة يؤذون أهل النار في النار على ما بهم من الاذى يسعون بين الحميم والجحيم يدعون بالويل والثبور رجل يسيل فوه قيحا ودما فيقال له ما بال الابعد قد آذانا على ما بنا من الاذى فيقول ان الابعد كان ينظر الى كل كلمة قذعة خبيثة فيستلذها كما يستلذ الرفث وقال صلى الله عليه وسلم لعائشة يا عائشة لو كان الفحش رجلا لكان

قال أنا أبو عيسى الترمذي قال ثنا قتيبة قال ثنا يحيى بن يعلى عن ناصح عن سماك عن جابر بن سمرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لان يؤدب الرجل ولده خير له من أن يتصدق بصاع (وروى) أيضا أنه قال عليه السلام ما نحل والد ولدا من نحلة أفضل من أدب حسن (وروت) عائشة رضي الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حق الولد على الوالد أن يحسن اسمه ويحسن موضعه ويحسن أدبه (وقال) أبو علي الدقاق العبد يصل بطاعته الى الجنة وبأدبه في طاعته الى الله تعالى (قال) أبو القاسم القشيري رحمه الله كان الاستاذ أبو علي لا يستند الى شيء فكان يوما في مجمع فاردت أن أضع وسادة خلف ظهره لاني رأيته غير مستند فتنحى عن الوسادة قليلا فتوهمت انه توقى

رجل سوء وقال صلى الله عليه وسلم البذاء والبيان شعبتان من شعب النفاق فيحتمل أن يراد بالبيان كشف مالا يجوز كشفه و يحتمل أيضا المبالغة في الايضاح حتى ينتهي الى حد التكلف و يحتمل أيضا البيان في أمور الدين وفي صفات الله تعالى فان القاء ذلك مجملا الى أسماع العوام أولى من المبالغة في بيانه اذ قد يثور من غاية البيان فيه شكوك و وساوس فاذا أجملت بادرت القلوب الى القبول ولم تضطرب ولكن ذكره مقرونا بالبذاء يشبه أن يكون المراد به المجاهرة بما يستحي الانسان من بيانه فان الاولى في مثله الاغماض والتغافل دون الكشف والبيان وقال صلى الله عليه وسلم ان الله لا يحب الفاحش المتفحش الصياح في الاسواق وقال جابر بن سمرة كنت جالسا عند النبي صلى الله عليه وسلم وأبي أمامي فقال صلى الله عليه وسلم ان الفحش والتفاحش ليسا من الاسلام في شيء وان أحسن الناس اسلاما أحاسنهم أخلاقا وقال ابراهيم بن ميسرة يقال يؤتى بالفاحش المتفحش يوم القيامة في صورة كلب أو في جوف كلب وقال الاحنف بن قيس ألا أخبركم بادوأ الداء اللسان البذي والخلق الدني فهذه مذمة الفحش فاما حده وحقيقته فهو التعبير عن الامور المستقبحة بالعبارات الصريحة وأكثر ذلك يجري في ألفاظ الوقاع ومايتعلق به فان لاهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه وأهل الصلاح يتحاشون عنها بل يكنون عنها و يدلون عليها بالرموز فيذكرون مايقاربها و يتعلق بها وقال ابن عباس ان الله حيي كريم يعفو و يكني باللمس عن الجماع فالمسيس واللمس والدخول والصحبة كنايات عن الوقاع وليست بفاحشة وهنالك عبارات فاحشة يستقبح ذكرها و يستعمل اكثرها في الشتم والتعيير وهذه العبارات متفاوتة في الفحش وبعضها أفحش من بعض وربما اختلف ذلك بعادة البلاد وأوائلها مكروهة وأواخرها محظورة و بينهما درجات يترددفيها وليس يختص هذا بالوقاع بل الكناية بقضاء الحاجة عن البول والغائط أولى من لفظ التغوط والخراء وغيرهما فان هذا أيضا مما يخفى وكل مايخفى يستحيا منه فلا ينبغي أن يذكر ألفاظه الصريحة فانه فحش وكذلك يستحسن في العادة الكناية عن النساء فلا يقال قالت زوجتك كذا بل يقال قيل في الحجرة أو من وراء الستر أو قالت أم الاولاد فالتلطف في هذه الالفاظ محمود والتصريح فيها يفضي الى الفحش وكذلك من به عيوب يستحيي منها فلا ينبغي أن يعبر عنها بصريح لفظها كالبرص والقرع والبواسير بل يقال العارض الذي يشكوه ومايجري مجراه فالتصريح بذلك داخل في الفحش وجميع ذلك من آفات اللسان قال العلاء بن هرون كان عمر بن عبد العزيز يتحفظ في منطقه فخرج تحت ابطه خراج فاتيناه نسأله لنرى مايقول فقلنا من أين خرج فقال من باطن اليد والباعث على الفحش اما قصد الايذاء واما الاعتياد الحاصل من مخالطة الفساق وأهل الخبث واللؤم ومن عادتهم السب وقال أعرابي لرسول الله صلى الله عليه وسلم أوصني فقال عليك بتقوى الله وان امرؤ عيرك بشيء يعلمه فيك فلا تعيره بشيء تعلمه فيه يكن وباله عليه وأجره لك ولا تسبن شيأ قال فما سببت شيأ بعده وقال عياض بن حماد قلت يارسول الله ان الرجل من قومي يسبني وهو دوني هل علي من بأس ان انتصر منه فقال المتسابان شيطانان يتعاويان و يتهاتران وقال صلى الله عليه وسلم سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر وقال صلى الله عليه وسلم المستبان ماقالا فعلى البادئ منهما حتى يعتدي المظلوم وقال صلى الله عليه وسلم ملعون من سب والديه وفي رواية من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه قالوا يارسول الله كيف يسب الرجل والديه قال يسب أبا الرجل فيسب الآخر أباه

﴿الآفة الثامنة اللعن﴾

اما لحيوان أو جماد أو انسان وكل ذلك مذموم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمن ليس بلعان وقال صلى الله عليه وسلم لا تلاعنوا بلعنة الله ولا بغضبه ولا بجهنم وقال حذيفة ماتلاعن قوم قط الاحق عليهم القول وقال عمران ابن حصين بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره اذا امرأة من الانصار على ناقة لها فضجرت منها فلعنتها فقال صلى الله عليه وسلم خذوا ما عليها واعروها فانها ملعونة قال فكأني أنظر الى تلك الناقة تمشي بين الناس لا يتعرض لها أحد وقال أبو الدرداء مالعن أحد الارض الا قالت لعن الله أعصانا لله وقالت عائشة رضي الله عنها سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر وهو يلعن بعض رقيقه فالتفت اليه وقال يا أبا بكر أصديقين ولعانين كلا ورب الكعبة مرتين أو ثلاثا فاعتق أبو بكر يومئذ رقيقه وأتى النبي صلى الله عليه وسلم وقال لا أعود وقال

الوسادة لانه لم يكن عليها خرقة أو سجادة فقال لا أريد الاستناد فتأملت بعد ذلك فعلمت انه لا يستند الى شيء أبدا (وقال) الجلالي البصري التوحيد يوجب الايمان فمن لا ايمان له لا توحيد له والايمان يوجب الشريعة فمن لا شريعة له لا ايمان له ولا توحيد له والشريعة توجب الادب فمن لا أدب له لا شريعة له ولا ايمان له ولا توحيد (وقال) بعضهم الزم الادب ظاهرا و باطنا فما أساء أحد الادب ظاهرا الا عوقب ظاهرا وما أساء أحد الادب باطنا الا عوقب باطنا قال بعضهم هو غلام الدقاق نظرت الى غلام أمرد فنظر الى الدقاق وأنا أنظر اليه فقال لتجدن غبها ولو بعد سنين قال فوجدت غبها بعد عشرين سنة أن أنسيت القرآن (وقال) سري صليت وردي ليلة من الليالي ومددت رجلي

رسول الله صلى الله عليه وسلم ان اللعانين لا يكونون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة وقال أنس كان رجل يسير مع
رسول الله صلى الله عليه وسلم على بعير فلعن بعيره فقال صلى الله عليه وسلم يا عبد الله لا تسر معنا على بعير ملعون
وقال ذلك انكارا عليه واللعن عبارة عن الطرد والابعاد من الله تعالى وذلك غير جائز الا على من اتصف بصفة
تبعده من الله عز وجل وهو الكفر والظلم بأن يقول لعنة الله على الظالمين وعلى الكافرين وينبغي أن يتبع فيه
لفظ الشرع فان في اللعنة خطرا لانه حكم على الله عز وجل بأنه قد أبعد الملعون وذلك غيب لا يطلع عليه غير الله
تعالى ويطلع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أطلعه الله عليه والصفات المقتضية للعن ثلاثة الكفر والبدعة
والفسقة واللعن في كل واحدة ثلاث مراتب الاولى اللعن بالوصف الاعم كقولك لعنة الله على الكافرين
والمبتدعين والفسقة الثانية اللعن بأوصاف أخص منه كقولك لعنة الله على اليهود والنصارى والمجوس وعلى
القدرية والخوارج والروافض أو على الزناة والظلمة وآكلي الربا وكل ذلك جائز ولكن في لعن أوصاف المبتدعة
خطر لان معرفة البدعة غامضة ولم يرد فيه لفظ مأثور فينبغي أن يمنع منه العوام لان ذلك يستدعي المعارضة بمثله
ويثير نزاعا بين الناس وفسادا الثالثة اللعن للشخص المعين وهذا فيه خطر كقولك زيد لعنه الله وهو كافر أو فاسق
أو مبتدع والتفصيل فيه ان كل شخص ثبتت لعنته شرعا فتجوز لعنته كقولك فرعون لعنه الله وأبو جهل لعنه الله
لانه قد ثبت أن هؤلاء ماتوا على الكفر وعرف ذلك شرعا أما شخص بعينه في زماننا كقولك زيد لعنه الله وهو
يهودي مثلا فهذا فيه خطر فانه ربما يسلم فيموت مقربا عند الله فكيف يحكم بكونه ملعونا فان قلت يلعن لكونه
كافرا في الحال كما يقال للمسلم رحمه الله لكونه مسلما في الحال وان كان يتصور أن يرتد فاعلم أن معنى قولنا رحمه
الله أي ثبته الله على الاسلام الذي هو سبب الرحمة وعلى الطاعة ولا يمكن أن يقال ثبت الله الكافر على ما هو سبب
اللعنة فان هذا سؤال للكفر وهو في نفسه كفر بل الجائز أن يقال لعنه الله ان مات على الكفر ولا لعنه الله ان
مات على الاسلام وذلك غيب لا يدرى والمطلق متردد بين الجهتين ففيه خطر وليس في ترك اللعن خطر واذا
عرفت هذا في الكافر فهو في زيد الفاسق أو زيد المبتدع أولى فلعن الاعيان فيه خطر لان الاعيان تتقلب في
الاحوال الا من أعلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه يجوز أن يعلم من يموت على الكفر ولذلك عين قوما
باللعن فكان يقول في دعائه على قريش اللهم عليك بأبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وذكر جماعة قتلوا على
الكفر ببدر حتى ان من لم يعلم عاقبته كان يلعنه فنهي عنه اذ روي انه كان يلعن الذين قتلوا أصحاب بئر معونة في
قنوته شهرا فنزل قوله تعالى ليس لك من الامر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون يعني انهم ربما يسلمون
فمن أين تعلم انهم ملعونون وكذلك من بان لنا موته على الكفر جاز لعنه وجاز ذمه ان لم يكن فيه أذى على مسلم فان
كان لم يجز كما روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل أبا بكر رضي الله عنه عن قبر مر به وهو يريد الطائف
فقال هذا قبر رجل كان عاتيا على الله ورسوله وهو سعيد بن العاص فغضب ابنه عمرو بن سعيد وقال يا رسول
الله هذا قبر رجل كان أطعم للطعام وأضرب للهام من أبي قحافة فقال أبو بكر يكلمني هذا يا رسول الله بمثل هذا
الكلام فقال صلى الله عليه وسلم اكفف عن أبي بكر فانصرف ثم أقبل على أبي بكر فقال يا أبا بكر اذا ذكرتم الكفار
فعمموا فانكم اذا خصصتم غضب الابناء للآباء فكف الناس عن ذلك وشرب نعيمان الخمر فحد مرات في مجلس
رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعض الصحابة لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به فقال صلى الله عليه وسلم لا تكن عونا
للشيطان على أخيك وفي رواية لا تقل هذا فانه يحب الله ورسوله فنهاه عن ذلك وهذا يدل على أن لعن فاسق بعينه
غير جائز وعلى الجملة ففي لعن الاشخاص خطر فليجتنب ولا خطر في السكوت عن لعن ابليس مثلا فضلا عن
غيره فان قيل هل يجوز لعن يزيد لانه قاتل الحسين أو آمر به قلنا هذا لم يثبت أصلا فلا يجوز أن يقال انه قتله أو أمر
به ما لم يثبت فضلا عن اللعنة لانه لا تجوز نسبة مسلم الى كبيرة من غير تحقيق نعم يجوز أن يقال قتل ابن ملجم عليا
وقتل أبو لؤلؤة عمر رضي الله عنهم فان ذلك ثبت متواترا فلا يجوز أن يرمى مسلم بفسق وكفر من غير تحقيق قال
صلى الله عليه وسلم لا يرمي رجل رجلا بالكفر ولا يرميه بالفسق الا ارتدت عليه ان لم يكن صاحبه كذلك
وقال صلى الله عليه وسلم ما شهد رجل على رجل بالكفر الا باء به أحدهما ان كان كافرا فهو كما قال وان لم يكن

في المحراب فنوديت يا سري هكذا تجالس الملوك فضممت رجلي ثم قلت وعزتك لامددت رجلي أبدا وقال الجنيد فبقي ستين سنة ما مد رجله ليلا ولا نهارا (قال عبد الله) بن المبارك من تهاون بالادب عوقب بحرمان السنن ومن تهاون بالسنن عوقب بحرمان الفرائض ومن تهاون بالفرائض عوقب بحرمان المعرفة (وسئل السري) عن مسئلة في الصبر فجعل يتكلم فيها فدب على رجله عقرب فجعلت تضربه بابرتها فقيل له ألا تدفعها عن نفسك قال أستحي من الله أن أتكلم في حال ثم أخالف ما أعلم فيه وقيل من أدب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال زويت لي الارض فرأيت مشارقها ومغاربها ولم يقل رأيت (وقال) أنس ابن مالك الادب في العمل علامة قبول

كافر افقد كفر بتكفيره اياه وهذا معناه أن يكفره وهو يعلم انه مسلم فان ظن انه كافر ببدعة أو غيرها كان مخطئا لا كافرا وقال معاذ قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهاك أن تشتم مسلما أو تعصي اماما عادلا والتعرض للاموات أشد قال مسروق دخلت على عائشة رضي الله عنها فقالت مافعل فلان لعنه الله قلت توفي قالت رحمه الله قلت وكيف هذا قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاتسبوا الاموات فانهم قد أفضوا الى ماقدموا وقال عليه السلام لاتسبوا الاموات فتؤذوا به الاحياء وقال عليه السلام أيها الناس احفظوني في أصحابي واخواني وأصهاري ولاتسبوهم أيها الناس اذامات الميت فاذكروا منه خيرا فان قيل فهل يجوز أن يقال قاتل الحسين لعنه الله أو الآمر بقتله لعنه الله قلنا الصواب أن يقال قاتل الحسين ان مات قبل التوبة لعنه الله لانه يحتمل أن يموت بعد التوبة فان وحشيا قاتل حمزة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم قتله وهو كافر ثم تاب عن الكفر والقتل جميعا ولا يجوز أن يلعن والقتل كبيرة ولاتنتهي الى رتبة الكفر فاذا لم يقيد بالتوبة وأطلق كان فيه خطر وليس في السكوت خطر فهو أولى وانما أوردناه هذا لتهاون الناس باللعنة واطلاق اللسان بها والمؤمن ليس بلعان فلا ينبغي أن يطلق اللسان باللعنة الا على من مات على الكفر أو على الاجناس المعروفين بأوصافهم دون الاشخاص المعينين فالاشتغال بذكر الله أولى فان لم يكن ففي السكوت سلامة قال مكي بن ابراهيم كنا عند ابن عون فذكروا بلال بن أبي بردة فجعلوا يلعنونه ويقعون فيه وابن عون ساكت فقالوا يا ابن عون انما نذكره لما ارتكب منك فقال انما هما كلمتان تخرجان من صحيفتي يوم القيامة لا اله الا الله ولعن الله فلانا فلأن يخرج من صحيفتي لا اله الا الله أحب الي من أن يخرج منها لعن الله فلانا وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أوصني فقال أوصيك أن لاتكون لعانا وقال ابن عمر ان أبغض الناس الى الله كل طعان لعان وقال بعضهم لعن المؤمن يعدل قتله وقال حماد بن زيد بعد أن روى هذا لو قلت انه مرفوع لم أبال وعن أبي قتادة قال كان يقال من لعن مؤمنا فهو مثل أن يقتله وقد نقل ذلك حديثا مرفوعا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقرب من اللعن الدعاء على الانسان بالشر حتى الدعاء على الظالم كقول الانسان مثلا لا صحح الله جسمه ولا سلمه الله ومايجري مجراه فان ذلك مذموم وفي الخبر ان المظلوم ليدعو على الظالم حتى يكافئه ثم يبقى للظالم عنده فضلة يوم القيامة

﴿ الآفة التاسعة ﴾

الغناء والشعر وقد ذكرنا في كتاب السماع مايحرم من الغناء ومايحل فلانعيده وأما الشعر فكلام حسنه حسن وقبيحه قبيح الا أن التجرد له مذموم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لان يمتلئ جوف أحدكم قيحا حتى يريه خير له من أن يمتلئ شعرا وعن مسروق أنه سئل عن بيت من الشعر فكرهه فقيل له في ذلك فقال أنا أكره أن يوجد في صحيفتي شعر وسئل بعضهم عن شئ من الشعر فقال اجعل مكان هذا ذكرا فان ذكر الله خير من الشعر وعلى الجملة فانشاد الشعر ونظمه ليس بحرام اذا لم يكن فيه كلام مستكره قال صلى الله عليه وسلم ان من الشعر لحكمة نعم مقصود الشعر المدح والذم والتشبيب وقد يدخله الكذب وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت الانصاري بهجاء الكفار والتوسع في المدح فانه وان كان كذبا فانه لايلتحق في التحريم بالكذب كقول الشاعر

ولو لم يكن في كفه غير روحه * لجاد بها فليتق الله سائله

فان هذا عبارة عن الوصف بنهاية السخاء فان لم يكن صاحبه سخيا كان كاذبا وان كان سخيا فالمبالغة من صنعة الشعر فلا يقصد منه أن يعتقد صورته وقد أنشدت أبيات بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم لو تتبعت لوجد فيها مثل ذلك فلم يمنع منه قالت عائشة رضي الله عنها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخصف نعله وكنت جالسة أغزل فنظرت اليه فجعل جبينه يعرق وجعل عرقه يتولد نورا قالت فبهت فنظر الي فقال مالك بهت فقلت يارسول الله نظرت اليك فجعل جبينك يعرق وجعل عرقك يتولد نورا ولو رآك أبو بكر الهذلي لعلم أنك أحق بشعره قال ومايقول ياعائشة أبو بكر الهذلي قلت يقول هذين البيتين

ومبرأ من كل غبر حيضة * وفساد مرضعة وداء معضل

واذا نظرت الى أسرة وجهه * برقت كبرق العارض المتهلل

العمل (وقال) ابن عطاء الادب الوقوف مع المستحسنات قيل مامعناه قال أن تعامل الله سرا وعلنا بالادب فاذا كنت كذلك كنت أديبا وان كنت أعجميا ثم أنشد اذا نطقت جاءت بكل مليحة * وان سكتت جاءت بكل مليح وقال الجريري منذ عشرين سنة مامددت رجلي في الخلوة فان حسن الادب مع الله أحسن وأولى * وقال أبو علي ترك الادب موجب للطرد فمن أساء الادب على البساط رد الى الباب ومن أساء الادب على الباب رد الى سياسة الدواب

﴿الباب الثاني والثلاثون في آداب الحضرة الالهية لاهل القرب ﴾

كل الآداب تتلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه عليه السلام مجمع الآداب ظاهرا وباطنا وأخبر

قال فوضع صلى الله عليه وسلم ما كان بيده وقام الى وقبل ما بين عينى وقال جزاك الله خيرا يا عائشة ما سررت منى كسرورى منك ولما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنائم يوم حنين أمر للعباس بن مرداس بأربع قلائص فاندفع يشكو فى شعره وفى آخره

وما كان بدر ولا حابس * يسودان مرداس فى مجمع
وما كنت دون امرئ منهما * ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال صلى الله عليه وسلم اقطعوا عنى لسانه فذهب به أبو بكر الصديق رضى الله عنه حتى اختار مائة من الابل ثم رجع وهو من أرضى الناس فقال له صلى الله عليه وسلم أتقول فى الشعر فجعل يعتذر اليه و يقول بأبى أنت وأمى انى لأجد للشعر دبيبا على لسانى كدبيب النمل ثم يقرصنى كما يقرص النمل فلا أجد بدا من قول الشعر فتبسم صلى الله عليه وسلم وقال لا تدع العرب الشعر حتى تدع الابل الحنين

﴿ الآفة العاشرة المزاح ﴾

وأصله مذموم منهى عنه الا قدرا يسيرا يستثنى منه قال صلى الله عليه وسلم لا تمار أخاك ولا تمازحه فان قلت المماراة فيها ايذاء لان فيها تكذيبا للاخ والصديق أو تجهيلا له وأما المزاح فطايبة وفيه انبساط وطيب قلب فلم ينهى عنه فاعلم أن المنهى عنه الافراط فيه أو المداومة عليه أما المداومة فلانه اشتغال باللعب والهزل واللعب مباح ولكن المواظبة عليه مذمومة وأما الافراط فيه فانه يورث كثرة الضحك وكثرة الضحك تميت القلب وتورث الضغينة فى بعض الاحوال وتسقط المهابة والوقار فما يخلو عن هذه الامور فلا يذم كما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال انى لأمزح ولا أقول الا حقا الا أن مثله يقدر على أن يمزح ولا يقول الا حقا وأما غيره اذا فتح باب المزاح كان غرضه أن يضحك الناس كيفما كان وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها فى النار أبعد من الثريا وقال عمر رضى الله عنه من كثر ضحكه قلت هيبته ومن مزح استخف به ومن أكثر من شئ عرف به ومن كثر كلامه كثر سقطه ومن كثر سقطه قل حياؤه ومن قل حياؤه قل ورعه ومن قل ورعه مات قلبه ولان الضحك يدل على الغفلة عن الآخرة قال صلى الله عليه وسلم لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرا ولضحكتم قليلا وقال رجل لاخيه يا أخى هل أتاك أنك وارد النار قال نعم قال فهل أتاك أنك خارج منها قال لا قال ففيم الضحك قيل فما رؤى ضاحكا حتى مات وقال يوسف بن أسباط أقام الحسن ثلاثين سنة لم يضحك وقيل أقام عطاء السلمى أربعين سنة لم يضحك ونظر وهيب بن الورد الى قوم يضحكون فى عيد فطر فقال ان كان هؤلاء قد غفر لهم فما هذا فعل الشاكرين وان كان لم يغفر لهم فما هذا فعل الخائفين وكان عبد الله بن أبى يعلى يقول أتضحك ولعل أكفانك قد خرجت من عند القصار وقال ابن عباس من أذنب ذنبا وهو يضحك دخل النار وهو يبكى وقال محمد بن واسع اذا رأيت فى الجنة رجلا يبكى ألست تعجب من بكائه قيل بلى قال فالذى يضحك فى الدنيا ولا يدرى الى ماذا يصير هو أعجب منه فهذه آفة الضحك والمذموم منه أن يستغرق ضحكا والمحمود منه التبسم الذى ينكشف فيه السن ولا يسمع له صوت وكذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال القاسم مولى معاوية أقبل أعرابى الى النبى صلى الله عليه وسلم على قلوص له صعب فسلم فجعل كلما دنا من النبى صلى الله عليه وسلم ليسأله يفر به فجعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحكون منه ففعل ذلك مرارا ثم وقصه فقتله فقيل يا رسول الله ان الاعرابى قد صرعه قلوصه وقد هلك فقال نعم وأفواهكم ملأى من دمه وأما أداء المزاح الى سقوط الوقار فقد قال عمر رضى الله عنه من مزح استخف به وقال محمد بن المنكدر قالت لى أمى يا بنى لا تمازح الصبيان فتهون عندهم وقال سعيد بن العاص لابنه يا بنى لا تمازح الشريف فيحقد عليك ولا الدنئ فيجترئ عليك وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى اتقوا الله واياكم والمزاح فانه يورث الضغينة ويجر الى القبيح تحدثوا بالقرآن وتجالسوا به فان ثقل عليكم فحديث حسن من حديث الرجال وقال عمر رضى الله عنه أتدرون لما سمى المزاح مزاحا قالوا لا قال لانه أزاح صاحبه عن الحق وقيل لكل شئ بذر وبذر العداوة المزاح ويقال المزاح مسلبة للنهى مقطعة للاصدقاء فان قلت قد نقل المزاح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

الله تعالى عن حسن أدبه فى الحضرة بقوله تعالى مازاغ البصر وما طغى وهذه غامضة من غوامض الآداب اختص بها رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر الله تعالى عن اعتدال قلبه المقدس فى الاعراض والاقبال أعرض عما سوى الله وتوجه الى الله وترك وراء ظهره الارضين والدار العاجلة بحظوظها والسموات والدار الآخرة بحظوظها فما التفت الى ما أعرض عنه ولا لحقه الاسف على الغائب فى اعراضه قال الله تعالى لكيلا تأسوا على مافاتكم فهذا الخطاب للعموم ومازاغ البصر اخبار عن حال النبى عليه السلام بوصف خاص من معنى ما خاطب به العموم فكان مازاغ البصر حاله فى طرف الاعراض وفى طرف الاقبال تلقى ما ورد عليه فى مقام قاب قوسين بالروح والقلب

وأصحابه فكيف ينهى عنه فأقول ان قدرت على ماقدر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهوأن تمزح ولا تقول الا حقا ولا تؤذى قلبا ولا تفرط فيه وتقتصر عليه أحيانا على الندور فلا حرج عليك فيه ولكن من الغلط العظيم أن يتخذ الانسان المزاح حرفة يواظب عليه ويفرط فيه ثم يتمسك بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو كمن يدور نهاره مع الزنوج ينظر اليهم والى رقصهم ويتمسك بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن لعائشة فى النظر الى رقص الزنوج فى يوم عيد وهو خطأ اذ من الصغائر مايصير كبيرة بالاصرار ومن المباحات مايصير صغيرة بالاصرار فلا ينبغى أن يغفل عن هذا نعم روى أبو هريرة أنهم قالوا يارسول الله انك تداعبنا فقال انى وان داعبتكم لا أقول الا حقا وقال عطاء ان رجلا سأل ابن عباس أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح فقال نعم قال فما كان مزاحه قال كان مزاحه أنه صلى الله عليه وسلم كسا ذات يوم امرأة من نسائه ثوبا واسعا فقال لها البسيه واحمدى وجرى منه ذيلا كذيل العروس وقال أنس ان النبى صلى الله عليه وسلم كان من أفكه الناس مع نسائه وروى أنه كان كثير التبسم وعن الحسن قال أتت عجوز الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال لها صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة عجوز فبكت فقال انك لست بعجوز يومئذ قال الله تعالى انا أنشأناهن انشاء فجعلناهن أبكارا وقال زيد بن أسلم ان امرأة يقال لها أم أيمن جاءت الى النبى صلى الله عليه وسلم فقالت ان زوجى يدعوك قال ومن هو أهو الذى بعينه بياض قالت والله مابعينه بياض فقال بلى ان بعينه بياضا فقالت لا والله فقال صلى الله عليه وسلم مامن أحد الا وبعينه بياض وأراد به البياض المحيط بالحدقة وجاءت امرأة أخرى فقالت يارسول الله احملنى على بعير فقال بل نحملك على ابن البعير فقالت ما أصنع به انه لا يحملنى فقال صلى الله عليه وسلم مامن بعير الا وهو ابن بعير فكان يمزح به وقال أنس كان لابى طلحة ابن يقال له أبو عمير وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيهم ويقول يا أبا عمير مافعل النغير لنغير كان يلعب به وهو فرخ العصفور وقالت عائشة رضى الله عنها خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة بدر فقال تعالى حتى أسابقك فشددت درعى على بطنى ثم خططنا خطا فقمنا عليه واستبقنا فسبقنى وقال هذه مكان ذى المجاز وذلك أنه جاء يوما ونحن بذى المجاز وأنا جارية قد بعثنى أبى بشىء فقال اعطينيه فأبيت وسعيت وسعى فى أثرى فلم يدركنى وقالت أيضا سابقنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبقته فلما حملت اللحم سابقنى فسبقنى وقال هذه بتلك وقالت أيضا رضى الله عنها كان عندى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسودة بنت زمعة فصنعت خزيرا وجئت به فقلت لسودة كلى فقالت لا أحبه فقلت والله لتأكلن أو لالطخن به وجهك فقالت ما أنا بذائقته فأخذت بيدى من الصحفة شيأ منه فلطخت به وجهها ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس بينى وبينها فخفض لها رسول الله ركبتيه لتستقيد منى فتناولت من الصحفة شيأ فمسحت به وجهى وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك وروى أن الضحاك بن سفيان الكلابى كان رجلا دميما قبيحا فلما بايعه النبى صلى الله عليه وسلم قال ان عندى امرأتين أحسن من هذه الحميراء وذلك قبل أن تنزل آية الحجاب أفلا أنزل لك عن احداهما فتتزوجها وعائشة جالسة تسمع فقالت أهى أحسن أم أنت فقال بل أنا أحسن منها وأكرم فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم من سؤالها اياه لانه كان دميما وروى علقمة عن أبى سلمة أنه كان صلى الله عليه وسلم يدلع لسانه للحسن بن على عليهما السلام فيرى الصبى لسانه فيهش له فقال له عيينة بن بدر الفزارى والله ليكونن لى الابن قد تزوج وبقل وجهه وماقبلته قط فقال صلى الله عليه وسلم ان من لا يرحم لا يرحم فأكثر هذه المطايبات منقولة مع النساء والصبيان وكان ذلك منه صلى الله عليه وسلم معالجة لضعف قلوبهم من غير ميل الى هزل وقال صلى الله عليه وسلم مرة لصهيب وبه رمد وهو يأكل تمرا أتأكل التمر وأنت رمد فقال انما آكل بالشق الآخر يارسول الله فتبسم صلى الله عليه وسلم قال بعض الرواة حتى نظرت الى نواجذه وروى أن خوات بن جبير الانصارى كان جالسا الى نسوة من بنى كعب بطريق مكة فطلع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا أبا عبد الله مالك مع النسوة فقال يفتلن ضفيرا لجمل لى شرود قال فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته ثم عاد فقال يا أبا عبد الله أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد قال فسكت واستحييت وكنت بعد ذلك أتفر رمنه كلما رأيته حياء منه حتى قدمت المدينة وبعد ما قدمت المدينة قال فرآنى فى المسجد

ثم فر من الله تعالى حياء منه وهيبة واجلالا وطوى نفسه بقرارة فى مطاوى انكساره وافتقاره لكيلا تنبسط النفس فتطغى فان الطغيان عند الاستغناء وصف النفس قال الله تعالى كلا ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى والنفس عند المواهب الواردة على الروح والقلب تسترق السمع ومتى نالت قسطا من المنح استغنت وطغت والطغيان يظهر منه فرط البسط والافراط فى البسط يسد باب المزيد وطغيان النفس لضيق وعائها عن المواهب فموسى عليه السلام صح له فى الحضرة أحد طرفى مازاغ البصر وما التفت الى مافاته وماطغى متأسفا لحسن أدبه ولكن امتلأ من المنح واسترقت النفس السمع وتطلعت الى القسط والحظ فلما حظيت النفس استغنت وطفح عليها ماوصل اليها وضاق نطاقها فتجاوز

يوما أصلى فجلس الى فطولت فقال لا تطول فانى أنتظرك فلما سلمت قال يا أبا عبد الله أما ترك ذلك الجمل الشراد
بعد قال فسكت واستحييت فقام وكنت بعد ذلك أتفر منه حتى لحقنى يوما وهو على حمار وقد جعل رجليه فى شق
واحد فقال أبا عبد الله أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد فقلت والذى بعثك بالحق ما شرد منذ أسلمت فقال الله أكبر
الله أكبر اللهم اهد أبا عبد الله قال فحسن اسلامه وهداه الله وكان نعيمان الانصارى رجلا مزاحا فكان يشرب الخمر
فى المدينة فيؤتى به الى النبى صلى الله عليه وسلم فيضربه بنعله ويأمر أصحابه فيضربونه بنعالهم فلما كثر ذلك
منه قال له رجل من الصحابة لعنك الله فقال له النبى صلى الله عليه وسلم لا تفعل فانه يحب الله ورسوله وكان
لا يدخل المدينة رسل ولا طرفة الا اشترى منها ثم أتى بها النبى صلى الله عليه وسلم فيقول يا رسول الله هذا قد اشتريته
لك وأهديته لك فاذا جاء صاحبها يتقاضاه بالثمن جاء به الى النبى صلى الله عليه وسلم وقال يا رسول الله أعطه ثمن
متاعه فيقول له صلى الله عليه وسلم أولم تهده لنا فيقول يا رسول الله انه لم يكن عندى ثمنه وأحببت أن تأكل منه
فيضحك النبى صلى الله عليه وسلم ويأمر لصاحبه بثمنه فهذه مطايبات يباح مثلها على الندور لا على الدوام
والمواظبة عليها هزل مذموم وسبب للضحك المميت للقلب

﴿ الآفة الحادية عشرة ﴾

السخرية والاستهزاء وهذا محرم مهما كان مؤذيا كما قال تعالى يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن
يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ومعنى السخرية الاستهانة والتحقير والتنبيه على
العيوب والنقائص على وجه يضحك منه وقد يكون ذلك بالمحاكاة فى الفعل والقول وقد يكون بالاشارة والايماء
واذا كان بحضرة المستهزأ به لم يسم ذلك غيبة وفيه معنى الغيبة قالت عائشة رضى الله عنها حاكيت انسانا فقال
لى النبى صلى الله عليه وسلم والله ما أحب انى حاكيت انسانا ولى كذا وكذا وقال ابن عباس فى قوله تعالى يا ويلتنا
مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ان الصغيرة التبسم بالاستهزاء بالمؤمن والكبيرة القهقهة
بذلك وهذا اشارة الى أن الضحك على الناس من جملة الذنوب والكبائر وعن عبد الله بن زمعة أنه قال سمعت
رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطب فوعظهم فى ضحكهم من الضرطة فقال علام يضحك أحدكم مما يفعل
وقال صلى الله عليه وسلم ان المستهزئين بالناس يفتح لاحدهم باب من الجنة فيقال هلم هلم فيجىء بكربه وغمه فاذا
أتاه أغلق دونه ثم يفتح له باب آخر فيقال هلم هلم فيجىء بكربه وغمه فاذا أتاه أغلق دونه فما يزال كذلك حتى ان
الرجل ليفتح له الباب فيقال له هلم هلم فلا يأتيه وقال معاذ بن جبل قال النبى صلى الله عليه وسلم من عير أخاه بذنب
قد تاب منه لم يمت حتى يعمله وكل هذا يرجع الى استحقار الغير والضحك عليه استهانة به واستصغارا له وعليه نبه
قوله تعالى عسى أن يكونوا خيرا منهم أى لا تستحقره استصغارا فلعله خير منك وهذا انما يحرم فى حق من يتأذى
به فأما من جعل نفسه مسخرة وربما فرح من أن يسخر به كانت السخرية فى حقه من جملة المزاح وقد سبق ما يذم
منه وما يمدح وانما المحرم استصغار يتأذى به المستهزأ به لما فيه من التحقير والتهاون وذلك تارة بأن يضحك على
كلامه اذا تخبط فيه ولم ينتظم أو على أفعاله اذا كانت مشوشة كالضحك على خطه وعلى صنعته أو على صورته
وخلقته اذا كان قصيرا أو ناقصا لعيب من العيوب فالضحك من جميع ذلك داخل فى السخرية المنهى عنها

﴿ الآفة الثانية عشرة ﴾

افشاء السر وهو منهى عنه لما فيه من الايذاء والتهاون بحق المعارف والاصدقاء قال النبى صلى الله عليه وسلم
اذا حدث الرجل الحديث ثم التفت فهى أمانة وقال مطلقا الحديث بينكم أمانة وقال الحسن ان من الخيانة
أن تحدث بسر أخيك ويروى أن معاوية رضى الله عنه أسر الى الوليد بن عتبة حديثا فقال لابيه يا أبت ان أمير
المؤمنين أسر الى حديثا وما أراه يطوى عنك ما بسطه الى غيرك قال فلا تحدثنى به فان من كتم سره كان الخيار اليه
ومن أفشاه كان الخيار عليه قال فقلت يا أبت وان هذا ليدخل بين الرجل وبين ابنه فقال لا والله يا بنى ولكن
أحب أن لا تذلل لسانك بأحاديث السر قال فأتيت معاوية فأخبرته فقال يا وليد أعتقك أبوك من رق الخطأ
فافشاء السر خيانة وهو حرام اذا كان فيه اضرار ولؤم ان لم يكن فيه اضرار وقد ذكرنا ما يتعلق بكتمان السر
فى كتاب آداب الصحبة فأغنى عن الاعادة

﴿ الآفة الثالثة عشرة ﴾

الحد من فرط البسط
وقال أرنى أنظر اليك
فمنع ولم يطلق فى فضاء
المزيد وظهر الفرق بين
الحبيب والكليم
عليهما السلام وهذه
دقيقة لارباب القرب
والاحوال السنية فكل
قبض يوجد عقوبة
لان كل قبض سد فى
وجه باب الفتوح
والعقوبة بالقبض
أوجبت الافراط فى
البسط ولو حصل
الاعتدال فى البسط ما
وجبت العقوبة بالقبض
والاعتدال فى البسط
بايقاف النازل من
المنح على الروح والقلب
والايقاف على الروح
والقلب بما ذكرناه من
حال النبى عليه السلام
من تغييب النفس فى
مطاوى الانكسار
فذلك الفرار من الله
الى الله وهو غاية الادب
حظى به رسول الله
عليه الصلاة والسلام
فاقو بل بالقبض فدام
مزيده وكان قاب
قوسين أو أدنى ويشاكل
الشرح الذى شرحناه

الوعد الكاذب فان اللسان سباق الى الوعد ثم النفس ربما لا تسمح بالوفاء فيصير الوعد خلفا وذلك من أمارات
النفاق قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود وقال صلى الله عليه وسلم العدة عطية وقال صلى الله عليه
وسلم الوأى مثل الدين أو أفضل والوأى الوعد وقد أثنى الله تعالى على نبيه اسماعيل عليه السلام في كتابه العزيز
فقال انه كان صادق الوعد قيل انه واعد انسانا في موضع فلم يرجع اليه ذلك الانسان بل نسي فبقي اسمعيل اثنين
وعشرين يوما في انتظاره ولما حضرت عبد الله بن عمر الوفاة قال انه كان خطب الى ابنتي رجل من قريش وقد كان
مني اليه شبه الوعد فوالله لا ألقى الله بثلث النفاق أشهدكم أني قد زوجته ابنتي وعن عبد الله بن أبي الخنساء قال
بايعت النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث وبقيت له بقية فواعدته أن آتيه بها في مكانه ذلك فنسيت يومي
والغد فأتيته اليوم الثالث وهو في مكانه فقال يا فتى لقد شققت علي أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك وقيل لابراهيم
الرجل يواعد الرجل الميعاد فلا يجيء قال ينتظره الى أن يدخل وقت الصلاة التي تجيء وكان رسول الله صلى الله
عليه وسلم اذا وعد وعدا قال عسى وكان ابن مسعود لا يعد وعدا الا ويقول ان شاء الله وهو الاولى ثم اذا فهم مع
ذلك الجزم في الوعد فلا بد من الوفاء الا أن يتعذر فان كان عند الوعد عازما على أن لا يفي فهذا هو النفاق وقال أبو
هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث من كن فيه فهو منافق وان صام وصلى وزعم أنه مسلم اذا حدث كذب
واذا وعد أخلف واذا ائتمن خان وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع
من كن فيه كان منافقا ومن كانت فيه خلة منهن كان فيه خلة من النفاق حتى يدعها اذا حدث كذب واذا وعد
أخلف واذا عاهد غدر واذا خاصم فجر وهذا ينزل على من وعد وهو على عزم الخلف أو ترك الوفاء من غير عذر
فاما من عزم على الوفاء فعن له عذر منعه من الوفاء لم يكن منافقا وان جرى عليه ما هو صورة النفاق ولكن ينبغي
أن يحترز من صورة النفاق أيضا كما يحترز من حقيقته ولا ينبغي أن يجعل نفسه معذورا من غير ضرورة حاجزة
فقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان وعد أبا الهيثم بن التيهان خادما فأتي بثلاثة من السبي فأعطى
اثنين وبقي واحد فأتت فاطمة رضي الله عنها تطلب منه خادما وتقول ألا ترى أثر الرحى بيدي فذكر موعده لأبي
الهيثم فجعل يقول كيف بموعدي لأبي الهيثم فآثره به على فاطمة لما كان قد سبق من موعده له مع انها كانت
تدير الرحى بيدها الضعيفة ولقد كان صلى الله عليه وسلم جالسا يقسم غنائم هوازن بحنين فوقف عليه رجل من
الناس فقال ان لي عندك موعدا يا رسول الله قال صدقت فاحتكم ما شئت فقال احتكم ثمانين ضائنة وراعيها
قال هي لك وقال احتكمت يسيرا ولصاحبة موسى عليه السلام التي دلته على عظام يوسف كانت أحزم منك
وأجزل حكما منك حين حكمها موسى عليه السلام فقالت حكمي أن تردني شابة وأدخل معك الجنة قيل فكان
الناس يضعفون ما احتكم به حتى جعل مثلا فقيل أشح من صاحب الثمانين والراعي وقد قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم ليس الخلف أن يعد الرجل الرجل وفي نيته أن يفي وفي لفظ آخر اذا وعد الرجل أخاه وفي نيته أن يفي فلم
يجد فلا اثم عليه

﴿ الآفة الرابعة عشرة ﴾

الكذب في القول واليمين وهو من قبائح الذنوب وفواحش العيوب قال اسمعيل بن واسط سمعت أبا بكر
الصديق رضي الله عنه يخطب بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم
مقامي هذا عام أول ثم بكى وقال اياكم والكذب فانه مع الفجور وهما في النار وقال أبو أمامة قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم ان الكذب باب من أبواب النفاق وقال الحسن كان يقال ان من النفاق اختلاف السر والعلانية
والقول والعمل والمدخل والمخرج وان الاصل الذي بني عليه النفاق الكذب وقال عليه السلام كبرت خيانة أن
تحدث أخاك حديثا هو لك به مصدق وأنت له به كاذب وقال ابن مسعود قال النبي صلى الله عليه وسلم لا يزال العبد
يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجلين يتبايعان شاة
ويتحالفان يقول أحدهما والله لا أنقصك من كذا وكذا ويقول الآخر والله لا أزيدك على كذا وكذا فمر بالشاة
وقد اشتراها أحدهما فقال أوجب أحدهما بالاثم والكفارة وقال عليه السلام الكذب ينقص الرزق وقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم ان التجار هم الفجار فقيل يا رسول الله أليس قد أحل الله البيع قال نعم ولكنهم

قول أبي العباس بن عطاء في قوله تعالى ما زاغ البصر وما طغى قال لم يره بطغيان عيل بل رآه على شرط اعتدال القوى وقال سهل بن عبد الله التستري لم يرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى شاهد نفسه ولا الى مشاهدتها وانما كان مشاهدا بكليته لربه يشاهد ما يظهر عليه من الصفات التي أوجبت الثبوت في ذلك المحل وهذا الكلام لمن اعتبر موافق لما شرحناه برمز في ذلك عن سهل بن عبد الله ويؤيد ذلك أيضا ما أخبرنا به شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردي اجازة قال أنا الشيخ العالم عصام الدين أبو حفص عمر بن أحمد بن منصور الصفار النيسابوري قال أنا أبو بكر أحمد بن خلف الشيرازي قال أنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي قال سمعت أبا نصر بن عبد الله بن علي السراج

يحلفون فيأثمون و يحدثون فيكذبون وقال صلى الله عليه وسلم ثلاثة نفر لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر اليهم المنان بعطيته والمنفق سلعته بالحلف الفاجر والمسبل ازاره وقال صلى الله عليه وسلم ما حلف حالف بالله فادخل فيهامثل جناح بعوضة الا كانت نكتة فى قلبه الى يوم القيامة وقال أبو ذر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة يحبهم الله رجل كان فى فئة فنصب نحره حتى يقتل أو يفتح الله عليه وعلى أصحابه و رجل كان له جار سوء يؤذيه فصبر على أذاه حتى يفرق بينهما موت أو ظعن ورجل كان معه قوم فى سفر أو سرية فأطالوا السرى حتى أعجبهم أن يمسوا الارض فنزلوا فتنحى يصلى حتى يوقظ أصحابه للرحيل وثلاثة يشنأهم الله التاجر أو البياع الحلاف والفقير المختال والبخيل المنان وقال صلى الله عليه وسلم ويل للذى يحدث فيكذب ليضحك به القوم ويل له ويل له وقال صلى الله عليه وسلم رأيت كان رجلا جاءنى فقال لى قم فقمت معه فاذا أنا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس بيد القائم كلوب من حديد يلقمه فى شدق الجالس فيجذبه حتى يبلغ كاهله ثم يجذبه فيلقمه الجانب الآخر فيمده فاذا مده رجع الآخر كما كان فقلت للذى أقامنى ماهذا فقال هذا رجل كذاب يعذب فى قبره الى يوم القيامة وعن عبد الله بن جراد قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله هل يزنى المؤمن قال قد يكون ذلك قال يانبى الله هل يكذب المؤمن قال لا ثم اتبعها صلى الله عليه وسلم بقول الله تعالى انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وقال أبو سعيد الخدرى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو فيقول فى دعائه اللهم طهر قلبى من النفاق وفرجى من الزنا ولسانى من الكذب وقال صلى الله عليه وسلم ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم شيخ زان وملك كذاب وعائل مستكبر وقال عبد الله بن عامر جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بيتنا وأنا صبى صغير فذهبت لالعب فقالت أمى ياعبد الله تعال حتى أعطيك فقال صلى الله عليه وسلم وما أردت أن تعطيه قالت تمرا فقال أما انك لو لم تفعلى لكتبت عليك كذبة وقال صلى الله عليه وسلم لو أفاء الله على نعما عدد هذا الحصى لقسمتها بينكم ثم لا تجدونى بخيلا ولا كذابا ولا جبانا وقال صلى الله عليه وسلم وكان متكئا ألا أنبئكم بأكبر الكبائر الاشراك بالله وعقوق الوالدين ثم قعد وقال ألا وقول الزور وقال ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان العبد ليكذب الكذبة فيتباعد الملك عنه مسيرة ميل من نتن ما جاء به وقال أنس قال النبى صلى الله عليه وسلم تقبلوا لى بست أتقبل لكم بالجنة قالوا وما هن قال اذا حدث أحدكم فلا يكذب واذا وعد فلا يخلف واذا ائتمن فلا يخن وغضوا أبصاركم واحفظوا فروجكم وكفوا أيديكم وقال صلى الله عليه وسلم ان للشيطان كحلا ولعوقا ونشوقا أما لعوقه فالكذب وأما نشوقه فالغضب وأما كحله فالنوم وخطب عمر رضى الله عنه يوما فقال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم كقيامى هذا فيكم فقال أحسنوا الى أصحابى ثم الذين يلونهم ثم يفشو الكذب حتى يحلف الرجل على اليمين ولم يستحلف ويشهد ولم يستشهد وقال النبى صلى الله عليه وسلم من حدث عنى بحديث وهو يرى انه كذب فهو أحد الكذابين وقال صلى الله عليه وسلم من حلف على يمين بإثم ليقتطع بها مال امرئ مسلم بغير حق لقى الله عز وجل وهو عليه غضبان وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه رد شهادة رجل فى كذبة كذبها وقال صلى الله عليه وسلم كل خصلة يطبع أو يطوى عليها المسلم الا الخيانة والكذب وقالت عائشة رضى الله عنها ما كان من خلق أشد على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلع على الرجل من أصحابه على الكذبة فما ينجلى من صدره حتى يعلم أنه قد أحدث توبة لله عز وجل منها وقال موسى عليه السلام يارب أى عبادك خير لك عملا قال من لا يكذب لسانه ولا يفجر قلبه ولا يزنى فرجه وقال لقمان لابنه يابنى اياك والكذب فانه شهى كلحم العصفور عما قليل يقلاه صاحبه وقال عليه السلام فى مدح الصدق أربع اذا كن فيك فلا يضرك مافاتك من الدنيا صدق الحديث وحفظ الامانة وحسن خلق وعفة طعمة وقال أبو بكر رضى الله عنه فى خطبة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل مقامى هذا عام أول ثم بكى وقال عليكم بالصدق فانه مع البر وهما فى الجنة وقال معاذ قال لى صلى الله عليه وسلم أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث وأداء الامانة والوفاء بالعهد وبذل السلام وخفض الجناح (وأما الآثار) فقد قال على رضى الله عنه أعظم الخطايا عند الله اللسان الكذوب وشر الندامة ندامة يوم القيامة وقال

قال أنا أبو الطيب المكى عن أبى محمد الجريرى قال التسرع الى استدراك علم الانقطاع وسيلة والوقوف على حد الانحسار نجاة واللياذ بالهرب من علم الدنو وصلة واستقباح ترك الجواب ذخيرة والاعتصام من قبول دواعى استماع الخطاب تكلف وخوف فوت علم ما انطوى من فصاحة الفهم فى حيز الاقبال مساءة والاصغاء الى تلقى ماينفصل عن معدنه بعد والاستسلام عند التلاقى جراءة والانبساط فى محل الانس غرة وهذه الكلمات كلها من آداب الحضرة لاربابها وفى قوله تعالى مازاغ البصر وماطغى وجه آخر ألطف مما سبق مازاغ البصر حيث لم يتخلف عن البصيرة ولم يتقاصر وماطغى لم يسبق البصر البصيرة فيتجاوز حده و يتعدى مقامه بل استقام البصر مع البصيرة والظاهر

عمر بن عبد العزيز رحمه الله عليه ما كذبت كذبة منذ شددت على ازاري وقال عمر رضي الله عنه أحبكم الينا ما لم نركم أحسنكم اسما فاذا رأيناكم فاحبكم الينا أحسنكم خلقا فاذا اختبرناكم فاحبكم الينا أصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة وعن ميمون بن أبي شبيب قال جلست أكتب كتابا فأتيت على حرف ان أنا كتبته زينت الكتاب وكنت قد كذبت فعزمت على تركه فنوديت من جانب البيت يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة وقال الشعبي ما أدري أيهما أبعد غورا في النار الكذاب أو البخيل وقال ابن السماك ما أراني أوجر على ترك الكذب لاني انما أدعه أنفة وقيل لخالد بن صبيح أيسمى الرجل كاذبا بكذبة واحدة قال نعم وقال مالك بن دينار قرأت في بعض الكتب ما من خطيب الا وتعرض خطبته على عمله فان كان صادقا صدق وان كان كاذبا قرضت شفتاه بمقاريض من نار كلما اقرضتا نبتتا وقال مالك بن دينار الصدق والكذب يعتركان في القلب حتى يخرج أحدهما صاحبه وكلم عمر بن عبد العزيز الوليد بن عبد الملك في شيء فقال له كذبت فقال عمر والله ما كذبت منذ علمت أن الكذب يشين صاحبه

* بيان ما رخص فيه من الكذب *

اعلم أن الكذب ليس حراما لعينه بل لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره فان أقل درجاته أن يعتقد المخبر الشيء على خلاف ما هو عليه فيكون جاهلا وقد يتعلق به ضرر غيره ورب جهل فيه منفعة ومصلحة فالكذب محصل لذلك الجهل فيكون مأذونا فيه وربما كان واجبا قال ميمون بن مهران الكذب في بعض المواطن خير من الصدق أرأيت لو أن رجلا سعى خلف انسان بالسيف ليقتله فدخل دارا فانتهى اليك فقال أرأيت فلانا ما كنت قائلا ألست تقول لم أره وما تصدق به وهذا الكذب واجب * فنقول الكلام وسيلة الى المقاصد فكل مقصود محمود يمكن التوصل اليه بالصدق والكذب جميعا فالكذب فيه حرام وان أمكن التوصل اليه بالكذب دون الصدق فالكذب فيه مباح ان كان تحصيل ذلك القصد مباحا وواجب ان كان المقصود واجبا كما أن عصمة دم المسلم واجبة فمهما كان في الصدق سفك دم امرئ مسلم قد اختفى من ظالم فالكذب فيه واجب ومهما كان لا يتم مقصود الحرب أو اصلاح ذات البين أو استمالة قلب المجني عليه الا بالكذب فالكذب مباح الا أنه ينبغي أن يحترز منه ما أمكن لانه اذا فتح باب الكذب على نفسه فيخشى أن يتداعى الى ما يستغنى عنه والى ما لا يقتصر على حد الضرورة فيكون الكذب حراما في الاصل الا للضرورة والذي يدل على الاستثناء ما روي عن أم كلثوم قالت ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرخص في شيء من الكذب الا في ثلاث الرجل يقول القول يريد به الاصلاح والرجل يقول القول في الحرب والرجل يحدث امرأته والمرأة تحدث زوجها وقالت أيضا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا أو نمى خيرا وقالت أسماء بنت يزيد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل الكذب يكتب على ابن آدم الا رجل كذب بين مسلمين ليصلح بينهما وروي عن أبي كاهل قال وقع بين اثنين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلام حتى تصارما فلقيت أحدهما فقلت مالك ولفلان فقد سمعته يحسن عليك الثناء ثم لقيت الآخر فقلت له مثل ذلك حتى اصطلحا ثم قلت أهلكت نفسي وأصلحت بين هذين فأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا أبا كاهل أصلح بين الناس ولو أي بالكذب وقال عطاء بن يسار قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم أكذب على أهلي قال لا خير في الكذب قال أعدها وأقول لها قال لا جناح عليك وروي ان ابن أبي عذرة الدؤلي وكان في خلافة عمر رضي الله عنه كان يخلع النساء اللاتي يتزوج بهن فطارت له في الناس من ذلك أحدوثة يكرهها فلما علم بذلك أخذ بيد عبد الله بن الارقم حتى أتى به الى منزله ثم قال لامرأته أنشدك بالله هل تبغضيني قالت لا تنشدني قال فاني أنشدك الله قالت نعم فقال لابن الارقم أتسمع ثم انطلقا حتى أتيا عمر رضي الله عنه فقال انكم لتحدثون اني أظلم النساء وأخلعهن فاسأل ابن الارقم فسأله فأخبره فأرسل الى امرأة ابن أبي عذرة فجاءت هي وعمتها فقال أنت التي تحدثين لزوجك انك تبغضينه فقالت اني أول من تاب وراجع أمر الله تعالى انه ناشدني فتحرجت أن أكذب أفأكذب يا أمير المؤمنين قال نعم فاكذبي فان كانت احداكن لا تحب أحدنا فلا تحدثه بذلك فان أقل البيوت الذي يبنى على الحب ولكن الناس يتعاشرون بالاسلام والاحساب وعن النواس بن سمعان الكلابي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مالي أراكم تتهافتون في الكذب تهافت

مع الباطن والقلب مع القالب والنظر مع القدم ففي تقدم النظر على القدم طغيان والمعنى بالنظر علم وبالقدم حال القالب فلم يتقدم النظر على القدم فيكون طغيانا ولم يتخلف القدم عن النظر فيكون تقصيرا فلما اعتدلت الاحوال وصار قلبه كقالبه وقالبه كقلبه وظاهره كباطنه وباطنه كظاهره وبصره كبصيرته وبصيرته كبصره حيث انتهى نظره وعلمه قارنه قدمه وحاله ولهذا المعنى انعكس حكم معناه ونوره على ظاهره وأتى البراق ينتهي خطوه حيث ينتهي نظره لا يتخلف قدم البراق عن موضع نظره كما جاء في حديث المعراج فكان البراق بقلبه مشاكلا لمعناه ومتصفا بصفته لقوة حاله ومعناه وأشار في حديث المعراج الى مقامات الانبياء ورأى في كل سماء بعض الانبياء اشارة الى

الفراش

الفراش فى النار كل الكذب يكتب على ابن آدم لا محالة الا أن يكذب الرجل فى الحرب فان الحرب خدعة أو يكون بين الرجلين شحناء فيصلح بينهما أو يحدث امرأته يرضيها وقال ثوبان الكذب كله اثم الا ما نفع به مسلما أو دفع عنه ضررا وقال على رضى الله عنه اذا حدثتكم عن النبى صلى الله عليه وسلم فلان أخر من السماء أحب الى من أن أكذب عليه واذا حدثتكم فيما بينى وبينكم فالحرب خدعة فهذه الثلاث ورد فيها صريح الاستثناء وفى معناها ما عداها اذا ارتبط به مقصود صحيح له أو لغيره أما ماله فمثل أن يأخذه ظالم ويسأله عن ماله فله أن ينكره أو يأخذه سلطان فيسأله عن فاحشة بينه وبين الله تعالى ارتكبها فله أن ينكر ذلك فيقول ما زنيت وما سرقت وقال صلى الله عليه وسلم من ارتكب شيأ من هذه القاذورات فليستتر بستر الله وذلك ان اظهار الفاحشة فاحشة أخرى فللرجل أن يحفظ دمه وماله الذى يؤخذ ظلما وعرضه بلسانه وان كان كاذبا وأما عرض غيره فبان يسأل عن سر أخيه فله أن ينكره وأن يصلح بين اثنين وأن يصلح بين الضرات من نسائه بان يظهر لكل واحدة أنها أحب اليه وان كانت امرأته لا تطاوعه الا بوعد لا يقدر عليه فيعدها فى الحال تطييبا لقلبها أو يعتذر الى انسان وكان لا يطيب قلبه الا بانكار ذنب وزيادة تودد فلا بأس به ولكن الحد فيه أن الكذب محذور ولو صدق فى هذه المواضع تولد منه محذور فينبغى أن يقابل أحدهما بالآخر ويزن بالميزان القسط فاذا علم أن المحذور الذى يحصل بالصدق أشد وقعا فى الشرع من الكذب فله الكذب وان كان ذلك المقصود أهون من مقصود الصدق فيجب الصدق وقد يتقابل الامران بحيث يتردد فيهما وعند ذلك الميل الى الصدق أولى لان الكذب يباح لضرورة أو حاجة مهمة فان شك فى كون الحاجة مهمة فالاصل التحريم فيرجع اليه ولاجل غموض ادراك مراتب المقاصد ينبغى أن يحترز الانسان من الكذب ما أمكنه وكذلك مهما كانت الحاجة له فيستحب له أن يترك أغراضه ويهجر الكذب فأما اذا تعلق بغرض غيره فلا تجوز المسامحة لحق الغير والاضرار به وأكثر كذب الناس انما هو لحظوظ أنفسهم ثم هو لزيادات المال والجاه ولامور ليس فواتها محذورا حتى أن المرأة لتحكى عن زوجها ما تفتخر به وتكذب لاجل مراغمة الضرات وذلك حرام وقالت أسماء سمعت امرأة سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت ان لى ضرة وانى أتكثر من زوجى بما لم يفعل أضارها بذلك فهل على شئ فيه فقال صلى الله عليه وسلم المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبى زور وقال صلى الله عليه وسلم من تطعم بما لا يطعم أو قال لى وليس له أو أعطيت ولم يعط فهو كلابس ثوبى زور يوم القيامة ويدخل فى هذا فتوى العالم بما لا يتحققه وايراده الحديث الذى لا يتثبته اذ غرضه أن يظهر فضل نفسه فهو لذلك يستنكف من أن يقول لا أدرى وهذا حرام ومما يلتحق بالنساء الصبيان فان الصبى اذا كان لا يرغب فى المكتب الا بوعد أو وعيد أو تخويف كاذب كان ذلك مباحا نعم روينا فى الاخبار أن ذلك يكتب كذبا ولكن الكذب المباح أيضا قد يكتب ويحاسب عليه ويطالب بتصحيح قصده فيه ثم يعفى عنه لانه انما أبيح بقصد الاصلاح ويتطرق اليه غرور كبير فانه قد يكون الباعث له حظه وغرضه الذى هو مستغن عنه وانما يتعلل ظاهرا بالاصلاح فلهذا يكتب وكل من أتى بكذبة فقد وقع فى خطر الاجتهاد ليعلم أن المقصود الذى كذب لاجله هل هو أهم فى الشرع من الصدق أم لا وذلك غامض جدا والحزم تركه الا أن يصير واجبا بحيث لا يجوز تركه كما لو أدى الى سفك دم أو ارتكاب معصية كيف كان وقد ظن ظانون أنه يجوز وضع الاحاديث فى فضائل الاعمال وفى التشديد فى المعاصى وزعموا أن القصد منه صحيح وهو خطأ محض اذ قال صلى الله عليه وسلم من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار وهذا لا يرتكب الا لضرورة ولا ضرورة اذ فى الصدق مندوحة عن الكذب ففيما ورد من الآيات والاخبار كفاية عن غيرها وقول القائل ان ذلك قد تكرر على الاسماع وسقط وقعه وما هو جديد فوقعه أعظم فهذا هوس اذ ليس هذا من الاغراض التى تقاوم محذور الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى الله تعالى ويؤدى فتح بابه الى أمور تشوش الشريعة فلا يقاوم خير هذا شره أصلا والكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر التى لا يقاومها شئ نسأل الله العفو عنا وعن جميع المسلمين

﴿بيان الحذر من الكذب بالمعاريض﴾

قد نقل عن السلف أن فى المعاريض مندوحة عن الكذب قال عمر رضى الله عنه اما فى المعاريض ما يكفى الرجل

تعويقهم وتخلفهم عن شأوه ودرجته ورأى موسى فى بعض السموات فمن هو فى بعض السموات يكون قوله أرنى أنظر اليك تجاوز النظر عن حد القدم وتخلفا للقدم عن النظر وهذا هو الاخلال باحد الوصفين من قوله تعالى ما زاغ البصر وما طغى فرسول الله جعل مقترنا قدمه ونظره فى جمال الحياء والتواضع ناظرا الى قدمه قادما على نظره ولو خرج عن جمال الحياء والتواضع وتطاول بالنظر متعديا حد القدم تعوق فى بعض السموات كتعوق غيره من الانبياء فلم يزل صلى الله عليه وسلم مستجلس جماله فى خفارة أدب حاله حتى خرق حجب السموات فانصبت اليه أقسام القرب انصبابا وانقشعت عنه سحائب الحجب حجابا حجابا حتى استقام على صراط ما زاغ البصر وما

عن الكذب و روى ذلك عن ابن عباس وغيره وانما أرادوا بذلك اذا اضطر الانسان الى الكذب فاما اذا لم يكن حاجة وضرورة فلا يجوز التعريض ولا التصريح جميعا ولكن التعريض أهون ومثال التعريض ما روى أن مطرفا دخل على زياد فاستبطأه فتعلل بمرض وقال ما رفعت جنبي مذ فارقت الامير الا ما رفعني الله وقال ابراهيم اذا بلغ الرجل عنك شيء فكرهت أن تكذب فقل ان الله تعالى ليعلم ما قلت من ذلك من شيء فيكون قوله ما حرف نفي عند المستمع وعنده للابهام وكان معاذ بن جبل عاملا لعمر رضي الله عنه فلما رجع قالت له امرأته ما جئت به مما يأتي به العمال الى أهلهم وما كان قد أتاها بشيء فقال كان عندي ضاغط قالت كنت أمينا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعند أبي بكر رضي الله عنه فبعث عمر معك ضاغطا وقامت بذلك بين نسائها واشتكت عمر فلما بلغه ذلك دعاه معاذ وقال بعثت معك ضاغطا قال لم أجد ما أعتذر به اليها الا ذلك فضحك عمر رضي الله عنه وأعطاه شيأ فقال أرضها به ومعنى قوله ضاغطا يعني رقيبا وأراد به الله تعالى وكان النخعي لا يقول لابنته أشتري لك سكرا بل يقول أرأيت لو اشتريت لك سكرا فانه ربما لا يتفق له ذلك وكان ابراهيم اذا طلبه من يكره أن يخرج اليه وهو في الدار قال للجارية قولي له اطلبه في المسجد ولا تقولي ليس ههنا كيلا يكون كذبا وكان الشعبي اذا طلب في المنزل وهو يكرهه خط دائرة وقال للجارية ضعي الاصبع فيها وقولي ليس ههنا وهذا كله في موضع الحاجة فاما في غير موضع الحاجة فلا لان هذا تفهيم للكذب وان لم يكن اللفظ كذبا فهو مكروه وعلى الجملة كما روي عن عبد الله بن عتبة قال دخلت مع أبي على عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه فخرجت وعلي ثوب فجعل الناس يقولون هذا كساكه أمير المؤمنين فكنت أقول جزى الله أمير المؤمنين خيرا فقال لي أبي يا بني اتق الكذب وما أشبهه فنهاه عن ذلك لان فيه تقريرا لهم على ظن كاذب لاجل غرض المفاخرة وهذا غرض باطل لا فائدة فيه نعم المعاريض تباح بغرض خفيف كتطييب قلب الغير بالمزاح كقوله صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة عجوز وقوله للاخرى الذي في عين زوجك بياض وللاخرى نحملك على ولد البعير وما أشبهه وأما الكذب الصريح كما فعله نعيمان الانصاري مع عثمان في قصة الضرير اذ قال له انه نعيمان وكما يعتاده الناس بملاعبة الحمقى بتغريرهم بان امرأة قد رغبت في تزويجك فان كان فيه ضرر يؤدي الى ايذاء قلب فهو حرام وان لم يكن الا المطايبة فلا يوصف صاحبها بالفسق ولكن ينقص ذلك من درجة ايمانه قال صلى الله عليه وسلم لا يكمل للمرء الايمان حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه وحتى يجتنب الكذب في مزاحه وأما قوله عليه السلام ان الرجل ليتكلم بالكلمة ليضحك بها الناس يهوي بها في النار أبعد من الثريا أراد به ما فيه غيبة مسلم أو ايذاء قلب دون محض المزاح ومن الكذب الذي لا يوجب الفسق ما جرت به العادة في المبالغة كقوله طلبتك كذا وكذا مرة وقلت لك كذا مائة مرة فانه لا يريد به تفهيم المرات بعددها بل تفهيم المبالغة فان لم يكن طلبه الا مرة واحدة كان كاذبا وان كان طلبه مرات لا يعتاد مثلها في الكثرة لا يأثم وان لم تبلغ مائة وبينهما درجات يتعرض مطلق اللسان بالمبالغة فيها لخطر الكذب ومما يعتاد الكذب فيه ويتساهل به أن يقال كل الطعام فيقول لا أشتهيه وذلك منهي عنه وهو حرام ان لم يكن فيه غرض صحيح قال مجاهد قالت أسماء بنت عميس كنت صاحبة عائشة في الليلة التي هيأتها وأدخلتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعي نسوة قالت فوالله ما وجدنا عنده قرى الا قدحا من لبن فشرب ثم ناوله عائشة قالت فاستحيت الجارية فقلت لا تردي يد رسول الله صلى الله عليه وسلم خذي منه قالت فاخذت منه على حياء فشربت منه ثم قال ناولي صواحبك فقلن لا نشتهيه فقال لا تجمعن جوعا وكذبا قالت فقلت يا رسول الله ان قالت احدانا لشيء تشتهيه لا أشتهيه أيعد ذلك كذبا قال ان الكذب ليكتب كذبا حتى تكتب الكذيبة كذيبة وقد كان أهل الورع يحترزون عن التسامح بمثل هذا الكذب قال الليث بن سعد كانت عينا سعيد بن المسيب ترمص حتى يبلغ الرمص خارج عينيه فيقال له لو مسحت عينيك فيقول وأين قول الطبيب لا تمس عينيك فاقول لا أفعل وهذه مراقبة أهل الورع ومن تركه انسل لسانه في الكذب عن حد اختياره فيكذب ولا يشعر وعن خوات التيمي قال جاءت أخت الربيع بن خثيم عائدة لابن له فانكبت عليه فقالت كيف أنت يا بني فجلس الربيع وقال أرضعتيه قالت لا قال ما عليك لو قلت يا ابن أخي فصدقت ومن العادة أن يقول يعلم الله فيما لا يعلمه قال عيسى عليه السلام ان من أعظم

طفي فركالبرق الخاطف الى مخدع الوصل وللطائف وهذا غاية في الادب ونهاية في الارب (قال) أبو محمد بن رويم حين سئل عن أدب المسافر فقال لا يجاوز همه قدمه فحيث وقف قلبه يكون مقره (أخبرنا) شيخنا ضياء الدين أبو النجيب اجازة قال أنا عمر بن أحمد قال أنا أبو بكر بن خلف قال أنا عبد الرحمن السلمي قال ثنا القاضي أبو محمد يحيى بن منصور قال حدثنا أبو عبد الله محمد ابن علي الترمذي قال حدثنا ابن رزام الايلي قال حدثنا محمد بن عطاء الجهيمي قال حدثنا محمد بن نصير عن عطاء ابن أبي رباح عن ابن عباس قال تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية رب أرني أنظر اليك قال قال يا موسى انه لا يراني حي الا مات ولا يابس الا تدهده ولا رطب الا تفرق انما يراني أهل الجنة

الذنوب عند الله أن يقول العبد ان الله يعلم لما لا يعلم وربما يكذب فى حكاية المنام والاثم فيه عظيم اذ قال عليه السلام ان من أعظم الفرية أن يدعى الرجل الى غير أبيه أو يرى عينيه فى المنام مالم ترا و يقول على مالم أقل وقال عليه السلام من كذب فى حلم كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين وليس بعاقد بينهما أبدا

﴿الآفة الخامسة عشرة الغيبة والنظر فيها طويل﴾

فلنذكر أولا مذمة الغيبة وما ورد فيها من شواهد الشرع وقد نص الله سبحانه على ذمها فى كتابه وشبه صاحبها بآكل لحم الميتة فقال تعالى ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه وقال عليه السلام كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه والغيبة تتناول العرض وقد جمع الله بينه وبين المال والدم وقال أبو برزة قال عليه السلام لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تناجشوا ولا تدابروا ولا يغتب بعضكم بعضا وكونوا عباد الله اخوانا وعن جابر وأبى سعيد قالا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اياكم والغيبة فان الغيبة أشد من الزنا فان الرجل قد يزنى و يتوب فيتوب الله سبحانه عليه وان صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مررت ليلة اسرى بى على أقوام يخمشون وجوههم بأظافيرهم فقلت يا جبريل من هؤلاء قال هؤلاء الذين يغتابون الناس و يقعون فى أعراضهم وقال سليمان بن جابر أتيت النبى عليه الصلاة والسلام فقلت علمنى خيرا أنتفع به فقال لا تحقرن من المعروف شيأ ولو أن تصب من دلوك فى اناء المستقى وأن تلقى أخاك ببشر حسن وان أدبر فلا تغتابنه وقال البراء خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أسمع العواتق فى بيوتهن فقال يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فانه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه فى جوف بيته وقيل أوحى الله الى موسى عليه السلام من مات تائبا من الغيبة فهو آخر من يدخل الجنة ومن مات مصرا عليها فهو أول من يدخل النار وقال أنس أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بصوم يوم فقال لا يفطرن أحد حتى آذن له فصام الناس حتى اذا أمسوا جعل الرجل يجىء فيقول يا رسول الله ظللت صائما فائذن لى لأفطر فيأذن له والرجل يجىء حتى جاء رجل فقال يا رسول الله فتاتان من أهلى ظلتا صائمتين وانهما يستحيان أن يأتياك فائذن لهما أن يفطرا فأعرض عنه صلى الله عليه وسلم ثم عاوده فأعرض عنه ثم عاوده فقال انهما لم يصوما وكيف يصوم من ظل نهاره يأكل لحم الناس اذهب فمرهما ان كانتا صائمتين أن تستقيآ فرجع اليهما فأخبرهما فاستقاءتا فقاءت كل واحدة منهما علقة من دم فرجع الى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال والذى نفسى بيده لو بقيتا فى بطونهما لأكلتهما النار وفى رواية أنه لما أعرض عنه جاء بعد ذلك وقال يا رسول الله والله انهما قد ماتتا أو كادتا أن تموتا فقال صلى الله عليه وسلم ائتونى بهما فجاءتا فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدح فقال لاحداهما قيئى فقاءت من قيح ودم وصديد حتى ملأت القدح وقال للأخرى قيئى فقاءت كذلك فقال ان هاتين صامتا عما أحل الله لهما وأفطرتا على ما حرم الله عليهما جلست احداهما الى الأخرى فجعلتا تأكلان لحوم الناس وقال أنس خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الربا وعظم شأنه فقال ان الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله فى الخطيئة من ست وثلاثين زنية يزنيها الرجل وأربى الربا عرض الرجل المسلم وقال جابر كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسير فأتى على قبرين يعذب صاحباهما فقال انهما يعذبان وما يعذبان فى كبير أما أحدهما فكان يغتاب الناس وأما الآخر فكان لا يستنزه من بوله فدعا بجريدة رطبة أو جريدتين فكسرهما ثم أمر بكل كسرة فغرست على قبر وقال أما انه سيهون من عذابهما ما كانتا رطبتين أو مالم ييبسا ولما رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ماعزا فى الزنا قال رجل لصاحبه هذا أقعص كما يقعص الكلب فمر صلى الله عليه وسلم وهما معه بجيفة فقال انهشا منها فقالا يا رسول الله ننهش جيفة فقال ما أصبتما من أخيكما أنتن من هذه وكان الصحابة رضى الله عنهم يتلاقون بالبشر ولا يغتابون عند الغيبة ويرون ذلك أفضل الأعمال ويرون خلافه عادة المنافقين وقال أبو هريرة من أكل لحم أخيه فى الدنيا قرب اليه لحمه فى الآخرة وقيل له كله ميتا كما أكلته حيا فيأكله فيضج ويكلح وروى مرفوعا كذلك وروى أن رجلين كانا قاعدين عند باب من أبواب المسجد فمر بهما رجل كان مخنثا فترك ذلك فقالا لقد بقى فيه منه شىء

الذين لا تموت أعينهم ولا تبلى أجسادهم ومن آداب الحضرة ما قال الشبلى الانبساط بالقول مع الحق ترك الادب وهذا يختص ببعض الاحوال والاشياء دون البعض وليس هو على الاطلاق لان الله تعالى أمر بالدعاء وانما الامساك عن القول كما أمسك موسى عن الانبساط فى طلب المآرب والحاجات الدنيوية حتى رفعه الحق مقاما فى القرب وأذن له فى الانبساط وقال اطلب منى ولو ملح عجينك فلما بسط انبسط وقال رب انى لما أنزلت الى من خير فقير لانه كان يسأل حوائج الآخرة و يستعظم الحضرة أن يسأل حوائج الدنيا لحقارتها وهو فى حجاب الحشمة عن سؤال المحقرات ولهذا مثال فى الشاهد فان الملك المعظم يسأل المعظمات و يحتشم فى طلب المحقرات فلما رفع بساط حجاب الحشمة

وأقيمت الصلاة فدخلافصليامع الناس فخالك في أنفسهما ماقالا فأتيا عطاء فسألاه فأمرهما أن يعيدا الوضوء والصلاة وأمرهما أن يقضيا الصيام ان كانا صائمين وعن مجاهد أنه قال في ويل لكل همزة لمزة الهمزة الطعان في الناس واللمزة الذي يأكل لحوم الناس وقال قتادة ذكر لنا أن عذاب القبر ثلاثة أثلاث ثلث من الغيبة وثلث من النميمة وثلث من البول وقال الحسن والله للغيبة أسرع في دين الرجل المؤمن من الاكلة في الجسد وقال بعضهم أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة ولكن في الكف عن اعراض الناس وقال ابن عباس اذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك فاذكر عيوبك وقال أبو هريرة يبصر أحدكم القذى في عين أخيه ولا يبصر الجذع في عين نفسه وكان الحسن يقول ابن آدم انك لن تصيب حقيقة الايمان حتى لا تعيب الناس بعيب هو فيك وحتى تبدأ باصلاح ذلك العيب فتصلحه من نفسك فاذا فعلت ذلك كان شغلك في خاصة نفسك وأحب العباد الى الله من كان هكذا وقال مالك بن دينار مر عيسى عليه السلام ومعه الحواريون بجيفة كلب فقال الحواريون ماأنتن ريح هذا الكلب فقال عليه الصلاة والسلام ماأشد بياض أسنانه كانه صلى الله عليه وسلم نهاهم عن غيبة الكلب ونبههم على انه لا يذكر شيء من خلق الله الا أحسنه وسمع علي بن الحسين رضي الله عنهما رجلا يغتاب آخر فقال له اياك والغيبة فانها ادام كلاب الناس وقال عمر رضي الله عنه عليكم بذكر الله تعالى فانه شفاء واياكم وذكر الناس فانه داء نسأل الله حسن التوفيق لطاعته

﴿بيان معنى الغيبة وحدودها﴾

اعلم ان حد الغيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه سواء ذكرته بنقص في بدنه أو نسبه أو في خلقه أو في فعله أو في قوله أو في دينه أو في دنياه حتى في ثوبه وداره ودابته * اما البدن فكذكرك العمش والحول والقرع والقصر والطول والسواد والصفرة وجميع ما يتصور أن يوصف به مما يكرهه كيفما كان * وأما النسب فبان تقول أبوه نبطي أو هندي أو فاسق أو خسيس أو اسكاف أو زبال أو شيء مما يكرهه كيفما كان وأما الخلق فبأن تقول هو سيء الخلق بخيل متكبر مراء شديد الغضب جبان عاجز ضعيف القلب متهور وما يجري مجراه * وأما في أفعاله المتعلقة بالدين فكقولك هو سارق أو كذاب أو شارب خمر أو خائن أو ظالم أو متهاون بالصلاة أو الزكاة أو لا يحسن الركوع أو السجود أو لا يحترز من النجاسات أو ليس بارا بوالديه أو لا يضع الزكاة موضعها أو لا يحسن قسمتها أو لا يحرس صومه عن الرفث والغيبة والتعرض لاعراض الناس * وأما فعله المتعلق بالدنيا فكقولك انه قليل الادب متهاون بالناس أو لا يرى لاحد على نفسه حقا أو يرى لنفسه الحق على الناس أو انه كثير الكلام كثير الاكل نؤوم ينام في غير وقت النوم ويجلس في غير موضعه * وأما في ثوبه فكقولك انه واسع الكم طويل الذيل وسخ الثياب وقال قوم لا غيبة في الدين لانه ذم ما ذمه الله تعالى فذكره بالمعاصي وذمه بها يجوز بدليل ما روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرت له امرأة وكثرة صلاحها وصومها ولكنها تؤذي جيرانها بلسانها فقال هي في النار وذكرت عنده امرأة أخرى بأنها بخيلة فقال فما خيرها اذا فهذا فاسد لانهم كانوا يذكرون ذلك لحاجتهم الى تعرف الاحكام بالسؤال ولم يكن غرضهم التنقيص ولا يحتاج اليه في غير مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم والدليل عليه اجماع الامة على أن من ذكر غيره بما يكرهه فهو مغتاب لانه داخل فيما ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم في حد الغيبة وكل هذا وان كان صادقا فيه فهو به مغتاب عاص لربه وآكل لحم أخيه بدليل ما روي ان النبي صلى الله عليه وسلم قال هل تدرون ما الغيبة قالوا الله ورسوله أعلم قال ذكرك أخاك بما يكرهه قال أرأيت ان كان في أخي ما أقوله قال ان كان فيه ما تقول فقد اغتبته وان لم يكن فيه فقد بهته وقال معاذ بن جبل ذكر رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ما أعجزه فقال صلى الله عليه وسلم اغتبتم أخاكم قالوا يا رسول الله قلنا ما فيه قال ان قلتم ما ليس فيه فقد بهتموه وعن حذيفة عن عائشة رضي الله عنها انها ذكرت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة فقالت انها قصيرة فقال صلى الله عليه وسلم اغتبتيها وقال الحسن ذكر الغير ثلاثة الغيبة والبهتان والافك وكل في كتاب الله عز وجل فالغيبة ان تقول ما فيه والبهتان أن تقول ما ليس فيه والافك أن تقول ما بلغك وذكر ابن سيرين رجلا فقال ذاك الرجل الاسود ثم قال أستغفر الله اني أراني قد اغتبته وذكر ابن سيرين

صار في مقام خاص من القرب يسال الحق بركما يسال الخطير قال ذو النون المصري أدب العارف فوق كل أدب لان معبوده مؤدب قلبه * وقال بعضهم يقول الحق سبحانه وتعالى من ألزمته القيام مع أسمائي وصفاتي ألزمته الادب ومن كشفت له عن حقيقة ذاتي ألزمته العطب فاختر أيهما شئت الادب أو العطب وقول القائل هذا يشير الى أن الاسماء والصفات تستقل بوجود محتاج الى الادب لبقاء رسوم البشرية وحظوظ بالنفس ومع لمعان نور عظمة الذات تتلاشى الآثار بالانوار ويكون معنى العطب التحقق بالفناء وفي ذلك العطب نهاية الارب (وقال) أبو علي الدقاق في قوله تعالى وأيوب اذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين قال لم يقل ارحمني لانه حفظ أدب الخطاب وقال عيسى

ابراهيم النخعي فوضع يده على عينه ولم يقل الاعور وقالت عائشة لا يغتابن أحدكم أحدا فاني قلت لامرأة مرة
وأنا عند النبي صلى الله عليه وسلم ان هذه لطويلة الذيل فقال لي الفظي الفظي فلفظت مضغة لحم

﴿ بيان أن الغيبة لا تقتصر على اللسان ﴾

اعلم أن الذكر باللسان انما حرم لان فيه تفهيم الغير نقصان أخيك وتعريفه بما يكرهه فالتعريض به كالتصريح
والفعل فيه كالقول والاشارة والايماء والغمز والهمز والكتابة والحركة وكل ما يفهم المقصود فهو داخل في
الغيبة وهو حرام فمن ذلك قول عائشة رضي الله عنها دخلت علينا امرأة فلما ولت أومأت بيدي انها قصيرة فقال
عليه السلام اغتبتيها ومن ذلك المحاكاة كأن يمشي متعارجا أو كما يمشي فهو غيبة بل هو أشد من الغيبة لانه أعظم في
التصوير والتفهيم ولما رأى صلى الله عليه وسلم عائشة حاكت امرأة قال ما يسرني أني حاكيت انسانا ولي كذا
وكذا وكذلك الغيبة بالكتابة فان القلم أحد اللسانين وذكر المصنف شخصا معينا وتهجين كلامه في الكتاب
غيبة الا أن يقترن به شئ من الاعذار المحوجة الى ذكره كما سيأتي بيانه وأما قوله قال قوم كذا فليس ذلك غيبة انما
الغيبة التعرض لشخص معين اما حي واما ميت ومن الغيبة أن تقول بعض من مر بنا اليوم أو بعض من رأيناه
اذا كان المخاطب يفهم منه شخصا معينا لان المحذور تفهيمه دون ما به التفهيم فاما اذا لم يفهم عينه جاز كان
رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا كره من انسان شيأ قال ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا فكان لا يعين وقولك
بعض من قدم من السفر أو بعض من يدعي العلم ان كان معه قرينة تفهم عين الشخص فهي غيبة وأخبث أنواع
الغيبة غيبة القراء المرائين فانهم يفهمون المقصود على صيغة أهل الصلاح ليظهروا من أنفسهم التعفف عن
الغيبة ويفهمون المقصود ولا يدرون بجهلهم أنهم جمعوا بين فاحشتين الغيبة والرياء وذلك مثل أن يذكر عنده
انسان فيقول الحمد لله الذي لم يبتلنا بالدخول على السلطان والتبذل في طلب الحطام أو يقول نعوذ بالله من قلة
الحياء نسأل الله أن يعصمنا منها وانما قصده أن يفهم عيب الغير فيذكره بصيغة الدعاء وكذلك قد يقدم مدح من
يريد غيبته فيقول ما أحسن أحوال فلان ما كان يقصر في العبادات ولكن قد اعتراه فتور وابتلي بما يبتلى به
كلنا وهو قلة الصبر فيذكر نفسه ومقصوده أن يذم غيره في ضمن ذلك ويمدح نفسه بالتشبه بالصالحين بأن يذم
نفسه فيكون مغتابا ومرائيا ومزكيا نفسه فيجمع بين ثلاث فواحش وهو بجهله يظن أنه من الصالحين المتعففين
عن الغيبة ولذلك يلعب الشيطان بأهل الجهل اذا اشتغلوا بالعبادة من غير علم فانه يتبعهم ويحبط بمكايده عملهم
ويضحك عليهم ويسخر منهم ومن ذلك أن يذكر عيب انسان فلا يتنبه له بعض الحاضرين فيقول سبحان الله
ما أعجب هذا حتى يصغي اليه ويعلم ما يقول فيذكر الله تعالى ويستعمل اسمه آلة له في تحقيق خبثه وهو يمتن على
الله عز وجل بذكره جهلا منه وغرورا وكذلك يقول ساءني ما جرى على صديقنا من الاستخفاف به نسأل الله
أن يروح نفسه فيكون كاذبا في دعوى الاغتمام وفي اظهار الدعاء له بل لو قصد الدعاء لاخفاه في خلوته عقيب
صلاته ولو كان يغتم به لاغتم أيضا باظهار ما يكرهه وكذلك يقول ذلك المسكين قد بلي بآفة عظيمة تاب الله علينا
وعليه فهو في كل ذلك يظهر الدعاء والله مطلع على خبث ضميره وخفي قصده وهو لجهله لا يدري أنه قد تعرض
لمقت أعظم مما تعرض له الجهال اذا جاهروا ومن ذلك الاصغاء الى الغيبة على سبيل التعجب فانه انما يظهر
التعجب ليزيد نشاط المغتاب فيندفع فيها وكأنه يستخرج الغيبة منه بهذا الطريق فيقول عجب ما علمت أنه
كذلك ما عرفته الى الآن الا بالخير وكنت أحسب فيه غير هذا عافانا الله من بلائه فان كل ذلك تصديق للمغتاب
والتصديق بالغيبة غيبة بل الساكت شريك المغتاب قال صلى الله عليه وسلم المستمع أحد المغتابين وقد روي عن
أبي بكر وعمر رضي الله عنهما أن أحدهما قال لصاحبه ان فلانا لنؤوم ثم انهما طلبا أدما من رسول الله صلى الله عليه
وسلم ليأكلا به الخبز فقال صلى الله عليه وسلم قد ائتدمتما فقالا ما نعلمه قال بلى انكما أكلتما من لحم أخيكما
فانظر كيف جمعهما وكان القائل أحدهما والآخر مستمع وقال للرجلين اللذين قال أحدهما أقعص الرجل كما
يقعص الكلب انهشا من هذه الجيفة فجمع بينهما فالمستمع لا يخرج من اثم الغيبة الا أن ينكر بلسانه أو بقلبه
ان خاف وان قدر على القيام أو قطع الكلام بكلام آخر فلم يفعل لزمه وان قال بلسانه اسكت وهو مشته لذلك بقلبه

عليه السلام ان كنت قلته فقد علمته ولم يقل لم أقل رعاية لادب الحضرة *وقال أبو نصر السراج أدب أهل الخصوصية من أهل الدين في طهارة القلوب ومراعاة الاسرار والوفاء بالعهود وحفظ الوقت وقلة الالتفات الى الخواطر والعوارض والبوادي والعوائق واستواء السر والعلانية وحسن الادب في موقف الطلب ومقامات القرب وأوقات الحضور *والادب أدبان أدب قول وأدب فعل فمن تقرب الى الله تعالى بأدب فعله منحه محبة القلوب (قال ابن المبارك) نحن الى قليل من الادب أحوج منا الى كثير من العلم وقال أيضا الادب للعارف بمنزلة التوبة للمستأنف *وقال النوري من لم يتأدب للوقت فوقته مقت وقال ذو النون اذا خرج المريد عن حد استعمال الادب فانه يرجع من حيث جاء

فذلك نفاق ولا يخرجه من الاثم مالم يكرهه بقلبه ولا يكفي في ذلك أن يشير باليد أي اسكت أو يشير بحاجبه وجبينه فان ذلك استحقار للمذكور بل ينبغي أن يعظم ذلك فيذب عنه صريحا وقال صلى الله عليه وسلم من أذل عنده مؤمن فلم ينصره وهو يقدر على نصره أذله الله يوم القيامة على رؤس الخلائق وقال أبو الدرداء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من رد عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يرد عن عرضه يوم القيامة وقال أيضا من ذب عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يعتقه من النار وقد ورد في نصرة المسلم في الغيبة وفي فضل ذلك أخبار كثيرة أوردناها في كتاب آداب الصحبة وحقوق المسلمين فلا نطول باعادتها

﴿ بيان الاسباب الباعثة على الغيبة ﴾

اعلم أن البواعث على الغيبة كثيرة ولكن يجمعها أحد عشر سببا ثمانية منها تطرد في حق العامة وثلاثة تختص بأهل الدين والخاصة ﴿ أما الثمانية ﴾ فالاول أن يشفي الغيظ وذلك اذا جرى سبب غضب به عليه فانه اذا هاج غضبه يشتفي بذكر مساويه فيسبق اللسان اليه بالطبع ان لم يكن ثم دين وازع وقد يمتنع تشفي الغيظ عند الغضب فيحتقن الغضب في الباطن فيصير حقدا ثابتا فيكون سببا دائما لذكر المساوي فالحقد والغضب من البواعث العظيمة على الغيبة * الثاني موافقة الاقران ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم على الكلام فانهم اذا كانوا يتفكهون بذكر الاعراض فيرى أنه لو أنكر عليهم أو قطع المجلس استثقلوه ونفروا عنه فيساعدهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة ويظن أنه مجاملة في الصحبة وقد يغضب رفقاؤه فيحتاج الى أن يغضب لغضبهم اظهارا للمساهمة في السراء والضراء فيخوض معهم في ذكر العيوب والمساوي * الثالث أن يستشعر من انسان أنه سيقصده ويطول لسانه عليه أو يقبح حاله عند محتشم أو يشهد عليه بشهادة فيبادره قبل أن يقبح هو حاله ويطعن فيه ليسقط أثر شهادته أو يبتدئ بذكر ما فيه صادقا ليكذب عليه بعده فيروج كذبه بالصدق الاول ويستشهد به ويقول ما من عادتي الكذب فاني أخبرتكم بكذا وكذا من أحواله فكان كما قلت * الرابع أن ينسب الى شئ فيريد أن يتبرأ منه فيذكر الذي فعله وكان من حقه أن يبرئ نفسه ولا يذكر الذي فعل فلا ينسب غيره اليه أو يذكر غيره بأنه كان مشاركا له في الفعل ليمهد بذلك عذر نفسه في فعله * الخامس ارادة التصنع والمباهاة وهو أن يرفع نفسه بتنقيص غيره فيقول فلان جاهل وفهمه ركيك وكلامه ضعيف وغرضه أن يثبت في ضمن ذلك فضل نفسه ويريهم أنه أعلم منه أو يحذر أن يعظم مثل تعظيمه فيقدح فيه لذلك * السادس الحسد وهو أنه ربما يحسد من يثني الناس عليه ويحبونه ويكرمونه فيريد زوال تلك النعمة عنه فلا يجد سبيلا اليه الا بالقدح فيه فيريد أن يسقط ماء وجهه عند الناس حتى يكفوا عن كرامته والثناء عليه لانه يثقل عليه أن يسمع كلام الناس وثناءهم عليه واكرامهم له وهذا هو عين الحسد وهو غير الغضب والحقد فان ذلك يستدعي جناية من المغضوب عليه والحسد قد يكون مع الصديق المحسن والقريب الموافق * السابع اللعب والهزل والمطايبة وتزجية الوقت بالضحك فيذكر عيوب غيره بما يضحك الناس على سبيل المحاكاة ومنشؤه التكبر والتعجب * الثامن السخرية والاستهزاء استحقارا له فان ذلك قد يجري في الحضور ويجري أيضا في الغيبة ومنشؤه التكبر واستحقار المستهزأ به * وأما الاسباب الثلاثة التي هي في الخاصة فهي أغمضها وأدقها لانها شرور رخبأها الشيطان في معرض الخيرات وفيها خير ولكن شاب الشيطان بها الشر * الاول أن تنبعث من الدين داعية التعجب في انكار المنكر والخطأ في الدين فيقول ما أعجب ما رأيت من فلان فانه قد يكون به صادقا ويكون تعجبه من المنكر ولكن كان حقه أن يتعجب ولا يذكر اسمه فيسهل الشيطان عليه ذكر اسمه في اظهار تعجبه فصار به مغتابا وآثما من حيث لا يدري ومن ذلك قول الرجل تعجبت من فلان كيف يحب جاريته وهي قبيحة وكيف يجلس بين يدي فلان وهو جاهل * الثاني الرحمة وهو أن يغتم بسبب ما يبتلى به فيقول مسكين فلان قد غمني أمره وما ابتلي به فيكون صادقا في دعوى الاغتمام ويلهيه الغم عن الحذر من ذكر اسمه فيذكره فيصير به مغتابا فيكون غمه ورحمته خيرا وكذا تعجبه ولكن ساقه الشيطان الى شر من حيث لا يدري والترحم والاغتمام ممكن دون ذكر اسمه فيهيجه الشيطان على ذكر اسمه ليبطل به ثواب اغتمامه وترحمه * الثالث الغضب لله تعالى فانه قد يغضب على منكر قارفه انسان

وقال ابن المبارك أيضا قد أكثر الناس في الادب ونحن نقول هو معرفة النفس وهذه اشارة منه الى أن النفس هي منبع الجهالات وترك الادب من مخامرة الجهل فاذا عرف النفس صادف نور العرفان على ما ورد من عرف نفسه فقد عرف ربه ولهذا النور لا تظهر النفس بجهالة الا ويقمعها بصريح العلم وحينئذ يتأدب ومن قام بآداب الحضرة فهو بغيرها أقوم وعليها أقدر

(الباب الثالث والثلاثون في آداب الطهارة ومقدماتها ﴾

قال الله تعالى في وصف أصحاب الصفة فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين قيل في التفسير يحبون أن يتطهروا من الاحداث والجنابات والنجاسات بالماء قال الكلبي هو غسل الادبار بالماء وقال عطاء كانوا يستنجون بالماء ولا

اذا رآه أوسمعه فيظهر غضبه و يذكر اسمه وكان الواجب أن يظهر غضبه عليه بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر ولايظهره على غيره أو يستر اسمه ولايذكره بالسوء فهذه الثلاثة مما يغمض دركها على العلماء فضلا عن العوام فانهم يظنون أن التعجب والرحمة والغضب اذا كان لله تعالى كان عذرا في ذكر الاسم وهو خطأ بل المرخص في الغيبة حاجات مخصوصة لامندوحة فيها عن ذكر الاسم كما سيأتي ذكره روي عن عامر بن واثلة أن رجلا مر على قوم في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم عليهم فردوا عليه السلام فلما جاوزهم قال رجل منهم انى لابغض هذا في الله تعالى فقال أهل المجلس لبئس ماقلت والله لننبئنه ثم قالوا يافلان لرجل منهم قم فادركه وأخبره بما قال فأدركه رسولهم فأخبره فأتى الرجل رسول الله صلى الله عليه وسلم وحكى له ماقال وسأله أن يدعوه له فدعاه وسأله فقال قد قلت ذلك فقال صلى الله عليه وسلم لم تبغضه فقال أنا جاره وأنا به خابر والله مارأيته يصلي صلاة قط الا هذه المكتوبة قال فاسأله يارسول الله هل رآني أخرتها عن وقتها أو أسأت الوضوء لها أو الركوع أو السجود فيها فسأله فقال لا فقال والله مارأيته يصوم شهرا قط الا هذا الشهر الذي يصومه البر والفاجر قال فاسأله يارسول الله هل رآني قط أفطرت فيه أو نقصت من حقه شيأ فسأله عنه فقال لا فقال والله مارأيته يعطي سائلا ولا مسكينا قط ولا رأيته ينفق شيأ من ماله في سبيل الله الا هذه الزكاة التي يؤديها البر والفاجر قال فاسأله هل رآني نقصت منها أو ماكست فيها طالبها الذي يسألها فسأله فقال لا فقال صلى الله عليه وسلم للرجل قم فلعله خير منك

﴿ بيان العلاج الذي به يمنع اللسان عن الغيبة ﴾

اعلم أن مساوي الاخلاق كلها انما تعالج بمعجون العلم والعمل وانما علاج كل علة بمضادة سببها فلنفحص عن سببها وعلاج كف اللسان عن الغيبة على وجهين أحدهما على الجملة والآخر على التفصيل أما على الجملة فهو أن يعلم أن تعرضه لسخط الله تعالى بغيبته بهذه الاخبار التي رويناها وان يعلم أنها محبطة لحسناته يوم القيامة فانها تنقل حسناته في القيامة الى من اغتابه بدلا عما استباحه من عرضه فان لم تكن له حسنات نقل اليه من سيئات خصمه وهو مع ذلك متعرض لمقت الله عز وجل ومشبه عنده بآكل الميتة بل العبد يدخل النار بان تترجح كفة سيئاته على كفة حسناته وربما تنقل اليه سيئة واحدة ممن اغتابه فيحصل بها الرجحان ويدخل بها النار وانما أقل الدرجات أن تنقص من ثواب أعماله وذلك بعد المخاصمة والمطالبة والسؤال والجواب والحساب قال صلى الله عليه وسلم ما النار في اليبس بأسرع من الغيبة في حسنات العبد وروي أن رجلا قال للحسن بلغني انك تغتابني فقال مابلغ من قدرك عندي أني أحكمك في حسناتي فمهما آمن العبد بما ورد من الاخبار في الغيبة لم يطلق لسانه بها خوفا من ذلك وينفعه أيضا أن يتدبر في نفسه فان وجد فيها عيبا اشتغل بعيب نفسه وذكر قوله صلى الله عليه وسلم طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ومهما وجد عيبا فينبغي أن يستحيي من أن يترك ذم نفسه ويذم غيره بل ينبغي أن يتحقق ان عجز غيره عن نفسه في التنزه عن ذلك العيب كعجزه وهذا ان كان ذلك عيبا يتعلق بفعله واختياره وان كان أمرا خلقيا فالذم له ذم للخالق فان من ذم صنعة فقد ذم صانعها * قال رجل لحكيم ياقبيح الوجه قال ماكان خلق وجهي الى فاحسنه واذا لم يجد العبد عيبا في نفسه فليشكر الله تعالى ولايلوثن نفسه بأعظم العيوب فان ثلب الناس وأكل لحم الميتة من أعظم العيوب بل لو أنصف لعلم أن ظنه بنفسه انه بريء من كل عيب جهل بنفسه وهو من أعظم العيوب وينفعه أن يعلم ان تألم غيره بغيبته كتألمه بغيبة غيره له فاذا كان لايرضى لنفسه أن يغتاب فينبغي أن لايرضى لغيره مالايرضاه لنفسه فهذه معالجات جلية أما التفصيل فهو أن ينظر في السبب الباعث له على الغيبة فان علاج العلة بقطع سببها وقد قدمنا الاسباب أما الغضب فيعالجه بما سيأتي في كتاب آفات الغضب وهو أن يقول اني اذا أمضيت غضبي عليه فلعل الله تعالى يمضي غضبه على بسبب الغيبة اذ نهاني عنها فاجترأت على نهيه واستخففت بزجره وقد قال صلى الله عليه وسلم ان لجهنم بابا لايدخل منه الا من شفى غيظه بمعصية الله تعالى وقال صلى الله عليه وسلم من اتقى ربه أمسك لسانه ولم يشف غيظه وقال صلى الله عليه وسلم من كظم غيظا وهو يقدر على أن يمضيه دعاه الله تعالى يوم القيامة على رؤس الخلائق حتى يخيره في أي الحور شاء وفي بعض الكتب المنزلة على بعض النبيين ياابن آدم اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب فلا

يناموا بالليل على الجنابة روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لاهل قباء لما نزلت هذه الآية ان الله تعالى قد أثنى عليكم في الطهور فما هو قالوا انا نستنجي بالماء وكان قبل ذلك قال لهم رسول الله اذا أتى أحدكم الخلاء فليستنج بثلاثة أحجار وهكذا كان الاستنجاء في الابتداء حتى نزلت الآية في أهل قباء قيل لسلمان قد علمكم نبيكم كل شيء حتى الخراءة فقال سلمان أجل نهانا أن نستقبل القبلة بغائط أو بول أو نستنجي باليمين أو يستنجي أحدنا بأقل من ثلاثة أحجار أو نستنجي برجيع أو عظم (حدثنا) شيخنا ضياء الدين أبو النجيب املاء قال أنا أبو منصور الحريمي قال أنا أبو بكر الخطيب قال أنا أبو عمرو الهاشمي قال أنا أبو على اللؤلؤي قال أنا أبو داود قال حدثنا عبد الله بن محمد قال حدثنا

أمحقك فيمن أمحق وأما الموافقة فبأن تعلم أن الله تعالى يغضب عليك اذا طلبت سخطه فى رضا المخلوقين فكيف ترضى لنفسك أن توقر غيرك وتحقر مولاك فتترك رضاه لرضاهم الا أن يكون غضبك لله تعالى وذلك لا يوجب أن تذكر المغضوب عليه بسوء بل ينبغى أن تغضب لله أيضا على رفقائك اذا ذكروه بالسوء فانهم عصوا ربك بأفحش الذنوب وهى الغيبة وأما تنزيه النفس بنسبة الغير الى الخيانة حيث يستغنى عن ذكر الغير فتعالجه بان تعرف أن التعرض لمقت الخالق أشد من التعرض لمقت المخلوقين وأنت بالغيبة متعرض لسخط الله يقينا ولا تدرى أنك تتخلص من سخط الناس أم لا فتخلص نفسك فى الدنيا بالتوهم وتهلك فى الآخرة وتخسر حسناتك بالحقيقة ويحصل لك ذم الله تعالى نقدا وتنتظر دفع ذم الخلق نسيئة وهذا غاية الجهل والخذلان وأما عذرك كقولك ان أكلت الحرام ففلان يأكله وان قبلت مال السلطان ففلان يقبله فهذا جهل لانك تعتذر بالاقتداء بمن لا يجوز الاقتداء به فان من خالف أمر الله تعالى لا يقتدى به كائنا من كان ولو دخل غيرك النار وأنت تقدر على أن لا تدخلها لم توافقه ولو وافقته لسفه عقلك ففيما ذكرته غيبة وزيادة معصية أضفتها الى ما اعتذرت عنه وسجلت مع الجمع بين المعصيتين على جهلك وغباوتك وكنت كالشاة تنظر الى المعزى تردى نفسها من قلة الجبل فهى أيضا تردى نفسها ولو كان لها لسان ناطق بالعذر وصرحت بالعذر وقالت العنز أكيس منى وقد أهلكت نفسها فكذلك أنا أفعل لكنت تضحك من جهلها وحالك مثل حالها ثم لا تعجب ولا تضحك من نفسك وأما قصدك المباهاة وتزكية النفس بزيادة الفضل بأن تقدح فى غيرك فينبغى أن تعلم انك بما ذكرته به أبطلت فضلك عند الله وأنت من اعتقاد الناس فضلك على خطر وربما نقص اعتقادهم فيك اذا عرفوك بثلب الناس فتكون قد بعت ما عند الخالق يقينا بما عند المخلوقين وهما ولو حصل لك من المخلوقين اعتقاد الفضل لكانوا لا يغنون عنك من الله شيأ * وأما الغيبة لاجل الحسد فهو جمع بين عذابين لانك حسدته على نعمة الدنيا وكنت فى الدنيا معذبا بالحسد فما قنعت بذلك حتى أضفت اليه عذاب الآخرة فكنت خاسرا نفسك فى الدنيا فصرت أيضا خاسرا فى الآخرة لتجمع بين النكالين فقد قصدت محسودك فأصبت نفسك وأهديت اليه حسناتك فاذا أنت صديقه وعدو نفسك اذ لا تضره غيبتك وتضرك وتنفعه اذ تنقل اليه حسناتك أو تنقل اليك سيآته فلا ينفعك وقد جمعت الى خبث الحسد جهل الحماقة وربما يكون حسدك وقدحك سبب انتشار فضل محسودك كما قيل

واذا أراد الله نشر فضيلة * طويت أتاح لها لسان حسود

وأما الاستهزاء فمقصودك منه اخزاء غيرك عند الناس باخزاء نفسك عند الله تعالى وعند الملائكة والنبيين عليهم الصلاة والسلام فلو تفكرت فى حسرتك وجنايتك وخجلتك وخزيك يوم القيامة يوم تحمل سيآت من استهزأت به وتساق الى النار لادهشك ذلك عن اخزاء صاحبك ولو عرفت حالك لكنت أولى أن تضحك منك فانك سخرت به عند نفر قليل وعرضت نفسك لان يؤخذ يوم القيامة بيدك على ملأ من الناس ويسوقك تحت سيآته كما يساق الحمار الى النار مستهزئا بك وفرحا بخزيك ومسرورا بنصرة الله تعالى اياه عليك وتسلطه على الانتقام منك وأما الرحمة له على اثمه فهو حسن ولكن حسدك ابليس فأضلك واستنطقك بما ينقل من حسناتك اليه ما هو أكثر من رحمتك فيكون جبرا لاثم المرحوم فيخرج عن كونه مرحوما وتنقلب أنت مستحقا لان تكون مرحوما اذ حبط أجرك ونقصت من حسناتك وكذلك الغضب لله تعالى لا يوجب الغيبة وانما الشيطان حبب اليك الغيبة ليحبط أجر غضبك وتصير معرضا لمقت الله عز وجل بالغيبة وأما التعجب اذا أخرجك الى الغيبة فتعجب من نفسك أنت انك كيف أهلكت نفسك ودينك بدين غيرك أو بدنياه وأنت مع ذلك لا تأمن عقوبة الدنيا وهو أن يهتك الله سترك كما هتكت بالتعجب ستر أخيك فاذا علاج جميع ذلك المعرفة فقط والتحقيق بهذه الامور التى هى من أبواب الايمان فمن قوى ايمانه بجميع ذلك انكف لسانه عن الغيبة لا محالة

﴿ بيان تحريم الغيبة بالقلب ﴾

اعلم أن سوء الظن حرام مثل سوء القول فكما يحرم عليك أن تحدث غيرك بلسانك بمساوى الغير فليس لك أن تحدث نفسك وتسيء الظن بأخيك ولست أعنى به الا عقد القلب وحكمه على غيره بالسوء فاما الخواطر

ابن المبارك عن ابن عجلان عن القعقاع عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال قال صلى الله عليه وسلم انما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم فاذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها ولا يستطيب بيمينه وكان يأمر بثلاثة أحجار وينهى عن الروث والرمة (والفرض) فى الاستنجاء شيآن ازالة الخبث وطهارة المزيل وهو أن لا يكون رجيعا وهو الروث ولا مستعملا مرة أخرى ولا رمة وهى عظم الميتة ووتر الاستنجاء سنة فاما ثلاثة أحجار أو خمس أو سبع واستعمال الماء بعد الحجر سنة وقد قيل فى الآية يحبون أن يتطهروا ولما سئلوا عن ذلك قالوا كنا نتبع الماء الحجر والاستنجاء بالشمال سنة ومسح اليد بالتراب بعد الاستنجاء سنة وهكذا يكون فى الصحراء اذا كانت أرضا

وحديث النفس فهو معفو عنه بل الشك أيضا معفو عنه ولكن المنهي عنه ان يظن والظن عبارة عما تركن اليه النفس ويميل اليه القلب فقد قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم وسبب تحريمه ان أسرار القلوب لا يعلمها الا علام الغيوب فليس لك ان تعتقد في غيرك سوأ الا اذا انكشف لك بعيان لا يقبل التأويل فعند ذلك لا يمكنك الا أن تعتقد ما علمته وشاهدته ومالم تشاهده بعينك ولم تسمعه باذنك ثم وقع في قلبك فانما الشيطان يلقيه اليك فينبغي أن تكذبه فانه أفسق الفساق وقد قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فلا يجوز تصديق ابليس وان كان ثم مخيلة تدل على فساد واحتمل خلافه لم يجز أن تصدق به لان الفاسق يتصور أن يصدق في خبره ولكن لا يجوز لك أن تصدق به حتى ان من استنكهه فوجد منه رائحة الخمر لا يجوز أن يحد اذ يقال يمكن أن يكون قد تمضمض بالخمر ومجها وما شربها أو حمل عليه قهرا فكل ذلك لا محالة دلالة محتملة فلا يجوز تصديقها بالقلب واساءة الظن بالمسلم بها وقد قال صلى الله عليه وسلم ان الله حرم من المسلم دمه وماله وأن يظن به ظن السوء فلا يستباح ظن السوء الا بما يستباح به المال وهو نفس مشاهدته أو بينة عادلة فاذا لم يكن كذلك وخطر لك وسواس سوء الظن فينبغي أن تدفعه عن نفسك وتقرر عليها ان حاله عندك مستور كما كان وأن ما رأيته منه يحتمل الخير والشر فان قلت فبماذا يعرف عقد الظن والشكوك تختلج والنفس تحدث فنقول أمارة عقد سوء الظن أن يتغير القلب معه عما كان فينفر عنه نفورا ما ويستثقله ويفتر عن مراعاته وتفقده واكرامه والاغتمام بسببه فهذه أمارات عقد الظن وتحقيقه وقد قال صلى الله عليه وسلم ثلاث في المؤمن وله منهن مخرج فمخرجه من سوء الظن أن لا يحققه أي لا يحققه في نفسه بعقد ولا فعل لا في القلب ولا في الجوارح أما في القلب فبتغيره الى النفرة والكراهة وأما في الجوارح فبالعمل بموجبه والشيطان قد يقرر على القلب بأدنى مخيلة مساءة الناس ويلقي اليه ان هذا من فطنتك وسرعة فهمك وذكائك وأن المؤمن ينظر بنور الله تعالى وهو على التحقيق ناظر بغرور الشيطان وظلمته وأما اذا أخبرك به عدل فمال ظنك الى تصديقه كنت معذورا لانك لو كذبته لكنت جانيا على هذا العدل اذ ظننت به الكذب وذلك أيضا من سوء الظن فلا ينبغي ان تحسن الظن بواحد وتسيء بالآخر نعم ينبغي ان تبحث هل بينهما عداوة ومحاسدة وتعنت فتتطرق التهمة بسببه فقد رد الشرع شهادة الاب العدل للولد للتهمة ورد شهادة العدو فلك عند ذلك أن تتوقف وان كان عدلا فلا تصدقه ولا تكذبه ولكن تقول في نفسك المذكور حاله كان عندي في ستر الله تعالى وكان أمره محجوبا عني وقد بقي كما كان لم ينكشف لي شيء من أمره وقد يكون الرجل ظاهره العدالة ولا محاسدة بينه وبين المذكور ولكن قد يكون من عادته التعرض للناس وذكر مساويهم فهذا قد يظن أنه عدل وليس بعدل فان المغتاب فاسق وان كان ذلك من عادته ردت شهادته الا أن الناس لكثرة الاعتياد تساهلوا في أمر الغيبة ولم يكترثوا بتناول اعراض الخلق ومهما خطر لك خاطر بسوء على مسلم فينبغي أن تزيد في مراعاته وتدعو له بالخير فان ذلك يغيظ الشيطان ويدفعه عنك فلا يلقي اليك الخاطر السوء خيفة من اشتغالك بالدعاء والمراعاة ومهما عرفت هفوة مسلم بحجة فانصحه في السر ولا يخدعنك الشيطان فيدعوك الى اغتيابه واذا وعظته فلا تعظه وأنت مسرور باطلاعك على نقصه لينظر اليك بعين التعظيم وتنظر اليه بعين الاستحقار وتترفع عليه بايداء الوعظ وليكن قصدك تخليصه من الاثم وأنت حزين كما تحزن على نفسك اذا دخل عليك نقصان في دينك وينبغي أن يكون تركه لذلك من غير نصحك أحب اليك من تركه بالنصيحة فاذا أنت فعلت ذلك كنت قد جمعت بين أجر الوعظ وأجر الغم بمصيبته وأجر الاعانة له على دينه ومن ثمرات سوء الظن التجسس فان القلب لا يقنع بالظن ويطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس وهو أيضا منهي عنه قال الله تعالى ولا تجسسوا فالغيبة وسوء الظن والتجسس منهي عنه في آية واحدة ومعنى التجسس ان لا يترك عباد الله تحت ستر الله فيتوصل الى الاطلاع وهتك الستر حتى ينكشف له ما لو كان مستورا عنه كان أسلم لقلبه ودينه وقد ذكرنا في كتاب الامر بالمعروف حكم التجسس وحقيقته

﴿ بيان الاعذار المرخصة في الغيبة ﴾

اعلم ان المرخص في ذكر مساوي الغير هو غرض صحيح في الشرع لا يمكن التوصل اليه الا به فيدفع ذلك اثم الغيبة

طاهرة وترابا طاهرا *وكيفية الاستنجاء أن يأخذ الحجر بيساره ويضعه على مقدم المخرج قبل ملاقاة النجاسة ويمده بالمسح ويدير الحجر في مره حتى لا ينقل النجاسة من موضع الى موضع يفعل ذلك الى أن ينتهي الى مؤخر المخرج ويأخذ الثاني ويضعه على المؤخر كذلك ويمسح الى المقدمة ويأخذ الثالث ويديره حول المسربة وان استجمر بحجر ذي ثلاث شعب جاز وأما الاستبراء اذا انقطع البول فيمد ذكره من أصله ثلاثا الى الحشفة بالرفق لئلا يندفق بقية البول ثم ينتره ثلاثا ويحتاط في الاستبراء بالاستنقاء وهو وان يتنحنح ثلاثا لان العروق ممتدة من الحلق الى الذكر وبالتنحنح تتحرك وتقذف ما في مجرى البول فان مشى خطوات وزاد في التنحنح فلا بأس ولكن يراعي حد العلم ولا يجعل

وهي ستة أمور * الاول التظلم فان من ذكر قاضيا بالظلم والخيانة واخذ الرشوة كان مغتابا عاصيا ان لم يكن مظلوما أما المظلوم من جهة القاضي فله أن يتظلم الى السلطان و ينسبه الى الظلم اذ لا يمكنه استيفاء حقه الا به قال صلى الله عليه وسلم ان لصاحب الحق مقالا وقال عليه السلام مطل الغني ظلم وقال عليه السلام لي الواجد يحل عقوبته وعرضه الثاني الاستعانة على تغيير المنكر ورد العاصي الى منهج الصلاح كما روي أن عمر رضي الله عنه مر على عثمان وقيل على طلحة رضي الله عنه فسلم عليه فلم يرد السلام فذهب الى أبي بكر رضي الله عنه فذكر له ذلك فجاء أبو بكر اليه ليصلح ذلك ولم يكن ذلك غيبة عندهم وكذلك لما بلغ عمر رضي الله عنه أن أبا جندل قد عاقر الخمر بالشام كتب اليه بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب الآية فتاب ولم ير ذلك عمر ممن أبلغه غيبة اذ كان قصده أن ينكر عليه ذلك فينفعه نصحه ما لا ينفعه نصح غيره وانما اباحة هذا بالقصد الصحيح فان لم يكن ذلك هو المقصود كان حراما * الثالث الاستفتاء كما يقول للمفتي ظلمني أبي أو زوجتي أو أخي وكيف طريقي في الخلاص والاسلم التعريض بان يقول ما قولك في رجل ظلمه أبوه أو أخوه أو زوجته ولكن التعيين مباح بهذا القدر لما روي عن هند بنت عتبة أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم ان أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني أنا وولدي فآخذ من غير علمه فقال خذي ما يكفيك و ولدك بالمعروف فذكرت الشح والظلم لها ولولدها ولم يزجرها صلى الله عليه وسلم اذ كان قصدها الاستفتاء * الرابع تحذير المسلم من الشر فاذا رأيت فقيها يتردد الى مبتدع أو فاسق وخفت أن تتعدى اليه بدعته وفسقه فلك أن تكشف له بدعته وفسقه مهما كان الباعث لك الخوف عليه من سراية البدعة والفسق لا غيره وذلك موضع الغرور اذ قد يكون الحسد هو الباعث و يلبس الشيطان ذلك باظهار الشفقة على الخلق وكذلك من اشترى مملوكا وقد عرفت المملوك بالسرقة أو بالفسق أو بعيب آخر فلك أن تذكر ذلك فان في سكوتك ضرر المشتري وفي ذكرك ضرر العبد والمشتري أولى بمراعاة جانبه وكذلك المزكي اذا سئل عن الشاهد فله الطعن فيه ان علم مطعنا وكذلك المستشار في التزويج وايداع الامانة له أن يذكر ما يعرفه على قصد النصح للمستشير لا على قصد الوقيعة فان علم انه يترك التزويج بمجرد قوله لا تصلح لك فهو الواجب وفيه الكفاية وان علم أنه لا ينزجر الا بالتصريح بعينه فله أن يصرح به اذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أترغبون عن ذكر الفاجر متى يعرفه الناس اذكروه بما فيه حتى يحذره الناس وكانوا يقولون ثلاثة لا غيبة لهم الامام الجائر والمبتدع والمجاهر بفسقه * الخامس أن يكون الانسان معروفا بلقب يعرب عن عيبه كالاعرج والاعمش فلا اثم على من يقول روى أبو الزناد عن الاعرج وسلمان عن الاعمش وما يجري مجراه فقد فعل العلماء ذلك لضرورة التعريف ولان ذلك قد صار بحيث لا يكرهه صاحبه لو علمه بعد أن قد صار مشهورا به نعم ان وجد عنه معدلا وأمكنه التعريف بعبارة أخرى فهو أولى ولذلك يقال للاعمى البصير عدولا عن اسم النقص * السادس أن يكون مجاهرا بالفسق كالمخنث وصاحب الماخور والمجاهر بشرب الخمر ومصادرة الناس وكان ممن يتظاهر به بحيث لا يستنكف من أن يذكر له ولا يكره أن يذكر به فاذا ذكرت فيه ما يتظاهر به فلا اثم عليك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من ألقى جلباب الحياء عن وجهه فلا غيبة له وقال عمر رضي الله عنه ليس لفاجر حرمة وأراد به المجاهر بفسقه دون المستتر اذ المستتر لا بد من مراعاة حرمته وقال الصلت بن طريف قلت للحسن الرجل الفاسق المعلن بفجوره ذكري له بما فيه غيبة له قال لا ولا كرامة وقال الحسن ثلاثة لا غيبة لهم صاحب الهوى والفاسق المعلن بفسقه والامام الجائر فهؤلاء الثلاثة يجمعهم انهم يتظاهرون به وربما يتفاخرون به فكيف يكرهون ذلك وهم يقصدون اظهاره نعم لو ذكره بغير ما يتظاهر به أثم وقال عوف دخلت على ابن سيرين فتناولت عنده الحجاج فقال ان الله حكم عدل ينتقم للحجاج ممن اغتابه كما ينتقم من الحجاج لمن ظلمه وانك اذا لقيت الله تعالى غدا كان أصغر ذنب أصبته أشد عليك من أعظم ذنب أصابه الحجاج

بيان كفارة الغيبة

اعلم ان الواجب على المغتاب ان يندم ويتوب ويتأسف على ما فعله ليخرج به من حق الله سبحانه ثم يستحل المغتاب ليحله فيخرج من مظلمته و ينبغي أن يستحله وهو حزين متأسف نادم على فعله اذ المرائي قد يستحل ليظهر

للشيطان عليه سبيلا بالوسوسة فيضيع الوقت ثم يمسح الذكر ثلاث مسحات أو أكثر الى أن لا يرى الرطوبة وشبه بعضهم الذكر بالضرع وقال لا يزال تظهر منه الرطوبة مادام يمد فيراعي الحد في ذلك و يراعي الوتر في ذلك أيضا والمسحات تكون على الارض الطاهرة أو حجر طاهر وان احتاج الى أخذ الحجر لصغره فليأخذ الحجر باليمين والذكر باليسار و يمسح على الحجر وتكون الحركة باليسار لا باليمين لئلا يكون مستنجيا باليمين واذا أراد استعمال الماء انتقل الى موضع آخر و يقنع الحجر ما لم ينتشر البول على الحشفة وفي ترك الاستنقاء في الاستبراء وعيد و رد فيما رواه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبرين فقال انهما ليعذبان وما

من نفسه الورع وفي الباطن لا يكون نادما فيكون قد قارف معصية أخرى وقال الحسن يكفيه الاستغفار دون الاستحلال وربما استدل في ذلك بما روى أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كفارة من اغتبته أن تستغفر له وقال مجاهد كفارة أكلك لحم أخيك أن تثني عليه وتدعو له بخير وسئل عطاء بن أبي رباح عن التوبة من الغيبة قال أن تمشي الى صاحبك فتقول له كذبت فيما قلت وظلمتك وأسأت فان شئت أخذت بحقك وان شئت عفوت وهذا هو الاصح وقول القائل العرض لا عوض له فلا يجب الاستحلال منه بخلاف المال كلام ضعيف اذ قد وجب في العرض حد القذف وتثبت المطالبة به بل في الحديث الصحيح ما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال من كانت لاخيه عنده مظلمة في عرض أو مال فليستحللها منه من قبل أن يأتي يوم ليس هناك دينار ولا درهم انما يؤخذ من حسناته فان لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فزيدت على سيئاته وقالت عائشة رضي الله عنها لامرأة قالت لاخرى انها طويلة الذيل قد اغتبتيها فاستحليها فاذا لا بد من الاستحلال ان قدر عليه فان كان غائبا أو ميتا فينبغي أن يكثر له الاستغفار والدعاء ويكثر من الحسنات فان قلت فالتحليل هل يجب فأقول لا لانه تبرع والتبرع فضل وليس بواجب ولكنه مستحسن وسبيل المعتذر أن يبالغ في الثناء عليه والتودد اليه ويلازم ذلك حتى يطيب قلبه فان لم يطب قلبه كان اعتذاره وتودده حسنة محسوبة له يقابل بها سيئة الغيبة في القيامة وكان بعض السلف لا يحلل قال سعيد بن المسيب لا أحلل من ظلمني وقال ابن سيرين اني لم أحرمها عليه فأحللها له ان الله حرم الغيبة عليه وما كنت لاحلل ما حرم الله أبدا فان قلت فما معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم ينبغي أن يستحلها وتحليل ما حرمه الله تعالى غير ممكن فنقول المراد به العفو عن المظلمة لا أن ينقلب الحرام حلالا وما قاله ابن سيرين حسن في التحليل قبل الغيبة فانه لا يجوز له أن يحلل لغيره الغيبة فان قلت فما معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم أيعجز أحدكم أن يكون كابي ضمضم كان اذا خرج من بيته قال اللهم اني قد تصدقت بعرضي على الناس فكيف يتصدق بالعرض ومن تصدق به فهل يباح تناوله فان كان لا تنفذ صدقته فما معنى الحث عليه فنقول معناه أني لا اطلب مظلمة في القيامة منه ولا اخاصمه والا فلا تصير الغيبة حلالا به ولا تسقط المظلمة عنه لانه عفو قبل الوجوب الا أنه وعد وله العزم على الوفاء بأن لا يخاصم فان رجع وخاصم كان القياس كسائر الحقوق ان له ذلك بل صرح الفقهاء أن من أباح القذف لم يسقط حقه من حد القاذف ومظلمة الآخرة مثل مظلمة الدنيا وعلى الجملة فالعفو أفضل قال الحسن اذا جثت الامم بين يدي الله عز وجل يوم القيامة نودوا ليقم من كان له أجر على الله فلا يقوم الا العافون عن الناس في الدنيا وقد قال الله تعالى خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين فقال النبي صلى الله عليه وسلم يا جبريل ما هذا العفو فقال ان الله تعالى يأمرك أن تعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك وتعطي من حرمك وروي عن الحسن أن رجلا قال له ان فلانا قد اغتابك فبعث اليه رطبا على طبق وقال قد بلغني أنك أهديت الي من حسناتك فأردت أن أكافئك عليها فاعذرني فاني لا أقدر أن أكافئك على التمام

❋ الآفة السادسة عشرة النميمة ❋

قال الله تعالى هماز مشاء بنميم ثم قال عتل بعد ذلك زنيم قال عبد الله بن المبارك الزنيم ولد الزنا الذي لا يكتم الحديث وأشار به الى أن كل من لم يكتم الحديث ومشى بالنميمة دل على انه ولد زنا استنباطا من قوله عز وجل عتل بعد ذلك زنيم والزنيم هو الدعي وقال تعالى ويل لكل همزة لمزة قيل الهمزة النمام وقال تعالى حمالة الحطب قيل انها كانت نمامة حمالة للحديث وقال تعالى فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيأ قيل كانت امرأة لوط تخبر بالضيفان وامرأة نوح تخبر أنه مجنون وقد قال صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة نمام وفي حديث آخر لا يدخل الجنة قتات والقتات هو النمام وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحبكم الى الله أحاسنكم أخلاقا الموطؤن أكنافا الذين يألفون ويؤلفون وان أبغضكم الى الله المشاؤن بالنميمة المفرقون بين الاخوان الملتمسون للبرآء العثرات وقال صلى الله عليه وسلم ألا أخبركم بشراركم قالوا بلى قال المشاؤن بالنميمة المفسدون بين الاحبة الباغون للبرآء العيب وقال أبو ذر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أشاع على مسلم بكلمة ليشينه بها بغير حق شانه الله بها في النار يوم القيامة وقال أبو الدرداء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيما رجل أشاع على

يعذبان في كبير اما هذا فكان لا يستبرئ أو لا يستنزه من البول وأما هذا فكان يمشي بالنميمة ثم دعا بعسيب رطب فشقه اثنين ثم غرس على هذا واحدا وعلى هذا واحدا وقال لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا والعسيب الجريد واذا كان في الصحراء يبعد عن العيون ❋ روى جابر رضي الله عنه أن النبي عليه السلام كان اذا أراد البراز انطلق حتى لا يراه أحد وروى المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فأتى النبي عليه السلام حاجته فأبعد في المذهب وروى ان النبي عليه السلام كان يتبوأ لحاجته كما يتبوأ الرجل المنزل وكان يستتر بحائط أو نشز من الارض أو كوم من الحجارة ويجوز أن يستتر الرجل براحلته في الصحراء أو بذيله اذا حفظ الثوب من

رجل كلمة وهو منها برىء ليشينه بها فى الدنيا كان حقا على الله أن يذيبه بها يوم القيامة فى النار وقال أبو هريرة قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم من شهد على مسلم بشهادة ليس لها بأهل فليتبوأ مقعده من النار ويقال إن ثلث
عذاب القبر من النميمة وعن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم إن الله لما خلق الجنة قال لها تكلمى فقالت
سعد من دخلنى فقال الجبار جل جلاله وعزتى وجلالى لا يسكن فيك ثمانية نفر من الناس لا يسكنك مدمن
خمر ولا مصر على الزنا ولا قتات وهو النمام ولا ديوث ولا شرطى ولا مخنث ولا قاطع رحم ولا الذى يقول على عهد
الله إن لم أفعل كذا وكذا ثم لم يف به وروى كعب الأحبار أن بنى إسرائيل أصابهم قحط فاستسقى موسى عليه
السلام مرات فما سقوا فأوحى الله تعالى إليه إنى لا أستجيب لك ولمن معك وفيكم نمام قد أصر على النميمة فقال
موسى يا رب من هو دلنى عليه حتى أخرجه من بيننا قال يا موسى أنهاكم عن النميمة وأكون نماما فتابوا جميعا
فسقوا ويقال اتبع رجل حكيما سبعمائة فرسخ فى سبع كلمات فلما قدم عليه قال إنى جئتك للذى آتاك الله تعالى
من العلم أخبرنى عن السماء وما أثقل منها وعن الأرض وما أوسع منها وعن الصخر وما أقسى منه وعن النار وما
أحر منها وعن الزمهرير وما أبرد منه وعن البحر وما أغنى منه وعن اليتيم وما أذل منه فقال له الحكيم البهتان على
البرىء أثقل من السموات والحق أوسع من الأرض والقلب القانع أغنى من البحر والحرص والحسد أحر من
النار والحاجة إلى القريب إذا لم تنجح أبرد من الزمهرير وقلب الكافر أقسى من الحجر والنمام إذا بان أمره أذل
من اليتيم

﴿ بيان حد النميمة وما يجب فى ردها ﴾

اعلم أن اسم النميمة إنما يطلق فى الأكثر على من ينم قول الغير إلى المقول فيه كما تقول فلان كان يتكلم فيك بكذا
وكذا وليست النميمة مختصة به بل حدها كشف ما يكره كشفه سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه أو كرهه
ثالث وسواء كان الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالرمز أو بالإيماء وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال
وسواء كان ذلك عيبا ونقصا فى المنقول عنه أو لم يكن بل حقيقة النميمة إفشاء السر وهتك الستر عما يكره كشفه بل
كل ما رآه الإنسان من أحوال الناس مما يكره فينبغى أن يسكت عنه إلا ما فى حكايته فائدة لمسلم أو دفع لمعصية كما
إذا رأى من يتناول مال غيره فعليه أن يشهد به مراعاة لحق المشهود له فأما إذا رآه يخفى مالا لنفسه فذكره فهو
نميمة وإفشاء للسر فإن كان ما ينم به نقصا وعيبا فى المحكى عنه كان قد جمع بين الغيبة والنميمة فالباعث على النميمة
إما إرادة السوء للمحكى عنه أو إظهار الحب للمحكى له أو التفرج بالحديث والخوض فى الفضول والباطل وكل من
حملت إليه النميمة وقيل له إن فلانا قال فيك كذا أو فعل فى حقك كذا أو هو يدبر فى إفساد أمرك أو فى ممالأة عدوك
أو تقبيح حالك أو ما يجرى مجراه فعليه ستة أمور * الأول أن لا يصدقه لأن النمام فاسق وهو مردود الشهادة قال
الله تعالى يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة * الثانى أن ينهاه عن ذلك وينصح
له ويقبح عليه فعله قال الله تعالى وأمر بالمعروف وانه عن المنكر * الثالث أن يبغضه فى الله تعالى فإنه بغيض عند
الله تعالى ويجب بغض من يبغضه الله تعالى * الرابع أن لا تظن بأخيك الغائب السوء لقول الله تعالى اجتنبوا
كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم * الخامس أن لا يحملك ما حكى لك على التجسس والبحث لتتحقق اتباعا لقوله
تعالى ولا تجسسوا * السادس أن لا ترضى لنفسك ما نهيت النمام عنه ولا تحكى نميمته فتقول فلان قد حكى لى كذا
وكذا فتكون به نماما ومغتابا وتكون قد أتيت ما عنه نهيت وقد روى عن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أنه
دخل عليه رجل فذكر له عن رجل شيئا فقال له عمر إن شئت نظرنا فى أمرك فإن كنت كاذبا فأنت من أهل هذه
الآية إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا وإن كنت صادقا فأنت من أهل هذه الآية هماز مشاء بنميم وإن شئت عفونا
عنك فقال العفو يا أمير المؤمنين لا أعود إليه أبدا * وذكر أن حكيما من الحكماء زاره بعض إخوانه فأخبره بخبر
عن بعض أصدقائه فقال له الحكيم قد أبطأت فى الزيارة وأتيت بثلاث جنايات بغضت أخى إلى وشغلت قلبى
الفارغ واتهمت نفسك الأمينة وروى أن سليمان بن عبد الملك كان جالسا وعنده الزهرى فجاءه رجل فقال له
سليمان بلغنى أنك وقعت فى وقلت كذا وكذا فقال الرجل ما فعلت ولا قلت فقال سليمان إن الذى أخبرنى صادق
فقال له الزهرى لا يكون النمام صادقا فقال سليمان صدقت ثم قال للرجل اذهب بسلام وقال الحسن من نم إليك نم

الرشاش ويستحب البول فى أرض دمثة أو على تراب مهيل قال أبو موسى كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأراد أن يبول فأتى دمثا فى أصل جدار فبال ثم قال إذا أراد أحدكم أن يبول فليرتد لبوله وينبغى أن لا يستقبل القبلة ولا يستدبرها ولا يستقبل الشمس والقمر ولا يكره استقبال القبلة فى البنيان والأولى اجتنابه لذهاب بعض الفقهاء إلى كراهية ذلك فى البنيان أيضا ولا يرفع ثوبه حتى يدنو من الأرض ويتجنب مهاب الرياح احترازا من الرشاش قال رجل لبعض الصحابة من الأعراب وقد خاصمه قال لا أحسبك تحسن الخراءة فقال بلى وأبيك إنى بها لحاذق قال فصفها لى فقال أبعد الأثر وأعد المدر وأستقبل الشيح وأستدبر الريح وأقعى إقعاء الظبى

عليك وهذا اشارة الى ان النمام ينبغي أن يبغض ولا يوثق بقوله ولا بصداقته وكيف لا يبغض وهو لا ينفك عن الكذب والغيبة والغدر والخيانة والغل والحسد والنفاق والافساد بين الناس والخديعة وهو ممن يسعى في قطع ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الارض وقال تعالى انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الارض بغير الحق والنمام منهم وقال صلى الله عليه وسلم ان من شرار الناس من اتقاه الناس لشره والنمام منهم وقال لا يدخل الجنة قاطع قيل وما القاطع قال قاطع بين الناس وهو النمام وقيل قاطع الرحم وروى عن علي رضي الله عنه أن رجلا سعى اليه برجل فقال له يا هذا نحن نسأل عما قلت فان كنت صادقا مقتناك وان كنت كاذبا عاقبناك وان شئت أن نقيلك أقلناك فقال أقلني يا أمير المؤمنين وقيل لمحمد بن كعب القرظي أي خصال المؤمن أوضع له فقال كثرة الكلام وافشاء السر وقبول قول كل أحد وقال رجل لعبد الله بن عامر وكان أميرا بلغني أن فلانا أعلم الامير أني ذكرته بسوء قال قد كان ذلك قال فاخبرني بما قال لك حتى أظهر كذبه عندك قال ما أحب أن أشتم نفسي بلساني وحسبي اني لم أصدقه فيما قال ولا أقطع عنك الوصال وذكرت السعاية عند بعض الصالحين فقال ما ظنكم بقوم يحمد الصدق من كل طائفة من الناس الا منهم وقال مصعب بن الزبير نحن نرى أن قبول السعاية شر من السعاية لان السعاية دلالة والقبول اجازة وليس من دل على شيء فاخبر به كمن قبله وأجازه فاتقوا الساعي فلو كان صادقا في قوله لكان لئيما في صدقه حيث لم يحفظ الحرمة ولم يستر العورة والسعاية هي النميمة الا انها اذا كانت الى من يخاف جانبه سميت سعاية وقد قال صلى الله عليه وسلم الساعي بالناس الى الناس لغير رشدة يعني ليس بولد حلال ودخل رجل على سليمان عبد الملك فاستأذنه في الكلام وقال اني مكلمك يا أمير المؤمنين بكلام فاحتمله وان كرهته فان وراءه ما تحب ان قبلته فقال قل فقال يا أمير المؤمنين انه قد اكتنفك رجال ابتاعوا دنياك بدينهم ورضاك بسخط ربهم خافوك في الله ولم يخافوا الله فيك فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه ولا تصخ اليهم فيما استحفظك الله اياه فانهم لن يألوا في الامة خسفا وفي الامانة تضييعا والاعراض قطعا وانها كأعلى قربهم البغي والنميمة وأجل وسائلهم الغيبة والوقيعة وأنت مسؤل عما أجرموا وليسوا المسؤلين عما أجرمت فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك فان أعظم الناس غبنا من باع آخرته بدنيا غيره وسعى رجل بزياد الاعجم الى سليمان بن عبد الملك فجمع بينهما للموافقة فاقبل زياد على الرجل وقال

فانت امرؤ اما ائتمنتك خاليا * فخنت واما قلت قولا بلا علم

فانت من الامر الذي كان بيننا * بمنزلة بين الخيانة والاثم

وقال رجل لعمرو بن عبيد ان الاسواري ما يزال يذكرك في قصصه بشر فقال له عمرو يا هذا ما رعيت حق مجالسة الرجل حيث نقلت الينا حديثه ولا أديت حقي حين أعلمتني عن أخي ما أكره ولكن أعلمه ان الموت يعمنا والقبر يضمنا والقيامة تجمعنا والله يحكم بيننا وهو خير الحاكمين * ورفع بعض السعاة الى الصاحب بن عباد رقعة نبه فيها على مال يتيم يحمله على أخذه لكثرته فوقع على ظهرها السعاية قبيحة وان كانت صحيحة فان كنت أجريتها مجرى النصح فخسرانك فيها أفضل من الربح ومعاذ الله أن نقبل مهتوكا في مستور ولولا أنك في خفارة شيبتك لقابلناك بما يقتضيه فعلك في مثلك فتوق يا ملعون العيب فان الله أعلم بالغيب الميت رحمه الله واليتيم جبره الله والمال ثمره الله والساعي لعنه الله وقال لقمان لابنه يا بني أوصيك بخلال ان تمسكت بهن لم تزل سيدا أبسط خلقك للقريب والبعيد وأمسك جهلك عن الكريم واللئيم واحفظ اخوانك وصل أقاربك وآمنهم من قبول قول ساع أو سماع باغ يريد فسادك ويروم خداعك وليكن اخوانك من اذا فارقتهم وفارقوك لم تعبهم ولم يعيبوك وقال بعضهم النميمة مبنية على الكذب والحسد والنفاق وهي اثافي الذل وقال بعضهم لو صح ما نقله النمام اليك لكان هو المجترئ بالشتم عليك والمنقول عنه أولى بحلمك لانه لم يقابلك بشتمك وعلى الجملة فشر النمام عظيم ينبغي أن يتوقى قال حماد ابن سلمة باع رجل عبدا وقال للمشتري ما فيه عيب الا النميمة قال قد رضيت فاشتراه فمكث الغلام أياما ثم قال لزوجة مولاه ان سيدي لا يحبك وهو يريد أن يتسرى عليك فخذي الموسى واحلقي من شعر قفاه عند نومه شعرات حتى أسحره عليها فيحبك ثم قال للزوج ان امرأتك اتخذت خليلا وتريد أن تقتلك فتناوم لها حتى تعرف ذلك فتناوم

وأجفل اجفال النعام يعني أستقبل أصول النبات من الشيح وغيره وأستدبر الريح احترازا من الرشاش والاقعاء ههنا أن يستوفز على صدور قدميه والاجفال أن يرفع عجزه * ويقول عند الفراغ من الاستنجاء اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وطهر قلبي من الرياء وحصن فرجي من الفواحش ويكره أن يبول الرجل في المغتسل روى عبد الله بن مغفل أن النبي عليه السلام نهى أن يبول الرجل في مستحمه وقال ان عامة الوسواس منه وقال ابن المبارك يوسع في البول في المستحم اذا جرى فيه الماء واذا كان في البنيان يقدم رجله اليسرى لدخول الخلاء ويقول قبل دخول بسم الله أعوذ بالله من الخبث والخبائث * حدثنا شيخنا شيخ الاسلام أبو النجيب السهروردي قال أنا

لما جاءت المرأة بالموسى فظن أنها تريد قتله فقام اليها فقتلها فجاء أهل المرأة فقتلوا الزوج و وقع القتال بين القبيلتين فنسأل الله حسن التوفيق

﴿ الآفة السابعة عشرة ﴾

كلام ذي اللسانين الذي يتردد بين المتعاديين و يكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه وقلما يخلو عنه من يشاهد متعاديين وذلك عين النفاق قال عمار بن ياسر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان له وجهان في الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بحديث وهؤلاء بحديث وفي لفظ آخر الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه وقال أبو هريرة لا ينبغي لذي الوجهين أن يكون أمينا عند الله وقال مالك بن دينار قرأت في التوراة بطلت الامانة والرجل مع صاحبه بشفتين مختلفتين يهلك الله تعالى يوم القيامة كل شفتين مختلفتين وقال صلى الله عليه وسلم أبغض خليقة الله الى الله يوم القيامة الكذابون والمستكبرون والذين يكثرون البغضاء لاخوانهم في صدورهم فاذا لقوهم تملقوا لهم والذين اذا دعوا الى الله ورسوله كانوا بطاء واذا دعوا الى الشيطان وأمره كانوا سراعا وقال ابن مسعود لا يكونن أحدكم امعة قالوا وما الامعة قال الذي يجري مع كل ريح واتفقوا على أن ملاقاة الاثنين بوجهين نفاق وللنفاق علامات كثيرة وهذه من جملتها وقد روي أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مات فلم يصل عليه حذيفة فقال له عمر أيموت رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تصل عليه فقال يا أمير المؤمنين انه منهم فقال نشدتك الله أنا منهم أم لا قال اللهم لا ولا أومن منها أحدا بعدك فان قلت بماذا يصير الرجل ذا لسانين وما حد ذلك فأقول اذا دخل على متعاديين وجامل كل واحد منهما وكان صادقا فيه لم يكن ذا لسانين فان الواحد قد يصادق متعاديين ولكن صداقة ضعيفة لا تنتهي الى حد الاخوة اذ لو تحققت الصداقة لاقتضت معاداة الاعداء كما ذكرنا في كتاب آداب الصحبة والاخوة نعم لو نقل كلام كل واحد منهما الى الآخر فهو ذو لسانين وهو شر من النميمة اذ يصير نماما بأن ينقل من أحد الجانبين فقط فاذا نقل من الجانبين فهو شر من النمام وان لم ينقل كلاما ولكن حسن لكل واحد منهما ما هو عليه من المعاداة مع صاحبه فهذا ذو لسانين وكذلك اذا وعد كل واحد منهما بأن ينصره وكذلك اذا أثنى على كل واحد منهما في معاداته وكذلك اذا أثنى على أحدهما وكان اذا خرج من عنده يذمه فهو ذو لسانين بل ينبغي أن يسكت أو يثني على المحق من المتعاديين و يثني عليه في غيبته وفي حضوره و بين يدي عدوه وقيل لابن عمر رضي الله عنهما انا ندخل على أمرائنا فنقول القول فاذا خرجنا قلنا غيره فقال كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا نفاق مهما كان مستغنيا عن الدخول على الامير وعن الثناء عليه فلو استغنى عن الدخول ولكن اذا دخل يخاف ان لم يثن فهو نفاق لانه الذي أحوج نفسه الى ذلك فان كان مستغنيا عن الدخول لو قنع بالقليل وترك المال والجاه فدخل لضرورة الجاه والغنى وأثنى فهو منافق وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم حب المال والجاه ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل لانه يحوج الى الامراء والى مراعاتهم ومراآتهم فأما اذا ابتلي به لضرورة وخاف ان لم يثن فهو معذور فان اتقاء الشر جائز قال أبو الدرداء رضي الله عنه انا لنكشر في وجوه أقوام وان قلوبنا لتلعنهم وقالت عائشة رضي الله عنها استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ائذنوا له فبئس رجل العشيرة هو ثم لما دخل ألان له القول فلما خرج قلت يا رسول الله قلت فيه ما قلت ثم ألنت له القول فقال يا عائشة ان شر الناس الذي يكرم اتقاء شره ولكن هذا ورد في الاقبال وفي الكشر والتبسم فأما الثناء فهو كذب صراح ولا يجوز الا لضرورة أو اكراه يباح الكذب بمثله كما ذكرناه في آفة الكذب بل لا يجوز الثناء ولا التصديق ولا تحريك الرأس في معرض التقرير على كل كلام باطل فان فعل ذلك فهو منافق بل ينبغي أن ينكر فان لم يقدر فيسكت بلسانه و ينكر بقلبه

﴿ الآفة الثامنة عشرة ﴾

المدح وهو منهي عنه في بعض المواضع أما الذم فهو الغيبة والوقيعة وقد ذكرنا حكمها والمدح يدخله ست آفات أربع في المادح واثنتان في الممدوح ﴿ فأما المادح ﴾ فالاولى أنه قد يفرط فينتهي به الى الكذب قال خالد بن معدان من مدح اماما أو أحدا بما ليس فيه على رؤس الاشهاد بعثه الله يوم القيامة يتعثر بلسانه * الثانية أنه قد

أبو منصور المقري قال أنا أبو بكر الخطيب قال أنا أبو عمر الهاشمي قال أنا أبو علي اللؤلؤي قال أنا أبو داود قال ثنا عمر وهو ابن مرزوق البصري قال ثنا شعبة عن قتادة عن النضر ابن أنس عن زيد بن أرقم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان هذه الحشوش محتضرة فاذا أتى أحدكم الخلاء فليقل أعوذ بالله من الخبث والخبائث وأراد بالحشوش الكنف وأصل الحش جماعة النخل الكثيف كانوا يقضون حوائجهم اليها قبل أن تتخذ الكنف في البيوت وقوله محتضرة أي يحضرها الشياطين وفي الجلوس للحاجة يعتمد على الرجل اليسرى ولا يتولع بيده ولا يخط في الارض والحائط وقت قعوده ولا يكثر النظر الى عورته الا للحاجة الى ذلك ولا يتكلم فقد

يدخله الرياء فانه بالمدح مظهر للحب وقد لا يكون مضمراً له ولا معتقداً لجميع ما يقوله فيصير به مرائياً منافقاً
* الثالثة أنه قد يقول ما لا يتحققه ولا سبيل له الى الاطلاع عليه روى أن رجلاً مدح رجلاً عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال له عليه السلام ويحك قطعت عنق صاحبك لو سمعها ما أفلح ثم قال ان كان أحدكم لا بد مادحاً أخاه فليقل أحسب فلاناً ولا أزكى على الله أحداً حسيبه الله ان كان يرى أنه كذلك وهذه الآفة تتطرق الى المدح بالاوصاف المطلقة التى تعرف بالادلة كقوله انه متق وورع وزاهد وخير وما يجرى مجراه فأما اذا قال رأيته يصلى بالليل ويتصدق ويحج فهذه أمور مستيقنة ومن ذلك قوله أنه عدل رضا فان ذلك خفى فلا ينبغى أن يجزم القول فيه الا بعد خبرة باطنه سمع عمر رضى الله عنه رجلاً يثنى على رجل فقال أسافرت معه قال لا قال أخالطته فى المبايعة والمعاملة قال لا قال فأنت جاره صباحه ومساءه قال لا فقال والله الذى لا اله الا هو لا أراك تعرفه الرابعة أنه قد يفرح الممدوح وهو ظالم أو فاسق وذلك غير جائز قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى يغضب اذا مدح الفاسق وقال الحسن من دعا الظالم بطول البقاء فقد أحب أن يعصى الله تعالى فى أرضه والظالم الفاسق ينبغى أن يذم ليغتم ولا يمدح ليفرح * وأما الممدوح فيضره من وجهين * أحدهما أنه يحدث فيه كبراً واعجاباً وهما مهلكان قال الحسن رضى الله عنه كان عمر رضى الله عنه جالساً ومعه الدرة والناس حوله اذ أقبل الجارود بن المنذر فقال رجل هذا سيد ربيعة فسمعها عمر ومن حوله وسمعها الجارود فلما دنا منه خفقه بالدرة فقال مالى ولك يا أمير المؤمنين قال مالى ولك أما لقد سمعتها قال سمعتها فمه قال خشيت أن يخالط قلبك منها شئ فأحببت أن أطأطئ منك الثانى هو أنه اذا أثنى عليه بالخير فرح به وفتر ورضى عن نفسه ومن أعجب بنفسه قل تشمره وانما يتشمر للعمل من يرى نفسه مقصراً فأما اذا انطلقت الالسن بالثناء عليه ظن أنه قد أدرك ولهذا قال عليه السلام قطعت عنق صاحبك لو سمعها ما أفلح وقال صلى الله عليه وسلم اذا مدحت أخاك فى وجهه فكأنما أمررت على حلقه موسى رميضاً وقال أيضاً لمن مدح رجلاً عقرت الرجل عقرك الله وقال مطرف ما سمعت قط ثناء ولا مدحة الا تصاغرت الى نفسى وقال زياد بن مسلم ليس أحد يسمع ثناء عليه أو مدحة الا تراءى له الشيطان ولكن المؤمن يراجع فقال ابن المبارك لقد صدق كلاهما أما ما ذكره زياد فذلك قلب العوام وأما ما ذكره مطرف فذلك قلب الخواص وقال صلى الله عليه وسلم لو مشى رجل الى رجل بسكين مرهف كان خيراً له من أن يثنى عليه فى وجهه وقال عمر رضى الله عنه المدح هو الذبح وذلك لان المذبوح هو الذى يفتر عن العمل والمدح يوجب الفتور أو لان المدح يورث العجب والكبر وهما مهلكان كالذبح فلذلك شبهه به فان سلم المدح من هذه الآفات فى حق المادح والممدوح لم يكن به بأس بل ربما كان مندوباً اليه ولذلك أثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصحابة فقال لو وزن ايمان أبى بكر بايمان العالم لرجح وقال فى عمر لو لم أبعث لبعثت يا عمر وأى ثناء يزيد على هذا ولكنه صلى الله عليه وسلم قال عن صدق وبصيرة وكانوا رضى الله عنهم أجل رتبة من أن يورثهم ذلك كبراً وعجباً وفتوراً بل مدح الرجل نفسه قبيح لما فيه من الكبر والتفاخر اذ قال صلى الله عليه وسلم أنا سيد ولد آدم ولا فخر أى لست أقول هذا تفاخراً كما يقصده الناس بالثناء على أنفسهم وذلك لان افتخاره صلى الله عليه وسلم كان بالله وبالقرب من الله لا بولد آدم وتقدمه عليهم كما أن المقبول عند الملك قبولاً عظيماً انما يفتخر بقبوله اياه وبه يفرح لا بتقدمه على بعض رعاياه وبتفصيل هذه الآفات تقدر على الجمع بين ذم المدح وبين الحث عليه قال صلى الله عليه وسلم وجبت لما أثنوا على بعض الموتى وقال مجاهد ان لبنى آدم جلساء من الملائكة فاذا ذكر الرجل المسلم أخاه المسلم بخير قالت الملائكة ولك بمثله واذا ذكره بسوء قالت الملائكة يا ابن آدم المستور عورته أربع على نفسك واحمد الله الذى ستر عورتك فهذه آفات المدح

* بيان ما على الممدوح *

اعلم أن على الممدوح أن يكون شديد الاحتراز عن آفة الكبر والعجب وآفة الفتور ولا ينجو منه الا بأن يعرف نفسه ويتأمل ما فى خطر الخاتمة ودقائق الرياء وآفات الاعمال أنه يعرف من نفسه ما لا يعرفه المادح ولو انكشف له جميع أسراره وما يجرى على خواطره لكف المادح عن مدحه وعليه أن يظهر كراهة المدح باذلال المادح قال صلى الله عليه وسلم أحثوا التراب فى وجوه المادحين وقال سفيان بن عيينة لا يضر مدح من عرف

ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يخرج الرجلان يضربان الغائط كاشفين عوراتهما يتحدثان فان الله تعالى يمقت على ذلك ويقول عند خروجه غفرانك الحمد لله الذى أذهب عنى ما يؤذينى وأبقى على ما ينفعنى ولا يستصحب معه شيأ عليه اسم الله من ذهب وخاتم وغيره ولا يدخل حاسر الرأس روت عائشة رضى الله عنها عن أبيها أبى بكر رضى الله عنه أنه قال استحيوا من الله فانى لادخل الكنيف فالزق ظهرى وأغطى رأسى استحياء من ربى عز وجل

* الباب الرابع والثلاثون فى آداب الوضوء وأسراره *

اذا أراد الوضوء يبتدئ بالسواك (حدثنا) شيخنا أبو النجيب قال أنا أبو عبد الله الطائى قال أنا الحافظ الفراء قال أنا عبد الواحد بن أحمد المليحى قال أنا أبو

نفسه وأثنى على رجل من الصالحين فقال اللهم ان هؤلاء لا يعرفوني وأنت تعرفني وقال آخر لما أثني عليه اللهم ان عبدك هذا تقرب الى بمقتك وأنا أشهدك على مقته وقال على رضى الله عنه لما أثنى عليه اللهم اغفر لي ما لا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون واجعلني خيرا مما يظنون وأثنى رجل على عمر رضى الله عنه فقال أتهلكني وتهلك نفسك وأثنى رجل على على كرم الله وجهه في وجهه وكان قد بلغه أنه يقع فيه فقال أنا دون ما قلت وفوق ما في نفسك

﴿ الآفة التاسعة عشرة ﴾

في الغفلة عن دقائق الخطأ في فحوى الكلام لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته ويرتبط بأمور الدين فلا يقدر على تقويم اللفظ في أمور الدين الا العلماء الفصحاء فمن قصر في علم أو فصاحة لم يخل كلامه عن الزلل لكن الله تعالى يعفو عنه لجهله مثاله ما قال حذيفة قال النبي صلى الله عليه وسلم لا يقل أحدكم ما شاء الله وشئت ولكن ليقل ما شاء الله ثم شئت وذلك لان في العطف المطلق تشريكا وتسوية وهو على خلاف الاحترام وقال ابن عباس رضى الله عنهما جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يكلمه في بعض الامر فقال ما شاء الله وشئت فقال صلى الله عليه وسلم أجعلتني لله عديلا بل ما شاء الله وحده وخطب رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى فقال قل ومن يعص الله ورسوله فقد غوى فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله ومن يعصهما لانه تسوية وجمع وكان ابراهيم يكره أن يقول الرجل أعوذ بالله وبك ويجوز أن يقول أعوذ بالله ثم بك وأن يقول لولا الله ثم فلان ولا يقول لولا الله وفلان وكره بعضهم أن يقال اللهم أعتقنا من النار وكان يقول العتق يكون بعد الورود وكانوا يستجيرون من النار ويتعوذون من النار وقال رجل اللهم اجعلني ممن تصيبه شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم فقال حذيفة ان الله يغني المؤمنين عن شفاعة محمد وتكون شفاعته للمذنبين من المسلمين وقال ابراهيم اذا قال الرجل للرجل يا حمار يا خنزير قيل له يوم القيامة حمارا رأيتني خلقته خنزيرا رأيتني خلقته وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن أحدكم ليشرك حتى يشرك بكلبه فيقول لولاه لسرقنا الليلة وقال عمر رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت قال عمر رضى الله عنه فوالله ما حلفت بها منذ سمعتها وقال صلى الله عليه وسلم لا تسموا العنب كرما انما الكرم الرجل المسلم وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقولن أحدكم عبدي ولا أمتي كلكم عبيد الله وكل نسائكم اماء الله وليقل غلامي وجاريتي وفتاي وفتاتي ولا يقول المملوك ربي ولا ربتي وليقل سيدي وسيدتي فكلكم عبيد الله والرب الله سبحانه وتعالى وقال صلى الله عليه وسلم لا تقولوا للفاسق سيدنا فانه ان يكن سيدكم فقد أسخطتم ربكم وقال صلى الله عليه وسلم من قال أنا بريء من الاسلام فان كان صادقا فهو كما قال وان كان كاذبا فلن يرجع الى الاسلام سالما فهذا وأمثاله مما يدخل في الكلام ولا يمكن حصره ومن تأمل جميع ما أوردناه من آفات اللسان علم أنه اذا أطلق لسانه لم يسلم وعند ذلك يعرف سر قوله صلى الله عليه وسلم من صمت نجا لان هذه الآفات كلها مهالك ومعاطب وهي على طريق المتكلم فان سكت سلم من الكل وان نطق وتكلم خاطر بنفسه الا أن يوافقه لسان فصيح وعلم غزير وورع حافظ ومراقبة لازمة ويقلل من الكلام فعساه يسلم عند ذلك وهو مع جميع ذلك لا ينفك عن الخطر فان كنت لا تقدر على أن تكون ممن تكلم فغنم فكن ممن سكت فسلم فالسلامة احدى الغنيمتين

﴿ الآفة العشرون ﴾

سؤال العوام عن صفات الله تعالى وعن كلامه وعن الحروف وأنها قديمة أو محدثة ومن حقهم الاشتغال بالعمل بما في القرآن الا أن ذلك ثقيل على النفوس والفضول خفيف على القلب والعامي يفرح بالخوض في العلم اذ الشيطان يخيل اليه انك من العلماء وأهل الفضل ولا يزال يحبب اليه ذلك حتى يتكلم في العلم بما هو كفر وهو لا يدري وكل كبيرة يرتكبها العامي فهي أسلم له من أن يتكلم في العلم لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته وانما شأن العوام الاشتغال بالعبادات والايمان بما ورد به القرآن والتسليم لما جاء به الرسل من غير بحث وسؤالهم عن غير ما يتعلق بالعبادات سوء أدب منهم يستحقون به المقت من الله عز وجل ويتعرضون لخطر الكفر وهو كسؤال ساسة الدواب عن أسرار الملوك وهو موجب للعقوبة وكل من سأل عن علم غامض ولم يبلغ فهمه تلك الدرجة فهو

منصور محمد بن أحمد قال أنا أبو جعفر محمد ابن أحمد بن عبد الجبار قال حدثنا حميد بن زنجويه قال حدثنا يعلى بن عبيد قال حدثنا محمد بن اسحق عن محمد بن ابراهيم عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن زيد بن خالد الجهني قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا أن أشق على أمتي لأخرت العشاء الى ثلث الليل وأمرتهم بالسواك عند كل مكتوبة وروت عائشة رضى الله تعالى عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال السواك مطهرة للفم مرضاة للرب وعن حذيفة قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قام من الليل يشوص فاه بالسواك والشوص الدلك ويستحب السواك عند كل صلاة وعند كل وضوء وكلما تغير الفم من أزم وغيره وأصل الازم امساك الاسنان بعضها

مذموم فانه بالاضافة اليه عامي ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ذروني ما تركتكم فانما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم وقال أنس سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فأكثروا عليه وأغضبوه فصعد المنبر وقال سلوني ولا تسألوني عن شئ الا أنبأتكم به فقام اليه رجل فقال يارسول الله من أبي فقال أبوك حذافة فقام اليه شابان أخوان فقالا يارسول الله من أبونا فقال أبوكما الذي تدعيان اليه ثم قام اليه رجل آخر فقال يارسول الله أفي الجنة أنا أم في النار فقال لا بل في النار فلما رأى الناس غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسكوا فقام اليه عمر رضي الله عنه فقال رضينا بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا فقال اجلس يا عمر رحمك الله انك ما علمت لموفق وفي الحديث نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القيل والقال واضاعة المال وكثرة السؤال وقال صلى الله عليه وسلم يوشك الناس يتساءلون حتى يقولوا قد خلق الله الخلق فمن خلق الله فاذا قالوا ذلك فقولوا قل هو الله أحد الله الصمد حتى تختموا السورة ثم ليتفل أحدكم عن يساره ثلاثا وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم وقال جابر ما نزلت آية الملاعنين الا لكثرة السؤال وفي قصة موسى والخضر عليهما السلام تنبيه على المنع من السؤال قبل أوان استحقاقه اذ قال فان اتبعتني فلا تسألني عن شئ حتى أحدث لك منه ذكرا فلما سأل عن السفينة أنكر عليه حتى اعتذر وقال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا فلما لم يصبر حتى سأل ثلاثا قال هذا فراق بيني وبينك وفارقه فسؤال العوام عن غوامض الدين من أعظم الآفات وهو من المثيرات للفتن فيجب دفعهم ومنعهم من ذلك وخوضهم في حروف القرآن يضاهي حال من كتب الملك اليه كتابا ورسم له فيه أمورا فلم يشتغل بشئ منها وضيع زمانه في أن قرطاس الكتاب عتيق أم حديث فاستحق بذلك العقوبة لا محالة فكذلك تضييع العامي حدود القرآن واشتغاله بحروفه أهي قديمة أم حديثة وكذلك سائر صفات الله سبحانه وتعالى والله تعالى أعلم

﴿ كتاب ذم الغضب والحقد والحسد وهو الكتاب الخامس من ربع المهلكات من كتب احياء علوم الدين ﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الذي لا يتكل على عفوه ورحمته الا الراجون * ولا يحذر سوء غضبه وسطوته الا الخائفون * الذي استدرج عباده من حيث لا يعلمون * وسلط عليهم الشهوات وأمرهم بترك ما يشتهون * وابتلاهم بالغضب وكلفهم كظم الغيظ فيما يغضبون * ثم حفهم بالمكاره واللذات وأملى لهم لينظر كيف يعملون * وامتحن به حبهم ليعلم صدقهم فيما يدعون * وعرفهم انه لا يخفى عليه شئ مما يسرون وما يعلنون * وحذرهم أن يأخذهم بغتة وهم لا يشعرون * فقال ما ينظرون الا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون * فلا يستطيعون توصية ولا الى أهلهم يرجعون * والصلاة على محمد رسوله الذي يسير تحت لوائه النبيون * وعلى آله وأصحابه الائمة المهديون * والسادة المرضيون * صلاة يوازي عددها عدد ما كان من خلق الله وما سيكون * ويحظى ببركتها الاولون والآخرون * وسلم تسليما كثيرا (أما بعد) فان الغضب شعلة نار اقتبست من نار الله الموقدة التي تطلع على الافئدة * وانها المستكنة في طي الفؤاد * استكنان الجمر تحت الرماد * ويستخرجها الكبر الدفين في قلب كل جبار عنيد كاستخراج الحجر النار من الحديد * وقد انكشف للناظرين بنور اليقين * أن الانسان ينزع منه عرق الى الشيطان اللعين * فمن استفزته نار الغضب فقد قويت فيه قرابة الشيطان حيث قال خلقتني من نار وخلقته من طين * فان شان الطين السكون والوقار وشان النار التلظي والاستعار * والحركة والاضطراب ومن نتائج الغضب الحقد والحسد * وبهما هلك من هلك وفسد من فسد * ومفيضهما مضغة اذا صلحت صلح معها سائر الجسد واذا كان الحقد والحسد والغضب مما يسوق العبد الى مواطن العطب * فما أحوجه الى معرفة معاطبه ومساويه ليحذر ذلك ويتقيه * ويميطه عن القلب ان كان وينفيه * ويعالجه ان رسخ في قلبه ويداويه * فان من لا يعرف الشر يقع فيه * ومن عرفه فالمعرفة لا تكفيه * ما لم يعرف الطريق الذي به يدفع الشر ويقصيه ونحن نذكر ذم الغضب وآفات الحقد والحسد في هذا الكتاب ويجمعها بيان ذم الغضب ثم بيان حقيقة الغضب ثم بيان أن الغضب هل يمكن ازالة أصله بالرياضة أم لا ثم بيان الاسباب المهيجة للغضب ثم بيان علاج الغضب بعد

على بعض وقيل للسكوت أزم لان الاسنان تنطبق وبذلك يتغير الفم ويكره للصائم بعد الزوال ويستحب له قبل الزوال وأكثر استحبابه مع غسل الجمعة وعند القيام من الليل ويبدى السواك اليابس بالماء ويستاك عرضا وطولا فان اقتصر فعرضا فاذا فرغ من السواك يغسله ويجلس للوضوء والاولى أن يكون مستقبل القبلة ويبتدئ بسم الله الرحمن الرحيم ويقول رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون ويقول عند غسل اليد اللهم اني أسألك اليمن والبركة وأعوذ بك من الشؤم والهلكة ويقول عند المضمضة اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأعني على تلاوة كتابك وكثرة الذكر لك ويقول عند الاستنشاق اللهم صل على محمد

هيجانه ثم بيان فضيلة كظم الغيظ ثم بيان فضيلة الحلم ثم بيان القدر الذي يجوز الانتصار والتشفي به من الكلام ثم القول في معنى الحقد ونتائجه وفضيلة العفو والرفق ثم القول في ذم الحسد وفي حقيقته وأسبابه ومعالجته وغاية الواجب في ازالته ثم بيان السبب في كثرة الحسد بين الامثال والاقران والاخوة وبني العم والاقارب وتأكده وقلته في غيرهم وضعفه ثم بيان الدواء الذي به ينفي مرض الحسد عن القلب ثم بيان القدر الواجب في نفي الحسد عن القلب وبالله التوفيق

﴿ بيان ذم الغضب ﴾

قال الله تعالى اذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين الآية ذم الكفار بما تظاهروا به من الحمية الصادرة عن الغضب بالباطل ومدح المؤمنين بما أنزل الله عليهم من السكينة وروى أبو هريرة أن رجلا قال يا رسول الله مرني بعمل وأقلل قال لا تغضب ثم أعاد عليه فقال لا تغضب وقال ابن عمر قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم قل لي قولا وأقلله لعلي أعقله فقال لا تغضب فأعدت عليه مرتين كل ذلك يرجع الى لا تغضب وعن عبد الله بن عمر أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ماذا يبعدني من غضب الله قال لا تغضب وقال ابن مسعود قال النبي صلى الله عليه وسلم ما تعدون الصرعة فيكم قلنا الذي لا تصرعه الرجال قال ليس ذلك ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم ليس الشديد بالصرعة وانما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب وقال ابن عمر قال النبي صلى الله عليه وسلم من كف غضبه ستر الله عورته وقال سليمان بن داود عليهما السلام يا بني اياك وكثرة الغضب فان كثرة الغضب تستخف فؤاد الرجل الحليم وعن عكرمة في قوله تعالى وسيدا وحصورا قال السيد الذي لا يغلبه الغضب وقال أبو الدرداء قلت يا رسول الله دلني على عمل يدخلني الجنة قال لا تغضب وقال يحيى لعيسى عليهما السلام لا تغضب قال لا أستطيع أن لا أغضب انما أنا بشر قال لا تقتن مالا قال هذا عسى وقال صلى الله عليه وسلم الغضب يفسد الايمان كما يفسد الصبر العسل وقال صلى الله عليه وسلم ما غضب أحد الا أشفى على جهنم وقال له رجل أي شيء أشد قال غضب الله قال فما يبعدني من غضب الله قال لا تغضب (الآثار) قال الحسن يا ابن آدم كلما غضبت وثبت يوشك أن تثب وثبة فتقع في النار وعن ذي القرنين أنه لقي ملكا من الملائكة فقال علمني علما أزداد به ايمانا ويقينا قال لا تغضب فان الشيطان أقدر ما يكون على ابن آدم حين يغضب فرد الغضب بالكظم وسكنه بالتؤدة واياك والعجلة فانك اذا عجلت أخطأت حظك وكن سهلا لينا للقريب والبعيد ولا تكن جبارا عنيدا وعن وهب بن منبه أن راهبا كان في صومعته فأراد الشيطان أن يضله فلم يستطع فجاءه حتى ناداه فقال له افتح فلم يجبه فقال افتح فاني ان ذهبت ندمت فلم يلتفت اليه فقال اني أنا المسيح قال الراهب وان كنت المسيح فما أصنع بك أليس قد أمرتنا بالعبادة والاجتهاد ووعدتنا القيامة فلو جئتنا اليوم بغيره لم نقبله منك فقال اني الشيطان وقد أردت أن أضلك فلم أستطع فجئتك لتسألني عما شئت فأخبرك فقال ما أريد أن أسألك عن شيء قال فولى مدبرا فقال الراهب ألا تسمع قال بلى قال أخبرني أي أخلاق بني آدم أعون لك عليهم قال الحدة ان الرجل اذا كان حديدا قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة وقال خيثمة الشيطان يقول كيف يغلبني ابن آدم واذا رضي جئت حتى أكون في قلبه واذا غضب طرت حتى أكون في رأسه وقال جعفر بن محمد الغضب مفتاح كل شر وقال بعض الانصار رأس الحمق الحدة وقائده الغضب ومن رضي بالجهل استغنى عن الحلم والحلم زين ومنفعة والجهل شين ومضرة والسكوت عن جواب الاحمق جوابه وقال مجاهد قال ابليس ما أعجزني بنو آدم فلن يعجزوني في ثلاث اذا سكر أحدهم أخذنا بخزامته فقدناه حيث شئنا وعمل لنا بما أحببنا واذا غضب قال بما لا يعلم وعمل بما يندم ونبخله بما في يديه ونمنيه بما لا يقدر عليه وقيل لحكيم ما أملك فلانا لنفسه قال اذا لا تذله الشهوة ولا يصرعه الهوى ولا يغلبه الغضب وقال بعضهم اياك والغضب فانه يصيرك الى ذلة الاعتذار وقيل اتقوا الغضب فانه يفسد الايمان كما يفسد الصبر العسل وقال عبد الله ابن مسعود انظروا الى حلم الرجل عند غضبه وأمانته عند طمعه وما علمك بحلمه اذا لم يغضب وما علمك بأمانته اذا لم يطمع وكتب عمر بن عبد العزيز الى عامله أن لا تعاقب عند غضبك واذا غضبت على رجل فاحبسه فاذا سكن غضبك فأخرجه فعاقبه على قدر ذنبه ولا تجاوز به خمسة عشر سوطا وقال علي بن زيد أغلظ رجل من قريش

وعلى آل محمد وأوجدني رائحة الجنة وأنت عني راض ويقول عند الاستنثار اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأعوذ بك من روائح النار وسوء الدار ويقول عند غسل الوجه اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وبيض وجهي يوم تبيض وجوه أوليائك ولا تسود وجهي يوم تسود وجوه أعدائك وعند غسل اليمين اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وآتني كتابي بيميني وحاسبني حسابا يسيرا وعند غسل الشمال اللهم اني أعوذ بك أن تؤتيني كتابي بشمالي أو من وراء ظهري وعند مسح الرأس اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وغشني برحمتك وأنزل علي من بركاتك وأظلني تحت ظل عرشك يوم لا ظل الا ظل عرشك ويقول عند مسح الاذنين اللهم صل على محمد وعلى آل

لعمر بن عبد العزيز القول فأطرق عمر زمانا طويلا ثم قال أردت أن يستفزني الشيطان بعز السلطان فأنال منك اليوم ما تناله مني غدا وقال بعضهم لابنه يا بني لا يثبت العقل عند الغضب كما لا تثبت روح الحي في التنانير المسجورة فأقل الناس غضبا أعقلهم فان كان للدنيا كان دهاء ومكرا وان كان للآخرة كان حلما وعلما فقد قيل الغضب عدو العقل والغضب غول العقل وكان عمر رضي الله عنه اذا خطب قال في خطبته أفلح منكم من حفظ من الطمع والهوى والغضب وقال بعضهم من أطاع شهوته وغضبه قاداه الى النار وقال الحسن من علامات المسلم قوة في دين وحزم في لين وايمان في يقين وعلم في حلم وكيس في رفق واعطاء في حق وقصد في غنى وتجمل في فاقة واحسان في قدرة وتحمل في رفاقة وصبر في شدة لا يغلبه الغضب ولا تجمح به الحمية ولا تغلبه شهوة ولا تفضحه بطنه ولا يستخفه حرصه ولا تقصر به نيته فينصر المظلوم ويرحم الضعيف ولا يبخل ولا يبذر ولا يسرف ولا يقتر يغفر اذا ظلم ويعفو عن الجاهل نفسه منه في عناء والناس منه في رخاء وقيل لعبد الله بن المبارك أجمل لنا حسن الخلق في كلمة فقال ترك الغضب وقال نبي من الانبياء لمن تبعه من يتكفل لي أن لا يغضب فيكون معي في درجتي ويكون بعدي خليفتي فقال شاب من القوم أنا ثم أعاد عليه فقال الشاب أنا أوفي به فلما مات كان في منزلته بعده وهو ذو الكفل سمي به لانه تكفل بالغضب ووفى به وقال وهب بن منبه للكفر أربعة أركان الغضب والشهوة والخرق والطمع

﴿ بيان حقيقة الغضب ﴾

اعلم أن الله تعالى لما خلق الحيوان معرضا للفساد والموتان بأسباب في داخل بدنه وأسباب خارجة عنه أنعم عليه بما يحميه عن الفساد ويدفع عنه الهلاك الى أجل معلوم سماه في كتابه * أما السبب الداخل فهو انه ركبه من الحرارة والرطوبة وجعل بين الحرارة والرطوبة عداوة ومضادة فلا تزال الحرارة تحلل الرطوبة وتجففها وتبخرها حتى تصير أجزاؤها بخارا تتصاعد منها فلو لم يتصل بالرطوبة مدد من الغذاء يجبر ما انحل وتبخر من أجزائها لفسد الحيوان فخلق الله الغذاء الموافق لبدن الحيوان وخلق في الحيوان شهوة تبعثه على تناول الغذاء كالموكل به في جبر ما انكسر وسد ما انثلم ليكون ذلك حافظا له من الهلاك بهذا السبب * وأما الاسباب الخارجة التي يتعرض لها الانسان فكالسيف والسنان وسائر المهلكات التي يقصد بها فافتقر الى قوة وحمية تثور من باطنه فتدفع المهلكات عنه فخلق الله طبيعة الغضب من النار وغرزها في الانسان وعجنها بطينته فمهما صد عن غرض من أغراضه ومقصود من مقاصده اشتعلت نار الغضب وثارت به ثورانا يغلي به دم القلب وينتشر في العروق ويرتفع الى أعالي البدن كما ترتفع النار وكما يرتفع الماء الذي يغلي في القدر فلذلك ينصب الى الوجه فيحمر الوجه والعين والبشرة لصفائها تحكي لون ما وراءها من حمرة الدم كما تحكي الزجاجة لون ما فيها وانما ينبسط الدم اذا غضب على من دونه واستشعر القدرة عليه فان صدر الغضب على من فوقه وكان معه يأس من الانتقام تولد منه انقباض الدم من ظاهر الجلد الى جوف القلب وصار حزنا ولذلك يصفر اللون وان كان الغضب على نظير يشك فيه تردد الدم بين انقباض وانبساط فيحمر ويصفر ويضطرب وبالجملة فقوة الغضب محلها القلب ومعناها غليان دم القلب بطلب الانتقام وانما تتوجه هذه القوة عند ثورانها الى دفع المؤذيات قبل وقوعها والى التشفي والانتقام بعد وقوعها والانتقام قوت هذه القوة وشهوتها وفيه لذتها ولا تسكن الا به ثم ان الناس في هذه القوة على درجات ثلاث في أول الفطرة من التفريط والافراط والاعتدال * أما التفريط فبفقد هذه القوة أو ضعفها وذلك مذموم وهو الذي يقال فيه انه لا حمية له ولذلك قال الشافعي رحمه الله من استغضب فلم يغضب فهو حمار فمن فقد قوة الغضب والحمية أصلا فهو ناقص جدا وقد وصف الله سبحانه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بالشدة والحمية فقال أشداء على الكفار رحماء بينهم وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم الآية وانما الغلظة والشدة من آثار قوة الحمية وهو الغضب * وأما الافراط فهو أن تغلب هذه الصفة حتى تخرج عن سياسة العقل والدين وطاعته ولا يبقى للمرء معها بصيرة ونظر وفكرة ولا اختيار بل يصير في صورة المضطر وسبب غلبته أمور غريزية وأمور اعتيادية فرب انسان هو بالفطرة مستعد لسرعة الغضب حتى كان صورته في الفطرة صورة غضبان ويعين على ذلك حرارة مزاج القلب لان الغضب من النار كما قال صلى الله عليه وسلم وانما برودة المزاج

محمد وجعلني ممن يستمع القول فيتبع أحسنه اللهم أسمعني منادي الجنة مع الابرار ويقول في مسح العنق اللهم فك رقبتي من النار وأعوذ بك من السلاسل والاغلال ويقول عند غسل قدمه اليمنى اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وثبت قدمي على الصراط مع أقدام المؤمنين ويقول عند اليسرى اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأعوذ بك أن تزل قدمي عن الصراط يوم تزل فيه أقدام المنافقين واذا فرغ من الوضوء يرفع رأسه الى السماء ويقول أشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله سبحانك اللهم وبحمدك لا اله الا أنت عملت سوأ وظلمت نفسي أستغفرك وأتوب اليك فاغفر لي وتب علي انك أنت التواب الرحيم اللهم صل على محمد وعلى

تطفئه وتكسر سورته * وأما الاسباب الاعتيادية فهو أن يخالط قوما يتشجعون بتشفي الغيظ وطاعة الغضب ويسمون ذلك شجاعة ورجولية فيقول الواحد منهم أنا الذي لا أصبر على المكر والمحال ولا أحمل من أحد أمرا ومعناه لا عقل في ولا حلم ثم يذكره في معرض الفخر بجهله فمن سمعه رسخ في نفسه حسن الغضب وحب التشبه بالقوم فيقوى به الغضب ومهما اشتدت نار الغضب وقوى اضطرامها أعمت صاحبها وأصمته عن كل موعظة فاذا وعظ لم يسمع بل زاده ذلك غضبا واذا استضاء بنور عقله وراجع نفسه لم يقدر اذ ينطفئ نور العقل وينمحي في الحال بدخان الغضب فان معدن الفكر الدماغ ويتصاعد عند شدة الغضب من غليان دم القلب دخان مظلم الى الدماغ يستولي على معادن الفكر وربما يتعدى الى معادن الحس فتظلم عينه حتى لا يرى بعينه وتسود عليه الدنيا بأسرها ويكون دماغه على مثال كهف اضطرمت فيه نار فاسود جوه وحمي مستقره وامتلا بالدخان جوانبه وكان فيه سراج ضعيف فانمحى أو انطفأ نوره فلا تثبت فيه قدم ولا يسمع فيه كلام ولا ترى فيه صورة ولا يقدر على اطفائه لا من داخل ولا من خارج بل ينبغي أن يصبر الى أن يحترق جميع ما يقبل الاحتراق فكذلك يفعل الغضب بالقلب والدماغ وربما تقوى نار الغضب فتفنى الرطوبة التي بها حياة القلب فيموت صاحبه غيظا كما تقوى النار في الكهف فينشق وتنهد أعاليه على أسفله وذلك لابطال النار ما في جوانبه من القوة الممسكة الجامعة لاجزائه فهكذا حال القلب عند الغضب وبالحقيقة فالسفينة في ملتطم الامواج عند اضطراب الرياح في لجة البحر أحسن حالا وأرجى سلامة من النفس المضطرب غيظا اذ في السفينة من يحتال لتسكينها وتدبيرها وينظر لها ويسوسها وأما القلب فهو صاحب السفينة وقد سقطت حيلته اذ أعماه الغضب وأصمه ومن آثار هذا الغضب في الظاهر تغير اللون وشدة الرعدة في الاطراف وخروج الافعال عن الترتيب والنظام واضطراب الحركة والكلام حتى يظهر الزبد على الاشداق وتحمر الاحداق وتنقلب المناخر وتستحيل الخلقة ولو رأى الغضبان في حالة غضبه قبح صورته لسكن غضبه حياء من قبح صورته واستحالة خلقته وقبح باطنه أعظم من قبح ظاهره فان الظاهر عنوان الباطن وانما قبحت صورة الباطن أولا ثم انتشر قبحها الى الظاهر ثانيا فتغير الظاهر ثمرة تغير الباطن فقس الثمر بالمثمرة فهذا أثره في الجسد وأما أثره في اللسان فانطلاقه بالشتم والفحش من الكلام الذي يستحي منه ذو العقل ويستحي منه قائله عند فتور الغضب وذلك مع تخبط النظم واضطراب اللفظ وأما أثره على الاعضاء فالضرب والتهجم والتمزيق والقتل والجرح عند التمكن من غير مبالاة فان هرب منه المغضوب عليه أو فاته بسبب وعجز عن التشفي رجع الغضب على صاحبه فمزق ثوب نفسه ويلطم نفسه وقد يضرب بيده على الارض ويعدو عدو الواله السكران والمدهوش المتحير وربما يسقط سريعا لا يطيق العدو والنهوض بسبب شدة الغضب ويعتريه مثل الغشية وربما يضرب الجمادات والحيوانات فيضرب القصعة مثلا على الارض وقد يكسر المائدة اذا غضب عليها ويتعاطى أفعال المجانين فيشتم البهيمة والجمادات ويخاطبها ويقول الى متى منك هذا يا كيت وكيت كأنه يخاطب عاقلا حتى ربما رفسته دابة فيرفس الدابة ويقابلها بذلك وأما أثره في القلب مع المغضوب عليه فالحقد والحسد واضمار السوء والشماتة بالمساآت والحزن بالسرور والعزم على افشاء السر وهتك الستر والاستهزاء وغير ذلك من القبائح فهذه ثمرة الغضب المفرط وأما ثمرة الحمية الضعيفة فقلة الانفة مما يؤنف منه من التعرض للحرم والزوجة والامة واحتمال الذل من الاخساء وصغر النفس والقماءة وهو أيضا مذموم اذ من ثمراته عدم الغيرة على الحرم وهو خنوثة قال صلى الله عليه وسلم ان سعدا لغيور وأنا أغير من سعد وان الله أغير مني وانما خلقت الغيرة لحفظ الانساب ولو تسامح الناس بذلك لاختلطت الانساب ولذلك قيل كل أمة وضعت الغيرة في رجالها وضعت الصيانة في نسائها ومن ضعف الغضب الخور والسكوت عند مشاهدة المنكرات وقد قال صلى الله عليه وسلم خير أمتي أحداؤها يعني في الدين وقال تعالى ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله بل من فقد الغضب عجز عن رياضة نفسه اذ لا تتم الرياضة الا بتسليط الغضب على الشهوة حتى يغضب على نفسه عند الميل الى الشهوات الخسيسة ففقد الغضب مذموم وانما المحمود غضب ينتظر اشارة العقل والدين فينبعث حيث تجب الحمية وينطفئ حيث يحسن الحلم وحفظه على حد الاعتدال هو الاستقامة التي كلف الله بها عباده وهو الوسط الذي

آل محمد واجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين واجعلني صبورا شكورا واجعلني أذكرك كثيرا وأسبحك بكرة وأصيلا * وفرائض الوضوء النية عند غسل الوجه وغسل الوجه وحد الوجه من مبتدإ تسطيح الوجه الى منتهى الذقن وما ظهر من اللحية وما استرسل منها ومن الاذن الى الاذن عرضا ويدخل في الغسل البياض الذي بين الاذنين واللحية وموضع الصلع وما انحسر عنه الشعر وهما النزعتان من الرأس ويستحب غسلهما مع الوجه ويوصل الماء الى شعر التحذيف وهو القدر الذي يزيله النساء من الوجه ويوصل الماء الى العنفقة والشارب والحاجب والعذار وما عدا ذلك لا يجب ثم اللحية ان كانت خفيفة يجب ايصال الماء الى البشرة وحد الخفيف أن ترى البشرة من تحته وان

وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال خير الامور أوساطها فمن مال غضبه الى الفتور حتى أحس من نفسه بضعف الغيرة وخسة النفس فى احتمال الذل والضيم فى غير محله فينبغى أن يعالج نفسه حتى يقوى غضبه ومن مال غضبه الى الافراط حتى جره الى التهور واقتحام الفواحش فينبغى أن يعالج نفسه لينقص من سورة الغضب ويقف على الوسط الحق بين الطرفين فهو الصراط المستقيم وهو أرق من الشعرة وأحد من السيف فان عجز عنه فليطلب القرب منه قال تعالى ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة فليس كل من عجز عن الاتيان بالخير كله ينبغى أن يأتى بالشر كله ولكن بعض الشر أهون من بعض وبعض الخير أرفع من بعض فهذه حقيقة الغضب ودرجاته نسأل الله حسن التوفيق لما يرضيه انه على مايشاء قدير

﴿ بيان الغضب هل يمكن ازالة أصله بالرياضة أم لا ﴾

اعلم أنه ظن ظانون أنه يتصور محو الغضب بالكلية وزعموا أن الرياضة اليه تتوجه واياه تقصد وظن آخرون انه أصل لا يقبل العلاج وهذا رأى من يظن ان الخلق كالخلق وكلاهما لا يقبل التغيير وكلا الرأيين ضعيف بل الحق فيه مانذكره وهو انه مابقى الانسان يحب شيأ و يكره شيأ فلا يخلو من الغيظ والغضب ومادام يوافقه شئ ويخالفه آخر فلابد من أن يحب مايوافقه و يكره مايخالفه والغضب يتبع ذلك فانه مهما أخذ منه محبوبه غضب لامحالة واذا قصد بمكروه غضب لامحالة الا أن مايحبه الانسان ينقسم الى ثلاثة أقسام * الاول ماهو ضرورة فى حق الكافة كالقوت والمسكن والملبس وصحة البدن فمن قصد بدنه بالضرب والجرح فلابد وأن يغضب وكذلك اذا أخذ منه ثوبه الذى يستر عورته وكذلك اذا أخرج من داره التى هى مسكنه أو أريق ماؤه الذى لعطشه فهذه ضرورات لا يخلو الانسان من كراهة زوالها ومن غيظ على من يتعرض لها * القسم الثانى ماليس ضروريا لاحد من الخلق كالجاه والمال الكثير والغلمان والدواب فان هذه الامور صارت محبوبة بالعادة والجهل بمقاصد الامور حتى صار الذهب والفضة محبوبين فى أنفسهما فيكنزان ويغضب على من يسرقهما وان كان مستغنيا عنهما فى القوت فهذا الجنس مما يتصور أن ينفك الانسان عن أصل الغيظ عليه فاذا كانت له دار زائدة على مسكنه فهدمها ظالم فيجوز أن لا يغضب اذ يجوز أن يكون بصيرا بأمر الدنيا فيزهد فى الزيادة على الحاجة فلا يغضب بأخذها فانه لايحب وجودها ولو أحب وجودها لغضب على الضرورة بأخذها وأكثر غضب الناس على ماهو غير ضرورى كالجاه والصيت والتصدر فى المجالس والمباهاة فى العلم فمن غلب هذا الحب عليه فلامحالة يغضب اذا زاحمه مزاحم على التصدر فى المحافل ومن لايحب ذلك فلا يبالى ولو جلس فى صف النعال فلا يغضب اذا جلس غيره فوقه وهذه العادات الرديئة هى التى أكثرت محاب الانسان ومكارهه فأكثرت غضبه وكلما كانت الارادات والشهوات أكثر كان صاحبها أحط رتبة وأنقص لان الحاجة صفة نقص فمهما كثرت كثر النقص والجاهل أبدا جهده فى أن يزيد فى حاجاته وفى شهواته وهو لايدرى انه مستكثر من أسباب الغم والحزن حتى ينتهى بعض الجهال بالعادات الرديئة ومخالطة قرناء السوء الى أن يغضب لو قيل له انك لاتحسن اللعب بالطيور واللعب بالشطرنج ولا تقدر على شرب الخمر الكثير وتناول الطعام الكثير وما يجرى مجراه من الرذائل فالغضب على هذا الجنس ليس بضرورى لان حبه ليس بضرورى * القسم الثالث مايكون ضروريا فى حق بعض الناس دون البعض كالكتاب مثلا فى حق العالم فانه مضطر اليه فيحبه فيغضب على من يحرقه و يغرقه وكذلك أدوات الصناعات فى حق المكتسب الذى لايمكنه التوصل الى القوت الا بها فان ماهو وسيلة الى الضرورى والمحبوب يصير ضروريا ومحبوبا وهذا يختلف بالاشخاص وانما الحب الضرورى ماأشار اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله من أصبح آمنا فى سربه معافى فى بدنه وله قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها ومن كان بصيرا بحقائق الامور وسلم له هذه الثلاثة يتصور أن لايغضب فى غيرها فهذه ثلاثة أقسام فلنذكر غاية الرياضة فى كل واحد منها (أما القسم الاول) فليست الرياضة فيه لينعدم غيظ القلب ولكن لكى يقدر على أن لايطيع الغضب ولا يستعمله فى الظاهر الا على حد يستحبه الشرع و يستحسنه العقل وذلك ممكن بالمجاهدة وتكلف الحلم والاحتمال مدة حتى يصير الحلم والاحتمال خلقا راسخا فاما قمع أصل الغيظ من القلب فذلك ليس مقتضى الطبع وهو غير ممكن نعم يمكن كسر سورته وتضعيفه

كانت كثيفة فلايجب و يجتهد فى تنقية مجتمع الكحل من مقدم العين (الواجب الثالث) غسل اليدين الى المرفقين ويجب ادخال المرفقين فى الغسل ويستحب غسلهما الى انصاف العضدين وان طالت الاظافر حتى خرجت من رؤس الاصابع يجب غسل ماتحتها على الاصح (الواجب الرابع) مسح الرأس و يكفى مايطلق عليه اسم المسح واستيعاب الرأس بالمسح سنة وهو أن يلصق رأس أصابع اليمنى باليسرى و يضعهما على مقدم الرأس و يمدهما الى القفا ثم يردهما الى الموضع الذى بدأ منه و ينصف بلل الكفين مستقبلا ومستدبرا * والواجب الخامس غسل القدمين ويجب ادخال الكعبين فى الغسل و يستحب غسلهما الى أنصاف

حتى لا يشتد هيجان الغيظ فى الباطن و ينتهى ضعفه الى أن لا يظهر أثر فى الوجه ولكن ذلك شديد جدا وهذا حكم القسم الثالث أيضا الان ماصار ضرور يا فى حق شخص فلا يمنعه من الغيظ استغناء غيره عنه فالرياضة فيه تمنع العمل به وتضعف هيجانه فى الباطن حتى لا يشتد التألم بالصبر عليه (وأما القسم الثانى) فيمكن التوصل بالرياضة الى الانفكاك عن الغضب عليه اذ يمكن اخراج حبه من القلب وذلك بأن يعلم الانسان ان وطنه القبر ومستقره الآخرة وأن الدنيا معبر يعبر عليها و يتزود منها قدر الضرورة وما وراء ذلك عليه و بال فى وطنه ومستقره فيزهد فى الدنيا و يمحو حبها عن قلبه ولو كان للانسان كلب لا يحبه لا يغضب اذا ضربه غيره فالغضب تبع للحب فالرياضة فى هذا تنتهى الى قمع أصل الغضب وهو نادر جدا وقد تنتهى الى المنع من استعمال الغضب والعمل بموجبه وهو أهون فان قلت الضرورى من القسم الاول التألم بفوات المحتاج اليه دون الغضب فمن له شاة مثلا وهى قوته فماتت لا يغضب على أحد وان كان لا يخلو عن كراهة وليس من ضرورة كل كراهة غضب فان الانسان يتألم بالفصد والحجامة ولا يغضب على الفصاد والحجام فمن غلب عليه التوحيد حتى يرى الاشياء كلها بيد الله ومنه فلا يغضب على أحد من خلقه اذ يراهم مسخرين فى قبضة قدرته كالقلم فى يد الكاتب ومن وقع ملك بضرب رقبته لم يغضب على القلم فلا يغضب على من يذبح شاته التى هى قوته كما لا يغضب على موتها اذ يرى الذبح والموت من الله عز وجل فيندفع الغضب بغلبة التوحيد و يندفع أيضا بحسن الظن بالله وهو أن يرى أن الكل من الله وأن الله لا يقدر له الا ما فيه الخيرة و ربما تكون الخيرة فى مرضه وجوعه وجرحه وقتله فلا يغضب كما لا يغضب على الفصاد والحجام لانه يرى أن الخيرة فيه فنقول هذا على هذا الوجه غير محال ولكن غلبة التوحيد الى هذا الحد انما تكون كالبرق الخاطف تغلب فى أحوال مختلفة ولا تدوم و يرجع القلب الى الالتفات الى الوسائط رجوعا طبيعيا لا يندفع عنه ولو تصور ذلك على الدوام لبشر لتصور لرسول الله صلى الله عليه وسلم فانه كان يغضب حتى تحمر وجنتاه حتى قال اللهم أنا بشر أغضب كما يغضب البشر فأيما مسلم سببته أو لعنته أو ضربته فاجعلها منى صلاة عليه و زكاة وقربة تقربه بها اليك يوم القيامة وقال عبد الله بن عمرو بن العاص يا رسول الله أكتب عنك كل ما قلت فى الغضب والرضا فقال اكتب فوالذى بعثنى بالحق نبيا ما يخرج منه الا حق وأشار الى لسانه فلم يقل انى لا أغضب ولكن قال ان الغضب لا يخرجنى عن الحق أى لا أعمل بموجب الغضب وغضبت عائشة رضى الله عنها مرة فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك جاءك شيطانك فقالت ومالك شيطان قال بلى ولكنى دعوت الله فأعاننى عليه فأسلم فلا يأمرنى الا بالخير ولم يقل لا شيطان لى وأراد شيطان الغضب لكن قال لا يحملنى على الشر وقال على رضى الله عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يغضب للدنيا فاذا أغضبه الحق لم يعرفه أحد ولم يقم لغضبه شئ حتى ينتصر له فكان يغضب على الحق وان كان غضبه لله فهو التفات الى الوسائط على الجملة بل كل من يغضب على من يأخذ ضرورة قوته وحاجته التى لا بد له فى دينه منها فانما غضب لله فلا يمكن الانفكاك عنه نعم قد يفقد أصل الغضب فيما هو ضرورى اذا كان القلب مشغولا بضرورى أهم منه فلا يكون فى القلب متسع للغضب لاشتغاله بغيره فان استغراق القلب ببعض المهمات يمنع الاحساس بما عداه وهذا كما أن سلمان لما شتم قال ان خفت موازينى فأنا شر مما تقول وان ثقلت موازينى لم يضرنى ما تقول فقد كان همه مصروفا الى الآخرة فلم يتأثر قلبه بالشتم وكذلك شتم الربيع بن خيثم فقال يا هذا قد سمع الله كلامك وان دون الجنة عقبة ان قطعتها لم يضرنى ما تقول وان لم أقطعها فأنا شر مما تقول وسب رجل أبا بكر رضى الله عنه فقال ما ستر الله عنك أكثر فكأنه كان مشغولا بالنظر فى تقصير نفسه عن أن يتقى الله حق تقاته و يعرفه حق معرفته فلم يغضبه نسبة غيره اياه الى نقصان اذ كان ينظر الى نفسه بعين النقصان وذلك لجلالة قدره وقالت امرأة لمالك بن دينار يا مرائى فقال ما عرفنى غيرك فكأنه كان مشغولا بان ينفى عن نفسه آفة الرياء ومنكرا على نفسه ما يلقيه الشيطان اليه فلم يغضب لما نسب اليه وسب رجل الشعبى فقال ان كنت صادقا فغفر الله لى وان كنت كاذبا فغفر الله لك فهذه الاقاويل دالة فى الظاهر على انهم لم يغضبوا لاشتغال قلوبهم بمهمات دينهم و يحتمل أن يكون ذلك قد أثر فى قلوبهم ولكنهم لم يشتغلوا به واشتغلوا بما كان هو الاغلب على قلوبهم فاذا اشتغال القلب ببعض المهمات لا يبعد أن يمنع هيجان الغضب عند فوات بعض المحاب

الساقين و يقنع غسل القدمين مع الكعبين و يجب تخليل الاصابع الملتفة فيخلل بخنصر يده اليسرى من باطن القدم و يبدأ بخنصر رجله اليمنى و يختم بخنصر اليسرى وان كان فى الرجل شقوق يجب ايصال الماء الى باطنها وان ترك فيها عجينا أو شحما يجب ازالة عين ذلك الشئ * الواجب السادس * الترتيب على النسق المذكور فى كلام الله تعالى * الواجب السابع التتابع فى القول القديم عند الشافعى رحمه الله تعالى وحد التفريق الذى يقطع التتابع نشاف العضو مع اعتدال الهواء

* وسنن الوضوء ثلاثة عشر *

التسمية فى أول الطهارة وغسل اليدين الى الكوعين والمضمضة والاستنشاق فيهما والمبالغة فيغرغر فى المضمضة حتى يرد الماء الى الغلصمة

فاذا يتصور فقد الغيظ اما باشتغال القلب بمهم أو بغلبة نظر التوحيد أو بسبب ثالث وهو أن يعلم ان الله يحب منه أن لا يغتاظ فيطفئ شدة حبه لله غيظه وذلك غير محال في أحوال نادرة وقد عرفت بهذا أن الطريق للخلاص من نار الغضب محو حب الدنيا عن القلب وذلك بمعرفة آفات الدنيا وغوائلها كما سيأتي في كتاب ذم الدنيا ومن أخرج حب المزايا عن القلب تخلص من أكثر أسباب الغضب وما لا يمكن محوه يمكن كسره وتضعيفه فيضعف الغضب بسببه ويهون دفعه نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه انه على كل شيء قدير والحمد لله وحده

﴿ بيان الاسباب المهيجة للغضب ﴾

قد عرفت أن علاج كل علة حسم مادتها وازالة أسبابها ولا بد من معرفة أسباب الغضب وقد قال يحيى لعيسى عليهما السلام أي شيء أشد قال غضب الله قال فما يقرب من غضب الله قال أن تغضب قال فما يبدي الغضب وما ينبته قال عيسى الكبر والفخر والتعزز والحمية والاسباب المهيجة للغضب هي الزهو والعجب والمزاح والهزل والهزء والتعيير والمماراة والمضادة والغدر وشدة الحرص على فضول المال والجاه وهي بأجمعها أخلاق رديئة مذمومة شرعا ولا خلاص من الغضب مع بقاء هذه الاسباب فلا بد من ازالة هذه الاسباب باضدادها فينبغي أن تميت الزهو بالتواضع وتميت العجب بمعرفتك بنفسك كما سيأتي بيانه في كتاب الكبر والعجب وتزيل الفخر بأنك من جنس عبدك اذ الناس يجمعهم في الانتساب أب واحد وانما اختلفوا في الفضل أشتاتا فبنو آدم جنس واحد وانما الفخر بالفضائل والفخر والعجب والكبر أكبر الرذائل وهي أصلها ورأسها فاذا لم تخل عنها فلا فضل لك على غيرك فلم تفتخر وأنت من جنس عبدك من حيث البنية والنسب والاعضاء الظاهرة والباطنة وأما المزاح فتزيله بالتشاغل بالمهمات الدينية التي تستوعب العمر وتفضل عنه اذا عرفت ذلك وأما الهزل فتزيله بالجد في طلب الفضائل والاخلاق الحسنة والعلوم الدينية التي تبلغك الى سعادة الآخرة وأما الهزء فتزيله بالتكرم عن ايذاء الناس وبصيانة النفس عن أن يستهزأ بك وأما التعيير فبالحذر عن القول القبيح وصيانة النفس عن مر الجواب وأما شدة الحرص على مزايا العيش فتزال بالقناعة بقدر الضرورة طلبا لعز الاستغناء وترفعا عن ذل الحاجة وكل خلق من هذه الاخلاق وصفة من هذه الصفات يفتقر في علاجه الى رياضة وتحمل مشقة وحاصل رياضتها يرجع الى معرفة غوائلها لترغب النفس عنها وتنفر عن قبحها ثم المواظبة على مباشرة أضدادها مدة مديدة حتى تصير بالعادة مألوفة هينة على النفس فاذا انمحت عن النفس فقد زكت وتطهرت عن هذه الرذائل وتخلصت أيضا عن الغضب الذي يتولد منها ومن أشد البواعث على الغضب عند أكثر الجهال تسميتهم الغضب شجاعة ورجولية وعزة نفس وكبر همة وتلقيبه بالالقاب المحمودة غباوة وجهلا حتى تميل النفس اليه وتستحسنه وقد يتأكد ذلك بحكاية شدة الغضب عن الاكابر في معرض المدح بالشجاعة والنفوس مائلة الى التشبه بالاكابر فيهيج الغضب الى القلب بسببه وتسمية هذا عزة نفس وشجاعة جهل بل هو مرض قلب ونقصان عقل وهو لضعف النفس ونقصانها وآية أنه لضعف النفس أن المريض أسرع غضبا من الصحيح والمرأة أسرع غضبا من الرجل والصبي أسرع غضبا من الرجل الكبير والشيخ الضعيف أسرع غضبا من الكهل وذو الخلق السيء والرذائل القبيحة أسرع غضبا من صاحب الفضائل فالرذل يغضب لشهوته اذا فاتته اللقمة ولبخله اذا فاتته الحبة حتى أنه يغضب على أهله وولده وأصحابه بل القوي من يملك نفسه عند الغضب كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس الشديد بالصرعة انما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب بل ينبغي أن يعالج هذا الجاهل بأن تتلى عليه حكايات أهل الحلم والعفو وما استحسن منهم من كظم الغيظ فان ذلك منقول عن الانبياء والاولياء والحكماء والعلماء وأكابر الملوك الفضلاء وضد ذلك منقول عن الاكراد والاتراك والجهلة والاغبياء الذين لا عقول لهم ولا فضل فيهم

﴿ بيان علاج الغضب بعد هيجانه ﴾

ما ذكرناه هو حسم لمواد الغضب وقطع لاسبابه حتى لا يهيج فاذا جرى سبب هيجه فعنده يجب التثبت حتى لا يضطر صاحبه الى العمل به على الوجه المذموم وانما يعالج الغضب عند هيجانه بمعجون العلم والعمل * أما العلم فهو ستة أمور * الاول أن يتفكر في الاخبار التي سنوردها في فضل كظم الغيظ والعفو والحلم والاحتمال فيرغب

ويستمد في الاستنشاق الماء بالنفس الى الخياشيم ويرفق في ذلك ان كان صائما وتخليل اللحية الكثة وتخليل الاصابع المنفرجة والبداءة بالميامن واطالة الغرة واستيعاب الرأس بالمسح ومسح الاذنين والتثليث وفي القول الجديد التتابع ويجتنب أن يزيد على الثلاث ولا ينفض اليد ولا يتكلم في أثناء الوضوء ولا يلطم وجهه بالماء لطما وتجديد الوضوء مستحب بشرط أن يصلي بالوضوء ما تيسر والا فكروه

﴿ الباب الخامس والثلاثون في آداب أهل الخصوص والصوفية في الوضوء ﴾

آداب الصوفية بعد القيام بمعرفة الاحكام * أدبهم في الوضوء حضور القلب في غسل الاعضاء سمعت بعض الصالحين يقول اذا حضر القلب في الوضوء يحضر في الصلاة واذا

في ثوابه فيمنعه شدة الحرص على ثواب الكظم عن التشفي والانتقام وينطفئ عنه غيظه قال مالك بن أوس بن الحدثان غضب عمر على رجل وأمر بضربه فقلت يا أمير المؤمنين خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين فكان عمر يقول خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين فكان يتأمل في الآية وكان وقافا عند كتاب الله مهما تلي عليه كثير التدبر فيه فتدبر فيه وخلى الرجل وأمر عمر بن عبد العزيز بضرب رجل ثم قرأ قوله تعالى والكاظمين الغيظ فقال لغلامه خل عنه * الثاني أن يخوف نفسه بعقاب الله وهو أن يقول قدرة الله على أعظم من قدرتي على هذا الانسان فلو أمضيت غضبي عليه لم آمن أن يمضي الله غضبه على يوم القيامة أحوج ما أكون الى العفو فقد قال تعالى في بعض الكتب القديمة يا ابن آدم اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب فلا أمحقك فيمن أمحق وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وصيفا الى حاجة فأبطأ عليه فلما جاء قال لولا القصاص لأوجعتك أي القصاص في القيامة وقيل ما كان في بني اسرائيل ملك الا ومعه حكيم اذا غضب أعطاه صحيفة فيها ارحم المسكين واخش الموت واذكر الآخرة فكان يقرؤها حتى يسكن غضبه * الثالث أن يحذر نفسه عاقبة العداوة والانتقام وتشمر العدو لمقابلته والسعي في هدم أغراضه والشماتة بمصائبه وهو لا يخلو عن المصائب فيخوف نفسه بعواقب الغضب في الدنيا ان كان لا يخاف من الآخرة وهذا يرجع الى تسليط شهوة على غضب وليس هذا من أعمال الآخرة ولا ثواب عليه لانه متردد على حظوظه العاجلة يقدم بعضها على بعض الا أن يكون محذوره أن تتشوش عليه في الدنيا فراغته للعلم والعمل وما يعينه على الآخرة فيكون مثابا عليه * الرابع أن يتفكر في قبح صورته عند الغضب بأن يتذكر صورة غيره في حالة الغضب ويتفكر في قبح الغضب في نفسه ومشابهة صاحبه للكلب الضاري والسبع العادي ومشابهة الحليم الهادي التارك للغضب للانبياء والاولياء والعلماء والحكماء ويخير نفسه بين أن يتشبه بالكلاب والسباع وأراذل الناس وبين أن يتشبه بالعلماء والانبياء في عادتهم لتميل نفسه الى حب الاقتداء بهؤلاء ان كان قد بقي معه مسكة من عقل * الخامس أن يتفكر في السبب الذي يدعوه الى الانتقام ويمنعه من كظم الغيظ ولا بد وان يكون له سبب مثل قول الشيطان له ان هذا يحمل منك على العجز وصغر النفس والذلة والمهانة وتصير حقيرا في أعين الناس فيقول لنفسه ما أعجبك تأنفين من الاحتمال الآن ولا تأنفين من خزي يوم القيامة والافتضاح اذا أخذ هذا بيدك وانتقم منك وتحذرين من أن تصغري في أعين الناس ولا تحذرين من أن تصغري عند الله والملائكة والنبيين فمهما كظم الغيظ فينبغي أن يكظمه لله وذلك يعظمه عند الله فماله وللناس وذل من ظلمه يوم القيامة أشد من ذله لو انتقم الآن أفلا يحب أن يكون هو القائم اذا نودي يوم القيامة ليقم من أجره على الله فلا يقوم الا من عفا فهذا وأمثاله من معارف الايمان ينبغي أن يقرره على قلبه * السادس أن يعلم أن غضبه من تعجبه من جريان الشيء على وفق مراد الله لا على وفق مراده فكيف يقول مرادي أولى من مراد الله ويوشك أن يكون غضب الله عليه أعظم من غضبه * وأما العمل فان تقول بلسانك أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هكذا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يقال عند الغيظ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا غضبت عائشة أخذ بأنفها وقال يا عويش قولي اللهم رب النبي محمد اغفر لي ذنبي وأذهب غيظ قلبي وأجرني من مضلات الفتن فيستحب ان تقول ذلك فان لم يزل بذلك فاجلس ان كنت قائما واضطجع ان كنت جالسا واقرب من الارض التي منها خلقت لتعرف بذلك ذل نفسك واطلب بالجلوس والاضطجاع السكون فان سبب الغضب الحرارة وسبب الحرارة الحركة فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الغضب جمرة توقد في القلب ألم تر الى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه فاذا وجد أحدكم من ذلك شيأ فان كان قائما فليجلس وان كان جالسا فلينم فان لم يزل ذلك فليتوضأ بالماء البارد أو يغتسل فان النار لا يطفئها الا الماء فقد قال صلى الله عليه وسلم اذا غضب أحدكم فليتوضأ بالماء فانما الغضب من النار وفي رواية ان الغضب من الشيطان وان الشيطان خلق من النار وانما تطفأ النار بالماء فاذا غضب أحدكم فليتوضأ وقال ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا غضبت فاسكت وقال أبو هريرة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا غضب وهو قائم جلس واذا غضب وهو جالس اضطجع فيذهب غضبه وقال أبو سعيد الخدري قال النبي صلى الله عليه وسلم ألا ان الغضب جمرة في قلب ابن آدم ألا ترون الى حمرة عينيه

دخل السهو فيه دخلت الوسوسة في الصلاة ومن آدابهم استدامة الوضوء والوضوء سلاح المؤمن والجوارح اذا كانت في حماية الوضوء الذي هو أثر شرعي يقل طروق الشيطان عليها * قال عدي بن حاتم ما أقيمت صلاة منذ أسلمت الا وأنا على وضوء وقال أنس بن مالك قدم النبي عليه الصلاة والسلام المدينة وأنا يومئذ ابن ثمان سنين فقال لي يا بني ان استطعت أن لا تزال على الطهارة فافعل فانه من أتاه الموت وهو على الوضوء أعطي الشهادة فشأن العاقل أن يكون أبدا مستعدا للموت ومن الاستعداد لزوم الطهارة (وحكي) عن الحصري أنه قال مهما أنتبه من الليل لا يحملني النوم الا بعد ما أقوم وأجدد الوضوء لئلا يعود الى النوم وأنا على غير طهارة وسمعت من صحب الشيخ علي بن

والانتفاخ أوداجه فمن وجد من ذلك شيأ فليلصق خده بالارض وكأن هذا اشارة الى السجود وتمكين أعز الاعضاء من أذل المواضع وهو التراب لتستشعر به النفس الذل وتزايل به العزة والزهو الذي هو سبب الغضب وروى أن عمر غضب يوما فدعا بماء فاستنشق وقال ان الغضب من الشيطان وهذا يذهب الغضب وقال عروة ابن محمد لما استعملت على اليمن قال لي أبي أوليت قلت نعم قال فاذا غضبت فانظر الى السماء فوقك والى الارض تحتك ثم عظم خالقهما وروى أن أباذر قال لرجل ياابن الحمراء في خصومة بينهما فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ياأباذر بلغني أنك اليوم عيرت أخاك بأمه فقال نعم فانطلق أبوذر ليرضي صاحبه فسبقه الرجل فسلم عليه فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ياأباذر ارفع رأسك فانظر ثم اعلم انك لست بأفضل من أحمر فيها ولا أسود الا أن تفضله بعمل ثم قال اذا غضبت فان كنت قائما فاقعد وان كنت قاعدا فاتكئ وان كنت متكئا فاضطجع وقال المعتمر بن سليمان كان رجل ممن كان قبلكم يغضب فيشتد غضبه فكتب ثلاث صحائف وأعطى كل صحيفة رجلا وقال للاول اذا غضبت فاعطني هذه وقال للثاني اذا سكن بعض غضبي فاعطني هذه وقال للثالث اذا ذهب غضبي فاعطني هذه فاشتد غضبه يوما فاعطي الصحيفة الاولى فاذا فيها ما أنت وهذا الغضب انك لست باله انما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضا فسكن بعض غضبه فاعطي الثانية فاذا فيها ارحم من في الارض يرحمك من في السماء فاعطي الثالثة فاذا فيها خذ الناس بحق الله فانه لا يصلحهم الا ذلك أي لا تعطل الحدود * وغضب المهدي على رجل فقال شبيب لا تغضب لله بأشد من غضبه لنفسه فقال خلوا سبيله

﴿ فضيلة كظم الغيظ ﴾

قال الله تعالى والكاظمين الغيظ وذكر ذلك في معرض المدح وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كف غضبه كف الله عنه عذابه ومن اعتذر الى ربه قبل الله عذره ومن خزن لسانه ستر الله عورته وقال صلى الله عليه وسلم أشدكم من غلب نفسه عند الغضب وأحلمكم من عفا عند القدرة وقال صلى الله عليه وسلم من كظم غيظا ولو شاء أن يمضيه لامضاه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضا وفي رواية ملأ الله قلبه أمنا وايمانا وقال ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما جرع عبد جرعة أعظم أجرا من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله تعالى وقال ابن عباس رضي الله عنهما قال صلى الله عليه وسلم ان لجهنم بابا لا يدخله الا من شفى غيظه بمعصية الله تعالى وقال صلى الله عليه وسلم ما من جرعة أحب الى الله تعالى من جرعة غيظ كظمها عبد وما كظمها عبد الا ملأ الله قلبه ايمانا وقال صلى الله عليه وسلم من كظم غيظا وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رؤس الخلائق ويخيره من أي الحور شاء (الآثار) قال عمر رضي الله عنه من اتقى الله لم يشف غيظه ومن خاف الله لم يفعل ما يشاء ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون وقال لقمان لابنه يابني لا تذهب ماء وجهك بالمسألة ولا تشف غيظك بفضيحتك واعرف قدرك تنفعك معيشتك وقال أيوب حلم ساعة يدفع شرا كثيرا واجتمع سفيان الثوري وأبو خزيمة اليربوعي والفضيل بن عياض فتذاكروا الزهد فأجمعوا على أن أفضل الاعمال الحلم عند الغضب والصبر عند الجزع وقال رجل لعمر رضي الله عنه والله ما تقضي بالعدل ولا تعطي الجزل فغضب عمر حتى عرف ذلك في وجهه فقال له رجل ياأمير المؤمنين ألا تسمع أن الله يقول خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين فهذا من الجاهلين فقال عمر صدقت فكأنما كانت نارا فأطفئت وقال محمد بن كعب ثلاث من كن فيه استكمل الايمان بالله اذا رضي لم يدخله رضاه في الباطل واذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق واذا قدر لم يتناول ما ليس له وجاء رجل الى سلمان فقال ياعبد الله أوصني قال لا تغضب قال لا أقدر قال فان غضبت فامسك لسانك ويدك

﴿ بيان فضيلة الحلم ﴾

اعلم أن الحلم أفضل من كظم الغيظ لان كظم الغيظ عبارة عن التحلم أي تكلف الحلم ولا يحتاج الى كظم الغيظ الا من هاج غيظه ويحتاج فيه الى مجاهدة شديدة ولكن اذا تعوّد ذلك مدة صار ذلك اعتيادا فلا يهيج الغيظ وان هاج فلا يكون في كظمه تعب وهو الحلم الطبيعي وهو دلالة كمال العقل واستيلائه وانكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل ولكن ابتداؤه التحلم وكظم الغيظ تكلفا قال صلى الله عليه وسلم انما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم

الهيتمي أنه كان يقعد الليل جميعه فان غلبه النوم يكون قاعدا كذلك وكلما انتبه يقول لا أكون أسأت الادب فيقوم ويجدد الوضوء ويصلي ركعتين (وروى) أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لبلال عند صلاة الفجر يابلال حدثني بأرجى عمل عملته في الاسلام فاني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة قال ما عملت عملا في الاسلام أرجى عندي أني لم أتطهر طهورا في ساعة ليل أو نهار الا صليت لربي عز وجل بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي ومن أدبهم في الطهارة ترك الاسراف في الماء والوقوف على حد العلم (أخبرنا) الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب ابن علي قال أنا أبو الفتح الهروي قال أنا أبو نصر الترياقي قال أخبرنا أبو محمد الجراحي

ومن يتخير الخير يعطه ومن يتوق الشر يوقه وأشار بهذا الى أن اكتساب الحلم طريقه التحلم أولا وتكلفه كما أن اكتساب العلم طريقه التعلم وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اطلبوا العلم واطلبوا مع العلم السكينة والحلم لينوا لمن تعلمون ولمن تتعلمون منه ولا تكونوا من جبابرة العلماء فيغلب جهلكم حلمكم أشار بهذا الى أن التكبر والتجبر هو الذى يهيج الغضب ويمنع من الحلم واللين وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم اللهم أغننى بالعلم وزينى بالحلم وأكرمنى بالتقوى وجملنى بالعافية وقال أبو هريرة قال النبى صلى الله عليه وسلم ابتغوا الرفعة عند الله قالوا وما هى يا رسول الله قال تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتحلم عمن جهل عليك وقال صلى الله عليه وسلم خمس من سنن المرسلين الحياء والحلم والحجامة والسواك والتعطر وقال على كرم الله وجهه قال النبى صلى الله عليه وسلم ان الرجل المسلم ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم وانه ليكتب جبارا عنيدا وما يملك الا أهل بيته وقال أبو هريرة ان رجلا قال يا رسول الله ان لى قرابة أصلهم ويقطعونى وأحسن اليهم ويسيؤن الى ويجهلون على وأحلم عنهم قال ان كان كما تقول فكأنما تسفهم المل ولا يزال معك من الله ظهير ما دمت على ذلك المل يعنى به الرمل وقال رجل من المسلمين اللهم ليس عندى صدقة أتصدق بها فأيما رجل أصاب من عرضى شيأ فهو عليه صدقة فأوحى الله تعالى الى النبى صلى الله عليه وسلم انى قد غفرت له وقال صلى الله عليه وسلم أيعجز أحدكم أن يكون كأبى ضمضم قالوا وما أبو ضمضم قال رجل ممن كان قبلكم كان اذا أصبح يقول اللهم انى تصدقت اليوم بعرضى على من ظلمنى وقيل فى قوله تعالى ربانيين أى حلماء علماء وعن الحسن فى قوله تعالى واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما قال حلماء ان جهل عليهم لم يجهلوا وقال عطاء بن أبى رباح يمشون على الارض هونا أى حلما وقال ابن أبى حبيب فى قوله عز وجل وكهلا قال الكهل منتهى الحلم وقال مجاهد واذا مروا باللغو مروا كراما أى اذا أوذوا صفحوا وروى ان ابن مسعود مر بلغو معرضا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أصبح ابن مسعود وأمسى كريما ثم تلا ابراهيم بن ميسرة وهو الراوى قوله تعالى واذا مروا باللغو مروا كراما وقال النبى صلى الله عليه وسلم اللهم لا يدركنى ولا أدركه زمان لا يتبعون فيه العليم ولا يستحيون فيه من الحليم قلوبهم قلوب العجم وألسنتهم ألسنة العرب وقال صلى الله عليه وسلم ليلينى منكم ذو والاحلام والنهى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم واياكم وهيشات الاسواق وروى انه وفد على النبى صلى الله عليه وسلم الاشج فأناخ راحلته ثم عقلها وطرح عنه ثوبين كانا عليه وأخرج من العيبة ثوبين حسنين فلبسهما وذلك بعين رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى ما يصنع ثم أقبل يمشى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام ان فيك يا أشج خلقين يحبهما الله ورسوله قال ما هما بأبى أنت وأمى يا رسول الله قال الحلم والاناة فقال خلتان تخلقتهما أو خلقان جبلت عليهما فقال بل خلقان جبلك الله عليهما فقال الحمد لله الذى جبلنى على خلقين يحبهما الله ورسوله وقال صلى الله عليه وسلم ان الله يحب الحليم الحيى الغنى المتعفف أبا العيال التقى ويبغض الفاحش البذى السائل الملحف الغبى وقال ابن عباس قال النبى صلى الله عليه وسلم ثلاث من لم تكن فيه واحدة منهن فلا تعتدوا بشئ من عمله تقوى تحجزه عن معاصى الله عز وجل وحلم يكف به السفيه وخلق يعيش به فى الناس وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا جمع الله الخلائق يوم القيامة نادى مناد أين أهل الفضل فيقوم ناس وهم يسير فينطلقون سراعا الى الجنة فتتلقاهم الملائكة فيقولون لهم انا نراكم سراعا الى الجنة فيقولون نحن أهل الفضل فيقولون لهم ما كان فضلكم فيقولون كنا اذا ظلمنا صبرنا واذا أسيء الينا عفونا واذا جهل علينا حلمنا فيقال لهم ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين (الآثار) قال عمر رضى الله عنه تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم وقال على رضى الله عنه ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك وأن لا تباهى الناس بعبادة الله واذا أحسنت حمدت الله تعالى واذا أسأت استغفرت الله تعالى وقال الحسن اطلبوا العلم وزينوه بالوقار والحلم وقال أكثم بن صيفى دعامة العقل الحلم وجماع الامر الصبر وقال أبو الدرداء أدركت الناس ورقا لا شوك فيه فأصبحوا شوكا لا ورق فيه ان عرفتهم نقدوك وان تركتهم لم يتركوك قالوا كيف نصنع قال تقرضهم من عرضك ليوم فقرك وقال على رضى الله عنه ان أول ما عوض الحليم من حلمه أن الناس كلهم أعوانه على الجاهل وقال معاوية رحمه الله

قال أنا أبو العباس المحبوبى قال أنا أبو عيسى الترمذى قال حدثنا محمد بن بشار قال حدثنا أبو داود قال حدثنا خارجة بن مصعب عن يونس بن عبيد عن الحسن عن يحيى بن ضمرة السعدى عن أبى بن كعب عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال للوضوء شيطان يقال له الولهان فاتقوا وساوس الماء قال أبو عبد الله الروذبارى ان الشيطان يجتهد أن يأخذ نصيبه من جميع أعمال بنى آدم فلا يبالى أن يأخذ نصيبه بأن يزدادوا فيما أمروا به أو ينقصوا عنه (وحكى) عن ابن الكرنبى أنه أصابته جنابة ليلة من الليالى وكانت عليه مرقعة ثخينة غليظة الغاء الى الدجلة وكان برد شديد فحرنت نفسه عن الدخول فى الماء لشدة البرد فطرح نفسه فى الماء مع المرقعة ثم خرج من الماء وقال عقدت

تعالى لا يبلغ العبد مبلغ الرأي حتى يغلب حلمه جهله وصبره شهوته ولا يبلغ ذلك الا بقوة العلم وقال معاوية لعمرو ابن الاهتم أي الرجال أشجع قال من رد جهله بحلمه قال أي الرجال أسخى قال من بذل دنياه لاصلاح دينه وقال أنس بن مالك في قوله تعالى فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم الى قوله عظيم هو الرجل يشتمه أخوه فيقول ان كنت كاذبا فغفر الله لك وان كنت صادقا فغفر الله لي وقال بعضهم شتمت فلانا من أهل البصرة فحلم علي فاستعبدني بها زمانا وقال معاوية لعرابة بن أوس بم سدت قومك يا عرابة قال يا أمير المؤمنين كنت أحلم عن جاهلهم وأعطي سائلهم وأسعى في حوائجهم فمن فعل فعلي فهو مثلي ومن جاوزني فهو أفضل مني ومن قصر عني فأنا خير منه وسب رجل ابن عباس رضي الله عنهما فلما فرغ قال يا عكرمة هل للرجل حاجة فنقضيها فنكس الرجل رأسه واستحى وقال رجل لعمر بن عبد العزيز اشهد انك من الفاسقين فقال ليس تقبل شهادتك وعن علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم أنه سبه رجل فرمى اليه بخميصة كانت عليه وأمر له بألف درهم فقال بعضهم جمع له خمس خصال محمودة الحلم واسقاط الاذى وتخليص الرجل مما يبعده من الله عز وجل وحمله على الندم والتوبة ورجوعه الى المدح بعد الذم اشترى جميع ذلك بشيء من الدنيا يسير وقال رجل لجعفر بن محمد انه قد وقع بيني وبين قوم منازعة في أمر واني أريد أن أتركه فأخشى أن يقال لي ان تركك له ذل فقال جعفر انما الذليل الظالم وقال الخليل بن أحمد كان يقال من أساء فأحسن اليه فقد جعل له حاجز من قلبه يردعه عن مثل اساءته وقال الاحنف ابن قيس لست بحليم ولكنني أتحلم وقال وهب بن منبه من يرحم يرحم ومن يصمت يسلم ومن يجهل يغلب ومن يعجل يخطئ ومن يحرص على الشر لا يسلم ومن لا يدع المراء يشتم ومن لا يكره الشر يأثم ومن يكره الشر يعصم ومن يتبع وصية الله يحفظ ومن يحذر الله يأمن ومن يتول الله يمنع ومن لا يسأل الله يفتقر ومن يأمن مكر الله يخذل ومن يستعن بالله يظفر وقال رجل لمالك بن دينار بلغني أنك ذكرتني بسوء فقال أنت اذا أكرم علي من نفسي اني اذا فعلت ذلك أهديت لك حسناتي وقال بعض العلماء الحلم أرفع من العقل لان الله تعالى تسمى به وقال رجل لبعض الحكماء والله لاسبنك سبا يدخل معك في قبرك فقال معك يدخل لا معي ومر المسيح بن مريم عليه الصلاة والسلام بقوم من اليهود فقالوا له شرا فقال لهم خيرا فقيل له انهم يقولون شرا وأنت تقول خيرا فقال كل ينفق مما عنده وقال لقمان ثلاثة لا يعرفون الا عند ثلاثة لا يعرف الحليم الا عند الغضب ولا الشجاع الا عند الحرب ولا الاخ الا عند الحاجة اليه ودخل على بعض الحكماء صديق له فقدم اليه طعاما فخرجت امرأة الحكيم وكانت سيئة الخلق فرفعت المائدة وأقبلت على شتم الحكيم فخرج الصديق مغضبا فتبعه الحكيم وقال له تذكر يوم كنا في منزلك نطعم فسقطت دجاجة على المائدة فأفسدت ما عليها فلم يغضب أحد منا قال نعم قال فاحسب أن هذه مثل تلك الدجاجة فسري عن الرجل غضبه وانصرف وقال صدق الحكيم الحلم شفاء من كل ألم وضرب رجل قدم حكيم فأوجعه فلم يغضب فقيل له في ذلك فقال أقمته مقام حجر تعثرت به فذبحت الغضب وقال محمود الوراق

سألزم نفسي الصفح عن كل مذنب * وان كثرت منه علي الجرائم
وما الناس الا واحد من ثلاثة * شريف ومشروف ومثل مقاوم
فأما الذي فوقي فأعرف قدره * وأتبع فيه الحق والحق لازم
وأما الذي دوني فان قال صنت عن * اجابته عرضي وان لام لائم
وأما الذي مثلي فان زل أو هفا * تفضلت ان الفضل بالحلم حاكم

* بيان القدر الذي يجوز الانتصار والتشفي به من الكلام *

اعلم ان كل ظلم صدر من شخص فلا يجوز مقابلته بمثله فلا تجوز مقابلة الغيبة بالغيبة ولا مقابلة التجسس بالتجسس ولا السب بالسب وكذلك سائر المعاصي وانما القصاص والغرامة على قدر ما ورد الشرع به وقد فصلناه في الفقه وأما السب فلا يقابل بمثله اذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان امرؤ عيرك بما فيك فلا تعيره بما فيه وقال المستبان ما قالا فهو على البادئ ما لم يعتد المظلوم وقال المستبان شيطانان يتهاتران ويتشاتمان وشتم رجل أبا بكر الصديق رضي الله عنه وهو ساكت فلما ابتدأ ينتصر منه قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر انك كنت ساكتا لما شتمني فلما

أن لا أنزعها من بدني حتى يخف علي فمكثت عليه شهرا لثخانتها وغلظها أدب بذلك نفسه لما حرنت عن الائتمار لامر الله تعالى (وقيل) ان سهل بن عبد الله كان يحث أصحابه على كثرة شرب الماء وقلة صبه على الارض وكان يرى أن في الاكثار من شرب الماء ضعف النفس واماتة الشهوات وكسر القوة ومن أفعال الصوفية الاحتياط في استقاء الماء للوضوء (قيل) كان ابراهيم الخواص اذا دخل البادية لا يحمل معه الا ركوة من الماء وربما كان لا يشرب منها الا القليل يحفظ الماء للوضوء وقيل انه كان يخرج من مكة الى الكوفة ولا يحتاج الى التيمم يحفظ الماء للوضوء ويقنع بالقليل للشرب * وقيل اذا رأيت الصوفي ليس معه ركوة أو كوز فاعلم أنه قد عزم على ترك الصلاة شاء أم أبى

تكلمت قمت قال لان الملك كان يجيب عنك فلما تكلمت ذهب الملك وجاء الشيطان فلم أكن لاجلس في مجلس فيه الشيطان وقال قوم تجوز المقابلة بما لا كذب فيه وانما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مقابلة التعيير بمثله نهى تنزيه والافضل تركه ولكنه لا يعصى به والذي يرخص فيه ان تقول من أنت وهل أنت الا من بني فلان كما قال سعد لابن مسعود وهل أنت الا من بني هذيل وقال ابن مسعود وهل أنت الا من بني أمية ومثل قوله يا أحمق قال مطرف كل الناس أحمق فيما بينه و بين ربه الا ان بعض الناس أقل حماقة من بعض وقال ابن عمر في حديث طويل حتى ترى الناس كلهم حمقى في ذات الله تعالى وكذلك قوله يا جاهل اذ ما من أحد الا وفيه جهل فقد آذاه بما ليس بكذب وكذلك قوله ياسيء الخلق ياصفيق الوجه ياثلابا للاعراض وكان ذلك فيه وكذلك قوله لو كان فيك حياء لما تكلمت وما أحقرك في عيني بما فعلت وأخزاك الله وانتقم منك فاما النميمة والغيبة والكذب وسب الوالدين فحرام بالاتفاق لما روي أنه كان بين خالد بن الوليد وسعد كلام فذكر رجل خالدا عند سعد فقال سعد مه ان ما بيننا لم يبلغ ديننا يعني أن يأثم بعضنا في بعض فلم يسمع السوء فكيف يجوز له أن يقوله والدليل على جواز ما ليس بكذب ولا حرام كالنسبة الى الزنا والفحش والسب ما روت عائشة رضي الله عنها ان أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أرسلن اليه فاطمة فجاءت فقالت يا رسول الله أرسلني اليك أزواجك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة والنبي صلى الله عليه وسلم نائم فقال يا بنية أتحبين ما أحب قالت نعم قال فاحبي هذه فرجعت اليهن فاخبرتهن بذلك فقلن ما أغنيت عنا شيأ فأرسلن زينب ابنة جحش قالت وهي التي كانت تساميني في الحب فجاءت فقالت بنت أبي بكر و بنت أبي بكر فما زالت تذكرني وأنا ساكتة أنتظر أن يأذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجواب فأذن لي فسببتها حتى جف لساني فقال النبي صلى الله عليه وسلم كلا انها ابنة أبي بكر يعني أنك لا تقاومينها في الكلام قط وقولها سببتها ليس المراد به الفحش بل هو الجواب عن كلامها بالحق ومقابلتها بالصدق وقال النبي صلى الله عليه وسلم المستبان على ما قالا فعلى البادئ منهما حتى يعتدي المظلوم فاثبت للمظلوم انتصارا الى أن يعتدي فهذا القدر هو الذي أباحه هؤلاء وهو رخصة في الايذاء جزاء على ايذائه السابق ولا تبعد الرخصة في هذا القدر ولكن الافضل تركه فانه يجره الى ما وراءه ولا يمكنه الاقتصار على قدر الحق فيه والسكوت عن أصل الجواب لعله أيسر من الشروع في الجواب والوقوف على حد الشرع فيه ولكن من الناس من لا يقدر على ضبط نفسه في فورة الغضب ولكن يعود سريعا ومنهم من يكف نفسه في الابتداء ولكن يحقد على الدوام والناس في الغضب أربعة فبعضهم كالحلفاء سريع الوقود سريع الخمود وبعضهم كالغضا بطيء الوقود بطيء الخمود وبعضهم بطيء الوقود سريع الخمود وهو الاحمد ما لم ينته الى فتور الحمية والغيرة وبعضهم سريع الوقود بطيء الخمود وهذا هو شرهم وفي الخبر المؤمن سريع الغضب سريع الرضا فهذه بتلك وقال الشافعي رحمه الله من استغضب فلم يغضب فهو حمار ومن استرضي فلم يرض فهو شيطان وقد قال أبو سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا ان بني آدم خلقوا على طبقات شتى فمنهم بطيء الغضب سريع الفيء ومنهم سريع الغضب سريع الفيء فتلك بتلك ومنهم سريع الغضب بطيء الفيء ألا وان خيرهم البطيء الغضب السريع الفيء وشرهم السريع الغضب البطيء الفيء ولما كان الغضب يهيج ويؤثر في كل انسان وجب على السلطان أن لا يعاقب أحدا في حال غضبه لانه ربما يتعدى الواجب ولانه ربما يكون متغيظا عليه فيكون متشفيا لغيظه ومريحا نفسه من ألم الغيظ فيكون صاحب حظ فينبغي أن يكون انتقامه وانتصاره لله تعالى لا لنفسه * ورأى عمر رضي الله عنه سكران فأراد أن يأخذه ويعزره فشتمه السكران فرجع عمر فقيل له يا أمير المؤمنين لما شتمك تركته قال لانه أغضبني ولو عزرته لكان ذلك لغضبي لنفسي ولم أحب أن أضرب مسلما حمية لنفسي وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله لرجل أغضبه لولا أنك أغضبتني لعاقبتك

وحكي عن بعضهم أنه أدب نفسه في الطهارة الى حد أنه أقام بين ظهراني جماعة من النساك وهم مجتمعون في دار فما رآه أحد منهم أنه دخل الخلاء لانه كان يقضي حاجته اذا خلا الموضع في وقت يريد تأديب نفسه وقيل مات الخواص في جامع الري في وسط الماء وذلك أنه كان به علة البطن وكلما قام دخل الماء وغسل نفسه فدخله مرة ومات فيه كل ذلك لحفظه على الوضوء والطهارة *وقيل كان ابراهيم ابن أدهم به قيام فقام في ليلة واحدة نيفا وسبعين مرة كل مرة يجدد الوضوء ويصلي ركعتين وقيل ان بعضهم أدب نفسه حتى لا يخرج منه الريح الا في وقت البراز يراعي الادب في الخلوات واتخاذ المنديل بعد الوضوء كرهه قوم وقالوا ان الوضوء يوزن وأجازه بعضهم ودليلهم ما أخبرنا الشيخ

﴿ القول في معنى الحقد ونتائجه وفضيلة العفو والرفق ﴾

اعلم أن الغضب اذا لزم كظمه لعجز عن التشفي في الحال رجع الى الباطن واحتقن فيه فصار حقدا ومعنى الحقد أن يلزم قلبه استثقاله والبغضة له والنفار عنه وأن يدوم ذلك و يبقى وقد قال صلى الله عليه وسلم المؤمن ليس بحقود

فالحقد ثمرة الغضب والحقد يثمر ثمانية أمور الاول الحسد وهو أن يحملك الحقد على أن تتمنى زوال النعمة عنه فتغتم بنعمة ان أصابها وتسر بمصيبة ان نزلت به وهذا من فعل المنافقين وسيأتي ذمه ان شاء الله تعالى * الثاني أن تزيد على اضمار الحسد في الباطن وتشمت بما أصابه من البلاء * الثالث أن تهجره وتصارمه وتنقطع عنه وان طلبك وأقبل عليك * الرابع وهو دونه أن تعرض عنه استصغارا له * الخامس أن تتكلم فيه بما لا يحل من كذب وغيبة وافشاء سر وهتك ستر وغيره * السادس أن تحاكيه استهزاء به وسخرية منه * السابع ايذاؤه بالضرب وما يؤلم بدنه * الثامن أن تمنعه حقه من قضاء دين أو صلة رحم أو رد مظلمة وكل ذلك حرام وأقل درجات الحقد أن تحترز من الآفات الثمانية المذكورة ولا تخرج بسبب الحقد الى ما تعصي الله به ولكن تستثقله في الباطن ولا ينتهي قلبك عن بغضه حتى تمتنع عما كنت تتطوع به من البشاشة والرفق والعناية والقيام بحاجاته والمجالسة معه على ذكر الله تعالى والمعاونة على المنفعة له أو بترك الدعاء له والثناء عليه أو التحريض على بره ومواساته فهذا كله مما ينقص درجتك في الدين ويحول بينك وبين فضل عظيم وثواب جزيل وان كان لا يعرضك لعقاب الله ولما حلف أبو بكر رضي الله عنه أن لا ينفق على مسطح وكان قريبه لكونه تكلم في واقعة الافك نزل قوله تعالى ولا يأتل أولو الفضل منكم الى قوله ألا تحبون أن يغفر الله لكم فقال أبو بكر نعم نحب ذلك وعاد الى الانفاق عليه والاولى أن يبقى على ما كان عليه فان أمكنه أن يزيد في الاحسان مجاهدة للنفس وارغاما للشيطان فذلك مقام الصديقين وهو من فضائل أعمال المقربين فللمحقود ثلاثة أحوال عند القدرة أحدها أن يستوفي حقه الذي يستحقه من غير زيادة ونقصان وهو العدل * الثاني أن يحسن اليه بالعفو والصلة وذلك هو الفضل * الثالث أن يظلمه بما لا يستحقه وذلك هو الجور وهو اختيار الاراذل والثاني هو اختيار الصديقين والاول هو منتهى درجات الصالحين ولنذكر الآن فضيلة العفو والاحسان

* فضيلة العفو والاحسان *

اعلم أن معنى العفو أن يستحق حقا فيسقطه ويبرئ عنه من قصاص أو غرامة وهو غير الحلم وكظم الغيظ فلذلك أفردناه قال الله تعالى خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين وقال الله تعالى وأن تعفوا أقرب للتقوى * وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث والذي نفسي بيده لو كنت حلافا لحلفت عليهن مانقص مال من صدقة فتصدقوا ولا عفا رجل عن مظلمة يبتغي بها وجه الله الا زاده الله بها عزا يوم القيامة ولا فتح رجل على نفسه باب مسألة الا فتح الله عليه باب فقر وقال صلى الله عليه وسلم التواضع لا يزيد العبد الا رفعة فتواضعوا يرفعكم الله والعفو لا يزيد العبد الا عزا فاعفوا يعزكم الله والصدقة لا تزيد المال الا كثرة فتصدقوا يرحمكم الله وقالت عائشة رضي الله عنها ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصرا من مظلمة ظلمها قط مالم ينتهك من محارم الله فاذا انتهك من محارم الله شيء كان أشدهم في ذلك غضبا وما خير بين أمرين الا اختار أيسرهما مالم يكن اثما وقال عقبة لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فابتدرته فأخذت بيده أو بدرني فأخذ بيدي فقال يا عقبة ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك وقال صلى الله عليه وسلم قال موسى عليه السلام يارب أي عبادك أعز عليك قال الذي اذا قدر عفا وكذلك سئل أبو الدرداء عن أعز الناس قال الذي يعفو اذا قدر فاعفوا يعزكم الله وجاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم يشكو مظلمة فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يجلس وأراد أن يأخذ له بمظلمته فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ان المظلومين هم المفلحون يوم القيامة فأبى أن يأخذها حين سمع الحديث وقالت عائشة رضي الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من دعا على من ظلمه فقد انتصر وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا بعث الله الخلائق يوم القيامة نادى مناد من تحت العرش ثلاثة أصوات يا معشر الموحدين ان الله قد عفا عنكم فليعف بعضكم عن بعض وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة طاف بالبيت وصلى ركعتين ثم أتى الكعبة فأخذ بعضادتي الباب فقال ما تقولون وما تظنون فقالوا نقول أخ وابن عم حليم رحيم قالوا ذلك ثلاثا فقال صلى الله عليه وسلم أقول كما قال يوسف لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين قال فخرجوا كأنما نشروا من القبور فدخلوا

العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن علي قال أنا أبو الفتح الهروي قال أنا أبو نصر قال أنا أبو محمد قال أنا أبو العباس قال أنا أبو عيسى الترمذي قال حدثنا سفيان بن وكيع قال حدثنا عبد الله بن وهب عن زيد ابن حباب عن أبي معاذ عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم خرقة ينشف بها أعضاءه بعد الوضوء * وروى معاذ بن جبل قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا توضأ مسح وجهه بطرف ثوبه واستقصاء الصوفية في تطهير البواطن من الصفات الرديئة والاخلاق المذمومة لا الاستقصاء في طهارة الظاهر الى حد يخرج عن حد العلم وتوضأ عمر رضي الله عنه من جرة نصرانية مع كون النصارى لا يحترزون عن الخمر وأجرى الامر على

في الاسلام وعن سهيل بن عمرو قال لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وضع يديه على باب الكعبة والناس حوله فقال لا اله الا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الاحزاب وحده ثم قال يا معشر قريش ماتقولون وما تظنون قال قلت يارسول الله نقول خيرا ونظن خيرا أخ كريم وابن عم رحيم وقد قدرت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أقول كما قال أخي يوسف لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا وقف العباد نادى مناد ليقم من أجره على الله فليدخل الجنة قيل ومن ذا الذي له على الله أجر قال العافون عن الناس فيقوم كذا وكذا ألفا فيدخلونها بغير حساب وقال ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاينبغي لوالي أمر أن يؤتى بحد الا أقامه والله عفو يحب العفو ثم قرأ وليعفوا وليصفحوا الآية وقال جابر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث من جاء بهن مع ايمان دخل من أي أبواب الجنة شاء وزوج من الحور العين حيث شاء من أدى دينا خفيا وقرأ في دبر كل صلاة قل هو الله أحد عشر مرات وعفا عن قاتله قال أبو بكر أو احداهن يارسول الله قال أو احداهن (الآثار) قال ابراهيم التيمي ان الرجل ليظلمني فأرحمه وهذا احسان وراء العفو لانه يشتغل قلبه بتعرضه لمعصية الله تعالى بالظلم وانه يطالب يوم القيامة فلا يكون له جواب وقال بعضهم اذا أراد الله ان يتحف عبدا قيض له من يظلمه ودخل رجل على عمر بن عبد العزيز رحمه الله فجعل يشكو اليه رجلا ظلمه ويقع فيه فقال له عمر انك أن تلقى الله ومظلمتك كما هي خير لك من أن تلقاه وقد اقتصصتها وقال يزيد بن ميسرة ان ظللت تدعو على من ظلمك فان الله تعالى يقول ان آخر يدعو عليك بانك ظلمته فان شئت استجبنا لك وأجبنا عليك وان شئت أخرتكما الى يوم القيامة فيسعكما عفوي وقال مسلم بن يسار لرجل دعا على ظالمه كل الظالم الى ظلمه فانه أسرع اليه من دعائك عليه الا أن يتداركه بعمل وقمن أن لا يفعل وعن ابن عمر عن أبي بكر أنه قال بلغنا ان الله تعالى يامر مناديا يوم القيامة فينادي من كان له عند الله شئ فليقم فيقوم أهل العفو فيكافئهم الله بما كان من عفوهم عن الناس وعن هشام بن محمد قال أتى النعمان بن المنذر برجلين قد أذنب أحدهما ذنبا عظيما فعفا عنه والآخر أذنب ذنبا خفيفا فعاقبه وقال

تعفو الملوك عن العظيم من الذنوب بفضلها ولقد تعاقب في اليسير وليس ذاك لجهلها
الا ليعرف حلمها * ويخاف شدة دخلها

وعن مبارك بن فضالة قال وفد سوار بن عبد الله في وفد من أهل البصرة الى أبي جعفر قال فكنت عنده اذ أتى برجل فأمر بقتله فقلت يقتل رجل من المسلمين وأنا حاضر فقلت يا أمير المؤمنين ألا أحدثك حديثا سمعته من الحسن قال وما هو قلت سمعته يقول اذا كان يوم القيامة جمع الله عز وجل الناس في صعيد واحد حيث يسمعهم الداعي وينفذهم البصر فيقوم مناد فينادي من له عند الله يد فليقم فلا يقوم الا من عفا فقال والله لقد سمعته من الحسن فقلت والله لسمعته منه فقال خلينا عنه وقال معاوية عليكم بالحلم والاحتمال حتى تمكنكم الفرصة فاذا أمكنتكم فعليكم بالصفح والافضال وروى أن راهبا دخل على هشام بن عبد الملك فقال للراهب أرأيت ذا القرنين أكان نبيا فقال لا ولكنه انما أعطي ما أعطي باربع خصال كن فيه كان اذا قدر عفا واذا وعد وفى واذا حدث صدق ولا يجمع شغل اليوم لغد وقال بعضهم ليس الحليم من ظلم فحلم حتى اذا قدر انتقم ولكن الحليم من ظلم فحلم حتى اذا قدر عفا وقال زياد القدرة تذهب الحفيظة يعني الحقد والغضب وأتى هشام برجل بلغه عنه أمر فلما أقيم بين يديه جعل يتكلم بحجته فقال له هشام وتتكلم أيضا فقال الرجل يا أمير المؤمنين قال الله عز وجل يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها أفنجادل الله تعالى ولا نتكلم بين يديك كلاما فقال هشام بلى ويحك تكلم وروى أن سارقا دخل خباء عمار بن ياسر بصفين فقيل له اقطعه فانه من أعدائنا فقال بل أستر عليه لعل الله يستر علي يوم القيامة وجلس ابن مسعود في السوق يبتاع طعاما فابتاع ثم طلب الدراهم وكانت في عمامته فوجدها قد حلت فقال لقد جلست وانها لمعي فجعلوا يدعون على من أخذها ويقولون اللهم اقطع يد السارق الذي أخذها اللهم افعل به كذا فقال عبد الله اللهم ان كان حمله على أخذها حاجة فبارك له فيها وان كان حملته جراءة على الذنب فاجعله آخر ذنوبه وقال الفضيل ما رأيت أزهد من رجل من أهل خراسان جلس الي في المسجد الحرام ثم قام ليطوف فسرقت دنانير

الظاهر وأصل الطهارة وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلون على الارض من غير سجادة ويمشون حفاة في الطرق وقد كانوا لايجعلون وقت النوم بينهم وبين التراب حائلا وقد كانوا يقتصرون على الحجر في الاستنجاء في بعض الاوقات وكان أمرهم في الطهارة الظاهرة على التساهل واستقصاؤهم في الطهارة الباطنة وهكذا شغل الصوفية وقد يكون بعض الاشخاص يشدد في الطهارة ويكون مستند ذلك رعونة النفس فلو اتسخ ثوبه تحرج ولايبالي بما في باطنه من الغل والحقد والكبر والعجب والرياء والنفاق ولعله ينكر على الشخص لو داس الارض حافيا مع وجود رخصة الشرع ولا ينكر عليه أن يتكلم بكلمة غيبة يخرب بها دينه وكل ذلك من قلة العلم وترك

كانت معه فجعل يبكى فقلت أعلى الدنانير تبكى فقال لا ولكن مثلتنى واياه بين يدى الله عز وجل فاشرف عقلى على ادحاض حجته فبكائى رحمة له وقال مالك بن دينار أتينا منزل الحكم بن أيوب ليلا وهو على البصرة أمير وجاء الحسن وهو خائف فدخلنا معه عليه فما كنا مع الحسن الا بمنزلة الفراريج فذكر الحسن قصة يوسف عليه السلام وما صنع به اخوته من بيعهم اياه وطرحهم له فى الجب فقال باعوا أخاهم وأحزنوا أباهم وذكر مالقى من كيد النساء ومن الحبس ثم قال أيها الامير ماذا صنع الله به أداله منهم ورفع ذكره وأعلى كلمته وجعله على خزائن الارض فماذا صنع حين أكمل له أمره وجمع له أهله قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين يعرض للحكم بالعفو عن أصحابه قال الحكم فانا أقول لا تثريب عليكم اليوم ولو لم أجد الا ثوبى هذا لواريتكم تحته وكتب ابن المقفع الى صديق له يسأله العفو عن بعض اخوانه فلان هارب من زلته الى عفوك لائذ منك بك واعلم انه ان يزداد الذنب عظما الا ازداد العفو فضلا وأتى عبد الملك بن مروان باسارى ابن الاشعث فقال لرجاء بن حيوة ماترى قال ان الله تعالى قد أعطاك ماتحب من الظفر فاعط الله ما يحب من العفو فعفا عنهم وروى أن زيادا أخذ رجلا من الخوارج فافلت منه فاخذ أخاله فقال له ان جئت باخيك والا ضربت عنقك فقال أرأيت ان جئتك بكتاب من أمير المؤمنين تخلى سبيلى قال نعم قال فانا آتيك بكتاب من العزيز الحكيم وأقيم عليه شاهدين ابراهيم وموسى ثم تلا أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وابراهيم الذى وفى أن لا تزر وازرة وزر أخرى فقال زياد خلوا سبيله هذا رجل قد لقن حجته وقيل مكتوب فى الانجيل من استغفر لمن ظلمه فقد هزم الشيطان

﴿فضيلة الرفق﴾ اعلم أن الرفق محمود ويضاده العنف والحدة والعنف نتيجة الغضب والفظاظة والرفق واللين نتيجة حسن الخلق والسلامة وقد يكون سبب الحدة الغضب وقد يكون سببها شدة الحرص واستيلاءه بحيث يدهش عن التفكر ويمنع من التثبت فالرفق فى الامور ثمرة لا يثمرها الا حسن الخلق ولا يحسن الخلق الا بضبط قوة الغضب وقوة الشهوة وحفظهما على حد الاعتدال ولاجل هذا أثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرفق وبالغ فيه فقال ياعائشة انه من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من خير الدنيا والآخرة ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من خير الدنيا والآخرة وقال صلى الله عليه وسلم اذا أحب الله أهل بيت أدخل عليهم الرفق وقال صلى الله عليه وسلم ان الله ليعطى على الرفق مالا يعطى على الخرق واذا أحب الله عبدا أعطاه الرفق ومامن أهل بيت يحرمون الرفق الا حرموا محبة الله تعالى وقالت عائشة رضى الله عنها قال النبى صلى الله عليه وسلم ان الله رفيق يحب الرفق ويعطى عليه مالا يعطى على العنف وقال صلى الله عليه وسلم ياعائشة ارفقى فان الله اذا أراد باهل بيت كرامة دلهم على باب الرفق وقال صلى الله عليه وسلم من يحرم الرفق يحرم الخير كله وقال صلى الله عليه وسلم أيما وال ولى فرفق ولان رفق الله تعالى به يوم القيامة وقال صلى الله عليه وسلم تدرون من يحرم على النار يوم القيامة كل هين لين سهل قريب وقال صلى الله عليه وسلم الرفق يمن والخرق شؤم وقال صلى الله عليه وسلم التأنى من الله والعجلة من الشيطان وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه رجل فقال يارسول الله ان الله قد بارك لجميع المسلمين فيك فاخصصنى منك بخير فقال الحمد لله مرتين أو ثلاثا ثم أقبل عليه فقال هل أنت مستوص مرتين أو ثلاثا قال نعم قال اذا أردت أمرا فتدبر عاقبته فان كان رشدا فامضه وان كان سوى ذلك فانته وعن عائشة رضى الله عنها انها كانت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر على بعير صعب فجعلت تصرفه يمينا وشمالا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ياعائشة عليك بالرفق فانه لا يدخل فى شئ الا زانه ولا ينزع من شئ الا شانه (الآثار) بلغ عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن جماعة من رعيته اشتكوا من عماله فامرهم أن يوافوه فلما أتوه قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس أيتها الرعية ان لنا عليكم حقا النصيحة بالغيب والمعاونة على الخير أيتها الرعاة ان للرعية عليكم حقا فاعلموا أنه لا شئ أحب الى الله ولا أعز من حلم امام ورفقه وليس جهل أبغض الى الله ولا أغم من جهل امام وخرقه واعلموا انه من يأخذ بالعافية فيمن بين ظهريه يرزق العافية ممن هو دونه وقال وهب بن منبه الرفق ثنى الحلم وفى الخبر موقوفا ومرفوعا العلم خليل المؤمن والحلم وزيره والعقل دليله والعمل قيمه والرفق والده واللين أخوه والصبر أمير جنوده وقال بعضهم ما أحسن الايمان يزينه العلم وما أحسن العلم يزينه

التأدب بصحبة الصادقين من العلماء الراسخين وكانوا يكرهون كثرة الدلك فى الاستبراء لانه ربما يسترخى العرق ولا يمسك البول ويتولد منه القطر المفرط (ومن حكايات) المتصوفة فى الوضوء والطهارات أن أبا عمرو الزجاجى جاور بمكة ثلاثين سنة وكان لا يتغوط فى الحرم ويخرج الى الحل وأقل ذلك فرسخ (وقيل) كان بعضهم على وجهه قرح لم يندمل اثنتى عشرة سنة لان الماء كان يضره وكان مع ذلك لا يدع تجديد الوضوء عند كل فريضة وبعضهم نزل فى عينه الماء فحملوا اليه المداوى وبذلوا له مالا كثيرا ليداويه فقال المداوى تحتاج الى ترك الوضوء أياما ويكون مستلقيا على قفاه فلم يفعل ذلك واختار ذهاب بصره على ترك الوضوء

﴿الباب السادس والثلاثون فى فضيلة﴾

العمل وما أحسن العمل يزينه الرفق وما أضيف شيء الى شيء مثل حلم الى علم وقال عمرو بن العاص لابنه عبد الله ما الرفق قال أن تكون ذا أناة فتلاين الولاة قال فما الخرق قال معاداة امامك ومناواة من يقدر على ضررك وقال سفيان لاصحابه تدرون ما الرفق قالوا قل يا أبا محمد قال أن تضع الامور مواضعها الشدة في موضعها واللين في موضعه والسيف في موضعه والسوط في موضعه وهذه اشارة الى أنه لابد من مزج الغلظة باللين والفظاظة بالرفق كما قيل ووضع الندى في موضع السيف بالعلا * مضر كوضع السيف في موضع الندى فالمحمود وسط بين العنف واللين كما في سائر الاخلاق ولكن لما كانت الطباع الى العنف والحدة أميل كانت الحاجة الى ترغيبهم في جانب الرفق أكثر فلذلك كثر ثناء الشرع على جانب الرفق دون العنف وان كان العنف في محله حسنا كما أن الرفق في محله حسن فاذا كان الواجب هو العنف فقد وافق الحق الهوى وهو ألذ من الزبد بالشهد وهكذا قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله وروى أن عمرو بن العاص كتب الى معاوية يعاتبه في التأني فكتب اليه معاوية أما بعد فان التفهم في الخير زيادة رشد وان الرشيد من رشد عن العجلة وان الخائب من خاب عن الاناة وان المتثبت مصيب أو كاد أن يكون مصيبا وان العجل مخطئ أو كاد أن يكون مخطئا وان من لا ينفعه الرفق يضره الخرق ومن لا ينفعه التجارب لا يدرك المعالي وعن أبي عون الانصاري قال ما تكلم الناس بكلمة صعبة الا والى جانبها كلمة ألين منها تجري مجراها وقال أبو حمزة الكوفي لا تتخذ من الخدم الا ما لابد منه فان مع كل انسان شيطانا واعلم أنهم لا يعطونك بالشدة شيأ الا أعطوك باللين ما هو أفضل منه وقال الحسن المؤمن وقاف متأن وليس كحاطب ليل فهذا ثناء أهل العلم على الرفق وذلك لانه محمود ومفيد في أكثر الاحوال وأغلب الامور والحاجة الى العنف قد تقع ولكن على الندور وانما الكامل من يميز مواقع الرفق عن مواقع العنف فيعطي كل أمر حقه فان كان قاصر البصيرة أو أشكل عليه حكم واقعة من الوقائع فليكن ميله الى الرفق فان النجح معه في الاكثر

القول في ذم الحسد وفي حقيقته وأسبابه ومعالجته وغاية الواجب في ازالته

بيان ذم الحسد

اعلم أن الحسد أيضا من نتائج الحقد والحقد من نتائج الغضب فهو فرع فرعه والغضب أصل أصله ثم ان للحسد من الفروع الذميمة ما لا يكاد يحصى وقد ورد في ذم الحسد خاصة أخبار كثيرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب وقال صلى الله عليه وسلم في النهي عن الحسد وأسبابه وثمراته لا تحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله اخوانا وقال أنس كنا يوما جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة قال فطلع رجل من الانصار ينفض لحيته من وضوئه قد علق نعليه في يده الشمال فسلم فلما كان الغد قال صلى الله عليه وسلم مثل ذلك فطلع ذلك الرجل وقاله في اليوم الثالث فطلع ذلك الرجل فلما قام النبي صلى الله عليه وسلم تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص فقال له اني لاحيت أبي فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثا فان رأيت أن تؤويني اليك حتى تمضي الثلاث فعلت فقال نعم فبات عنده ثلاث ليال فلم يره يقوم من الليل شيأ غير أنه اذا انقلب على فراشه ذكر الله تعالى ولم يقم حتى يقوم لصلاة الفجر قال غير أني ما سمعته يقول الا خيرا فلما مضت الثلاث وكدت أن أحتقر عمله قلت يا عبد الله لم يكن بيني وبين والدي غضب ولا هجرة ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كذا وكذا فأردت أن أعرف عملك فلم أرك تعمل عملا كثيرا فما الذي بلغ بك ذلك فقال ما هو الا ما رأيت فلما وليت دعاني فقال ما هو الا ما رأيت غير أني لا أجد على أحد من المسلمين في نفسي غشا ولا حسدا على خير أعطاه الله اياه قال عبد الله فقلت له هي التي بلغت بك وهي التي لا نطيق وقال صلى الله عليه وسلم ثلاث لا ينجو منهن أحد الظن والطيرة والحسد وسأحدثكم بالمخرج من ذلك اذا ظننت فلا تحقق واذا تطيرت فامض واذا حسدت فلا تبغ وفي رواية ثلاثة لا ينجو منهن أحد وقل من ينجو منهن فأثبت في هذه الرواية امكان النجاة وقال صلى الله عليه وسلم دب اليكم داء الامم قبلكم الحسد والبغضاء والبغضة هي الحالقة لا أقول حالقة الشعر ولكن حالقة الدين والذي نفس محمد بيده لا تدخلون

الصلاة وكبر شأنها * (روى) عن عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خلق الله تعالى جنة عدن وخلق فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قال لها تكلمي فقالت قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون ثلاثا وشهد القرآن المجيد بالفلاح للمصلين وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاني جبرائيل لدلوك الشمس حين زالت وصلى بي الظهر واشتقاق الصلاة قيل من الصلي وهو النار والخشبة المعوجة اذا أرادوا تقويمها تعرض على النار ثم تقوم وفي العبد اعوجاج لوجود نفسه الامارة بالسوء وسبحات وجه الله الكريم التي لو كشف حجابها أحرقت من أدركته يصيب بها المصلي من وهج السطوة

الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا الا أنبئكم بما يثبت ذلك لكم أفشوا السلام بينكم وقال صلى الله عليه وسلم كاد الفقر أن يكون كفرا وكاد الحسد أن يغلب القدر وقال صلى الله عليه وسلم انه سيصيب أمتي داء الامم قالوا وما داء الامم قال الاشر والبطر والتكاثر والتنافس في الدنيا والتباعد والتحاسد حتى يكون البغي ثم الهرج وقال صلى الله عليه وسلم لا تظهر الشماتة لاخيك فيعافيه الله ويبتليك وروى أن موسى عليه السلام لما تعجل الى ربه تعالى رأى في ظل العرش رجلا فغبطه بمكانه فقال ان هذا لكريم على ربه فسأل ربه تعالى أن يخبره باسمه فلم يخبره وقال أحدثك من عمله بثلاث كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله وكان لا يعق والديه ولا يمشي بالنميمة وقال زكريا عليه السلام قال الله تعالى الحاسد عدو لنعمتي متسخط لقضائي غير راض بقسمتي التي قسمت بين عبادي وقال صلى الله عليه وسلم أخوف ما أخاف على أمتي أن يكثر فيهم المال فيتحاسدون ويقتتلون وقال صلى الله عليه وسلم استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان فان كل ذي نعمة محسود وقال صلى الله عليه وسلم ان لنعم الله أعداء فقيل ومن هم فقال الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله وقال صلى الله عليه وسلم ستة يدخلون النار قبل الحساب بسنة قيل يا رسول الله من هم قال الامراء بالجور والعرب بالعصبية والدهاقين بالتكبر والتجار بالخيانة وأهل الرستاق بالجهالة والعلماء بالحسد (الآثار) قال بعض السلف أول خطيئة كانت هي الحسد حسد ابليس آدم عليه السلام على رتبته فأبى أن يسجد له فحمله الحسد على المعصية وحكى أن عون بن عبد الله دخل على الفضل بن المهلب وكان يومئذ على واسط فقال اني أريد أن أعظك بشيء فقال وما هو قال اياك والكبر فانه أول ذنب عصى الله به ثم قرأ واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس الآية واياك والحرص فانه أخرج آدم من الجنة أمكنه الله سبحانه من جنة عرضها السموات والارض يأكل منها الا شجرة واحدة نهاه الله عنها فأكل منها فأخرجه الله تعالى منها ثم قرأ اهبطوا منها الى آخر الآية واياك والحسد فانما قتل ابن آدم أخاه حين حسده ثم قرأ واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق الآيات واذا ذكر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فامسك واذا ذكر القدر فاسكت واذا ذكرت النجوم فاسكت وقال بكر بن عبد الله كان رجل يغشى بعض الملوك فيقوم بحذاء الملك فيقول أحسن الى المحسن باحسانه فان المسيء سيكفيه اساءته فحسده رجل على ذلك المقام والكلام فسعى به الى الملك فقال ان هذا الذي يقوم بحذائك ويقول ما يقول زعم ان الملك أبخر فقال له الملك وكيف يصح ذلك عندي قال تدعوه اليك فانه اذا دنا منك وضع يده على أنفه لئلا يشم ريح البخر فقال له انصرف حتى أنظر فخرج من عند الملك فدعا الرجل الى منزله فأطعمه طعاما فيه ثوم فخرج الرجل من عنده وقام بحذاء الملك على عادته فقال أحسن الى المحسن باحسانه فان المسيء سيكفيه اساءته فقال له الملك ادن مني فدنا منه فوضع يده على فيه مخافة أن يشم الملك منه رائحة الثوم فقال الملك في نفسه ما أرى فلانا الا قد صدق قال وكان الملك لا يكتب بخطه الا بجائزة أو صلة فكتب له كتابا بخطه الى عامل من عماله اذا أتاك حامل كتابي هذا فاذبحه واسلخه واحش جلده تبنا وابعث به الى فأخذ الكتاب وخرج فلقيه الرجل الذي سعى به فقال ما هذا الكتاب قال خط الملك لي بصلة فقال هبه لي فقال هو لك فأخذه ومضى به الى العامل فقال العامل في كتابك أن أذبحك وأسلخك قال ان الكتاب ليس هو لي فالله الله في أمري حتى تراجع الملك فقال ليس لكتاب الملك مراجعة فذبحه وسلخه وحشا جلده تبنا وبعث به ثم عاد الرجل الى الملك كعادته وقال مثل قوله فعجب الملك وقال ما فعل الكتاب فقال لقيني فلان فاستوهبه مني فوهبته له قال الملك انه ذكر لي أنك تزعم اني أبخر قال ما قلت ذلك قال فلم وضعت يدك على فيك قال لانه أطعمني طعاما فيه ثوم فكرهت أن تشمه قال صدقت ارجع الى مكانك فقد كفاك المسيء اساءته وقال ابن سيرين رحمه الله ما حسدت أحدا على شيء من أمر الدنيا لانه ان كان من أهل الجنة فكيف أحسده على الدنيا وهي حقيرة في الجنة وان كان من أهل النار فكيف أحسده على أمر الدنيا وهو يصير الى النار وقال رجل للحسن هل يحسد المؤمن قال ما أنساك بني يعقوب نعم ولكن غمه في صدرك فانه لا يضرك ما لم تعد به يدا ولا لسانا وقال أبو الدرداء ما أكثر عبد ذكر الموت الا قل فرحه وقل حسده وقال معاوية كل الناس أقدر على رضاه الا حاسد نعمة فانه لا يرضيه الا زوالها ولذلك قيل

الالهيـة والعظمة الربانية ما يزول به اعوجاجه بل يتحقق به ممر اجه فالمصطلي كالمصطلي بالنار ومن اصطلى بنار الصلاة وزال بها اعوجاجه لا يعرض على نار جهنم الا تحلة القسم (أخبرنا) الشيخ العالم رضي الدين أحمد بن اسمعيل القزويني اجازة قال أنا أبو سعيد محمد بن أبي العباس بن محمد بن أبي العباس الخليلي قال أنا أبو سعيد الفرخزاذي قال أنا أبو اسحق أحمد ابن محمد قال أنا أبو القاسم الحسن بن محمد ابن الحسن قال أنا أبو زكريا يحيى بن محمد العنبري قال حدثنا جعفر بن أحمد بن الحافظ قال أنا أحمد بن نصير قال ثنا آدم بن أبي اياس عن ابن سمعان عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يقول الله

كل العداوة قد ترجى اماتتها * الا عداوة من عاداك من حسد

وقال بعض الحكماء الحسد جرح لا يبرأ وحسب الحسود ما يلقى وقال أعرابي ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من حاسد أنه يرى النعمة عليك نقمة عليه وقال الحسن يا ابن آدم لم تحسد أخاك فان كان الذي أعطاه الله لكرامته عليه فلم تحسد من أكرمه الله وان كان غير ذلك فلم تحسد من مصيره الى النار وقال بعضهم الحاسد لا ينال من المجالس الا مذمة وذلا ولا ينال من الملائكة الا لعنة وبغضا ولا ينال من الخلق الا جزعا وغما ولا ينال عند النزع الا شدة وهولا ولا ينال عند الموقف الا فضيحة ونكالا

﴿ بيان حقيقة الحسد وحكمه وأقسامه ومراتبه ﴾

اعلم أنه لا حسد الا على نعمة فاذا أنعم الله على أخيك بنعمة فلك فيها حالتان احداهما أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها وهذه الحالة تسمى حسدا فالحسد حده كراهة النعمة وحب زوالها عن المنعم عليه * الحالة الثانية أن لا تحب زوالها ولا تكره وجودها ودوامها ولكن تشتهي لنفسك مثلها وهذه تسمى غبطة وقد تختص باسم المنافسة وقد تسمى المنافسة حسدا والحسد منافسة ويوضع أحد اللفظين موضع الآخر ولا حجر في الاسامي بعد فهم المعاني وقد قال صلى الله عليه وسلم ان المؤمن يغبط والمنافق يحسد فأما الاول فهو حرام بكل حال الا نعمة أصابها فاجر أو كافر وهو يستعين بها على تهييج الفتنة وافساد ذات البين وايذاء الخلق فلا يضرك كراهتك لها ومحبتك لزوالها فانك لا تحب زوالها من حيث هي نعمة بل من حيث هي آلة الفساد ولو أمنت فساده لم يغمك بنعمته ويدل على تحريم الحسد الاخبار التي نقلناها وأن هذه الكراهة تسخط لقضاء الله في تفضيل بعض عباده على بعض وذلك لا عذر فيه ولا رخصة وأي معصية تزيد على كراهتك لراحة مسلم من غير أن يكون لك منه مضرة والى هذا أشار القرآن بقوله ان تمسسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها وهذا الفرح شماتة والحسد والشماتة يتلازمان وقال تعالى ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم فاخبر تعالى أن حبهم زوال نعمة الايمان حسد وقال عز وجل ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء وذكر الله تعالى حسد اخوة يوسف عليه السلام وعبر عما في قلوبهم بقوله تعالى اذ قالوا ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا ونحن عصبة ان أبانا لفي ضلال مبين اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم فلما كرهوا حب أبيهم له ساءهم ذلك وأحبوا زواله عنه فغيبوه عنه وقال تعالى ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا أي لا تضيق صدورهم به ولا يغتمون فأثنى عليهم بعدم الحسد وقال تعالى في معرض الانكار أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله وقال تعالى كان الناس أمة واحدة الى قوله الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم قيل في التفسير حسدا وقال تعالى وما تفرقوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم فأنزل الله العلم ليجمعهم ويؤلف بينهم على طاعته وأمرهم أن يتألفوا بالعلم فتحاسدوا واختلفوا اذ أراد كل واحد منهم أن ينفرد بالرياسة وقبول القول فرد بعضهم على بعض قال ابن عباس كانت اليهود قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم اذا قاتلوا قوما قالوا نسألك بالنبي الذي وعدتنا أن ترسله وبالكتاب الذي تنزله الا نصرتنا فكانوا ينصرون فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم من ولد اسمعيل عليه السلام عرفوه وكفروا به بعد معرفتهم اياه فقال تعالى وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به الى قوله أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أي حسدا وقالت صفية بنت حيي للنبي صلى الله عليه وسلم جاء أبي وعمي من عندك يوما فقال أبي لعمي ما تقول فيه قال أقول انه النبي الذي بشر به موسى قال فما ترى قال أرى معاداته أيام الحياة فهذا حكم الحسد في التحريم * وأما المنافسة فليست بحرام بل هي اما واجبة واما مندوبة واما مباحة وقد يستعمل لفظ الحسد بدل المنافسة والمنافسة بدل الحسد قال قثم بن العباس لما أراد هو والفضل أن يأتيا النبي صلى الله عليه وسلم فيسألاه أن يؤمرهما على الصدقة قالا لعلي حين قال لهما لا تذهبا اليه فانه لا يؤمركما عليها فقالا له ما هذا منك الا نفاسة والله لقد زوجك ابنته فما نفسنا ذلك عليك أي هذا منك حسد وما حسدناك على تزويجه اياك فاطمة والمنافسة في اللغة مشتقة من النفاسة والذي يدل على اباحة المنافسة قوله تعالى وفي ذلك فليتنافس المتنافسون وقال تعالى سابقوا الى مغفرة من ربكم وانما المسابقة عند

عز وجل قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فاذا قال العبد بسم الله الرحمن الرحيم قال الله عز وجل مجدني عبدي فاذا قال الحمد لله رب العالمين قال الله تعالى حمدني عبدي فاذا قال الرحمن الرحيم قال الله تعالى أثنى على عبدي فاذا قال مالك يوم الدين قال فوض الى عبدي فاذا قال اياك نعبد واياك نستعين قال هذا بيني وبين عبدي فاذا قال اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال الله تعالى هذا العبدي ولعبدي ما سأل فالصلاة صلة بين الرب والعبد وما كان صلة بينه وبين الله فحق العبد أن يكون خاشعا لصولة الربوبية على العبودية وقد ورد أن الله تعالى اذا تجلى لشئ خضع له ومن يتحقق بالصلاة في الصلاة تلمع له طوالع التجلي فيخشع والفلاح للذين هم في

خوف الفوت وهو كالعبدين يتسابقان الى خدمة مولاهما اذ يجزع كل واحد أن يسبقه صاحبه فيحظى عند مولاه بمنزلة لا يحظى هو بها فكيف وقد صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال لا حسد الا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق ورجل آتاه الله علما فهو يعمل به ويعلمه الناس ثم فسر ذلك في حديث أبي كبشة الانماري فقال مثل هذه الامة مثل أربعة رجل آتاه الله مالا وعلما فهو يعمل بعلمه في ماله ورجل آتاه الله علما ولم يؤته مالا فيقول رب لو أن لي مالا مثل مال فلان لكنت أعمل فيه بمثل عمله فهما في الاجر سواء وهذا منه حب لان يكون له مثل ماله فيعمل مثل ما يعمل من غير حب زوال النعمة عنه قال ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما فهو ينفقه في معاصي الله ورجل لم يؤته علما ولم يؤته مالا فيقول لو أن لي مثل مال فلان لكنت أنفقه في مثل ما أنفقه فيه من المعاصي فهما في الوزر سواء فذمه رسول الله صلى الله عليه وسلم من جهة تمنيه للمعصية لا من جهة حبه أن يكون له من النعمة مثل ماله فاذا لا حرج على من يغبط غيره في نعمة ويشتهي لنفسه مثلها مهما لم يحب زوالها عنه ولم يكره دوامها له نعم ان كانت تلك النعمة نعمة دينية واجبة كالايمان والصلاة والزكاة فهذه المنافسة واجبة وهو أن يحب أن يكون مثله لانه اذا لم يكن يحب ذلك فيكون راضيا بالمعصية وذلك حرام وان كانت النعمة من الفضائل كانفاق الاموال في المكارم والصدقات فالمنافسة فيها مندوب اليها وان كانت نعمة يتنعم بها على وجه مباح فالمنافسة فيها مباحة وكل ذلك يرجع الى ارادة مساواته واللحوق به في النعمة وليس فيها كراهة النعمة وكان تحت هذه النعمة أمرين أحدهما راحة المنعم عليه والآخر ظهور نقصان غيره وتخلفه عنه وهو يكره أحد الوجهين وهو تخلف نفسه ويحب مساواته له ولا حرج على من يكره تخلف نفسه ونقصانها في المباحات نعم ذلك ينقص من الفضائل ويناقض الزهد والتوكل والرضا ويحجب عن المقامات الرفيعة ولكنه لا يوجب العصيان وههنا دقيقة غامضة وهو أنه اذا أيس من أن ينال مثل تلك النعمة وهو يكره تخلفه ونقصانه بلا محالة يحب زوال النقصان وانما يزول نقصانه اما بان ينال مثل ذلك أو بأن تزول نعمة المحسود فاذا انسد أحد الطريقين فيكاد القلب لا ينفك عن شهوة الطريق الآخر حتى اذا زالت النعمة عن المحسود كان ذلك أشهى عنده من دوامها اذ بزوالها يزول تخلفه وتقدم غيره وهذا يكاد لا ينفك القلب عنه فان كان بحيث لو ألقي الامر اليه ورد الى اختياره لسعى في ازالة النعمة عنه فهو حسود حسدا مذموما وان كان تدعه التقوى عن ازالة ذلك فيعفى عما يجده في طبعه من الارتياح الى زوال النعمة عن محسوده مهما كان كارها لذلك من نفسه بعقله ودينه ولعله المعنى بقوله صلى الله عليه وسلم ثلاث لا ينفك المؤمن عنهن الحسد والظن والطيرة ثم قال وله منهن مخرج اذا حسدت فلا تبغ أي ان وجدت في قلبك شيأ فلا تعمل به وبعيد أن يكون الانسان مريدا اللحاق بأخيه في النعمة فيعجز عنها ثم ينفك عن ميل الى زوال النعمة اذ يجد لا محالة ترجيحا له على دوامها فهذا الحد من المنافسة يزاحم الحسد الحرام فينبغي أن يحتاط فيه فانه موضع الخطر ومامن انسان الا وهو يرى فوق نفسه جماعة من معارفه وأقرانه يحب مساواتهم ويكاد ينجر ذلك الى الحسد المحظور ان لم يكن قوي الايمان رزين التقوى ومهما كان محركه خوف التفاوت وظهور نقصانه عن غيره جره ذلك الى الحسد المذموم والى ميل الطبع الى زوال النعمة عن أخيه حتى ينزل هو الى مساواته اذ لم يقدر هو أن يرتقي الى مساواته بادراك النعمة وذلك لا رخصة فيه أصلا بل هو حرام سواء كان في مقاصد الدين أو مقاصد الدنيا ولكن يعفى عنه في ذلك ما لم يعمل به ان شاء الله تعالى وتكون كراهته لذلك من نفسه كفارة له فهذه حقيقة الحسد وأحكامه * وأما مراتبه فأربع (الاولى) أن يحب زوال النعمة عنه وان كان ذلك لا ينتقل اليه وهذا غاية الخبث (الثانية) أن يحب زوال النعمة اليه لرغبته في تلك النعمة مثل رغبته في دار حسنة أو امرأة جميلة أو ولاية نافذة أو سعة نالها غيره وهو يحب أن تكون له ومطلوبه تلك النعمة لا زوالها عنه ومكروهه فقد النعمة لا تنعم غيره بها (الثالثة) أن لا يشتهي عينها لنفسه بل يشتهي مثلها فان عجز عن مثلها أحب زوالها كي لا يظهر التفاوت بينهما (الرابعة) أن يشتهي لنفسه مثلها فان لم يحصل فلا يحب زوالها عنه وهذا الاخير هو المعفو عنه ان كان في الدنيا والمندوب اليه ان كان في الدين والثالثة فيها مذموم وغير مذموم والثانية أخف من الثالثة والاولى مذموم محض وتسمية الرتبة الثالثة حسدا فيه تجوز وتوسع

صلاتهم خاشعون وبانتفاء الخشوع ينتفي الفلاح وقال الله تعالى وأقم الصلاة لذكري واذا كانت الصلاة للذكر كيف يقع فيها النسيان قال الله تعالى لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون فمن قال ولا يعلم ما يقول كيف يصلي وقد نهاه الله عن ذلك فالسكران يقول الشيء لا بحضور عقل والغافل لا يصلي بحضور عقل فهو كالسكران وقيل في غرائب التفسير في قوله تعالى فاخلع نعليك انك بالوادي المقدس طوى قيل نعليك همك بامرأتك وغنمك فالاهتمام بغير الله تعالى سكر في الصلاة وقيل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفعون أبصارهم الى السماء في الصلاة وينظرون يمينا وشمالا فلما نزلت الذين هم في صلاتهم خاشعون جعلوا وجوههم حيث يسجدون وما رؤي بعد ذلك أحد منهم

ولكنه مذموم لقوله تعالى ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض فتمنيه لمثل ذلك غير مذموم وأما تمنيه عين ذلك فهو مذموم

﴿ بيان أسباب الحسد والمنافسة ﴾

أما المنافسة فسببها حب ما فيه المنافسة فان كان ذلك أمرا دينيا فسببه حب الله تعالى وحب طاعته وان كان دنيويا فسببه حب مباحات الدنيا والتنعم فيها وانما نظرنا الآن في الحسد المذموم ومداخله كثيرة جدا ولكن يحصر جملتها سبعة أبواب العداوة والتعزز والكبر والتعجب والخوف من فوت المقاصد المحبوبة وحب الرياسة وخبث النفس وبخلها فانه انما يكره النعمة على غيره اما لانه عدوه فلا يريد له الخير وهذا لا يختص بالامثال بل يحسد الخسيس الملك بمعنى أنه يحب زوال نعمته لكونه مبغضا له بسبب اساءته اليه أو الى من يحبه وأما أن يكون من حيث يعلم انه يستكبر بالنعمة عليه وهو لا يطيق احتمال كبره وتفاخره لعزة نفسه وهو المراد بالتعزز واما أن يكون في طبعه أن يتكبر على المحسود ويمتنع ذلك عليه لنعمته وهو المراد بالتكبر واما أن تكون النعمة عظيمة والمنصب عظيما فيتعجب من فوز مثله بمثل تلك النعمة وهو المراد بالتعجب واما أن يخاف من فوات مقاصده بسبب نعمته بأن يتوصل بها الى مزاحمته في أغراضه واما أن يكون يحب الرياسة التي تنبني على الاختصاص بنعمة لا يساوى فيها واما أن لا يكون بسبب من هذه الاسباب بل لخبث النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى ولا بد من شرح هذه الاسباب (السبب الاول) العداوة والبغضاء وهذا أشد أسباب الحسد فان من آذاه شخص بسبب من الاسباب وخالفه في غرض بوجه من الوجوه أبغضه قلبه وغضب عليه ورسخ في نفسه الحقد والحقد يقتضي التشفي والانتقام فان عجز المبغض عن أن يتشفى بنفسه أحب أن يتشفى منه الزمان وربما يحيل ذلك على كرامة نفسه عند الله تعالى فهما أصابت عدوه بلية فرح بها وظنها مكافأة له من جهة الله على بغضه وانها لاجله ومهما أصابته نعمة ساءه ذلك لانه ضد مراده وربما يخطر له انه لا منزلة له عند الله حيث لم ينتقم له من عدوه الذي آذاه بل أنعم عليه وبالجملة فالحسد يلزم البغض والعداوة ولا يفارقهما وانما غاية التقي أن لا يبغي وأن يكره ذلك من نفسه فاما أن يبغض انسانا ثم يستوي عنده مسرته ومساءته فهذا غير ممكن وهذا مما وصف الله تعالى الكفار به أعني الحسد بالعداوة اذ قال تعالى واذا لقوكم قالوا آمنا واذا خلوا عضوا عليكم الانامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم ان الله عليم بذات الصدور ان تمسسكم حسنة تسؤهم الآية وكذلك قال تعالى ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر والحسد بسبب البغض ربما يفضي الى التنازع والتقاتل واستغراق العمر في ازالة النعمة بالحيل والسعاية وهتك الستر وما يجري مجراه (السبب الثاني) التعزز وهو أن يثقل عليه أن يترفع عليه غيره فاذا أصاب بعض أمثاله ولاية أو علما أو مالا خاف أن يتكبر عليه وهو لا يطيق تكبره ولا تسمح نفسه باحتمال صلفه وتفاخره عليه وليس من غرضه أن يتكبر بل غرضه أن يدفع كبره فانه قد رضي بمساواته مثلا ولكن لا يرضى بالترفع عليه (السبب الثالث) الكبر وهو أن يكون في طبعه أن يتكبر عليه ويستصغره ويستخدمه ويتوقع منه الانقياد له والمتابعة في أغراضه فاذا نال نعمة خاف أن لا يحتمل تكبره ويترفع عن متابعته أو ربما يتشوف الى مساواته أو الى أن يرتفع عليه فيعود متكبرا بعد أن كان متكبرا عليه ومن التكبر والتعزز كان حسد أكثر الكفار لرسول الله صلى الله عليه وسلم اذ قالوا كيف يتقدم علينا غلام يتيم وكيف نطأطئ رؤسنا فقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم أي كان لا يثقل علينا أن نتواضع له ونتبعه اذا كان عظيما وقال تعالى يصف قول قريش أهؤلاء من الله عليهم من بيننا كالاستحقار لهم والانفة منهم (السبب الرابع) التعجب كما أخبر الله تعالى عن الامم السالفة اذ قالوا ما أنتم الا بشر مثلنا وقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا ولئن أطعتم بشرا مثلكم انكم اذا لخاسرون فتعجبوا من أن يفوز برتبة الرسالة والوحي والقرب من الله تعالى بشر مثلهم فحسدوهم وأحبوا زوال النبوة عنهم جزعا أن يفضل عليهم من هو مثلهم في الخلقة لا عن قصد تكبر وطلب رياسة وتقدم عداوة أو سبب آخر من سائر الاسباب وقالوا متعجبين أبعث الله بشرا رسولا وقالوا لولا أنزل علينا الملائكة وقال تعالى أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم الآية (السبب الخامس) الخوف من فوت المقاصد وذلك يختص بمتزاحمين على مقصود واحد فان كل واحد يحسد صاحبه في كل نعمة تكون عونا له في الانفراد بمقصوده ومن هذا

ينظر الا الى الارض وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان العبد اذا قام الى الصلاة فانه بين يدي الرحمن فاذا التفت قال له الرب الى من تلتفت الى من هو خير لك مني ابن آدم أقبل الي فأنا خير لك ممن تلتفت اليه وأبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يعبث بلحيته في الصلاة فقال لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا صليت فصل صلاة مودع فالمصلي سائر الى الله تعالى بقلبه يودع هواه ودنياه وكل شئ سواه والصلاة في اللغة هي الدعاء فكان المصلي يدعو الله تعالى بجميع جوارحه فصارت أعضاؤه كلها ألسنة يدعو بها ظاهرا وباطنا ويشارك الظاهر الباطن بالتضرع والتقلب في الهيآت تملقات متضرع سائل

الجنس تحاسد الضرات فى التزاحم على مقاصد الزوجية وتحاسد الاخوة فى التزاحم على نيل المنزلة فى قلب الابوين للتوصل به الى مقاصد الكرامة والمال وكذلك تحاسد التلميذين لاستاذ واحد على نيل المرتبة من قلب الاستاذ وتحاسد ندماء الملك وخواصه فى نيل المنزلة من قلبه للتوصل به الى المال والجاه وكذلك تحاسد الواعظين المتزاحمين على أهل بلدة واحدة اذا كان غرضهما نيل المال بالقبول عندهم وكذلك تحاسد العالمين المتزاحمين على طائفة من المتفقهة محصورين اذ يطلب كل واحد منزلة فى قلوبهم للتوصل بهم الى أغراض له (السبب السادس) حب الرياسة وطلب الجاه بنفسه من غير توصل به الى مقصود وذلك كالرجل الذى يريد أن يكون عديم النظير فى فن من الفنون اذا غلب عليه حب الثناء واستفزه الفرح بما يمدح به من أنه واحد الدهر وفريد العصر فى فنه وأنه لا نظير له فانه لو سمع بنظير له فى أقصى العالم ساءه ذلك وأحب موته أو زوال النعمة عنه التى بها يشاركه فى المنزلة من شجاعة أو علم أو عبادة أو صناعة أو جمال أو ثروة أو غير ذلك مما يتفرد هو به و يفرح بسبب تفرده وليس السبب فى هذا عداوة ولا تعززا ولا تكبرا على المحسود ولا خوفا من فوات مقصود سوى محض الرياسة بدعوى الانفراد وهذا وراء ما بين آحاد العلماء من طلب الجاه والمنزلة فى قلوب الناس للتوصل الى مقاصد سوى الرياسة وقد كان علماء اليهود ينكرون معرفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يؤمنون به خيفة من أن تبطل رياستهم واستتباعهم مهما نسخ علمهم (السبب السابع) خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى فانك تجد من لا يشتغل برياسة وتكبر ولا طلب مال اذا وصف عنده حسن حال عبد من عباد الله تعالى فيما أنعم الله به عليه يشق ذلك عليه واذا وصف له اضطراب أمور الناس وادبارهم وفوات مقاصدهم وتنغص عيشهم فرح به فهو أبدا يحب الادبار لغيره و يبخل بنعمة الله على عباده كأنهم يأخذون ذلك من ملكه وخزائنه و يقال البخيل من يبخل بمال نفسه والشحيح هو الذى يبخل بمال غيره فهذا يبخل بنعمة الله تعالى على عباده الذين ليس بينه و بينهم عداوة ولا رابطة وهذا ليس له سبب ظاهر الا الخبث فى النفس ورذالة فى الطبع عليه وقعت الجبلة ومعالجته شديدة لان الحسد الثابت بسائر الاسباب أسبابه عارضة يتصور زوالها فيطمع فى ازالتها وهذا خبث فى الجبلة لا عن سبب عارض فتعسر ازالته اذ يستحيل فى العادة ازالته فهذه هى أسباب الحسد وقد يجتمع بعض هذه الاسباب أو أكثرها أو جميعها فى شخص واحد فيعظم فيه الحسد بذلك و يقوى قوة لا يقدر معها على الاخفاء والمجاملة بل ينهتك حجاب المجاملة وتظهر العداوة بالمكاشفة وأكثر المحاسدات تجتمع فيها جملة من هذه الاسباب وقلما يتجرد سبب واحد منها

﴿بيان السبب فى كثرة الحسد بين الامثال والاقران والاخوة و بنى العم والاقارب وتأكده وقلته فى غيرهم وضعفه﴾

اعلم أن الحسد انما يكثر بين قوم تكثر بينهم الاسباب التى ذكرناها وانما يقوى بين قوم تجتمع جملة من هذه الاسباب فيهم وتتظاهر اذ الشخص الواحد يجوز أن يحسد لانه قد يمتنع عن قبول التكبر ولانه يتكبر ولانه عدو ولغير ذلك من الاسباب وهذه الاسباب انما تكثر بين أقوام تجمعهم روابط يجتمعون بسببها فى مجالس المخاطبات و يتواردون على الاغراض فاذا خالف واحد منهم صاحبه فى غرض من الاغراض نفر طبعه عنه وأبغضه وثبت الحقد فى قلبه فعند ذلك يريد أن يستحقره و يتكبر عليه و يكافئه على مخالفته لغرضه و يكره تمكنه من النعمة التى توصله الى أغراضه وتترادف جملة من هذه الاسباب اذ لا رابطة بين شخصين فى بلدتين متنائيتين فلا يكون بينهما محاسدة وكذلك فى محلتين نعم اذا تجاورا فى مسكن أو سوق أو مدرسة أو مسجد تواردا على مقاصد تتناقض فيها أغراضهما فيثور من التناقض التنافر والتباغض ومنه تثور بقية أسباب الحسد ولذلك ترى العالم يحسد العالم دون العابد والعابد يحسد العابد دون العالم والتاجر يحسد التاجر بل الاسكاف يحسد الاسكاف ولا يحسد البزاز الا بسبب آخر سوى الاجتماع فى الحرفة و يحسد الرجل أخاه وابن عمه أكثر مما يحسد الاجانب والمرأة تحسد ضرتها وسرية زوجها أكثر مما تحسد أم الزوج وابنته لان مقصد البزاز غير مقصد الاسكاف فلا يتزاحمون على المقاصد اذ مقصد البزاز الثروة ولا يحصلها الا بكثرة الزبون وانما ينازعه فيه بزاز آخر اذ حريف البزاز لا يطلبه الاسكاف بل البزاز ثم مزاحمة البزاز المجاور له أكثر من مزاحمة البعيد عنه الى طرف السوق فلا جرم يكون حسده

محتاج فاذا دعا بكليته أجابه مولاه لانه وعده فقال ادعونى أستجب لكم كان خالد الربعى يقول عجبت لهذه الآية ادعونى أستجب لكم أمرهم بالدعاء ووعدهم بالاجابة ليس بينهما شرط والاستجابة والاجابة هى نفوذ دعاء العبد فان الداعى الصادق العالم بمن يدعوه بنور يقينه فتخرق الحجب وتقف الدعوة بين يدى الله تعالى متقاضية للحاجة وخص الله تعالى هذه الامة بانزال فاتحة الكتاب وفيها تقديم الثناء على الدعاء ليكون أسرع الى الاجابة وهى تعليم الله تعالى عباده كيفية الدعاء وفاتحة الكتاب هى السبع المثانى والقرآن العظيم قيل سميت مثانى لانها نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين مرة بمكة ومرة بالمدينة وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم بكل مرة

للجار أكثر وكذلك الشجاع يحسد الشجاع ولا يحسد العالم لان مقصده أن يذكر بالشجاعة ويشتهر بها وينفرد بهذه الخصلة ولا يزاحمه العالم على هذا الغرض وكذلك يحسد العالم العالم ولا يحسد الشجاع ثم حسد الواعظ للواعظ أكثر من حسده للفقيه والطبيب لان التزاحم بينهما على مقصود واحد أخص فاصل هذه المحاسدات العداوة وأصل العداوة التزاحم بينهما على غرض واحد والغرض الواحد لا يجمع متباعدين بل متناسبين فلذلك يكثر الحسد بينهم ما نعم من اشتد حرصه على الجاه وأحب الصيت في جميع أطراف العالم بما هو فيه فانه يحسد كل من هو في العالم وان بعد ممن يساهمه في الخصلة التي يتفاخر بها ومنشأ جميع ذلك حب الدنيا فان الدنيا هي التي تضيق على المتزاحمين أما الآخرة فلا ضيق فيها وانما مثال الآخرة نعمة العلم فلا جرم من يحب معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وملائكته وأنبيائه وملكوت سمواته وأرضه لم يحسد غيره اذا عرف ذلك أيضا لان المعرفة لا تضيق على العارفين بل المعلوم الواحد يعلمه ألف ألف عالم ويفرح بمعرفته ويلتذ به ولا تنقص لذة واحد بسبب غيره بل يحصل بكثرة العارفين زيادة الانس وثمرة الافادة والاستفادة فلذلك لا يكون بين علماء الدين محاسدة لان مقصدهم معرفة الله تعالى وهي بحر واسع لا ضيق فيه وغرضهم المنزلة عند الله تعالى ولا ضيق أيضا فيما عند الله تعالى لان أجل ما عند الله سبحانه من النعيم لذة لقائه وليس فيها ممانعة ومزاحمة ولا يضيق بعض الناظرين على بعض بل يزيد الانس بكثرتهم نعم اذا قصد العلماء بالعلم المال والجاه تحاسدوا لان المال أعيان وأجسام اذا وقعت في يد واحد خلت عنها يد الآخر ومعنى الجاه ملك القلوب ومهما امتلا قلب شخص بتعظيم عالم انصرف عن تعظيم الآخر أو نقص عنه لا محالة فيكون ذلك سببا للمحاسدة واذا امتلا قلب بالفرح بمعرفة الله تعالى لم يمنع ذلك أن يمتلئ قلب غيره بها وان يفرح بذلك والفرق بين العلم والمال أن المال لا يحل في يد ما لم يرتحل عن اليد الاخرى والعلم في قلب العالم مستقر ويحل في قلب غيره بتعليمه من غير أن يرتحل من قلبه والمال أجسام وأعيان ولها نهاية فلو ملك الانسان جميع ما في الارض لم يبق بعده مال يتملكه غيره والعلم لا نهاية له ولا يتصور استيعابه فمن عود نفسه الفكر في جلال الله وعظمته وملكوت أرضه وسمائه صار ذلك ألذ عنده من كل نعيم ولم يكن ممنوعا منه ولا مزاحما فيه فلا يكون في قلبه حسد لاحد من الخلق لان غيره أيضا لو عرف مثل معرفته لم ينقص من لذته بل زادت لذته بمؤانسته فتكون لذة هؤلاء في مطالعة عجائب الملكوت على الدوام أعظم من لذة من ينظر الى أشجار الجنة وبساتينها بالعين الظاهرة فان نعيم العارف وجنته معرفته التي هي صفة ذاته يأمن زوالها وهو أبدا يجنى ثمارها فهو بروحه وقلبه مغتذ بفاكهة علمه وهي فاكهة غير مقطوعة ولا ممنوعة بل قطوفها دانية فهو وان غمض العين الظاهرة فروحه أبدا ترتع في جنة عالية ورياض زاهرة فان فرض كثرة في العارفين لم يكونوا متحاسدين بل كانوا كما قال فيهم رب العالمين ونزعنا ما في صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين فهذا حالهم وهم بعد في الدنيا فماذا يظن بهم عند انكشاف الغطاء ومشاهدة المحبوب في العقبى فاذا لا يتصور أن يكون في الجنة محاسدة ولا أن يكون بين أهل الجنة في الدنيا محاسدة لان الجنة لا مضايقة فيها ولا مزاحمة ولا تنال الا بمعرفة الله تعالى التي لا مزاحمة فيها في الدنيا أيضا فاهل الجنة بالضرورة برآء من الحسد في الدنيا والآخرة جميعا بل الحسد من صفات المبعدين عن سعة عليين الى مضيق سجين ولذلك وسم به الشيطان اللعين وذكر من صفاته أنه حسد آدم عليه السلام على ما خص به من الاجتباء ولما دعى الى السجود استكبر وأبى وتمرد وعصى فقد عرفت أنه لا حسد الا للتوارد على مقصود يضيق عن الوفاء بالكل ولهذا لا ترى الناس يتحاسدون على النظر الى زينة السماء ويتحاسدون على رؤية البساتين التي هي جزء يسير من جملة الارض وكل الارض لا وزن لها بالاضافة الى السماء ولكن السماء لسعة الاقطار وافية بجميع الابصار فلم يكن فيها تزاحم ولا تحاسد أصلا فعليك ان كنت بصيرا وعلى نفسك مشفقا أن تطلب نعمة لا زحمة فيها ولذة لا كدر لها ولا يوجد ذلك في الدنيا الا في معرفة الله عز وجل ومعرفة صفاته وأفعاله وعجائب ملكوت السموات والارض ولا ينال ذلك في الآخرة الا بهذه المعرفة أيضا فان كنت لا تشتاق الى معرفة الله تعالى ولم تجد لذتها وفتر عنك رأيك وضعفت فيها رغبتك فانت في ذلك معذور اذ العنين لا يشتاق الى لذة الوقاع والصبي لا يشتاق الى لذة الملك فان هذه لذات يختص بادراكها الرجال

زلت منها فهم آخر بل كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم بكل مرة يقرؤها على الترداد مع طول الزمان فهم آخر وهكذا المصلون المحققون من أمته ينكشف لهم عجائب أسرارها وتقذف لهم كل مرة درر بحارها وقيل سميت مثاني لانها استثنيت من الرسل وهى سبع آيات * وروت أم رومان قالت رآنى أبو بكر وأنا أتميل فى الصلاة فزجرني زجرا كدت أن أنصرف عن صلاتى ثم قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا قام أحدكم الى الصلاة فليسكن أطرافه لا يتميل تميل اليهود فان سكون الاطراف من تمام الصلاة وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعوذوا بالله من خشوع النفاق قيل وما خشوع النفاق قال خشوع البدن ونفاق القلب

دون الصبيان والمخنثين فكذلك لذة المعرفة يختص بادراكها الرجال رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ولا يشتاق الى هذه اللذة غيرهم لان الشوق بعد الذوق ومن لم يذق لم يعرف ومن لم يعرف لم يشتق ومن لم يشتق لم يطلب ومن لم يطلب لم يدرك ومن لم يدرك بقي مع المحرومين في أسفل السافلين ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين

﴿بيان الدواء الذي ينفي مرض الحسد عن القلب﴾

اعلم أن الحسد من الامراض العظيمة للقلوب ولا تداوى أمراض القلوب الا بالعلم والعمل والعلم النافع لمرض الحسد هو أن تعرف تحقيقا أن الحسد ضرر عليك في الدنيا والدين وانه لاضرر فيه على المحسود في الدنيا والدين بل ينتفع به فيهما ومهما عرفت هذا عن بصيرة ولم تكن عدو نفسك وصديق عدوك فارقت الحسد لامحالة أما كونه ضررا عليك في الدين فهو أنك بالحسد سخطت قضاء الله تعالى وكرهت نعمته التي قسمها بين عباده وعدله الذي أقامه في ملكه بخفي حكمته فاستنكرت ذلك واستبشعته وهذه جناية على حدقة التوحيد وقذى في عين الايمان وناهيك بهما جناية على الدين وقد انضاف الى ذلك انك غششت رجلا من المؤمنين وتركت نصيحته وفارقت أولياء الله وأنبياءه في حبهم الخير لعباده تعالى وشاركت ابليس وسائر الكفار في محبتهم للمؤمنين البلايا وزوال النعم وهذه خبائث في القلب تأكل حسنات القلب كما تاكل النار الحطب وتمحوها كما يمحو الليل النهار وأما كونه ضررا عليك في الدنيا فهو انك تتألم بحسدك في الدنيا أو تتعذب به ولا تزال في كمد وغم اذ أعداؤك لا يخليهم الله تعالى عن نعم يفيضها عليهم فلا تزال تتعذب بكل نعمة تراها وتتألم بكل بلية تنصرف عنهم فتبقى مغموما محروما متشعب القلب ضيق الصدر قد نزل بك ما يشتهيه الاعداء لك وتشتهيه لاعدائك فقد كنت تريد المحنة لعدوك فتنجزت في الحال محنتك وغمك نقدا ومع هذا فلا تزول النعمة عن المحسود بحسدك ولو لم تكن تؤمن بالبعث والحساب لكان مقتضى الفطنة ان كنت عاقلا أن تحذر من الحسد لما فيه من ألم القلب ومساءته مع عدم النفع فكيف وأنت عالم بما في الحسد من العذاب الشديد في الآخرة فما أعجب من العاقل كيف يتعرض لسخط الله تعالى من غير نفع يناله بل مع ضرر يحتمله وألم يقاسيه فيهلك دينه ودنياه من غير جدوى ولا فائدة وأما انه لاضرر على المحسود في دينه ودنياه فواضح لان النعمة لاتزول عنه بحسدك بل ماقدره الله تعالى من اقبال ونعمة فلابد أن يدوم الى أجل معلوم قدره الله سبحانه فلا حيلة في دفعه بل كل شيء عنده بمقدار ولكل أجل كتاب ولذلك شكا نبي من الانبياء من امرأة ظالمة مستولية على الخلق فاوحى الله اليه فر من قدامها حتى تنقضي أيامها أي ماقدرناه في الازل لاسبيل الى تغييره فاصبر حتى تنقضي المدة الى سبق القضاء بدوام اقبالها فيها ومهما لم تزل النعمة بالحسد لم يكن على المحسود ضرر في الدنيا ولا يكون عليه اثم في الآخرة ولعلك تقول ليت النعمة كانت تزول عن المحسود بحسدي وهذا غاية الجهل فانه بلاء تشتهيه أولا لنفسك فانك أيضا لاتخلو عن عدو يحسدك فلو كانت النعمة تزول بالحسد لم يبق لله تعالى عليك نعمة ولا على أحد من الخلق ولا نعمة الايمان أيضا لان الكفار يحسدون المؤمنين على الايمان قال الله تعالى ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم اذ ما يريده الحسود لايكون نعم هو يضل بارادته الضلال لغيره فان ارادة الكفر كفر فمن اشتهى أن تزول النعمة عن المحسود بالحسد فكأنما يريد أن يسلب نعمة الايمان بحسد الكفار وكذا سائر النعم وان اشتهيت أن تزول النعمة عن الخلق بحسدك ولا تزول عنك بحسد غيرك فهذا غاية الجهل والغباوة فان كل واحد من حمقى الحساد أيضا يشتهي أن يخص بهذه الخاصية ولست باولى من غيرك فنعمة الله تعالى عليك في أن لم تزل النعمة بالحسد مما يجب عليك شكرها وأنت بجهلك تكرهها وأما ان المحسود ينتفع به في الدين والدنيا فواضح أما منفعته في الدين فهو انه مظلوم من جهتك لاسيما اذا أخرجك الحسد الى القول والفعل بالغيبة والقدح فيه وهتك ستره ذكر مساويه فهذه هدايا تهديها اليه أعني أنك بذلك تهدي اليه حسناتك حتى تلقاه يوم القيامة مفلسا محروما عن النعمة كما حرمت في الدنيا عن النعمة فكانك أردت زوال النعمة عنه فلم تزل نعم كان لله عليه نعمة اذ وفقك للحسنات فنقلتها اليه فاضفت اليه نعمة الى نعمة وأضفت الى نفسك شقاوة الى شقاوة وأما منفعته في الدنيا فهو أن أهم أغراض الخلق مساءة الاعداء وغمهم وشقاوتهم وكونهم معذبين مغمومين ولا عذاب

فاما تميل اليهود قيل كان موسى يعامل بني اسرائيل على ظاهر الامور لقلة ما في باطنهم فكان يهيئ الامور ويعظمها ولهذا المعنى أوحى الله تعالى اليه أن يحلي التوراة بالذهب ووقع لي والله أعلم ان موسى كان يرد عليه الوارد في صلاته ومحال مناجاته فيموج به باطنه كبحر ساكن تهب عليه الريح فتتلاطم الامواج فكان تمايل موسى عليه السلام تلاطم أمواج بحر القلب اذا هب عليه نسمات الفضل وربما كانت الروح تتطلع الى الحضرة الالهية فتهم بالاستعلاء وللقالب بها تشبك وامتزاج فيضطرب القالب ويتمايل فرأى اليهود ظاهره فتمايلوا من غير حظ لبواطنهم من ذلك ولهذا المعنى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انكارا على أهل الوسوسة

اشد مما أنت فيه من ألم الحسد وغاية أماني أعدائك أن يكونوا في نعمة وأن تكون في غم وحسرة بسببهم وقد فعلت بنفسك ما هو مرادهم ولذلك يشتهي عدوك موتك بل يشتهي أن تطول حياتك ولكن في عذاب الحسد لتنظر الى نعمة الله عليه فينقطع قلبك حسدا ولذلك قيل

لامات أعداؤك بل خلدوا * حتى يروا فيك الذي يكمد
لازلت محسودا على نعمة * فانما الكامل من يحسد

ففرح عدوك بغمك وحسدك أعظم من فرحه بنعمته ولو علم خلاصك من ألم الحسد وعذابه لكان ذلك أعظم مصيبة وبلية عنده فما أنت فيه ما تلازمه من غم الحسد الا كما يشتهيه عدوك فاذن اذا تأملت هذا عرفت انك عدو نفسك وصديق عدوك اذ تعاطيت ما تضررت به في الدنيا والآخرة وانتفع به عدوك في الدنيا والآخرة وصرت مذموما عند الخالق والخلائق شقيا في الحال والمآل ونعمة المحسود دائمة شئت أم أبيت باقية ثم لم تقتصر على تحصيل مراد عدوك حتى وصلت الى ادخال أعظم سرور على ابليس الذي هو أعدى أعدائك لانه لما رآك محروما من نعمة العلم والورع والجاه والمال الذي اختص به عدوك عنك خاف ان تحب ذلك له فتشاركه في الثواب بسبب المحبة لان من أحب الخير للمسلمين كان شريكا في الخير ومن فاته اللحاق بدرجة الاكابر في الدين لم يفته ثواب الحب لهم مهما أحب ذلك فخاف ابليس ان تحب ما أنعم الله به على عبده من صلاح دينه ودنياه فتفوز بثواب الحب فبغضه اليك حتى لا تلحقه بحبك كما لم تلحقه بعملك وقد قال اعرابي للنبي صلى الله عليه وسلم يا رسول الله الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم المرء مع من أحب وقام اعرابي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطب فقال يا رسول الله متى الساعة فقال ما أعددت لها قال ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صيام الا أني أحب الله ورسوله فقال صلى الله عليه وسلم أنت مع من أحببت قال أنس فما فرح المسلمون بعد اسلامهم كفرحهم يومئذ اشارة الى أن أكبر بغيتهم كانت حب الله ورسوله قال أنس فنحن نحب رسول الله وأبا بكر وعمر ولا نعمل مثل عملهم ونرجوا أن نكون معهم وقال أبو موسى قلت يا رسول الله الرجل يحب المصلين ولا يصلي ويحب الصوام ولا يصوم حتى عد أشياء فقال النبي صلى الله عليه وسلم هو مع من أحب وقال رجل لعمر بن عبد العزيز انه كان يقال ان استطعت أن تكون عالما فكن عالما فان لم تستطع أن تكون عالما فكن متعلما فان لم تستطع أن تكون متعلما فأحبهم فان لم تستطع فلا تبغضهم فقال سبحان الله لقد جعل الله لنا مخرجا فانظر الآن كيف حسدك ابليس ففوت عليك ثواب الحب ثم لم يقنع به حتى بغض اليك أخاك وحملك على الكراهة حتى أثمت وكيف لا وعساك تحاسد رجلا من أهل العلم وتحب أن يخطئ في دين الله تعالى وينكشف خطؤه ليفتضح وتحب أن يخرس لسانه حتى لا يتكلم أو يمرض حتى لا يعلم ولا يتعلم وأي اثم يزيد على ذلك فليتك اذ فاتك اللحاق به ثم اغتممت بسببه سلمت من الاثم وعذاب الآخرة وقد جاء في الحديث أهل الجنة ثلاثة المحسن والمحب له والكاف عنه أي من يكف عنه الاذى والحسد والبغض والكراهة فانظر كيف أبعدك ابليس عن جميع المداخل الثلاثة حتى لا تكون من أهل واحد منها البتة فقد نفذ فيك حسد ابليس وما نفذ حسدك في عدوك بل على نفسك بل لو كشفت بحالك في يقظة أو منام لرأيت نفسك أيها الحاسد في صورة من يرمي سهما الى عدوه ليصيب مقتله فلا يصيبه بل يرجع الى حدقته اليمنى فيقلعها فيزيد غضبه فيعود ثانية فيرمي أشد من الاولى فيرجع الى عينه الاخرى فيعميها فيزداد غيظه فيعود ثالثة فيعود على رأسه فيشجه وعدوه سالم في كل حال وهو اليه راجع مرة بعد أخرى وأعداؤه حوله يفرحون به ويضحكون عليه وهذا حال الحسود وسخرية الشيطان منه بل حالك في الحسد أقبح من هذا لان الرمية العائدة لم تفوت الا العينين ولو بقيتا لفاتتا بالموت لا محالة والحسد يعود بالاثم والاثم لا يفوت بالموت ولعله يسوقه الى غضب الله والى النار فلان تذهب عينه في الدنيا خير له من أن تبقى له عين يدخل بها النار فيقلعها لهيب النار فانظر كيف انتقم الله من الحاسد اذ أراد زوال النعمة عن المحسود فلم يزلها عنه ثم أزالها عن الحاسد اذ السلامة من الاثم نعمة والسلامة من الغم والكمد نعمة وقد زالتا عنه تصديقا لقوله تعالى ولا يحيق المكر السيء الا بأهله وربما يبتلى بعين ما يشتهيه لعدوه وقلما يشمت شامت بمساءة الا ويبتلى بمثلها حتى قالت عائشة

هكذا خرجت عظمة الله من قلوب بني اسرائيل حتى شهدت أبدانهم وغابت قلوبهم لا يقبل الله صلاة امرئ لا يشهد فيها قلبه كما يشهد بدنه وان الرجل على صلاته دائم ولا يكتب له عشرها اذا كان قلبه ساهيا لاهيا واعلم أن الله تعالى أوجب الصلوات الخمس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة عماد الدين فمن ترك الصلاة فقد كفر فالصلاة تحقيق العبودية واداء حق الربوبية وسائر العبادات وسائل الى تحقيق سر الصلاة قال سهل بن عبد الله يحتاج العبد الى السنن الرواتب لتكميل الفرائض ويحتاج الى النوافل لتكميل السنن ويحتاج الى الآداب لتكميل النوافل ومن الادب ترك الدنيا والذي ذكره سهل هو معنى ما قال عمر على المنبر ان الرجل

رضي الله عنها ماتمنيت لعثمان شيأ الا نزل بي حتى لو تمنيت له القتل لقتلت فهذا اثم الحسد نفسه فكيف ما يجر اليه الحسد من الاختلاف وجحود الحق واطلاق اللسان واليد بالفواحش في التشفي من الاعداء وهو الداء الذي فيه هلك الامم السالفة فهذه هي الادوية العلمية فهما تفكر الانسان فيها بذهن صاف وقلب حاضر انطفأت نار الحسد من قلبه وعلم أنه مهلك نفسه ومفرح عدوه ومسخط ربه ومنغص عيشه * وأما العمل النافع فيه فهو أن يحكم الحسد فكل ما يتقاضاه الحسد من قول وفعل فينبغي أن يكلف نفسه نقيضه فان بعثه الحسد على القدح في محسوده كلف لسانه المدح له والثناء عليه وان حمله على التكبر عليه ألزم نفسه التواضع له والاعتذار اليه وان بعثه على كف الانعام عليه ألزم نفسه الزيادة في الانعام عليه فهما فعل ذلك عن تكلف وعرفه المحسود طاب قلبه وأحبه ومهما ظهر حبه عاد الحاسد فأحبه وتولد من ذلك الموافقة التي تقطع مادة الحسد لان التواضع والثناء والمدح واظهار السرور بالنعمة يستجلب قلب المنعم عليه ويسترقه ويستعطفه ويحمله على مقابلة ذلك بالاحسان ثم ذلك الاحسان يعود الى الاول فيطيب قلبه ويصير ما تكلفه أولا طبعا آخرا ولا يصدنه عن ذلك قول الشيطان له لو تواضعت وأثنيت عليه حملك العدو على العجز أو على النفاق أو الخوف وان ذلك مذلة ومهانة وذلك من خدع الشيطان ومكايده بل المجاملة تكلفا كانت أو طبعا تكسر سورة العداوة من الجانبين وتقل مرغوبها وتعود القلوب التآلف والتحاب وبذلك تستريح القلوب من ألم الحسد وغم التباغض فهذه هي أدوية الحسد وهي نافعة جدا الا انها مرة على القلوب جدا ولكن النفع في الدواء المر فمن لم يصبر على مرارة الدواء لم ينل حلاوة الشفاء وانما تهون مرارة هذا الدواء أعني التواضع للاعداء والتقرب اليهم بالمدح والثناء بقوة العلم بالمعاني التي ذكرناها وقوة الرغبة في ثواب الرضا بقضاء الله تعالى وحب ما أحبه وعزة النفس وترفعها عن أن يكون في العالم شئ على خلاف مرادها جهل وعند ذلك يريد ما لا يكون اذ لا مطمع في أن يكون ما يريد وفوات المراد ذل وخسة ولا طريق الى الخلاص من هذا الذل الا بأحد أمرين اما بأن يكون ما تريد أو بأن تريد ما يكون والاول ليس اليك ولا مدخل للتكلف والمجاهدة فيه وأما الثاني فللمجاهدة فيه مدخل وتحصيله بالرياضة ممكن فيجب تحصيله على كل عاقل هذا هو الدواء الكلي فأما الدواء المفصل فهو تتبع أسباب الحسد من الكبر وغيره وعزة النفس وشدة الحرص على ما لا يغني وسيأتي تفصيل مداواة هذه الاسباب في مواضعها ان شاء الله تعالى فانها مواد هذا المرض ولا ينقمع المرض الا بقمع المادة فان لم تقمع المادة لم يحصل بما ذكرناه الا تسكين وتطفئة ولا يزال يعود مرة بعد أخرى ويطول الجهد في تسكينه مع بقاء مواده فانه ما دام محبا للجاه فلا بد وأن يحسد من استأثر بالجاه والمنزلة في قلوب الناس دونه ويغمه ذلك لا محالة وانما غايته أن يهون الغم على نفسه ولا يظهر بلسانه ويده فأما الخلو عنه رأسا فلا يمكنه والله الموفق

﴿بيان القدر الواجب في نفي الحسد عن القلب﴾

اعلم أن المؤذي ممقوت بالطبع ومن آذاك فلا يمكنك أن لا تبغضه غالبا فاذا تيسرت له نعمة فلا يمكنك أن لا تكرهها له حتى يستوي عندك حسن حال عدوك وسوء حاله بل لا تزال تدرك في النفس بينهما تفرقة ولا يزال الشيطان ينازعك الى الحسد له ولكن ان قوي ذلك فيك حتى بعثك على اظهار الحسد بقول أو فعل بحيث يعرف ذلك من ظاهرك بأفعالك الاختيارية فأنت حسود عاص بحسدك وان كففت ظاهرك بالكلية الا أنك بباطنك تحب زوال النعمة وليس في نفسك كراهة لهذه الحالة فأنت أيضا حسود عاص لان الحسد صفة القلب لا صفة الفعل قال الله تعالى ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا وقال عز وجل ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء وقال ان تمسسكم حسنة تسؤهم أما الفعل فهو غيبة وكذب وهو عمل صادر عن الحسد وليس هو عين الحسد بل محل الحسد القلب دون الجوارح نعم هذا الحسد ليس مظلمة يجب الاستحلال منها بل هو معصية بينك وبين الله تعالى وانما يجب الاستحلال من الاسباب الظاهرة على الجوارح فأما اذا كففت ظاهرك وألزمت مع ذلك قلبك كراهة ما يترشح منه بالطبع من حب زوال النعمة حتى كأنك تمقت نفسك على ما في طبعها فتكون تلك الكراهة من جهة العقل في مقابلة الميل من جهة الطبع فقد أديت الواجب عليك ولا يدخل تحت اختيارك في أغلب الاحوال أكثر من هذا فأما تغيير الطبع ليستوي عنده المؤذي والمحسن ويكون فرحه أو غمه بما تيسر

لتشبيب عارضاه في الاسلام وما أكمل الله صلاة قيل وكيف ذلك قال لا يتم خشوعها وتواضعها واقباله على الله فيها وقد ورد في الاخبار ان العبد اذا قام الى الصلاة رفع الله الحجاب بينه وبينه وواجهه بوجهه الكريم وقامت الملائكة من لدن منكبيه الى الهواء يصلون بصلاته ويؤمنون على دعائه وان المصلي لينشر عليه البر من عنان السماء الى مفرق رأسه ويناديه مناد لو علم المصلي من يناجي ما انفتل أو ما انفتل وقد جمع الله تعالى للمصلين في كل ركعة ما فرق على أهل السموات فلله ملائكة في الركوع منذ خلقهم الله لا يرفعون من الركوع الى يوم القيامة وهكذا في السجود والقيام والقعود والعبد المتيقظ يتصف في ركوعه

لهما من نعمة أو تنصب عليهما من بلية سواء فهذا مما لا يطاوع الطبع عليه مادام ملتفتا الى حظوظ الدنيا الا أن يصير مستغرقا بحب الله تعالى مثل السكران الواله فقد ينتهي أمره الى أن لا يلتفت قلبه الى تفاصيل أحوال العباد بل ينظر الى الكل بعين واحدة وهي عين الرحمة و يرى الكل عباد الله وأفعالهم أفعالا لله و يراهم مسخرين وذلك ان كان فهو كالبرق الخاطف لا يدوم ثم يرجع القلب بعد ذلك الى طبعه و يعود العدو الى منازعته أعني الشيطان فانه ينازع بالوسوسة فهما قابل ذلك بكراهته وألزم قلبه هذه الحالة فقد أدى ما كلفه وقد ذهب ذاهبون الى أنه لا يأثم اذا لم يظهر الحسد على جوارحه لما روى عن الحسن أنه سئل عن الحسد فقال غمه فانه لا يضرك مالم تبده وروى عنه موقوفا ومرفوعا الى النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ثلاثة لا يخلو منهن المؤمن وله منهن مخرج فمخرجه من الحسد أن لا يبغي والاولى أن يحمل هذا على ماذكرناه من أن يكون فيه كراهة من جهة الدين والعقل في مقابلة حب الطبع لزوال نعمة العدو وتلك الكراهة تمنعه من البغي والايذاء فان جميع ما ورد من الاخبار في ذم الحسد يدل ظاهره على أن كل حاسد آثم ثم الحسد عبارة عن صفة القلب لا عن الافعال فكل من يحب اساءة مسلم فهو حاسد فاذا كونه آثما بمجرد حسد القلب من غير فعل هو في محل الاجتهاد والاظهر ماذكرناه من حيث ظواهر الآيات والاخبار ومن حيث المعنى اذ يبعد أن يعفى عن العبد في ارادته اساءة مسلم واشتماله بالقلب على ذلك من غير كراهة وقد عرفت من هذا أن لك في أعدائك ثلاثة أحوال أحدها أن تحب مساءتهم بطبعك وتكره حبك لذلك وميل قلبك اليه بعقلك وتمقت نفسك عليه وتود لو كانت لك حيلة في ازالة ذلك الميل منك وهذا معفو عنه قطعا لانه لا يدخل تحت الاختيار أكثر منه *الثاني أن تحب ذلك وتظهر الفرح بمساءته اما بلسانك أو بجوارحك فهذا هو الحسد المحظور قطعا *الثالث وهو بين الطرفين أن تحسد بالقلب من غير مقت لنفسك على حسدك ومن غير انكار منك على قلبك ولكن تحفظ جوارحك عن طاعة الحسد في مقتضاه وهذا في محل الخلاف والظاهر أنه لا يخلو عن اثم بقدر قوة ذلك الحب وضعفه والله تعالى أعلم والحمد لله رب العالمين وحسبنا الله ونعم الوكيل

﴿ كتاب ذم الدنيا وهو الكتاب السادس من ربع المهلكات من كتب احياء علوم الدين ﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الذي عرف أولياءه غوائل الدنيا وآفاتها وكشف لهم عن عيوبها وعوراتها حتى نظروا في شواهدها وآياتها ووزنوا بحسناتها سيآتها فعلموا أنه يزيد منكرها على معروفها ولا يفي مرجوها بمخوفها ولا يسلم طلوعها من كسوفها ولكنها في صورة امرأة مليحة تستميل الناس بجمالها ولها أسرار سوء قبائح تهلك الراغبين في وصالها ثم هي فرارة عن طلابها شحيحة باقبالها واذا أقبلت لم يؤمن شرها وويالها ان أحسنت ساعة أساءت سنة وان أساءت مرة جعلتها سنة فدوائر اقبالها على التقارب دائرة وتجارة بنيها خاسرة بائرة وآفاتها على التوالي لصدور طلابها راشقة ومجاري أحوالها بذل طالبيها ناطقة فكل مغرور بها الى الذل مصيره وكل متكبر بها الى التحسر مسيره شأنها الهرب من طالبها والطلب لهاربها ومن خدمها فاتته ومن أعرض عنها واتته لا يخلو صفوها عن شوائب الكدورات ولا ينفك سرورها عن المنغصات سلامتها تعقب السقم وشبابها يسوق الى الهرم ونعيمها لا يثمر الا الحسرة والندم فهي خداعة مكارة طيارة فرارة لا تزال تتزين لطلابها حتى اذا صاروا من أحبابها كشرت لهم عن أنيابها وشوشت عليهم مناظم أسبابها وكشفت لهم عن مكنون عجائبها فأذاقتهم قواتل سمامها ورشقتهم بصوائب سهامها بينما أصحابها منها في سرور وانعام اذ ولت عنهم كأنها أضغاث أحلام ثم عكرت عليهم بدواهيها فطحنتهم طحن الحصيد ووارتهم في أكفانهم تحت الصعيد ان ملكت واحدا منهم جميع ما طلعت عليه الشمس جعلته حصيدا كأن لم يغن بالامس تمنى أصحابها سرورا وتعدهم غرورا حتى يأملون كثيرا ويبنون قصورا فتصبح قصورهم قبورا وجمعهم بورا وسعيهم هباء منثورا ودعاؤهم ثبورا هذه صفتها وكان أمر الله قدرا مقدورا والصلاة على محمد عبده ورسوله المرسل الى العالمين بشيرا ونذيرا وسراجا منيرا وعلى من كان من أهله وأصحابه له في الدين ظهيرا وعلى الظالمين نصيرا وسلم تسليما كثيرا (أما بعد) فان الدنيا عدوة لله وعدوة لاولياء الله وعدوة لاعداء الله أما عداوتها لله فانها

قطعت

بصفة الراكعين منهم وفي السجود بصفة الساجدين وفي كل هيئة هكذا يكون كالواحد منهم وبينهم وفي غير الفريضة ينبغي للمصلي أن يمكث في ركوعه متلذذا بالركوع غير مهتم بالرفع منه فان طرقته سآمة بحكم الجبلة استغفر منها ويستديم تلك الهيئة ويتطلع أن يذوق الخشوع اللائق بهذه الهيئة ليصير قلبه بلون الهيئة ويحاذي الراكع المحق أنه ان سبق همه في حال الركوع أو السجود الى الرفع منه ماوفى الهيئة حقها فيكون همه الهيئة مستغرقا فيها مشغولا بها عن غيرها من الهيآت فبذلك يتوفر حظه من بركة كل هيئة فان السرعة التي يتقاضى بها الطبع تسد باب الفتوح ويقف في مهاب النفحات الالهية حتى يتكامل حظ العبد فتنمحي

قطعت الطريق على عباد الله ولذلك لم ينظر الله اليها منذ خلقها وأما عداوتها لاولياء الله عز وجل فانها تزينت لهم بزينتها وعمتهم بزهرتها ونضارتها حتى تجرعوا مرارة الصبر في مقاطعتها وأما عداوتها لاعداء الله فانها استدرجتهم بمكرها وكيدها فاقتنصتهم بشبكتها حتى وثقوا بها وعولوا عليها فخذلتهم أحوج ما كانوا اليها فاجتنوا منها حسرة تتقطع دونها الاكباد ثم حرمتهم السعادة أبد الآباد فهم على فراقها يتحسرون ومن مكايدها يستغيثون ولا يغاثون بل يقال لهم اخسؤا فيها ولا تكلمون أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولاهم ينصرون واذا عظمت غوائل الدنيا وشرورها فلا بد أولا من معرفة حقيقة الدنيا وماهي وما الحكمة في خلقها مع عداوتها وما مدخل غرورها وشرها فان من لا يعرف الشر لا يتقيه ويوشك أن يقع فيه ونحن نذكر ذم الدنيا وأمثلتها وحقيقتها وتفصيل معانيها وأصناف الاشغال المتعلقة بها ووجه الحاجة الى أصولها وسبب انصراف الخلق عن الله بسبب التشاغل بفضولها ان شاء الله تعالى وهو المعين على ما يرتضيه

﴿بيان ذم الدنيا﴾

الآيات الواردة في ذم الدنيا وأمثلتها كثيرة وأكثر القرآن مشتمل على ذم الدنيا وصرف الخلق عنها ودعوتهم الى الآخرة بل هو مقصود الانبياء عليهم الصلاة والسلام ولم يبعثوا الا لذلك فلا حاجة الى الاستشهاد بآيات القرآن لظهورها وانما نورد بعض الاخبار الواردة فيها فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر على شاة ميتة فقال أترون هذه الشاة هينة على أهلها قالوا من هوانها ألقوها قال والذي نفسي بيده للدنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء وقال صلى الله عليه وسلم الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا ملعونة ملعون ما فيها الا ما كان لله منها وقال أبو موسى الاشعري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى وقال صلى الله عليه وسلم حب الدنيا رأس كل خطيئة وقال زيد بن أرقم كنا مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه فدعا بشراب فأتي بماء وعسل فلما أدناه من فيه بكى حتى أبكى أصحابه وسكتوا وما سكت ثم عاد وبكى حتى ظنوا أنهم لا يقدرون على مسألته قال ثم مسح عينيه فقالوا يا خليفة رسول الله ما أبكاك قال كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأيته يدفع عن نفسه شيأ ولم أر معه أحدا فقلت يا رسول الله ما الذي تدفع عن نفسك قال هذه الدنيا مثلت لي فقلت لها اليك عني ثم رجعت فقالت انك ان أفلت مني لم يفلت مني من بعدك وقال صلى الله عليه وسلم يا عجبا كل العجب للمصدق بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف على مزبلة فقال هلموا الى الدنيا وأخذ خرقا قد بليت على تلك المزبلة وعظاما قد نخرت فقال هذه الدنيا وهذه اشارة الى أن زينة الدنيا ستخلق مثل تلك الخرق وأن الاجسام التي ترى بها ستصير عظاما بالية وقال صلى الله عليه وسلم ان الدنيا حلوة خضرة وان الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ان بني اسرائيل لما بسطت لهم الدنيا ومهدت تاهوا في الحلية والنساء والطيب والثياب وقال عيسى عليه السلام لا تتخذوا الدنيا ربا فتتخذكم عبيدا اكنزوا كنزكم عند من لا يضيعه فان صاحب كنز الدنيا يخاف عليه الآفة وصاحب كنز الله لا يخاف عليه الآفة وقال عليه أفضل الصلاة والسلام يا معشر الحواريين اني قد كببت لكم الدنيا على وجهها فلا تنعشوها بعدي فان من خبث الدنيا أن عصى الله فيها وان من خبث الدنيا ان الآخرة لا تدرك الا بتركها الا فاعبروا الدنيا ولا تعمروها واعلموا أن أصل كل خطيئة حب الدنيا ورب شهوة ساعة أورثت أهلها حزنا طويلا وقال أيضا بطحت لكم الدنيا وجلستم على ظهرها فلا ينازعنكم فيها الملوك والنساء أما الملوك فلا تنازعوهم الدنيا فانهم لن يعرضوا لكم ما تركتموهم ودنياهم وأما النساء فاتقوهن بالصوم والصلاة وقال أيضا الدنيا طالبة ومطلوبة فطالب الآخرة تطلبه الدنيا حتى يستكمل فيها رزقه وطالب الدنيا تطلبه الآخرة حتى يجيء الموت فيأخذ بعنقه وقال موسى بن يسار قال النبي صلى الله عليه وسلم ان الله عز وجل لم يخلق خلقا أبغض اليه من الدنيا وانه منذ خلقها لم ينظر اليها وروى أن سليمان بن داود عليهما السلام مر في موكبه والطير تظله والجن والانس عن يمينه وشماله قال فمر بعابد من بني اسرائيل فقال والله يا ابن داود لقد آتاك الله ملكا عظيما قال فسمع سليمان وقال

آثاره بحسن الاسترسال ويستقر في مقعد الوصال (وقيل) في الصلاة أربع هيآت وستة أذكار فالهيآت الاربع القيام والقعود والركوع والسجود والاذكار الستة التلاوة والتسبيح والحمد والاستغفار والدعاء والصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام فصارت عشرة كاملة تفرق هذه العشرة على عشر صفوف من الملائكة كل صف عشرة آلاف فيجتمع في الركعتين ما يفرق على مائة ألف من الملائكة

﴿الباب السابع والثلاثون في وصف صلاة أهل القرب﴾

ونذكر في هذا الفصل كيفية الصلاة بهيآتها وشروطها وآدابها الظاهرة والباطنة على الكمال بأقصى ما انتهى اليه فهمنا وعلمنا على الوجه مع الاعراض عن نقل الاقوال في كل

لتسبيحة فى صحيفة مؤمن خير مما أعطى ابن داود فان ما أعطى ابن داود يذهب والتسبيحة تبقى وقال صلى الله
عليه وسلم ألهاكم التكاثر يقول ابن آدم مالى مالى وهل لك من مالك الا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو
تصدقت فأبقيت وقال صلى الله عليه وسلم الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له وعليها
يعادى من لا علم له وعليها يحسد من لا فقه له ولها يسعى من لا يقين له وقال صلى الله عليه وسلم من أصبح والدنيا
أكبر همه فليس من الله فى شئ وألزم الله قلبه أربع خصال هما لا ينقطع عنه أبدا وشغلا لا يتفرغ منه أبدا وفقرا
لا يبلغ غناه أبدا وأملا لا يبلغ منتهاه أبدا وقال أبو هريرة قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبا هريرة ألا أريك
الدنيا جميعها بما فيها فقلت بلى يا رسول الله فأخذ بيدى وأتى بى واديا من أودية المدينة فاذا مزبلة فيها رؤس
أناس وعذرات وخرق وعظام ثم قال يا أبا هريرة هذه الرؤس كانت تحرص كحرصكم وتأمل كأملكم ثم هى
اليوم عظام بلا جلد ثم هى صائرة رمادا وهذه العذرات هى ألوان أطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبوها ثم
قذفوها فى بطونهم فأصبحت والناس يتحامونها وهذه الخرق البالية كانت رياشهم ولباسهم فأصبحت
والرياح تصفقها وهذه العظام عظام دوابهم التى كانوا ينتجعون عليها أطراف البلاد فمن كان باكيا على الدنيا
فليبك قال فما برحنا حتى اشتد بكاؤنا * يروى أن الله عز وجل لما أهبط آدم الى الارض قال له ابن للخراب
ولد للفناء وقال داود بن هلال مكتوب فى صحف ابراهيم عليه السلام يا دنيا ما أهونك على الابرار الذين تصنعت
وتزينت لهم انى قذفت فى قلوبهم بغضك والصدود عنك وما خلقت خلقا أهون على منك كل شأنك صغير والى
الفناء يصير قضيت عليك يوم خلقتك أن لا تدومى لاحد ولا يدوم لك أحد وان بخل بك صاحبك وشح عليك
طوبى للابرار الذين أطلعونى من قلوبهم على الرضا ومن ضميرهم على الصدق والاستقامة طوبى لهم ما لهم
عندى من الجزاء اذا وفدوا الى من قبورهم الا النور يسعى أمامهم والملائكة حافون بهم حتى أبلغهم ما يرجون
من رحمتى وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا موقوفة بين السماء والارض منذ خلقها الله تعالى لم ينظر اليها
وتقول يوم القيامة يارب اجعلنى لادنى أوليائك اليوم نصيبا فيقول اسكتى يا لاشئ انى لم أرضك لهم فى الدنيا
أأرضاك لهم اليوم وروى فى أخبار آدم عليه السلام أنه لما أكل من الشجرة تحركت معدته لخروج الثفل ولم
يكن ذلك مجعولا فى شئ من أطعمة الجنة الا فى هذه الشجرة فلذلك نهيا عن أكلها قال فجعل يدور فى الجنة فأمر
الله تعالى ملكا يخاطبه فقال له قل له أى شئ تريد قال آدم أريد أن أضع ما فى بطنى من الاذى فقيل للملك قل له فى
أى مكان تريد أن تضعه أعلى الفرش أم على السرر أم على الانهار أم تحت ظلال الاشجار هل ترى ههنا مكانا
يصلح لذلك اهبط الى الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم ليجيئن أقوام يوم القيامة وأعمالهم كجبال تهامة فيؤمر بهم
الى النار قالوا يا رسول الله مصلين قال نعم كانوا يصلون ويصومون ويأخذون هنة من الليل فاذا عرض لهم
شئ من الدنيا وثبوا عليه وقال صلى الله عليه وسلم فى بعض خطبه المؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى لا يدرى
ما الله صانع فيه وبين أجل قد بقى لا يدرى ما الله قاض فيه فليتزود العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن
حياته لموته ومن شبابه لهرمه فان الدنيا خلقت لكم وأنتم خلقتم للآخرة والذى نفسى بيده ما بعد الموت من
مستعتب ولا بعد الدنيا من دار الا الجنة أو النار وقال عيسى عليه السلام لا يستقيم حب الدنيا والآخرة فى
قلب مؤمن كما لا يستقيم الماء والنار فى اناء واحد وروى أن جبريل عليه السلام قال لنوح عليه السلام يا أطول
الانبياء عمرا كيف وجدت الدنيا فقال كدار لها بابان دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر وقيل لعيسى
عليه السلام لو اتخذت بيتا يكنك قال يكفينا خلقان من كان قبلنا وقال نبينا صلى الله عليه وسلم احذروا الدنيا
فانها أسحر من هاروت وماروت وعن الحسن قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم على أصحابه
فقال هل منكم من يريد أن يذهب الله عنه العمى ويجعله بصيرا ألا انه من رغب فى الدنيا وطال أمله فيها
أعمى الله قلبه على قدر ذلك ومن زهد فى الدنيا وقصر فيها أمله أعطاه الله علما بغير تعلم وهدى بغير هداية ألا انه
سيكون بعدكم قوم لا يستقيم لهم الملك الا بالقتل والتجبر ولا الغنى الا بالفخر والبخل ولا المحبة الا باتباع الهوى
ألا فمن أدرك ذلك الزمان منكم فصبر على الفقر وهو يقدر على الغنى وصبر على البغضاء وهو يقدر على
المحبة وصبر على الذل وهو يقدر على العز لا يريد بذلك الا وجه الله تعالى أعطاه الله ثواب خمسين صديقا

شئ من ذلك اذ فى ذلك
كثرة ويخرج عن حد
الاختصار والايجاز
المقصود فنقول وبالله
التوفيق ينبغى للعبد
أن يستعد للصلاة قبل
دخول وقتها بالوضوء
ولا يوقع الوضوء فى
وقت الصلاة فذلك من
المحافظة عليها ويحتاج
فى معرفة الوقت الى
الزوال وتفاوت الاقدام
لطول النهار وقصره
ويعتبر الزوال بأن
الظل ما دام فى الانتقاص
فهو النصف الاول
من النهار فاذا أخذ
الظل فى الازدياد فهو
النصف الآخر وقد
زالت الشمس واذا
عرف الزوال وان
الشمس على كم قدم
تزول يعرف أول
الوقت وآخره ووقت
العصر ويحتاج الى
معرفة المنازل ليعلم
طلوع الفجر ويعلم
أوقات الليل وشرح
ذلك يطول ويحتاج أن
يفرد له باب فاذا دخل
وقت الصلاة يقدم
السنة الراتبة ففى
ذلك سر وحكمة وذلك

و روى أن عيسى عليه السلام اشتد عليه المطر والرعد والبرق يوما فجعل يطلب شيأ يلجأ اليه فوقعت عينه على
خيمة من بعيد فأتاها فاذا فيها امرأة فحاد عنها فاذا هو بكهف فى جبل فأتاه فاذا فيه أسد فوضع يده عليه وقال الهى
جعلت لكل شئ مأوى ولم تجعل لى مأوى فأوحى الله تعالى اليه مأواك فى مستقر رحمتى لازوجنك يوم
القيامة مائة حوراء خلقتها بيدى ولاطعمن فى عرسك أربعة آلاف عام يوم منها كعمر الدنيا ولآمرن مناديا
ينادى أين الزهاد فى الدنيا زوروا عرس الزاهد فى الدنيا عيسى بن مريم وقال عيسى بن مريم عليه السلام ويل
لصاحب الدنيا كيف يموت ويتركها وما فيها وتغره ويأمنها ويثق بها وتخذله وويل للمغترين كيف أرتهم ما
يكرهون وفارقهم ما يحبون وجاءهم ما يوعدون وويل لمن الدنيا همه والخطايا عمله كيف يفتضح غدا بذنبه
وقيل أوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام يا موسى مالك ولدار الظالمين انها ليست لك بدار أخرج منها همك
وفارقها بعقلك فبئست الدار هى الا لعامل يعمل فيها فنعمت الدار هى يا موسى انى مرصد للظالم حتى آخذ منه
للمظلوم وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا عبيدة بن الجراح فجاء بمال من البحرين فسمعت
الانصار بقدوم أبى عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما صلى رسول الله صلى الله عليه
وسلم انصرف فتعرضوا له فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآهم ثم قال أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم
بشئ قالوا أجل يا رسول الله قال فابشروا وأملوا ما يسركم فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكنى أخشى عليكم أن
تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم وقال أبو سعيد
الخدرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الارض فقيل ما
بركات الارض قال زهرة الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم لاتشغلوا قلوبكم بذكر الدنيا فنهى عن ذكرها فضلا عن
اصابة عينها وقال عمار بن سعيد مر عيسى عليه السلام بقرية فاذا أهلها موتى فى الافنية والطرق فقال يا معشر
الحواريين ان هؤلاء ماتوا عن سخطة ولو ماتوا عن غير ذلك لتدافنوا فقالوا يا روح الله وددنا أن لو علمنا خبرهم
فسأل الله تعالى فأوحى اليه اذا كان الليل فنادهم يجيبوك فلما كان الليل أشرف على نشز ثم نادى يا أهل القرية
فأجابه مجيب لبيك يا روح الله فقال ما حالكم وما قصتكم قال بتنا نحن فى عافية وأصبحنا فى الهاوية قال وكيف
ذاك قال بحبنا الدنيا وطاعتنا أهل المعاصى قال وكيف كان حبكم للدنيا قال حب الصبى لامه اذا أقبلت فرحنا بها
واذا أدبرت حزنا وبكينا عليها قال فما بال أصحابك لم يجيبونى قال لانهم ملجمون بلجم من نار بأيدى ملائكة
غلاظ شداد قال فكيف أجبتنى أنت من بينهم قال لانى كنت فيهم ولم أكن منهم فلما نزل بهم العذاب أصابنى معهم
فأنا معلق على شفير جهنم لاأدرى أنجو منها أم أكبكب فيها فقال المسيح للحواريين لاكل خبز الشعير بالملح
الجريش ولبس المسوح والنوم على المزابل كثير مع عافية الدنيا والآخرة وقال أنس كانت ناقة رسول الله صلى
الله عليه وسلم العضباء لاتسبق فجاء أعرابى بناقة له فسبقها فشق ذلك على المسلمين فقال صلى الله عليه وسلم انه حق
على الله أن لايرفع شيأ من الدنيا الا وضعه وقال عيسى عليه السلام من الذى يبنى على موج البحر دارا تلكم الدنيا
فلا تتخذوها قرارا وقيل لعيسى عليه السلام علمنا علما واحدا يحبنا الله عليه قال ابغضوا الدنيا يحببكم الله تعالى وقال
أبو الدرداء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولهانت عليكم الدنيا
ولآثرتم الآخرة ثم قال أبو الدرداء من قبل نفسه لو تعلمون ما أعلم لخرجتم الى الصعدات تجأرون وتبكون
على أنفسكم ولتركتم أموالكم لاحارس لها ولا راجع اليها الا ما لابد لكم منه ولكن يغيب عن قلوبكم ذكر
الآخرة وحضرها الامل فصارت الدنيا أملك بأعمالكم وصرتم كالذين لايعلمون فبعضكم شر من البهائم التى
لاتدع هواها مخافة مما فى عاقبته مالكم لاتحابون ولاتناصحون وأنتم اخوان على دين الله ما فرق بين أهوائكم
الا خبث سرائركم ولو اجتمعتم على البر لتحاببتم مالكم تناصحون فى أمر الدنيا ولاتناصحون فى أمر الآخرة ولا
يملك أحدكم النصيحة لمن يحبه ويعينه على أمر آخرته ما هذا الا من قلة الايمان فى قلوبكم لو كنتم توقنون بخير
الآخرة وشرها كما توقنون بالدنيا لآثرتم طلب الآخرة لانها أملك لاموركم فان قلتم حب العاجلة غالب فانا
نراكم تدعون العاجل من الدنيا للآجل منها تكدون أنفسكم بالمشقة والاحتراف فى طلب أمر لعلكم لاتدركونه

والله أعلم أن العبد تشعث باطنه وتفرق همه لما بلى به من المخالطة من الناس وقيامه بمهام المعاش أو سهو جرى بوضع الجبلة أو صرف همه الى أكل أو نوم بمقتضى العادة فاذا قدم السنة ينجذب باطنه الى الصلاة ويتهيأ للمناجاة ويذهب بالسنة الراتبة أثر الغفلة والكدورة من الباطن فينصلح الباطن ويصير مستعدا للفريضة فالسنة مقدمة صالحة يستنزل بها البركات وتطرق النفحات ثم يجدد التوبة مع الله تعالى عند الفريضة عن كل ذنب عمله ومن الذنوب عامة وخاصة فالعامة الكبائر والصغائر مما أومأ اليه الشرع ونطق به الكتاب والسنة والخاصة ذنوب حال الشخص فكل عبد على قدر صفاء حاله له ذنوب تلائم حاله ويعرفها صاحبها وقيل حسنات الابرار سيئات المقربين

فبئس القوم أنتم ما حققتم ايمانكم بما يعرف به الايمان البالغ فيكم فان كنتم في شك مما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فائتونا لنبين لكم ولنريكم من النور ما تطمئن اليه فلو بكم والله ما أنتم بالمنقوصة عقولكم فنعذركم انكم تستبينون صواب الرأى فى دنياكم وتأخذون بالحزم فى أموركم مالكم تفرحون باليسير من الدنيا تصيبونه وتحزنون على اليسير منها يفوتكم حتى يتبين ذلك فى وجوهكم ويظهر على ألسنتكم وتسمونها المصائب وتقيمون فيها المآتم وعامتكم قد تركوا كثيرا من دينهم ثم لا يتبين ذلك فى وجوهكم ولا يتغير حالكم انى لارى الله قد تبرأ منكم يلقى بعضكم بعضا بالسرور وكلكم يكره أن يستقبل صاحبه بما يكره مخافة أن يستقبله صاحبه بمثله فاصطحبتم على الغل ونبتت مراعيكم على الدمن وتصافيتم على رفض الاجل ولوددت ان الله تعالى أراحنى منكم وألحقنى بما أحب رؤيته ولو كان حيا لم يصابركم فان كان فيكم خير فقد أسمعتكم وان تطلبوا ما عند الله تجدوه يسيرا وبالله أستعين على نفسى وعليكم وقال عيسى عليه السلام يا معشر الحواريين ارضوا بدنىء الدنيا مع سلامة الدين كما رضى أهل الدنيا بدنىء الدين مع سلامة الدنيا وفى معناه قيل

أرى رجالا بأدنى الدين قد قنعوا * وما أراهم رضوا فى العيش بالدون
فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

وقال عيسى عليه السلام يا طالب الدنيا لتبر تركك الدنيا أبر وقال نبينا صلى الله عليه وسلم لتأتينكم بعدى دنيا تأكل ايمانكم كما تأكل النار الحطب وأوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام يا موسى لا تركنن الى حب الدنيا فلن تأتينى بكبيرة هى أشد منها ومر موسى عليه السلام برجل وهو يبكى ورجع وهو يبكى فقال موسى يا رب عبدك يبكى من مخافتك فقال يا ابن عمران لو سال دماغه مع دموع عينيه ورفع يديه حتى يسقطا لم أغفر له وهو يحب الدنيا (الآثار) قال على رضى الله عنه من جمع فيه ست خصال لم يدع للجنة مطلبا ولا عن النار مهربا أولها من عرف الله فأطاعه وعرف الشيطان فعصاه وعرف الحق فاتبعه وعرف الباطل فاتقاه وعرف الدنيا فرفضها وعرف الآخرة فطلبها وقال الحسن رحم الله أقواما كانت الدنيا عندهم وديعة فأدوها الى من ائتمنهم عليها ثم راحوا خفافا وقال أيضا رحمه الله من نافسك فى دينك فنافسه ومن نافسك فى دنياك فالقها فى نحره وقال لقمان عليه السلام لابنه يا بنى ان الدنيا بحر عميق وقد غرق فيه ناس كثير فلتكن سفينتك فيها تقوى الله عز وجل وحشوها الايمان بالله تعالى وشراعها التوكل على الله عز وجل لعلك تنجو وما أراك ناجيا وقال الفضيل طالت فكرتى فى هذه الآية انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا وانا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا وقال بعض الحكماء انك لن تصبح فى شىء من الدنيا الا وقد كان له أهل قبلك وسيكون له أهل بعدك وليس لك من الدنيا الا عشاء ليلة وغداء يوم فلا تهلك فى أكلة وصم عن الدنيا وأفطر على الآخرة وان رأس مال الدنيا الهوى وربحها النار وقيل لبعض الرهبان كيف ترى الدهر قال يخلق الابدان ويجدد الآمال ويقرب المنية ويبعد الامنية قيل فما حال أهله قال من ظفر به تعب ومن فاته نصب وفى ذلك قيل

ومن يحمد الدنيا لعيش يسره * فسوف لعمرى عن قليل يلومها
اذا ادبرت كانت على المرء حسرة * وان أقبلت كانت كثيرا همومها

وقال بعض الحكماء كانت الدنيا ولم أكن فيها وتذهب الدنيا ولا أكون فيها فلا أسكن اليها فان عيشها نكد وصفوها كدر وأهلها منها على وجل اما بنعمة زائلة أو بلية نازلة أو منية قاضية وقال بعضهم من عيب الدنيا أنها لا تعطى أحدا ما يستحق لكنها اما أن تزيد واما أن تنقص وقال سفيان أما ترى النعم كأنها مغضوب عليها قد وضعت فى غير أهلها وقال أبو سليمان الدارانى من طلب الدنيا على المحبة لها لم يعط منها شيأ الا أراد أكثر ومن طلب الآخرة على المحبة لها لم يعط منها شيأ الا أراد أكثر وليس لهذا غاية ولا لهذا غاية وقال رجل لابى حازم أشكو اليك حب الدنيا وليست لى بدار فقال انظر ما آتاكه الله عز وجل منها فلا تأخذه الا من حله ولا تضعه الا فى حقه ولا يضرك حب الدنيا وانما قال هذا لانه لو أخذ نفسه بذلك لاتعبه حتى يتبرم بالدنيا ويطلب الخروج منها وقال يحيى بن معاذ الدنيا حانوت الشيطان فلا تسرق من حانوته شيأ فيجىء فى طلبه فيأخذك وقال الفضيل لو كانت

*ثم لا يصلى الا جماعة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تفضل صلاة الجماعة صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة ثم يستقبل القبلة بظاهره والحضرة الالهية بباطنه ويقرأ قل أعوذ برب الناس ويقرأ فى نفسه آية التوجه وهذا التوجه قبل الصلاة والاستفتاح قبل الصلاة لوجهه الظاهر بانصرافه الى القبلة وتخصيص جهته بالتوجه دون جهة الصلاة ثم يرفع يديه حذو منكبيه بحيث تكون كفاه حذو منكبيه وابهاماه عند شحمة أذنيه ورؤس الاصابع مع الاذنين ويضم الاصابع وان نشرها جاز والضم أولى فانه قيل النشر نشر الكف لا نشر الاصابع ويكبر ولا يدخل بين باء أكبر وراء الله الفا ويجزم أكبر ويجعل المد فى الله ولا يبالغ فى ضم الهاء من الله ولا يبتدئ

الدنيا من ذهب يفنى والآخرة من خزف يبقى لكان ينبغي لنا أن نختار خزفا يبقى على ذهب يفنى فكيف وقد وقد اخترنا خزفا يفنى على ذهب يبقى وقال أبو حازم اياكم والدنيا فانه بلغني أنه يوقف العبد يوم القيامة اذا كان معظما للدنيا فيقال هذا عظم ما حقره الله وقال ابن مسعود ما أصبح أحد من الناس الا وهو ضيف وماله عارية فالضيف مرتحل والعارية مردودة وفى ذلك قيل

وما المال والاهلون الا ودائع * ولا بد يوما أن ترد الودائع

وزار رابعة أصحابها فذكروا الدنيا فاقبلوا على ذمها فقالت اسكتوا عن ذكرها فلولا موقعها من قلوبكم ما أكثرتم من ذكرها الا من أحب شيأ أكثر من ذكره وقيل لابراهيم بن أدهم كيف أنت فقال

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا * فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

فطوبى لعبد آثر الله ربه * وجاد بدنياه لما يتوقع

وقيل أيضا فى ذلك

أرى طالب الدنيا وان طال عمره * ونال من الدنيا سرورا وأنعما

كبان بنى بنيانه فاقامه * فلما استوى ما قد بناه تهدما

وقيل أيضا فى ذلك

هب الدنيا تساق اليك عفوا * أليس مصير ذاك الى انتقال

وما دنياك الا مثل فىء * أظلك ثم آذن بالزوال

وقال لقمان لابنه يا بنى بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعا ولا تبع آخرتك بدنياك تخسرهما جميعا وقال مطرف ابن الشخير لا تنظر الى خفض عيش الملوك ولين رياشهم ولكن انظر الى سرعة ظعنهم وسوء منقلبهم وقال ابن عباس ان الله تعالى جعل الدنيا ثلاثة أجزاء جزء للمؤمن وجزء للمنافق وجزء للكافر فالمؤمن يتزود والمنافق يتزين والكافر يتمتع وقال بعضهم الدنيا جيفة فمن أراد منها شيأ فليصبر على معاشرة الكلاب وفى ذلك قيل

يا خاطب الدنيا الى نفسها * تنح عن خطبتها تسلم

ان التى تخطب غدارة * قريبة العرس من المأتم

وقال أبو الدرداء من هوان الدنيا على الله انه لا يعصى الا فيها ولا ينال ما عنده الا بتركها وفى ذلك قيل

اذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت * له عن عدو فى ثياب صديق

وقيل أيضا

يا راقد الليل مسرورا بأوله * ان الحوادث قد يطرقن أسحارا

أفنى القرون التى كانت منعمة * كر الجديدين اقبالا وادبارا

كم قد أبادت صروف الدهر من ملك * قد كان فى الدهر نفاعا وضرارا

يا من يعانق دنيا لا بقاء لها * يمسى و يصبح فى دنياه سفارا

هلا تركت من الدنيا معانقة * حتى تعانق فى الفردوس أبكارا

ان كنت تبغى جنان الخلد تسكنها * فينبغى لك أن لا تأمن النارا

وقال أبو أمامة الباهلى رضى الله عنه لما بعث محمد صلى الله عليه وسلم أتت ابليس جنوده فقالوا قد بعث نبى وأخرجت أمة قال يحبون الدنيا قالوا نعم قال لئن كانوا يحبون الدنيا ما أبالى أن لا يعبدوا الاوثان وانما أغدو عليهم وأروح بثلاث أخذ المال من غير حقه وانفاقه فى غير حقه وامساكه عن غير حقه والشر كله من هذا نبع وقال رجل لعلى كرم الله وجهه يا أمير المؤمنين صف لنا الدنيا قال وما أصف لك من دار من صح فيها سقم ومن أمن فيها ندم ومن افتقر فيها حزن ومن استغنى فيها افتتن فى حلالها الحساب وفى حرامها العقاب ومتشابهها العتاب وقيل له ذلك مرة أخرى فقال أطول أم أقصر فقيل قصر فقال حلالها حساب وحرامها عذاب وقال مالك بن دينار اتقوا السحارة فانها تسحر قلوب العلماء يعنى الدنيا وقال أبو سليمان الدارانى اذا كانت الآخرة فى القلب جاءت الدنيا تزاحمها فاذا كانت الدنيا فى القلب لم تزاحمها الآخرة لان الآخرة كريمة والدنيا لئيمة وهذا تشديد عظيم ونرجو أن يكون ما ذكره سيار بن الحكم أصح اذ قال الدنيا والآخرة يجتمعان فى القلب فأيهما غلب كان الآخر تبعا له وقال مالك بن دينار بقدر ما تحزن للدنيا يخرج هم الآخرة من قلبك وبقدر ما تحزن للآخرة

بالتكبير الا اذا استقرت اليدان حذو المنكبين و يرسلهما مع التكبير من غير نفض فالوقار اذا سكن القلب تشاكلت به الجوارح وتأيدت بالاولى والاصوب ويجمع بين نية الصلاة والتكبير بحيث لا يغيب عن قلبه حالة التكبير أنه يصلى الصلاة بعينها (وحكى) عن الجنيد أنه قال لكل شئ صفوة وصفوة الصلاة التكبيرة الاولى وانما كانت التكبيرة صفوة لانها موضع النية وأول الصلاة * قال أبو نصر السراج سمعت ابن سالم يقول النية بالله لله ومن الله والآفات التى تدخل فى صلاة العبد بعد النية من العدو ونصيب العدو وان كثر لا يوازن بالنية التى هى لله بالله وان قل (وسئل) أبو سعيد الخراز كيف الدخول فى الصلاة فقال هو ان تقبل على الله تعالى اقبالك عليه يوم القيامة

يخرج همّ الدنيا من قلبك وهذا اقتباس مما قاله علي كرم الله وجهه حيث قال الدنيا والآخرة ضرتان فبقدر ما ترضي احداهما تسخط الاخرى وقال الحسن والله لقد أدركت أقواما كانت الدنيا أهون عليهم من التراب الذي تمشون عليه ما يبالون أشرقت الدنيا أم غربت ذهبت الى ذا أو ذهبت الى ذا وقال رجل للحسن ما تقول في رجل آتاه الله مالا فهو يتصدق منه ويصل منه أيحسن له أن يتعيش فيه يعني يتنعم فقال لا لو كانت له الدنيا كلها ما كان له منها الا الكفاف ويقدم ذلك ليوم فقره وقال الفضيل لو ان الدنيا بحذافيرها عرضت علي حلالا لا أحاسب عليها في الآخرة لكنت أتقذرها كما يتقذر أحدكم الجيفة اذا مر بها أن تصيب ثوبه وقيل لما قدم عمر رضي الله عنه الشام فاستقبله أبو عبيدة بن الجراح على ناقة مخطومة بحبل فسلم وسأله ثم أتى منزله فلم يرفيه الا سيفه وترسه ورحله فقال له عمر رضي الله عنه لو اتخذت متاعا فقال يا أمير المؤمنين ان هذا يبلغنا المقيل وقال سفيان خذ من الدنيا لبدنك وخذ من الآخرة لقلبك وقال الحسن والله لقد عبدت بنو اسرائيل الاصنام بعد عبادتهم الرحمن بحبهم للدنيا وقال وهب قرأت في بعض الكتب الدنيا غنيمة الاكياس وغفلة الجهال لم يعرفوها حتى خرجوا منها فسألوا الرجعة فلم يرجعوا وقال لقمان لابنه يا بني انك استدبرت الدنيا من يوم نزلتها واستقبلت الآخرة فانت الى دار تقرب منها أقرب من دار تباعد عنها وقال سعيد ابن مسعود اذا رأيت العبد تزداد دنياه وتنقص آخرته وهو به راض فذلك المغبون الذي يلعب بوجهه وهو لا يشعر وقال عمرو بن العاص على المنبر والله ما رأيت قوما أرغب فيما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزهد فيه منكم والله ما مر برسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث الا والذي عليه أكثر من الذي له وقال الحسن بعد أن تلا قوله تعالى فلا تغرنكم الحياة الدنيا من قال ذا قاله من خلقها ومن هو أعلم بها اياكم وما شغل من الدنيا فان الدنيا كثيرة الاشغال لا يفتح رجل على نفسه باب شغل الا أوشك ذلك الباب أن يفتح عليه عشرة أبواب وقال أيضا مسكين ابن آدم رضي بدار حلالها حساب وحرامها عذاب ان أخذه من حله حوسب به وان أخذه من حرام عذب به ابن آدم يستقل ماله ولا يستقل عمله يفرح بمصيبته في دينه ويجزع من مصيبته في دنياه وكتب الحسن الى عمر بن عبد العزيز سلام عليك أما بعد فكأنك بآخر من كتب عليه الموت قد مات فأجابه عمر سلام عليك كأنك بالدنيا ولم تكن وكأنك بالآخرة لم تزل وقال الفضيل بن عياض الدخول في الدنيا هين ولكن الخروج منها شديد وقال بعضهم عجبا لمن يعرف أن الموت حق كيف يفرح وعجبا لمن يعرف أن النار حق كيف يضحك وعجبا لمن رأى تقلب الدنيا باهلها كيف يطمئن اليها وعجبا لمن يعلم أن القدر حق كيف ينصب وقدم على معاوية رضي الله عنه رجل من نجران عمره مائتا سنة فسأله عن الدنيا كيف وجدها فقال سنيات بلاء وسنيات رخاء يوم فيوم وليلة فليلة يولد ولد ويهلك هالك فلولا المولود لباد الخلق ولولا الهالك ضاقت الدنيا بمن فيها فقال له سل ما شئت قال عمر مضى فترده أو أجل حضر فتدفعه قال لا أملك ذلك قال لا حاجة لي اليك وقال داود الطائي رحمه الله يا ابن آدم فرحت ببلوغ أملك وانما بلغته بانقضاء أجلك ثم سوفت بعملك كان منفعته لغيرك وقال بشر من سأل الله الدنيا فانما يسأله طول الوقوف بين يديه وقال أبو حازم ما في الدنيا شيء يسرك الا وقد ألصق الله اليه شيأ يسوءك وقال الحسن لا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا الا بحسرات ثلاث انه لم يشبع مما جمع ولم يدرك ما أمل ولم يحسن الزاد لما يقدم عليه وقيل لبعض العباد قد نلت الغنى فقال انما نال الغنى من عتق من رق الدنيا وقال أبو سليمان لا يصبر عن شهوات الدنيا الا من كان في قلبه ما يشغله بالآخرة وقال مالك بن دينار اصطلحنا على حب الدنيا فلا يأمر بعضنا بعضا ولا ينهى بعضنا بعضا ولا يدعنا الله على هذا فليت شعري أي عذاب الله ينزل علينا وقال أبو حازم يسير الدنيا يشغل عن كثير الآخرة وقال الحسن أهينوا الدنيا فوالله ما هي لاحد بأهنأ منها لمن أهانها وقال أيضا اذا أراد الله بعبد خيرا أعطاه من الدنيا عطية ثم عسك فاذا نفد أعاد عليه واذا هان عليه عبد بسط له الدنيا بسطا وكان بعضهم يقول في دعائه يا ممسك السماء أن تقع على الارض الا باذنك أمسك الدنيا عني وقال محمد بن المنكدر أرأيت لو أن رجلا صام الدهر لا يفطر وقام الليل لا ينام وتصدق بماله وجاهد في سبيل الله واجتنب محارم الله غير أنه يؤتى به يوم القيامة فيقال ان هذا عظم في عينه ما صغره الله وصغر في عينه ما عظمه الله كيف ترى يكون حاله فمن منا ليس هكذا الدنيا عظيمة عنده مع ما اقترفنا من الذنوب والخطايا وقال أبو حازم اشتدت مؤنة

و وقوفك بين يدي الله ليس بينك وبينه ترجمان وهو مقبل عليك وأنت تناجيه وتعلم بين يدي من أنت واقف فانه الملك العظيم (وقيل) لبعض العارفين كيف تكبير التكبيرة الاولى فقال ينبغي اذا قلت الله أكبر أن يكون مصحوبك في الله التعظيم مع الالف والهيبة مع اللام والمراقبة والقرب مع الهاء واعلم ان من الناس من اذا قال الله أكبر غاب في مطالعة العظمة والكبرياء وامتلأ باطنه نورا وصار الكون باسره في فضاء شرح صدره كخردلة بارض فلاة ثم تلتقي الخردلة فما يخشى من الوسوسة وحديث النفس وما يتخايل في الباطن من الكون الذي صار بمثابة الخردلة فالقيت فكيف تزاحم الوسوسة وحديث النفس مثل هذا العبد وقد تزاحم

الدنيا والآخرة فاما مؤنة الآخرة فانك لاتجد عليها أعوانا واما مؤنة الدنيا فانك لاتضرب بيدك الى شئ منها الا وجدت فاجرا قد سبقك اليه وقال أبو هريرة الدنيا موقوفة بين السماء والارض كالشن البالى تنادى ربها منذ خلقها الى يوم يفنيها يارب يارب لم تبغضنى فيقول لها اسكتى يالاشئ وقال عبد الله بن المبارك حب الدنيا والذنوب فى القلب قد احتوشته فتى يصل الخير اليه وقال وهب بن منبه من فرح قلبه بشئ من الدنيا فقد أخطأ الحكمة ومن جعل شهوته تحت قدميه فرق الشيطان من ظله ومن غلب علمه هواه فهو الغالب وقيل لبشر مات فلان فقال جمع الدنيا وذهب الى الآخرة ضيع نفسه قيل له انه كان يفعل ويفعل وذكروا أبوابا من البر فقال وما ينفع هذا وهو يجمع الدنيا وقال بعضهم الدنيا تبغض الينا نفسها ونحن نحبها فكيف لو تحببت الينا وقيل لحكيم الدنيا لمن هى قال لمن تركها فقيل الآخرة لمن هى قال لمن طلبها وقال حكيم الدنيا دار خراب وأخرب منها قلب من يعمرها والجنة دار عمران وأعمر منها قلب من يطلبها وقال الجنيد كان الشافعى رحمه الله من المريدين الناطقين بلسان الحق فى الدنيا وعظ أخاله فى الله وخوفه بالله فقال ياأخى ان الدنيا دحض مزلة ودار مذلة عمرانها الى الخراب صائر وساكنها الى القبور زائر شملها على الفرقة موقوف وغناها الى الفقر مصروف الاكثار فيها اعسار والاعسار فيها يسار فافزع الى الله وارض برزق الله لاتتسلف من دار فنائك الى دار بقائك فان عيشك فىء زائل وجدار مائل أكثر من عملك وأقصر من أملك وقال ابراهيم بن أدهم لرجل أدرهم فى المنام أحب اليك أم دينار فى اليقظة فقال دينار فى اليقظة فقال كذبت لان الذى تحبه فى الدنيا كانك تحبه فى المنام والذى لاتحبه فى الآخرة كانك لاتحبه فى اليقظة وعن اسمعيل بن عياش قال كان أصحابنا يسمون الدنيا خنزيرة فيقولون اليك عنا يا خنزيرة فلو وجدوا لها اسما أقبح من هذا السموها به وقال كعب لتحببن اليكم الدنيا حتى تعبدوها وأهلها وقال يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله العقلاء ثلاثة من ترك الدنيا قبل ان تتركه وبنى قبره قبل ان يدخله وأرضى خالقه قبل ان يلقاه وقال أيضا الدنيا بلغ من شؤمها أن تمنيك لها يلهيك عن طاعة الله فكيف الوقوع فيها وقال بكر بن عبد الله من أراد ان يستغنى عن الدنيا بالدنيا كان كمطفئ النار بالتبن وقال بندار اذا رأيت أبناء الدنيا يتكلمون فى الزهد فاعلم أنهم فى سخرة الشيطان وقال أيضا من أقبل على الدنيا أحرقته نيرانها يعنى الحرص حتى يصير رمادا ومن أقبل على الآخرة صفته بنيرانها فصار سبيكة ذهب ينتفع به ومن أقبل على الله عز وجل أحرقته نيران التوحيد فصار جوهرا لاحد لقيمته وقال على كرم الله وجهه انما الدنيا ستة أشياء مطعوم ومشروب وملبوس ومركوب ومنكوح ومشموم فاشرف المطعومات العسل وهو مذقة ذباب وأشرف المشروبات الماء ويستوى فيه البر والفاجر وأشرف الملبوسات الحرير وهو نسج دودة وأشرف المركوبات الفرس وعليه يقتل الرجال وأشرف المنكوحات المرأة وهى مبال فى مبال وان المرأة لتزين أحسن شئ منها ويراد أقبح شئ منها وأشرف المشمومات المسك وهو دم

﴿ بيان المواعظ فى ذم الدنيا وصفتها ﴾

قال بعضهم ياأيها الناس اعملوا على مهل وكونوا من الله على وجل ولا تغتروا بالامل ونسيان الاجل ولا تركنوا الى الدنيا فانها غدارة خداعة قد تزخرفت لكم بغرورها وفتنتكم بامانيها وتزينت لخطابها فاصبحت كالعروس المجلية العيون اليها ناظرة والقلوب عليها عاكفة والنفوس لها عاشقة فكم من عاشق لها قتلت ومطمئن اليها خذلت فانظروا اليها بعين الحقيقة فانها دار كثير بوائقها وذمها خالقها جديدها يبلى وملكها يفنى وعزيزها يذل وكثيرها يقل ودها يموت وخيرها يفوت فاستيقظوا رحمكم الله من غفلتكم وانتبهوا من رقدتكم قبل أن يقال فلان عليل أو مدنف ثقيل فهل على الدواء من دليل أوهل الى الطبيب من سبيل فتدعى لك الاطباء ولا يرجى لك الشفاء ثم يقال فلان أوصى ولماله أحصى ثم يقال قد ثقل لسانه فما يكلم اخوانه ولا يعرف جيرانه وعرق عند ذلك جبينك وتتابع أنينك وثبت يقينك وطمحت جفونك وصدقت ظنونك وتلجلج لسانك وبكى اخوانك وقيل لك هذا ابنك فلان وهذا أخوك فلان ومنعت من الكلام فلا تنطق وختم على لسانك فلا ينطلق ثم حل بك القضاء وانتزعت نفسك من الاعضاء ثم عرج بها الى السماء فاجتمع عند ذلك اخوانك وأحضرت أكفانك فغسلوك وكفنوك فانقطع عوادك واستراح حسادك وانصرف أهلك

مطالعة العظمة والغيبوبة فى ذلك كون النية غير انه لغاية لطف الحال يختص الروح بمطالعة العظمة والقلب يتميز بالنية فتكون النية موجودة باللطف صفاتها مندرجة فى نور العظمة اندراج الكوكب فى ضوء الشمس ثم يقبض بيده اليمنى يده اليسرى ويجعلهما بين السرة والصدر واليمنى لكرامتها تجعل فوق اليسرى ويعد المسبحة والوسطى على الساعد ويقبض بالثلاثة البواقى اليسرى من الطرفين وقد فسر أمير المؤمنين على رضى الله عنه قوله تعالى فصل لربك وانحر قال انه وضع اليمنى على الشمال تحت الصدر وذلك أن تحت الصدر عرقا يقال له الناحر أى ضع يدك على الناحر وقال بعضهم وانحر أى استقبل القبلة بنحرك وفى ذلك سر خفى يكاشف به من وراء أستار الغيب وذلك

الى مالك و بقيت مرتهنا بأعمالك وقال بعضهم لبعض الملوك ان أحق الناس بذم الدنيا وقلاها من بسط له فيها وأعطى حاجته منها لانه يتوقع آفة تعدو على ماله فتجتاحه أو على جمعه فتفرقه أو تأتى سلطانه فتهدمه من القواعد أو تدب الى جسمه فتسقمه أو تفجعه بشئ هو ضنين به بين أحبابه فالدنيا أحق بالذم هى الآخذة ما تعطى الراجعة فيما تهب بيناهى تضحك صاحبها اذ أضحكت منه غيره و بيناهى تبكى له اذ أبكت عليه و بيناهى تبسط كفها بالاعطاء اذ بسطتها بالاسترداد فتعقد التاج على رأس صاحبها اليوم وتعفره بالتراب غدا سواء عليها ذهاب ماذهب و بقاء مابقى تجد فى الباقى من الذاهب خلفا وترضى بكل من كل بدلا * وكتب الحسن البصرى الى عمر ابن عبد العزيز أما بعد فان الدنيا دار ظعن ليست بدار اقامة وانما أنزل آدم عليه السلام من الجنة اليها عقوبة فاحذرها يا أمير المؤمنين فان الزاد منها تركها والغنى منها فقرها لها فى كل حين قتيل تذل من أعزها وتفقر من جمعها هى كالسم يأكله من لا يعرفه وفيه حتفه فكن فيها كالمداوى جراحه يحتمى قليلا مخافة ما يكره طويلا و يصبر على شدة الدواء مخافة طول الداء فاحذر هذه الدار الغدارة الختالة الخداعة التى قد تزينت بخدعها وفتنت بغرورها وحلت بآمالها وسوفت بخطابها فاصبحت كالعروس المجلية العيون اليها ناظرة والقلوب عليها والهة والنفوس لها عاشقة وهى لازواجها كلهم قالية فلا الباقى بالماضى معتبر ولا الآخر بالاول مزدجر ولا العارف بالله عز و جل حين أخبره عنها مدكر فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته فاغتر وطغى ونسى المعاد فشغل فيها لبه حتى زلت به قدمه فعظمت ندامته وكثرت حسرته واجتمعت عليه سكرات الموت وتألمه وحسرات الفوت بغصته و راغب فيها لم يدرك منها ما طلب ولم يروح نفسه من التعب نخرج بغير زاد وقدم على غير مهاد فاحذرها يا أمير المؤمنين وكن أسر ما تكون فيها أحذر ما تكون لها فان صاحب الدنيا كلما اطمأن منها الى سرور أشخصته الى مكروه السار فى أهلها غار والنافع فيها غدار ضار وقد وصل الرخاء منها بالبلاء وجعل البقاء فيها الى فناء فسرورها مشوب بالاحزان لا يرجع منها ماولى وأدبر ولا يدرى ماهو آت فينتظر أمانيها كاذبة وآمالها باطلة وصفوها كدر وعيشها نكد وابن آدم فيها على خطر ان عقل ونظر فهو من النعماء على خطر ومن البلاء على حذر فلو كان الخالق لم يخبر عنها خبرا ولم يضرب لها مثلا لكانت الدنيا قد أيقظت النائم ونبهت الغافل فكيف وقد جاء من الله عز و جل عنها زاجر وفيها واعظ فما لها عند الله جل ثناؤه قدر وما نظر اليها منذ خلقها ولقد عرضت على نبيك صلى الله عليه وسلم بمفاتيحها وخزائنها لا ينقصه ذلك عند الله جناح بعوضة فابى أن يقبلها اذ كره أن يخالف على الله أمره أو يحب ما أبغضه خالقه أو يرفع ما وضع مليكه فزواها عن الصالحين اختيارا و بسطها لاعدائه اغترارا فيظن المغرور بها المقتدر عليها أنه أكرم بها ونسى ما صنع الله عز و جل بمحمد صلى الله عليه وسلم حين شد الحجر على بطنه ولقد جاءت الرواية عنه عن ربه جل وعز انه قال لموسى عليه السلام اذا رأيت الغنى مقبلا فقل ذنب عجلت عقوبته واذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين وان شئت اقتديت بصاحب الروح والكلمة عيسى بن مريم عليه السلام فانه كان يقول ادامى الجوع وشعارى الخوف ولباسى الصوف وصلائى فى الشتاء مشارق الشمس وسراجى القمر ودابتى رجلاى وطعامى وفاكهتى ما أنبتت الارض أبيت وليس لى شئ وأصبح وليس لى شئ وليس على الارض أحد أغنى منى وقال وهب بن منبه لما بعث الله عز وجل موسى وهرون عليهما السلام الى فرعون قال لا يروعنكما لباسه الذى لبس من الدنيا فان ناصيته بيدى ليس ينطق ولا يطرف ولا يتنفس الا باذنى ولا يعجبنكما ما تمتع به منها فانما هى زهرة الحياة الدنيا و زينة المترفين فلو شئت ان أزينكما بزينة من الدنيا يعرف فرعون حين يراها أن قدرته تعجز عما أوتيتما لفعلت ولكنى أرغب بكما عن ذلك فازوى ذلك عنكما وكذلك أفعل بأوليائى انى لأذودهم عن نعيمها كما يذود الراعى الشفيق غنمه عن مراتع الهلكة وانى لاجنبهم سلاذها كما يجنب الراعى الشفيق ابله عن منازل الغرة وما ذاك لهوانهم على ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتى سالما موفرا انما يتزين لى أوليائى بالذل والخوف والخضوع والتقوى تنبت فى قلوبهم وتظهر على أجسادهم فهى ثيابهم التى يلبسون ودثارهم الذى يظهرون وضميرهم الذى يستشعرون ونجاتهم التى بها يفوزون ورجاؤهم الذى اياه يأملون ومجدهم الذى به يفخرون وسيماهم التى بها يعرفون فاذا لقيتهم فاخفض

ان الله تعالى بلطيف حكمته خلق الآدمى وشرفه وكرمه و جعله محل نظره ومورد وحيه ونخبة ما فى أرضه وسمائه روحانيا وجسمانيا أرضيا سماويا بامنتصب القامة مرتفع الهيئة فنصفه الاعلى من حد الفؤاد مستودع أسرار السموات ونصفه الاسفل مستودع أسرار الارض فمحل نفسه ومركزها النصف الاسفل ومحل روحه الروحانى والقلب النصف الاعلى فجواذب الروح مع جواذب النفس يتطاردان و يتحاربان و باعتبار تطاودهما وتغالبهما تكون لمة الملك ولمة الشيطان ووقت الصلاة يكثر التطارد لوجود التجاذب بين الايمان والطبع فيكاشف المصلى الذى صار قلبه سماويا مترددا بين الفناء والبقاء لجواذب النفس متصاعدة من مركزها وللجوارح وتصرفها وحركتها مع

لهم جناحك وذال لهم قلبك ولسانك واعلم انه من أخاف لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة ثم أنا الثائر له يوم القيامة وخطب على كرم الله وجهه يوما خطبة فقال فيها اعلموا أنكم ميتون ومبعوثون من بعد الموت وموقوفون على أعمالكم ومجزيون بها فلا تغرنكم الحياة الدنيا فانها بالبلاء محفوفة وبالفناء معروفة وبالغدر موصوفة وكل مافيها الى زوال وهى بين أهلها دول وسجال لا تدوم أحوالها ولا يسلم من شرها نزالها بينا أهلها منها فى رخاء وسرور اذاهم منها فى بلاء وغرور أحوال مختلفة وتارات منصرفة العيش مذموم والرخاء فيها لا يدوم وانما أهلها فيها أغراض مستهدفة ترميهم بسهامها وتقصيهم بحمامها وكل حتفه فيها مقدور وحظه فيها موفور واعلموا عباد الله أنكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا على سبيل من قد مضى ممن كان أطول منكم أعمارا وأشد عنكم بطشا وأعمر ديارا وأبعد آثارا فأصبحت أصواتهم هامدة خامدة من بعد طول تقلبها وأجسادهم بالية وديارهم على عروشها خاوية وآثارهم عافية واستبدلوا بالقصور المشيدة والسرر والنمارق الممهدة الصخور والاحجار المسندة فى القبور اللاطئة الملحدة فمحلها مقترب وساكنها مغترب بين أهل عمارة موحشين وأهل محلة متشاغلين لا يستأنسون بالعمران ولا يتواصلون تواصل الجيران والاخوان على ما بينهم من قرب المكان والجوار ودنو الدار وكيف يكون بينهم تواصل وقد طحنهم بكلكله البلا وأكلتهم الجنادل والثرى وأصبحوا بعد الحياة أمواتا وبعد نضارة العيش رفاتا فجع بهم الاحباب وسكنوا تحت التراب وظعنوا فليس لهم اياب هيهات هيهات كلا انها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون فكان قد صرتم الى ما صاروا اليه من البلى والوحدة فى دار المثوى وارتهنتم فى ذلك المضجع وضمكم ذلك المستودع فكيف بكم لو عاينتم الامور وبعثرت القبور وحصل ما فى الصدور وأوقفتم للتحصيل بين يدى الملك الجليل فطارت القلوب لاشفاقها من سالف الذنوب وهتكت عنكم الحجب والاستار وظهرت منكم العيوب والاسرار هنالك تجزى كل نفس بما كسبت ان الله عز وجل يقول ليجزى الذين أساؤا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى وقال تعالى ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه الآية جعلنا الله واياكم عاملين بكتابه متبعين لاوليائه حتى يحلنا واياكم دار المقامة من فضله انه حميد مجيد * وقال بعض الحكماء الايام سهام والناس أغراض والدهر يرميك كل يوم بسهامه ويخترمك بلياليه وأيامه حتى يستغرق جميع أجزائك فكيف بقاء سلامتك مع وقوع الايام بك وسرعة الليالى فى بدنك لو كشف لك عما أحدثت الايام فيك من النقص لاستوحشت من كل يوم يأتى عليك واستثقلت ممر الساعة بك ولكن تدبير الله فوق تدبير الاعتبار وبالسلو عن غوائل الدنيا وجد طعم لذاتها وانها الامر من العلقم اذا عجنها الحكيم وقد أعيت الواصف لعيوبها بظاهر أفعالها وما تأتى به من العجائب أكثر مما يحيط به الواعظ اللهم أرشدنا الى الصواب وقال بعض الحكماء وقد استوصف الدنيا وقدر بقائها فقال الدنيا وقتك الذى يرجع اليك فيه طرفك لان ما مضى عنك فقد فاتك ادراكه وما لم يأت فلا علم لك به والدهر يوم مقبل تنعاه ليلته وتطويه ساعاته وأحداثه تتوالى على الانسان بالتغيير والنقصان والدهر موكل بتشتيت الجماعات وانخرام الشمل وتنقل الدول والامل طويل والعمر قصير والى الله تصير الامور وخطب عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه فقال يا أيها الناس انكم خلقتم لامر ان كنتم تصدقون به فانكم حمقى وان كنتم تكذبون به فانكم هلكى انما خلقتم للابد ولكنكم من دار الى دار تنتقلون عباد الله انكم فى دار لكم فيها من طعامكم غصص ومن شرابكم شرق لا تصفو لكم نعمة تسرون بها الا بفراق أخرى تكرهون فراقها فاعملوا لما أنتم صائرون اليه خالدون فيه ثم غلبه البكاء ونزل وقال على كرم الله وجهه فى خطبته أوصيكم بتقوى الله والترك للدنيا التاركة لكم وان كنتم لا تحبون تركها المبلية أجسامكم وأنتم تريدون تجديدها فانما مثلكم ومثلها كمثل قوم فى سفر سلكوا طريقا وكانهم قد قطعوه وأفضوا الى علم فكانهم بلغوه وكم عسى أن يجرى المجرى حتى ينتهى الى الغاية وكم عسى أن يبقى من له يوم فى الدنيا وطالب حثيث يطلبه حتى يفارقها فلا تجزعوا لبؤسها وضرائها فانه الى انقطاع ولا تفرحوا بمتاعها ونعمائها فانه الى زوال عجبت لطالب الدنيا والموت يطلبه وغافل وليس بمغفول عنه وقال محمد بن الحسين لما علم أهل الفضل والعلم والمعرفة والادب أن الله عز وجل قد أهان الدنيا وانه لم يرضها لاوليائه وانها عنده حقيرة قليلة

معانى الباطن ارتباطا وموازنة فبوضع اليمنى على الشمال حصر النفس ومنع من صعود جواذبها وأثر ذلك يظهر بدفع الوسوسة وزوال حديث النفس فى الصلاة ثم اذا استولت جواذب الروح وتملكت من الفرق الى القدم عند كمال الانس وتحقق قرة العين واستيلاء سلطان المشاهد تصير النفس مقهورة ذليلة ويستنير مركزها بنور الروح وتنقطع حينئذ جواذب النفس وعلى قدر استنارة مركز النفس يزول كل العبادة ويستغنى حينئذ عن مقاومة النفس ومنع جواذبها بوضع اليمين على الشمال فيسبل حينئذ ولعل لذلك والله أعلم ما نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه صلى مسبلا وهو مذهب مالك رحمه الله ثم يقرأ وجهت وجهى الآية وهذا التوجه اتقاء لوجه قلبه

وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم زهد فيها وحذر أصحابه من فتنتها أكلوا منها قصدا وقدموا فضلا وأخذوا منها ما يكفي وتركوا ما يلهي لبسوا من الثياب ما ستر العورة وأكلوا من الطعام أدناه مما سد الجوعة ونظروا الى الدنيا بعين انها فانية والى الآخرة انها باقية فتزودوا من الدنيا كزاد الراكب فخربوا الدنيا وعمروا بها الآخرة ونظروا الى الآخرة بقلوبهم فعلموا أنهم سينظرون اليها بأعينهم فارتحلوا اليها بقلوبهم لما علموا أنهم سيرتحلون اليها بأبدانهم تعبوا قليلا وتنعموا طويلا كل ذلك بتوفيق مولاهم الكريم أحبوا ما أحب لهم وكرهوا ما كره لهم

﴿ بيان صفة الدنيا بالامثلة ﴾

اعلم ان الدنيا سريعة الفناء قريبة الانقضاء تعد بالبقاء ثم تخلف في الوفاء تنظر اليها فتراها ساكنة مستقرة وهي سائرة سيرا عنيفا ومرتحلة ارتحالا سريعا ولكن الناظر اليها قد لا يحس بحركتها فيطمئن اليها وانما يحس عند انقضائها ومثالها الظل فانه متحرك ساكن متحرك في الحقيقة ساكن في الظاهر لا تدرك حركته بالبصر الظاهر بل بالبصيرة الباطنة ولما ذكرت الدنيا عند الحسن البصري رحمه الله أنشد وقال

أحلام نوم أو كظل زائل * ان اللبيب بمثلها لا يخدع

وكان الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يتمثل كثيرا ويقول

يا أهل لذات دنيا لا بقاء لها * ان اغترارا بظل زائل حمق

وقيل ان هذا من قوله ويقال ان اعرابيا نزل بقوم فقدموا اليه طعاما فأكل ثم قام الى ظل خيمة لهم فنام هنالك فاقتلعوا الخيمة فأصابته الشمس فانتبه فقام وهو يقول

الا انما الدنيا كظل ثنية * ولا بد يوما أن ظلك زائل

وكذلك قيل وان امرأ دنياه أكبر همه * لمستمسك منها بحبل غرور

(مثال آخر للدنيا من حيث التغرير بخيالاتها ثم الافلاس منها بعد افلاتها) تشبه خيالات المنام وأضغاث الاحلام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا حلم وأهلها عليها مجازون ومعاقبون وقال يونس بن عبيد ما شبهت نفسي في الدنيا الا كرجل نام فرأى في منامه ما يكره وما يحب فبينما هو كذلك اذ انتبه فكذلك الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا فاذا ليس بأيديهم شيء مما ركنوا اليه وفرحوا به وقيل لبعض الحكماء أي شيء أشبه بالدنيا قال أحلام النائم (مثال آخر للدنيا في عداوتها لاهلها واهلاكها لبنيها) اعلم أن طبع الدنيا التلطف في الاستدراج أولا والتوصل الى الاهلاك آخرا وهي كامرأة تتزين للخطاب حتى اذا نكحتهم ذبحتهم وقد روي أن عيسى عليه السلام كوشف بالدنيا فرآها في صورة عجوز هتماء عليها من كل زينة فقال لها كم تزوجت قالت لا أحصيهم قال فكلهم مات عنك أم كلهم طلقك قالت بل كلهم قتلت فقال عيسى عليه السلام بؤسا لازواجك الباقين كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين كيف تهلكينهم واحدا بعد واحد ولا يكونون منك على حذر (مثال آخر للدنيا في مخالفة ظاهرها لباطنها) اعلم أن الدنيا مزينة الظواهر قبيحة السرائر وهي شبه عجوز متزينة تخدع الناس بظاهرها فاذا وقفوا على باطنها وكشفوا القناع عن وجهها تمثل لهم قبائحها فندموا على اتباعها وخجلوا من ضعف عقولهم في الاغترار بظاهرها وقال العلاء بن زياد رأيت في المنام عجوزا كبيرة متعصبة الجلد عليها من كل زينة الدنيا والناس عكوف عليها معجبون ينظرون اليها فجئت ونظرت وتعجبت من نظرهم اليها واقبالهم عليها فقلت لها ويلك من أنت قالت أو ما تعرفني قلت لا أدري من أنت قالت أنا الدنيا قلت أعوذ بالله من شرك قالت ان أحببت ان تعاذ من شري فابغض الدرهم وقال أبو بكر بن عياش رأيت الدنيا في النوم عجوزا مشوهة شمطاء تصفق بيديها وخلفها خلق يتبعونها يصفقون ويرقصون فلما كانت بحذائي أقبلت علي فقالت لو ظفرت بك لصنعت بك مثل ما صنعت بهؤلاء ثم بكى أبو بكر وقال رأيت هذا قبل ان أقدم الى بغداد وقال الفضيل بن عياض قال ابن عباس يؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء زرقاء أنيابها بادية مشوها خلقها فتشرف على الخلائق فيقال لهم أتعرفون هذه فيقولون نعوذ بالله من معرفة هذه فيقال هذه الدنيا التي تناحرتم عليها بها تقاطعتم الارحام وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم ثم يقذف بها في جهنم فتنادي أي رب أين اتباعي وأشياعي

فيقول

والذي قبل الصلاة لوجهه قالبه ثم يقول سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا اله غيرك اللهم أنت الملك لا اله الا أنت سبحانك وبحمدك أنت ربي وأنا عبدك ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعا انه لا يغفر الذنوب الا أنت واهدني لاحسن الاخلاق فانه لا يهدي لاحسنها الا أنت واصرف عني سيئها فانه لا يصرف عني سيئها الا أنت لبيك وسعديك فالخير كله بيديك تباركت وتعاليت أستغفرك وأتوب اليك ويطرق رأسه في قيامه ويكون نظره الى موضع السجود ويكمل القيام بانتصاب القامة ونزع يسير الانطواء عن الركبتين والخواطر ومعاطف البدن ويقف كأنه ناظر بجميع جسده الى الارض فهذا من خشوع سائر الاجزاء ويتكون الجسد

فيقول الله عزوجل ألحقوا بها أتباعها وأشياعها وقال الفضيل بلغني أن رجلا عرج بروحه فاذا امرأة على قارعة
الطريق عليها من كل زينة من الحلي والثياب واذا لا يمر بها أحد الا جرحته فاذا هي أدبرت كانت أحسن شيء
رآه الناس واذا هي أقبلت كانت أقبح شيء رآه الناس عجوز شمطاء زرقاء عمشاء قال فقلت أعوذ بالله منك قالت
لا والله لا يعيذك الله مني حتى تبغض الدرهم قال فقلت من أنت قالت أنا الدنيا ✱ مثال آخر للدنيا وعبور
الانسان بها ✱ اعلم أن الاحوال ثلاثة حالة لم تكن فيها شيأ وهي ماقبل وجودك الى الازل وحالة لا تكون فيها
مشاهد الدنيا وهي ما بعد موتك الى الابد وحالة متوسطة بين الابد والازل وهي أيام حياتك في الدنيا فانظر الى
مقدار طولها وانسبه الى طرفي الازل والابد حتى تعلم أنه أقل من منزل قصير في سفر بعيد ولذلك قال صلى الله
عليه وسلم مالي وللدنيا وانما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب سار في يوم صائف فرفعت له شجرة فقال تحت ظلها
ساعة ثم راح وتركها ومن رأى الدنيا بهذه العين لم يركن اليها ولم يبال كيف انقضت أيامه في ضر وضيق أو في
سعة ورفاهية بل لا يبني لبنة على لبنة توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وما وضع لبنة على لبنة ولا قصبة على
قصبة ورأى بعض الصحابة يبني بيتا من جص فقال أرى الامر أعجل من هذا وأنكر ذلك والى هذا أشار عيسى
عليه السلام حيث قال الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها وهو مثال واضح فان الحياة الدنيا معبر الى الآخرة
والمهد هو الميل الاول على رأس القنطرة واللحد هو الميل الآخر وبينهما مسافة محدودة فمن الناس من قطع
نصف القنطرة ومنهم من قطع ثلثها ومنهم من قطع ثلثيها ومنهم من لم يبق له الا خطوة واحدة وهو غافل عنها
وكيفما كان فلابد له من العبور والبناء على القنطرة وتزيينها بأصناف الزينة وأنت عابر عليها غاية الجهل
والخذلان ✱ مثال آخر للدنيا في لين موردها وخشونة مصدرها ✱ اعلم أن أوائل الدنيا تبدو هينة لينة
يظن الخائض فيها أن حلاوة خفضها كحلاوة الخوض فيها وهيهات فان الخوض في الدنيا سهل والخروج منها
مع السلامة شديد وقد كتب علي رضي الله عنه الى سلمان الفارسي بمثالها فقال مثل الدنيا مثل الحية لين مسها
ويقتل سمها فأعرض عما يعجبك منها لقلة ما يصحبك منها وضع عنك همومها بما أيقنت من فراقها وكن أسر
ما تكون فيها أحذر ما تكون لها فان صاحبها كلما اطمأن منها الى سرور أشخصه عنه مكروه والسلام ✱ مثال
آخر للدنيا في تعذر الخلاص من تبعاتها بعد الخوض فيها ✱ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما مثل صاحب
الدنيا كالماشي في الماء هل يستطيع الذي يمشي في الماء لا تبتل قدماه وهذا يعرفك جهالة قوم ظنوا أنهم
يخوضون في نعيم الدنيا بأبدانهم وقلوبهم منها مطهرة وعلائقها عن بواطنهم منقطعة وذلك مكيدة من الشيطان
بل لو أخرجوا مما هم فيه لكانوا من أعظم المتفجعين بفراقها فكما أن المشي على الماء يقتضي بللا لامحالة يلتصق
بالقدم فكذلك ملابسة الدنيا تقتضي علاقة وظلمة في القلب بل علاقة الدنيا مع القلب تمنع حلاوة العبادة قال عيسى
عليه السلام بحق أقول لكم كما ينظر المريض الى الطعام فلا يلتذ به من شدة الوجع كذلك صاحب الدنيا لا يلتذ
بالعبادة ولا يجد حلاوتها مع ما يجد من حب الدنيا وبحق أقول لكم ان الدابة اذا لم تركب وتمتهن تصعب ويتغير
خلقها كذلك القلوب اذا لم ترقق بذكر الموت ونصب العبادة تقسو وتغلظ وبحق أقول لكم ان الزق مالم ينخرق
أو يقحل يوشك أن يكون وعاء العسل كذلك القلوب مالم تخرقها الشهوات أو يدنسها الطمع أو يقسها النعيم
فسوف تكون أوعية للحكمة وقال النبي صلى الله عليه وسلم انما بقي من الدنيا بلاء وفتنة وانما مثل عمل أحدكم
كمثل الوعاء اذا طاب أعلاه طاب أسفله واذا خبث أعلاه خبث أسفله ✱ مثال آخر لما بقي من الدنيا وقلته
بالاضافة الى ما سبق ✱ قال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل هذه الدنيا مثل ثوب شق من أوله الى
آخره فبقي متعلقا بخيط في آخره فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع ✱ مثال آخر لتأدية علائق الدنيا بعضها الى
بعض حتى الهلاك ✱ قال عيسى عليه السلام مثل طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر كلما ازداد شربا ازداد عطشا
حتى يقتله ✱ مثال آخر لمخالفة آخر الدنيا أولها ولنضارة أوائلها وخبث عواقبها ✱ اعلم أن شهوات الدنيا
في القلب لذيذة كشهوات الاطعمة في المعدة وسيجد العبد عند الموت لشهوات الدنيا في قلبه من الكراهة والنتن
والقبح ما يجده للاطعمة اللذيذة اذا بلغت في المعدة غايتها وكما أن الطعام كلما كان ألذ طعما وأكثر دسما وأظهر
حلاوة كان رجيعه أقذر وأشد نتنا فكذلك كل شهوة في القلب هي أشهى وألذ وأقوى فنتنها وكراهتها والتأذي

بتكون القلب من
الخشوع ويراوح بين
القدمين بمقدار أربعة
أصابع فان ضم الكعبين
هو الصفد المنهي عنه
ولا يرفع احدى الرجلين
فانه الصفن المنهي عنه
نهى رسول الله صلى
الله عليه وسلم عن
الصفن والصفد واذا
كان الصفن منهيا عنه
ففي زيادة الاعتماد على
احدى الرجلين دون
الاخرى معنى من
الصفن فالاولى رعاية
الاعتدال في الاعتماد
على الرجلين جميعا ويكره
اشتمال الصماء وهو
أن يخرج يده من قبل
صدره ويجتنب السدل
وهو أن يرخي أطراف
الثوب الى الارض ففيه
معنى الخيلاء وقيل هو
الذي يلتف بالثوب
ويجعل يديه من داخل
فيركع ويسجد كذلك
وفي معناه ما اذا جعل
يديه داخل القميص
ويجتنب الكف وهو
أن يرفع ثيابه بيديه
عند السجود ويكره

بها عند الموت أشد بل هي في الدنيا مشاهدة فان من نهبت داره وأخذ أهله وماله و ولده فتكون مصيبته وألمه وتفجعه في كل ما فقد بقدر لذته به وحبه له و حرصه عليه فكل ما كان عند الوجود أشهى وألذ فهو عند الفقد أدهى وأمر ولا معنى للموت الا فقد ما في الدنيا وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للضحاك بن سفيان الكلابي ألست تؤتى بطعامك وقد ملح وقزح ثم تشرب عليه اللبن والماء قال بلى قال فالام يصير قال الى ماقد علمت يارسول الله قال فان الله عز وجل ضرب مثل الدنيا بما يصير اليه طعام ابن آدم وقال أبي بن كعب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الدنيا ضربت مثلا لابن آدم فانظر الى مايخرج من ابن آدم وان قزحه وملحه الام يصير وقال صلى الله عليه وسلم ان الله ضرب الدنيا لمطعم ابن آدم مثلا وضرب مطعم ابن آدم للدنيا مثلا وان قزحه وملحه وقال الحسن قد رأيتهم يطيبونه بالافاويه والطيب ثم يرمون به حيث رأيتم وقد قال الله عز وجل فلينظر الانسان الى طعامه قال ابن عباس الى رجيعه وقال رجل لابن عمر انى أريد أن أسألك واستحيي قال فلا تستحي واسأل قال اذا قضى أحدنا حاجته فقام ينظر الى ذلك منه قال نعم ان الملك يقول له انظر الى مابخلت به انظر الى ماذا صار وكان بشر بن كعب يقول انطلقوا حتى أريكم الدنيا فيذهب بهم الى مزبلة فيقول انظر والى ثمارهم ودجاجهم وعسلهم وسمنهم (مثال آخر في نسبة الدنيا الى الآخرة) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما الدنيا في الآخرة الا كمثل مايجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر أحدكم بم يرجع اليه (مثال آخر للدنيا وأهلها في اشتغالهم بنعيم الدنيا وغفلتهم عن الآخرة وخسرانهم العظيم بسببها) اعلم أن أهل الدنيا مثلهم في غفلتهم مثل قوم ركبوا سفينة فانتهت بهم الى جزيرة فأمرهم الملاح بالخروج الى قضاء الحاجة وحذرهم المقام وخوفهم مرور السفينة واستعجالها فتفرقوا في نواحي الجزيرة فقضى بعضهم حاجته و بادر الى السفينة فصادف المكان خاليا فأخذ أوسع الاماكن وألينها وأوفقها لمراده و بعضهم توقف في الجزيرة ينظر الى أنوارها وأزهارها العجيبة وغياضها الملتفة ونغمات طيورها الطيبة وألحانها الموزونة الغريبة وصار يلحظ من بريتها أحجارها وجواهرها ومعادنها المختلفة الالوان والاشكال الحسنة المنظر العجيبة النقوش السالبة أعين الناظرين بحسن زبرجدها وعجائب صورها ثم تنبه لخطر فوات السفينة فرجع اليها فلم يصادف الامكانا ضيقا حرجا فاستقر فيه و بعضهم أكب على تلك الاصداف والاحجار وأعجبه حسنها ولم تسمح نفسه باهمالها فاستصحب منها جملة فلم يجد في السفينة الامكانا ضيقا و زاده ماحمله من الحجارة ضيقا وصار ثقيلا عليه و وبالا فندم على أخذه ولم يقدر على رميه ولم يجد مكانا لوضعه فحمله في السفينة على عنقه وهو متأسف على أخذه وليس ينفعه التأسف و بعضهم تولج الغياض ونسي المركب و بعد في متفرجه ومتنزهه منه حتى لم يبلغه نداء الملاح لاشتغاله بأكل تلك الثمار واستشمام تلك الانوار والتفرج بين تلك الاشجار وهو مع ذلك خائف على نفسه من السباع وغير خال من السقطات والنكبات ولا منفك عن شوك ينشب بثيابه وغصن يجرح بدنه وشوكة تدخل في رجله وصوت هائل يفزع منه وعوسج يخرق ثيابه و يهتك عورته و يمنعه عن الانصراف لو أراد فلما بلغه نداء أهل السفينة انصرف مثقلا بما معه ولم يجد في المركب موضعا فبقي في الشط حتى مات جوعا وبعضهم لم يبلغه النداء وسارت السفينة فمنهم من افترسته السباع ومنهم من تاه فهام على وجهه حتى هلك ومنهم من مات في الاوحال ومنهم من نهشته الحيات فتفرقوا كالجيف المنتنة وأما من وصل الى المركب بثقل ماأخذه من الازهار والاحجار فقد استرقته وشغله الحزن بحفظها والخوف من فوتها وقد ضيقت عليه مكانه فلم يلبث أن ذبلت تلك الازهار وكمدت تلك الالوان والاحجار فظهر نتن رائحتها فصارت مع كونها مضيقة عليه مؤذية له بنتنها ووحشتها فلم يجد حيلة الا أن ألقاها في البحر هربا منها وقد أثر فيه ماأكل منها فلم ينته الى الوطن الا بعد ان ظهرت عليه الاسقام بتلك الروائح فبلغ سقيما مدبرا ومن رجع قريبا مافاته الا سعة المحل فتأذى بضيق المكان مدة ولكن لما وصل الى الوطن استراح ومن رجع أولا وجد المكان الاوسع ووصل الى الوطن سالما فهذا مثال أهل الدنيا في اشتغالهم بحظوظهم العاجلة ونسيانهم موردهم ومصدرهم وغفلتهم عن عاقبة أمورهم وما أقبح من يزعم أنه بصير عاقل أن تغره أحجار الارض وهي الذهب والفضة وهشيم النبت وهي زينة الدنيا وشيء من ذلك لايصحبه عند الموت بل يصير كلا و وبالا عليه وهو في الحال شاغل له

بالحزن

الاختصار وهو أن يجعل يده على الخاصرة و يكره الصلب وهو وضع اليدين جميعا على الخصرين ويجافي العضدين فاذا وقف في الصلاة على الهيئة التي ذكرناها مجتنبا المكاره فقد تم القيام وكمله فيقرأ آية التوجه والدعاء كما ذكرنا ثم يقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم و يقولها في كل ركعة أمام القراءة و يقرأ الفاتحة ومابعدها بحضور قلب وجمع هم ومواطأة بين القلب واللسان بحظ وافر من الوصلة والدنو والهيبة والخشوع والخشية والتعظيم والوقار والمشاهدة والمناجاة وان قرأ بين الفاتحة ومايقرأ بعدها اذا كان اماما في السكتة الثانية اللهم باعد بيني و بين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب ونقني من الخطايا كما ينقى الثوب الابيض من الدنس اللهم اغسل

بالحزن والخوف عليه وهذه حال الخلق كلهم الا من عصمه الله عز وجل (مثال آخر لاغترار الخلق بالدنيا وضعف ايمانهم) قال الحسن رحمه الله بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لاصحابه انما مثلي ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء حتى اذا لم يدروا ما سلكوا منها أكثر أو ما بقي أنفدوا الزاد وحسروا الظهر وبقوا بين ظهراني المفازة ولا زاد ولا حمولة فايقنوا بالهلكة فبينما هم كذلك اذ خرج عليهم رجل في حلة تقطر رأسه فقالوا هذا قريب عهد بريف وما جاءكم هذا الا من قريب فلما انتهى اليهم قال يا هؤلاء فقالوا يا هذا فقال علام أنتم فقالوا على ما ترى فقال أرأيتم ان هديتكم الى ماء رواء ورياض خضر ما تعملون قالوا لا نعصيك شيأ قال عهودكم ومواثيقكم بالله فاعطوه عهودهم ومواثيقهم بالله لا يعصونه شيأ قال فاوردهم ماء رواء ورياضا خضرا فمكث فيهم ما شاء الله ثم قال يا هؤلاء قالوا يا هذا قال الرحيل قالوا الى أين قال الى ماء ليس كمائكم والى رياض ليست كرياضكم فقال أكثرهم والله ما وجدناه هذا حتى ظننا انا لن نجده وما نصنع بعيش خير من هذا وقالت طائفة وهم أقلهم ألم تعطوا هذا الرجل عهودكم ومواثيقكم بالله أن لا تعصوه شيأ وقد صدقكم في أول حديثه فوالله ليصدقنكم في آخره فراح فيمن اتبعه وتخلف بقيتهم فبدرهم عدو فأصبحوا بين أسير وقتيل (مثال آخر لتنعم الناس بالدنيا ثم تفجعهم على فراقها) اعلم ان مثل الناس فيما أعطوا من الدنيا مثل رجل هيأ دارا وزينها وهو يدعو الى داره على الترتيب قوما واحدا بعد واحد فدخل واحد داره فقدم اليه طبق ذهب عليه بخور ورياحين ليشمه ويتركه لمن يلحقه لا ليتملكه ويأخذه فجهل رسمه وظن انه قد وهب ذلك منه فتعلق به قلبه لما ظن أنه له فلما استرجع منه ضجر وتفجع ومن كان عالما برسمه انتفع به وشكره ورده بطيب قلب وانشراح صدر وكذلك من عرف سنة الله في الدنيا علم انها دار ضيافة سبلت على المجتازين لا على المقيمين ليتزودوا منها وينتفعوا بما فيها كما ينتفع المسافرون بالعواري ولا يصرفون اليها كل قلوبهم حتى تعظم مصيبتهم عند فراقها فهذه أمثلة الدنيا وآفاتها وغوائلها نسأل الله تعالى اللطيف الخبير حسن العون بكرمه وحلمه

﴿بيان حقيقة الدنيا وماهيتها في حق العبد﴾

اعلم أن معرفة ذم الدنيا لا تكفيك ما لم تعرف الدنيا المذمومة ما هي وما الذي ينبغي أن يجتنب منها وما الذي لا يجتنب فلابد وأن نبين الدنيا المذمومة المأمور باجتنابها لكونها عدوة قاطعة لطريق الله ما هي فنقول دنياك وآخرتك عبارة عن حالتين من أحوال قلبك فالقريب الداني منها يسمى دنيا وهو كل ما قبل الموت والمتراخي المتأخر يسمى آخرة وهو ما بعد الموت فكل مالك فيه حظ ونصيب وغرض وشهوة ولذة عاجل الحال قبل الوفاة فهي الدنيا في حقك الا أن جميع مالك اليه ميل وفيه نصيب وحظ فليس بمذموم بل هو ثلاثة أقسام ﴿القسم الاول﴾ ما يصحبك في الآخرة وتبقى معك ثمرته بعد الموت وهو شيآن العلم والعمل فقط وأعني بالعلم العلم بالله وصفاته وأفعاله وملائكته وكتبه ورسله وملكوت أرضه وسمائه والعلم بشريعة نبيه وأعني بالعمل العبادة الخالصة لوجه الله تعالى وقد يأنس العالم بالعلم حتى يصير ذلك ألذ الاشياء عنده فيهجر النوم والمطعم والمنكح في لذته لانه أشهى عنده من جميع ذلك فقد صار حظا عاجلا في الدنيا ولكنا اذا ذكرنا الدنيا المذمومة لم نعد هذا من الدنيا أصلا بل قلنا انه من الآخرة وكذلك العابد قد يأنس بعبادته فيستلذها بحيث لو منع عنها لكان ذلك أعظم العقوبات عليه حتى قال بعضهم ما أخاف من الموت الا من حيث يحول بيني وبين قيام الليل وكان آخر يقول اللهم ارزقني قوة الصلاة والركوع والسجود في القبر فهذا قد صارت الصلاة من حظوظه العاجلة وكل حظ عاجل فاسم الدنيا ينطلق عليه من حيث الاشتقاق من الدنو ولكنا لسنا نعني بالدنيا المذمومة ذلك وقد قال صلى الله عليه وسلم حبب الي من دنياكم ثلاث النساء والطيب وقرة عيني في الصلاة فجعل الصلاة من جملة ملاذ الدنيا وكذلك كل ما يدخل في الحس والمشاهدة فهو من عالم الشهادة وهو من الدنيا والتلذذ بتحريك الجوارح بالركوع والسجود انما يكون في الدنيا فلذلك أضافها الى الدنيا الا أنا لسنا في هذا الكتاب نتعرض الا للدنيا المذمومة فنقول هذه ليست من الدنيا ﴿القسم الثاني﴾ وهو المقابل له على الطرف الاقصى كل ما فيه حظ عاجل ولا ثمرة له في الآخرة أصلا كالتلذذ بالمعاصي كلها والتنعم بالمباحات الزائدة على قدر الحاجات والضرورات الداخلة في

خطاياي بالماء والثلج والبرد فحسن وان قالها في السكتة الاولى فحسن روي عن النبي عليه السلام أنه قال ذلك وان كان منفردا يقولها قبل القراءة ويعلم العبدان تلاوته نطق اللسان ومعناها نطق القلب وكل مخاطب لشخص يتكلم بلسانه ولسانه يعبر عما في قلبه ولو أمكن المتكلم افهام من يكلمه من غير لسان فعل ولكن حيث تعذر الافهام الا بالكلام جعل اللسان ترجمانا فاذا قال باللسان من غير مواطأة القلب فما اللسان ترجمانا ولا القارئ متكلما قاصدا اسماع الله حاجته ولا مستمعا الى الله فاهما عنه سبحانه ما يخاطبه وما عنده غير حركة اللسان بقلب غائب عن قصد ما يقول فينبغي أن يكون متكلما مناجيا أو مستمعا واعيا فافضل مراتب أهل الخصوص في الصلاة الجمع بين

جملة الرفاهية والرعونات كالتنعم بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث والغلمان والجوارى والخيول والمواشى والقصور والدور ورفيع الثياب ولذائذ الاطعمة فحظ العبد من هذا كله هى الدنيا المذمومة وفيما يعد فضولا أوفى محل الحاجة نظر طويل اذروى عن عمر رضى الله عنه أنه استعمل أبا الدرداء على حمص فاتخذ كنيفا أنفق عليه درهمين فكتب اليه عمر من عمر بن الخطاب أمير المؤمنين الى عويمر قد كان لك فى بناء فارس والروم ماتكتفى به عن عمران الدنيا حين أراد الله خرابها فاذا أتاك كتابى هذا فقد سيرتك الى دمشق أنت وأهلك فلم يزل بها حتى مات فهذا رآه فضولا من الدنيا فتأمل فيه * (القسم الثالث) * وهو متوسط بين الطرفين كل حظ فى العاجل معين على أعمال الآخرة كقدر القوت من الطعام والقميص الواحد الخشن وكل مالابد منه ليتأتى للانسان البقاء والصحة التى بها يتوصل الى العلم والعمل وهذا ليس من الدنيا كالقسم الاول لانه معين على القسم الاول ووسيلة اليه فهما تناوله العبد على قصد الاستعانة به على العلم والعمل لم يكن به متناولا للدنيا ولم يصر به من أبناء الدنيا وان كان باعثه الحظ العاجل دون الاستعانة على التقوى التحق بالقسم الثانى وصار من جملة الدنيا ولا يبقى مع العبد عند الموت الا ثلاث صفات صفاء القلب أعنى طهارته عن الادناس وأنسه بذكر الله تعالى وحبه لله عز وجل وصفاء القلب وطهارته لايحصلان الا بالكف عن شهوات الدنيا والانس لايحصل الا بكثرة ذكر الله تعالى والمواظبة عليه والحب لايحصل الا بالمعرفة ولاتحصل معرفة الله الا بدوام الفكر وهذه الصفات الثلاث هى المنجيات المسعدات بعد الموت * أما طهارة القلب عن شهوات الدنيا فهى من المنجيات اذ تكون جنة بين العبد وبين عذاب الله كما ورد فى الاخبار ان أعمال العبد تناضل عنه فاذا جاء العذاب من قبل رجليه جاء قيام الليل يدفع عنه واذا جاء من جهة يديه جاءت الصدقة تدفع عنه الحديث وأما الانس والحب فهما من المسعدات وهما موصلان العبد الى لذة اللقاء والمشاهدة وهذه السعادة تتعجل عقيب الموت الى أن يدخل أوان الرؤية فى الجنة فيصير القبر روضة من رياض الجنة وكيف لا يكون القبر عليه روضة من رياض الجنة ولم يكن له الا محبوب واحد وكانت العوائق تعوقه عن دوام الانس بدوام ذكره ومطالعة جماله فارتفعت العوائق وأفلت من السجن وخلى بينه وبين محبوبه فقدم عليه مسرورا سليما من الموانع آمنا من العوائق وكيف لا يكون محب الدنيا عند الموت معذبا ولم يكن له محبوب الا الدنيا وقد غصب منه وحيل بينه وبينه وسدت عليه طرق الحيلة فى الرجوع اليه ولذلك قيل

ماحال من كان له واحد * غيب عنه ذلك الواحد

وليس الموت عدما انما هو فراق لمحاب الدنيا وقدوم على الله تعالى فاذا سالك طريق الآخرة هو المواظب على أسباب هذه الصفات الثلاث وهى الذكر والفكر والعمل الذى يفطمه عن شهوات الدنيا ويبغض اليه ملاذها ويقطعه عنها وكل ذلك لايمكن الا بصحة البدن وصحة البدن لاتنال الا بقوت وملبس ومسكن ويحتاج كل واحد الى أسباب فالقدر الذى لابد منه من هذه الثلاثة اذا أخذه العبد من الدنيا للآخرة لم يكن من أبناء الدنيا وكانت الدنيا فى حقه مزرعة للآخرة وان أخذ ذلك بحظ النفس وعلى قصد التنعم صار من أبناء الدنيا والراغبين فى حظوظها الا أن الرغبة فى حظوظ الدنيا تنقسم الى مايعرض صاحبه لعذاب الآخرة ويسمى ذلك حراما والى مايحول بينه وبين الدرجات العلا ويعرضه لطول الحساب ويسمى ذلك حلالا والبصير يعلم أن طول الموقف فى عرصات القيامة لاجل المحاسبة أيضا عذاب فمن نوقش الحساب عذب اذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حلالها حساب وحرامها عذاب وقد قال أيضا حلالها عذاب الا أنه عذاب أخف من عذاب الحرام بل لو لم يكن الحساب لكان مايفوت من الدرجات العلا فى الجنة ومايرد على القلب من التحسر على تفويتها لحظوظ حقيرة خسيسة لابقاء لها هو أيضا عذاب وقس به حالك فى الدنيا اذا نظرت الى أقرانك وقد سبقوك بسعادات دنيوية كيف يتقطع قلبك عليها حسرات مع علمك بأنها سعادات منصرمة لابقاء لها أو منغصة بكدورات لاصفاء لها فما حالك فى فوات سعادة لايحيط الوصف بعظمها وتنقطع الدهور دون غايتها فكل من تنعم فى الدنيا ولو بسماع صوت من طائر أو بالنظر الى خضرة أو شربة ماء بارد فانه ينقص من حظه فى الآخرة أضعافه وهو المعنى بقوله صلى الله عليه

القلب واللسان فى التلاوة ووراء ذلك أحوال للخواص يطول شرحها (قال بعضهم) مادخلت فى صلاة قط فأهمنى فيها غير ما أقول * وقيل لعامر بن عبد الله هل تجد فى الصلاة شيأ من أمور الدنيا فقال لان تختلف على الاسنة أحب الى من أن أجد فى الصلاة ماتجدون * وقيل لبعضهم هل تحدث نفسك فى الصلاة بشئ من أمور الدنيا فقال لا فى الصلاة ولا فى غيرها ومن الناس من اذا أقبل على الله فى صلاته يتحقق بمعنى الانابة لان الله تعالى قدم الانابة وقال منيبين اليه واتقوه وأقيموا الصلاة فينيب الى الله تعالى ويتقى الله تعالى بالتبرى عما سواه ويقيم الصلاة بصدر منشرح بالاسلام وقلب منفتح بنور الانعام فتخرج الكلمة من القرآن من لسانه ويسمعها بقلبه فتقع الكلمة فى فضاء قلب

وسلم

وسلم لعمر رضى الله عنه هذا من النعيم الذى تسئل عنه أشار به الى الماء البارد والتعرض لجواب السؤال فيه ذل وخوف وخطر ومشقة وانتظار وكل ذلك من نقصان الحظ ولذلك قال عمر رضى الله عنه اعزلوا عنى حسابها حين كان به عطش فعرض عليه ماء بارد بعسل فاداره فى كفه ثم امتنع عن شربه فالدنيا قليلها وكثيرها حرامها وحلالها ملعونة الا ما أعان على تقوى الله فان ذلك القدر ليس من الدنيا وكل من كانت معرفته أقوى وأتقن كان حذره من نعيم الدنيا أشد حتى أن عيسى عليه السلام وضع رأسه على حجر لما نام ثم رماه اذ تمثل له ابليس وقال رغبت فى الدنيا وحتى ان سليمان عليه السلام فى ملكه كان يطعم الناس لذائذ الاطعمة وهو يأكل خبز الشعير فجعل الملك على نفسه بهذا الطريق امتهانا وشدة فان الصبر عن لذائذ الاطعمة مع القدرة عليها ووجودها أشد ولهذا روى أن الله تعالى زوى الدنيا عن نبينا صلى الله عليه وسلم فكان يطوى أياما وكان يشد الحجر على بطنه من الجوع ولهذا اساط الله البلاء والمحن على الانبياء والاولياء ثم الامثل فالامثل كل ذلك نظرا لهم وامتنانا عليهم ليتوفر من الآخرة حظهم كما يمنع الوالد الشفيق ولده لذة الفواكه ويلزمه ألم الفصد والحجامة شفقة عليه وحبا له لا بخلا عليه وقد عرفت بهذا أن كل ما ليس لله فهو من الدنيا وما هو لله فذلك ليس من الدنيا فان قلت فما الذى هو لله فاقول الاشياء ثلاثة أقسام منها ما لا يتصور أن يكون لله وهو الذى يعبر عنه بالمعاصى والمحظورات وأنواع التنعمات فى المباحات وهى الدنيا المحضة المذمومة فهى الدنيا صورة ومعنى ومنها ما صورته لله ويمكن أن يجعل لغير الله وهو ثلاثة الفكر والذكر والكف عن الشهوات فان هذه الثلاثة اذا جرت سرا ولم يكن عليها باعث سوى أمر الله واليوم الآخر فهى لله وليست من الدنيا وان كان الغرض من الفكر طلب العلم للتشرف به وطلب القبول بين الخلق باظهار المعرفة أو كان الغرض من ترك الشهوة حفظ المال أو الحمية لصحة البدن والاشتهار بالزهد فقد صار هذا من الدنيا بالمعنى وان كان يظن بصورته أنه لله تعالى ومنها ما صورته لحظ النفس ويمكن أن يكون معناه لله وذلك كالاكل والنكاح وكل ما يرتبط به بقاؤه وبقاء ولده فان كان القصد حظ النفس فهو من الدنيا وان كان القصد الاستعانة به على التقوى فهو لله بمعناه وان كانت صورته صورة الدنيا قال صلى الله عليه وسلم من طلب الدنيا حلالا مكاثرا مفاخرا لقى الله وهو عليه غضبان ومن طلبها استعفافا عن المسألة وصيانة لنفسه جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر فانظر كيف اختلف ذلك بالقصد فاذا الدنيا حظ نفسك العاجل الذى لا حاجة اليه لامر الآخرة ويعبر عنه بالهوى واليه الاشارة بقوله تعالى ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى ومجامع الهوى خمسة أمور وهى ما جمعه الله تعالى فى قوله انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الاموال والاولاد والاعيان التى تحصل منها هذه الخمسة سبعة يجمعها قوله تعالى زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا فقد عرفت أن كل ما هو لله فليس من الدنيا وقدر ضرورة القوت وما لا بد منه من مسكن وملبس هو لله ان قصد به وجه الله والاستكثار منه تنعم وهو لغير الله وبين التنعم والضرورة درجة يعبر عنها بالحاجة ولها طرفان وواسطة طرف يقرب من حد الضرورة فلا يضر فان الاقتصار على حد الضرورة غير ممكن وطرف يزاحم جانب التنعم ويقرب منه وينبغى أن يحذر منه وبينهما وسائط متشابهة ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه والحزم فى الحذر والتقوى والتقرب من حد الضرورة ما أمكن اقتداء بالانبياء والاولياء عليهم السلام اذ كانوا يردون أنفسهم الى حد الضرورة حتى ان أويسا القرنى كان يظن أهله أنه مجنون لشدة تضييقه على نفسه فبنوا له بيتا على باب دارهم فكان يأتى عليهم السنة والسنتان والثلاث لا يرون له وجها وكان يخرج أول الاذان ويأتى الى منزله بعد العشاء الآخرة وكان طعامه أن يلتقط النوى وكلما أصاب حشفة خبأها لافطاره وان لم يصب ما يقوته من الحشف باع النوى واشترى بثمنه ما يقوته وكان لباسه مما يلتقط من المزابل من قطع الاكسية فيغسلها فى الفرات ويلفق بعضها الى بعض ثم يلبسها فكان ذلك لباسه وكان ربما مر بهم الصبيان فيرمونه ويظنون أنه مجنون فيقول لهم يا اخوتاه ان كنتم ولا بد أن ترمونى فارمونى باحجار صغار فانى أخاف أن تدموا عقبى فيحضر وقت الصلاة ولا أصيب الماء فهكذا كانت سيرته ولقد عظم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره فقال انى لاجد نفس

لبس فيه غيرها فيمتلكها القلب بحسن الفهم ولذيذ نعمة الاصغاء ويتشربها بحلاوة الاسماع وكمال الوعى ويدرك لطيف معناها وشريف فحواها معانى تلطف عن تفصيل الذكر وتتشكل بخفى الفكر وبصير الظاهر من معانى القرآن قوت النفس فالنفس المطمئنة متعوضة بمعانى القرآن عن حدثيها لكونها معانى ظاهرة متوجهة الى عالم الحكمة والشهادة تقرب مناسبتها من النفس المكونة لاقامة رسم الحكمة ومعانى القرآن الباطنة التى يكاشف بها من الملكوت قوت القلب وتخلص الروح المقدس الى أوائل سرادقات الجبروت بمطالعة عظمة المتكلم وبمثل هذه المطالعة يكون كمال الاستغراق فى لجج الاشواق كما نقل عن مسلم بن يسار أنه صلى ذات يوم فى مسجد

الرحمن من جانب اليمن اشارة اليه رحمه الله ولما ولى الخلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال أيها الناس
من كان منكم من العراق فليقم قال فقاموا فقال اجلسوا الا من كان من أهل الكوفة فجلسوا فقال اجلسوا
الا من كان من مراد فجلسوا فقال اجلسوا الا من كان من قرن فجلسوا كلهم الا رجلا واحدا فقال له عمر أقرنى
أنت فقال نعم فقال أتعرف أويس بن عامر القرنى فوصفه له فقال نعم وماذاك تسأل عنه يا أمير المؤمنين والله
مافينا أحمق منه ولا أجن منه ولا أوحش منه ولا أدنى منه فبكى عمر رضى الله عنه ثم قال ماقلت ماقلت الا انى
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يدخل فى شفاعته مثل ربيعة ومضر فقال هرم بن حيان لما
سمعت هذا القول من عمر بن الخطاب قدمت الكوفة فلم يكن لى هم الا أن أطلب أويسا القرنى وأسأل عنه
حتى سقطت عليه جالسا على شاطئ الفرات نصف النهار يتوضأ ويغسل ثوبه قال فعرفته بالنعت الذى نعت لى
فاذا رجل لحيم شديد الادمة محلوق الرأس كث اللحية متغير جدا كريه الوجه متهيب المنظر قال فسلمت
عليه فرد على السلام ونظر الى فقلت حياك الله من رجل ومددت يدى لاصافحه فأبى أن يصافحنى فقلت رحمك
الله يا أويس وغفر لك كيف أنت رحمك الله ثم خنقتنى العبرة من حبى اياه ورقتى عليه اذ رأيت من حاله ما رأيت
حتى بكيت وبكى فقال وأنت فحياك الله يا هرم بن حيان كيف أنت يا أخى ومن دلك على قال قلت الله قال لا اله
الا الله سبحان الله ان كان وعد ربنا لمفعولا قال فعجبت حين عرفنى ولا والله ما رأيته قبل ذلك ولا رآنى فقلت
من أين عرفت اسمى واسم أبى وما رأيتك قبل اليوم قال نبأنى العليم الخبير وعرفت روحى روحك حين كلمت
نفسى نفسك ان الارواح لها أنفس كأنفس الاجساد وان المؤمنين ليعرف بعضهم بعضا ويتحابون بروح
الله وان لم يلتقوا يتعارفون ويتكلمون وان نأت بهم الدار وتفرقت بهم المنازل قال قلت حدثنى رحمك الله عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم بحديث أسمعه منك قال انى لم أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تكن
لى معه صحبة بأبى وأمى رسول الله ولكن رأيت رجالا قد صحبوه وبلغنى من حديثه كما بلغك ولست أحب أن
أفتح على نفسى هذا الباب أن أكون محدثا أو مفتيا أو قاضيا فى نفسى شغل عن الناس يا هرم بن حيان فقلت
يا أخى اقرأ على آية من القرآن أسمعها منك وادع لى بدعوات وأوصنى بوصية أحفظها عنك فانى أحبك فى الله
حبا شديدا قال فقام وأخذ بيدى على شاطئ الفرات ثم قال أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ثم بكى
ثم قال ربى والحق قول ربى وأصدق الحديث حديثه وأصدق الكلام كلامه ثم قرأ وما خلقنا السموات
والارض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما الا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون حتى انتهى الى قوله انه هو العزيز
الرحيم فشهق شهقة ظننت انه قد غشى عليه ثم قال يا ابن حيان مات أبوك حيان ويوشك أن تموت فاما الى جنة
واما الى نار ومات أبوك آدم وماتت أمك حواء ومات نوح ومات ابراهيم خليل الرحمن ومات موسى نجى الرحمن
ومات داود خليفة الرحمن ومات محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم رسول رب العالمين ومات أبو بكر خليفة المسلمين
ومات عمر بن الخطاب أخى وصفيى ثم قال يا عمراه يا عمراه قال فقلت رحمك الله ان عمر لم يمت قال فقد نعاه الى ربى
ونعى الى نفسى ثم قال أنا وأنت فى الموتى كأنه قد كان ثم صلى على النبى صلى الله عليه وسلم ثم دعا بدعوات خفيات ثم
قال هذه وصيتى اياك يا هرم بن حيان كتاب الله ونهج الصالحين المؤمنين فقد نعيت الى نفسى ونفسك عليك
بذكر الموت لا يفارق قلبك طرفة عين ما بقيت وأنذر قومك اذا رجعت اليهم وانصح للامة جميعا واياك أن تفارق
الجماعة قيد شبر فتفارق دينك وأنت لا تعلم فتدخل النار يوم القيامة ادع لى ولنفسك ثم قال اللهم ان هذا يزعم أنه
يحبنى فيك وزارنى من أجلك فعرفنى وجهه فى الجنة وأدخله على فى دارك دار السلام واحفظه ما دام فى الدنيا
وحيثما كان وضم عليه ضيعته وأرضه من الدنيا باليسير وما أعطيته من الدنيا فيسره له تيسيرا واجعله لما أعطيته من
نعمائك من الشاكرين واجزه عنى خير الجزاء ثم قال أستودعك الله يا هرم بن حيان والسلام عليك ورحمة الله
وبركاته لا أراك بعد اليوم رحمك الله تطلبنى فانى أكره الشهرة والوحدة أحب الى انى كثير الهم شديد الغم مع هؤلاء
الناس ما دمت حيا فلا تسأل عنى ولا تطلبنى واعلم انك منى على بال وان لم أرك ولم ترنى فاذكرنى
وادع لى فانى سأذكرك وأدعو لك ان شاء الله انطلق أنت ههنا حتى أنطلق أنا ههنا فحرصت أن أمشى معه
ساعة فأبى على وفارقته فبكى وأبكانى وجعلت أنظر فى قفاه حتى دخل بعض السكك ثم سألت عنه بعد

ذلك

البصرة فوقعت اسطوانة تسامع بسقوطها أهل السوق وهو واقف فى الصلاة لم يعلم بذلك ثم اذا أراد الركوع يفصل بين القراءة والركوع ثم يركع منطوى القامة والنصف الاسفل بحاله فى القيام من غير انطواء الركبتين أو يجافى مرفقيه عن جنبيه ويمد عنقه مع ظهره ويضع راحتيه على ركبتيه منشورة الاصابع (روى) مصعب بن سعد قال صليت الى جنب سعد ابن مالك فجعلت يدى بين ركبتى وبين فخذى وطبقتهما فضرب بيدى وقال اضرب بكفيك على ركبتيك وقال يا بنى انا كنا نفعل ذلك فأمرنا أن نضرب بالاكف على الركب ويقول سبحان ربى العظيم ثلاثا وهو أدنى الكمال والكمال أن يقول احدى عشرة وما يأتى به من العدد يكون بعد التمكن من الركوع ومن غير أن

ذلك فما وجدت أحدا يخبرني عنه بشيء رحمه الله وغفر له فهكذا كانت سيرة أبناء الآخرة المعرضين عن الدنيا وقد عرفت مما سبق في بيان الدنيا ومن سيرة الانبياء والاولياء أن حد الدنيا كل ما أظلته الخضراء وأقلته الغبراء الا ما كان لله عز وجل من ذلك وضد الدنيا الآخرة وهو كل ما أريد به الله تعالى مما يؤخذ بقدر الضرورة من الدنيا لاجل قوة طاعة الله وذلك ليس من الدنيا ويتبين هذا بمثال وهو أن الحاج اذا حلف انه في طريق الحج لا يشتغل بغير الحج بل يتجرد له ثم اشتغل بحفظ الزاد وعلف الجمل وخرز الراوية وكل ما لا بد للحج منه لم يحنث في يمينه ولم يكن مشغولا بغير الحج فكذلك البدن مركب النفس تقطع به مسافة العمر فتعهد البدن بما تبقى به قوته على سلوك الطريق بالعلم والعمل هو من الآخرة لا من الدنيا نعم اذا قصد تلذذ البدن وتنعمه بشيء من هذه الاسباب كان منحرفا عن الآخرة ويخشى على قلبه القسوة قال الطنافسي كنت على باب بني شيبة في المسجد الحرام سبعة أيام طاويا فسمعت في الليلة الثامنة مناديا وأنا بين اليقظة والنوم ألا من أخذ من الدنيا أكثر مما يحتاج اليه أعمى الله عين قلبه فهذا بيان حقيقة الدنيا في حقك فاعلم ذلك ترشد ان شاء الله تعالى

﴿ بيان حقيقة الدنيا في نفسها وأشغالها التي استغرقت هموم الخلق حتى أنستهم أنفسهم وخالقهم ومصدرهم ومو ردهم ﴾

اعلم أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة وللانسان فيها حظ وله في اصلاحها شغل فهذه ثلاثة أمور وقد يظن أن الدنيا عبارة عن آحادها وليس كذلك أما الاعيان الموجودة التي الدنيا عبارة عنها فهي الارض وما عليها قال الله تعالى انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا فالارض فراش للآدميين ومهاد ومسكن ومستقر وما عليها لهم ملبس ومطعم ومشرب ومنكح ويجمع ما على الارض ثلاثة أقسام المعادن والنبات والحيوان أما النبات فيطلبه الآدمي للاقتيات والتداوي وأما المعادن فيطلبها للآلات والاواني كالنحاس والرصاص وللنقد كالذهب والفضة ولغير ذلك من المقاصد وأما الحيوان فينقسم الى الانسان والبهائم أما البهائم فيطلب منها لحومها للمآكل وظهورها للمركب والزينة وأما الانسان فقد يطلب الآدمي أن يملك أبدان الناس ليستخدمهم ويستسخرهم كالغلمان أو ليتمتع بهم كالجواري والنسوان ويطلب قلوب الناس ليملكها بأن يغرس فيها التعظيم والاكرام وهو الذي يعبر عنه بالجاه اذ معنى الجاه ملك قلوب الآدميين فهذه هي الاعيان التي يعبر عنها بالدنيا وقد جمعها الله تعالى في قوله زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين وهذا من الانس والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة وهذا من الجواهر والمعادن وفيه تنبيه على غيرها من اللآلئ واليواقيت وغيرها والخيل المسومة والانعام وهي البهائم والحيوانات والحرث وهو النبات والزرع فهذه هي أعيان الدنيا الا أن لها مع العبد علاقتين علاقة مع القلب وهو حبه لها وحظه منها وانصراف همه اليها حتى يصير قلبه كالعبد أو المحب المستهتر بالدنيا ويدخل في هذه العلاقة جميع صفات القلب المعلقة بالدنيا كالكبر والغل والحسد والرياء والسمعة وسوء الظن والمداهنة وحب الثناء وحب التكاثر والتفاخر وهذه هي الدنيا الباطنة وأما الظاهرة فهي الاعيان التي ذكرناها * العلاقة الثانية مع البدن وهو اشتغاله باصلاح هذه الاعيان لتصلح لحظوظه وحظوظ غيره وهي جملة الصناعات والحرف التي الخلق مشغولون بها والخلق انما نسوا أنفسهم ومآبهم ومنقلبهم بالدنيا لهاتين العلاقتين علاقة القلب بالحب وعلاقة البدن بالشغل ولو عرف نفسه وعرف ربه وعرف حكمة الدنيا وسرها علم أن هذه الاعيان التي سميناها دنيا لم تخلق الا لعلف الدابة التي يسير بها الى الله تعالى وأعني بالدابة البدن فانه لا يبقى الا بمطعم ومشرب وملبس ومسكن كما لا يبقى الجمل في طريق الحج الا بعلف وماء وجلال ومثال العبد في الدنيا في نسيانه نفسه ومقصده مثال الحاج الذي يقف في منازل الطريق ولا يزال يعلف الناقة ويتعهدها وينظفها ويكسوها ألوان الثياب ويحمل اليها أنواع الحشيش ويبرد لها الماء بالثلج حتى تفوته القافلة وهو غافل عن الحج وعن مرور القافلة وعن بقائه في البادية فريسة للسباع هو وناقته والحاج البصير لا يهمه من أمر الجمل الا القدر الذي يقوى به على المشي فيتعهده وقلبه الى الكعبة والحج وانما يلتفت الى الناقة بقدر الضرورة فكذلك البصير في سفر الآخرة لا يشتغل بتعهد البدن الا بالضرورة كما لا يدخل بيت الماء

يمزج آخر ذلك بالرفع ويرفع يديه للركوع وللرفع من الركوع ويكون في ركوعه ناظرا نحو قدميه فهو أقرب الى الخشوع من النظر الى موضع السجود وانما ينظر الى موضع سجوده في قيامه ويقول بعد التسبيح اللهم لك ركعت ولك خشعت وبك آمنت ولك أسلمت خشع لك سمعي وبصري وعظمي ومخي وعصبي ويكون قلبه في الركوع متصفا بمعنى الركوع من التواضع والاخبات ثم يرفع رأسه قائلا سمع الله لمن حمده عالما بقلبه ما يقول فاذا استوى قائما يحمد ويقول ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الارض وملء ما شئت من شيء بعد ثم يقول أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد فان أطال في

الاضرورة ولا فرق بين ادخال الطعام فى البطن و بين اخراجه من البطن فى أن كل واحد منهما ضرورة البدن ومن همته مايدخل بطنه فقيمته مايخرج منها وأكثر ما شغل الناس عن الله تعالى هو البطن فان القوت ضرورى وأمر المسكن والملبس أهون ولو عرفوا سبب الحاجة الى هذه الامور واقتصروا عليه لم تستغرقهم أشغال الدنيا وانما استغرقتهم لجهلهم بالدنيا وحكمها وحظوظهم منها ولكنهم جهلوا وغفلوا وتتابعت أشغال الدنيا عليهم واتصل بعضها ببعض وتداعت الى غير نهاية محدودة فتاهوا فى كثرة الاشغال ونسوا مقاصدها ونحن نذكر تفاصيل أشغال الدنيا وكيفية حدوث الحاجة اليها وكيفية غلط الناس فى مقاصدها حتى تتضح لك أشغال الدنيا كيف صرفت الخلق عن الله تعالى وكيف أنستهم عاقبة أمورهم فنقول الاشغال الدنيوية هى الحرف والصناعات والاعمال التى ترى الخلق مكبين عليها وسبب كثرة الاشغال هو أن الانسان مضطر الى ثلاث القوت والمسكن والملبس فالقوت للغذاء والبقاء والملبس لدفع الحر والبرد والمسكن لدفع الحر والبرد ولدفع أسباب الهلاك عن الاهل والمال ولم يخلق الله القوت والمسكن والملبس مصلحا بحيث يستغنى عن صنعة الانسان فيه نعم خلق ذلك للبهائم فان النبات يغذى الحيوان من غير طبخ والحر والبرد لا يؤثر فى بدنه فيستغنى عن البناء ويقنع بالصحراء ولباسها شعورها وجلودها فتستغنى عن اللباس والانسان ليس كذلك فحدثت الحاجة لذلك الى خمس صناعات هى أصول الصناعات وأوائل الاشغال الدنيوية وهى الفلاحة والرعاية والاقتناص والحياكة والبناء أما البناء فللمسكن والحياكة وما يكتنفها من أمر الغزل والخياطة فللملبس والفلاحة للمطعم والرعاية للمواشى والخيل أيضا للمطعم والمركب والاقتناص نعنى به تحصيل ما خلقه الله من صيد أو معدن أو حشيش أو حطب فالفلاح يحصل النبات والراعى يحفظ الحيوانات ويستنتجها والمقتنص يحصل ما نبت ونتج بنفسه من غير صنع آدمى وكذلك يأخذ من معادن الارض ما خلق فيها من غير صنعة آدمى ونعنى بالاقتناص ذلك ويدخل تحته صناعات وأشغال عدة ثم هذه الصناعات تفتقر الى أدوات وآلات كالحياكة والفلاحة والبناء والاقتناص والآلات انما تؤخذ اما من النبات وهو الاخشاب أو من المعادن كالحديد والرصاص وغيرهما أو من جلود الحيوانات فحدثت الحاجة الى ثلاثة أنواع أخر من الصناعات النجارة والحدادة والخرز وهؤلاء هم عمال الآلات ونعنى بالنجار كل عامل فى الخشب كيفما كان وبالحداد كل عامل فى الحديد وجواهر المعادن حتى النحاس والابرى وغيرهما وغرضنا ذكر الاجناس فاما آحاد الحرف فكثيرة وأما الخراز فنعنى به كل عامل فى جلود الحيوانات وأجزائها فهذه أمهات الصناعات ثم ان الانسان خلق بحيث لا يعيش وحده بل يضطر الى الاجتماع مع غيره من جنسه وذلك لسببين أحدهما حاجته الى النسل لبقاء جنس الانسان ولا يكون ذلك الا باجتماع الذكر والانثى وعشرتهما والثانى التعاون على تهيئة أسباب المطعم والملبس ولتربية الولد فان الاجتماع يفضى الى الولد لا محالة والواحد لا يشتغل بحفظ الولد وتهيئة أسباب القوت ثم ليس يكفيه الاجتماع مع الاهل والولد فى المنزل بل لا يمكنه أن يعيش كذلك ما لم تجتمع طائفة كثيرة ليتكفل كل واحد بصناعة فان الشخص الواحد كيف يتولى الفلاحة وحده وهو يحتاج الى آلاتها وتحتاج الآلة الى حداد ونجار ويحتاج الطعام الى طحان وخباز وكذلك كيف ينفرد بتحصيل الملبس وهو يفتقر الى حراسة القطن وآلات الحياكة والخياطة وآلات كثيرة فلذلك امتنع عيش الانسان وحده وحدثت الحاجة الى الاجتماع ثم لو اجتمعوا فى صحراء مكشوفة لتأذوا بالحر والبرد والمطر واللصوص فافتقروا الى أبنية محكمة ومنازل ينفرد كل أهل بيت به وبما معه من الآلات والاثاث والمنازل تدفع الحر والبرد والمطر وتدفع أذى الجيران من اللصوصية وغيرها لكن المنازل قد تقصدها جماعة من اللصوص خارج المنازل فافتقر أهل المنازل الى التناصر والتعاون والتحصن بسور يحيط بجميع المنازل فحدثت البلاد لهذه الضرورة ثم مهما اجتمع الناس فى المنازل والبلاد وتعاملوا تولدت بينهم خصومات اذ تحدث رياسة وولاية للزوج على الزوجة وولاية للابوين على الولد لانه ضعيف يحتاج الى قوام به ومهما حصلت الولاية على عاقل أفضى الى الخصومة بخلاف الولاية على البهائم اذ ليس لها قوة المخاصمة وان ظلمت فاما المرأة فتخاصم الزوج والولد يخاصم الابوين هذا فى المنزل وأما أهل البلد أيضا فيتعاملون فى الحاجات ويتنازعون فيها ولو تركوا كذلك

لتقاتلوا

النافلة القيام بعد الرفع من الركوع فليقل لربى الحمد مكررا ذلك مهما شاء فاما فى الفرض فلا يطول تطويلا يزيد على الحد زيادة بينة ويقنع فى الرفع من الركوع بتمام الاعتدال باقامة الصلب (ورد) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لا ينظر الله الى من لا يقيم صلبه بين الركوع والسجود ثم يهوى ساجدا ويكون فى هويه مكبرا مستيقظا حاضرا خاشعا لما يهوى فيه واليه وله فمن الساجدين من يكاشف أنه يهوى الى تخوم الارضين متغيبا فى أجزاء الملك لامتلاء قلبه من الحياء واستشعار روحه عظيم الكبرياء كما ورد أن جبرائيل عليه السلام تستر بخافية من جناحه حياء من الله تعالى ومن الساجدين من يكاشف أنه يطوى بسجوده بساط الكون والمكان ويسرح قلبه

لتقاتلوا وهلكوا وكذلك الرعاة وأرباب الفلاحة يتواردون على المراعى والاراضى والمياه وهى لاتفى بأغراضهم فيتنازعون لامحالة ثم قد يعجز بعضهم عن الفلاحة والصناعة بعمى أو مرض أو هرم وتعرض عوارض مختلفة ولو ترك ضائعا لهلك ولو وكل تفقده الى الجميع لتخاذلوا ولو خص واحد من غير سبب يخصه لكان لايذعن له فحدث بالضرورة من هذه العوارض الحاصلة بالاجتماع صناعات أخرى فمنها صناعة المساحة التى بها تعرف مقادير الارض لتمكن القسمة بينهم بالعدل ومنها صناعة الجندية لحراسة البلد بالسيف ودفع اللصوص عنهم ومنها صناعة الحكم والتوصل لفصل الخصومة ومنها الحاجة الى الفقه وهو معرفة القانون الذى ينبغى أن يضبط به الخلق ويلزموا الوقوف على حدوده حتى لايكثر النزاع وهو معرفة حدود الله فى المعاملات وشروطها فهذه أمور سياسية لابد منها ولا يشتغل بها الامخصوصون بصفات مخصوصة من العلم والتميز والهداية واذا اشتغلوا بها لم يتفرغوا لصناعة أخرى ويحتاجون الى المعاش ويحتاج أهل البلد اليهم اذ لو اشتغل أهل البلد بالحرب مع الاعداء مثلا تعطلت الصناعات ولو اشتغل أهل الحرب والسلاح بالصناعات لطلب القوت تعطلت البلاد عن الحراس واستضر الناس فمست الحاجة الى أن يصرف الى معايشهم وأرزاقهم الاموال الضائعة التى لامالك لها ان كانت أو تصرف الغنائم اليهم ان كانت العداوة مع الكفار فان كانوا أهل ديانة وورع قنعوا بالقليل من أموال المصالح وان أرادوا التوسع فتمس الحاجة لامحالة الى أن يمدهم أهل البلد بأموالهم ليمدوهم بالحراسة فتحدث الحاجة الى الخراج ثم يتولد بسبب الحاجة الى الخراج الحاجة لصناعات أخر اذ يحتاج الى من يوظف الخراج بالعدل على الفلاحين وأرباب الاموال وهم العمال والى من يستوفى منهم بالرفق وهم الجباة والمستخرجون والى من يجمع عنده ليحفظه الى وقت التفرقة وهم الخزان والى من يفرق عليهم بالعدل وهو الفارض للعساكر وهذه الاعمال لو تولاها عدد لاتجمعهم رابطة انخرم النظام فتحدث منه الحاجة الى ملك يدبرهم وأمير مطاع يعين لكل عمل شخصا ويختار لكل واحد مايليق به ويراعى النصفة فى أخذ الخراج واعطائه واستعمال الجند فى الحرب وتوزيع أسلحتهم وتعيين جهات الحرب ونصب الامير والقائد على كل طائفة منهم الى غير ذلك من صناعات الملك فيحدث من ذلك بعد الجند الذين هم أهل السلاح وبعد الملك الذى يراقبهم بالعين الكالئة ويدبرهم الحاجة الى الكتاب والخزان والحساب والجباة والعمال ثم هؤلاء أيضا يحتاجون الى معيشة ولا يمكنهم الاشتغال بالحرف فتحدث الحاجة الى مال الفرع مع مال الاصل وهو المسمى فرع الخراج وعند هذا يكون الناس فى الصناعات ثلاث طوائف الفلاحون والرعاة والمحترفون والثانية الجندية الحماة بالسيوف والثالثة المترددون بين الطائفتين فى الاخذ والعطاء وهم العمال والجباة وأمثالهم فانظر كيف ابتدأ الامر من حاجة القوت والملبس والمسكن والى ماذا انتهى وهكذا أمور الدنيا لايفتح منها باب الا وينفتح بسببه أبواب أخر وهكذا تتناهى الى غير حد محصور وكأنها هاوية لانهاية لعمقها من وقع فى مهواة منها سقط منها الى أخرى وهكذا على التوالى فهذه هى الحرف والصناعات الا أنها لاتتم الا بالاموال والآلات والمال عبارة عن أعيان الارض وماعليها مما ينتفع به وأعلاها الاغذية ثم الامكنة التى يأوى الانسان اليها وهى الدور ثم الامكنة التى يسعى فيها للتعيش كالحوانيت والاسواق والمزارع ثم الكسوة ثم أثاث البيت وآلاته ثم آلات الآلات وقد يكون فى الآلات ماهو حيوان كالكلب آلة الصيد والبقر آلة الحراثة والفرس آلة الركوب فى الحرب ثم يحدث من ذلك حاجة البيع فان الفلاح ربما يسكن قرية ليس فيها آلة الفلاحة والحداد والنجار يسكنان قرية لايمكن فيها الزراعة فبالضرورة يحتاج الفلاح اليهما ويحتاجان الى الفلاح فيحتاج أحدهما أن يبذل ماعنده للآخر حتى يأخذ منه غرضه وذلك بطريق المعاوضة الا أن النجار مثلا اذا طلب من الفلاح الغذاء بآلته ربما لايحتاج الفلاح فى ذلك الوقت الى آلته فلا يبيعه والفلاح اذا طلب الآلة من النجار بالطعام ربما كان عنده طعام فى ذلك الوقت فلا يحتاج اليه فتتعوق الاغراض فاضطر والى حانوت يجمع آلة كل صناعة ليترصد بها صاحبها أرباب الحاجات والى أبيات يجمع اليها مايحمل الفلاحون فيشتريه منهم صاحب الابيات ليترصد به أرباب الحاجات فظهرت لذلك الاسواق والمخازن فيحمل الفلاح الحبوب فاذا لم يصادف محتاجا باعها بثمن رخيص من الباعة فيخزنونها فى انتظار أرباب الحاجات

في فضاء الكشف والعيان فتهوى دون هويه اطباق السموات وتنمحى لقوة شهوده تماثيل الكائنات ويسجد على طرف رداء العظمة وذلك أقصى ماينتهى اليه طائر الهمة البشرية وتنى بالوصول اليه القوى الانسانية ويتفاوت الانبياء والاولياء فى مراتب العظمة واستشعار كنهها لكل منهم على قدره حظ من ذلك وفوق كل ذى علم عليم ومن الساجدين من يتسع وعاؤه وينتشر ضياؤه ويحظى بالصنفين ويبسط الجناحين فيتواضع بقلبه اجلالا ويرفع بروحها كراما واقضالا فيجتمع له الانس والهيبة والحضور والغيبة والفرار والقرار والاسرار والجهار فيكون فى سجوده سابحا فى بحر شهوده لم يتخلف

طمعا في الربح وكذلك في جميع الامتعة والاموال ثم يحدث لامحالة بين البلاد والقرى تردد فيتردد الناس يشترون من القرى الاطعمة ومن البلاد الآلات وينقلون ذلك ويتعيشون به لتنتظم أمور الناس في البلاد بسببهم اذ كل بلد ربما لا توجد فيه كل آلة وكل قرية لا يوجد فيها كل طعام فالبعض يحتاج الى البعض فيحوج الى النقل فيحدث التجار المتكفلون بالنقل وباعثهم عليه حرص جمع المال لامحالة فيتعبون طول الليل والنهار في الاسفار لغرض غيرهم ونصيبهم منها جمع المال الذي يأكله لامحالة غيرهم اما قاطع طريق واما سلطان ظالم ولكن جعل الله تعالى في غفلتهم وجهلهم نظاما للبلاد ومصلحة للعباد بل جميع أمور الدنيا انتظمت بالغفلة وخسة الهمة ولو عقل الناس وارتفعت هممهم لزهدوا في الدنيا ولو فعلوا ذلك لبطلت المعايش ولو بطلت لهلكوا ولهلك الزهاد أيضا ثم هذه الاموال التي تنقل لا يقدر الانسان على حملها فتحتاج الى دواب تحملها وصاحب المال قد لا تكون له دابة فتحدث معاملة بينه وبين مالك الدابة تسمى الاجارة ويصير الكراء نوعا من الاكتساب أيضا ثم يحدث بسبب البياعات الحاجة الى النقدين فان من يريد أن يشتري طعاما بثوب فمن أين يدري المقدار الذي يساويه من الطعام كم هو والمعاملة تجري في أجناس مختلفة كما يباع ثوب بطعام وحيوان بثوب وهذه أمور لا تتناسب فلا بد من حاكم عدل يتوسط بين المتبايعين يعدل أحدهما بالآخر فيطلب ذلك العدل من أعيان الاموال ثم يحتاج الى مال يطول بقاؤه لان الحاجة اليه تدوم وأبقى الاموال المعادن فاتخذت النقود من الذهب والفضة والنحاس ثم مست الحاجة الى الضرب والنقش والتقدير فمست الحاجة الى دار الضرب والصيارفة وهكذا تتداعى الاشغال والاعمال بعضها الى بعض حتى انتهت الى ما تراه فهذه أشغال الخلق وهي معاشهم وشئ من هذه الحرف لا يمكن مباشرته الا بنوع تعلم وتعب في الابتداء وفي الناس من يغفل عن ذلك في الصبا فلا يشتغل به أو يمنعه عنه مانع فيبقى عاجزا عن الاكتساب لعجزه عن الحرف فيحتاج الى أن يأكل مما يسعى فيه غيره فيحدث منه حرفتان خسيستان اللصوصية والكدية اذ يجمعهما أنهما يأكلان من سعي غيرهما ثم الناس يحترزون من اللصوص والمكدين ويحفظون عنهم أموالهم فافتقروا الى صرف عقولهم في استنباط الحيل والتدابير * أما اللصوص فمنهم من يطلب أعوانا ويكون في يديه شوكة وقوة فيجتمعون ويتكاثرون ويقطعون الطريق كالاعراب والاكراد * وأما الضعفاء منهم فيفزعون الى الحيل اما بالنقب أو التسلق عند انتهاز فرصة الغفلة واما بأن يكون طرارا أو سلالا الى غير ذلك من أنواع التلصص الحادثة بحسب ما تنتجه الافكار المصروفة الى استنباطها * وأما المكدي فانه اذا طلب ما سعى فيه غيره وقيل له اتعب واعمل كما عمل غيرك فمالك والبطالة فلا يعطى شيأ فافتقر والى حيلة في استخراج الاموال وتمهيد العذر لانفسهم في البطالة فاحتالوا التعلل بالعجز اما بالحقيقة كجماعة يعمون أولادهم وأنفسهم بالحيلة ليعذروا بالعمى فيعطون واما بالتعامي والتفالج والتجانن والتمارض واظهار ذلك بأنواع من الحيل مع بيان أن تلك محنة أصابت من غير استحقاق ليكون ذلك سبب الرحمة وجماعة يلتمسون أقوالا وأفعالا يتعجب الناس منها حتى تنبسط قلوبهم عند مشاهدتها فيسخو برفع اليد عن قليل من المال في حال التعجب ثم قد يندم بعد زوال التعجب ولا ينفع الندم وذلك قد يكون بالتمسخر والمحاكاة والشعبذة والافعال المضحكة وقد يكون بالاشعار الغريبة والكلام المنثور المسجع مع حسن الصوت والشعر الموزون أشد تأثيرا في النفس لا سيما اذا كان فيه تعصب يتعلق بالمذاهب كاشعار مناقب الصحابة وفضائل أهل البيت أو الذي يحرك داعية العشق من أهل المجانة كصنعة الطبالين في الاسواق وصنعة ما يشبه العوض وليس بعوض كبيع التعويذات والحشيش الذي يخيل بائعه وانها أدوية فيخدع بذلك الصبيان والجهال وكاصحاب القرعة والفال من المنجمين ويدخل في هذا الجنس الوعاظ والمكدون على رؤس المنابر اذا لم يكن وراءهم طائل علمي وكان غرضهم استمالة قلوب العوام وأخذ أموالهم بأنواع الكدية وأنواعها تزيد على ألف نوع وألفين وكل ذلك استنبط بدقيق الفكرة لاجل المعيشة فهذه هي أشغال الخلق وأعمالهم التي أكبوا عليها وجرهم الى ذلك كله الحاجة الى القوت والكسوة ولكنهم نسوا في أثناء ذلك أنفسهم ومقصودهم ومنقلبهم ومآبهم فتاهوا وضلوا وسبق الى عقولهم الضعيفة بعد أن كدرتها زحمة الاشتغالات بالدنيا خيالات فاسدة فانقسمت مذاهبهم واختلفت آراؤهم على عدة أوجه * فطائفة غلبهم الجهل

والغفلة

منه عن السجود شعرة كما قال سيد البشر في سجوده سجد لك سوادي وخيالي ولله يسجد من في السموات والارض طوعا وكرها الطوع للروح والقلب لما فيهما من الاهلية والكره من النفس لما فيها من الاجنبية ويقول في سجوده سبحان ربي الاعلى ثلاثا الى العشر الذي هو الكمال ويكون في السجود مفتوح العينين لانهما يسجدان وفي الهوي يضع ركبتيه ثم يديه ثم جبهته وأنفه ويكون ناظرا نحو أرنبة أنفه في السجود فهو أبلغ في الخشوع للساجد ويباشر بكفيه المصلى ولا يلفهما في الثوب ويكون رأسه بين كفيه ويداه حذو منكبيه غير متيامن ومتياسر بهما ويقول بعد التسبيح اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق

والغفلة فلم تنفتح أعينهم للنظر الى عاقبة أمورهم فقالوا المقصود أن نعيش أياما فى الدنيا فنجتهد حتى نكسب القوت ثم نأكل حتى نقوى على الكسب ثم نكسب حتى نأكل فيأكلون ليكسبوا ثم يكسبون ليأكلوا وهذا مذهب الفلاحين والمحترفين ومن ليس له تنعم فى الدنيا ولا قدم فى الدين فانه يتعب نهارا ليأكل ليلا ويأكل ليلا ليتعب نهارا وذلك كسير السوانى فهو سفر لا ينقطع الا بالموت * وطائفة أخرى زعموا أنهم تفطنوا للامر وهو أنه ليس المقصود أن يشقى الانسان بالعمل ولا يتنعم فى الدنيا بل السعادة فى أن يقضى وطره من شهوة الدنيا وهى شهوة البطن والفرج فهؤلاء نسوا أنفسهم وصرفوا هممهم الى اتباع النسوان وجمع لذائذ الاطعمة يأكلون كما تأكل الانعام ويظنون انهم اذا نالوا ذلك فقد أدركوا غاية السعادة فشغلهم ذلك عن الله تعالى وعن اليوم الآخر * وطائفة ظنوا ان السعادة فى كثرة المال والاستغناء بكثرة الكنوز فأسهروا ليلهم وأتعبوا نهارهم فى الجمع فهم يتعبون فى الاسفار طول الليل والنهار ويترددون فى الاعمال الشاقة ويكتسبون ويجمعون ولا يأكلون الا قدر الضرورة شحا وبخلا عليها أن تنقص وهذه لذتهم وفى ذلك دأبهم وحركتهم الى أن يدركهم الموت فيبقى تحت الارض أو يظفر به من يأكله فى الشهوات واللذات فيكون للجامع تعبه ووباله وللآكل لذته ثم الذين يجمعون ينظرون الى أمثال ذلك ولا يعتبرون * وطائفة ظنوا أن السعادة فى حسن الاسم وانطلاق الالسنة بالثناء والمدح بالتجمل والمروءة فهؤلاء يتعبون فى كسب المعاش ويضيقون على أنفسهم فى المطعم والمشرب ويصرفون جميع مالهم الى الملابس الحسنة والدواب النفيسة ويزخرفون أبواب الدور وما يقع عليها أبصار الناس حتى يقال انه غنى وانه ذو ثروة ويظنون أن ذلك هى السعادة فهمتهم فى نهارهم وليلهم فى تعهد موقع نظر الناس * وطائفة أخرى ظنوا أن السعادة فى الجاه والكرامة بين الناس وانقياد الخلق بالتواضع والتوقير فصرفوا هممهم الى استجرار الناس الى الطاعة بطلب الولايات وتقلد الاعمال السلطانية لينفذ أمرهم بها على طائفة من الناس ويرون أنهم اذا اتسعت ولايتهم وانقادت لهم رعاياهم فقد سعدوا سعادة عظيمة وأن ذلك غاية المطلب وهذا أغلب الشهوات على قلوب الغافلين من الناس فهؤلاء شغلهم حب تواضع الناس لهم عن التواضع لله وعن عبادته وعن التفكر فى آخرتهم ومعادهم * ووراء هؤلاء طوائف يطول حصرها تزيد على نيف وسبعين فرقة كلهم قد ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل وانما جرهم الى جميع ذلك حاجة المطعم والملبس والمسكن ونسوا ما تراد له هذه الامور الثلاثة والقدر الذى يكفى منها وانجرت بهم أوائل أسبابها الى أواخرها وتداعى بهم ذلك الى مهاو لم يمكنهم الرقى منها فمن عرف وجه الحاجة الى هذه الاسباب والاشغال وعرف غاية المقصود منها فلا يخوض فى شغل وحرفة وعمل الا وهو عالم بمقصوده وعالم بحظه ونصيبه منه وأن غاية مقصوده تعهد بدنه بالقوت والكسوة حتى لا يهلك وذلك ان سلك فيه سبيل التقليل اندفعت الاشغال عنه وفرغ القلب وغلب عليه ذكر الآخرة وانصرفت الهمة الى الاستعداد له وان تعدى به قدر الضرورة كثرت الاشغال وتداعى البعض الى البعض وتسلسل الى غير نهاية فتتشعب به الهموم ومن تشعبت به الهموم فى أودية الدنيا فلا يبالى الله فى أى واد أهلكه منها فهذا شأن المنهمكين فى أشغال الدنيا وتنبه لذلك طائفة فأعرضوا عن الدنيا فحسدهم الشيطان ولم يتركهم وأضلهم فى الاعراض أيضا حتى انقسموا الى طوائف فظنت طائفة أن الدنيا دار بلاء ومحنة والآخرة دار سعادة لكل من وصل اليها سواء تعبد فى الدنيا أو لم يتعبد فرأوا أن الصواب فى أن يقتلوا أنفسهم للخلاص من محنة الدنيا واليه ذهب طوائف من العباد من أهل الهند فهم يتهجمون على النار ويقتلون أنفسهم بالاحراق ويظنون أن ذلك خلاص لهم من محن الدنيا وظنت طائفة أخرى أن القتل لا يخلص بل لابد أولا من اماتة الصفات البشرية وقطعها عن النفس بالكلية وأن السعادة فى قطع الشهوة والغضب ثم أقبلوا على المجاهدة وشددوا على أنفسهم حتى هلك بعضهم بشدة الرياضة وبعضهم فسد عقله وجن وبعضهم مرض وانسد عليه الطريق فى العبادة وبعضهم عجز عن قمع الصفات بالكلية فظن أن ما كلفه الشرع محال وأن الشرع تلبيس لا أصل له فوقع فى الالحاد وظهر لبعضهم أن هذا التعب كله لله وان الله تعالى مستغن عن عبادة العباد لا ينقصه عصيان عاص ولا تزيده عبادة متعبد فعادوا الى الشهوات وسلكوا مسلك الاباحة وطووا بساط الشرع

سمعه وبصره فتبارك الله أحسن الخالقين وروى أمير المؤمنين على رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول فى سجوده ذلك وان قال سبوح قدوس رب الملائكة والروح فحسن روت عائشة رضى الله عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول فى سجوده ذلك ويجافى مرفقيه عن جنبيه ويوجه أصابعه فى السجود نحو القبلة ويضم أصابع كفيه مع الابهام ولا يفرش ذراعيه على الارض ثم يرفع رأسه مكبرا ويجلس على رجله اليسرى وينصب اليمنى موجها بالاصابع الى القبلة ويضع اليدين على الفخذين من غير تكلف بضمهما وتفريجهما ويقول رب اغفرلى وارحمنى واهدنى واجبرنى وعافنى واعف عنى ولا يطيل هذه الجلسة فى الفريضة أما فى النافلة فلا بأس مهما أطال قائلا رب

والاحكام وزعموا أن ذلك من صفاء توحيدهم حيث اعتقدوا أن الله مستغن عن عبادة العباد وظن طائفة أن المقصود من العبادات المجاهدة حتى يصل العبد بها الى معرفة الله تعالى فاذا حصلت المعرفة فقد وصل وبعد الوصول يستغنى عن الوسيلة والحيلة فتركوا السعي والعبادة وزعموا انه ارتفع محلهم في معرفة الله سبحانه عن أن يمتهنوا بالتكاليف وانما التكليف على عوام الخلق ووراء هذا مذاهب باطلة وضلالات هائلة يطول احصاؤها الى ما يبلغ نيفا وسبعين فرقة وانما الناجي منها فرقة واحدة وهي السالكة ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهو أن لا يترك الدنيا بالكلية ولا يقمع الشهوات بالكلية أما الدنيا فيأخذ منها قدر الزاد واما الشهوات فيقمع منها ما يخرج عن طاعة الشرع والعقل ولا يتبع كل شهوة ولا يترك كل شهوة بل يتبع العدل ولا يترك كل شيء من الدنيا ولا يطلب كل شيء من الدنيا بل يعلم مقصود كل ما خلق من الدنيا ويحفظه على حد مقصوده فيأخذ من القوت ما يقوى به البدن على العبادة ومن المسكن ما يحفظ على اللصوص والحر والبرد ومن الكسوة كذلك حتى اذا فرغ القلب من شغل البدن أقبل على الله تعالى بكنه همته واشتغل بالذكر والفكر طول العمر وبقي ملازما لسياسة الشهوات ومراقبا لها حتى لا يجاوز حدود الورع والتقوى ولا يعلم تفصيل ذلك الا بالاقتداء بالفرقة الناجية وهم الصحابة فانه عليه السلام لما قال الناجي منها واحدة قالوا يا رسول الله ومن هم قال أهل السنة والجماعة فقيل ومن أهل السنة والجماعة قال ما أنا عليه وأصحابي وقد كانوا على النهج القصد وعلى السبيل الواضح الذي فصلناه من قبل فانهم ما كانوا يأخذون الدنيا للدنيا بل للدين وما كانوا يترهبون ويهجرون الدنيا بالكلية وما كان لهم في الامور تفريط ولا افراط بل كان أمرهم بين ذلك قواما وذلك هو العدل والوسط بين الطرفين وهو أحب الامور الى الله تعالى كما سبق ذكره في مواضع والله أعلم تم كتاب ذم الدنيا والحمد لله أولا وآخرا وصلى الله سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

﴿ كتاب ذم البخل وذم حب المال وهو الكتاب السابع من ربع المهلكات من كتب احياء علوم الدين ﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله مستوجب الحمد برزقه المبسوط وكاشف الضر بعد القنوط الذي خلق الخلق ووسع الرزق وأفاض على العالمين أصناف الاموال وابتلاهم فيها بتقلب الاحوال وردده فيها بين العسر واليسر والغنى والفقر والطمع واليأس والثروة والافلاس والعجز والاستطاعة والحرص والقناعة والبخل والجود والفرح بالموجود والاسف على المفقود والايثار والانفاق والتوسع والاملاق والتبذير والتقتير والرضا بالقليل واستحقار الكثير كل ذلك ليبلوهم أيهم أحسن عملا وينظر أيهم آثر الدنيا على الآخرة بدلا وابتغى عن الآخرة عدولا وحولا واتخذ الدنيا ذخيرة وخولا والصلاة على محمد الذي نسخ بملته مللا وطوى بشريعته أديانا ونحلا وعلى آله وأصحابه الذين سلكوا سبيل ربهم ذللا وسلم تسليما كثيرا (أما بعد) فان فتن الدنيا كثيرة الشعب والاطراف واسعة الارجاء والاكناف ولكن الاموال أعظم فتنها وأطم محنها وأعظم فتنة فيها أنه لا غنى لاحد عنها ثم اذا وجدت فلا سلامة منها فان فقد المال حصل منه الفقر الذي يكاد أن يكون كفرا وان وجد حصل منه الطغيان الذي لا تكون عاقبة أمره الا خسرا وبالجملة فهي لا تخلو من الفوائد والآفات وفوائدها من المنجيات وآفاتها من المهلكات وتمييز خيرها عن شرها من المعوصات التي لا يقوى عليها الا ذوو البصائر في الدين من العلماء الراسخين دون المترسمين المغترين وشرح ذلك مهم على الانفراد فان ما ذكرناه في كتاب ذم الدنيا لم يكن نظرا في المال خاصة بل في الدنيا عامة اذ الدنيا تتناول كل حظ عاجل والمال بعض أجزاء الدنيا والجاه بعضها واتباع شهوة البطن والفرج بعضها وتشفي الغيظ بحكم الغضب والحسد بعضها والكبر وطلب العلو بعضها ولها أبعاض كثيرة ويجمعها كل ما كان للانسان فيه حظ عاجل ونظرنا الآن في هذا الكتاب في المال وحده اذ فيه آفات وغوائل وللانسان من فقده صفة الفقر ومن وجوده وصف الغنى وهما حالتان يحصل بهما الاختبار والامتحان ثم للفاقد حالتان القناعة والحرص واحداهما مذمومة والاخرى محمودة وللحريص حالتان طمع فيما في أيدي الناس وتشمر للحرف والصناعات مع اليأس عن الخلق والطمع شر الحالتين وللواجد حالتان امساك

اغفر وارحم مكررا ذلك ثم يسجد السجدة الثانية مكبرا ويكره الاقعاء في القعود وهو ههنا أن يضع اليته على عقبيه ثم اذا أراد النهوض الى الركعة الثانية يجلس جلسة خفيفة للاستراحة ويفعل في بقية الركعات هكذا ثم يتشهد وفي الصلاة سر المعراج وهو معراج القلوب والتشهد مقر الوصول بعد قطع مسافات الهيآت على تدرج طبقات السموات والتحيات سلام على رب البريات فليذعن لما يقول ويتأدب مع من يقول ويدري كيف يقول ويسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ويمثله بين عيني قلبه ويسلم على عباد الله الصالحين فلا يبقى عبد في السماء ولا في الارض من عباد الله الا ويسلم عليه بالنسبة الروحية والخاصية الفطرية ويضع يده اليمنى على فخذه اليمنى

بحكم البخل والشح وانفاق واحدهما مذمومة والاخرى محمودة والمنفق حالتان تبذير واقتصاد والمحمود هو الاقتصاد وهذه أمور متشابهة وكشف الغطاء عن الغموض فيها مهم ونحن نشرح ذلك في أربعة عشر فصلا ان شاء الله تعالى وهو بيان ذم المال ثم مدحه ثم تفصيل فوائد المال وآفاته ثم ذم الحرص والطمع ثم علاج الحرص والطمع ثم فضيلة السخاء ثم حكايات الاسخياء ثم ذم البخل ثم حكايات البخلاء ثم الايثار وفضله ثم حد السخاء والبخل ثم علاج البخل ثم مجموع الوظائف في المال ثم ذم الغنى ومدح الفقر ان شاء الله تعالى

﴿ بيان ذم المال وكراهة حبه ﴾

قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون وقال تعالى انما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم فمن اختار ماله وولده على ما عند الله فقد خسر وغبن خسرانا عظيما وقال عز وجل من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها الآية وقال تعالى ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى فلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وقال تعالى ألهاكم التكاثر * وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حب المال والشرف ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل وقال صلى الله عليه وسلم ما ذئبان ضاريان أرسلا في زريبة غنم بأكثر افسادا فيها من حب الشرف والمال والجاه في دين الرجل المسلم وقال صلى الله عليه وسلم هلك المكثرون الا من قال به في عباد الله هكذا وهكذا وقليل ما هم وقيل يا رسول الله أي أمتك شر قال الاغنياء وقال صلى الله عليه وسلم سيأتي بعدكم قوم يأكلون أطايب الدنيا وألوانها ويركبون فره الخيل وألوانها وينكحون أجمل النساء وألوانها ويلبسون أجمل الثياب وألوانها لهم بطون من القليل لا تشبع وأنفس بالكثير لا تقنع عاكفين على الدنيا يغدون ويروحون اليها اتخذوها آلهة من دون الههم وربا دون ربهم الى أمرها ينتهون ولهواهم يتبعون فعزيمة من محمد بن عبد الله لمن أدركه ذلك الزمان من عقب عقبكم وخلف خلفكم أن لا يسلم عليهم ولا يعود مرضاهم ولا يتبع جنائزهم ولا يوقر كبيرهم فمن فعل ذلك فقد أعان على هدم الاسلام وقال صلى الله عليه وسلم دعوا الدنيا لاهلها من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ حتفه وهو لا يشعر وقال صلى الله عليه وسلم يقول ابن آدم مالي مالي وهل لك من مالك الا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت وقال رجل يا رسول الله مالي لا أحب الموت فقال هل معك من مال قال نعم يا رسول الله قال قدم مالك فان قلب المؤمن مع ماله ان قدمه أحب أن يلحقه وان خلفه أحب أن يتخلف معه وقال صلى الله عليه وسلم أخلاء ابن آدم ثلاثة واحد يتبعه الى قبض روحه والثاني الى قبره والثالث الى محشره فالذي يتبعه الى قبض روحه فهو ماله والذي يتبعه الى قبره فهو أهله والذي يتبعه الى محشره فهو عمله وقال الحواريون لعيسى عليه السلام مالك تمشي على الماء ولا نقدر على ذلك فقال لهم ما منزلة الدينار والدرهم عندكم قالوا حسنة قال لكنهما والمدر عندي سواء وكتب سلمان الفارسي الى أبي الدرداء رضي الله عنهما يا أخي اياك أن تجمع من الدنيا ما لا تؤدي شكره فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يجاء بصاحب الدنيا الذي أطاع الله فيها وماله بين يديه كلما تكفأ به الصراط قال له ماله امض فقد أديت حق الله في ثم يجاء بصاحب الدنيا الذي لم يطع الله فيها وماله بين كتفيه كلما تكفأ به الصراط قال له ماله ويلك ألا أديت حق الله في فما يزال كذلك حتى يدعو بالويل والثبور وكل ما أوردناه في كتاب الزهد والفقر في ذم الغنى ومدح الفقر يرجع جميعه الى ذم المال فلا نطول بتكريره وكذا كل ما ذكرناه في ذم الدنيا فيتناول ذم المال بحكم العموم لان المال أعظم أركان الدنيا وانما نذكر الآن ما ورد في المال خاصة قال صلى الله عليه وسلم اذا مات العبد قالت الملائكة ما قدم وقال الناس ما خلف وقال صلى الله عليه وسلم لا تتخذوا الضيعة فتحبوا الدنيا

﴿ الآثار ﴾ روى أن رجلا نال من أبي الدرداء وأراده سوأ فقال اللهم من فعل بي سوأ فأصح جسمه وأطل عمره وأكثر ماله فانظر كيف رأى كثرة المال غاية البلاء مع صحة الجسم وطول العمر لانه لابد وأن يفضي الى الطغيان ووضع علي كرم الله وجهه درهما على كفه ثم قال أما انك ما لم تخرج عني لا تنفعني وروى أن عمر رضي الله عنه أرسل الى زينب بنت جحش بعطائها فقالت ما هذا قالوا أرسل اليك عمر بن الخطاب قالت غفر الله له ثم حلت سترا كان لها فقطعته وجعلته صررا وقسمته في أهل بيتها ورحمها وأيتامها ثم رفعت يديها وقالت اللهم لا يدركني عطاء

مقبوضة الاصابع الا المسبحة ويرفع المسبحة في الشهادة في الا الله لا في كلمة النفي ولا يرفعها منتصبة بل مائلة برأسها الى الفخذ منطوية فهذه هيئة خشوع المسبحة دليل سراية خشوع القلب اليها ويدعو في آخر صلاته لنفسه وللمؤمنين وان كان اماما ينبغي أن لا ينفرد بالدعاء بل يدعو لنفسه ولمن وراءه فان الامام المتيقظ في الصلاة كحاجب دخل على سلطان ووراءه أصحاب الحوائج يسأل لهم ويعرض حاجاتهم والمؤمنون كالبنيان يشد بعضه بعضا وبهذا وصفهم الله تعالى في كلامه بقوله سبحانه كأنهم بنيان مرصوص وفي وصف هذه الامة في الكتب السالفة صفهم في صلاتهم كصفهم في قتالهم (حدثنا) بذلك شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردي املاء قال أنا أبو عبد

عمر بعد عامي هذا فكانت أول نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم لحوقا به وقال الحسن والله ما أعز الدرهم أحد الا أذله الله وقيل ان أول ماضرب الدينار والدرهم رفعهما ابليس ثم وضعهما على جبهته ثم قبلهما وقال من أحبكما فهو عبدي حقا وقال سميط بن عجلان ان الدراهم والدنانير أزمة المنافقين يقادون بها الى النار وقال يحيى بن معاذ الدرهم عقرب فان لم تحسن رقيته فلا تأخذه فانه ان لدغك قتلك سمه قيل وما رقيته قال أخذه من حله ووضعه في حقه وقال العلاء بن زياد تمثلت لي الدنيا وعليها من كل زينة فقلت أعوذ بالله من شرك فقالت ان سرك أن يعيذك الله مني فابغض الدرهم والدينار وذلك لان الدرهم والدينار هما الدنيا كلها اذ يتوصل بهما الى جميع أصنافها فمن صبر عنهما صبر عن الدنيا وفي ذلك قيل

انى وجدت فلا تظنوا غيره * أن التورع عند هذا الدرهم
فاذا قدرت عليه ثم تركته * فاعلم بأن تقاك تقوى المسلم

وفي ذلك قيل أيضا لا يغرنك من المرء * قميص رقعه أو ازار فوق عظم الساق منه رفعه
أو جبين لاح فيه * أثر قد خلعه أره الدرهم تعرف * حبه أو ورعه

وروي عن مسلمة بن عبد الملك أنه دخل على عمر بن عبد العزيز رحمه الله عند موته فقال يا أمير المؤمنين صنعت صنيعا لم يصنعه أحد قبلك تركت ولدك ليس لهم درهم ولا دينار وكان له ثلاثة عشر من الولد فقال عمر أقعدوني فاقعدوه فقال أما قولك لم أدع لهم دينارا ولا درهما فاني لم أمنعهم حقا لهم ولم أعطهم حقا لغيرهم وانما ولدي أحد رجلين اما مطيع لله فالله كافيه والله يتولى الصالحين واما عاص لله فلا أبالي على ما وقع وروي أن محمد بن كعب القرظي أصاب مالا كثيرا فقيل له لو ادخرته لولدك من بعدك قال لا ولكني أدخره لنفسي عند ربي وأدخر ربي لولدي وروي أن رجلا قال لابي عبد ربه يا أخي لا تذهب بشر وتترك أولادك بخير فاخرج أبو عبد ربه من ماله مائة ألف درهم وقال يحيى بن معاذ مصيبتان لم يسمع الاولون والآخرون بمثلهما للعبد في ماله عند موته قيل وما هما قال يؤخذ منه كله ويسئل عنه كله

﴿ بيان مدح المال والجمع بينه وبين الذم ﴾

اعلم أن الله تعالى قد سمى المال خيرا في مواضع من كتابه العزيز فقال جل وعز ان ترك خيرا الآية وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم المال الصالح للرجل الصالح وكل ما جاء في ثواب الصدقة والحج فهو ثناء على المال اذ لا يمكن الوصول اليهما الا به وقال تعالى ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وقال تعالى ممتنا على عباده ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا وقال صلى الله عليه وسلم كاد الفقر أن يكون كفرا وهو ثناء على المال ولا تقف على وجه الجمع بعد الذم والمدح الا بأن تعرف حكمة المال ومقصوده وآفاته وغوائله حتى ينكشف لك أنه خير من وجه وشر من وجه وأنه محمود من حيث هو خير ومذموم من حيث هو شر فانه ليس بخير محض ولا هو شر محض بل هو سبب للامرين جميعا وما هذا وصفه فيمدح لا محالة تارة ويذم أخرى ولكن البصير المميز يدرك أن المحمود منه غير المذموم وبيانه بالاستمداد مما ذكرناه في كتاب الشكر من بيان الخيرات وتفصيل درجات النعم والقدر المقنع فيه هو أن مقصد الاكياس وأرباب البصائر سعادة الآخرة التي هي النعيم الدائم والملك المقيم والقصد الى هذا دأب الكرام والاكياس اذ قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم من أكرم الناس وأكيسهم فقال أكثرهم للموت ذكرا وأشدهم له استعدادا وهذه السعادة لا تنال الا بثلاث وسائل في الدنيا وهي الفضائل النفسية كالعلم وحسن الخلق والفضائل البدنية كالصحة والسلامة والفضائل الخارجة عن البدن كالمال وسائر الاسباب وأعلاها النفسية ثم البدنية ثم الخارجة فالخارجة أخسها والمال من جملة الخارجات وأدناها الدراهم والدنانير فانهما خادمان ولا خادم لهما ومرادان لغيرهما ولا يرادان لذاتهما اذ النفس هي الجوهر النفيس المطلوب سعادتها وانها تخدم العلم والمعرفة ومكارم الاخلاق لتحصلها صفة في ذاتها والبدن يخدم النفس بواسطة الحواس والاعضاء والمطاعم والملابس تخدم البدن وقد سبق أن المقصود من المطاعم ابقاء البدن ومن المناكح ابقاء النسل ومن البدن تكميل النفس وتزكيتها وتزيينها بالعلم والخلق ومن عرف هذا الترتيب فقد عرف قدر

الرحمن محمد بن عيسى بن شعيب الماليني قال أنا أبو الحسن عبد الرحمن ابن محمد المظفر الواعظ قال أنا أبو محمد عبد الله ابن أحمد السرخسي قال أنا أبو عمران عيسى ابن عمر بن العباس السمرقندي قال أنا أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي قال أنا مجاهد بن موسى قال ثنا معن هو ابن عيسى أنه سأل كعب الاحبار كيف تجد نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة قال نجد محمد ابن عبد الله يولد بمكة ويهاجر لطيبة ويكون ملكه بالشام وليس بفحاش ولا سخاب في الاسواق ولا يكافئ بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر أمته الحامدون يحمدون الله في كل سراء ويكبرون الله على كل نجد يوضئون أطرافهم ويأتزرون في أوساطهم يصفون في صلاتهم كما يصفون في قتالهم دويهم في

المال و وجه شرفه وانه من حيث هو ضرورة المطاعم والملابس التي هي ضرورة بقاء البدن الذي هو ضرورة
كمال النفس الذي هو خير ومن عرف فائدة الشئ وغايته ومقصده واستعمله لتلك الغاية ملتفتا اليها غير ناس
لها فقد أحسن وانتفع وكان ما حصل له الغرض محمودا في حقه فاذا المال آلة و وسيلة الى مقصود صحيح
و يصلح أن يتخذ آلة و وسيلة الى مقاصد فاسدة وهي المقاصد الصادة عن سعادة الآخرة وتسد سبيل العلم
والعمل فهو اذا محمود مذموم محمود بالاضافة الى المقصد المحمود ومذموم بالاضافة الى المقصد المذموم فمن أخذ
من الدنيا أكثر مما يكفيه فقد أخذ حتفه وهو لا يشعر كما ورد به الخبر ولما كانت الطباع مائلة الى اتباع الشهوات
القاطعة لسبيل الله وكان المال مسهلا لها وآلة اليها عظم الخطر فيما يزيد على قدر الكفاية فاستعاذ الانبياء من شره
حتى قال نبينا عليه الصلاة والسلام اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا فلم يطلب من الدنيا الا ما يتمحض خيره وقال
اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا واحشرني في زمرة المساكين واستعاذ ابراهيم صلى الله عليه وسلم فقال واجنبني
و بني أن نعبد الاصنام وعنى بها هذين الحجرين الذهب والفضة اذ رتبة النبوة أجل من أن يخشى عليها أن تعتقد
الالهية في شئ من هذه الحجارة اذ قد كفي قبل النبوة عبادتها مع الصغر وانما معنى عبادتهما حبهما والاغترار بهما
والركون اليهما قال نبينا صلى الله عليه وسلم تعس عبد الدينار وتعس عبد الدرهم تعس ولا انتعش واذا شيك فلا
انتقش فبين أن محبهما عابد لهما ومن عبد حجرا فهو عابد صنم بل كل من كان عبدا لغير الله فهو عابد صنم أي من
قطعه ذلك عن الله تعالى وعن أداء حقه فهو كعابد صنم وهو شرك الا أن الشرك شركان شرك خفي لا يوجب الخلود
في النار وقلما ينفك عنه المؤمنون فانه أخفى من دبيب النمل وشرك جلي يوجب الخلود في النار نعوذ بالله من
الجميع

﴿ بيان تفصيل آفات المال وفوائده ﴾

اعلم ان المال مثل حية فيها سم وترياق ففوائده ترياقه وغوائله سمومه فمن عرف غوائله وفوائده أمكنه أن
يحترز من شره و يستدر من خيره (أما الفوائد) فهي تنقسم الى دنيوية ودينية أما الدنيوية فلا حاجة الى ذكرها فان
معرفتها مشهورة مشتركة بين أصناف الخلق ولولا ذلك لم يتهالكوا على طلبها وأما الدينية فتنحصر جميعها في ثلاثة
أنواع (النوع الاول) أن ينفقه على نفسه اما في عبادة أو في الاستعانة على عبادة أما في العبادة فهو كالاستعانة به على
الحج والجهاد فانه لا يتوصل اليهما الا بالمال وهما من أمهات القربات والفقير محروم من فضلهما وأما فيما يقوى به
على العبادة فذلك هو المطعم والملبس والمسكن والمنكح وضرورات المعيشة فان هذه الحاجات اذا لم تتيسر كان
القلب مصروفا الى تدبيرها فلا يتفرغ للدين وما لا يتوصل الى العبادة الا به فهو عبادة فأخذ الكفاية من الدنيا لاجل
الاستعانة على الدين من الفوائد الدينية ولا يدخل في هذا التنعم والزيادة على الحاجة فان ذلك من حظوظ الدنيا
فقط (النوع الثاني) ما يصرفه الى الناس وهو أربعة أقسام الصدقة والمروءة ووقاية العرض وأجرة الاستخدام
أما الصدقة فلا يخفى ثوابها وانها لتطفئ غضب الرب تعالى وقد ذكرنا فضلها فيما تقدم وأما المروءة فنعني بها صرف
المال الى الاغنياء والاشراف في ضيافة وهدية واعانة وما يجري مجراها فان هذه لا تسمى صدقة بل الصدقة ما يسلم
الى المحتاج الا أن هذا من الفوائد الدينية اذ به يكتسب العبد الاخوان والاصدقاء وبه يكتسب صفة السخاء
و يلتحق بزمرة الاسخياء فلا يوصف بالجود الا من يصطنع المعروف و يسلك سبيل المروءة والفتوة وهذا أيضا
مما يعظم الثواب فيه فقد وردت أخبار كثيرة في الهدايا والضيافات واطعام الطعام من غير اشتراط الفقر والفاقة
في مصارفها * وأما وقاية العرض فنعني به بذل المال لدفع هجو الشعراء وثلب السفهاء وقطع ألسنتهم ودفع شرهم
وهو أيضا مع تنجز فائدته في العاجلة من الحظوظ الدينية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما وقى به المرء عرضه
كتب له به صدقة وكيف لا وفيه منع المغتاب عن معصية الغيبة واحتراز عما يثور من كلامه من العداوة التي
تحمل في المكافأة والانتقام على مجاوزة حدود الشريعة * وأما الاستخدام فهو أن الاعمال التي يحتاج اليها
الانسان لتهيئة أسبابه كثيرة ولو تولاها بنفسه ضاعت أوقاته وتعذر عليه سلوك سبيل الآخرة بالفكر
والذكر الذي هو أعلى مقامات السالكين ومن لا مال له فيفتقر الى أن يتولى بنفسه خدمة نفسه من شراء
الطعام وطحنه وكنس البيت حتى نسخ الكتاب الذي يحتاج اليه وكل ما يتصور أن يقوم به غيرك و يحصل به

مساجدهم كدوي
النحل يسمع مناديهم
في جو السماء فالامام في
الصلاة مقدمة الصف
في محاربة الشيطان
فهو أولى المصلين
بالخشوع والاتيان
بوظائف الادب ظاهرا
وباطنا والمصلون
المتيقظون كلما اجتمعت
ظواهرهم تجتمع بواطنهم
وتتناصر وتتعاضد
وتسري من البعض
الى البعض أنوار
وبركات بل جميع
المسلمين المصلين في
أقطار الارض بينهم
تعاضد وتناصر
بحسب القلوب ونسب
الاسلام ورابطة الايمان
بل يمدهم الله تعالى
بالملائكة الكرام كما
أمد رسول الله صلى
الله عليه وسلم بالملائكة
المسومين فحاجتهم الى
محاربة الشيطان أمس
من حاجتهم الى محاربة
الكفار ولهذا كان
يقول رسول الله صلى
الله عليه وسلم رجعنا من
الجهاد الاصغر الى الجهاد
الاكبر فتداركهم

غرضك فانت مغبون اذا اشتغلت به اذ عليك من العلم والعمل والذكر والفكر ما لا يتصور أن يقوم به غيرك فتضييع الوقت في غيره خسران ﴿النوع الثالث﴾ ما لا يصرفه الى انسان معين ولكن يحصل به خير عام كبناء المساجد والقناطر والرباطات ودور المرضى ونصب الحباب في الطريق وغير ذلك من الاوقاف المرصدة للخيرات وهي من الخيرات المؤبدة الدارة بعد الموت المستجلبة بركة أدعية الصالحين الى أوقات متمادية وناهيك بها خيرا فهذه جملة فوائد المال في الدين سوى ما يتعلق بالحظوظ العاجلة من الخلاص من ذل السؤال وحقارة الفقر والوصول الى العز والمجد بين الخلق وكثرة الاخوان والاعوان والاصدقاء والوقار والكرامة في القلوب فكل ذلك مما يقتضيه المال من الحظوظ الدنيوية (وأما الآفات) فدينية ودنيوية أما الدينية فثلاث (الاولى) أن تجر الى المعاصي فان الشهوات متفاضلة والعجز قد يحول بين المرء والمعصية ومن العصمة أن لا يجد ومهما كان الانسان آيسا عن نوع من المعصية لم تتحرك داعيته فاذا استشعر القدرة عليها انبعثت داعيته والمال نوع من القدرة يحرك داعية المعاصي وارتكاب الفجور فان اقتحم ما اشتهاه هلك وان صبر وقع في شدة اذ الصبر مع القدرة أشد وفتنة السراء أعظم من فتنة الضراء (الثانية) أنه يجر الى التنعم في المباحات وهذا أول الدرجات فمتى يقدر صاحب المال على أن يتناول خبز الشعير ويلبس الثوب الخشن ويترك لذائذ الاطعمة كما كان يقدر عليه سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام في ملكه فأحسن أحواله أن يتنعم بالدنيا ويمرن عليها نفسه فيصير التنعم مألوفا عنده ومحبوبا لا يصبر عنه ويجره البعض منه الى البعض فاذا اشتد أنسه به ربما لا يقدر على التوصل اليه بالكسب الحلال فيقتحم الشبهات ويخوض في المراآة والمداهنة والكذب والنفاق وسائر الاخلاق الرديئة لينتظم له أمر دنياه ويتيسر له تنعمه فان من كثر ماله كثرت حاجته الى الناس ومن احتاج الى الناس فلا بد وأن ينافقهم ويعصي الله في طلب رضاهم فان سلم الانسان من الآفة الاولى وهي مباشرة الحظوظ فلا يسلم عن هذه أصلا ومن الحاجة الى الخلق تثور العداوة والصداقة وينشأ عنه الحسد والحقد والرياء والكبر والكذب والنميمة والغيبة وسائر المعاصي التي تخص القلب واللسان ولا يخلو عن التعدي أيضا الى سائر الجوارح وكل ذلك يلزم من شؤم المال والحاجة الى حفظه واصلاحه (الثالثة) وهي التي لا ينفك عنها أحد وهو أنه يلهيه اصلاح ماله عن ذكر الله تعالى وكل ما شغل العبد عن الله فهو خسران ولذلك قال عيسى عليه الصلاة والسلام في المال ثلاث آفات أن يأخذه من غير حله فقيل ان أخذه من حله فقال يضعه في غير حقه فقيل ان وضعه في حقه فقال يشغله اصلاحه عن الله تعالى وهذا هو الداء العضال فان أصل العبادات ومخها وسرها ذكر الله والتفكر في جلاله وذلك يستدعي قلبا فارغا وصاحب الضيعة يمسي ويصبح متفكرا في خصومة الفلاح ومحاسبته وفي خصومة الشركاء ومنازعتهم في الماء والحدود وخصومة أعوان السلطان في الخراج وخصومة الاجراء على التقصير في العمارة وخصومة الفلاحين في خيانتهم وسرقتهم وصاحب التجارة يكون متفكرا في خيانة شريكه وانفراده بالربح وتقصيره في العمل وتضييعه للمال وكذلك صاحب المواشي وهكذا سائر أصناف الاموال وأبعدها عن كثرة الشغل النقد المكنوز تحت الارض ولا يزال الفكر مترددا فيما يصرف اليه وفي كيفية حفظه وفي الخوف مما يعثر عليه وفي دفع أطماع الناس عنه وأودية أفكار الدنيا لا نهاية لها والذي معه قوت يومه في سلامة من جميع ذلك فهذه جملة الآفات الدنيوية سوى ما يقاسيه أرباب الاموال في الدنيا من الخوف والحزن والغم والهم والتعب في دفع الحساد وتجشم المصاعب في حفظ المال وكسبه فاذا ترياق المال أخذ القوت منه وصرف الباقي الى الخيرات وما عدا ذلك سموم وآفات نسأل الله تعالى السلامة وحسن العون بلطفه وكرمه انه على ذلك قدير ﴿بيان ذم الحرص والطمع ومدح القناعة واليأس مما في أيدي الناس﴾ اعلم أن الفقر محمود كما أوردناه في كتاب الفقر ولكن ينبغي ان يكون الفقير قانعا منقطع الطمع وعن الخلق غير ملتفت الى ما في أيديهم ولا حريصا على اكتساب المال كيف كان ولا يمكنه ذلك الا بأن يقنع بقدر الضرورة من المطعم والملبس والمسكن ويقتصر على أقله قدرا وأخسه نوعا ويرد أمله الى يومه أو الى شهره ولا يشغل قلبه بما بعد شهر فان تشوق الى الكثير أو طول أمله فاته عز القناعة وتدنس لا محالة بالطمع وذل الحرص وجره الحرص

والطمع

الاملاك بل بأنفاسهم الصادقة تتماسك الافلاك * فاذا أراد الخروج من الصلاة يسلم عن يمينه وينوي مع التسليم الخروج من الصلاة والسلام على الملائكة والحاضرين من المؤمنين ومؤمني الجن ويجعل خده مبينا له على يمينه بالواء عنقه ويفصل بين هذا السلام والسلام عن يساره فقد ورد النهي عن المواصلة والمواصلة خمس اثنتان تختص بالامام وهو أن لا يوصل القراءة بالتكبير والركوع بالقراءة واثنتان على المأموم وهو أن لا يوصل تكبيرة الاحرام بتكبيرة الامام ولا تسليمه بتسليمه وواحدة على الامام والمأمومين وهو أن لا يوصل تسليم الفرض بتسليم النفل ويجزم التسليم ولا يمد مدا ثم يدعو بعد التسليم بما يشاء من أمر دينه ودنياه ويدعو

والطمع الى مساوى الاخلاق وارتكاب المنكرات الخارقة للمروآت وقد جبل الآدمى على الحرص والطمع وقلة القناعة وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب ويتوب الله على من تاب وعن أبى واقد الليثى قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أوحى اليه أتيناه يعلمنا مما أوحى اليه فجئته ذات يوم فقال ان الله عز وجل يقول انا أنزلنا المال لاقام الصلاة وايتاء الزكاة ولو كان لابن آدم واد من ذهب لاحب أن يكون له ثان ولو كان الثانى أحب أن يكون لهما ثالث ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب ويتوب الله على من تاب وقال أبو موسى الاشعرى نزلت سورة نحو براءة ثم رفعت وحفظ منها ان الله يؤيد هذا الدين بأقوام لاخلاق لهم ولو أن لابن آدم واديين من مال لتمنى واديا ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب ويتوب الله على من تاب وقال صلى الله عليه وسلم منهومان لا يشبعان منهوم العلم ومنهوم المال وقال صلى الله عليه وسلم يهرم ابن آدم ويشب معه اثنتان الامل وحب المال أو كما قال ولما كانت هذه جبلة للآدمى مضلة وغريزة مهلكة أثنى الله تعالى ورسوله على القناعة وقال صلى الله عليه وسلم طوبى لمن هدى للاسلام وكان عيشه كفافا وقنع به وقال صلى الله عليه وسلم ما من أحد فقير ولا غنى الا ود يوم القيامة أنه كان أوتى قوتا فى الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم ليس الغنى عن كثرة العرض انما الغنى غنى النفس ونهى عن شدة الحرص والمبالغة فى الطلب فقال ألا أيها الناس أجملوا فى الطلب فانه ليس لعبد الا ما كتب له ولن يذهب عبد من الدنيا حتى يأتيه ما كتب له من الدنيا وهى راغمة وروى أن موسى عليه السلام سأل ربه تعالى فقال أى عبادك أغنى قال أقنعهم بما أعطيته قال فأيهم أعدل قال من أنصف من نفسه وقال ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان روح القدس نفث فى روعى ان نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب وقال أبو هريرة قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبا هريرة اذا اشتد بك الجوع فعليك برغيف وكوز من ماء وعلى الدنيا الدمار وقال أبو هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كن ورعا تكن أعبد الناس وكن قنعا تكن أشكر الناس وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمنا ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الطمع فيما رواه أبو أيوب الانصارى أن اعرابيا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله عظنى وأوجز فقال اذا صليت فصل صلاة مودع ولا تحدثن بحديث تعتذر منه غدا واجمع اليأس مما فى أيدى الناس وقال عوف ابن مالك الاشجعى كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال ألا تبايعون رسول الله قلنا أوليس قد بايعناك يا رسول الله ثم قال ألا تبايعون رسول الله فبسطنا أيدينا فبايعناه فقال قائل منا قد بايعناك فعلى ماذا نبايعك قال أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيأ وتصلوا الخمس وان تسمعوا وتطيعوا وأسر كلمة خفية ولا تسألوا الناس شيأ قال فلقد كان بعض أولئك النفر يسقط سوطه فلا يسأل أحدا أن يناوله اياه (الآثار) قال عمر رضى الله عنه ان الطمع فقر وان اليأس غنى وانه من يأس عما فى أيدى الناس استغنى عنهم وقيل لبعض الحكماء ما الغنى قال قلة تمنيك ورضاك بما يكفيك وفى ذلك قيل

العيش ساعات تمر * وخطوب أيام تكر * اقنع بعيشك ترضه
واترك هواك تعش حر * فلرب حتف ساقه * ذهب وياقوت ودر

وكان محمد بن واسع يبل الخبز اليابس بالماء ويأكله ويقول من قنع بهذا لم يحتج الى أحد وقال سفيان خير دنياكم مالم تبتلوا به وخير ما ابتليتم به ما خرج من أيديكم وقال ابن مسعود ما من يوم الا وملك ينادى يا ابن آدم قليل يكفيك خير من كثير يطغيك وقال سميط بن عجلان انما بطنك يا ابن آدم شبر فى شبر فلم يدخلك النار وقيل لحكيم ما مالك قال التجمل فى الظاهر والقصد فى الباطن واليأس مما فى أيدى الناس ويروى ان الله عز وجل قال يا ابن آدم لو كانت الدنيا كلها لك لم يكن لك منها الا القوت واذا أنا أعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك فانا اليك محسن وقال ابن مسعود اذا طلب أحدكم الحاجة فليطلبها طلبا يسيرا ولا يأتى الرجل فيقول انك وانك فيقطع ظهره فانما يأتيه ما قسم له من الرزق أو ما رزق وكتب بعض بنى أمية الى أبى حازم يعزم عليه الا رفع اليه حوائجه فكتب اليه قد رفعت حوائجى الى مولاى فما أعطانى منها قبلت وما أمسك عنى قنعت وقيل لبعض

قبل التسليم أيضا فى صلب الصلاة فانه يستجاب ومن أقام الصلوات الخمس فى جماعة فقد ملأ البر والبحر عبادة وكل المقامات والاحوال زبدتها الصلوات الخمس فى جماعة وهى سر الدين وكفارة المؤمن وتمحيص للخطايا على ما أخبرنا شيخنا شيخ الاسلام ضياء الدين أبو النجيب السهروردى رحمه الله اجازة قال أنا أبو منصور محمد بن عبد الملك بن خيرون قال أنا أبو محمد الحسن ابن على الجوهرى اجازة قال أنا أبو عمر محمد ابن العباس بن زكريا قال ثنا أبو محمد يحيى ابن محمد بن صاعد قال ثنا الحسين بن الحسن المروزى قال أنا عبد الله بن المبارك قال أنا يحيى بن عبد الله قال سمعت أبى يقول سمعت أبا هريرة رضى الله عنه يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلوات

الحكماء أي شيء أسر للعاقل وأي شيء أعون على دفع الحزن فقال أسرها اليه ماقدم من صالح العمل وأعونها له على دفع الحزن الرضا بمحتوم القضاء وقال بعض الحكماء وجدت أطول الناس غما الحسود وأهنأهم عيشا القنوع وأصبرهم على الاذى الحريص اذا طمع وأخفضهم عيشا أرفضهم للدنيا وأعظمهم ندامة العالم المفرط وفي ذلك قيل أرفه ببال فتى أمسى على ثقة * ان الذى قسم الارزاق يرزقه * فالعرض منه مصون لا يدنسه والوجه منه جديد ليس يخلقه * ان القناعة من يحلل بساحتها * لم يلق في دهره شيأ يؤرقه

وقد قيل أيضا

حتى متى أنا في حل وترحال * وطول سعي وادبار واقبال
ونازح الدار لا أنفك مغتربا * عن الاحبة لا يدرون ما حالي
بمشرق الارض طورا ثم مغربها * لا يخطر الموت من حرصي على بالي
ولو قنعت أتاني الرزق في دعة * ان القنوع الغنى لا كثرة المال

وقال عمر رضي الله عنه ألا أخبركم بما أستحل من مال الله تعالى حلتان لشتائي وقيظي وما يسعني من الظهر لحجي وعمرتي وقوتي بعد ذلك كقوت رجل من قريش لست بأرفعهم ولا بأوضعهم فوالله ما أدري أيحل ذلك أم لا كأنه شك في أن هذا القدر هل هو زيادة على الكفاية التي تجب القناعة بها وعاتب أعرابي أخاه على الحرص فقال يا أخي أنت طالب ومطلوب يطلبك من لا تفوته وتطلب أنت ما قد كفيته وكأن ما غاب عنك قد كشف لك وما أنت فيه قد نقلت عنه كأنك يا أخي لم تر حريصا محروما وزاهدا مرزوقا وفي ذلك قيل

أراك يزيدك الاثراء حرصا * على الدنيا كأنك لا تموت
فهل لك غاية ان صرت يوما * اليها قلت حسبي قد رضيت

وقال الشعبي حكى ان رجلا صاد قنبرة فقالت ما تريد أن تصنع بي قال أذبحك وآكلك قالت والله ما أشفي من قرم ولا أشبع من جوع ولكن أعلمك ثلاث خصال هي خير لك من أكلي أما واحدة فأعلمك وأنا في يدك وأما الثانية فاذا صرت على الشجرة وأما الثالثة فاذا صرت على الجبل قال هات الاولى قالت لا تلهفن على ما فاتك فخلاها فلما صارت على الشجرة قال هات الثانية قالت لا تصدقن بما لا يكون انه يكون ثم طارت فصارت على الجبل فقالت يا شقي لو ذبحتني لاخرجت من حوصلتي درتين زنة كل درة عشرون مثقالا قال فعض على شفتيه وتلهف وقال هات الثالثة قالت أنت قد نسيت اثنتين فكيف أخبرك بالثالثة ألم أقل لك لا تلهفن على ما فاتك ولا تصدقن بما لا يكون أنا لحمي ودمي وريشي لا يكون عشرين مثقالا فكيف يكون في حوصلتي درتان في كل واحدة عشرون مثقالا ثم طارت فذهبت وهذا مثال لفرط طمع الآدمي فانه يعميه عن درك الحق حتى يقدر ما لا يكون أنه يكون وقال ابن السماك ان الرجاء حبل في قلبك وقيد في رجلك فاخرج الرجاء من قلبك يخرج القيد من رجلك وقال أبو محمد اليزيدي دخلت على الرشيد فوجدته ينظر في ورقة مكتوب فيها بالذهب فلما رآني تبسم فقلت فائدة أصلح الله أمير المؤمنين قال نعم وجدت هذين البيتين في بعض خزائن بني أمية فاستحسنتهما وقد أضفت اليهما ثالثا وأنشدني

اذا سد باب عنك من دون حاجة * فدعه لاخرى ينفتح لك بابها
فان قراب البطن يكفيك ملؤه * ويكفيك سوآت الامور اجتنابها
ولا تك مبذالا لعرضك واجتنب * ركوب المعاصي يجتنبك عقابها

وقال عبد الله بن سلام لكعب ما يذهب العلوم من قلوب العلماء بعد اذ وعوها وعقلوها قال الطمع وشره النفس وطلب الحوائج وقال رجل للفضيل فسر لي قول كعب قال يطمع الرجل في الشيء يطلبه فيذهب عليه دينه وأما الشره فشره النفس في هذا وفي هذا حتى لا تحب أن يفوتها شيء ويكون لك الى هذا حاجة والى هذا حاجة فاذا قضاها لك خزم أنفك وقادك حيث شاء واستمكن منك وخضعت له فمن حبك للدنيا سلمت عليه اذا مررت به وعدته اذا مرض لم تسلم عليه لله عز وجل ولم تعده لله فلو لم يكن لك اليه حاجة كان خيرا لك ثم قال هذا خير لك من مائة حديث عن فلان عن فلان قال بعض الحكماء من عجيب أمر الانسان أنه لو نودي بدوام البقاء في أيام الدنيا لم يكن في قوى خلقته من الحرص على الجمع أكثر مما قد استعمله مع قصر مدة التمتع وتوقع الزوال وقال عبد الواحد

ابن

الخمس كفارات للخطايا واقرؤا ان شئتم ان الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين

(الباب الثامن والثلاثون في ذكر آداب الصلاة وأسرارها) أحسن آداب المصلي أن لا يكون مشغول القلب بشيء قل أو كثر لان الاكياس لم يرفضوا الدنيا الا ليقيموا الصلاة كما أمروا لان الدنيا وأشغالها لما كانت شاغلة للقلب رفضوها غيرة على محل المناجاة ورغبة في أوطان القربات واذعانا بالباطن لرب البريات لان حضور الصلاة بالظاهر اذعان الظاهر وفراغ القلب في الصلاة عما سوى الله تعالى اذعان الباطن فلم يروا حضور الظاهر وتخلف الباطن حتى لا يختل اذعانهم فتنخرم عبوديتهم فيجتنب ان يكون باطنه مرتهنا بشيء ويدخل الصلاة (وقيل) من فقه الرجل

ابن زيد مررت براهب فقلت له من أين تأكل قال من بيدر اللطيف الخبير الذى خلق الرحا يأتيها بالطحين وأومأ بيده الى رحا أضراسه فسبحان القدير الخبير

﴿ بيان علاج الحرص والطمع والدواء الذى يكتسب به صفة القناعة ﴾

اعلم أن هذا الدواء مركب من ثلاثة أركان الصبر والعلم والعمل ومجموع ذلك خمسة أمور * الاول وهو العمل الاقتصاد فى المعيشة والرفق فى الانفاق فمن أراد عز القناعة فينبغى أن يسد عن نفسه أبواب الخرج ما أمكنه ويرد نفسه الى مالا بدله منه فمن كثر خرجه واتسع انفاقه لم تمكنه القناعة بل ان كان وحده فينبغى أن يقنع بثوب واحد خشن ويقنع بأى طعام كان ويقلل من الادام ما أمكنه ويوطن نفسه عليه وان كان له عيال فيرد كل واحد الى هذا القدر فان هذا القدر يتيسر بأدنى جهد ويمكن معه الاجمال فى الطلب والاقتصاد فى المعيشة وهو الاصل فى القناعة ونعنى به الرفق فى الانفاق وترك الخرق فيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله يحب الرفق فى الامر كله وقال صلى الله عليه وسلم ماعال من اقتصد وقال صلى الله عليه وسلم ثلاث منجيات خشية الله فى السر والعلانية والقصد فى الغنى والفقر والعدل فى الرضا والغضب وروى أن رجلا أبصر أبا الدرداء يلتقط حبا من الارض وهو يقول ان من فقهك رفقك فى معيشتك وقال ابن عباس رضى الله عنهما قال النبى صلى الله عليه وسلم الاقتصاد وحسن السمت والهدى الصالح جزء من بضع وعشرين جزأ من النبوة وفى الخبر التدبير نصف المعيشة وقال صلى الله عليه وسلم من اقتصد أغناه الله ومن بذر أفقره الله ومن ذكر الله عز وجل أحبه الله وقال صلى الله عليه وسلم اذا أردت أمرا فعليك بالتؤدة حتى يجعل الله لك فرجا ومخرجا والتؤدة فى الانفاق من أهم الامور * الثانى انه اذا تيسر له فى الحال ما يكفيه فلا ينبغى أن يكون شديد الاضطراب لاجل المستقبل ويعينه على ذلك قصر الامل والتحقق بأن الرزق الذى قدر له لا بد وأن يأتيه وان لم يشتد حرصه فان شدة الحرص ليست هى السبب لوصول الارزاق بل ينبغى أن يكون واثقا بوعد الله تعالى اذ قال عز وجل ومامن دابة فى الارض الا على الله رزقها وذلك لان الشيطان يعده الفقر ويأمره بالفحشاء ويقول ان لم تحرص على الجمع والادخار فربما تمرض وربما تعجز وتحتاج الى احتمال الذل فى السؤال فلا يزال طول العمر يتعبه فى الطلب خوفا من التعب ويضحك عليه فى احتماله التعب نقدا مع الغفلة عن الله لتوهم تعب فى ثانى الحال وربما لا يكون وفى مثله قيل

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله * مخافة فقر فالذى فعل الفقر

وقد دخل ابنا خالد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهما لا تيأسا من الرزق ما تهزهزت رؤسكما فان الانسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشر ثم يرزقه الله تعالى ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم بابن مسعود وهو حزين فقال له لا تكثر همك ما يقدر يكن وما ترزق يأتك وقال صلى الله عليه وسلم الا أيها الناس أجملوا فى الطلب فانه ليس لعبد الا ما كتب له ولن يذهب عبد من الدنيا حتى يأتيه ما كتب له من الدنيا وهى راغمة ولا ينفك الانسان عن الحرص الا بحسن ثقته بتدبير الله تعالى فى تقدير أرزاق العباد وان ذلك يحصل لا محالة مع الاجمال فى الطلب بل ينبغى أن يعلم أن رزق الله للعبد من حيث لا يحتسب أكثر قال الله تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب فاذا انسد عليه باب كان ينتظر الرزق منه فلا ينبغى أن يضطرب قلبه لاجله وقال صلى الله عليه وسلم أبى الله أن يرزق عبده المؤمن الا من حيث لا يحتسب وقال سفيان اتق الله فما رأيت تقيا محتاجا أى لا يترك التقى فاقد لضرورته بل يلقى الله فى قلوب المسلمين أن يوصلوا اليه رزقه وقال المفضل الضبى قلت لاعرابى من أين معاشك قال نذر الحاج قلت فاذا صدروا فبكى وقال لولم نعش الا من حيث ندرى لم نعش وقال أبو حازم رضى الله عنه وجدت الدنيا شيئين شيأ منهما هولى فلن أعجله قبل وقته ولو طلبته بقوة السموات والارض وشيأ منهما هو لغيرى فذلك لم أناله فيما مضى فلا أرجوه فيما بقى يمنع الذى لغيرى منى كما يمنع الذى لى من غيرى ففى أى هذين أفنى عمرى فهذا دواء من جهة المعرفة لا بد منه لدفع تخويف الشيطان وانذاره بالفقر * الثالث أن يعرف ما فى القناعة من عز الاستغناء وما فى الحرص والطمع من الذل فاذا تحقق عنده ذلك انبعثت رغبته الى القناعة لانه فى الحرص لا يخلو من تعب وفى الطمع لا يخلو من ذل وليس فى القناعة الا ألم الصبر عن الشهوات والفضول وهذا ألم لا يطلع

أن يبدأ بقضاء حاجته قبل الصلاة ولهذا ورد اذا حضر العشاء والعشاء فقدموا العشاء على العشاء ولا يصلى وهو حاقن يطالبه البول ولا حازق يطالبه الغائط والحزق أيضا ضيق الخف ولا يصلى أيضا وخفه ضيق يشغل قلبه وقد قيل لا رأى لحارق قيل الذى يكون معه ضيق وفى الجملة ليس من الادب أن يصلى وعنده ما يغير مزاج باطنه عن الاعتدال كهذه الاشياء التى ذكرناها والاهتمام المفرط والغضب (وفى الخبر) لا يدخل أحدكم فى الصلاة وهو مقطب ولا يصلين أحدكم وهو غضبان فلا ينبغى للعبد أن يتلبس بالصلاة الا وهو على أتم الهيآت وأحسن لبسة المصلى سكون الاطراف وعدم الالتفات والاطراق ووضع اليمين على الشمال فما أحسنها من هيئة

عليه أحد الا الله وفيه ثواب الآخرة وذلك مما يضاف اليه نظر الناس وفيه الوبال والمأثم ثم يفوته عز النفس والقدرة على متابعة الحق فان من كثر طمعه وحرصه كثرت حاجته الى الناس فلا يمكنه دعوتهم الى الحق ويلزمه المداهنة وذلك يهلك دينه ومن لا يؤثر عز النفس على شهوة البطن فهو ركيك العقل ناقص الايمان قال صلى الله عليه وسلم عز المؤمن استغناؤه عن الناس ففى القناعة الحرية والعز ولذلك قيل استغن عمن شئت تكن نظيره واحتج الى من شئت تكن أسيره وأحسن الى من شئت تكن أميره * الرابع أن يكثر تأمله فى تنعم اليهود والنصارى وأراذل الناس والحمقى من الاكراد والاعراب الاجلاف ومن لا دين لهم ولا عقل ثم ينظر الى أحوال الانبياء والاولياء والى سمت الخلفاء الراشدين وسائر الصحابة والتابعين ويستمع أحاديثهم ويطالع أحوالهم ويخير عقله بين أن يكون على مشابهة أراذل الناس أو على الاقتداء بمن هو أعز أصناف الخلق عند الله حتى يهون عليه بذلك الصبر على الضنك والقناعة باليسير فانه ان تنعم فى البطن فالحمار أكثر أكلا منه وان تنعم فى الوقاع فالخنزير أعلى رتبة منه وان تزين فى الملبس والخيل ففى اليهود من هو أعلى زينة منه وان قنع بالقليل ورضى به لم يساهمه فى رتبته الا الانبياء والاولياء * الخامس أن يفهم ما فى جمع المال من الخطر كما ذكرنا فى آفات المال وما فيه من خوف السرقة والنهب والضياع وما فى خلو اليد من الامن والفراغ ويتأمل ما ذكرناه فى آفات المال مع ما يفوته من المدافعة عن باب الجنة الى خمسمائة عام فانه اذا لم يقنع بما يكفيه ألحق بزمرة الاغنياء وأخرج من جريدة الفقراء ويتم ذلك بأن ينظر أبدا الى من دونه فى الدنيا الا الى من فوقه فان الشيطان أبدا يصرف نظره فى الدنيا الى من فوقه فيقول لم تفتر عن الطلب وأرباب الاموال يتنعمون فى المطاعم والملابس ويصرف نظره فى الدين الى من دونه فيقول ولم تضيق على نفسك وتخاف الله وفلان أعلم منك وهو لا يخاف الله والناس كلهم مشغولون بالتنعم فلم تريد أن تتميز عنهم قال أبو ذر أوصانى خليلى صلوات الله عليه أن أنظر الى من هو دونى لا الى من هو فوقى أى فى الدنيا وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا نظر أحدكم الى من فضله الله عليه فى المال والخلق فلينظر الى من هو أسفل منه ممن فضل عليه فبهذه الامور يقدر على اكتساب خلق القناعة وعماد الامر الصبر وقصر الامل وأن يعلم أن غاية صبره فى الدنيا أيام قلائل للتمتع دهرا طويلا فيكون كالمريض الذى يصبر على مرارة الدواء لشدة طمعه فى انتظار الشفاء

﴿ بيان فضيلة السخاء ﴾

اعلم أن المال ان كان مفقودا فينبغى أن يكون حال العبد القناعة وقلة الحرص وان كان موجودا فينبغى أن يكون حاله الايثار والسخاء واصطناع المعروف والتباعد عن الشح والبخل فان السخاء من أخلاق الانبياء عليهم السلام وهو أصل من أصول النجاة وعنه عبر النبى صلى الله عليه وسلم حيث قال السخاء شجرة من شجر الجنة أغصانها متدلية الى الارض فمن أخذ بغصن منها قاده ذلك الغصن الى الجنة وقال جابر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال جبريل عليه السلام قال الله تعالى ان هذا دين ارتضيته لنفسى ولن يصلحه الا السخاء وحسن الخلق فاكرموه بهما ما استطعتم وفى رواية فاكرموه بهما ما صحبتموه وعن عائشة الصديقة رضى الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما جبل الله تعالى وليا له الا على حسن الخلق والسخاء وعن جابر قال قيل يا رسول الله أى الاعمال أفضل قال الصبر والسماحة وقال عبد الله بن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خلقان يحبهما الله عز وجل وخلقان يبغضهما الله عز وجل فاما اللذان يحبهما الله تعالى فحسن الخلق والسخاء وأما اللذان يبغضهما الله فسوء الخلق والبخل واذا أراد الله بعبد خيرا استعمله فى قضاء حوائج الناس وروى المقدام بن شريح عن أبيه عن جده قال قلت يا رسول الله دلنى على عمل يدخلنى الجنة قال ان من موجبات المغفرة بذل الطعام وافشاء السلام وحسن الكلام وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم السخاء شجرة فى الجنة فمن كان سخيا أخذ بغصن منها فلم يتركه ذلك الغصن حتى يدخله الجنة والشح شجرة فى النار فمن كان شحيحا أخذ بغصن من أغصانها فلم يتركه ذلك الغصن حتى يدخله النار وقال أبو سعيد الخدرى قال النبى صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى اطلبوا الفضل من الرحماء من عبادى تعيشوا فى أكنافهم فانى جعلت فيهم رحمتى ولا تطلبوه من القاسية قلوبهم فانى

عبد ذليل واقف بين يدى ملك عزيز وفى رخصة الشرع دون الثلاث حركات متواليات جائز وأرباب العزيمة يتركون الحركة فى الصلاة جملة وقد حركت يدى فى الصلاة وعندى شخص من الصالحين فلما انصرفت من الصلاة أنكر على وقال عندنا أن العبد اذا وقف فى الصلاة ينبغى أن يبقى جامدا جمدا لا يتحرك منه شئ (وقد) جاء فى الخبر سبعة أشياء فى الصلاة من الشيطان الرعاف والنعاس والوسوسة والتثاؤب والحكاك والالتفات والعبث بالشئ من الشيطان أيضا وقيل السهو والشك (وقد روى) عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أنه قال ان الخشوع فى الصلاة أن لا يعرف المصلى من على يمينه وشماله (ونقل عن سفيان) أنه قال من لم يخشع فسدت

جعلت فيهم سخطى وعن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تجافوا عن ذنب السخى فان الله آخذ بيده كلما عثر وقال ابن مسعود قال صلى الله عليه وسلم الرزق الى مطعم الطعام أسرع من السكين الى ذروة البعير وان الله تعالى ليباهى بمطعم الطعام الملائكة عليهم السلام وقال صلى الله عليه وسلم ان الله جواد يحب الجواد ويحب مكارم الاخلاق ويكره سفسافها وقال أنس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يسئل على الاسلام شيأ الا أعطاه وأتاه رجل فسأله فامر له بشاء كثير بين جبلين من شاء الصدقة فرجع الى قومه فقال يا قوم أسلموا فان محمدا يعطى عطاء من لا يخاف الفاقة وقال ابن عمر قال صلى الله عليه وسلم ان لله عبادا يختصهم بالنعم لمنافع العباد فمن بخل بتلك المنافع على العباد نقلها الله تعالى عنه وحولها الى غيره وعن الهلالى قال أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم باسرى من بنى العنبر فامر بقتلهم وأفرد منهم رجلا فقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه يا رسول الله الرب واحد والدين واحد والذنب واحد فما بال هذا من بينهم فقال صلى الله عليه وسلم نزل على جبريل فقال اقتل هؤلاء واترك هذا فان الله تعالى شكر له سخاء فيه وقال صلى الله عليه وسلم ان لكل شئ ثمرة وثمرة المعروف تعجيل السراح وعن نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم طعام الجواد دواء وطعام البخيل داء وقال صلى الله عليه وسلم من عظمت نعمة الله عنده عظمت مؤنة الناس عليه فمن لم يحتمل تلك المؤنة عرض تلك النعمة للزوال وقال عيسى عليه السلام استكثروا من شئ لا تأكله النار قيل وما هو قال المعروف وقالت عائشة رضى الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنة دار الاسخياء وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان السخى قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة بعيد من النار وان البخيل بعيد من الله بعيد من الناس بعيد من الجنة قريب من النار وجاهل سخى أحب الى الله من عالم بخيل وأدوأ الداء البخل وقال صلى الله عليه وسلم اصنع المعروف الى من هو أهله والى من ليس بأهله فان أصبت أهله فقد أصبت أهله وان لم تصب أهله فانت من أهله وقال صلى الله عليه وسلم ان بدلاء أمتى لم يدخلوا الجنة بصلاة ولا صيام ولكن دخلوها بسخاء الانفس وسلامة الصدور والنصح للمسلمين وقال أبو سعيد الخدرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله عز وجل جعل للمعروف وجوها من خلقه حبب اليهم المعروف وحبب اليهم فعاله ووجه طلاب المعروف اليهم ويسر عليهم اعطاءه كما يسر الغيث الى البلدة الجدبة فيحييها ويحيى به أهلها وقال صلى الله عليه وسلم كل معروف صدقة وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له صدقة وما وقى به الرجل عرضه فهو له صدقة وما أنفق الرجل من نفقة فعلى الله خلفها وقال صلى الله عليه وسلم كل معروف صدقة والدال على الخير كفاعله والله يحب اغاثة اللهفان وقال صلى الله عليه وسلم كل معروف فعلته الى غنى أو فقير صدقة وروى أن الله تعالى أوحى الى موسى عليه السلام لا تقتل السامرى فانه سخى وقال جابر بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثا عليهم قيس بن سعد بن عبادة فجهدوا فنحر لهم قيس تسع ركائب فحدثوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال صلى الله عليه وسلم ان الجود لمن شيمة أهل ذلك البيت (الآثار) قال على كرم الله وجهه اذا أقبلت عليك الدنيا فانفق منها فانها لا تفنى واذا أدبرت عنك فانفق منها فانها لا تبقى وأنشد

لا تبخلن بدنيا وهى مقبلة * فليس ينقصها التبذير والسرف
وان تولت فاحرى ان تجود بها * فالحمد منها اذا ما أدبرت خلف

وسأل معاوية الحسن بن على رضى الله عنهم عن المروءة والنجدة والكرم فقال أما المروءة فحفظ الرجل دينه وحذره نفسه وحسن قيامه بضيفه وحسن المنازعة والاقدام فى الكراهية * وأما النجدة فالذب عن الجار والصبر فى المواطن وأما الكرم فالتبرع بالمعروف قبل السؤال والاطعام فى المحل والرأفة بالسائل مع بذل النائل * ورفع رجل الى الحسن بن على رضى الله عنهما رقعة فقال حاجتك مقضية فقيل له يا ابن رسول الله لو نظرت فى رقعته ثم رددت الجواب على قدر ذلك فقال يسألنى الله عز وجل عن ذل مقامه بين يدى حتى اقرأ رقعته وقال ابن السماك عجبت لمن يشترى المماليك بماله ولا يشترى الاحرار بمعروفه وسئل بعض الاعراب من سيدكم فقال من احتمل شتمنا وأعطى سائلنا وأغضى عن جاهلنا وقال على بن الحسين رضى الله عنهما من وصف ببذل ماله لطلابه لم يكن سخيا وانما السخى من يبتدئ بحقوق الله تعالى فى أهل طاعته ولا تنازعه نفسه الى حب الشكر له

صلاته وروى عن معاذ بن جبل أشد من ذلك قال من عرف من عن يمينه وشماله فى الصلاة متعمدا فلا صلاة له وقال بعض العلماء من قرأ كلمة مكتوبة فى حائط أو بساط فى صلاته فصلاته باطلة قال بعضهم لان ذلك عدوه عملا وقيل فى تفسير قوله تعالى والذين هم على صلاتهم دائمون قيل هو سكون الاطراف والطمأنينة (قال) بعضهم اذا كبرت التكبيرة الاولى فاعلم ان الله ناظر الى شخصك عالم بما فى ضميرك ومثل فى صلاتك الجنة عن يمينك والنار عن شمالك وانما ذكرنا أن تمثل الجنة والنار لان القلب اذا شغل بذكر الآخرة ينقطع عنه الوسواس فيكون هذا التمثيل تداويا للقلب لدفع الوسوسة (أخبرنا) شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردى اجازة قال أنا عمر بن أحمد

اذا كان يقينه بثواب الله تاما وقيل للحسن البصري ما السخاء فقال أن تجود بمالك في الله عز وجل قيل فما الحزم قال أن تمنع مالك فيه قيل فما الاسراف قال الانفاق لحب الرياسة وقال جعفر الصادق رحمة الله عليه لا مال أعون من العقل ولا مصيبة أعظم من الجهل ولا مظاهرة كالمشاورة ألا وان الله عز وجل يقول اني جواد كريم لا يجاورني لئيم واللؤم من الكفر وأهل الكفر في النار والجود والكرم من الايمان وأهل الايمان في الجنة وقال حذيفة رضي الله عنه رب فاجر في دينه أخرق في معيشته يدخل الجنة بسماحته وروي ان الاحنف بن قيس رأى رجلا في يده درهم فقال لمن هذا الدرهم فقال لي فقال أما انه ليس لك حتى يخرج من يدك وفي معناه قيل

أنت للمال اذا أمسكته * فاذا أنفقته فالمال لك

وسمي واصل بن عطاء الغزال لانه كان يجلس الى الغزالين فاذا رأى امرأة ضعيفة أعطاها شيأ وقال الاصمعي كتب الحسن بن علي الى الحسين بن علي رضوان الله عليهم يعتب عليه في اعطاء الشعراء فكتب اليه خير المال ما وقى به العرض وقيل لسفيان بن عيينة ما السخاء قال السخاء البر بالاخوان والجود بالمال قال وورث أبي خمسين ألف درهم فبعث بها صررا الى اخوانه وقال قد كنت أسأل الله تعالى لاخواني الجنة في صلاتي أفأبخل عليهم بالمال وقال الحسن بذل المجهود في بذل الموجود منتهى الجود وقيل لبعض الحكماء من أحب الناس اليك قال من كثرت أياديه عندي قيل فان لم يكن قال من كثرت أيادي عنده وقال عبد العزيز بن مروان اذا الرجل أمكنني من نفسه حتى أضع معروفي عنده فيده عندي مثل يدي عنده وقال المهدي لشبيب بن شبة كيف رأيت الناس في داري فقال يا أمير المؤمنين ان الرجل منهم ليدخل راجيا ويخرج راضيا وتمثل متمثل عند عبد الله بن جعفر فقال

ان الصنيعة لا تكون صنيعة * حتى يصاب بها طريق المصنع

فاذا اصطنعت صنيعة فاعمد بها * لله أو لذوي القرابة أودع

فقال عبد الله بن جعفر ان هذين البيتين ليبخلان الناس ولكن أمطر المعروف مطرا فان أصاب الكرام كانوا له أهلا وان أصاب اللئام كنت له أهلا

(حكايات الاسخياء)

عن محمد بن المنكدر عن أم درة وكانت تخدم عائشة رضي الله عنها قالت ان معاوية بعث اليها بمال في غرارتين ثمانين ومائة ألف درهم فدعت بطبق فجعلت تقسمه بين الناس فلما أمست قالت يا جارية هلمي فطوري فجاءتها بخبز وزيت فقالت لها أم درة ما استطعت فيما قسمت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحما نفطر عليه فقالت لو كنت ذكرتني لفعلت* وعن أبان بن عثمان قال أراد رجل أن يضار عبيد الله بن عباس فأتى وجوه قريش فقال يقول لكم عبيد الله تغدوا عندي اليوم فأتوه حتى ملؤا عليه الدار فقال ما هذا فأخبر الخبر فأمر عبيد الله بشراء فاكهة وأمر قوما فطبخوا وخبزوا وقدمت الفاكهة اليهم فلم يفرغوا منها حتى وضعت الموائد فأكلوا حتى صدروا فقال عبيد الله لوكلائه أو موجود لنا هذا كل يوم قالوا نعم قال فليتغد عندنا هؤلاء في كل يوم وقال مصعب بن الزبير حج معاوية فلما انصرف مر بالمدينة فقال الحسين بن علي لاخيه الحسن لا تلقه ولا تسلم عليه فلما خرج معاوية قال الحسن ان علينا دينا فلا بد لنا من اتيانه فركب في أثره ولحقه فسلم عليه وأخبره بدينه فمروا عليه ببختي عليه ثمانون ألف دينار وقد أعيا وتخلف عن الابل وقوم يسوقونه فقال معاوية ما هذا فذكر له فقال اصرفوه بما عليه الى أبي محمد* وعن واقد بن محمد الواقدي قال حدثني أبي انه رفع رقعة الى المأمون يذكر فيها كثرة الدين وقلة صبره عليه فوقع المأمون على ظهر رقعته انك رجل اجتمع فيك خصلتان السخاء والحياء فأما السخاء فهو الذي أطلق ما في يدك واما الحياء فهو الذي يمنعك عن تبليغنا ما أنت عليه وقد أمرت لك بمائة ألف درهم فان كنت قد أصبت فازدد في بسط يدك وان لم أكن قد أصبت فجنايتك على نفسك وأنت حدثتني وكنت على قضاء الرشيد عن محمد بن اسحق عن الزهري عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للزبير بن العوام يا زبير اعلم ان مفاتيح أرزاق العباد بازاء العرش يبعث الله عز وجل الى كل عبد بقدر نفقته فمن كثر كثر له ومن قلل قلل له وأنت أعلم قال الواقدي فوالله لمذاكرة المأمون اياي بالحديث أحب الي من الجائزة وهي مائة ألف درهم* وسأل رجل الحسن بن علي رضي الله عنهما حاجة فقال له يا هذا حق سؤالك اياي يعظم لدي ومعرفتي بما يجب لك تكبر

الصفار قال أنا أبو بكر ابن خلف قال أنا أبو عبد الرحمن قال سمعت أبا الحسين الفارسي يقول سمعت محمد بن الحسين يقول قال سهل من خلا قلبه عن ذكر الآخرة تعرض لوساوس الشيطان فاما من باشر باطنه صفو اليقين ونور المعرفة فيستغني بشاهده عن تمثيل مشاهده قال أبو سعيد الخراز اذا ركع فالادب في ركوعه ان ينتصب ويدنو ويتدلى في ركوعه حتى لا يبقى منه مفصل الا وهو منتصب نحو العرش العظيم ثم يعظم الله تعالى حتى لا يكون في قلبه شيء أعظم من الله ويصغر في نفسه حتى يكون أقل من الهباء واذا رفع رأسه وحمد الله يعلم انه سبحانه وتعالى يسمع ذلك (وقال) أيضا ويكون معه من الخشية ما يكاد يذوب به (قال) السراج اذا أخذ العبد في التلاوة فالادب في ذلك

على و يدى تعجز عن نيلك بما أنت أهله والكثير فى ذات الله تعالى قليل وما فى ملكى وفاء الشكرك فان قبلت المسور و رفعت عنى مؤنة الاحتمال والاهتمام لما أتكلفه من واجب حقك فعلت فقال يا ابن رسول الله أقبل وأشكر العطية وأعذر على المنع فدعا الحسن بوكيله وجعل يحاسبه على نفقاته حتى استقصاها فقال هات الفاضل من الثلثمائة ألف درهم فاحضر خمسين ألف قال فافعلت بالخمسمائة دينار قال هى عندى قال أحضرها فاحضرها فدفع الدنانير والدراهم الى الرجل وقال هات من يحملها لك فاتاه بحمالين فدفع اليه الحسن رداءه لكراء الحمالين فقال له مواليه والله ما عندنا درهم فقال أرجو أن يكون لى عند الله أجر عظيم واجتمع قراء البصرة الى ابن عباس وهو عامل بالبصرة فقالوا النا جار صوام قوام يتمنى كل واحد منا أن يكون مثله وقد زوج بنته من ابن أخيه وهو فقير وليس عنده ما يجهزها به فقام عبد الله بن عباس فاخذ بأيديهم وأدخلهم داره وفتح صندوقا فاخرج منه ست بدر فقال احملوا فحملوا فقال ابن عباس ما أنصفناه أعطيناه ما يشغله عن قيامه وصيامه ارجعوا بنا نكن أعوانه على تجهيزها فليس للدنيا من القدر ما يشغل مؤمنا عن عبادة ربه وما بنا من الكبر ما لا نخدم أولياء الله تعالى ففعل وفعلوا * وحكى أنه لما أجدب الناس بمصر وعبد الحميد بن سعد أميرهم فقال والله لاعلمن الشيطان انى عدوه فعال محاويجهم الى أن رخصت الاسعار ثم عزل عنهم فرحل وللتجار عليه ألف ألف درهم فرهنهم بها حلى نسائه وقيمتها خمسمائة ألف ألف فلما تعذر عليه ارتجاعها كتب اليهم ببيعها ودفع الفاضل منها عن حقوقهم الا من لم تنله صلاته * وكان أبو طاهر بن كثير شيعيا فقال له رجل بحق على بن أبى طالب لما وهبت لى نخلتك بموضع كذا وكذا فقال قد فعلت وحقه لاعطينك ما يليها وكان ذلك أضعاف ما طلب الرجل وكان أبو مرثد أحد الكرماء فمدحه بعض الشعراء فقال للشاعر والله ما عندى ما أعطيك ولكن قدمنى الى القاضى وادع على بعشرة آلاف درهم حتى أقر لك بها ثم احبسنى فان أهلى لا يتركونى محبوسا ففعل ذلك فلم يمس حتى دفع اليه عشرة آلاف درهم وأخرج أبو مرثد من الحبس * وكان معن بن زائدة عاملا على العراقين بالبصرة فحضر بابه شاعر فاقام مدة وأراد الدخول على معن فلم يتهيأ له فقال يوما لبعض خدام معن اذا دخل الامير البستان فعرفنى فلما دخل الامير البستان أعلمه فكتب الشاعر بيتا على خشبة وألقاها فى الماء الذى يدخل البستان وكان معن على رأس الماء فلما بصر بالخشبة أخذها وقرأها فاذا مكتوب عليها

أيا جود معن ناج معنا بحاجتى * فمالى الى معن سواك شفيع

فقال من صاحب هذه فدعى بالرجل فقال له كيف قلت فقال له فامر له بعشر بدر فاخذها ووضع الامير الخشبة تحت بساطه فلما كان اليوم الثانى أخرجها من تحت البساط وقرأها ودعا بالرجل فدفع اليه مائة ألف درهم فلما أخذها الرجل تفكر وخاف أن يأخذ منه ما أعطاه فخرج فلما كان فى اليوم الثالث قرأ ما فيها ودعا بالرجل فطلب فلم يوجد فقال معن حق على أن أعطيه حتى لا يبقى فى بيت مالى درهم ولا دينار * وقال أبو الحسن المدائنى خرج الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر حجاجا ففاتهم أثقالهم فجاعوا وعطشوا فمروا بعجوز فى خباء لها فقالوا هل من شراب فقالت نعم فاناخوا اليها وليس لها الا شويهة فى كسر الخيمة فقالت احلبوها وامتذقوا لبنها ففعلوا ذلك ثم قالوا لها هل من طعام قالت لا الا هذه الشاة فليذبحها أحدكم حتى أهيئ لكم ما تأكلون فقام اليها أحدهم وذبحها وكشطها ثم هيأت لهم طعاما فاكلوا وأقاموا حتى أبردوا فلما ارتحلوا قالوا لها نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه فاذا رجعنا سالمين فألمى بنا فانا صانعون بك خيرا ثم ارتحلوا وأقبل زوجها فاخبرته بخبر القوم والشاة فغضب الرجل وقال ويلك تذبحين شاتى لقوم لا تعرفينهم ثم تقولين نفر من قريش قال ثم بعد مدة ألجأتهما الحاجة الى دخول المدينة فدخلا وجعلا ينقلان البعر اليها ويبيعانه ويتعيشان بثمنه فمرت العجوز ببعض سكك المدينة فاذا الحسن ابن على جالس على باب داره فعرف العجوز وهى له منكرة فبعث غلامه فدعا بالعجوز وقال لها يا أمة الله أتعرفينى قالت لا قال أنا ضيفك يوم كذا وكذا فقالت العجوز بابى أنت وأمى أنت هو قال نعم ثم أمر الحسن فاشتروا لها من شياه الصدقة ألف شاة وأمر لها معها بألف دينار وبعث بها مع غلامه الى الحسين فقال لها الحسين بكم وصلك أخى قالت بألف شاة وألف دينار فامر لها الحسين أيضا بمثل ذلك ثم بعث بها مع غلامه الى عبد الله بن جعفر فقال لها بكم وصلك الحسن والحسين قالت بألفى شاة وألفى دينار فامر لها عبد الله بألفى شاة وألفى دينار وقال لها

أن يشاهد و يسمع قلبه كانه يسمع من الله تعالى أو كانه يقرأ على الله تعالى وقال السراج أيضا من أدبهم قبل الصلاة المراقبة ومراعاة القلب من الخواطر والعوارض ونفى كل شئ غير الله تعالى فاذا قاموا الى الصلاة بحضور القلب فكانهم قاموا من الصلاة الى الصلاة فيكون مع النفس والعقل اللذين دخلوا فى الصلاة بهما فاذا خرجوا من الصلاة رجعوا الى حالهم من حضور القلب فكانهم أبدا فى الصلاة فهذا هو أدب الصلاة وقيل كان بعضهم لا يتهيأ له حفظ العدد من كمال استغراقه وكان يجلس واحد من أصحابه يعد عليه كم ركعة صلى (وقيل) للصلاة أربع شعب حضور القلب فى المحراب وشهود العقل عند الملك الوهاب وخشوع القلب بلا ارتياب

لو بدأت بي لاتبعتهما فرجعت العجوز لى زوجها بأربعة آلاف شاة وأربعة آلاف دينار * وخرج عبد الله بن عامر بن كريز من المسجد يريد منزله وهو وحده فقام اليه غلام من ثقيف فمشى الى جانبه فقال له عبد الله ألك حاجة ياغلام قال صلاحك وفلاحك رأيتك تمشي وحدك فقلت أقيك بنفسي وأعوذ بالله ان طار بجنابك مكروه فأخذ عبد الله بيده ومشى معه الى منزله ثم دعا بألف دينار فدفعها الى الغلام وقال استنفق هذه فنعم ما أدبك أهلك وحكى أن قوما من العرب جاؤا الى قبر بعض أسخيائهم للزيارة فنزلوا عند قبره وباتوا عنده وقد كانوا جاؤا من سفر بعيد فرأى رجل منهم في النوم صاحب القبر وهو يقول له هل لك أن تبادل بعيرك بنجيبي وكان السخي الميت قد خلف نجيبا معروفا به ولهذا الرجل بعير سمين فقال له في النوم نعم فباعه في النوم بعيره بنجيبه فلما وقع بينهما العقد عمد هذا الرجل الى بعيره فنحره في النوم فانتبه الرجل من نومه فاذا الدم يثج من نحر بعيره فقام الرجل فنحره وقسم لحمه فطبخوه وقضوا حاجتهم منه ثم رحلوا وساروا فلما كان اليوم الثاني وهم في الطريق استقبلهم ركب فقال رجل منهم من فلان بن فلان منكم باسم ذلك الرجل فقال أنا فقال هل بعت من فلان بن فلان شيأ وذكر الميت صاحب القبر قال نعم بعت منه بعيري بنجيبه في النوم فقال خذ هذا نجيبه ثم قال هو أبي وقد رأيته في النوم وهو يقول ان كنت ابني فادفع نجيبي الى فلان بن فلان وسماه * وقدم رجل من قريش من السفر فمر برجل من الاعراب على قارعة الطريق قد أقعده الدهر وأضر به المرض فقال ياهذا أعنا على الدهر فقال الرجل لغلامه مابقي معك من النفقة فادفعه اليه فصب الغلام في حجر الاعرابي أربعة آلاف درهم فذهب لينهض فلم يقدر من الضعف فبكى فقال له الرجل مايبكيك لعلك استقللت ما أعطيناك قال لا ولكن ذكرت ما تأكل الارض من كرمك فأبكاني * واشترى عبد الله بن عامر من خالد بن عقبة بن أبي معيط داره التي في السوق بتسعين ألف درهم فلما كان الليل سمع بكاء أهل خالد فقال لاهله مالهؤلاء قالوا يبكون لدارهم فقال ياغلام ائتهم فاعلمهم ان المال والدار لهم جميعا وقيل بعث هرون الرشيد الى مالك بن أنس رحمة الله بخمسمائة دينار فبلغ ذلك الليث بن سعد فانفذ اليه ألف دينار فغضب هرون وقال أعطيته خمسمائة وتعطيه ألفا وأنت من رعيتي فقال ياأمير المؤمنين ان لي من غلتي كل يوم ألف دينار فاستحييت أن أعطي مثله أقل من دخل يوم وحكى أنه لم تجب عليه الزكاة مع أنه دخله كل يوم ألف دينار * وحكى ان امرأة سألت الليث بن سعد رحمه الله عليه شيأ من عسل فأمر لها بزق من عسل فقيل له انها كانت تقنع بدون هذا فقال انها سألت على قدر حاجتها ونحن نعطيها على قدر النعمة علينا * وكان الليث بن سعد لايتكلم كل يوم حتى يتصدق على ثلثمائة وستين مسكينا وقال الاعمش اشتكت شاة عندي فكان خيثمة بن عبد الرحمن يعودها بالغداة والعشي ويسألني هل استوفت علفها وكيف صبر الصبيان منذ فقدوا لبنها وكان تحتي لبد أجلس عليه فاذا خرج قال خذ ماتحت اللبد حتى وصل الي في علة الشاة أكثر من ثلثمائة دينار من بره حتى تمنيت أن الشاة لم تبرأ وقال عبد الملك بن مروان لأسماء بن خارجة بلغني عنك خصال فحدثني بها فقال هي من غيري أحسن منها مني فقال عزمت عليك الا حدثتني بها فقال ياأمير المؤمنين ما مددت رجلي بين يدي جليس لي قط ولا صنعت طعاما قط فدعوت عليه قوما الا كانوا أمن علي مني عليهم ولا نصب لي رجل وجهه قط يسألني شيأ فاستكثرت شيأ أعطيته اياه ودخل سعيد بن خالد على سليمان بن عبد الملك وكان سعيد رجلا جوادا فاذا لم يجد شيأ كتب لمن سأله صكا على نفسه حتى يخرج عطاؤه فلما نظر اليه سليمان تمثل بهذا البيت فقال

اني سمعت من الصباح مناديا * يامن يعين على الفتى المعوان

ثم قال ما حاجتك قال ديني قال وكم هو قال ثلاثون ألف دينار قال لك دينك ومثله وقيل مرض قيس بن سعد بن عبادة فاستبطأ اخوانه فقيل انهم يستحيون مما لك عليهم من الدين فقال اخزى الله مالا يمنع الاخوان من الزيارة ثم أمر مناديا فنادى من كان عليه لقيس بن سعد حق فهو منه بري فقال فانكسرت درجته بالعشي لكثرة من زاره وعاده وعن أبي اسحق قال صليت الفجر في مسجد الاشعث بالكوفة أطلب غريما لي فلما صليت وضع بين يدي حلة ونعلان فقلت لست من أهل هذا المسجد فقالوا ان الاشعث بن قيس الكندي قدم البارحة من مكة فأمر لكل من صلى في المسجد بحلة ونعلين وقال الشيخ أبو سعد الخركوشي النيسابوري رحمه الله سمعت محمد بن محمد الحافظ

وخضوع الاركان بلا ارتقاب لان عند حضور القلب رفع الحجاب وعند شهود العقل رفع العتاب وعند حضور النفس فتح الابواب وعند خضوع الاركان وجود الثواب فمن أتى الصلاة بلا حضور القلب فهو مصل لاه ومن أتاها بلا شهود العقل فهو مصل ساه ومن أتاها بلا خضوع النفس فهو مصل خاطئ ومن أتاها بلا خشوع الاركان فهو مصل جاف ومن أتاها كما وصف فهو مصل واف (وقد ورد) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قام العبد الى الصلاة المكتوبة مقبلا على الله بقلبه وسمعه وبصره انصرف من صلاته وقد خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه وان الله ليغفر بغسل الوجه خطيئة أصابها وبغسل يديه خطيئة أصابها وبغسل رجليه خطيئة أصابها حتى يدخل في صلاته

يقول سمعت الشافعي المجاور بمكة يقول كان بمصر رجل عرف بان يجمع للفقراء شيأ فولد لبعضهم مولود قال فجئت اليه وقلت له ولد مولود وليس معي شيء فقام معي ودخل على جماعة فلم يفتح بشيء فجاء الى قبر رجل وجلس عنده وقال رحمك الله كنت تفعل وتصنع واني درت اليوم على جماعة فكلفتهم دفع شيء لمولود فلم يتفق لي شيء قال ثم قام وأخرج دينارا وقسمه نصفين وناولني نصفه وقال هذا دين عليك الى أن يفتح عليك بشيء قال فأخذته وانصرفت فأصلحت ما اتفق لي به قال فرأى ذلك المحتسب تلك الليلة ذلك الشخص في منامه فقال سمعت جميع ماقلت وليس لنا اذن في الجواب ولكن احضر منزلي وقل لاولادي يحفروا مكان الكانون ويخرجوا قرابة فيها خمسمائة دينار فاحملها الى هذا الرجل فلما كان من الغد تقدم الى منزل الميت وقص عليهم القصة فقالوا له اجلس وحفروا الموضع وأخرجوا الدنانير وجاؤا بها فوضعوها بين يديه فقال هذا مالكم وليس لرؤياي حكم فقالوا هو يتسخى ميتا ولا نتسخى نحن أحياء فلما ألحوا عليه حمل الدنانير الى الرجل صاحب المولود وذكر له القصة قال فأخذ منها دينارا فكسره نصفين فاعطاه النصف الذي أقرضه وحمل النصف الآخر وقال يكفيني هذا وتصدق به على الفقراء فقال أبو سعيد فلا أدري هؤلاء أسخى * وروى أن الشافعي رحمه الله لما مرض مرض موته بمصر قال مروا فلانا يغسلني فلما توفي بلغه خبر وفاته فحضر وقال ائتوني بتذكرته فاتي بها فنظر فيها فاذا على الشافعي سبعون ألف درهم دين فكتبها على نفسه وقضاها عنه وقال هذا غسلي اياه أي أراد به هذا وقال أبو سعيد الواعظ الخركوشي لما قدمت مصر طلبت منزل ذلك الرجل فدلوني عليه فرأيت جماعة من أحفاده وزرتهم فرأيت فيهم سيما الخير وآثار الفضل فقلت بلغ أثره في الخير اليهم وظهرت بركته فيهم مستدلا بقوله تعالى وكان أبوهما صالحا وقال الشافعي رحمه الله لا أزال أحب حماد بن أبي سليمان لشيء بلغني عنه انه كان ذات يوم راكبا حماره فحركه فانقطع زره فمر على خياط فأراد أن ينزل اليه ليسوي زره فقال الخياط والله لا نزلت فقام الخياط اليه فسوى زره فاخرج اليه صرة فيها عشرة دنانير فسلمها الى الخياط واعتذر اليه من قلتها وأنشد الشافعي رحمه الله لنفسه

يا لهف قلبي على مال أجود به * على المقلين من أهل المروآت

ان اعتذاري الى من جاء يسألني * ماليس عندي لمن احدى المصيبات

وعن الربيع بن سليمان قال أخذ رجل بركاب الشافعي رحمه الله فقال ياربيع أعطه أربعة دنانير واعتذر اليه عني وقال الربيع سمعت الحميدي يقول قدم الشافعي من صنعاء الى مكة بعشرة آلاف دينار فضرب خباءه في موضع خارج عن مكة ونثرها على ثوب ثم أقبل على كل من دخل عليه يقبض له قبضة ويعطيه حتى صلى الظهر ونفض الثوب وليس عليه شيء * وعن أبي ثور قال أراد الشافعي الخروج الى مكة ومعه مال وكان قلما يمسك شيأ من سماحته فقلت له ينبغي أن تشتري بهذا المال ضيعة تكون لك ولولدك قال فخرج ثم قدم علينا فسألته عن ذلك المال فقال ماوجدت بمكة ضيعة يمكنني أن أشتريها لمعرفتي بأصلها وقد وقف أكثرها ولكن بنيت بمنى مضربا يكون لاصحابنا اذا حجوا أن ينزلوا فيه وأنشد الشافعي رحمه الله لنفسه يقول

أرى نفسي تتوق الى أمور * يقصر دون مبلغهن مالي

فنفسي لا تطاوعني ببخل * ومالي لا يبلغني فعالي

وقال محمد بن عباد المهلبي دخل أبي على المأمون فوصله بمائة ألف درهم فلما قام من عنده تصدق بها فاخبر بذلك المأمون فلما عاد اليه عاتبه المأمون في ذلك فقال يا أمير المؤمنين منع الموجود سوء ظن بالمعبود فوصله بمائة ألف أخرى * وقام رجل الى سعيد بن العاص فسأله فأمر له بمائة ألف درهم فبكى فقال له سعيد مايبكيك قال أبكي على الارض أن تأكل مثلك فأمر له بمائة ألف أخرى * ودخل أبو تمام على ابراهيم بن شكلة بأبيات امتدحه بها فوجده عليلا فقبل منه المدحة وأمر حاجبه بنيله مايصلحه وقال عسى أن أقوم من مرضي فاكافئه فاقام شهرين فأوحشه طول المقام فكتب اليه يقول

ان حراما قبول مدحتنا * وترك مانرتجي من الصفد

كما الدراهم والدنانير في البيع حرام الا يدا بيد

ولبس عليه وزر (وذكرت) السرقة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أي السرقة أقبح فقالوا الله ورسوله أعلم فقال ان أقبح السرقة أن يسرق الرجل من صلاته قالوا كيف يسرق الرجل من صلاته قال لايتم ركوعها ولا سجودها ولا خشوعها ولا القراءة فيها (وروى) عن أبي عمرو بن العلاء انه قدم للامامة فقال لا أصلح فلما ألحوا عليه كبر فغشي عليه فقدموا اماما آخر فلما أفاق سئل فقال لما قلت استووا هتف بي هاتف هل استويت أنت مع الله قط (وقال عليه السلام) ان العبد اذا أحسن الوضوء وصلى الصلاة لوقتها وحافظ على ركوعها وسجودها ومواقيتها قالت حفظك الله كما حفظتني ثم صعدت ولها نور حتى تنتهي الى السماء وحتى تصل الى الله فتشفع

فلما وصل البيتان الى ابراهيم قال لحاجبه كم أقام بالباب قال شهرين قال أعطه ثلاثين ألفا وجئني بدواة فكتب اليه

أعجلتنا فأتاك عاجل برنا * قلا ولو أمهلتنا لم نقلل
فخذ القليل وكن كأنك لم تقل * ونقول نحن كأننا لم نفعل

وروى أنه كان لعثمان على طلحة رضي الله عنهما خمسون ألف درهم فخرج عثمان يوما الى المسجد فقال له طلحة قد تهيأ مالك فاقبضه فقال هو لك يا أبا محمد معونة لك على مروءتك *وقالت سعدى بنت عوف دخلت على طلحة فرأيت منه ثقلا فقلت له مالك فقال اجتمع عندي مال وقد غمني فقلت وما يغمك ادع قومك فقال يا غلام علي بقومي فقسمه فيهم فسألت الخادم كم كان قال أربعمائة ألف *وجاء اعرابي الى طلحة فسأله وتقرب اليه برحم فقال ان هذه الرحم ما سألني بها أحد قبلك ان لي أرضا قد أعطاني بها عثمان ثلثمائة ألف فان شئت فاقبضها وان شئت بعتها من عثمان ودفعت اليك الثمن فقال الثمن فباعها من عثمان ودفع اليه الثمن *وقيل بكى علي كرم الله وجهه يوما فقيل ما يبكيك فقال لم يأتني ضيف منذ سبعة أيام أخاف أن يكون الله قد أهانني *وأتى رجل صديقا له فدق عليه الباب فقال ما جاء بك قال علي أربعمائة درهم دين فوزن أربعمائة درهم وأخرجها اليه وعاد يبكي فقالت امرأته لم أعطيته اذ شق عليك فقال انما أبكي لاني لم أتفقد حاله حتى احتاج الى مفاتحتي فرحم الله من هذه صفاتهم وغفر لهم أجمعين

لصاحبها واذا أضاعها قالت ضيعك الله كما ضيعتني ثم صعدت ولها ظلمة حتى تنتهي الى أبواب السماء فتغلق دونها ثم تلف كما يلف الثوب الخلق فيضرب بها وجه صاحبها (وقال أبو سليمان الداراني) اذا وقف العبد في الصلاة يقول الله تعالى ارفعوا الحجب فيما بيني وبين عبدي فاذا التفت يقول الله ارخوها فيما بيني وبينه وخلوا عبدي وما اختار لنفسه (وقال أبو بكر الوراق) ربما أصلي ركعتين فانصرف منهما وأنا أستحي من الله حياء رجل انصرف من الزنا قوله هذا العظيم الادب عنده ومعرفة كل انسان بأدب الصلاة على قدر حظه من القرب (وقيل) لموسى ابن جعفر ان الناس أفسدوا عليك الصلاة بمرهم بين يديك قال ان الذي أصلي له أقرب الي من الذي يمشي بين يدي (وقيل) كان زين

﴿ بيان ذم البخل ﴾

قال الله تعالى ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون وقال تعالى ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة وقال تعالى الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وقال صلى الله عليه وسلم اياكم والشح فانه أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم وقال صلى الله عليه وسلم اياكم والشح فانه دعا من كان قبلكم فسفكوا دماءهم ودعاهم فاستحلوا محارمهم فقطعوا أرحامهم وقال صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة بخيل ولا خب ولا خائن ولا سيء الملكة وفي رواية ولا جبار وفي رواية ولا منان وقال صلى الله عليه وسلم ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه وقال صلى الله عليه وسلم ان الله يبغض ثلاثة الشيخ الزاني والبخيل المنان والمعيل المختال وقال صلى الله عليه وسلم مثل المنفق والبخيل كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من لدن ثديهما الى تراقيهما فاما المنفق فلا ينفق شيأ الا سبغت أو وفرت على جلده حتى تخفي بنانه وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيأ الا قلصت ولزمت كل حلقة مكانها حتى أخذت بتراقيه فهو يوسعها ولا تتسع وقال صلى الله عليه وسلم اللهم اني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك أن أرد الى أرذل العمر وقال صلى الله عليه وسلم اياكم والظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة واياكم والفحش ان الله لا يحب الفاحش ولا المتفحش واياكم والشح فانما أهلك من كان قبلكم الشح أمرهم بالكذب فكذبوا وأمرهم بالظلم فظلموا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا وقال صلى الله عليه وسلم شر ما في الرجل شح هالع وجبن خالع *وقتل شهيد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكته باكية فقالت واشهيداه فقال صلى الله عليه وسلم وما يدريك أنه شهيد فلعله كان يتكلم فيما لا يعنيه أو يبخل بما لا ينقصه وقال جبير بن مطعم بينا نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه الناس مقفلة من خيبر اذ علقت برسول الله صلى الله عليه وسلم الاعراب يسألونه حتى اضطروه الى سمرة فخطفت رداءه فوقف صلى الله عليه وسلم فقال أعطوني ردائي فوالذي نفسي بيده لو كان لي عدد العضاه نعما لقسمته بينكم ثم لا تجدوني بخيلا ولا كذابا ولا جبانا وقال عمر رضي الله عنه قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسما فقلت غير هؤلاء كانوا أحق به منهم فقال انهم يخيروني بين أن يسألوني بالفحش أو يبخلوني ولست بباخل وقال أبو سعيد الخدري دخل رجلان على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألاه ثمن بعير فاعطاهما دينارين فخرجا من عنده فلقيهما عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأثنيا وقالا معروفا وشكرا ما صنع بهما فدخل عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بما قالا فقال صلى الله عليه وسلم لكن فلان أعطيته ما بين عشرة الى مائة ولم يقل ذلك ان أحدكم ليسألني فينطلق في مسألته متابطها وهي نار فقال عمر فلم تعطيهم ما هو نار فقال يأبون الا أن يسألوني ويأبى الله لي البخل وعن ابن عباس قال قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم الجود من جود الله تعالى فجودوا يجد الله لكم الا أن الله عزوجل خلق الجود فجعله فى صورة رجل وجعل رأسه راسخا فى أصل شجرة طوبى وشد أغصانها باغصان سدرة المنتهى ودلى بعض أغصانها الى الدنيا فمن تعلق بغصن منها أدخله الجنة ألا ان السخاء من الايمان والايمان فى الجنة وخلق البخل من من مقته وجعل رأسه راسخا فى أصل شجرة الزقوم ودلى بعض أغصانها الى الدنيا فمن تعلق بغصن منها أدخله النار ألا ان البخل من الكفر والكفر فى النار وقال صلى الله عليه وسلم السخاء شجرة تنبت فى الجنة فلا يلج الجنة الا سخى والبخل شجرة تنبت فى النار فلا يلج النار الا بخيل وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لوفد بنى لحيان من سيدكم يا بنى لحيان قالوا سيدنا جد بن قيس الا انه رجل فيه بخل فقال صلى الله عليه وسلم وأى داء أدوأ من البخل ولكن سيدكم عمرو بن الجموح وفى رواية انهم قالوا سيدنا جد بن قيس فقال بم تسودنه قالوا انه أكثرنا مالا وانا على ذلك لنرى منه البخل فقال عليه السلام وأى داء أدوأ من البخل ليس ذلك سيدكم قالوا فمن سيدنا يا رسول قال سيدكم بشر بن البراء وقال على رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله يبغض البخيل فى حياته السخى عند موته وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم السخى الجهول أحب الى الله من العابد البخيل وقال أيضا قال صلى الله عليه وسلم الشح والايمان لا يجتمعان فى قلب عبد وقال أيضا خصلتان لا يجتمعان فى مؤمن البخل وسوء الخلق وقال صلى الله عليه وسلم لا ينبغى لمؤمن أن يكون بخيلا ولا جبانا وقال صلى الله عليه وسلم يقول قائلكم الشحيح أعذر من الظالم وأى ظلم أظلم عند الله من الشح حلف الله تعالى بعزته وعظمته وجلاله لا يدخل الجنة شحيح ولا بخيل وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يطوف بالبيت فاذا رجل متعلق باستار الكعبة وهو يقول بحرمة هذا البيت الا غفرت لى ذنبى فقال صلى الله عليه وسلم وما ذنبك صفه لى فقال هو أعظم من أن أصفه لك فقال ويحك ذنبك أعظم أم الارضون فقال بل ذنبى أعظم يا رسول الله قال فذنبك أعظم أم الجبال قال بل ذنبى أعظم يا رسول الله قال فذنبك أعظم أم البحار قال بل ذنبى أعظم يا رسول الله قال فذنبك أعظم أم السموات قال بل ذنبى أعظم يا رسول الله قال فذنبك أعظم أم العرش قال بل ذنبى أعظم يا رسول الله قال فذنبك أعظم أم الله قال بل الله أعظم وأعلى قال ويحك فصف لى ذنبك قال يا رسول الله انى رجل ذو ثروة من المال وان السائل ليأتينى يسألنى فكأنما يستقبلنى بشعلة من نار فقال صلى الله عليه وسلم اليك عنى لا تحرقنى بنارك فوالذى بعثنى بالهداية والكرامة لو قمت بين الركن والمقام ثم صليت ألفى ألف عام ثم بكيت حتى تجرى من دموعك الانهار وتسقى بها الاشجار ثم مت وأنت لئيم لاكبك الله فى النار ويحك أما علمت أن البخل كفر وأن الكفر فى النار ويحك أما علمت أن الله تعالى يقول ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون (الآثار) قال ابن عباس رضى الله عنهما لما خلق الله جنة عدن قال لها تزينى فتزينت ثم قال لها اظهرى أنهارك فاظهرت عين السلسبيل وعين الكافور وعين التسنيم فتفجر منها فى الجنان أنهار الخمر وأنهار العسل واللبن ثم قال لها أظهرى سررك وحجالك وكراسيك وحليك وحللك وحور عينك فاظهرت فنظر اليها فقال تكلمى فقالت طوبى لمن دخلنى فقال الله تعالى وعزتى لا أسكنك بخيلا وقالت أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز أف للبخيل لو كان البخل قميصا ما لبسته ولو كان طريقا ما سلكته وقال طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه انا لنجد باموالنا ما يجد البخلاء لكننا نتصبر وقال محمد بن المنكدر كان يقال اذا أراد الله بقوم شرا أمر عليهم شرارهم وجعل ارزاقهم بايدى بخلائهم وقال على كرم الله وجهه فى خطبته انه سيأتى على الناس زمان عضوض يعض الموسر على ما فى يده ولم يؤمر بذلك قال الله تعالى ولا تنسوا الفضل بينكم وقال عبد الله بن عمر والشح أشد من البخل لان الشحيح هو الذى يشح على ما فى يد غيره حتى يأخذه ويشح بما فى يده فيحبسه والبخيل هو الذى يبخل بما فى يده وقال الشعبى لا أدرى أيهما أبعد غورا فى نار جهنم البخل أو الكذب وقيل وردعلى أنوشروان حكيم الهند وفيلسوف الروم فقال للهندى تكلم فقال خير الناس من ألفى سخيا وعند الغضب وقورا وفى القول متأنيا وفى الرفعة متواضعا وعلى كل ذى رحم مشفقا وقام الرومى فقال من كان بخيلا ورث عدوه ماله ومن قل شكره لم ينل النجح وأهل الكذب مذمومون وأهل النميمة يموتون فقراء ومن لم يرحم سلط عليه من لا يرحمه وقال الضحاك فى قوله تعالى

العابد بن على بن الحسين رضى الله عنهما اذا أراد أن يخرج الى الصلاة لا يعرف من تغير لونه فيقال له فى ذلك فيقول أتدرون بين يدى من أريد أن أقف (وروى) عمار بن ياسر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لا يكتب للعبد من صلاته الا ما يعقل وقد ورد فى لفظ آخر منكم من يصلى الصلاة كاملة ومنكم من يصلى النصف والثلث والربع والخمس حتى حتى يبلغ العشر (قال) الخواص ينبغى للرجل أن ينوى نوافله لنقصان فرائضه فان لم ينوها لم يحسب له منها شئ بلغنا أن الله لا يقبل نافلة حتى تؤدى فريضة يقول الله تعالى مثلكم كمثل العبد السوء بدأ بالهدية قبل قضاء الدين (وقال) أيضا تقطع الخلق عن الله تعالى بخصلتين أحداهما أنهم طلبوا النوافل وضيعوا الفرائض

انا جعلنا فى أعناقهم أغلالا قال البخل أمسك الله تعالى أيديهم عن النفقة فى سبيل الله فهم لا يبصرون الهدى وقال كعب مامن صباح الا وقد وكل به ملكان يناديان اللهم عجل لممسك تلفا وعجل لمنفق خلفا وقال الاصمعى سمعت اعرابيا وقد وصف رجلا فقال لقد صغر فلان فى عينى لعظم لدنيا فى عينه وكانما يرى السائل ملك الموت اذ أتاه وقال أبو حنيفة رحمه الله لا أرى أن أعدل بخيلا لان البخل يحمله على الاستقصاء فيأخذ فوق حقه خيفة من أن يغبن فمن كان هكذا لا يكون مأمون الامانة وقال على كرم الله وجهه والله ما استقصى كريم قط حقه قال الله تعالى عرف بعضه وأعرض عن بعض وقال الجاحظ مابقى من اللذات الا ثلاث ذم البخلاء وأكل القديد وحك الجرب وقال بشر بن الحرث البخيل لا غيبة له قال النبى صلى الله عليه وسلم إنك اذا لبخيل ومدحت امرأة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا صوامة قوامة الا أن فيها بخلا قال فما خيرها اذا وقال بشر النظر الى البخيل يقسى القلب ولقاء البخلاء كرب على قلوب المؤمنين وقال يحيى بن معاذ مافى القلب للاسخياء الا حب ولو كانوا فجارا وللبخلاء الا بغض ولو كانوا أبرارا وقال ابن المعتز أبخل الناس بماله أجودهم بعرضه ولقى يحيى بن زكريا عليهما السلام ابليس فى صورته فقال له يا ابليس اخبرنى باحب الناس اليك وأبغض الناس اليك قال أحب الناس الى المؤمن البخيل وأبغض الناس الى الفاسق السخى قال له لم قال لان البخيل قد كفانى بخله والفاسق السخى أتخوف أن يطلع الله عليه فى سخائه فيقبله ثم ولى وهو يقول لولا أنك يحيى لما أخبرتك

﴿ حكايات البخلاء ﴾

قيل كان بالبصرة رجل موسر بخيل فدعاه بعض جيرانه وقدم اليه طباهجة ببيض فاكل منه فأكثر وجعل يشرب الماء فانتفخ بطنه ونزل به الكرب والموت فجعل يتلوى فلما جهده الامر وصف حاله للطبيب فقال لا بأس عليك تقيأ ما أكلت فقال هاه أتقيأ طباهجة ببيض الموت ولا ذلك * وقيل أقبل أعرابى يطلب رجلا و بين يديه تين فغطى التين بكسائه فجلس الاعرابى فقال له الرجل هل تحسن من القرآن شيأ قال نعم فقرأ والزيتون وطور سينين فقال وأين التين قال هو تحت كسائك * ودعا بعضهم أخاه ولم يطعمه شيأ فحبسه الى العصر حتى اشتد جوعه وأخذه مثل الجنون فاخذ صاحب البيت العود وقال له بحياتى أى صوت تشتهى أن اسمعك قال صوت المقلى ويحكى أن محمد بن يحيى بن خالد بن برمك كان قبيح البخل فسئل نسيب له كان يعرفه عنه فقال له قائل صف لى مائدته فقال هى فتر فى فتر وصحافه مقنورة من حب الخشخاش قيل فمن يحضرها قال الكرام الكاتبون قال فما يأكل معه أحد قال بلى الذباب فقال سوأتك بدت وأنت خاص به وثوبك مخرق قال أنا والله ما أقدر على ابرة أخيطه بها ولو ملك محمد بيتا من بغداد الى النوبة مملوأ ابرا ثم جاءه جبريل وميكائيل ومعهما يعقوب النبى عليه السلام يطلبون منه ابرة ويسألونه اعارتهم اياها ليخط بها قميص يوسف الذى قد من دبر مافعل * ويقال كان مروان بن أبى حفصة لا يأكل اللحم بخلا حتى يقرم اليه فاذا قرم اليه أرسل غلامه فاشترى له رأسا فاكله فقيل له نراك لا تأكل الا الرؤس فى الصيف والشتاء فلم تختار ذلك قال نعم الرأس أعرف سعره فآمن من خيانة الغلام ولا يستطيع أن يغبننى فيه وليس بلحم يطبخه الغلام فيقدر أن يأكل منه أن مس عينا أو أذنا أو خدا وقفت على ذلك وآكل منه ألوانا عينه لونا وأذنه لونا ولسانه لونا وغلصمته لونا ودماغه لونا وأكفى مؤنة طبخه فقد اجتمعت لى فيه مرافق وخرج يوما يريد الخليفة المهدى فقالت له امرأة من أهله مالى عليك ان رجعت بالجائزة فقال ان أعطيت مائة ألف أعطيتك درهما فاعطى ستين ألفا فاعطاها أربعة دوانق واشترى مرة لحما بدرهم فدعاه صديق له فرد اللحم الى القصاب بنقصان دانق وقال أكره الاسراف * وكان للاعمش جار وكان لا يزال يعرض عليه المنزل ويقول لو دخلت فأكلت كسرة وملحا فيأبى عليه الاعمش فعرض عليه ذات يوم فوافق جوع الاعمش فقال سر بنا فدخل منزله فقرب اليه كسرة وملحا فجاء سائل فقال له رب المنزل بورك فيك فاعاد عليه المسئلة فقال له بورك فيك فلما سأل الثالثة قال له اذهب والا والله خرجت اليك بالعصا قال فناداه الاعمش فقال اذهب ويحك فلا والله ما رأيت أحدا أصدق مواعيد منه هو منذ مدة يدعونى على كسرة وملح فلا والله مازادنى عليهما

﴿ بيان الايثار وفضله ﴾

اعلم ان السخاء والبخل كل منهما ينقسم الى درجات فارفع درجة السخاء الايثار وهو أن يجود بالمال مع الحاجة اليه

والثانية انهم عملوا أعمالا بالظواهر ولم يأخذوا أنفسهم بالصدق فيها والنصح لها وأبى الله تعالى أن يقبل من عامل عملا الا بالصدق وإصابة الحق وفتح العين فى الصلاة أولى من تغميض العين الا أن يتشتت همه بتفريق النظر فيغمض العين للاستعانة على الخشوع وان تثاءب فى الصلاة يضم شفتيه بقدر الامكان ولا يلزق ذقنه بصدره ولا يزاحم فى الصلاة غيره (قيل) ذهب المرحوم بصلاة المزاحم (وقيل) من ترك الصف الاول مخافة أن يضيق على أهله فقام فى الثانى أعطاه الله مثل ثواب الصف الاول من غير أن ينقص من أجورهم شئ (وقيل) ان ابراهيم الخليل عليه السلام كان اذا قام الى الصلاة يسمع خفقان قلبه من ميل (وروت) عائشة رضى الله عنها أن رسول

وانما السخاء عبارة عن بذل ما يحتاج اليه لمحتاج أو لغير محتاج والبذل مع الحاجة أشد وكما ان السخاوة قد تنتهي الى أن يسخو الانسان على غيره مع الحاجة فالبخل قد ينتهي الى ان يبخل على نفسه مع الحاجة فكم من بخيل يمسك المال ويمرض فلا يتداوى ويشتهي الشهوة فلا يمنعه منها الا البخل بالثمن ولو وجدها مجانا لا كلها فهذا بخيل على نفسه مع الحاجة وذلك يؤثر على نفسه غيره مع أنه محتاج اليه فانظر ما بين الرجلين فان الاخلاق عطايا يضعها الله حيث يشاء وليس بعد الايثار درجة في السخاء وقد أثنى الله على الصحابة رضي الله عنهم به فقال ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة وقال النبي صلى الله عليه وسلم أيما امرئ اشتهى شهوة فرد شهوته وآثر على نفسه غفر له وقالت عائشة رضي الله عنها ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام متوالية حتى فارق الدنيا ولو شئنا لشبعنا ولكنا كنا نؤثر على أنفسنا ونزل برسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عند أهله شيأ فدخل عليه رجل من الانصار فذهب بالضيف الى أهله ثم وضع بين يديه الطعام وأمر امرأته باطفاء السراج وجعل يمد يده الى الطعام كانه يأكل ولا يأكل حتى أكل الضيف الطعام فلما أصبح قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد عجب الله من صنيعكم الليلة الى ضيفكم ونزلت ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة فالسخاء خلق من أخلاق الله تعالى والايثار أعلى درجات السخاء وكان ذلك من دأب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سماه الله تعالى عظيما فقال تعالى وانك لعلى خلق عظيم وقال سهل بن عبد الله التستري قال موسى عليه السلام يا رب أرني بعض درجات محمد صلى الله عليه وسلم وأمته فقال يا موسى انك لن تطيق ذلك ولكن أريك منزلة من منازله جليلة عظيمة فضلته بها عليك وعلى جميع خلقي قال فكشف له عن ملكوت السموات فنظر الى منزلة كادت تتلف نفسه من أنوارها وقربها من الله تعالى فقال يا رب بماذا بلغت به الى هذه الكرامة قال بخلق اختصصته به من بينهم وهو الايثار يا موسى لا يأتيني أحد منهم قد عمل به وقتا من عمره الا استحييت من محاسبته وبوأته من جنتي حيث يشاء وقيل خرج عبد الله بن جعفر الى ضيعة له فنزل على نخيل قوم وفيه غلام أسود يعمل فيه اذ أتى الغلام بقوته فدخل الحائط كلب ودنا من الغلام فرمى اليه الغلام بقرص فاكله ثم رمى اليه الثاني والثالث فاكله وعبد الله ينظر اليه فقال يا غلام كم قوتك كل يوم قال ما رأيت قال فلم آثرت به هذا الكلب قال ما هي بارض كلاب انه جاء من مسافة بعيدة جائعا فكرهت أن أشبع وهو جائع قال فما أنت صانع اليوم قال أطوي يومي هذا فقال عبد الله بن جعفر ألام على السخاء ان هذا الغلام لاسخى مني فاشترى الحائط والغلام وما فيه من الآلات فاعتق الغلام ووهبه منه وقال عمر رضي الله عنه أهدى الى رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة فقال ان أخي كان أحوج مني اليه فبعث به اليه فلم يزل كل واحد يبعث به الى آخر حتى تداوله سبعة أبيات ورجع الى الاول وبات علي كرم الله وجهه على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم فاوحى الله تعالى الى جبريل وميكائيل عليهما السلام اني آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخر فايكما يؤثر صاحبه بالحياة فاختارا كلاهما الحياة وأحباها فاوحى الله عز وجل اليهما أفلا كنتما مثل علي بن أبي طالب آخيت بينه وبين نبيي محمد صلى الله عليه وسلم فبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة اهبطا الى الارض فاحفظاه من عدوه فكان جبريل عند رأسه وميكائيل عند رجليه وجبريل عليه السلام يقول بخ بخ من مثلك يا ابن أبي طالب والله تعالى يباهي بك الملائكة فانزل الله تعالى ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رؤف بالعباد وعن أبي الحسن الانطاكي أنه اجتمع عنده نيف وثلاثون نفسا وكانوا في قرية بقرب الري ولهم أرغفة معدودة لم تشبع جميعهم فكسروا الرغفان وأطفؤا السراج وجلسوا للطعام فلما رفع فاذا الطعام بحاله ولم يأكل أحد منه شيأ ايثارا لصاحبه على نفسه وروي ان شعبة جاءه سائل وليس عنده شئ فنزع خشبة من سقف بيته فاعطاه ثم اعتذر اليه وقال حذيفة العدوي انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي ومعي شئ من ماء وأنا أقول ان كان به رمق سقيته ومسحت به وجهه فاذا أنا به فقلت أسقيك فاشار الي أن نعم فاذا رجل يقول آه فاشار ابن عمي الي أن انطلق به اليه قال فجئته فاذا هو هشام بن العاص فقلت أسقيك فسمع به آخر فقال آه فاشار هشام انطلق به اليه فجئته فاذا هو قد مات فرجعت الى هشام فاذا هو قد مات فرجعت الى ابن عمي فاذا هو قد مات رحمة الله عليهم أجمعين وقال عباس ابن دهقان ما خرج أحد من الدنيا كما دخلها الا بشر بن الحرث فانه أتاه رجل في مرضه فشكا اليه الحاجة فنزع

الله صلى الله عليه وسلم كان يسمع من صدره أزيز كازيز المرجل حتى كان يسمع في بعض سكك المدينة (وسئل) الجنيد ما فرضية الصلاة قال قطع العلائق وجمع الهم والحضور بين يدي الله وقال الحسن ماذا يعز عليك من أمر دينك اذا هانت عليك صلاتك (وقيل) أوحى الله تعالى الى بعض الانبياء فقال اذا دخلت الصلاة فهب لي من قلبك الخشوع ومن بدنك الخضوع ومن عينك الدموع فاني قريب (وقال) أبو الخير الاقطع رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقلت يا رسول الله أوصني فقال يا أبا الخير عليك بالصلاة فاني استوصيت ربي فاوصاني بالصلاة وقال لي ان أقرب ما أكون منك وأنت تصلي (وقال ابن عباس) رضي الله عنهما ركعتان

قيصه وأعطاه اياه واستعار ثوبا فمات فيه وعن بعض الصوفية قال كنا بطرسوس فاجتمعنا جماعة وخرجنا الى باب الجهاد فتبعنا كلب من البلد فلما بلغنا ظاهر الباب اذا نحن بدابة ميتة فصعدنا الى موضع عال وقعدنا فلما نظر الكلب الى الميتة رجع الى البلد ثم عاد بعد ساعة ومعه مقدار عشرين كلبا فجاء الى تلك الميتة وقعد ناحية و وقعت الكلاب فى الميتة فما زالت تاكلها وذلك الكلب قاعد ينظر اليها حتى أكلت الميتة و بقى العظم ورجعت الكلاب الى البلد فقام ذلك الكلب وجاء الى تلك العظام فاكل مما بقى عليها قليلا ثم انصرف وقد ذكرنا جملة من أخبار الايثار وأحوال الاولياء فى كتاب الفقر والزهد فلا حاجة الى الاعادة ههنا و بالله التوفيق وعليه التوكل فيما يرضيه عز وجل

﴿ بيان حد السخاء والبخل وحقيقتهما ﴾

لعلك تقول قد عرف بشواهد الشرع ان البخل من المهلكات ولكن ما حد البخل و بماذا يصير الانسان بخيلا وما من انسان الا وهو يرى نفسه سخيا و ربما يراه غيره بخيلا وقد يصدر فعل من انسان فيختلف فيه الناس فيقول قوم هذا بخل و يقول آخرون ليس هذا من البخل وما من انسان الا يجد من نفسه حبا للمال ولاجله يحفظ المال و يمسكه فان كان يصير بامساك المال بخيلا فاذا لا ينفك أحد عن البخل واذا كان الامساك مطلقا لا يوجب البخل ولا معنى للبخل الا الامساك فما البخل الذى يوجب الهلاك وما حد السخاء الذى يستحق به العبد صفة السخاوة وثوابها فنقول قد قال قائلون حد البخل منع الواجب فكل من أدى ما يجب عليه فليس ببخيل وهذا غير كاف فان من يرد اللحم مثلا الى القصاب والخبز الى الخباز بنقصان حبة أو نصف حبة فانه يعد بخيلا بالاتفاق وكذلك من يسلم الى عياله القدر الذى يفرضه القاضى ثم يضايقهم فى لقمة ازدادوها عليه أو تمرة أكلوها من ماله يعد بخيلا ومن كان بين يديه رغيف فحضر من يظن أنه يأكل معه فاخفاه عنه عد بخيلا وقال قائلون البخيل هو الذى يستصعب العطية وهو أيضا قاصر فانه ان أريد به انه يستصعب كل عطية فكم من بخيل لا يستصعب العطية القليلة كالحبة وما يقرب منها و يستصعب ما فوق ذلك وان أريد به انه يستصعب بعض العطايا فما من جواد الا وقد يستصعب بعض العطايا وهو ما يستغرق جميع ماله أو المال العظيم فهذا لا يوجب الحكم بالبخل وكذلك تكلموا فى الجود فقيل الجود عطاء بلا من واسعاف من غير رؤية وقيل الجود عطاء من غير مسألة على رؤية التقليل وقيل الجود السرور بالسائل والفرح بالعطاء لما أمكن وقيل الجود عطاء على رؤية ان المال لله تعالى والعبد لله عز وجل فيعطى عبد الله مال الله على غير رؤية الفقر وقيل من أعطى البعض وأبقى البعض فهو صاحب سخاء ومن بذل الاكثر وأبقى لنفسه شيأ فهو صاحب جود ومن قاسى الضر وآثر غيره بالبلغة فهو صاحب ايثار ومن لم يبذل شيأ فهو صاحب بخل وجملة هذه الكلمات غير محيطة بحقيقة الجود والبخل بل نقول المال خلق لحكمة ومقصود وهو صلاحه لحاجات الخلق و يمكن امساكه عن الصرف الى ما خلق للصرف اليه و يمكن بذله بالصرف الى ما لا يحسن الصرف اليه و يمكن التصرف فيه بالعدل وهو أن يحفظ حيث يجب الحفظ و يبذل حيث يجب البذل فالامساك حيث يجب البذل بخل والبذل حيث يجب الامساك تبذير و بينهما وسط وهو المحمود و ينبغى أن يكون السخاء والجود عبارة عنه اذ لم يؤمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الا بالسخاء وقد قيل له ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط وقال تعالى والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما فالجود وسط بين الاسراف والاقتار و بين البسط والقبض وهو ان يقدر بذله وامساكه بقدر الواجب ولا يكفى ان يفعل ذلك بجوارحه ما لم يكن قلبه طيبا به غير منازع له فيه فان بذل فى محل وجوب البذل ونفسه تنازعه وهو يصابرها فهو متسخ وليس بسخى بل ينبغى أن لا يكون لقلبه علاقة مع المال الا من حيث يراد المال له وهو صرفه الى ما يجب صرفه اليه فان قلت فقد صار هذا موقوفا على معرفة الواجب فما الذى يجب بذله فاقول ان الواجب قسمان واجب بالشرع و واجب بالمروءة والعادة والسخى هو الذى لا يمنع واجب الشرع ولا واجب المروءة فان منع واحدا منهما فهو بخيل ولكن الذى يمنع واجب الشرع أبخل كالذى يمنع أداء الزكاة و يمنع عياله وأهله النفقة أو يؤديها ولكنه يشق عليه فانه بخيل بالطبع وانما يتسخى بالتكلف أو الذى يتيمم الخبيث من ماله ولا يطيب قلبه أن يعطى من أطيب ماله أو من وسطه فهذا كله بخل * وأما واجب المروءة فهو ترك المضايقة والاستقصاء فى

فى تفكر خير من قيام ليلة (وقيل ان) محمد بن يوسف الفرغانى رأى حاتما الاصم واقفا يعظ الناس فقال له يا حاتم أراك تعظ الناس أفتحسن أن تصلى قال نعم قال كيف تصلى قال أقوم بالامر وأمشى بالخشية وأدخل بالهيبة وأكبر بالعظمة وأقرأ بالترتيل وأركع بالخشوع وأسجد بالتواضع وأقعد للتشهد بالتمام وأسلم على السنة وأسلمها الى ربى وأحفظها أيام حياتى وأرجع باللوم على نفسى وأخاف أن لا تقبل منى وأرجو ان تقبل منى وأنا بين الخوف والرجاء وأشكر من علمنى وأعلمها من سألنى وأحمد ربى اذ هدانى فقال محمد بن يوسف مثلك يصلح أن يكون واعظا وقوله تعالى لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى قيل من حب الدنيا وقيل من الاهتمام وقال عليه السلام من صلى ركعتين ولم يحدث نفسه بشئ من

المحقرات فان ذلك مستقبح واستقباح ذلك يختلف بالاحوال والاشخاص فمن كثر ماله استقبح منه مالا يستقبح
من الفقير من المضايقة ويستقبح من الرجل المضايقة مع أهله وأقاربه ومماليكه مالا يستقبح مع الاجانب
ويستقبح من الجار مالا يستقبح مع البعيد ويستقبح في الضيافة من المضايقة مالا يستقبح في المعاملة
فيختلف ذلك بما فيه من المضايقة في ضيافة أو معاملة وبما به المضايقة من طعام أو ثوب اذ يستقبح في الاطعمة
مالا يستقبح في غيرها ويستقبح في شراء الكفن مثلا أو شراء الاضحية أو شراء خبز الصدقة مالا يستقبح في
غيره من المضايقة وكذلك بمن معه المضايقة من صديق أو أخ أو قريب أو زوجة أو ولد أو أجنبي وبمن منه
المضايقة من صبي أو امرأة أو شيخ أو شاب أو عالم أو جاهل أو موسر أو فقير فالبخيل هو الذي يمنع حيث ينبغي أن
لا يمنع اما بحكم الشرع واما بحكم المروءة وذلك لا يمكن التنصيص على مقداره ولعل حد البخل هو امساك المال
عن غرض ذلك الغرض هو أهم من حفظ المال فان صيانة الدين أهم من حفظ المال فمانع الزكاة والنفقة
بخيل وصيانة المروءة أهم من حفظ المال والمضايق في الدقائق مع من لا يحسن المضايقة معه هاتك ستر المروءة
لحب المال فهو بخيل ثم تبقى درجة أخرى وهو أن يكون الرجل ممن يؤدي الواجب ويحفظ المروءة ولكن معه
مال كثير قد جمعه ليس يصرفه الى الصدقات والى المحتاجين فقد تقابل غرض حفظ المال ليكون له عدة على
نوائب الزمان وغرض الثواب ليكون رافعا لدرجاته في الآخرة وامساك المال عن هذا الغرض بخل عند
الاكياس وليس ببخل عند عوام الخلق وذلك لان نظر العوام مقصور على حظوظ الدنيا فيرون امساكه
لدفع نوائب الزمان مهما وربما يظهر عند العوام أيضا سمة البخل عليه ان كان في جواره محتاج فمنعه وقال
قد أديت الزكاة الواجبة وليس على غيرها ويختلف استقباح ذلك باختلاف مقدار ماله وباختلاف شدة حاجة
المحتاج وصلاح دينه واستحقاقه فمن أدى واجب الشرع وواجب المروءة اللائقة به فقد تبرأ من البخل نعم
لا يتصف بصفة الجود والسخاء مالم يبذل زيادة على ذلك لطلب الفضيلة ونيل الدرجات فاذا اتسعت نفسه لبذل
المال حيث لا يوجبه الشرع ولا تتوجه اليه الملامة في العادة فهو جواد بقدر ما تتسع له نفسه من قليل أو كثير
ودرجات ذلك لا تحصر وبعض الناس أجود من بعض فاصطناع المعروف وراء ما توجبه العادة والمروءة هو
الجود ولكن بشرط أن يكون عن طيب نفس ولا يكون عن طمع ورجاء خدمة أو مكافأة أو شكر أو ثناء فان من
طمع في الشكر والثناء فهو بياع وليس بجواد فانه يشترى المدح بماله والمدح لذيذ وهو مقصود في نفسه والجود
هو بذل الشئ من غير عوض هذا هو الحقيقة ولا يتصور ذلك الا من الله تعالى وأما الآدمي فاسم الجود عليه
مجاز اذ لا يبذل الشئ الا لغرض ولكنه اذا لم يكن غرضه الا الثواب في الآخرة أو اكتساب فضيلة الجود
وتطهير النفس عن رذالة البخل فيسمى جوادا فان كان الباعث عليه الخوف من الهجاء مثلا أو من ملامة
الخلق أو ما يتوقعه من نفع يناله من المنعم عليه فكل ذلك ليس من الجود لانه مضطر اليه بهذه البواعث وهي
أعواض معجلة له عليه فهو معتاض لا جواد كما روي عن بعض المتعبدات انها وقفت على حبان بن هلال وهو
جالس مع أصحابه فقالت هل فيكم من أسأله عن مسألة فقالوا لها سلي عما شئت وأشاروا الى حبان بن هلال فقالت
ما السخاء عندكم قالوا العطاء والبذل والايثار قالت هذا السخاء في الدنيا فما السخاء في الدين قالوا أن نعبد الله
سبحانه سخية بها أنفسنا غير مكرهة قالت فتريدون على ذلك أجرا قالوا نعم قالت ولم قالوا لان الله تعالى وعدنا
بالحسنة عشر أمثالها قالت سبحان الله فاذا أعطيتم واحدة وأخذتم عشرة فبأي شئ تسخيتم عليه قالوا لها فما
السخاء عندك يرحمك الله قالت السخاء عندي أن تعبدوا الله متنعمين متلذذين بطاعته غير كارهين لا تريدون
على ذلك أجرا حتى يكون مولاكم يفعل بكم ما يشاء ألا تستحيون من الله أن يطلع على قلوبكم فيعلم منها أنكم تريدون
شيأ بشئ ان هذا في الدنيا لقبيح وقالت بعض المتعبدات أتحسبون أن السخاء في الدرهم والدينار فقط قيل
ففيم قالت السخاء عندي في المهج وقال المحاسبي السخاء في الدين أن تسخو بنفسك تتلفها لله عز وجل
ويسخو قلبك ببذل مهجتك واهراق دمك لله تعالى بسماحة من غير اكراه ولا تريد بذلك ثوابا عاجلا ولا
آجلا وان كنت غير مستغن عن الثواب ولكن يغلب على ظنك حسن كمال السخاء بترك الاختيار على الله حتى
يكون مولاك هو الذي يفعل لك مالا تحسن أن تختاره لنفسك

﴿ بيان علاج البخل ﴾

الدنيا غفر الله له ما تقدم
من ذنبه وقال أيضا ان
الصلاة تمسكن وتواضع
وتضرع وتنادم وترفع
يديك وتقول اللهم
اللهم فمن لا يفعل ذلك
فهي خداج أي ناقصة
*وقد ورد أن المؤمن
اذا توضأ للصلاة تباعد
عنه الشيطان في أقطار
الارض خوفا منه لانه
تأهب للدخول على
الملك فاذا كبر حجب
عنه ابليس قيل يضرب
بينه وبينه سرادق
لا ينظر اليه وواجهه
الجبار بوجهه فاذا قال
الله أكبر اطلع الملك في
قلبه فاذا لم يكن في قلبه
أكبر من الله تعالى
يقول صدقت الله في
قلبك كما تقول وتشعشع
من قلبه نور يلحق
بملكوت العرش
ويكشف له بذلك النور
ملكوت السموات
والارض ويكتب له
حشو ذلك النور
حسنات وان الجاهل
الغافل اذا قام الى
الصلاة احتوشته

اعلم ان البخل سببه حب المال ولحب المال سببان * أحدهما حب الشهوات التي لا وصول اليها الا بالمال مع طول الامل فان الانسان لو علم أنه يموت بعد يوم ربما انه كان لا يبخل بماله اذ القدر الذي يحتاج اليه في يوم أو في شهر أو في سنة قريب وان كان قصير الامل ولكن كان له أولاد أقام الولد مقام طول الامل فانه يقدر بقاءهم كبقاء نفسه فيمسك لاجلهم ولذلك قال عليه السلام الولد مبخلة مجبنة مجهلة فاذا انضاف الى ذلك خوف الفقر وقلة الثقة بمجيء الرزق قوي البخل لا محالة * السبب الثاني أن يحب عين المال فمن الناس من معه ما يكفيه لبقية عمره اذا اقتصر على ما جرت به عادته بنفقته وتفضل آلاف وهو شيخ بلا ولد ومعه أموال كثيرة ولا تسمح نفسه باخراج الزكاة ولا بمداواة نفسه عند المرض بل صار محبا للدنانير عاشقا لها يلتذ بوجودها في يده وبقدرته عليها فيكنزها تحت الارض وهو يعلم أنه يموت فتضيع أو يأخذها أعداؤه ومع هذا فلا تسمح نفسه بأن يأكل أو يتصدق منها بحبة واحدة وهذا مرض للقلب عظيم عسير العلاج لا سيما في كبر السن وهو مرض مزمن لا يرجى علاجه ومثال صاحبه مثال رجل عشق شخصا فاحب رسوله لنفسه ثم نسي محبوبه واشتغل برسوله فان الدنانير رسول يبلغ الى الحاجات فصارت محبوبة لذلك لان الموصل الى اللذيذ لذيذ ثم قد تنسى الحاجات ويصير الذهب عنده كأنه محبوب في نفسه وهو غاية الضلال بل من رأى بينه وبين الحجر فرقا فهو جاهل الا من حيث قضاء حاجته به فالفاضل عن قدر حاجته والحجر بمثابة واحدة فهذه أسباب حب المال وانما علاج كل علة بمضادة سببها فتعالج حب الشهوات بالقناعة باليسير وبالصبر وتعالج طول الامل بكثرة ذكر الموت والنظر في موت الاقران وطول تعبهم في جمع المال وضياعه بعدهم وتعالج التفات القلب الى الولد بان خالقه خلق معه رزقه وكم من ولد لم يرث من أبيه مالا وحاله أحسن ممن ورث وبان يعلم انه يجمع المال لولده يريد أن يترك ولده بخير وينقلب هو الى شر وان ولده ان كان تقيا صالحا فالله كافيه وان كان فاسقا فيستعين بماله على المعصية وترجع مظلمته اليه ويعالج أيضا قلبه بكثرة التأمل في الاخبار الواردة في ذم البخل ومدح السخاء وما توعد الله به على البخل من العقاب العظيم ومن الادوية النافعة كثرة التأمل في أحوال البخلاء ونفرة الطبع عنهم واستقباحهم له فانه ما من بخيل الا ويستقبح البخل من غيره ويستثقل كل بخيل من أصحابه فيعلم أنه مستثقل ومستقذر في قلوب الناس مثل سائر البخلاء في قلبه ويعالج أيضا قلبه بأن يتفكر في مقاصد المال وانه لماذا خلق ولا يحفظ من المال الا بقدر حاجته اليه والباقي يدخره لنفسه في الآخرة بان يحصل له ثواب بذله فهذه الادوية من جهة المعرفة والعلم فاذا عرف بنور البصيرة أن البذل خير له من الامساك في الدنيا والآخرة هاجت رغبته في البذل ان كان عاقلا فان تحركت الشهوة فينبغي أن يجيب الخاطر الاول ولا يتوقف فان الشيطان يعده الفقر ويخوفه ويصده عنه * حكي أن أبا الحسن البوشنجي كان ذات يوم في الخلاء فدعا تلميذا له وقال انزع عني القميص وادفعه الى فلان فقال هلا صبرت حتى تخرج قال لم آمن على نفسي أن تتغير وكان قد خطر لي بذله ولا تزول صفة البخل الا بالبذل تكلفا كما لا يزول العشق الا بمفارقة المعشوق بالسفر عن مستقره حتى اذا سافر وفارق تكلفا وصبر عنه مدة تسلى عنه قلبه فكذلك الذي يريد علاج البخل ينبغي أن يفارق المال تكلفا بأن يبذله بل لو رماه في الماء كان أولى به من امساكه اياه مع الحب له ومن لطائف الحيل فيه أن يخدع نفسه بحسن الاسم والاشتهار بالسخاء فيبذل على قصد الرياء حتى تسمح نفسه بالبذل طمعا في حشمة الجود فيكون قد أزال عن نفسه خبث البخل واكتسب بها خبث الرياء ولكن يتعطف بعد ذلك على الرياء ويزيله بعلاجه ويكون طلب الاسم كالتسلية للنفس عند فطامها عن المال كما قد يسلى الصبي عند الفطام عن الثدي باللعب بالعصافير وغيرها لا ليخلى واللعب ولكن لينفك عن الثدي اليه ثم ينقل عنه الى غيره فكذلك هذه الصفات الخبيثة ينبغي أن يسلط بعضها على بعض كما تسلط الشهوة على الغضب وتكسر سورته بها وتسلط الغضب على الشهوة وتكسر رعونتها الا أن هذا مفيد في حق من كان البخل أغلب عليه من حب الجاه والرياء فيبدل الاقوى بالاضعف فان كان الجاه محبوبا عنده كالمال فلا فائدة فيه فانه يقلع من علة ويزيد في أخرى مثلها الا أن علامة ذلك أن لا يثقل عليه البذل لاجل الرياء فبذلك يتبين أن الرياء أغلب عليه فان كان البذل يشق عليه مع الرياء فينبغي أن يبذل فان ذلك يدل على أن مرض البخل أغلب على قلبه ومثال دفع هذه الصفات بعضها ببعض ما يقال ان الميت تستحيل

الشياطين كما يحتوش الذباب على نقطة العسل فاذا كبر الطالع الله على قلبه فاذا كان شيء في قلبه أكبر من الله تعالى عنده يقول له كذبت ليس الله تعالى أكبر في قلبك كما تقول فيثور من قلبه دخان يلحق بعنان السماء فيكون حجابا للقلبه من الملكوت فيزداد ذلك الحجاب صلابة ويلتقم الشيطان قلبه فلا يزال ينفخ فيه وينفث ويوسوس اليه ويزين حتى ينصرف من صلاته ولا يعقل ما كان فيه * وفي الخبر لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا الى ملكوت السماء والقلوب الصافية التي كمل أدبها الكمال أدب قوالبها تصير سماوية تدخل بالتكبير في السماء كما تدخل في الصلاة والله تعالى حرس السماء من تصرف الشياطين فالقلب السماوي لا سبيل للشيطان اليه فتبقى

جميع أجزائه دودا ثم يأكل بعض الديدان البعض حتى يقل عددها ثم يأكل بعضها بعضا حتى ترجع الى اثنتين قويتين عظيمتين ثم لا تزالان تتقاتلان الى أن تغلب احداهما الاخرى فتأكلها وتسمن بها ثم لا تزال تبقى جائعة وحدها الى أن تموت فكذلك هذه الصفات الخبيثة يمكن أن يسلط بعضها على بعض حتى يقمعها ويجعل الاضعف قوتا للاقوى الى أن لا يبقى الا واحدة ثم تقع العناية بمحوها واذابتها بالمجاهدة وهو منع القوت عنها ومنع القوت عن الصفات أن لا يعمل بمقتضاها فانها تقتضي لا محالة أعمالا واذا خولفت خمدت الصفات وماتت مثل البخل فانه يقتضي امساك المال فاذا منع مقتضاه وبذل المال مع الجهد مرة بعد أخرى ماتت صفة البخل وصار البذل طبعا وسقط التعب فيه فان علاج البخل بعلم وعمل فالعلم يرجع الى معرفة آفة البخل وفائدة الجود والعمل يرجع الى الجود والبذل على سبيل التكلف ولكن قد يقوى البخل بحيث يعمي ويصم فيمنع تحقق المعرفة فيه واذا لم تتحقق المعرفة لم تتحرك الرغبة فلم يتيسر العمل فتبقى العلة مزمنة كالمرض الذي يمنع معرفة الدواء وامكان استعماله فانه لا حيلة فيه الى الصبر الى الموت وكان من عادة بعض شيوخ الصوفية في معالجة علة البخل في المريدين أن يمنعهم من الاختصاص بزواياهم وكان اذا توهم في مريد فرحه بزاويته وما فيها نقله الى زاوية غيرها ونقل زاوية غيره اليه وأخرجه عن جميع ما ملكه واذا رآه يلتفت الى ثوب جديد يلبسه أو سجادة يفرح بها يأمره بتسليمها الى غيره ويلبسه ثوبا خلقا لا يميل اليه قلبه فبهذا يتجافى القلب عن متاع الدنيا فمن لم يسلك هذا السبيل أنس بالدنيا وأحبها فان كان له ألف متاع كان له ألف محبوب ولذلك اذا سرق كل واحد منه ألمت به مصيبة بقدر حبه له فاذا مات نزل به ألف مصيبة دفعة واحدة لانه كان يحب الكل وقد سلب عنه بل هو في حياته على خطر المصيبة بالفقد والهلاك * حمل الى بعض الملوك قدح من فيروزج مرصع بالجواهر لم ير له نظير ففرح الملك بذلك فرحا شديدا فقال لبعض الحكماء عنده كيف ترى هذا قال أراه مصيبة أو فقرا قال كيف قال ان كسر كان مصيبة لا جبر لها وان سرق صرت فقيرا اليه ولم تجد مثله وقد كنت قبل أن يحمل اليك في أمن من المصيبة والفقر ثم اتفق يوما أن كسر أو سرق وعظمت مصيبة الملك عليه فقال صدق الحكيم ليته لم يحمل الينا وهذا شأن جميع أسباب الدنيا فان الدنيا عدوة لاعداء الله اذ تسوقهم الى النار وعدوة أولياء الله اذ تغمهم بالصبر عنها وعدوة الله اذ تقطع طريقه على عباده وعدوة نفسها فانها تأكل نفسها فان المال لا يحفظ الا بالخزائن والحراس والخزائن والحراس لا يمكن تحصيلها الا بالمال وهو بذل الدراهم والدنانير فالمال يأكل نفسه ويضاد ذاته حتى يفنى ومن عرف آفة المال لم يأنس به ولم يفرح به ولم يأخذ منه الا بقدر حاجته ومن قنع بقدر الحاجة فلا يبخل لان ما أمسكه لحاجته فليس ببخل وما لا يحتاج اليه فلا يتعب نفسه بحفظه فيبذله بل هو كالماء على شط الدجلة اذ لا يبخل به أحد لقناعة الناس منه بمقدار الحاجة

﴿ بيان مجموع الوظائف التي على العبد في ماله ﴾

اعلم أن المال كما وصفناه خير من وجه وشر من وجه ومثاله مثال حية يأخذها الراقي ويستخرج منها الترياق ويأخذها الغافل فيقتله سمها من حيث لا يدري ولا يخلو أحد عن سم المال الا بالمحافظة على خمس وظائف (الاولى) أن يعرف مقصود المال وانه لماذا خلق وأنه لم يحتاج اليه حتى يكتسب ولا يحفظ الا قدر الحاجة ولا يعطيه من همته فوق ما يستحقه (الثانية) أن يراعي جهة دخل المال فيجتنب الحرام المحض وما الغالب عليه الحرام كمال السلطان ويجتنب الجهات المكروهة القادحة في المروءة كالهدايا التي فيها شوائب الرشوة وكالسؤال الذي فيه الذلة وهتك المروءة وما يجري مجراه (الثالثة) في المقدار الذي يكتسبه فلا يستكثر منه ولا يستقل بل القدر الواجب ومعياره الحاجة والحاجة ملبس ومسكن ومطعم ولكل واحد ثلاث درجات أدنى وأوسط وأعلى وما دام مائلا الى جانب القلة ومتقربا من حد الضرورة كان محقا ويجيء من جملة المحقين وان جاوز ذلك وقع في هاوية لا آخر لعمقها وقد ذكرنا تفصيل هذه الدرجات في كتاب الزهد (الرابعة) أن يراعي جهة المخرج ويقتصد في الانفاق غير مبذر ولا مقتر كما ذكرناه فيضع ما اكتسبه من حله في حقه ولا يضعه في غير حقه فان الاثم في الاخذ من غير حقه والوضع في غير حقه سواء (الخامسة) أن يصلح نيته في الاخذ والترك والانفاق

هواجس نفسانية عند ذلك لا تنقطع بالتحصن بالسماء كانقطاع تصرف الشيطان والقلوب المرادة بالقرب تدرج بالتقريب وتعرج في طبقات السموات وفي كل طبقة من أطباق السماء يتخلف شيء من ظلمة النفس وبقدر ذلك يقل الهاجس الى أن يتجاوز السموات ويقف أمام العرش فعند ذلك يذهب بالكلية هاجس النفس بساطع نور العرش وتندرج ظلمات النفس في نور القلب اندراج الليل في النهار وتتأدى حينئذ حقوق الآداب على وجه الصواب (وما ذكرنا) من أدب الصلاة يسير من كثير وشأن الصلاة أكبر من وصفنا وأكمل من ذكرنا وقد غلط أقوام وظنوا أن المقصود من الصلاة ذكر الله تعالى واذا حصل الذكر فاي حاجة الى الصلاة وسلكوا طرقا

ولا امساك فيأخذ ما يأخذ ليستعين به على العبادة ويترك ما يترك زهدا فيه واستحقارا له اذا فعل ذلك لم يضره وجود المال ولذلك قال علي رضي الله عنه لو أن رجلا أخذ جميع ما في الارض وأراد به وجه الله تعالى فهو زاهد ولو أنه ترك الجميع ولم يرد به وجه الله تعالى فليس بزاهد فلتكن جميع حركاتك وسكناتك لله مقصورة على عبادة أو ما يعين على العبادة فان أبعد الحركات عن العبادة الاكل وقضاء الحاجة وهما معينان على العبادة فاذا كان ذلك قصدك به صار ذلك عبادة في حقك وكذلك ينبغي أن تكون نيتك في كل ما يحفظك من قميص وازار وفراش وآنية لان كل ذلك مما يحتاج اليه في الدين وما فضل من الحاجة ينبغي أن يقصد به أن ينتفع به عبد من عباد الله ولا يمنعه منه عند حاجته فمن فعل ذلك فهو الذي أخذ من حية المال جوهرها وترياقها واتقى سمها فلا تضره كثرة المال لكن لا يتأتى ذلك الا لمن رسخ في الدين قدمه وعظم فيه علمه والعامي اذا تشبه بالعالم في الاستكثار من المال وزعم أنه يشبه أغنياء الصحابة شابه الصبي الذي يرى المعزم الحاذق يأخذ الحية ويتصرف فيها فيخرج ترياقها فيقتدي به ويظن أنه أخذها مستحسنا صورتها وشكلها ومستلينا جلدها فيأخذها اقتداء به فتقتله في الحال الا أن قتيل الحية يدري أنه قتيل وقتيل المال قد لا يعرف وقد شبهت الدنيا بالحية فقيل

هي دنيا كحية تنفث السم وان كانت المجسة لانت

وكما يستحيل أن يتشبه الاعمى بالبصير في تخطي قلل الجبال وأطراف البحار والطرق المشوكة فمحال أن يتشبه العامي بالعالم الكامل في تناول المال

﴿بيان ذم الغنى ومدح الفقر﴾

اعلم أن الناس قد اختلفوا في تفضيل الغني الشاكر على الفقير الصابر وقد أوردنا ذلك في كتاب الفقر والزهد وكشفنا عن تحقيق الحق فيه ولكنا في هذا الكتاب ندل على أن الفقر أفضل وأعلى من الغنى على الجملة من غير التفات الى تفصيل الاحوال ونقتصر فيه على حكاية فصل ذكره الحرث المحاسبي رضي الله عنه في بعض كتبه في الرد على بعض العلماء من الاغنياء حيث احتج بأغنياء الصحابة وبكثرة مال عبد الرحمن بن عوف وشبه نفسه بهم والمحاسبي رحمه الله حبر الامة في علم المعاملة وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس وآفات الاعمال وأغوار العبادات وكلامه جدير بأن يحكى على وجهه وقد قال بعد كلام له في الرد على علماء السوء بلغنا أن عيسى ابن مريم عليه السلام قال يا علماء السوء تصومون وتصلون وتصدقون ولا تفعلون ما تؤمرون وتدرسون ما لا تعملون فيا سوء ما تحكمون تتوبون بالقول والاماني وتعملون بالهوى وما يغني عنكم أن تنقوا جلودكم وقلوبكم دنسة بحق أقول لكم لا تكونوا كالمنخل يخرج منه الدقيق الطيب وتبقى فيه النخالة كذلك أنتم تخرجون الحكم من أفواهكم ويبقى الغل في صدوركم يا عبيد الدنيا كيف يدرك الآخرة من لا تنقضي من الدنيا شهوته ولا تنقطع منها رغبته بحق أقول لكم ان قلوبكم تبكي من أعمالكم جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم والعمل تحت أقدامكم بحق أقول لكم أفسدتم آخرتكم فصلاح الدنيا أحب اليكم من صلاح الآخرة فأي الناس أخسر منكم لو تعلمون ويلكم حتام تصفون الطريق للمدلجين وتقيمون في محل المتحيرين كانكم تدعون أهل الدنيا ليتركوها لكم مهلا مهلا ويلكم ماذا يغني عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره وجوفه وحش مظلم كذلك لا يغني عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم وأجوافكم منه وحشة معطلة يا عبيد الدنيا لا كعبيد أتقياء ولا كاحرار كرام توشك الدنيا أن تقلعكم عن أصولكم فتلقيكم على وجوهكم ثم تكبكم على مناخركم ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم ثم تدفعكم من خلفكم حتى تسلمكم الى الملك الديان عراة فرادى فيوقفكم على سوآتكم ثم يجزيكم بسوء أعمالكم ثم قال الحرث رحمه الله اخواني فهؤلاء علماء السوء شياطين الانس وفتنة على الناس رغبوا في عرض الدنيا ورفعتها وآثروها على الآخرة وأذلوا الدين للدنيا فهم في العاجل عار وشين وفي الآخرة هم الخاسرون أو يعفو الكريم بفضله وبعد فاني رأيت الهالك المؤثر للدنيا سروره ممزوج بالتنغيص فيتفجر عنه أنواع الهموم وفنون المعاصي والى البوار والتلف مصيره فرح الهالك برجاه فلم تبق له دنياه ولم يسلم له دينه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين فيا لها من مصيبة ما أفظعها ورزية ما أجلها الا فراقبوا الله اخواني ولا يغرنكم الشيطان وأولياؤه من الآنسين بالحجج الداحضة عند الله

من الضلال وركنوا الى أباطيل الخيال ومحو الرسوم والاحكام ورفضوا الحلال والحرام وقوم آخرون سلكوا في ذلك طريقا أدتهم الى نقصان الحال حيث سلموا من الضلال لانهم اعترفوا بالفرائض وأنكروا فضل النوافل واغتروا بيسير روح الحال وأهملوا فضل الاعمال ولم يعلموا أن لله في كل هيئة من الهيآت وكل حركة من الحركات أسرارا وحكما لا توجد في شيء من الاذكار فالاحوال والاعمال روح وجسمان وما دام العبد في دار الدنيا اعراضه عن الاعمال عين الطغيان فالاعمال تزكو بالاحوال والاحوال تنمو بالاعمال

﴿الباب التاسع والثلاثون في فضل الصوم وحسن أثره﴾

روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال الصبر نصف الايمان

فانهم يتكالبون على الدنيا ثم يطلبون لانفسهم المعاذير والحجج و يزعمون أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه
وسلم كانت لهم أموال فيتزين المغرورون بذكر الصحابة ليعذرهم الناس على جمع المال ولقد دهاهم الشيطان
ومايشعرون ويحك أيها المفتون ان احتجاجك بمال عبد الرحمن بن عوف مكيدة من الشيطان ينطق بها على
لسانك فتهلك لانك متى زعمت أن أخيار الصحابة أرادوا المال للتكاثر والشرف والزينة فقد اغتبت السادة
ونسبتهم الى أمر عظيم ومتى زعمت أن جمع المال الحلال أعلى وأفضل من تركه فقد ازريت بمحمد والمرسلين
ونسبتهم الى قلة الرغبة والزهد فى هذا الخير الذى رغبت فيه أنت وأصحابك من جمع المال ونسبتهم الى الجهل اذلم
يجمعوا المال كما جمعت ومتى زعمت أن جمع المال الحلال أعلى من تركه فقد زعمت أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم لم ينصح للامة اذنهاهم عن جمع المال وقد علم أن جمع المال خير للامة فقد غشهم بزعمك حين نهاهم عن
جمع المال كذبت ورب السماء على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقد كان للامة ناصحا وعليهم مشفقا وبهم رؤفا
ومتى زعمت أن جمع المال أفضل فقد زعمت أن الله عز وجل لم ينظر لعباده حين نهاهم عن جمع المال وقد علم
أن جمع المال خير لهم أو زعمت أن الله تعالى لم يعلم أن الفضل فى الجمع فلذلك نهاهم عنه وأنت عليم بما فى المال
من الخير والفضل فلذلك رغبت فى الاستكثار كأنك أعلم بموضع الخير والفضل من ربك تعالى الله عن جهلك
أيها المفتون تدبر بعقلك مادهاك به الشيطان حين زين لك الاحتجاج بمال الصحابة ويحك ماينفعك
الاحتجاج بمال عبد الرحمن بن عوف وقد ود عبد الرحمن بن عوف فى القيامة انه لم يؤت من الدنيا الاقوتا ولقد
بلغنى انه لما توفى عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه قال أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم انا نخاف
على عبد الرحمن فيما ترك فقال كعب سبحان الله وما تخافون على عبد الرحمن كسب طيبا وأنفق طيبا وترك طيبا فبلغ
ذلك أباذر فخرج مغضبا يريد كعبا فمر بعظم لحى بعير فأخذه بيده ثم انطلق يريد كعبا فقيل لكعب ان أباذر
يطلبك فخرج هاربا حتى دخل على عثمان يستغيث به وأخبره الخبر وأقبل أبوذر يقص الأثر فى طلب كعب حتى
انتهى الى دار عثمان فلما دخل قام كعب فجلس خلف عثمان هاربا من أبى ذر فقال له أبوذر هيه يا ابن اليهودية تزعم
أن لا بأس بما ترك عبد الرحمن بن عوف ولقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما نحو أحد وأنا معه فقال
يا أباذر فقلت لبيك يا رسول الله فقال الاكثرون هم الاقلون يوم القيامة الا من قال هكذا وهكذا عن يمينه وشماله
وقدامه وخلفه وقليل ماهم ثم قال يا أباذر قلت نعم يا رسول الله بأبى أنت وأمى قال ما يسرنى أن لى مثل أحد أنفقه
فى سبيل الله أموت يوم أموت وأترك منه قيراطين قلت أو قنطارين يا رسول الله قال بل قيراطان ثم قال يا أباذر
أنت تريد الاكثر وأنا أريد الاقل فرسول الله يريد هذا وأنت تقول يا ابن اليهودية لا بأس بما ترك عبد الرحمن
ابن عوف كذبت وكذب من قال فلم يرد عليه خوفا حتى خرج * وبلغنا أن عبد الرحمن بن عوف قدمت عليه عير
من اليمن فضجت المدينة ضجة واحدة فقالت عائشة رضى الله عنها ماهذا قيل عير قدمت لعبد الرحمن قالت
صدق الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فبلغ ذلك عبد الرحمن فسألها فقالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول انى رأيت الجنة فرأيت فقراء المهاجرين والمسلمين يدخلون سعيا ولم أر أحدا من الاغنياء يدخلها معهم الا
عبد الرحمن بن عوف رأيته يدخلها معهم حبوا فقال عبد الرحمن ان العير وما عليها فى سبيل الله وان أرقاءها
أحرار لعلى أن أدخلها معهم سعيا وبلغنا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعبد الرحمن بن عوف أما انك أول من
يدخل الجنة من أغنياء أمتى وما كدت أن تدخلها الا حبوا * ويحك أيها المفتون فما احتجاجك بالمال وهذا
عبد الرحمن فى فضله وتقواه وصنائعه المعروف وبذله الاموال فى سبيل الله مع صحبته لرسول الله صلى الله عليه
وسلم وبشراه بالجنة أيضا يوقف فى عرصات القيامة وأهوالها بسبب مال كسبه من حلال للتعفف ولصنائع
المعروف وأنفق منه قصدا وأعطى فى سبيل الله سمحا منع من السعى الى الجنة مع الفقراء المهاجرين وصار
يحبو فى آثارهم حبوا أفما ظنك بأمثالنا الغرقى فى فتن الدنيا وبعد فالعجب كل العجب لك يا مفتون تتمرغ فى
تخاليط الشبهات والسحت وتتكالب على أوساخ الناس وتتقلب فى الشهوات والزينة والمباهاة وتتقلب فى فتن
الدنيا ثم تحتج بعبد الرحمن وتزعم انك ان جمعت المال فقد جمعه الصحابة كأنك أشبهت السلف وفعلهم ويحك ان
هذا من قياس ابليس ومن فتياه لاوليائه وسأصف لك أحوالك وأحوال السلف لتعرف فضائحك وفضل

والصوم نصف الصبر
وقيل مافى عمل ابن
آدم شئ الا ويذهب
برد المظالم الا الصوم
فانه لايدخله قصاص
ويقول الله تعالى يوم
القيامة هذا لى فلا
يقتص أحد منه شيأ
(وفى الخبر) الصوم لى
وأنا أجزى به قيل
أضافه الى نفسه لان فيه
خلقا من أخلاق
الصمدية وأيضا لانه
من أعمال السر من
قبيل الترك لايطلع
عليه أحد الا الله وقيل
فى تفسير قوله تعالى
السائحون الصائمون
لانهم ساحوا الى الله
تعالى بجوعهم وعطشهم
وقيل فى قوله تعالى انما
يوفى الصابرون
أجرهم بغير حساب
هم الصائمون لان
الصبر اسم من أسماء
الصوم ويفرغ للصائم
افراغا ويجازف له
مجازفة وقيل أحد
الوجوه فى قوله تعالى
فلاتعلم نفس ماأخفى
لهم من قرة أعين جزاء
بما كانوا يعملون كان
عملهم الصوم (وقال)

الصحابة ولعمري لقد كان لبعض الصحابة أموال أرادوها للتعفف والبذل في سبيل الله فكسبوا حلالا وأكلوا
طيبا وأنفقوا قصدا وقدموا فضلا ولم يمنعوا منها حقا ولم يبخلوا بها لكنهم جادوا لله بأكثرها وجاد بعضهم بجميعها
وفي الشدة آثروا الله على أنفسهم كثيرا فبالله أكذلك أنت والله انك لبعيد الشبه بالقوم وبعد فان أخيار
الصحابة كانوا للمسكنة محبين ومن خوف الفقر آمنين وبالله في أرزاقهم واثقين وبمقادير الله مسرورين وفي
البلاء راضين وفي الرخاء شاكرين وفي الضراء صابرين وفي السراء حامدين وكانوا لله متواضعين وعن حب العلو
والتكاثر ورعين لم ينالوا من الدنيا الا المباح لهم ورضوا بالبلغة منها وزجوا الدنيا وصبروا على مكارهها
وتجرعوا مرارتها وزهدوا في نعيمها وزهراتها فبالله أكذلك أنت ولقد بلغنا أنهم كانوا اذا أقبلت الدنيا عليهم
حزنوا وقالوا ذنب عجلت عقوبته من الله تعالى واذا رأوا الفقر مقبلا قالوا مرحبا بشعار الصالحين وبلغنا أن
بعضهم كان اذا أصبح وعند عياله شيء أصبح كئيبا حزينا واذا لم يكن عندهم شيء أصبح فرحا مسرورا
فقيل له ان الناس اذا لم يكن عندهم شيء حزنوا واذا كان عندهم شيء فرحوا وأنت لست كذلك قال اني اذا
أصبحت وليس عند عيالي شيء فرحت اذ كان لي برسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة واذا كان عند عيالي شيء
اغتممت اذ لم يكن لي بآل محمد اسوة وبلغنا انهم كانوا اذا سلك بهم سبيل الرخاء حزنوا وأشفقوا وقالوا مالنا
وللدنيا وما يراد بها فكأنهم على جناح خوف واذا سلك بهم سبيل البلاء فرحوا واستبشروا وقالوا الآن تعاهدنا
ربنا فهذه أحوال السلف ونعتهم وفيهم من الفضل أكثر مما وصفنا فبالله أكذلك أنت انك لبعيد الشبه
بالقوم وسأصف لك أحوالك أيها المفتون ضد الاحوال لهم وذلك انك تطغى عند الغنى وتبطر عند
الرخاء وتمرح عند السراء وتغفل عن شكر ذي النعماء وتقنط عند الضراء وتسخط عند البلاء ولا ترضى
بالقضاء نعم وتبغض الفقر وتأنف من المسكنة وذلك فخر المرسلين وأنت تأنف من فخرهم وأنت تدخر
المال وتجمعه خوفا من الفقر وذلك من سوء الظن بالله عز وجل وقلة اليقين بضمانه وكفى به اثما وعساك تجمع
المال لنعيم الدنيا وزهرتها وشهواتها ولذاتها ولقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال شرار أمتي الذين غذوا
بالنعيم فربت عليه أجسامهم وبلغنا أن بعض أهل العلم قال ليجيء يوم القيامة قوم يطلبون حسنات لهم فيقال
لهم أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها وأنت في غفلة قد حرمت نعيم الآخرة بسبب نعيم الدنيا فيالها
حسرة ومصيبة نعم وعساك تجمع المال للتكاثر والعلو والفخر والزينة في الدنيا وقد بلغنا أنه من طلب الدنيا
للتكاثر أو للتفاخر لقي الله وهو عليه غضبان وأنت غير مكترث بما حل بك من غضب ربك حين أردت التكاثر
والعلو نعم وعساك المكث في الدنيا أحب اليك من النقلة الى جوار الله فأنت تكره لقاء الله والله للقائك أكره
وأنت في غفلة وعساك تأسف على ما فاتك من عرض الدنيا وقد بلغنا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من
أسف على دنيا فاتته اقترب من النار مسيرة شهر وقيل سنة وأنت تأسف على ما فاتك غير مكترث بقربك من عذاب
الله نعم ولعلك تخرج من دينك أحيانا لتوفير دنياك وتفرح باقبال الدنيا عليك وترتاح لذلك سرورا بها وقد بلغنا
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من أحب الدنيا وسر بها ذهب خوف الآخرة من قلبه وبلغنا أن بعض أهل
العلم قال انك تحاسب على التحزن على ما فاتك من الدنيا وتحاسب بفرحك في الدنيا اذا قدرت عليها وأنت فرح
بدنياك وقد سلبت الخوف من الله تعالى وعساك تعنى بأمور دنياك أضعاف ما تعنى بأمور آخرتك وعساك ترى
مصيبتك في معاصيك أهون من مصيبتك في انتقاص دنياك نعم وخوفك من ذهاب مالك أكثر من خوفك من
الذنوب وعساك تبذل للناس ما جمعت من الاوساخ كلها للعلو والرفعة في الدنيا وعساك ترضي المخلوقين مساخطا
لله تعالى كيما تكرم وتعظم ويحك فكان احتقار الله تعالى لك في القيامة أهون عليك من احتقار الناس اياك
وعساك تخفي من المخلوقين مساويك ولا تكترث باطلاع الله عليك فيها فكان الفضيحة عند الله أهون عليك من
الفضيحة عند الناس فكأن العبيد أعلى عندك قدرا من الله تعالى الله عن جهلك فكيف تنطق عند ذوي
الالباب وهذه المثالب فيك أف لك متلوثا بالاقذار وتحتج بمال الابرار هيهات هيهات ما أبعدك عن السلف
الاخيار والله لقد بلغني أنهم كانوا فيما أحل لهم أزهد منكم فيما حرم عليكم ان الذي لا بأس به عندكم كان من

يحيى بن معاذ اذا ابتلى المريد بكثرة الاكل بكت عليه الملائكة رحمة له ومن ابتلى بحرص الاكل فقد أحرق بنار الشهوة وفي نفس ابن آدم ألف عضو من الشر كلها في كف الشيطان متعلق بها فاذا جوع بطنه وأخذ حلقه وراض نفسه ييبس كل عضو واحترق بنار الجوع وفر الشيطان من ظله واذا أشبع بطنه وترك حلقه في لذائذ الشهوات فقد رطب أعضاءه وأمكن الشيطان والشبع نهر في النفس ترده الشياطين والجوع نهر في الروح ترده الملائكة وينهزم الشيطان من جائع نائم فكيف اذا كان قائما ويعانق الشيطان شبعانا قائما فكيف اذا كان نائما فقلب المريد الصادق يصرخ الى الله تعالى من طلب النفس الطعام والشراب * دخل رجل الى الطيالسي وهو يأكل خبزا يابسا

الموبقات عندهم وكانوا الزلة الصغيرة أشد استعظاما منكم لكبائر المعاصي فليت أطيب مالك وأحله مثل شبهات أموالهم وليتك أشفقت من سيئاتك كما أشفقوا على حسناتهم ان لا تقبل ليت صومك على مثال افطارهم وليت اجتهادك في العبادة على مثل فتورهم ونومهم وليت جميع حسناتك مثل واحدة من سيئاتهم وقد بلغني عن بعض الصحابة أنه قال غنيمة الصديقين مافاتهم من الدنيا ونهمتهم ما زوى عنهم منها فمن لم يكن كذلك فليس معهم في الدنيا ولا معهم في الآخرة فسبحان الله كم بين الفريقين من التفاوت فريق خيار الصحابة في العلو عند الله وفريق أمثالكم في السفالة أو يعفو الله الكريم بفضله وبعد فانك ان زعمت انك متأس بالصحابة بجمع المال للتعفف والبذل في سبيل الله فتدبر أمرك ويحك هل تجد من الحلال في دهرك كما وجدوا في دهرهم أو تحسب انك محتاط في طلب الحلال كما احتاطوا لقد بلغني أن بعض الصحابة قال كنا ندع سبعين بابا من الحلال مخافة أن نقع في باب من الحرام أفتطمع من نفسك في مثل هذا الاحتياط لا ورب الكعبة ما أحسبك كذلك ويحك كن على يقين أن جمع المال لاعمال البر مكر من الشيطان ليوقعك بسبب البر في اكتساب الشبهات الممزوجة بالسحت والحرام وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من اجترأ على الشبهات أوشك أن يقع في الحرام أيها المغرور أما علمت أن خوفك من اقتحام الشبهات أعلى وأفضل وأعظم لقدرك عند الله من اكتساب الشبهات وبذلها في سبيل الله وسبيل البر بلغنا ذلك عن بعض أهل العلم قال لان تدع درهما واحدا مخافة أن لا يكون حلالا خير لك من أن تتصدق بألف دينار من شبهة لا تدري أيحل لك أم لا فان زعمت أنك أتقى وأورع من أن تتلبس بالشبهات وانما تجمع المال بزعمك من الحلال للبذل في سبيل الله ويحك ان كنت كما زعمت بالغا في الورع فلا تتعرض للحساب فان خيار الصحابة خافوا المسألة وبلغنا أن بعض الصحابة قال ماسرني أن أكتسب كل يوم ألف دينار من حلال وأنفقها في طاعة الله ولم يشغلني الكسب عن صلاة الجماعة قالوا ولم ذاك رحمك الله قال لاني غني عن مقام يوم القيامة فيقول عبدي من أين اكتسبت وفي أي شيء أنفقت فهؤلاء المتقون كانوا في جدة الاسلام والحلال موجود لديهم تركوا المال وجلا من الحساب مخافة أن لا يقوم خير المال بشره وأنت بغاية الامن والحلال في دهرك مفقود تتكالب على الاوساخ ثم تزعم أنك تجمع المال من الحلال ويحك أين الحلال فتجمعه وبعد فلو كان الحلال موجودا لديك أما تخاف أن يتغير عند الغنى قلبك وقد بلغنا أن بعض الصحابة كان يرث المال الحلال فيتركه مخافة أن يفسد قلبه أفتطمع ان يكون قلبك أتقى من قلوب الصحابة فلا يزول عن شيء من الحق في أمرك وأحوالك وأحوالك لئن ظننت ذلك لقد أحسنت الظن بنفسك الامارة بالسوء ويحك انى لك ناصح أرى لك أن تقنع بالبلغة ولا تجمع المال لاعمال البر ولا تتعرض للحساب فانه بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال من نوقش الحساب عذب وقال عليه السلام يؤتى برجل يوم القيامة وقد جمع مالا من حرام وأنفقه في حرام فيقال اذهبوا به الى النار ويؤتى برجل قد جمع مالا من حلال وأنفقه في حرام فيقال اذهبوا به الى النار ويؤتى برجل قد جمع مالا من حرام وأنفقه في حلال فيقال اذهبوا به الى النار ويؤتى برجل قد جمع مالا من حلال وأنفقه في حلال فيقال له قف لعلك قصرت في طلب هذا بشيء مما فرضت عليك من صلاة لم تصلها لوقتها وفرطت في شيء من ركوعها وسجودها ووضوئها فيقول لا يارب كسبت من حلال وأنفقت في حلال ولم أضيع شيأ مما فرضت علي فيقال لعلك اختلت في هذا المال في شيء من مركب أو ثوب باهيت به فيقول لا يارب لم أختل ولم أباه في شيء فيقال لعلك منعت حق أحد أمرتك ان تعطيه من ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل فيقول لا يارب كسبت من حلال وأنفقت في حلال ولم أضيع شيأ مما فرضت علي ولم أختل ولم أباه ولم أضيع حق أحد أمرتني أن أعطيه قال فيجيء أولئك فيخاصمونه فيقولون يارب أعطيته وأغنيته وجعلته بين أظهرنا وأمرته أن يعطينا فان كان أعطاهم وماضيع مع ذلك شيأ من الفرائض ولم يختل في شيء فيقال قف الآن هات شكر كل نعمة أنعمتها عليك من أكلة أو شربة أو لذة فلا يزال يسئل ويحك فمن ذا الذي يتعرض لهذه المسألة التي كانت لهذا الرجل الذي تقلب في الحلال وقام بالحقوق كلها وأدى الفرائض بحدودها حوسب هذه المحاسبة فكيف ترى يكون حال أمثالنا الغرقى في فتن الدنيا وتخاليطها وشبهاتها وشهواتها وزينتها ويحك لاجل هذه

قد بله بالماء مع ملح جريش فقال له كيف تشتهي هذا قال أدعه حتى أشتهيه (وقيل) من أسرف في مطعمه ومشربه يعجل الصغار والذل اليه في دنياه قبل آخرته (وقال) بعضهم الباب العظيم الذي يدخل منه الى الله تعالى قطع الغذاء (وقال بشر) ان الجوع يصفي الفؤاد ويميت الهوى ويورث العلم الدقيق وقال ذو النون ما أكلت حتى شبعت ولا شربت حتى رويت الا عصيت الله أو هممت بمعصية وروى القاسم بن محمد عن عائشة رضي الله عنها قالت كان يأتي علينا الشهر ونصف شهر ما تدخل بيتنا نار لا لمصباح ولا لغيره قال قلت سبحان الله فبأي شيء كنتم تعيشون قالت بالتمر والماء وكان لنا جيران من الانصار جزاهم الله خيرا كانت لهم منائح فربما واسونا بشيء

المسائل يخاف المتقون ان يتلبسوا بالدنيا فرضوا بالكفاف منها وعملوا بأنواع البر من كسب المال فلك ويحك
بهؤلاء الاخيار اسوة فان أبيت ذلك وزعمت انك بالغ في الورع والتقوى ولم تجمع المال الا من حلال بزعمك
للتعفف والبذل في سبيل الله ولم تنفق شيأ من الحلال الا بحق ولم يتغير بسبب المال قلبك عما يحب الله ولم تسخط
الله في شيء من سرائرك وعلانيتك ويحك فان كنت كذلك ولست كذلك فقد ينبغي لك أن ترضى بالبلغة وتعتزل
ذوي الاموال اذا وقفوا للسؤال وتستبق مع الرعيل الاول في زمرة المصطفى لا حبس عليك للمسألة والحساب فاما
سلامة واما عطب فانه بلغنا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يدخل صعاليك المهاجرين قبل أغنيائهم الجنة
بخمسمائة عام وقال عليه السلام يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم فيأكلون ويتمتعون والآخرون
جثاة على ركبهم فيقول قبلكم طلبتي أنتم حكام الناس وملوكهم فاروني ماذا صنعتم فيما أعطيتكم وبلغنا أن بعض
أهل العلم قال ماسرني ان لي حمر النعم ولا أكون في الرعيل الاول مع محمد عليه السلام وحزبه ياقوم فاستبقوا
السباق مع المخفين في زمرة المرسلين عليهم السلام وكونوا وجلين من التخلف والانقطاع عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم وجل المتقين لقد بلغني أن بعض الصحابة وهو أبو بكر رضي الله عنه عطش فاستسقى فاتي بشربة من
ماء وعسل فلما ذاقه خنقته العبرة ثم بكى وأبكى ثم مسح الدموع عن وجهه وذهب ليتكلم فعاد في البكاء فلما
أكثر البكاء قيل له أكل هذا من أجل هذه الشربة قال نعم بينا أنا ذات يوم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وما
معه أحد في البيت غيري فجعل يدفع عن نفسه وهو يقول اليك عني فقلت له فداك أبي وأمي ما أرى بين يديك
أحدا فمن تخاطب فقال هذه الدنيا تطاولت الي بعنقها ورأسها فقالت لي يا محمد خذني فقلت اليك عني فقالت ان
تنج مني يا محمد فانه لا ينجو مني من بعدك فاخاف أن تكون هذه قد لحقتني تقطعني عن رسول الله صلى الله عليه
وسلم ياقوم فهؤلاء الاخيار بكوا وجلا أن تقطعهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شربة من حلال ويحك انت
في أنواع من النعم والشهوات من مكاسب السحت والشبهات لا تخشى الانقطاع أف لك ما أعظم جهلك ويحك
فان تخلفت في القيامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد المصطفى لتنظرن الى أهوال جزعت منها الملائكة
والانبياء ولئن قصرت عن السباق فليطولن عليك اللحاق ولئن أردت الكثرة لتصيرن الى حساب عسير ولئن
لم تقنع بالقليل لتصيرن الى وقوف طويل وصراخ وعويل ولئن رضيت باحوال المتخلفين لتقطعن عن أصحاب
اليمين وعن رسول رب العالمين ولتبطئن عن نعيم المتنعمين ولئن خالفت أحوال المتقين لتكونن من المحتبسين
في أهوال يوم الدين فتدبر ويحك ما سمعت وبعد فان زعمت أنك في مثال خيار السلف قنع بالقليل زاهد في
الحلال بذول للمال مؤثر على نفسك لا تخشى الفقر ولا تدخر شيأ لغدك مبغض للتكاثر والغنى راض بالفقر
والبلا فرح بالقلة والمسكنة مسرور بالذل والضعة كاره للعلو والرفعة قوي في أمرك لا يتغير عن الرشد قلبك
قد حاسبت نفسك في الله وأحكمت أمورك كلها على ما وافق رضوان الله ولن توقف في المسألة ولن يحاسب
مثلك من المتقين وانما تجمع المال الحلال للبذل في سبيل الله ويحك أيها المغرور فتدبر الامر وأمعن النظر
أما علمت أن ترك الاشتغال بالمال وفراغ القلب للذكر والتذكر والتذكار والفكر والاعتبار أسلم للدين
وأيسر للحساب وأخف للمسألة وآمن من روعات القيامة وأجزل للثواب وأعلى لقدرك عند الله اضعافا
بلغنا عن بعض الصحابة أنه قال لو أن رجلا في حجره دنانير يعطيها والآخر يذكر الله لكان الذاكر أفضل
* وسئل بعض أهل العلم عن الرجل يجمع المال لاعمال البر قال تركه أبر به وبلغنا أن بعض خيار التابعين
سئل عن رجلين أحدهما طلب الدنيا حلالا فاصابها فوصل بها رحمه وقدم لنفسه وأما الآخر فانه جانبها فلم
يطلبها ولم يتناولها فايهما أفضل قال بعيد والله ما بينهما الذي جانبها أفضل كما بين مشارق الارض ومغاربها
ويحك فهذا الفضل لك بترك الدنيا على من طلبها ولك في العاجل ان تركت الاشتغال بالمال ان ذلك أروح
لبدنك وأقل لتعبك وأنعم لعيشك وأرضى لبالك وأقل لهمومك فاعذرك في جمع المال وأنت بترك المال
أفضل ممن طلب المال لاعمال البر نعم وشغلك بذكر الله أفضل من بذل المال في سبيل الله فاجتمع لك راحة
العاجل مع السلامة والفضل في الآجل * وبعد فلو كان في جمع المال فضل عظيم لوجب عليك في
مكارم الاخلاق ان تتأسى بنبيك اذ هداك الله به وترضى ما اختاره لنفسه من مجانبة الدنيا ويحك

(وروى) أن حفصة بنت عمر رضي الله عنهما قالت لابيها ان الله قد أوسع الرزق فلو أكلت طعاما أكثر من طعامك ولبست ثيابا ألين من ثيابك فقال اني أخاصمك الى نفسك ألم يكن من أمر رسول الله كذا يقول مرارا فابكت فقال قد أخبرتك والله لاشاركنه في عيشه الشديد لعلي أصيب عيشة الرخاء وقال بعضهم ماتخلفت لعمر دقيقا الا وأنا له عاص (وقالت) عائشة رضي الله عنها ماشبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام من خبز بر حتى مضى لسبيله وقالت عائشة رضي الله عنها أديموا قرع باب الملكوت يفتح لكم قالوا كيف نديم قالت بالجوع والعطش والظمأ (وقيل) ظهر ابليس ليحيي بن زكريا عليهما السلام وعليه معاليق فقال ماهذه قال الشهوات

تدبر ماسمعت وكن على يقين ان السعادة والفوز فى مجانبة الدنيا فسر مع لواء المصطفى سابقا الى جنة المأوى فانه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سادات المؤمنين فى الجنة من اذا تغدى لم يجد عشاء واذا استقرض لم يجد قرضا وليس له فضل كسوة الا مايواريه ولم يقدر على أن يكتسب مايغنيه يمسى مع ذلك ويصبح راضيا عن ربه فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا الا يا أخى متى جمعت هذا المال بعد هذا البيان فانك مبطل فيما ادعيت أنك للبر والفضل تجمعه لا ولكنك خوفا من الفقر تجمعه وللتنعم والزينة والتكاثر والفخر والعلو والرياء والسمعة والتعظم والتكرمة تجمعه ثم تزعم أنك لاعمال البر تجمع المال ويحك راقب الله واستحى من دعواك أيها المغرور ويحك ان كنت مفتونا بحب المال والدنيا فكن مقرا أن الفضل والخير فى الرضا بالبلغة ومجانبة الفضول نعم وكن عند جمع المال مزريا على نفسك معترفا باساءتك وجلا من الحساب فذلك أنجى لك وأقرب الى الفضل من طلب الحجج لجمع المال * اخوانى اعلموا أن دهر الصحابة كان الحلال فيه موجودا وكانوا مع ذلك من أورع الناس وأزهدهم فى المباح لهم ونحن فى دهر الحلال فيه مفقود وكيف لنا من الحلال مبلغ القوت وستر العورة فاما جمع المال فى دهرنا فاعاذنا الله واياكم منه وبعد فأين لنا بمثل تقوى الصحابة وورعهم ومثل زهدهم واحتياطهم وأين لنا مثل ضمائرهم وحسن نياتهم دهينا ورب السماء بأدواء النفوس وأهوائها وعن قريب يكون الورود فياسعادة المخفين يوم النشور وحزن طويل لاهل التكاثر والتخاليط وقد نصحت لكم ان قبلتم والقابلون لهذا قليل وفقنا الله واياكم لكل خير برحمته آمين * هذا آخر كلامه وفيه كفاية فى اظهار فضل الفقر على الغنى ولا مزيد عليه ويشهد لذلك جميع الاخبار التى أوردناها فى كتاب ذم الدنيا وفى كتاب الفقر والزهد ويشهد له أيضا ماروى عن أبى امامة الباهلى ان ثعلبة بن حاطب قال يارسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا قال ياثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه قال يارسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا قال ياثعلبة أمالك فى أسوة أما ترضى أن تكون مثل نبى الله تعالى أما والذى نفسى بيده لو شئت أن تسير معى الجبال ذهبا وفضة لسارت قال والذى بعثك بالحق نبيا لئن دعوت الله أن يرزقنى مالا لاعطين كل ذى حق حقه ولافعلن ولافعلن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم ارزق ثعلبة مالا فاتخذ غنما فنمت كما ينمو الدود فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها فنزل واديا من أوديتها حتى جعل يصلى الظهر والعصر فى الجماعة ويدع ماسواهما ثم نمت وكثرت فتنحى حتى ترك الجماعة الا الجمعة وهى تنمو كما ينمو الدود حتى ترك الجمعة وطفق يلقى الركبان يوم الجمعة فيسألهم عن الاخبار فى المدينة وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه فقال مافعل ثعلبة بن حاطب فقيل يارسول الله اتخذ غنما فضاقت عليه المدينة وأخبر بأمره كله فقال ياويح ثعلبة ياويح ثعلبة ياويح ثعلبة قال وأنزل الله تعالى خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم وأنزل الله تعالى فرائض الصدقة فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من جهينة ورجلا من بنى سليم على الصدقة وكتب لهما كتابا بأخذ الصدقة وأمرهما أن يخرجا فيأخذا الصدقة من المسلمين وقال مرا بثعلبة بن حاطب وبفلان رجل من بنى سليم وخذا صدقاتهما فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ماهذه الا جزية ماهذه الا جزية ماهذه الا أخت الجزية انطلقا حتى تفرغا ثم تعودا الى فانطلقا نحو السليمى فسمع بهما فقام الى خيار أسنان ابله فعزلها للصدقة ثم استقبلهما بها فلما رأوها قالوا لا يجب عليك ذلك وما نريد نأخذ هذا منك قال بلى خذوها فان نفسى بها طيبة وانما هى لتأخذوها فلما فرغا من صدقاتهما رجعا حتى مرا بثعلبة فسألاه الصدقة فقال أرونى كتابكما فنظر فيه فقال هذه أخت الجزية انطلقا حتى أرى رأيى فانطلقا حتى أتيا النبى صلى الله عليه وسلم فلما رآهما قال ياويح ثعلبة قبل أن يكلماه ودعا للسليمى فأخبراه بالذى صنع ثعلبة وبالذى صنع السليمى فأنزل الله تعالى فى ثعلبة ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم الى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ماوعدوه وبما كانوا يكذبون وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من أقارب ثعلبة فسمع ما أنزل الله فيه فخرج حتى أتى ثعلبة فقال لا أم لك ياثعلبة قد أنزل الله فيك كذا وكذا فخرج ثعلبة حتى أتى

التى أصيب بها ابن آدم قال هل تجد لى فيها شهوة قال لا غير أنك شبعت ليلة فثقلناك عن الصلاة والذكر فقال لا جرم انى لا أشبع أبدا قال ابليس لا جرم انى لا أنصح أحدا أبدا (وقال) شقيق العبادة حرفة وحانوتها الخلوة وآلاتها الجوع وقال لقمان لابنه اذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الاعضاء عن العبادة (وقال) الحسن لا تجمعوا بين الادمين فانه من طعام المنافقين وقال بعضهم أعوذ بالله من زاهد قد أفسدت معدته ألوان الاغذية فيكره للمريد أن يوالى فى الافطار أكثر من أربعة أيام فان النفس عند ذلك تركن الى العادة وتتسع بالشهوة (وقيل) الدنيا بطنك فعلى قدر زهدك فى بطنك زهدك فى الدنيا وقال عليه

النبي صلى الله عليه وسلم فسأله أن يقبل منه صدقته فقال ان الله منعني أن أقبل منك صدقتك فجعل يحثو التراب على رأسه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا عملك أمرتك فلم تطعني فلما أبى أن يقبل منه شيأ رجع الى منزله فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بها الى أبي بكر الصديق رضي الله عنه فأبى أن يقبلها منه وجاء بها الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأبى أن يقبلها منه وتوفي ثعلبة بعد في خلافة عثمان فهذا طغيان المال وشؤمه وقد عرفته من هذا الحديث ولاجل بركة الفقر وشؤم الغنى آثر رسول الله صلى الله عليه وسلم الفقر لنفسه ولاهل بيته حتى روي عن عمران بن حصين رضي الله عنه أنه قال كانت لي من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاه فقال يا عمران ان لك عندنا منزلة وجاها فهل لك في عيادة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله فقام وقمت معه حتى وقفت بباب منزل فاطمة فقرع الباب وقال السلام عليكم أأدخل فقالت ادخل يا رسول الله قال أنا ومن معي قالت ومن معك يا رسول الله فقال عمران بن حصين فقالت والذي بعثك بالحق نبيا ما على الا عباءة فقال اصنعي بها هكذا وهكذا وأشار بيده فقالت هذا جسدي فقد واريته فكيف برأسي فألقى اليها ملاءة كانت عليه خلقة فقال شدي بها على رأسك ثم أذنت له فدخل فقال السلام عليك يا ابنتاه كيف أصبحت قالت أصبحت والله وجعة وزادني وجعا على ما بي أني لست أقدر على طعام آكله فقد أجهدني الجوع فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لاتجزعي يا ابنتاه فوالله ماذقت طعاما منذ ثلاث واني لاكرم على الله منك ولو سألت ربي لاطعمني ولكن آثرت الآخرة على الدنيا ثم ضرب بيده على منكبها وقال لها ابشري فوالله انك لسيدة نساء أهل الجنة فقالت فأين آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران فقال آسية سيدة نساء عالمها ومريم سيدة نساء عالمها وخديجة سيدة نساء عالمها وأنت سيدة نساء عالمك انكن في بيوت من قصب لا أذى فيها ولا صخب ثم قال لها اقنعي بابن عمك فوالله لقد زوجتك سيدا في الدنيا سيدا في الآخرة فانظر الآن الى حال فاطمة رضي الله عنها وهي بضعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف آثرت الفقر وتركت المال ومن راقب أحوال الانبياء والاولياء وأقوالهم وما وردمن أخبارهم وآثارهم لم يشك في أن فقد المال أفضل من وجوده وان صرف الى الخيرات اذ أقل ما فيه مع أداء الحقوق والتوقي من الشبهات والصرف الى الخيرات اشتغال الهم باصلاحه وانصرافه عن ذكر الله اذلا ذكر الا مع الفراغ ولا فراغ مع شغل المال وقد روي عن جرير عن ليث قال صحب رجل عيسى ابن مريم عليه السلام فقال أكون معك وأصحبك فانطلقا فانتهيا الى شط نهر فجلسا يتغديان ومعهما ثلاثة أرغفة فأكلا رغيفين وبقي رغيف ثالث فقام عيسى عليه السلام الى النهر فشرب ثم رجع فلم يجد الرغيف فقال للرجل من أخذ الرغيف فقال لا أدري قال فانطلق ومعه صاحبه فرأى ظبية ومعها خشفان لها قال فدعا أحدهما فأتاه فذبحه فاشتوى منه فأكل هو وذلك الرجل ثم قال للخشف قم باذن الله فقام فذهب فقال للرجل أسألك بالذي أراك هذه الآية من أخذ الرغيف فقال لا أدري ثم انتهيا الى وادي ماء فأخذ عيسى بيد الرجل فمشيا على الماء فلما جاوزا قال له أسألك بالذي أراك هذه الآية من أخذ الرغيف فقال لا أدري فانتهيا الى مفازة فجلسا فأخذ عيسى عليه السلام يجمع ترابا وكثيبا ثم قال كن ذهبا باذن الله تعالى فصار ذهبا فقسمه ثلاث أثلاث ثم قال ثلث لي وثلث لك وثلث لمن أخذ الرغيف فقال أنا الذي أخذت الرغيف فقال كله لك وفارقه عيسى عليه السلام فانتهى اليه رجلان في المفازة ومعه المال فأرادا أن يأخذاه منه ويقتلاه فقال هو بيننا أثلاثا فابعثوا أحدكم الى القرية حتى يشتري لنا طعاما نأكله قال فبعثوا أحدهم فقال الذي بعث لاي شئ أقاسم هؤلاء هذا المال لكني أضع في هذا الطعام سما فاقتلهما وآخذ المال وحدي قال ففعل وقال ذانك الرجلان لاي شئ نجعل لهذا ثلث المال ولكن اذا رجع قتلناه واقتسمنا المال بيننا قال فلما رجع اليهما قتلاه وأكلا الطعام فماتا فبقي ذلك المال في المفازة وأولئك الثلاثة عنده قتلى فمر بهم عيسى عليه السلام على تلك الحالة فقال لاصحابه هذه الدنيا فاحذروها * وحكي أن ذا القرنين أتى على أمة من الامم ليس بأيديهم شئ مما يستمتع به الناس من دنياهم قد احتفروا قبورا فاذا أصبحوا تعهدوا تلك القبور وكنسوها وصلوا عندها ورعوا البقل كما ترعى البهائم وقد قيض لهم في ذلك معايش من نبات الارض وأرسل ذو القرنين الى ملكهم فقال له أجب ذا القرنين فقال مالي اليه حاجة فان كان له حاجة فليأتني فقال ذو القرنين صدق

السلام ماملا آدمي وعاء شرا من بطن حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فان كان لامحالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه وقال فتح الموصلي صحبت ثلاثين شيخا كل يوصيني عند مفارقتي اياه بترك عشرة الاحداث وقلة الاكل

❊ الباب الاربعون في اختلاف أحوال الصوفية بالصوم والافطار ❊

جمع من المشايخ الصوفية كانوا يديمون الصوم في السفر والحضر على الدوام حتى لحقوا بالله تعالى (وكان) أبو عبد الله ابن جابار قد صام نيفا وخمسين سنة لايفطر في السفر والحضر فجهد به أصحابه يوما فأفطر فاعتل من ذلك أياما فاذا رأى المريد صلاح قلبه في دوام الصوم فليصم دائما ويدع للافطار جانبا فهو عون حسن له على ما يريد روى أبو موسى الاشعري قال قال رسول

فاقبل اليه ذو القرنين وقال له أرسلت اليك لتأتيني فابيت فها أنا قد جئت فقال لو كان لي اليك حاجة لاتيتك فقال له ذو القرنين مالي أرا كم على حالة لم أر أحدا من الامم عليها قال وماذاك قال ليس لكم دنيا ولا شئ أفلا اتخذتم الذهب والفضة فاستمتعتم بهما قالوا انما كرهناهما لان أحدا لم يعط منهما شيأ الا تاقت نفسه ودعته الى ما هو أفضل منه فقال ما بالكم قد احتفرتم قبورا فاذا أصبحتم تعاهدتموها فكنستموها وصليتم عندها قالوا أردنا اذا نظرنا اليها وأملنا الدنيا منعتنا قبورنا من الامل قال وأراكم لا طعام لكم الا البقل من الارض أفلا اتخذتم البهائم من الانعام فاحتلبتموها وركبتموها فاستمتعتم بها قالوا كرهنا أن نجعل بطوننا قبورا لها ورأينا في نبات الارض بلاغا وانما يكفي ابن آدم أدنى العيش من الطعام وأي ما جاوز الحنك من الطعام لم نجد له طعما كائنا ما كان من الطعام ثم بسط ملك تلك الارض يده خلف ذي القرنين فتناول جمجمة فقال يا ذا القرنين أتدري من هذا قال لا ومن هو قال ملك من ملوك الارض أعطاه الله سلطانا على أهل الارض فغشم وظلم وعتا فلما رأى الله سبحانه ذلك منه حسمه بالموت فصار كالحجر الملقى وقد أحصى الله عليه عمله حتى يجزيه به في آخرته ثم تناول جمجمة أخرى بالية فقال يا ذا القرنين هل تدري من هذا قال لا أدري ومن هو قال هذا ملك ملكه الله بعده قد كان يرى ما يصنع الذي قبله بالناس من الغشم والظلم والتجبر فتواضع وخشع لله عز وجل وأمر بالعدل في أهل مملكته فصار كما ترى قد أحصى الله عليه عمله حتى يجزيه به في آخرته ثم أهوى الى جمجمة ذي القرنين فقال وهذه الجمجمة قد كانت كهذين فانظر يا ذا القرنين ما أنت صانع فقال له ذو القرنين هل لك في صحبتي فأتخذك أخا ووزيرا وشريكا فيما آتاني الله من هذا المال قال ما أصلح أنا وأنت في مكان ولا أن نكون جميعا قال ذو القرنين ولم قال من أجل أن الناس كلهم لك عدو ولي صديق قال ولم قال يعادونك لما في يديك من الملك والمال والدنيا ولا أجد أحدا يعاديني لرفضي لذلك ولما عندي من الحاجة وقلة الشئ قال فانصرف عنه ذو القرنين متعجبا منه ومتعظا به فهذه الحكايات تدلك على آفات الغنى مع ما قدمناه من قبل وبالله التوفيق تم كتاب ذم المال والبخل بحمد الله وعونه ويليه كتاب ذم الجاه والرياء

﴿كتاب ذم الجاه والرياء وهو الكتاب الثامن من ربع المهلكات من كتاب احياء علوم الدين﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

الحمد لله علام الغيوب المطلع على سرائر القلوب المتجاوز عن كبائر الذنوب العالم بما تجنه الضمائر من خفايا الغيوب البصير بسرائر النيات وخفايا الطويات الذي لا يقبل من الاعمال الا ما كمل ووفى وخلص عن شوائب الرياء والشرك وصفا فانه المنفرد بالملكوت والملك فهو أغنى الاغنياء عن الشرك والصلاة والسلام على محمد وآله وأصحابه المبرئين من الخيانة والافك وسلم تسليما كثيرا (أما بعد) فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أخوف ما أخاف على أمتي الرياء والشهوة الخفية والرياء من الشهوة الخفية التي هي أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ولذلك عجز عن الوقوف على غوائلها سماسرة العلماء فضلا عن عامة العباد والاتقياء وهو من أواخر غوائل النفس وبواطن مكايدها وانما يبتلى به العلماء والعباد المشمرون عن ساق الجد لسلوك سبيل الآخرة فانهم مهما قهروا أنفسهم وجاهدوها وفطموها عن الشهوات وصانوها عن الشبهات وحملوها بالقهر على أصناف العبادات عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة الواقعة على الجوارح فطلبت الاستراحة الى التظاهر بالخير واظهار العمل والعلم فوجدت مخلصا من مشقة المجاهدة الى لذة القبول عند الخلق ونظرهم اليه بعين الوقار والتعظيم فسارعت الى اظهار الطاعة وتوصلت الى اطلاع الخلق ولم تقنع باطلاع الخالق وفرحت بحمد الناس ولم تقنع بحمد الله وحده وعلمت أنهم اذا عرفوا تركه الشهوات وتوقيه الشبهات وتحمله مشاق العبادات أطلقوا ألسنتهم بالمدح والثناء وبالغوا في التقريظ والاطراء ونظروا اليه بعين التوقير والاحترام وتبركوا بمشاهدته ولقائه ورغبوا في بركة دعائه وحرصوا على اتباع رأيه وفاتحوه بالخدمة والسلام وأكرموه في المحافل غاية الاكرام وسامحوه في البيع والمعاملات وقدموه في المجالس وآثروه بالمطاعم والملابس وتصاغروا له متواضعين وانقادوا له في أغراضه موقرين فاصابت النفس في ذلك لذة هي أعظم

الله صلى الله عليه وسلم من صام الدهر ضيقت عليه جهنم هكذا وعقد تسعين أي لم يكن له فيها موضع وكره قوم صوم الدهر وقد ورد في ذلك ما رواه أبو قتادة قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف بمن صام الدهر قال لا صام ولا أفطر وأول قوم ان صوم الدهر هو أن لا يفطر العيدين وأيام التشريق فهو الذي يكره واذا أفطر هذه الايام فليس هو الصوم الذي كرهه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنهم من كان يصوم يوما ويفطر يوما وقد ورد أفضل الصيام صوم أخي داود عليه السلام كان يصوم يوما ويفطر يوما واستحسن ذلك قوم من الصالحين ليكون بين حال الصبر وحال الشكر *ومنهم من كان يصوم يومين ويفطر يوما أو يصوم يوما ويفطر يومين ومنهم

اللذات وشهوة هي أغلب الشهوات فاستحقرت فيه ترك المعاصي والهفوات واستلانت خشونة المواظبة على العبادات لادراكها في الباطن لذة اللذات وشهوة الشهوات فهو يظن أن حياته بالله و بعبادته المرضية وانما حياته بهذه الشهوة الخفية التي تعمى عن دركها العقول النافذة القوية ويرى أنه مخلص في طاعة الله ومجتنب لمحارم الله والنفس قد أبطنت هذه الشهوة تزيينا للعباد وتصنعا للخلق و فرحا بما نالت من المنزلة والوقار وأحبطت بذلك ثواب الطاعات وأجود الاعمال وقد أثبت اسمه في جريدة المنافقين وهو يظن أنه عند الله من المقربين وهذه مكيدة للنفس لا يسلم منها الا الصديقون ومهواة لا يرقى منها الا المقربون ولذلك قيل آخر ما يخرج من رؤس الصديقين حب الرياسة واذا كان الرياء هو الداء الدفين الذي هو أعظم شبكة للشياطين وجب شرح القول في سببه وحقيقته ودرجاته وأقسامه وطرق معالجته والحذر منه ويتضح الغرض منه في ترتيب الكتاب على شطرين *(الشطر الاول)* في حب الجاه والشهرة وفيه بيان ذم الشهرة و بيان فضيلة الخمول و بيان ذم الجاه و بيان معنى الجاه وحقيقته و بيان السبب في كونه محبوبا أشد من حب المال و بيان أن الجاه كمال وهمي وليس بكمال حقيقي و بيان ما يحمد من حب الجاه وما يذم و بيان السبب في حب المدح والثناء وكراهية الذم و بيان العلاج في حب الجاه و بيان علاج حب المدح و بيان علاج حب كراهة الذم و بيان اختلاف أحوال الناس في المدح والذم فهي اثنا عشر فصلا منها تنشأ معاني الرياء فلابد من تقديمها والله الموفق للصواب بلطفه ومنه وكرمه

(بيان ذم الشهرة وانتشار الصيت)

اعلم أصلحك الله ان أصل الجاه هو انتشار الصيت والاشتهار وهو مذموم بل المحمود الخمول الا من شهره الله تعالى لنشر دينه من غير تكلف طلب الشهرة منه قال أنس رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حسب امرئ من الشر أن يشير الناس اليه بالاصابع في دينه ودنياه الا من عصمه الله وقال جابر بن عبد الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بحسب المرء من الشر الا من عصمه الله من السوء أن يشير الناس اليه بالاصابع في دينه ودنياه ان الله لا ينظر الى صوركم ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم ولقد ذكر الحسن رحمه الله للحديث تاويلا لا بأس به اذ روى هذا الحديث فقيل له يا أبا سعيد ان الناس اذا رأوك أشاروا اليك بالاصابع فقال انه لم يعن هذا وانما عنى به المبتدع في دينه والفاسق في دنياه وقال علي كرم الله وجهه تبذل ولا تشتهر ولا ترفع شخصك لتذكر وتعلم واكتم واصمت تسلم تسر الابرار وتغيظ الفجار وقال ابراهيم بن أدهم رحمه الله ما صدق الله من أحب الشهرة وقال أيوب السختياني والله ما صدق الله عبد الا سره أن لا يشعر بمكانه وعن خالد بن معدان انه كان اذا كثرت حلقته قام مخافة الشهرة وعن أبي العالية أنه كان اذا جلس اليه أكثر من ثلاثة قام ورأى طلحة قوما يمشون معه نحوا من عشرة فقال ذباب طمع وفراش نار وقال سليم بن حنظلة بينا نحن حول أبي بن كعب نمشي خلفه اذ رآه عمر فعلاه بالدرة فقال انظر يا أمير المؤمنين ما تصنع فقال ان هذه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع وعن الحسن قال خرج ابن مسعود يوما من منزله فاتبعه ناس فالتفت اليهم فقال علام تتبعوني فوالله لو تعلمون ما أغلق عليه بابي ما اتبعني منكم رجلان وقال الحسن ان خفق النعال حول الرجال قلما تلبث عليه قلوب الحمقى وخرج الحسن ذات يوم فاتبعه قوم فقال هل لكم من حاجة والا فما عسى أن يبقى هذا من قلب المؤمن وروى أن رجلا صحب ابن محيريز في سفر فلما فارقه قال أوصني فقال ان استطعت أن تعرف ولا تعرف وتمشي ولا يمشى اليك وتسأل ولا تسئل فافعل وخرج أيوب في سفر فشيعه ناس كثيرون فقال لولا اني أعلم أن الله يعلم من قلبي اني لهذا كاره لخشيت المقت من الله عز وجل وقال معمر عاتبت أيوب على طول قميصه فقال ان الشهرة فيما مضى كانت في طوله وهي اليوم في تشميره وقال بعضهم كنت مع أبي قلابة اذ دخل عليه رجل عليه أكسية فقال اياكم وهذا الحمار الناهق يشير به الى طلب الشهرة وقال الثوري كانوا يكرهون الشهرة من الثياب الجيدة والثياب الرديئة اذ الابصار تمتد اليهما جميعا وقال رجل لبشر بن الحرث أوصني فقال أخمد ذكرك وطيب مطعمك وكان حوشب يبكي و يقول بلغ اسمي مسجد الجامع وقال بشر ما أعرف رجلا أحب أن يعرف الا ذهب دينه وافتضح وقال أيضا لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس رحمة الله عليه وعليهم أجمعين

من كان يصوم يوم الاثنين والخميس والجمعة (وقيل) كان سهل بن عبد الله يأكل في كل خمسة عشر يوما مرة وفي رمضان يأكل أكلة واحدة وكان يفطر بالماء القراح للسنة (وحكى) عن الجنيد انه كان يصوم على الدوام فاذا دخل عليه اخوانه أفطر معهم و يقول ليس فضل المساعدة مع الاخوان بأقل من فضل الصوم غير أن هذا الافطار يحتاج الى علم فقد يكون الداعي الى ذلك شره النفس لا نية الموافقة وتخليص النية لمحض الموافقة مع وجود شره النفس صعب وسمعت شيخنا يقول لي سنين ما أكلت شيأ بشهوة نفس ابتداء واستدعاء بل يقدم الى الشئ فاره من فضل الله ونعمته وفعله فاوافق الحق في فعله (وذكر) أنه في ذات يوم اشتهى الطعام ولم يحضر ومن عادته تقديم

﴿ بيان فضيلة الخمول ﴾

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك وقال ابن مسعود قال النبي صلى الله عليه وسلم رب ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره لو قال اللهم اني أسألك الجنة لأعطاه الجنة ولم يعطه من الدنيا شيأ وقال صلى الله عليه وسلم ألا أدلكم على أهل الجنة كل ضعيف مستضعف لو أقسم على الله لأبره وأهل النار كل متكبر مستكبر جواظ وقال أبو هريرة قال صلى الله عليه وسلم ان أهل الجنة كل أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له الذين اذا استأذنوا على الامراء لم يؤذن لهم واذا خطبوا النساء لم ينكحوا واذا قالوا لم ينصت لقولهم حوائج أحدهم تتلجلج في صدره لو قسم نوره يوم القيامة على الناس لوسعهم وقال صلى الله عليه وسلم ان من أمتي من لو أتى أحدكم يسأله دينارا لم يعطه اياه ولو سأله درهما لم يعطه اياه ولو سأله فلسا لم يعطه اياه ولو سأل الله تعالى الجنة لأعطاه اياها ولو سأله الدنيا لم يعطه اياها وما منعها اياه الا لهوانها عليه رب ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره وروي أن عمر رضي الله عنه دخل المسجد فرأى معاذ بن جبل يبكي عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما يبكيك فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان اليسير من الرياء شرك وان الله يحب الاتقياء الاخفياء الذين ان غابوا لم يفتقدوا وان حضروا لم يعرفوا قلوبهم مصابيح الهدى ينجون من كل غبراء مظلمة وقال محمد بن سويد قحط أهل المدينة وكان بها رجل صالح لا يؤبه له لازم لمسجد النبي صلى الله عليه وسلم فبينما هم في دعائهم اذ جاءهم رجل عليه طمران خلقان فصلى ركعتين أوجز فيهما ثم بسط يديه فقال يارب أقسمت عليك الا أمطرت علينا الساعة فلم يرد يديه ولم يقطع دعاءه حتى تغشت السماء بالغمام وأمطروا حتى صاح أهل المدينة من مخافة الغرق فقال يارب ان كنت تعلم انهم قد اكتفوا فارفع عنهم فسكن وتبع الرجل صاحبه الذي استسقى حتى عرف منزله ثم بكر عليه فخرج اليه فقال اني أتيتك في حاجة فقال ما هي قال تخصني بدعوة قال سبحان الله أنت أنت وتسألني أن أخصك بدعوة ثم قال ما الذي بلغك ما رأيت قال أطعت الله فيما أمرني ونهاني فسألت الله فأعطاني وقال ابن مسعود كونوا ينابيع العلم مصابيح الهدى أحلاس البيوت سرج الليل جدد القلوب خلقان الثياب تعرفون في أهل السماء وتخفون في أهل الارض وقال أبو أمامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى ان أغبط أوليائي عبد مؤمن خفيف الحاذ ذو حظ من صلاة أحسن عبادة ربه وأطاعه في السر وكان غامضا في الناس لا يشار اليه بالاصابع ثم صبر على ذلك قال ثم نقر رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده فقال عجلت منيته وقل تراثه وقلت بواكيه وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أحب عباد الله الى الله الغرباء قيل ومن الغرباء قال الفارون بدينهم يجتمعون يوم القيامة الى المسيح عليه السلام وقال الفضيل بن عياض بلغني أن الله تعالى يقول في بعض ما يمتن به على عبده ألم أنعم عليك ألم أسترك ألم أخمل ذكرك وكان الخليل بن أحمد يقول اللهم اجعلني عندك من أرفع خلقك واجعلني عند نفسي من أوضع خلقك واجعلني عند الناس من أوسط خلقك وقال الثوري وجدت قلبي يصلح بمكة والمدينة مع قوم غرباء أصحاب قوت وعناء وقال ابراهيم بن أدهم ما قرت عيني يوما في الدنيا قط الا مرة بت ليلة في بعض مساجد قرى الشام وكان بي البطن فجرني المؤذن برجلي حتى أخرجني من المسجد وقال الفضيل ان قدرت على أن لا تعرف فافعل وما عليك أن لا تعرف وما عليك أن لا يثنى عليك وما عليك أن تكون مذموما عند الناس اذا كنت محمودا عند الله تعالى فهذه الآثار والاخبار تعرفك مذمة الشهرة وفضيلة الخمول وانما المطلوب بالشهرة وانتشار الصيت هو الجاه والمنزلة في القلوب وحب الجاه هو منشأ كل فساد فان قلت فأي شهرة تزيد على شهرة الانبياء والخلفاء الراشدين وأئمة العلماء فكيف فاتهم فضيلة الخمول فاعلم أن المذموم طلب الشهرة فأما وجودها من جهة الله سبحانه من غير تكلف من العبد فليس بمذموم نعم فيه فتنة على الضعفاء دون الاقوياء وهم كالغريق الضعيف اذا كان معه جماعة من الغرقى فالاولى به أن لا يعرفه أحد منهم فانهم يتعلقون به فيضعف عنهم فيهلك معهم وأما القوي فالاولى أن يعرف الغرقى ليتعلقوا به فينجيهم ويثاب على ذلك

﴿ بيان ذم حب الجاه ﴾

قال الله تعالى تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض ولا فسادا جمع بين ارادة الفساد والعلو

الطعام البتة قال ففتحت باب البيت الذي فيه الطعام وأخذت رمانة لا كلها فدخلت السنور وأخذت دجاجة كانت هنالك فقلت هذا عقوبة لي على تصرفي في أخذ الرمانة (ورأيت) الشيخ أبا السعود رحمه الله يتناول الطعام في اليوم مرات أي وقت أحضر الطعام أكل منه ويرى أن تناوله للطعام موافقة الحق لان حاله مع الله كان ترك الاختيار في مأكوله وملبوسه وجميع تصاريفه وكان حاله الوقوف مع فعل الحق وقد كان له في ذلك بداية يعز مثلها حتى نقل أنه كان يبقى أياما لا يأكل ولا يعلم أحد بحاله ولا يتصرف هو لنفسه ولا يتسبب الى تناول شيء وينتظر فعل الحق لسياقه الرزق اليه ولم يشعر أحد بحاله مدة من الزمان ثم ان الله تعالى أظهر حاله وأقام له الاصحاب والتلامذة

وبين ان الدار الآخرة للخالى عن الارادتين جميعا وقال عز وجل من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون وهذا أيضا متناول بعمومه لحب الجاه فانه أعظم لذة من لذات الحياة الدنيا وأكثر زينة من زينتها وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حب المال والجاه ينبتان النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل وقال صلى الله عليه وسلم ماذئبان ضاريان أرسلا فى زريبة غنم بأسرع افسادا من حب الشرف والمال فى دين الرجل المسلم وقال صلى الله عليه وسلم لعلى كرم الله وجهه انما هلاك الناس باتباع الهوى وحب الثناء نسأل الله العفو والعافية بمنه وكرمه

﴿ بيان معنى الجاه وحقيقته ﴾

اعلم ان الجاه والمال هما ركنا الدنيا ومعنى المال ملك الاعيان المنتفع بها ومعنى الجاه ملك القلوب المطلوب تعظيمها وطاعتها وكما أن الغنى هو الذى يملك الدراهم والدنانير أى يقدر عليهما ليتوصل بهما الى الاغراض والمقاصد وقضاء الشهوات وسائر حظوظ النفس فكذلك ذو الجاه هو الذى يملك قلوب الناس أى يقدر على أن يتصرف فيها ليستعمل بواسطتها أربابها فى أغراضه ومآربه وكما انه يكتسب الاموال بأنواع من الحرف والصناعات فكذلك يكتسب قلوب الخلق بأنواع من المعاملات ولا تصير القلوب مسخرة الا بالمعارف والاعتقادات فكل من اعتقد القلب فيه وصفا من أوصاف الكمال انقاد له وتسخر له بحسب قوة اعتقاد القلب وبحسب درجة ذلك الكمال عنده وليس يشترط أن يكون الوصف كمالا فى نفسه بل يكفى أن يكون كمالا عنده وفى اعتقاده وقد يعتقد ما ليس كمالا كمالا ويذعن قلبه للموصوف به انقيادا ضروريا بحسب اعتقاده فان انقياد القلب حال للقلب وأحوال القلوب تابعة لاعتقادات القلوب وعلومها وتخيلاتها وكما ان محب المال يطلب ملك الارقاء والعبيد فطالب الجاه يطلب أن يسترق الاحرار ويستعبدهم ويملك رقابهم بملك قلوبهم بل الرق الذى يطلبه صاحب الجاه أعظم لان المالك يملك العبد قهرا والعبد متأب بطبعه ولو خلى ورأيه انسل عن الطاعة وصاحب الجاه يطلب الطاعة طوعا ويبغى أن تكون له الاحرار عبيدا بالطبع والطوع مع الفرح بالعبودية والطاعة له فما يطلبه فوق ما يطلبه مالك الرق بكثير فاذا معنى الجاه قيام المنزلة فى قلوب الناس أى اعتقاد القلوب لنعت من نعوت الكمال فيه فبقدر ما يعتقدون من كماله تذعن له قلوبهم وبقدر اذعان القلوب تكون قدرته على القلوب وبقدر قدرته على القلوب يكون فرحه وحبه للجاه فهذا هو معنى الجاه وحقيقته وله ثمرات كالمدح والاطراء فان المعتقد للكمال لا يسكت عن ذكر ما يعتقده فيثنى عليه وكالخدمة والاعانة فانه لا يبخل ببذل نفسه فى طاعته بقدر اعتقاده فيكون سخرة له مثل العبد فى أغراضه وكالايثار وترك المنازعة والتعظيم والتوقير بالمفاتحة بالسلام وتسليم الصدر فى المحافل والتقديم فى جميع المقاصد فهذه آثار تصدر عن قيام الجاه فى القلب ومعنى قيام الجاه فى القلب اشتمال القلوب على اعتقاد صفات الكمال فى الشخص اما بعلم أو عبادة أو حسن خلق أو نسب أو ولاية أو جمال فى صورة أو قوة فى بدن أو شئ مما يعتقده الناس كمالا فان هذه الاوصاف كلها تعظم محله فى القلوب فتكون سببا لقيام الجاه والله تعالى أعلم

﴿ بيان سبب كون الجاه محبوبا بالطبع حتى لا يخلو عنه قلب الا بشديد المجاهدة ﴾

اعلم أن السبب الذى يقتضى كون الذهب والفضة وسائر أنواع الاموال محبوبا هو بعينه يقتضى كون الجاه محبوبا بل يقتضى أن يكون أحب من المال كما يقتضى أن يكون الذهب أحب من الفضة مهما تساويا فى المقدار وهو أنك تعلم أن الدراهم والدنانير لا غرض فى أعيانهما اذ لا تصلح لمطعم ولا مشرب ولا منكح ولا ملبس وانما هى والحصباء بمثابة واحدة ولكنهما محبوبان لانهما وسيلة الى جميع المحاب وذريعة الى قضاء الشهوات فكذلك الجاه لان معنى الجاه ملك القلوب وكما أن ملك الذهب والفضة يفيد قدرة يتوصل الانسان بها الى سائر أغراضه فكذلك ملك قلوب الاحرار والقدرة على استسخارها يفيد قدرة على التوصل الى جميع الاغراض فالاشتراك فى السبب اقتضى الاشتراك فى المحبة وترجيح الجاه على المال اقتضى أن يكون الجاه أحب من المال ولملك الجاه ترجيح على ملك المال من ثلاثة أوجه * الاول أن التوصل بالجاه الى المال أيسر من التوصل بالمال الى الجاه فالعالم والزاهد الذى تقرر له جاه فى القلوب لو قصد اكتساب المال تيسر له فان أموال أرباب القلوب مسخرة للقلوب ومبذولة لمن

وكانوا يتكلفون الاطعمة ويأتون بها اليه وهو يرى فى ذلك فضل الحق والموافقة سمعته يقول أصبح كل يوم وأحب ما لى الصوم وينقض الحق على محبتى الصوم بفعله فاوافق الحق فى فعله (وحكى) عن بعض الصادقين من أهل واسط أنه صام سنين كثيرة وكان يفطر كل يوم قبل غروب الشمس الا فى رمضان (وقال) أبو نصر السراج أنكر قوم هذه المخالفة وان كان الصوم تطوعا واستحسنه آخرون لان صاحبه كان يريد بذلك تأديب النفس بالجوع وأن لا يتمتع برؤية الصوم ووقع لى ان هذا ان قصد أن لا يتمتع برؤية الصوم فقد تمتع برؤية عدم التمتع برؤية الصوم وهذا يتسلسل والاليق بموافقة العلم امضاء الصوم قال الله تعالى ولا تبطلوا أعمالكم

اعتقد فيه الكمال وأما الرجل الخسيس الذي لا يتصف بصفة كمال اذا وجد كنزا ولم يكن له جاه يحفظ ماله وأراد أن يتوصل بالمال الى الجاه لم يتيسر له فاذا الجاه آلة ووسيلة الى المال فمن ملك الجاه فقد ملك المال ومن ملك المال لم يملك الجاه بكل حال فلذلك صار الجاه أحب * الثاني هو أن المال معرض للبلوى والتلف بأن يسرق و يغصب و يطمع فيه الملوك والظلمة و يحتاج فيه الى الحفظة والحراس والخزائن و يتطرق اليه أخطار كثيرة وأما القلوب اذا ملكت فلا تتعرض لهذه الآفات فهي على التحقيق خزائن عتيدة لا يقدر عليها السراق ولا تتناولها أيدي النهاب والغصاب وأثبت الاموال العقار ولا يؤمن فيه الغصب والظلم ولا يستغني عن المراقبة والحفظ وأما خزائن القلوب فهي محفوظة محروسة بأنفسها وذو الجاه في أمن وأمان من الغصب والسرقة فيها نعم انما تغصب القلوب بالتصريف وتقبيح الحال وتغيير الاعتقاد فيما صدق به من أوصاف الكمال وذلك مما يهون دفعه ولا يتيسر على محاوله فعله الثالث أن ملك القلوب يسري و ينمي و يتزايد من غير حاجة الى تعب ومقاساة فان القلوب اذا أذعنت لشخص واعتقدت كماله بعلم أو عمل أو غيره أفصحت الالسنة لا محالة بما فيها فيصف ما يعتقده لغيره و يقتنص ذلك القلب أيضا له ولهذا المعنى يحب الطبع الصيت وانتشار الذكر لان ذلك اذا استطار في الاقطار اقتنص القلوب ودعاها الى الاذعان والتعظيم فلا يزال يسري من واحد الى واحد و يتزايد وليس له مرد معين وأما المال فمن ملك منه شيأ فهو مالكه ولا يقدر على استنمائه الا بتعب ومقاساة والجاه أبدا في النماء بنفسه ولا مرد لموقعه والمال واقف ولهذا اذا عظم الجاه وانتشر الصيت وانطلقت الالسنة بالثناء استحقرت الاموال في مقابلته فهذه مجامع ترجيحات الجاه على المال واذا فصلت كثرت وجوه الترجيح * فان قلت فالاشكال قائم في المال والجاه جميعا فلا ينبغي أن يحب الانسان المال والجاه نعم القدر الذي يتوصل به الى جلب الملاذ ودفع المضار معلوم كالمحتاج الى الملبس والمسكن والمطعم أو كالمبتلى بمرض أو بعقوبة اذا كان لا يتوصل الى دفع العقوبة عن نفسه الا بمال أو جاه فحبه للمال والجاه معلوم اذ كل ما لا يتوصل الى المحبوب الا به فهو محبوب وفي الطباع أمر عجيب وراء هذا وهو حب جمع الاموال وكنز الكنوز وادخار الذخائر واستكثار الخزائن وراء جميع الحاجات حتى لو كان للعبد واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثا وكذلك يحب الانسان اتساع الجاه وانتشار الصيت الى أقاصي البلاد التي يعلم قطعا أنه لا يطؤها ولا يشاهد أصحابها ليعظموه أو ليبروه بمال أو ليعينوه على غرض من أغراضه ومع اليأس من ذلك فانه يلتذ به غاية الالتذاذ وحب ذلك ثابت في الطبع و يكاد يظن أن ذلك جهل فانه حب لما لا فائدة فيه لا في الدنيا ولا في الآخرة فنقول نعم هذا الحب لا تنفك عنه القلوب وله سببان أحدهما جلي تدركه الكافة والآخر خفي وهو أعظم السببين ولكنه أدقهما وأخفاهما وأبعدهما عن أفهام الاذكياء فضلا عن الاغبياء وذلك لاستمداده من عرق خفي في النفس وطبيعة مستكنة في الطبع لا يكاد يقف عليها الا الغواصون فأما السبب الاول فهو دفع ألم الخوف لان الشفيق بسوء الظن مولع والانسان وان كان مكفيا في الحال فانه طويل الامل و يخطر بباله أن المال الذي فيه كفايته ربما يتلف فيحتاج الى غيره فاذا خطر ذلك بباله هاج الخوف من قلبه ولا يدفع ألم الخوف الا الامن الحاصل بوجود مال آخر يفزع اليه ان أصابت هذا المال جائحة فهو أبدا لشفقته على نفسه وحبه للحياة يقدر طول الحياة و يقدر هجوم الحاجات و يقدر امكان تطرق الآفات الى الاموال و يستشعر الخوف من ذلك فيطلب ما يدفع خوفه وهو كثرة المال حتى ان أصيب بطائفة من ماله استغنى بالآخر وهذا خوف لا يوقف له على مقدار مخصوص من المال فلذلك لم يكن لمثله موقف الى أن يملك جميع ما في الدنيا ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم منهومان لا يشبعان منهوم العلم ومنهوم المال ومثل هذه العلة تطرد في حبه قيام المنزلة والجاه في قلوب الاباعد عن وطنه و بلده فانه لا يخلو عن تقدير سبب يزعجه عن الوطن أو يزعج أولئك عن أوطانهم الى وطنه و يحتاج الى الاستعانة بهم ومهما كان ذلك ممكنا ولم يكن احتياجه اليهم مستحيلا احالة ظاهرة كان للنفس فرح ولذة بقيام الجاه في قلوبهم لما فيه من الامن من هذا الخوف * وأما السبب الثاني وهو الاقوى أن الروح أمر رباني به وصفه الله تعالى اذ قال سبحانه و يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ومعنى كونه ربانيا أنه من أسرار علوم المكاشفة ولا رخصة في اظهاره اذ لم يظهره رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنك قبل معرفة ذلك تعلم أن للقلب ميلا الى صفات بهيمية كالاكل

ولكن أهل الصدق لهم نيات فيما يفعلون فلا يعارضون و لصدق محمود لعينه كيف كان والصادق في خفارة صدقه كيف تقلب وقال بعضهم اذا رأيت الصوفي يصوم صوم التطوع فاتهمه فانه قد اجتمع معه شيء من الدنيا وقيل اذا كان جماعة متوافقين اشكالا وفيهم مريد يحثونه على الصيام فان لم يساعدوه بهتموا لافطاره و يتكلفوا له رفقا به ولا يحملوا حاله على حالهم وان كانوا جماعة مع شيخ يصومون لصومه و يفطرون لافطاره الامن يأمره الشيخ بغير ذلك * وقيل ان بعضهم صام سنين بسبب شاب كان يصحبه حتى ينظر الشاب اليه فيتأدب به و يصوم بصيامه وحكي عن أبي الحسن المكي أنه كان يصوم الدهر وكان مقيما بالبصرة وكان لا يأكل الخبز الا ليلة الجمعة وكان قوته في كل شهر أربع دوانيق يعمل

والوقاع والى صـفات سبعية كالقتل والضرب والايذاء والى صـفات شيطانية كالمكر والخديعة والاغواء والى صفات ربوبيـة كالكبر والعز والتجبر وطلب الاسـتعلاء وذلك لانه مركب من أصول مختلفـة يطول شرحها وتفصيلها فهو لما فيه من الامرالر بانى يحب الربوبية بالطبع ومعنى الربوبية التوحد بالكمال والتفرد بالوجود على سبيل الاستقلال فصار الكمال من صفات الالهية فصار محبوبا بالطبع للانسان والكمال بالتفرد بالوجود فان المشاركة فى الوجود نقص لامحالة فكمال الشمس فى أنها موجودة وحدها فلوكان معها شمس أخرى لكان ذلك نقصا فى حقها اذلم تكن منفردة بكمال معنى الشمسية والمنفرد بالوجود هو الله تعالى اذليس معـه موجود سواه فان ماسواه أثر من آثار قدرته لاقوام له بذاته بل هو قائم به فلم يكن موجودا معه لان المعية توجب المساواة فى الرتبة والمساواة فى الرتبة نقصان فى الكمال بل الكامل من لانظيرله فى رتبته وكما أن اشراق نور الشمس فى أقطار الآفاق ليس نقصانا فى الشمس بل هو من جملة كمالها وانما نقصان الشمس بوجود شمس أخرى تساويها فى الرتبة مع الاستغناء عنها فكذلك وجود كل مافى العالم يرجع الى اشراق أنوار القدرة فيكون تابعا ولا يكون متبعا فاذا معنى الربوبية التفرد بالوجود وهو الكمال وكل انسان فانه بطبعه محب لان يكون هو المنفرد بالكمال ولذلك قال بعض مشايخ الصوفية مامن انسان الا وفى باطنه ماصرح به فرعون من قوله أنا ربكم الاعلى ولكنه ليس يجد له مجالا وهو كما قال فان العبودية قهر على النفس والربوبيـة محبوبة بالطبع وذلك للنسبة الربانية التى أومأ اليها قوله تعالى قل الروح من أمر ربى ولكن لما عجزت النفس عن درك منتهى الكمال لم تسقط شهوتها للكمال فهى محبة للكمال ومشتهية له وملتذة به لذاته لالمعنى آخر وراء الكمال وكل موجود فهو محب لذاته ولكمال ذاته ومبغض للهلاك الذى هو عدم ذاته أوعدم صفات الكمال من ذاته وانما الكمال بعد ان يسلم التفرد بالوجود فى الاستيلاء على كل الموجودات فان أكمل الكمال أن يكون وجود غيرك منك فان لم يكن منك فان تكون مستوليا عليه فصار الاستيلاء على الكل محبوبا بالطبع لانه نوع كمال وكل موجود يعرف ذاته فانه يحب ذاته ويحب كمال ذاته ويلتذ به الا أن الاستيلاء على الشئ بالقدرة على التأثير فيه وعلى تغييره بحسب الارادة وكونه مسخرا لك تردده كيف تشاء فاحب الانسان أن يكون له استيلاء على كل الاشياء الموجودة معه الا أن الموجودات منقسمة الى مالا يقبـل التغيير فى نفسـه كذات الله تعالى وصفاته والى مايقبل التغيير ولكن لايستولى عليه قدرة الخلق كالافلاك والكواكب وملكوت السموات ونفوس الملائكة والجن والشياطين وكالجبال والبحار وماتحت الجبال والبحار والى مايقبل التغيير بقدرة العبد كالارض وأجزائها وماعليها من المعادن والنبات والحيوان ومن جملتها قلوب الناس فانها قابلة للتأثير والتغيير مثل أجسادهم وأجساد الحيوانات فاذا انقسمت الموجودات الى مايقدر الانسان على التصرف فيه كالارضيات والى مالايقدر عليه كذات الله تعالى والملائكة والسموات أحب الانسان أن يستولى على السموات بالعلم والاحاطة والاطلاع على أسرارها فان ذلك نوع استيلاء اذ المعلوم المحاط به كالداخل تحت العلم والعالم كالمستولى عليه فلذلك أحب أن يعرف الله تعالى والملائكة والافلاك والكواكب وجميع عجائب السموات وجميع عجائب البحار والجبال وغيرها لان ذلك نوع استيلاء عليها والاستيلاء نوع كمال وهذا يضاهى اشتياق من عجز عن صنعة عجيبة الى معرفة طريق الصنعة فيها كمن يعجز عن وضع الشطرنج فانه قد يشتهى أن يعرف اللعب به وانه كيف وضع وكمن يرى صنعة عجيبة فى الهندسة أو الشعبذة أو جر الثقيل أو غيره وهو مستشعر فى نفسه بعض العجز والقصور عنه ولكنه يشتاق الى معرفة كيفيته فهو متألم ببعض العجز متلذذ بكمال العلم ان علمه وأما القسم الثانى وهو الارضيات التى يقدر الانسان عليها فانه يحب بالطبع أن يستولى عليها بالقدرة على التصرف فيها كيف يريد وهى قسمان أجساد وأرواح أما الاجساد فهى الدراهم والدنانير والامتعة فيجب أن يكون قادرا عليها يفعل فيها مايشاء من الرفع والوضع والتسليم والمنع فان ذلك قدرة والقدرة كمال والكمال من صفات الربوبية والربوبية محبوبة بالطبع فلذلك أحب الاموال وان كان لايحتاج اليها فى ملبسه ومطعمه وفى شهوة نفسه وكذلك طلب استرقاق العبيد واستعباد الاشخاص الاحرار ولو بالقهر والغلبة حتى يتصرف فى أجسادهم وأشخاصهم بالاستسخار وان لم يملك قلوبهم فانها ربما لم تعتقد كماله حتى يصير محبوبا لها ويقوم القهر

بيده حبال الليف ويبيعها وكان الشيخ أبو الحسن بن سالم يقول لاأسلم عليه الاأن يفطر ويأكل وكان ابن سالم اتهمه بشهوة خفيـة له فى ذلك لانه كان مشهورا بين الناس وقال بعضهم ماأخلص لله عبد قط الاأحب أن يكون فى جب لايعرف ومن أكل فضلا من الطعام أخرج فضلا من الكلام وقيل أقام أبو الحسن التنيسى بالحرم مع أصحابه سبعة أيام لم يأكلوا فخرج بعض أصحابه ليتطهر فرأى قشر بطيخ فاخذه وأكله فرآه انسان فاتبع أثره وجاء برفق فوضعه بين يدى القوم فقال الشيخ من جنى منكم هذه الجناية فقال الرجل أنا وجدت قشر بطيخ فأكلته فقال كن أنت مع جنايتك ورفقك فقال أنا تائب من جنايتى فقال لا كلام بعد التوبة وكانوا

منزلته فيها فان الحشمة القهرية أيضا لذيذة لما فيها من القدرة * القسم الثاني نفوس الآدميين وقلوبهم وهي أنفس ما على وجه الارض فهو يحب أن يكون له استيلاء وقدرة عليها لتكون مسخرة له متصرفة تحت اشارته وارادته لما فيه من كمال الاستيلاء والتشبه بصفات الربوبية والقلوب انما تتسخر بالحب ولا تحب الا باعتقاد الكمال فان كل كمال محبوب لان الكمال من الصفات الالهية والصفات الالهية كلها محبوبة بالطبع للمعنى الرباني من جملة معاني الانسان وهو الذي لا يبليه الموت فيعدمه ولا يتسلط عليه التراب فيأكله فانه محل الايمان والمعرفة وهو الواصل الى لقاء الله تعالى والساعي اليه فاذا معنى الجاه تسخر القلوب ومن تسخرت له القلوب كانت له قدرة واستيلاء عليها والقدرة والاستيلاء كمال وهو من أوصاف الربوبية فاذا محبوب القلب بطبعه الكمال بالعلم والقدرة والمال والجاه من أسباب القدرة ولا نهاية للمعلومات ولا نهاية للمقدورات ومادام يبقى معلوم أو مقدور فالشوق لا يسكن والنقصان لا يزول ولذلك قال صلى الله عليه وسلم منهومان لا يشبعان فاذا مطلوب القلوب الكمال والكمال بالعلم والقدرة وتفاوت الدرجات فيه غير محصور فسرور كل انسان ولذته بقدر ما يدركه من الكمال فهذا هو السبب في كون العلم والمال والجاه محبوبا وهو أمر وراء كونه محبوبا بالاجل التوصل الى قضاء الشهوات فان هذه العلة قد تبقى مع سقوط الشهوات بل يحب الانسان من العلوم ما لا يصلح للتوصل به الى الاغراض بل ربما يفوت عليه جملة من الاغراض والشهوات ولكن الطبع يتقاضى طلب العلم في جميع العجائب والمشكلات لان في العلم استيلاء على المعلوم وهو نوع من الكمال الذي هو من صفات الربوبية فكان محبوبا بالطبع الا أن في حب كمال العلم والقدرة أغاليط لابد من بيانها ان شاء الله تعالى

﴿ بيان الكمال الحقيقي والكمال الوهمي الذي لا حقيقة له ﴾

قد عرفت أنه لا كمال بعد فوات التفرد بالوجود الا في العلم والقدرة ولكن الكمال الحقيقي فيه ملتبس بالكمال الوهمي وبيانه أن كمال العلم لله تعالى وذلك من ثلاثة أوجه * أحدها من حيث كثرة المعلومات وسعتها فانه محيط بجميع المعلومات فلذلك كلما كانت علوم العبد أكثر كان أقرب الى الله تعالى * الثاني من حيث تعلق العلم بالمعلوم على ما هو به وكون المعلوم مكشوفا به كشفا تاما فان المعلومات مكشوفة لله تعالى بأتم أنواع الكشف على ما هي عليه فلذلك مهما كان علم العبد أوضح وأيقن وأصدق وأوفق للمعلوم في تفاصيل صفات المعلوم كان أقرب الى الله تعالى * الثالث من حيث بقاء العلم أبد الآباد بحيث لا يتغير ولا يزول فان علم الله تعالى باق لا يتصور أن يتغير فكذلك مهما كان علم العبد بمعلومات لا يقبل التغير والانقلاب كان أقرب الى الله تعالى والمعلومات قسمان متغيرات وأزليات (أما المتغيرات) فمثالها العلم بكون زيد في الدار فانه علم له معلوم ولكنه يتصور أن يخرج زيد من الدار ويبقى اعتقاد كونه في الدار كما كان فينقلب جهلا فيكون نقصانا لا كمالا فكلما اعتقدت اعتقادا موافقا وتصور أن ينقلب المعتقد فيه عما اعتقدته كنت بصدد أن ينقلب كمالك نقصا ويعود علمك جهلا ويلتحق بهذا المثال جميع متغيرات العالم كعلمك مثلا بارتفاع جبل ومساحة أرض وبعد البلاد وتباعد ما بينها من الاميال والفراسخ وسائر ما يذكر في المسالك والممالك وكذلك العلم باللغات التي هي اصطلاحات تتغير بتغير الاعصار والامم والعادات فهذه علوم معلوماتها مثل الزئبق تتغير من حال الى حال فليس فيه كمال الا في الحال ولا يبقى كمالا في القلب (القسم الثاني) هو المعلومات الازلية وهو جواز الجائزات ووجوب الواجبات واستحالة المستحيلات فان هذه معلومات أزلية أبدية اذ لا يستحيل الواجب قط جائزا ولا الجائز محالا ولا المحال واجبا فكل هذه الاقسام داخلة في معرفة الله وما يجب له وما يستحيل في صفاته ويجوز في أفعاله فالعلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وحكمته في ملكوت السموات والارض وترتيب الدنيا والآخرة وما يتعلق به هو الكمال الحقيقي الذي يقرب من يتصف به من الله تعالى ويبقى كمالا للنفس بعد الموت وتكون هذه المعرفة نورا للعارفين بعد الموت يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا أي تكون هذه المعرفة رأس مال يوصل الى كشف ما لم ينكشف في الدنيا كما أن من معه سراج خفي فانه يجوز أن يصير ذلك سببا لزيادة النور بسراج آخر يقتبس منه فيكمل النور بذلك النور الخفي على سبيل الاستتمام ومن ليس معه أصل السراج فلا مطمع له في ذلك فمن ليس معه أصل معرفة

يستحبون صيام أيام البيض وهي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر وروي ان آدم عليه السلام لما أهبط الى الارض اسود جسده من أثر المعصية فلما تاب الله عليه أمره أن يصوم أيام البيض فابيض ثلث جسده بكل يوم صامه حتى ابيض جميع جسده بصيام أيام البيض ويستحبون صوم النصف الاول من شعبان وافطار نصفه الاخير وان واصل بين شعبان ورمضان فلا بأس به ولكن ان لم يكن صام فلا يستقبل رمضان بيوم أو يومين وكان يكره بعضهم أن يصام رجب جميعه كراهة المضاهاة برمضان ويستحب صوم العشر من ذي الحجة والعشر من المحرم ويستحب الخميس والجمعة والسبت أن يصام من الاشهر الحرم وورد في الخبر من صام ثلاثة أيام من شهر حرام

الله تعالى لم يكن له مطمع فى هذا النور فيبقى كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها بل كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض فاذا الاسعادة الا فى معرفة الله تعالى وأما ماعداذلك من المعارف فمنها مالا فائدة له أصلا كمعرفة الشعر وأنساب العرب وغيرهما ومنها ماله منفعة فى الاعانة على معرفة الله تعالى كمعرفة لغة العرب والتفسير والفقه والاخبار فان معرفة لغة العرب تعين على معرفة تفسير القرآن ومعرفة التفسير تعين على معرفة مافى القرآن من كيفية العبادات والاعمال التى تفيد تزكية النفس ومعرفة طريق تزكية النفس تفيد استعداد النفس لقبول الهداية الى معرفة الله سبحانه وتعالى كما قال تعالى قد أفلح من زكاها وقال عز وجل والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا فتكون جملة هذه المعارف كالوسائل الى تحقيق معرفة الله تعالى وانما الكمال فى معرفة الله ومعرفة صفاته وأفعاله وينطوى فيه جميع المعارف المحيطة بالموجودات اذ الموجودات كلها من أفعاله فمن عرفها من حيث هى فعل الله تعالى ومن حيث ارتباطها بالقدرة والارادة والحكمة فهى من تكملة معرفة الله تعالى هذا حكم كمال العلم ذكرناه وان لم يكن لائقا بأحكام الجاه والرياء ولكن أوردناه لاستيفاء أقسام الكمال * وأما القدرة فليس فيها كمال حقيقى للعبد بل للعبد علم حقيقى وليس له قدرة حقيقية وانما القدرة الحقيقية لله وما يحدث من الاشياء عقيب ارادة العبد وقدرته وحركته فهى حادثة باحداث الله كما قررناه فى كتاب الصبر والشكر وكتاب التوكل وفى مواضع شتى من ربع المنجيات فكمال العلم يبقى معه بعد الموت ويوصله الى الله تعالى فأما كمال القدرة فلا نعم له كمال من جهة القدرة بالاضافة الى الحال وهى وسيلة له الى كمال العلم كسلامة أطرافه وقوة يده للبطش ورجله للمشى وحواسه للادراك فان هذه القوى آلة للوصول بها الى حقيقة كمال العلم وقد يحتاج فى استيفاء هذه القوى الى القدرة بالمال والجاه للتوصل به الى المطعم والمشرب والملبس والمسكن وذلك الى قدر معلوم فان لم يستعمله للوصول به الى معرفة جلال الله فلا خير فيه ألبتة الا من حيث اللذة الحالية التى تنقضى على القرب ومن ظن ذلك كمالا فقد جهل فالخلق أكثرهم هالكون فى غمرة هذا الجهل فانهم يظنون أن القدرة على الاجساد بقهر الحشمة وعلى أعيان الاموال بسعة الغنى وعلى تعظيم القلوب بسعة الجاه كمال فلما اعتقدوا ذلك أحبوه ولما أحبوه طلبوه ولما طلبوه شغلوا به وتهالكوا عليه فنسوا الكمال الحقيقى الذى يوجب القرب من الله تعالى ومن ملائكته وهو العلم والحرية أما العلم فما ذكرناه من معرفة الله تعالى وأما الحرية فالخلاص من أسر الشهوات وغموم الدنيا والاستيلاء عليها بالقهر تشبها بالملائكة الذين لا تستفزهم الشهوة ولا يستهويهم الغضب ان دفع آثار الشهوة والغضب عن النفس من الكمال الذى هو من صفات الملائكة ومن صفات الكمال لله تعالى استحالة التغير والتأثر عليه فمن كان عن التغير والتأثر بالعوارض أبعد كان الى الله تعالى أقرب وبالملائكة أشبه ومنزلته عند الله أعظم وهذا كمال ثالث سوى كمال العلم والقدرة وانما لم نورده فى أقسام الكمال لان حقيقته ترجع الى عدم ونقصان فان التغير نقصان اذ هو عبارة عن عدم صفة كائنة وهلاكها والهلاك نقص فى الذات وفى صفات الكمال فاذا الكمالات ثلاثة ان عددنا عدم التغير بالشهوات وعدم الانقياد لها كمالا ككمال العلم وكمال الحرية وأعنى به عدم العبودية للشهوات وارادة الاسباب الدنيوية وكمال القدرة للعبد طريق الى اكتساب كمال العلم وكمال الحرية ولا طريق له الى اكتساب كمال القدرة الباقية بعد موته اذ قدرته على أعيان الاموال وعلى استسخار القلوب والابدان تنقطع بالموت ومعرفته وحريته لا ينعدمان بالموت بل يبقيان كمالا فيه ووسيلة الى القرب من الله تعالى فانظر كيف انقلب الجاهلون وانكبوا على وجوههم انكباب العميان فأقبلوا على طلب كمال القدرة بالجاه والمال وهو الكمال الذى لا يسلم وان سلم فلا بقاء له وأعرضوا عن كمال الحرية والعلم الذى اذا حصل كان أبديا لا انقطاع له وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا جرم لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون وهم الذين لم يفهموا قوله تعالى المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا فالعلم والحرية هى الباقيات الصالحات التى تبقى كمالا فى النفس والمال والجاه هو الذى ينقضى على القرب وهو كما مثله الله تعالى حيث قال انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض الآية وقال تعالى واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء الى قوله فأصبح

هشيما

الخميس والجمعة والسبت بعد من النار سبعمائة عام

﴿الباب الحادى والاربعون فى آداب الصوم ومهامه﴾

آداب الصوفية فى الصوم ضبط الظاهر والباطن وكف الجوارح عن الآثام كمنع النفس عن الطعام ثم كف النفس عن الاهتمام بالاقسام (سمعت) ان بعض الصالحين بالعراق كان طريقه وطريق أصحابه أنهم كانوا يصومون وكلما فتح عليهم قبل وقت الافطار يخرجونه ولا يفطرون الا على مافتح لهم وقت الافطار وليس من الادب ان يمسك المريد عن المباح ويفطر بحرام الآثام (قال) أبو الدرداء ياحبذا نوم الاكياس وفطرهم كيف يغبنون قيام الحمقى وصيامهم ولذرة من ذى يقين وتقوى

هشيماتذروه الرياح وكل ماتذروه رياح الموت فهو زهرة الحياة الدنيا وكل مالايقطعه الموت فهو الباقيات الصالحات فقد عرفت بهذا أن كمال القدرة بالمال والجاه كمال ظنى لا أصل له وأن من قصر الوقت على طلبه وظنه مقصودا فهو جاهل واليه أشار أبو الطيب بقوله ومن ينفق الساعات فى جمع ماله * مخافة فقر فالذى فعل الفقر الا قدر البلغة منهما الى الكمال الحقيقى اللهم اجعلنا ممن وفقته للخير وهديته بلطفك

﴿ بيان مايحمد من حب الجاه ومايذم ﴾

مهما عرفت أن معنى الجاه ملك القلوب والقدرة عليها فحكمه حكم ملك الاموال فانه عرض من أعراض الحياة الدنيا وينقطع بالموت كالمال والدنيا مزرعة الآخرة فكل ماخلق فى الدنيا فيمكن أن يتزود منه للآخرة وكما أنه لابد من أدنى مال لضرورة المطعم والمشرب والملبس فلابد من أدنى جاه لضرورة المعيشة مع الخلق والانسان كما لا يستغنى عن طعام يتناوله فيجوز أن يحب الطعام أو المال الذى يبتاع به الطعام فكذلك لايخلو عن الحاجة الى خادم يخدمه ورفيق يعينه واستاذ يرشده وسلطان يحرسه ويدفع عنه ظلم الاشرار فحبه لان يكون له فى قلب خادمه من المحل مايدعوه الى الخدمة ليس بمذموم وحبه لان يكون له فى قلب رفيقه من المحل مايحسن به مرافقته ومعاونته ليس بمذموم وحبه لان يكون له فى قلب استاذه من المحل مايحسن به ارشاده وتعليمه والعناية به ليس بمذموم وحبه لان يكون له من المحل فى قلب سلطانه مايحثه ذلك على دفع الشر عنه ليس بمذموم فان الجاه وسيلة الى الاغراض كالمال فلافرق بينهما الا أن التحقيق فى هذا يفضى الى أن لايكون المال والجاه بأعيانهما محبوبين له بل ينزل ذلك منزلة حب الانسان أن يكون له فى داره بيت ماء لانه مضطر اليه لقضاء حاجته ويود أن لو استغنى عن قضاء الحاجة حتى يستغنى عن بيت الماء فهذا على التحقيق ليس محبا لبيت الماء فكل مايراد للتوصل به الى محبوب فالمحبوب هو المقصود المتوصل اليه وتدرك التفرقة بمثال آخر وهو أن الرجل قد يحب زوجته من حيث انه يدفع بها فضلة الشهوة كما يدفع ببيت الماء فضلة الطعام ولو كفى مؤنة الشهوة لكان يهجر زوجته كما أنه لو كفى قضاء الحاجة لكان لايدخل بيت الماء ولايدور به وقد يحب الانسان زوجته لذاتها حب العشاق ولو كفى الشهوة لبقى مستصحبا لنكاحها فهذا هو الحب دون الاول وكذلك الجاه والمال قد يحب كل واحد منهما على هذين الوجهين فحبهما لاجل التوصل بهما الى مهمات البدن غير مذموم وحبهما لاعيانهما فيما يجاوز ضرورة البدن وحاجته مذموم ولكنه لايوصف صاحبه بالفسق والعصيان مالم يحمله الحب على مباشرة معصية ومالم يتوصل الى اكتسابه بكذب وخداع وارتكاب محظور ومالم يتوصل الى اكتسابه بعبادة فان التوصل الى الجاه والمال بالعبادة جناية على الدين وهو حرام واليه يرجع معنى الرياء المحظور كما سيأتى فان قلت طلبه المنزلة والجاه فى قلب أستاذه وخادمه ورفيقه وسلطانه ومن يرتبط به أمره مباح على الاطلاق كيفما كان أو يباح الى حد مخصوص على وجه مخصوص فأقول يطلب ذلك على ثلاثة أوجه وجهان منه مباحان ووجه محظور فأما الوجه المحظور فهو أن يطلب قيام المنزلة فى قلوبهم باعتقادهم فيه صفة هو منفك عنها مثل العلم والورع والنسب فيظهر لهم أنه علوى أو عالم أو ورع وهو لا يكون كذلك فهذا حرام لانه كذب وتلبيس اما بالقول أو بالمعاملة * وأما أحد المباحين فهو أن يطلب المنزلة بصفة هو متصف بها كقول يوسف صلى الله عليه وسلم فيما أخبر عنه الرب تعالى اجعلنى على خزائن الارض انى حفيظ عليم فانه طلب المنزلة فى قلبه بكونه حفيظا عليما وكان محتاجا اليه وكان صادقا فيه * والثانى أن يطلب اخفاء عيب من عيوبه ومعصية من معاصيه حتى لايعلم فلا تزول منزلته به فهذا أيضا مباح لان حفظ الستر على القبائح جائز ولايجوز هتك الستر واظهار القبيح وهذا ليس فيه تلبيس بل هو سد لطريق العلم بما لا فائدة فى العلم به كالذى يخفى عن السلطان أنه يشرب الخمر ولايلقى اليه أنه ورع فان قوله انى ورع تلبيس وعدم اقراره بالشرب لايوجب اعتقاد الورع بل يمنع العلم بالشرب ومن جملة المحظورات تحسين الصلاة بين يديه ليحسن فيه اعتقاده فان ذلك رياء وهو ملبس اذ يخيل اليه أنه من المخلصين الخاشعين لله وهو مراء بما يفعله فكيف يكون مخلصا فطلب الجاه بهذا الطريق حرام وكذا بكل معصية وذلك يجرى مجرى اكتساب المال الحرام من غير فرق وكما لايجوز له أن يتملك مال غيره بتلبيس فى عوض أو فى غيره فلا يجوز له أن يتملك قلبه

أفضل من أمثال الجبال من أعمال المغترين ومن فضيلة الصوم وأدبه أن يقلل الطعام عن الحد الذى كان يأكله وهو مفطر والا فاذا جمع الاكلات بأكلة واحدة فقد أدرك بها مافوت ومقصود القوم من الصوم قهر النفس ومنعها عن الاتساع وأخذهم من الطعام قدر الضرورة لعلمهم أن الاقتصار على الضرورة يجذب النفس من سائر الافعال والاقوال الى الضرورة والنفس من طبعها أنها اذا قهرت لله تعالى فى شئ واحد على الضرورة تأدى ذلك الى سائر أحوالها فيصير بالاكل النوم ضرورة والقول والفعل ضرورة وهذا باب كبير من أبواب الخير لاهل الله تعالى يجب رعايته وافتقاده ولا يختص بعلم الضرورة وفائدتها وطلبها الا عبد يريد الله تعالى أن يقربه

بتزوير وخداع فان ملك القلوب أعظم من ملك الاموال

﴿بيان السبب فى حب المدح والثناء وارتياح النفس به وميل الطبع اليه وبغضها الذم ونفرتها منه﴾

اعلم أن لحب المدح والتلذذ القلب به أربعة أسباب ﴿السبب الاول﴾ وهو الاقوى شعور النفس بالكمال فانا بينا أن الكمال محبوب وكل محبوب فادراكه لذيذ فهما شعرت النفس بكمالها ارتاحت واهتزت وتلذذت والمدح يشعر نفس الممدوح بكمالها فان الوصف الذى به مدح لا يخلو اما أن يكون جليا ظاهرا أو يكون مشكوكا فيه فان كان جليا ظاهرا محسوسا كانت اللذة به أقل ولكنه لا يخلو عن لذة كثنائه عليه بأنه طويل القامة أبيض اللون فان هذا نوع كمال ولكن النفس تغفل عنه فتخلو عن لذته فاذا استشعرته لم يخل حدوث الشعور عن حدوث لذة وان كان ذلك الوصف مما يتطرق اليه الشك فاللذة فيه أعظم كالثناء عليه بكمال العلم وكمال الورع أو بالحسن المطلق فان الانسان ربما يكون شاكا فى كمال حسنه وفى كمال علمه وكمال ورعه ويكون مشتاقا الى زوال هذا الشك بأن يصير مستيقنا لكونه عديم النظير فى هذه الامور اذ تطمئن نفسه اليه فاذا ذكره غيره أورث ذلك طمأنينة وثقة باستشعار ذلك الكمال فتعظم لذته وانما تعظم اللذة بهذه العلة مهما صدر الثناء من بصير بهذه الصفات خبير بها لا يجازف فى القول الا عن تحقيق وذلك كفرح التلميذ بثناء استاذه عليه بالكياسة والذكاء وغزارة الفضل فانه فى غاية اللذة وان صدر ممن يجازف فى الكلام أولا يكون بصيرا بذلك الوصف ضعفت اللذة وبهذه العلة يبغض الذم أيضا ويكرهه لانه يشعره بنقصان نفسه والنقصان ضد الكمال المحبوب فهو ممقوت والشعور به مؤلم ولذلك يعظم الالم اذا صدر الذم من بصير موثوق به كما ذكرناه فى المدح ﴿السبب الثانى﴾ أن المدح يدل على أن قلب المادح مملوك للممدوح وأنه مريد له ومعتقد فيه ومسخر تحت مشيئته وملك القلوب محبوب والشعور بحصوله لذيذ وبهذه العلة تعظم اللذة مهما صدر الثناء ممن تتسع قدرته وينتفع باقتناص قلبه كالملوك والاكابر ويضعف مهما كان المادح ممن لا يؤبه له ولا يقدر على شئ فان القدرة عليه بملك قلبه قدرة على أمر حقير فلا يدل المدح الا على قدرة قاصرة وبهذه العلة أيضا يكره الذم ويتألم به القلب واذا كان من الاكابر كانت نكايته أعظم لان الفائت به أعظم ﴿السبب الثالث﴾ أن ثناء المثنى ومدح المادح سبب لاصطياد قلب كل من يسمعه لا سيما اذا كان ذلك ممن يلتفت الى قوله ويعتد بثنائه وهذا مختص بثناء يقع على الملا فلا جرم كلما كان الجمع أكثر والمثنى أجدر بأن يلتفت الى قوله كان المدح ألذ والذم أشد على النفس ﴿السبب الرابع﴾ أن المدح يدل على حشمة الممدوح واضطرار المادح الى اطلاق اللسان بالثناء على الممدوح اما عن طوع واما عن قهر فان الحشمة أيضا لذيذة لما فيها من القهر والقدرة وهذه اللذة تحصل وان كان المادح لا يعتقد فى الباطن ما مدح به ولكن كونه مضطرا الى ذكره نوع قهر واستيلاء عليه فلا جرم تكون لذته بقدر تمنع المادح وقوته فتكون لذة ثناء القوى الممتنع عن التواضع بالثناء أشد فهذه الاسباب الاربعة قد تجتمع فى مدح مادح واحد فيعظم بها الالتذاذ وقد تفترق فتنقص اللذة بها أما العلة الاولى وهى استشعار الكمال فتندفع بأن يعلم الممدوح أنه غير صادق فى قوله كما اذا مدح بأنه نسيب أو سخى أو عالم بعلم أو متورع عن المحظورات وهو يعلم من نفسه ضد ذلك فتزول اللذة التى سببها استشعار الكمال وتبقى لذة الاستيلاء على قلبه وعلى لسانه وبقية اللذات فان كان يعلم أن المادح ليس يعتقد ما يقوله ويعلم خلوه عن هذه الصفة بطلت اللذة الثانية وهو استيلاؤه على قلبه وتبقى لذة الاستيلاء والحشمة على اضطرار لسانه الى النطق بالثناء فان لم يكن ذلك عن خوف بل كان بطريق اللعب بطلت اللذات كلها فلم يكن فيه أصلا لذة لفوات الاسباب الثلاثة فهذا ما يكشف الغطاء عن علة التذاذ النفس بالمدح وتألمها بسبب الذم وانما ذكرنا ذلك ليعرف طريق العلاج لحب الجاه وحب المحمدة وخوف المذمة فان ما لا يعرف سببه لا يمكن معالجته اذ العلاج عبارة عن حل أسباب المرض والله الموفق بكرمه ولطفه وصلى الله على كل عبد مصطفى

﴿بيان علاج حب الجاه﴾

اعلم أن من غلب على قلبه حب الجاه صار مقصور الهم على مراعاة الخلق مشغوفا بالتودد اليهم والمراآة لاجلهم ولا يزال فى أقواله وأفعاله ملتفتا الى ما يعظم منزلته عندهم وذلك بذر النفاق وأصل الفساد ويجر ذلك لا محالة الى التساهل فى العبادات والمراآة بها والى اقتحام المحظورات للتوصل الى اقتناص القلوب ولذلك شبه رسول الله

ويدنيه ويصطفيه ويربيه ويمتنع فى صومه من ملاعبة الاهل بالملامسة فان ذلك أثره للصوم ويتسحر استعمالا للسنة وهو أدعى الى امضاء الصوم لمنعين أحدهما عود بركة السنة عليه والثانى التقوية بالطعام على الصيام (روى) أنس ابن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تسحروا فان فى السحور بركة ويعجل الفطر عملا بالسنة فان لم يرد تناول الطعام الا بعد العشاء ويريد احياء ما بين العشاءين يفطر بالماء أو على أعداد من الزبيب أو التمر أو يأكل لقيمات ان كانت النفس تنازع ليصفو له الوقت بين العشاءين فاحياء ذلك له فضل كثير والا فيقتصر على الماء لاجل السنة (أخبرنا) الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب ابن على قال أنا أبو الفتح الهروى قال أنا أبو نصر

صلى الله عليه وسلم حب الشرف والمال وافسادهما للدين بذئبين ضاريين وقال عليه السلام انه ينبت النفاق كما ينبت الماء البقل اذ النفاق هو مخالفة الظاهر للباطن بالقول أو الفعل وكل من طلب المنزلة في قلوب الناس فيضطر الى النفاق معهم والى التظاهر بخصال حميدة هو خال عنها وذلك هو عين النفاق فحب الجاه اذن من المهلكات فيجب علاجه وازالته عن القلب فانه طبع جبل عليه القلب كما جبل على حب المال وعلاجه مركب من علم وعمل أما العلم فهو أن يعلم السبب الذي لاجله أحب الجاه وهو كمال القدرة على أشخاص الناس وعلى قلوبهم وقد بينا ان ذلك ان صفا وسلم فآخره الموت فليس هو من الباقيات الصالحات بل لو سجد لك كل من على بسيط الارض من المشرق الى المغرب فالى خمسين سنة لا يبقى الساجد ولا المسجود له ويكون حالك كحال من مات قبلك من ذوي الجاه مع المتواضعين له فهذا لا ينبغي أن يترك به الدين الذي هو الحياة الابدية التي لا انقطاع لها ومن فهم الكمال الحقيقي والكمال الوهمي كما سبق صغر الجاه في عينه الا ان ذلك انما يصغر في عين من ينظر الى الآخرة كانه يشاهدها ويستحقر العاجلة ويكون الموت كالحاصل عنده ويكون حاله كحال الحسن البصري حين كتب الى عمر بن عبد العزيز أما بعد فكأنك بآخر من كتب عليه الموت قد مات فانظر كيف مد نظره نحو المستقبل وقدره كائنا وكذلك حال عمر بن عبد العزيز حين كتب في جوابه أما بعد فكأنك بالدنيا لم تكن وكأنك بالآخرة لم تزل فهؤلاء كان التفاتهم الى العاقبة فكان عملهم لها بالتقوى اذ علموا أن العاقبة للمتقين فاستحقروا الجاه والمال في الدنيا وأبصار أكثر الخلق ضعيفة مقصورة على العاجلة لا يمتد نورها الى مشاهدة العواقب ولذلك قال تعالى بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى وقال عز وجل كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة فمن هذا حده فينبغي أن يعالج قلبه من حب الجاه بالعلم بالآفات العاجلة وهو أن يتفكر في الاخطار التي تستهدف لها أرباب الجاه في الدنيا فان كل ذي جاه محسود ومقصود بالايذاء وخائف على الدوام على جاهه ومحترز من أن تتغير منزلته في القلوب والقلوب أشد تغيرا من القدر في غليانها وهي مترددة بين الاقبال والاعراض فكل ما يبنى على قلوب الخلق يضاهي ما يبنى على أمواج البحر فانه لا ثبات له والاشتغال بمراعاة القلوب وحفظ الجاه ودفع كيد الحساد ومنع أذى الاعداء كل ذلك غموم عاجلة ومكدرة للذة الجاه فلا يفي في الدنيا مرجوها بمخوفها فضلا عما يفوت في الآخرة فبهذا ينبغي أن تعالج البصيرة الضعيفة وأما من نفذت بصيرته وقوي ايمانه فلا يلتفت الى الدنيا فهذا هو العلاج من حيث العلم * وأما من حيث العمل فاسقاط الجاه عن قلوب الخلق بمباشرة أفعال يلام عليها حتى يسقط من أعين الخلق وتفارقه لذة القبول ويأنس بالخمول ويرد الخلق ويقنع بالقبول من الخالق وهذا هو مذهب الملامتية اذا اقتحموا الفواحش في صورتها ليسقطوا أنفسهم من أعين الناس فيسلموا من آفة الجاه وهذا غير جائز لمن يقتدى به فانه يوهن الدين في قلوب المسلمين وأما الذي لا يقتدى به فلا يجوز له أن يقدم على محظور لاجل ذلك بل له أن يفعل من المباحات ما يسقط قدره عند الناس كما روي أن بعض الملوك قصد بعض الزهاد فلما علم بقربه منه استدعى طعاما وبقلا وأخذ يأكل بشره ويعظم اللقمة فلما نظر اليه الملك سقط من عينه وانصرف فقال الزاهد الحمد لله الذي صرفك عني ومنهم من شرب شرابا حلالا في قدح لونه لون الخمر حتى يظن به أنه يشرب الخمر فيسقط من أعين الناس وهذا في جوازه نظر من حيث الفقه الا ان أرباب الاحوال ربما يعالجون أنفسهم بما لا يفتي به الفقيه مهما رأوا صلاح قلوبهم فيه ثم يتداركون ما فرط منهم فيه من صورة التقصير كما فعل بعضهم فانه عرف بالزهد وأقبل الناس عليه فدخل حماما ولبس ثياب غيره وخرج فوقف في الطريق حتى عرفوه فأخذوه وضربوه واستردوا منه الثياب وقالوا انه طرار وهجروه وأقوى الطرق في قطع الجاه الاعتزال عن الناس والهجرة الى موضع الخمول فان المعتزل في بيته في البلد الذي هو به مشهور لا يخلو عن حب المنزلة التي ترسخ له في القلوب بسبب عزلته فانه ربما يظن أنه ليس محبا لذلك الجاه وهو مغرور وانما سكنت نفسه لانها قد ظفرت بمقصودها ولو تغير الناس عما اعتقدوه فيه فذموه أو نسبوه الى أمر غير لائق به جزعت نفسه وتألمت وربما توصلت الى الاعتذار عن ذلك واماطة ذلك الغبار عن قلوبهم وربما يحتاج في ازالة ذلك عن قلوبهم الى كذب وتلبيس ولا يبالي به وبه يتبين بعد أنه محب للجاه والمنزلة ومن أحب الجاه والمنزلة فهو كمن أحب

الترياقي قال أنا أبو محمد الجراحي قال أنا أبو العباس المحبوبي قال أنا أبو عيسى الترمذي قال ثنا اسحق بن موسى الانصاري قال ثنا الوليد بن مسلم عن الاوزاعي عن قرة عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حكاية عن ربه قال الله عز وجل أحب عبادي الى أعجلهم فطرا وقال عليه السلام لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر * والافطار قبل الصلاة سنة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفطر على جرعة من ماء أو مذقة من لبن أو تمرات (وفي الخبر) كم من صائم حظه من صيامه الجوع والعطش قيل هو الذي يجوع بالنهار ويفطر على الحرام وقيل هو الذي يصوم عن الحلال من الطعام ويفطر على لحوم الناس بالغيبة (قال) سفيان من اغتاب فسد

المال بل هو شر منه فان فتنة الجاه أعظم ولا يمكنه أن لا يحب المنزلة فى قلوب الناس مادام يطمع فى الناس فاذا أحرز قوته من كسبه أو من جهة أخرى وقطع طمعه عن الناس رأسا أصبح الناس كلهم عنده كالارذال فلا يبالى أكان له منزلة فى قلوبهم أم لم يكن كما لا يبالى بما فى قلوب الذين هم منه فى أقصى المشرق لانه لا يراهم ولا يطمع فيهم ولا يقطع الطمع عن الناس الا بالقناعة فمن قنع استغنى عن الناس واذا استغنى لم يشتغل قلبه بالناس ولم يكن لقيام منزلته فى القلوب عنده وزن ولا يتم ترك الجاه الا بالقناعة وقطع الطمع و يستعين على جميع ذلك بالاخبار الواردة فى ذم الجاه ومدح الخمول والذل مثل قولهم المؤمن لا يخلو من ذلة أو قلة أو علة و ينظر فى أحوال السلف وايثارهم للذل على العز ورغبتهم فى ثواب الآخرة رضى الله عنهم أجمعين

﴿ بيان وجه العلاج لحب المدح وكراهة الذم ﴾

اعلم ان أكثر الناس انما هلكوا بخوف مذمة الناس وحب مدحهم فصارت حركاتهم كلها موقوفة على ما يوافق رضا الناس رجاء للمدح وخوفا من الذم وذلك من المهلكات فيجب معالجته وطريقه ملاحظة الاسباب التى لاجلها يحب المدح و يكره الذم * (أما السبب الاول) فهو استشعار الكمال بسبب قول المادح فطريقك فيه أن ترجع الى عقلك وتقول لنفسك هذه الصفة التى يمدحك بها أنت متصف بها أم لا فان كنت متصفا بها فهى اما صفة تستحق بها المدح كالعلم والورع واما صفة لا تستحق المدح كالثروة والجاه والاعراض الدنيوية فان كانت من الاعراض الدنيوية فالفرح بها كالفرح بنبات الارض الذى يصير على القرب هشيما تذروه الرياح وهذا من قلة العقل بل العاقل يقول كما قال المتنبى

أشد الغم عندى فى سرور * تيقن عنه صاحبه انتقالا

فلا ينبغى أن يفرح الانسان بعروض الدنيا وان فرح فلا ينبغى أن يفرح بمدح المادح بها بل بوجودها والمدح ليس هو سببا و جودها وان كانت الصفة مما يستحق الفرح بها كالعلم والورع فينبغى أن لا يفرح بها لان الخاتمة غير معلومة وهذا انما يقتضى الفرح لانه يقرب عند الله زلفى وخطر الخاتمة باق ففى الخوف من سوء الخاتمة شغل عن الفرح بكل ما فى الدنيا بل الدنيا دار أحزان وغموم لا دار فرح وسرور ثم ان كنت تفرح بها على رجاء حسن الخاتمة فينبغى أن يكون فرحك بفضل الله عليك بالعلم والتقوى لا بمدح المادح فان اللذة فى استشعار الكمال والكمال موجود من فضل الله لا من المدح والمدح تابع له فلا ينبغى أن تفرح بالمدح والمدح لا يزيدك فضلا وان كانت الصفة التى مدحت بها أنت خال عنها ففرحك بالمدح غاية الجنون ومثالك مثال من يهزأ به انسان و يقول سبحان الله ما أكثر العطر الذى فى أحشائه وما أطيب الروائح التى تفوح منه اذا قضى حاجته وهو يعلم ما تشتمل عليه أمعاؤه من الاقذار والانتان ثم يفرح بذلك فكذلك اذا أثنوا عليك بالصلاح والورع ففرحت به والله مطلع على خبائث باطنك وغوائل سريرتك واقذار صفاتك كان ذلك من غاية الجهل فاذا المادح ان صدق فليكن فرحك بصفتك التى هى من فضل الله عليك وان كذب فينبغى أن يغمك ذلك ولا تفرح به (وأما السبب الثانى) وهو دلالة المدح على تسخير قلب المادح وكونه سببا لتسخير قلب آخر فهذا يرجع الى حب الجاه والمنزلة فى القلوب وقد سبق وجه معالجته وذلك بقطع الطمع عن الناس وطلب المنزلة عند الله وبأن تعلم أن طلبك المنزلة فى قلوب الناس وفرحك به يسقط منزلتك عند الله فكيف تفرح به ﴿ وأما السبب الثالث ﴾ وهو الحشمة التى اضطرت المادح الى المدح فهو أيضا يرجع الى قدرة عارضة لا ثبات لها ولا تستحق الفرح بل ينبغى أن يغمك مدح المادح وتكرهه وتغضب به كما نقل ذلك عن السلف لان آفة المدح على الممدوح عظيمة كما ذكرناه فى كتاب آفات اللسان قال بعض السلف من فرح بمدح فقد مكن الشيطان من أن يدخل فى بطنه وقال بعضهم اذا قيل لك نعم الرجل أنت فكان أحب اليك من أن يقال لك بئس الرجل أنت فانت والله بئس الرجل و روى فى بعض الاخبار فان صح فهو قاصم للظهر ان رجلا أثنى على رجل خيرا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لو كان صاحبك حاضرا فرضى الذى قلت فمات على ذلك دخل النار وقال صلى الله عليه وسلم مرة للمادح ويحك قصمت ظهره لو سمعك ما أفلح الى يوم القيامة وقال عليه السلام ألا لا تمادحوا واذا رأيتم المادحين فاحثوا فى وجوههم التراب

صومه * وعن مجاهد خصلتان تفسدان الصوم الغيبة والكذب قال الشيخ أبو طالب المكى قرن الله الاستماع الى الباطل والقول بالاثم بأكل الحرام فقال سماعون للكذب أكالون للسحت (وورد) فى الخبر ان امرأتين صامتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجهدهما الجوع والعطش من آخر النهار حتى كادتا أن تهلكا فبعثتا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم تستأذنانه فى الافطار فارسل اليهما قدحا وقال قولا لهما قيئا فيه ما أكلتما فقاءت احداهما نصفه دما عبيطا ولحما غريضا وقاءت الاخرى مثل ذلك حتى ملأتاه فعجب الناس من ذلك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هاتان صامتا عما أحل الله لهما وأفطرتا على ما حرم الله عليهما وقال عليه الصلاة

التراب فلهذا كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين على وجل عظيم من المدح وفتنته ومايدخل على القلب من السرور العظيم به حتى ان بعض الخلفاء الراشدين سأل رجلا عن شئ فقال أنت ياأمير المؤمنين خير مني وأعلم فغضب وقال اني لم آمرك بان تزكيني وقيل لبعض الصحابة لايزال الناس بخير ما أبقاك الله فغضب وقال اني لاحسبك عراقيا وقال بعضهم لما مدح اللهم ان عبدك تقرب الى بمقتك فاشهدك على مقته وانما كرهوا المدح خيفة أن يفرحوا بمدح الخلق وهم ممقوتون عند الخالق فكان اشتغال قلوبهم بحالهم عند الله يبغض اليهم مدح الخلق لان الممدوح هو المقرب عند الله والمذموم بالحقيقة هو المبعد من الله الملقى في النار مع الاشرار فهذا الممدوح ان كان عند الله من أهل النار فما أعظم جهله اذا فرح بمدح غيره وان كان من أهل الجنة فلا ينبغي أن يفرح الابفضل الله تعالى وثنائه عليه اذ ليس أمره بيد الخلق ومهما علم أن الارزاق والآجال بيد الله تعالى قل التفاته لى مدح الخلق وذمهم وسقط من قلبه حب المدح واشتغل بما يهمه من أمر دينه والله الموفق للصواب برحمته

﴿ بيان علاج كراهة الذم ﴾

قد سبق ان العلة في كراهة الذم هو ضد العلة في حب المدح فعلاجه أيضا يفهم منه والقول الوجيز فيه أن من ذمك لايخلو من ثلاثة أحوال اما أن يكون قد صدق فيما قال وقصد به النصح والشفقة واما أن يكون صادقا ولكن قصده الايذاء والتعنت واما أن يكون كاذبا فان كان صادقا وقصده النصح فلا ينبغي أن تذمه وتغضب عليه وتحقد بسببه بل ينبغي أن تتقلد منته فان من أهدى اليك عيوبك فقد أرشدك الى المهلك حتى تتقيه فينبغي أن تفرح به وتشتغل بازالة الصفة المذمومة عن نفسك ان قدرت عليها فاما اغتمامك بسببه وكراهتك له وذمك اياه فانه غاية الجهل وان كان قصده التعنت فانت قد انتفعت بقوله اذ أرشدك الى عيبك ان كنت جاهلا أوذكرك عيبك ان كنت غافلا عنه أو قبحه في عينك لينبعث حرصك على ازالته ان كنت قد استحسنته وكل ذلك أسباب سعادتك وقد استفدته منه فاشتغل بطلب السعادة فقد أتيح لك أسبابها بسبب ماسمعته من المذمة فهما قصدت الدخول على ملك وثوبك ملوث بالعذرة وأنت لاتدري ولو دخلت عليه كذلك لخفت أن يحز رقبتك لتلويثك مجلسه بالعذرة فقال لك قائل أيها الملوث بالعذرة طهر نفسك فينبغي أن تفرح به لان تنبيهك بقوله غنيمة وجميع مساوي الاخلاق مهلكة في الآخرة والانسان انما يعرفها من قول أعدائه فينبغي أن تغتنمه وأما قصد العدو التعنت فجناية منه على دين نفسه وهو نعمة منه عليك فلم تغضب عليه بقول انتفعت به أنت وتضرر هو به * الحالة الثالثة أن يفترى عليك بما أنت برئ منه عند الله تعالى فينبغي أن لاتكره ذلك ولاتشتغل بذمه بل تتفكر في ثلاثة أمور أحدها أنك ان خلوت من ذلك العيب فلا تخلو عن أمثاله وأشباهه وماستره الله من عيوبك أكثر فاشكر الله تعالى اذ لم يطلعه على عيوبك ودفعه عنك بذكر ما أنت برئ عنه والثاني ان ذلك كفارات لبقية مساويك وذنوبك فكأنه رماك بعيب أنت برئ منه وطهرك من ذنوب أنت ملوث بها وكل من اغتابك فقد أهدى اليك حسناته وكل من مدحك فقد قطع ظهرك فما بالك تفرح بقطع الظهر وتحزن لهدايا الحسنات التي تقربك الى الله تعالى وأنت تزعم أنك تحب القرب من الله وأما الثالث فهو أن المسكين قد جنى على دينه حتى سقط من عين الله وأهلك نفسه بافترائه وتعرض لعقابه الاليم فلا ينبغي أن تغضب عليه مع غضب الله عليه فتشمت به الشيطان وتقول اللهم أهلكه بل ينبغي أن تقول اللهم أصلحه اللهم تب عليه اللهم ارحمه كما قال صلى الله عليه وسلم اللهم اغفر لقومي اللهم اهد قومي فانهم لايعلمون لما أن كسروا ثنيته وشجوا وجهه وقتلوا عمه حمزة يوم أحد ودعا ابراهيم بن أدهم لمن شج رأسه بالمغفرة فقيل له في ذلك فقال علمت انى مأجور بسببه ومانالني منه الا خير فلا أرضى أن يكون هو معاقبا بسببي ومما يهون عليك كراهة المذموم قطع الطمع فان من استغنيت عنه مهما ذمك لم يعظم أثر ذلك في قلبك وأصل الدين القناعة وبها ينقطع الطمع عن المال والجاه ومادام الطمع قائما كان حب الجاه والمدح في قلب من طمعت فيه غالبا وكانت همتك الى تحصيل المنزلة في قلبه مصروفة ولاينال ذلك الابهدم الدين فلا ينبغي أن يطمع طالب المال والجاه ومحب المدح ومبغض الذم في سلامة دينه فان ذلك بعيد جدا

﴿ بيان اختلاف أحوال الناس في المدح والذم ﴾

والسلام اذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولايجهل فان امرؤ شاتمه فليقل اني صائم (وفي الخبر) ان الصوم أمانة فليحفظ أحدكم أمانته (والصوفي) الذي لايرجع الى معلوم ولايدري متى يساق اليه الرزق فاذا ساق الله اليه الرزق تناوله بالادب وهو دائم المراقبة لوقته وهو في افطاره أفضل من الذي له معلوم معد فان كان مع ذلك يصوم فقد أكمل الفضل (حكى) عن رويم قال اجتزت في الهاجرة ببعض سكك بغداد فعطشت فتقدمت الى باب دار فاستسقيت فاذا جارية قد خرجت ومعها كوز جديد ملآن من الماء المبرد فلما أردت أن أتناول من يدها قالت صوفي ويشرب بالنهار وضربت بالكوز على الارض وانصرفت قال رويم فاستحييت من ذلك ونذرت أن لاأفطر أبدا * والجماعة الذين كرهوا

اعلم ان للناس أربعة أحوال بالاضافة الى الذام والمادح * الحالة الاولى أن يفرح بالمدح ويشكر المادح ويغضب من الذم ويحقد على الذام ويكافئه أو يحب مكافأته وهذا حال أكثر الخلق وهو غاية درجات المعصية في هذا الباب * الحالة الثانية أن يمتعض في الباطن على الذام ولكن يمسك لسانه وجوارحه عن مكافأته ويفرح باطنه ويرتاح للمادح ولكن يحفظ ظاهره عن اظهار السرور وهذا من النقصان الا انه بالاضافة الى ما قبله كمال * الحالة الثالثة وهي أول درجات الكمال أن يستوي عنده ذامه ومادحه فلا تغمه المذمة ولا تسره المدحة وهذا قد يظنه بعض العباد بنفسه ويكون مغرورا ان لم يمتحن نفسه بعلاماته وعلاماته أن لا يجد في نفسه استثقالا للذام عند تطويله الجلوس عنده أكثر مما يجده في المادح وأن لا يجد في نفسه زيادة هزة ونشاط في قضاء حوائج المادح فوق ما يجده في قضاء حاجة الذام وأن لا يكون انقطاع الذام عن مجلسه أهون عليه من انقطاع المادح وأن لا يكون موت المادح المطري له أشد نكاية في قلبه من موت الذام وأن لا يكون غمه بمصيبة المادح وما يناله من أعدائه أكثر مما يكون بمصيبة الذام وأن لا تكون زلة المادح أخف على قلبه وفي عينه من زلة الذام فمهما خف الذام على قلبه كما خف المادح واستويا من كل وجه فقد نال هذه الرتبة وما أبعد ذلك وما أشده على القلوب وأكثر العباد فرحهم بمدح الناس لهم مستبطن في قلوبهم وهم لا يشعرون من حيث لا يمتحنون أنفسهم بهذه العلامات وربما شعر العابد بميل قلبه الى المادح دون الذام والشيطان يحسن له ذلك ويقول الذام قد عصى الله بمذمتك والمادح قد أطاع الله بمدحك فكيف تسوي بينهما وانما استثقالك للذام من الدين المحض وهذا محض التلبيس فان العابد لو تفكر علم أن في الناس من ارتكب من كبائر المعاصي أكثر مما ارتكب الذام في مذمته ثم انه لا يستثقلهم ولا ينفر عنهم ويعلم ان المادح الذي مدحه لا يخلو عن مذمة غيره ولا يجد في نفسه نفرة عنه بمذمة غيره كما يجد بالمذمة نفسه والمذمة من حيث انها معصية لا تختلف بان يكون هو المذموم أو غيره فاذا العابد المغرور بنفسه يغضب لهواه ويمتعض ثم ان الشيطان يخيل اليه أنه من الدين حتى يعتقد على الله بهواه فيزيده ذلك بعدا من الله ومن لم يطلع على مكايد الشيطان وآفات النفوس فأكثر عباداته تعب ضائع يفوت عليه الدنيا ويخسره في الآخرة وفيهم قال الله تعالى قل هل ننبئكم بالاخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا * الحالة الرابعة وهي الصدق في العبادة أن يكره المدح ويمقت المادح اذ يعلم انه فتنة عليه قاصمة للظهر مضرة له في الدين ويحب الذام اذ يعلم أنه مهد اليه عيبه ومرشد له الى مهمه ومهد اليه حسناته فقد قال صلى الله عليه وسلم رأس التواضع أن تكره أن تذكر بالبر والتقوى وقد روى في بعض الاخبار ما هو قاصم لظهور أمثالنا ان صح اذ روى أنه صلى الله عليه وسلم قال ويل للصائم وويل للقائم وويل لصاحب الصوف الامن فقيل يا رسول الله الامن فقال الامن تنزهت نفسه عن الدنيا وأبغض المدحة واستحب المذمة وهذا شديد جدا وغاية أمثالنا الطمع في الحالة الثانية وهو أن يضمر الفرح والكراهة على الذام والمادح ولا يظهر ذلك بالقول والعمل فأما الحالة الثالثة وهي التسوية بين المادح والذام فلسنا نطمع فيها ثم ان طالبنا أنفسنا بعلامة الحالة الثانية فانها لا تفي بها لانها لابد وأن تتسارع الى اكرام المادح وقضاء حاجاته وتتثاقل على اكرام الذام والثناء عليه وقضاء حوائجه ولا نقدر على أن نسوي بينهما في الفعل الظاهر كما لا نقدر عليه في سريرة القلب ومن قدر على التسوية بين المادح والذام في ظاهر الفعل فهو جدير بأن يتخذ قدوة في هذا الزمان ان وجد فانه الكبريت الاحمر يتحدث الناس به ولا يرى فكيف بما بعده من المرتبتين ولكل واحدة من هذه الرتب أيضا درجات أما الدرجات في المدح فهو أن من الناس من يتمنى المدحة والثناء وانتشار الصيت فيتوصل الى نيل ذلك بكل ما يمكن حتى يرائي بالعبادات ولا يبالي بمقارفة المحظورات لاستمالة قلوب الناس واستنطاق ألسنتهم بالمدح وهذا من الهالكين ومنهم من يريد ذلك ويطلبه بالمباحات ولا يطلبه بالعبادات ولا يباشر المحظورات وهذا على شفا جرف هار فان حدود الكلام الذي يستميل به القلوب وحدود الاعمال لا يمكنه أن يضبطها فيوشك أن يقع فيما لا يحل لنيل الحمد فهو قريب من الهالكين جدا ومنهم من لا يريد المدحة ولا يسعى لطلبها ولكن اذا مدح سبق السرور الى قلبه فان لم يقابل ذلك بالمجاهدة ولم يتكلف الكراهية فهو قريب من أن يستجره فرط السرور الى الرتبة التي قبلها وان جاهد نفسه في ذلك وكلف

دوام الصوم كرهوه لمكان أن النفس اذا ألفت الصوم وتعودته اشتد عليها الافطار وهكذا تعودها الافطار تكره الصوم فيرون الفضل في أن لا تركن النفس الى عادة ورأوا ان افطار يوم وصوم يوم أشد على النفس * ومن أدب الفقراء أن الواحد اذا كان بين جمع وفي صحبة جماعة لا يصوم الا باذنهم وانما كان ذلك لان قلوب الجمع متعلقة بفطوره وهم على غير معلوم فان صام باذن الجمع وفتح عليهم بشيء لا يلزمهم ادخاره للصائم مع العلم بأن الجمع المفطرين يحتاجون الى ذلك فان الله تعالى يأتي للصائم برزقه الا أن يكون الصائم يحتاج الى الرفق لضعف حاله أو ضعف بنيته لشيخوخة أو غير ذلك وهكذا الصائم لا يليق أن يأخذ نصيبه فيدخره لان ذلك من ضعف الحال فان

قلبه الكراهية وبغض السرور والميل بالتفكر في آفات المدح فهو في خطر المجاهدة فتارة تكون اليد له وتارة تكون عليه ومنهم من اذا سمع المدح لم يسر به ولم يغتم به ولم يؤثر فيه وهذا على خير وان كان قد بقي عليه بقية من الاخلاص ومنهم من يكره المدح اذا سمعه ولكن لا ينتهي به الى أن يغضب على المادح وينكر عليه وأقصى درجاته أن يكره ويغضب ويظهر الغضب وهو صادق فيه لا أن يظهر الغضب وقلبه محب له فان ذلك عين النفاق لانه يريد أن يظهر من نفسه الاخلاص والصدق وهو مفلس عنه وكذلك بالضد من هذا تتفاوت الاحوال في حق الذام وأول درجاته اظهار الغضب وآخرها اظهار الفرح ولا يكون الفرح واظهاره الا من في قلبه حنق وحقد على نفسه لتمردها عليه وكثرة عيوبها ومواعيدها الكاذبة وتلبيساتها الخبيثة فيبغضها بغض العدو والانسان يفرح بمن يذم عدوه وهذا شخص عدوه نفسه فيفرح اذا سمع ذمها ويشكر الذام على ذلك ويعتقد فطنته وذكاءه لما وقف على عيوبها فيكون ذلك كالتشفي له من نفسه ويكون غنيمة عنده اذ صار بالمذمة أوضع في أعين الناس حتى لا يبتلى بفتنة الناس واذا سيقت اليه حسنات لم ينصب فيها فعساها يكون خيرا لعيوبه التي هو عاجز عن اماطتها ولو جاهد المريد نفسه طول عمره في هذه الخصلة الواحدة وهو أن يستوي عنده ذامه ومادحه لكان له شغل شاغل فيه لا يتفرغ معه لغيره وبينه وبين السعادة عقبات كثيرة هذه احداها ولا يقطع شيأ منها الا بالمجاهدة الشديدة في العمر الطويل ﴿الشطر الثاني من الكتاب في طلب الجاه والمنزلة بالعبادات﴾ وهو الرياء وفيه بيان ذم الرياء وبيان حقيقة الرياء وما يرائي به وبيان درجات الرياء وبيان الرياء الخفي وبيان ما يحبط العمل من الرياء وما لا يحبط وبيان دواء الرياء وعلاجه وبيان الرخصة في اظهار الطاعات وبيان الرخصة في كتمان الذنوب وبيان ترك الطاعات خوفا من الرياء والآفات وبيان ما يصح من نشاط العبد للعبادات بسبب رؤية الخلق وبيان ما يجب على المريد أن يلزمه قلبه قبل الطاعة وبعدها وهي عشرة فصول وبالله التوفيق

﴿بيان ذم الرياء﴾

اعلم أن الرياء حرام والمرائي عند الله ممقوت وقد شهدت لذلك الآيات والاخبار والآثار * أما الآيات فقوله تعالى فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤن وقوله عز وجل والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور قال مجاهد هم أهل الرياء وقال تعالى انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا فمدح المخلصين بنفي كل ارادة سوى وجه الله والرياء ضده وقال تعالى فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا نزل ذلك فيمن يطلب الاجر والحمد بعباداته وأعماله * (وأما الاخبار) فقد قال صلى الله عليه وسلم حين سأله رجل فقال يا رسول الله فيم النجاة فقال أن لا يعمل العبد بطاعة الله يريد بها الناس وقال أبو هريرة في حديث الثلاثة المقتول في سبيل الله والمتصدق بماله والقارئ لكتاب الله كما أوردناه في كتاب الاخلاص وان الله عز وجل يقول لكل واحد منهم كذبت بل أردت ان يقال فلان جواد كذبت بل أردت أن يقال فلان شجاع كذبت بل أردت أن يقال فلان قارئ فأخبر صلى الله عليه وسلم انهم لم يثابوا وان رياءهم هو الذي أحبط أعمالهم وقال ابن عمر رضي الله عنهما قال النبي صلى الله عليه وسلم من راءى راءى الله به ومن سمع سمع الله به وفي حديث آخر طويل ان الله تعالى يقول للملائكة ان هذا لم يردني بعمله فاجعلوه في سجين وقال صلى الله عليه وسلم ان أخوف ما أخاف عليكم الشرك الاصغر قالوا وما الشرك الاصغر يا رسول الله قال الرياء يقول الله عز وجل يوم القيامة اذا جازى العباد بأعمالهم اذهبوا الى الذين كنتم تراؤن في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء وقال صلى الله عليه وسلم استعيذوا بالله عز وجل من جب الحزن قيل وما هو يا رسول الله قال واد في جهنم أعد للقراء المرائين وقال صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل من عمل عملا أشرك فيه غيري فهو له وأنا منه برئ وأنا أغنى الاغنياء عن الشرك وقال عيسى المسيح صلى الله عليه وسلم اذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن رأسه ولحيته ويمسح شفتيه لئلا يرى الناس أنه صائم واذا أعطى بيمينه فليخف عن شماله واذا صلى فليرخ ستر بابه فان الله يقسم الثناء كما يقسم الرزق وقال نبينا صلى الله عليه وسلم لا يقبل الله عز وجل عملا فيه مثقال ذرة من رياء وقال عمر لمعاذ بن جبل حين رآه يبكي ما يبكيك قال حديث سمعته من صاحب هذا القبر يعني النبي صلى

كان ضعيفا يعترف بحاله وضعفه فيدخره والذي ذكرناه لاقوام هم على غير معلوم فاما الصوفية المقيمون في رباط على معلوم فالاليق بحالهم الصيام ولا يلزمهم موافقة الجمع في الافطار وهذا يظهر في جمع منهم لهم معلوم يقدم لهم بالنهار فاما اذا كانوا على غير معلوم فقد قيل مساعدة الصوام للمفطرين أحسن من استدعاء الموافقة من المفطرين للصوام وأمر القوم مبناه على الصدق ومن الصدق افتقاد النية وأحوال النفس فكل ما صحت النية فيه من الصوم والافطار والموافقة وترك الموافقة فهو الافضل فاما من حيث السنة فمن يوافق له وجه اذا كان صائما وأفطر للموافقة وان صام ولم يوافق فله وجه * فاما وجه من يفطر ويوافق فهو ما أخبرنا به أبو زرعة طاهر عن

الله عليه وسلم يقول ان أدنى الرياء شرك وقال صلى الله عليه وسلم أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية وهي أيضا ترجع الى خطايا الرياء ودقائقه وقال صلى الله عليه وسلم ان في ظل العرش يوم لا ظل الا ظله رجلا تصدق بيمينه فكان يخفيها عن شماله ولذلك ورد ان فضل عمل السر على عمل الجهر بسبعين ضعفا وقال صلى الله عليه وسلم ان المرائي ينادى عليه يوم القيامة يا فاجر يا غادر يا مرائي ضل عملك وحبط أجرك اذهب فخذ أجرك ممن كنت تعمل له وقال شداد بن أوس رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يبكي فقلت ما يبكيك يا رسول الله قال اني تخوفت على أمتي الشرك أما انهم لا يعبدون صنما ولا شمسا ولا قمرا ولا حجرا ولكنهم يراؤن بأعمالهم وقال صلى الله عليه وسلم لما خلق الله الارض مادت بأهلها فخلق الجبال فصيرها أوتادا للارض فقالت الملائكة ما خلق ربنا خلقا هو أشد من الجبال فخلق الله الحديد فقطع الجبال ثم خلق النار فأذابت الحديد ثم أمر الله الماء باطفاء النار وأمر الريح فكدرت الماء فاختلفت الملائكة فقالت نسأل الله تعالى قالوا يارب ما أشد ما خلقت من خلقك قال الله تعالى لم أخلق خلقا هو أشد على من قلب ابن آدم حين يتصدق بصدقة بيمينه فيخفيها عن شماله فهذا أشد خلق خلقته وروى عبد الله بن المبارك باسناده عن رجل أنه قال لمعاذ بن جبل حدثني حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فبكى معاذ حتى ظننت أنه لا يسكت ثم سكت ثم قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قال لي يا معاذ قلت لبيك بأبي أنت وأمي يا رسول الله قال اني محدثك حديثا ان أنت حفظته نفعك وان أنت ضيعته ولم تحفظه انقطعت حجتك عند الله يوم القيامة يا معاذ ان الله تعالى خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السموات والارض ثم خلق السموات فجعل لكل سماء من السبعة ملكا بوابا عليها قد جللها عظما فتصعد الحفظة بعمل العبد من حين أصبح الى حين أمسى له نور كنور الشمس حتى اذا صعدت به الى السماء الدنيا زكته فكثرته فيقول الملك للحفظة اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه أنا صاحب الغيبة أمرني ربي أن لا أدع عمل من اغتاب الناس يجاوزني الى غيري قال ثم تأتي الحفظة بعمل صالح من أعمال العبد فتمر به فتزكيه وتكثره حتى تبلغ به الى السماء الثانية فيقول لهم الملك الموكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه انه أراد بعمله هذا عرض الدنيا أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني الى غيري انه كان يفتخر به على الناس في مجالسهم قال وتصعد الحفظة بعمل العبد يبتهج نورا من صدقة وصيام وصلاة قد أعجب الحفظة فيجاوزون به الى السماء الثالثة فيقول لهم الملك الموكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه أنا ملك الكبر أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني الى غيري انه كان يتكبر على الناس في مجالسهم قال وتصعد الحفظة بعمل العبد يزهر كما يزهر الكوكب الدري له دوي من تسبيح وصلاة وحج وعمرة حتى يجاوز به السماء الرابعة فيقول لهم الملك الموكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه اضربوا به ظهره وبطنه أنا صاحب العجب أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني الى غيري انه كان اذا عمل عملا أدخل العجب في عمله قال وتصعد الحفظة بعمل العبد حتى يجاوز به السماء الخامسة كأنه العروس المزفوفة الى أهلها فيقول لهم الملك الموكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه واحملوه على عاتقه أنا ملك الحسد انه كان يحسد الناس من يتعلم ويعمل بمثل عمله وكل من كان يأخذ فضلا من العبادة يحسدهم ويقع فيهم أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني الى غيري قال وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وحج وعمرة وصيام فيجاوزون به الى السماء السادسة فيقول لهم الملك الموكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه انه كان لا يرحم انسانا قط من عباد الله أصابه بلاء أو ضر أضر به بل كان يشمت به أنا ملك الرحمة أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني الى غيري قال وتصعد الحفظة بعمل العبد الى السماء السابعة من صوم وصلاة ونفقة وزكاة واجتهاد وورع له دوي كدوي الرعد وضوء كضوء الشمس معه ثلاثة آلاف ملك فيجاوزون به الى السماء السابعة فيقول لهم الملك الموكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه واضربوا به جوارحه اقفلوا به على قلبه اني أحجب عن ربي كل عمل لم يرد به وجه ربي انه أراد بعمله غير الله تعالى انه أراد به رفعة عند الفقهاء وذكرا عند العلماء وصيتا في المدائن أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني الى غيري وكل عمل لم يكن لله خالصا فهو رياء ولا يقبل الله عمل المرائي قال وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وصيام وحج وعمرة وخلق حسن وصمت وذكر لله تعالى وتشيعه ملائكة السموات حتى يقطعوا به

أبيه أبي الفضل الحافظ المقدسي قال أنا أبو الفضل محمد بن عبد الله قال أنا السيد أبو الحسن محمد بن الحسين العلوي قال أنا أبو بكر محمد بن حمدويه قال ثنا عبد الله بن حماد قال ثنا عبد الله بن صالح قال حدثني عطاء بن خالد عن حماد بن حميد عن محمد بن المنكدر عن أبي سعيد الخدري قال اصطنعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه طعاما فلما قدم اليهم قال رجل من القوم اني صائم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاكم أخوكم وتكلف لكم ثم تقول اني صائم أفطر واقض يوما مكانه * وأما وجه من لا يوافق فقد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أكلوا وبلال صائم فقال رسول الله نأكل رزقنا ورزق بلال في الجنة فاذا علم أن هنالك قلبا يتأذى أو

الحجب كلها الى الله عز و جل فيقفون بين يديه و يشهدون له بالعمل الصالح المخلص لله قال فيقول الله لهم أنتم الحفظة على عمل عبدى وأنا الرقيب على نفسه انه لم يردنى بهذا العمل وأراد به غيرى فعليه لعنتى فتقول الملائكة كلهم عليه لعنتك ولعنتنا وتقول السموات كلها عليه لعنة الله ولعنتنا وتلعنه السموات السبع والارض ومن فيهن قال معاذ قلت يارسول الله أنت رسول الله وأنا معاذ قال اقتدبى وان كان فى عملك نقص يامعاذ حافظ على لسانك من الوقيعة فى اخوانك من حملة القرآن واحمل ذنوبك عليك ولاتحملها عليهم ولاتزك نفسك بذمهم ولاترفع نفسك عليهم ولاتدخل عمل الدنيا فى عمل الآخرة ولاتتكبر فى مجلسك لكى يحذر الناس من سوء خلقك ولاتناج رجلا وعندك آخر ولاتتعظم على الناس فينقطع عنك خير الدنيا ولاتمزق الناس فتمزقك كلاب النار يوم القيامة فى النار قال تعالى والناشطات نشطا أتدرى من هن يامعاذ قلت ماهن بأبى أنت وأمى يارسول الله قال كلاب فى النار تنشط اللحم والعظم قلت بأبى أنت وأمى يارسول الله فمن يطيق هذه الخصال ومن ينجو منها قال يامعاذ انه ليسير على من يسره الله عليه قال فما رأيت أكثر تلاوة للقرآن من معاذ للحذر مما فى هذا الحديث (وأما الآثار) فيروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى رجلا يطأطئ رقبته فقال ياصاحب الرقبة ارفع رقبتك ليس الخشوع فى الرقاب انما الخشوع فى القلوب ورأى أبو أمامة الباهلى رجلا فى المسجد يبكى فى سجوده فقال أنت أنت لو كان هذا فى بيتك وقال على كرم الله وجهه للمرائى ثلاث علامات يكسل اذا كان وحده وينشط اذا كان فى الناس ويزيد فى العمل اذا أثنى عليه وينقص اذا ذم وقال رجل لعبادة بن الصامت أقاتل بسيفى فى سبيل الله أريد به وجه الله تعالى ومحمدة الناس قال لاشئ لك فسأله ثلاث مرات كل ذلك يقول لاشئ لك ثم قال فى الثالثة ان الله يقول أنا أغنى الاغنياء عن الشرك الحديث وسأل رجل سعيد بن المسيب فقال ان أحدنا يصطنع المعروف يحب أن يحمد و يؤجر فقال له أتحب أن تمقت قال لا قال فاذا عملت لله عملا فاخلصه وقال الضحاك لايقولن أحدكم هذا لوجه الله ولوجهك ولايقولن هذا لله وللرحم فان الله تعالى لاشريك له وضرب عمر رجلا بالدرة ثم قال له اقتص منى فقال لابل أدعها لله ولك فقال له عمر ماصنعت شيأ اما أن تدعها لى فاعرف ذلك أو تدعها لله وحده فقال ودعتها لله وحده فقال فنعم اذن وقال الحسن لقد صحبت أقواما ان كان أحدهم لتعرض له الحكمة لو نطق بها لنفعته ونفعت أصحابه ومايمنعه منها الا مخافة الشهرة وان كان أحدهم ليمر فيرى الاذى فى الطريق فما يمنعه أن ينحيه الا مخافة الشهرة و يقال ان المرائى ينادى يوم القيامة بأربعة أسماء يامرائى ياغادر ياخاسر يافاجر اذهب فخذ أجرك ممن عملت له فلا أجر لك عندنا وقال الفضيل بن عياض كانوا يراؤن بما يعملون وصاروا اليوم يراؤن بما لايعملون وقال عكرمة ان الله يعطى العبد على نيته مالايعطيه على عمله لان النية لارياء فيها وقال الحسن رضى الله عنه المرائى يريد أن يغلب قدر الله تعالى وهو رجل سوء يريد أن يقول الناس هو رجل صالح وكيف يقولون وقد حل من ربه محل الارديا فلابد لقلوب المؤمنين أن تعرفه وقال قتادة اذا راءى العبد يقول الله تعالى انظروا الى عبدى يستهزئ بى وقال مالك بن دينار القراء ثلاثة قراء الرحمن وقراء الدنيا وقراء الملوك وان محمد بن واسع من قراء الرحمن وقال الفضيل من أراد أن ينظر الى مراء فلينظر الى وقال محمد بن المبارك الصورى أظهر السمت بالليل فانه أشرف من سمتك بالنهار لان السمت بالنهار للمخلوقين وسمت الليل لرب العالمين وقال أبو سليمان التوقى عن العمل أشد من العمل وقال ابن المبارك ان كان الرجل ليطوف بالبيت وهو بخراسان فقيل له وكيف ذاك قال يحب أن يذكر أنه مجاور بمكة وقال ابراهيم بن أدهم ماصدق الله من أراد أن يشتهر

﴿ بيان حقيقة الرياء ومايراءى به ﴾

اعلم أن الرياء مشتق من الرؤية والسمعة مشتقة من السماع وانما الرياء أصله طلب المنزلة فى قلوب الناس بايرائهم خصال الخير الا أن الجاه والمنزلة تطلب فى القلب باعمال سوى العبادات وتطلب بالعبادات واسم الرياء مخصوص بحكم العادة بطلب المنزلة فى القلوب بالعبادات واظهارها فحد الرياء هو ارادة العباد بطاعة الله فالمرائى هو العابد والمرائى هو الناس المطلوب رؤيتهم بطلب المنزلة فى قلوبهم والمراءى به هو الخصال التى قصد المرائى اظهارها والرياء هو قصده اظهار ذلك والمراءى به كثير وتجمعه خمسة أقسام وهى مجامع مايتزين به العبد للناس وهو البدن والزى والقول والعمل والاتباع والاشياء الخارجة وكذلك أهل الدنيا يراؤن بهذه الاسباب الخمسة الا

فضلا يرجى من موافقة من يغتنم موافقته بفطر بحسن النية لا بحكم الطبع وتقاضيه فان لم يجد هذا المعنى لاينبغى أن يتلبس عليه الشره وداعية النفس بالنية فليتم صومه وقد تكون الاجابة لداعية النفس لالقضاء حق أخيه * ومن أحسن آداب الفقير الطالب انه اذا أفطر وتناول الطعام ربما يجد باطنه متغيرا عن هيئته ونفسه متثبطة عن أداء وظائف العبادة فيعالج مزاج القلب المتغير باذهاب التغير عنه ويذيب الطعام بركعات يصليها أو بآيات يتلوها أو باذكار واستغفار يأتى به فقد ورد فى الخبر أذيبوا طعامكم بالذكر * ومن مهام آداب الصوم كتمانه مهما أمكن الا أن يكون متمكنا من الاخلاص فلا يبالى ظهر أم بطن

أن طلب الجاه وقصد الرياء بأعمال ليست من جملة الطاعات أهون من الرياء بالطاعات ﴿القسم الاول الرياء في الدين بالبدن﴾ وذلك باظهار النحول والصفار ليوهم بذلك شدة الاجتهاد وعظم الحزن على أمر الدين وغلبة خوف الآخرة وليدل بالنحول على قلة الاكل و بالصفار على سهر الليل وكثرة الاجتهاد وعظم الحزن على الدين وكذلك يرائي بتشعيث الشعر ليدل به على استغراق الهم بالدين وعدم التفرغ لتسريح الشعر وهذه الاسباب مهما ظهرت استدل الناس بها على هذه الامور وفارتاحت النفس لمعرفتهم فلذلك تدعوه النفس الى اظهارها لنيل تلك الراحة ويقرب من هذا خفض الصوت واغارة العينين وذبول الشفتين ليستدل بذلك على أنه مواظب على الصوم وان وقار الشرع هو الذي خفض من صوته اوضعف الجوع هو الذي ضعف من قوته وعن هذا قال المسيح عليه السلام اذا صام أحدكم فليدهن رأسه ويرجل شعره ويكحل عينيه وكذلك روى عن أبي هريرة وذلك كله لما يخاف عليه من نزغ الشيطان بالرياء ولذلك قال ابن مسعود أصبحوا صياما مدهنين فهذه مرا آة أهل الدين بالبدن فاما أهل الدنيا فيراأون باظهار السمن وصفاء اللون واعتدال القامة وحسن الوجه ونظافة البدن وقوة الاعضاء وتناسبها ﴿الثاني الرياء بالهيئة والزي﴾ أما الهيئة فبتشعيث شعر الرأس وحلق الشارب واطراق الرأس في المشي والهدء في الحركة وابقاء أثر السجود على الوجه وغلظ الثياب ولبس الصوف وتشميرها الى قريب من الساق وتقصير الاكمام وترك تنظيف الثوب وتركه مخرقا كل ذلك يرائي به ليظهر من نفسه أنه متبع للسنة فيه ومقتد فيه بعباد الله الصالحين ومن ذلك لبس المرقعة والصلاة على السجادة ولبس الثياب الزرق تشبها بالصوفية مع الافلاس من حقائق التصوف في الباطن ومنه التقنع بالازار فوق العمامة واسبال الرداء على العينين ليرى به أنه قد انتهى تقشفه الى الحذر من غبار الطريق ولتنصرف اليه الاعين بسبب تميزه بتلك العلامة ومنه الدراعة والطيلسان يلبسه من هو خال عن العلم ليوهم انه من أهل العلم والمراأون بالزي على طبقات فمنهم من يطلب المنزلة عند أهل الصلاح باظهار الزهد فيلبس الثياب المخرقة الوسخة القصيرة الغليظة ليرائي بغلظها ووسخها وقصرها وتخرقها أنه غير مكترث بالدنيا ولو كلف ان يلبس ثوبا وسطا نظيفا مما كان السلف يلبسه لكان عنده بمنزلة الذبح وذلك لخوفه أن يقول الناس قد بدا له من الزهد ورجع عن تلك الطريقة ورغب في الدنيا وطبقة أخرى يطلبون القبول عند أهل الصلاح وعند أهل الدنيا من الملوك والوزراء والتجار ولو لبسوا الثياب الفاخرة ردهم القراء ولو لبسوا الثياب المخرقة البذلة ازدرتهم أعين الملوك والاغنياء فهم يريدون الجمع بين قبول أهل الدين والدنيا فلذلك يطلبون الاصواف الدقيقة والاكسية الرقيقة والمرقعات المصبوغة والفوط الرفيعة فيلبسونها ولعل قيمة ثوب أحدهم قيمة ثوب أحد الاغنياء ولونه وهيئته لون ثياب الصلحاء فيلتمسون القبول عند الفريقين وهؤلاء ان كلفوا لبس ثوب خشن أو وسخ لكان عندهم كالذبح خوفا من السقوط من أعين الملوك والاغنياء ولو كلفوا لبس الديبق والكتان الدقيق الابيض والمقصب المعلم وان كانت قيمته دون قيمة ثيابهم لعظم ذلك عليهم خوفا من أن يقول أهل الصلاح قد رغبوا في زي أهل الدنيا وكل طبقة منهم رأى منزلته في زي مخصوص فيثقل عليه الانتقال الى ما دونه أو الى ما فوقه وان كان مباحا خيفة من المذمة وأما أهل الدنيا فمرا آتهم بالثياب النفيسة والمراكب الرفيعة وأنواع التوسع والتجمل في الملبس والمسكن وأثاث البيت وفره الخيول و بالثياب المصبغة والطيالسة النفيسة وذلك ظاهر بين الناس فانهم يلبسون في بيوتهم الثياب الخشنة ويشتد عليهم لو برزوا للناس على تلك الهيئة مالم يبالغوا في الزينة ﴿الثالث الرياء بالقول﴾ ورياء أهل الدين بالوعظ والتذكير والنطق بالحكمة وحفظ الاخبار والآثار لاجل الاستعمال في المحاورة واظهار الغزارة العلم ودلالة على شدة العناية بأحوال السلف الصالحين وتحريك الشفتين بالذكر في محضر الناس والامر بالمعروف والنهي عن المنكر بمشهد الخلق واظهار الغضب للمنكرات واظهار الاسف على مقارفة الناس للمعاصي وتضعيف الصوت في الكلام وترقيق الصوت بقراءة القرآن ليدل بذلك على الخوف والحزن وادعاء حفظ الحديث ولقاء الشيوخ والدق على من يروى الحديث ببيان خلل في لفظه ليعرف انه بصير بالاحاديث والمبادرة الى أن الحديث صحيح أو غير صحيح لاظهار الفضل فيه والمجادلة على قصد افحام الخصم ليظهر للناس قوته في علم الدين والرياء بالقول

(الباب الثاني والاربعون في ذكر الطعام وما فيه من المصلحة والمفسدة) الصوفي بحسن نيته وصحة مقصده ووفور علمه واتيانه بآدابه تصير عاداته عبادة والصوفي موهوب وقته لله ويريد حياته لله كما قال الله تعالى لنبيه آمرا له قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين فتدخل على الصوفي أمور العادة لموضع حاجته وضرورة بشريته ويخف بعاداته نور يقظته وحسن نيته فتتنور العادات وتتشكل بالعبادات ولهذا ورد نوم العالم عبادة ونفسه تسبيح هذا مع كون النوم عين الغفلة ولكن كل ما يستعان به على العبادة يكون عبادة فتناول الطعام أصل كبير يحتاج الى علوم كثيرة لاشتماله على المصالح الدينية والدنيوية وتعلق أثره بالقلب والقالب وبه قوام البدن باجراء سنة

كثير وأنواعه لا تنحصر وأما أهل الدنيا فرا آتهم بالقول بحفظ الاشعار والامثال والتفاصح في العبارات وحفظ النحو الغريب للاغراب على أهل الفضل واظهار التودد الى الناس لاستمالة القلوب *(الرابع الرياء بالعمل) كمراآة المصلي بطول القيام ومد الظهر وطول السجود والركوع واطراق الرأس وترك الالتفات واظهار الهدء والسكون وتسوية القدمين واليدين وكذلك بالصوم والغزو والحج وبالصدقة وباطعام الطعام وبالاخبات في المشي عند اللقاء كارخاء الجفون وتنكيس الرأس والوقار في الكلام حتى ان المرائي قد يسرع في المشي الى حاجته فاذا اطلع عليه أحد من أهل الدين رجع الى الوقار واطراق الرأس خوفا من أن ينسبه الى العجلة وقلة الوقار فان غاب الرجل عاد الى عجلته فاذا رآه عاد الى خشوعه ولم يحضره ذكر الله حتى يكون يجدد الخشوع له بل هو لاطلاع انسان عليه يخشى أن لا يعتقد فيه أنه من العباد والصلحاء ومنهم من اذا سمع هذا استحيا من أن تخالف مشيته في الخلوة مشيته بمرأى الناس فيكلف نفسه المشية الحسنة في الخلوة حتى اذا رآه الناس لم يفتقر الى التغيير ويظن أنه يتخلص به عن الرياء وقد تضاعف رياؤه فانه صار في خلوته أيضا مرائيا فانه انما يحسن مشيته في الخلوة ليكون كذلك في الملا لا لخوف من الله وحياء منه وأما أهل الدنيا فرا آتهم بالتبختر والاختيال وتحريك اليدين وتقريب الخطا والاخذ باطراف الذيل وادارة العطفين ليدلوا بذلك على الجاه والحشمة *(الخامس المراآة بالاصحاب والزائرين والمخالطين)* كالذي يتكلف أن يستزير عالما من العلماء ليقال ان فلانا قد زار فلانا أو عابدا من العباد ليقال ان أهل الدين يتبركون بزيارته ويترددون اليه أو ملكا من الملوك أو عاملا من عمال السلطان ليقال انهم يتبركون به لعظم رتبته في الدين وكالذي يكثر ذكر الشيوخ ليرى انه لقي شيوخا كثيرة واستفاد منهم فيباهي بشيوخه ومباهاته ومراآته تترشح منه عند مخاصمته فيقول لغيره ومن لقيت من الشيوخ وأنا قد لقيت فلانا وفلانا ودرت البلاد وخدمت الشيوخ وما يجري مجراه فهذه مجامع ما يرائي به المراؤن وكلهم يطلبون بذلك الجاه والمنزلة في قلوب العباد ومنهم من يقنع بحسن الاعتقادات فيه فكم من راهب انزوى الى ديره سنين كثيرة وكم من عابد اعتزل الى قلة جبل مدة مديدة وانما خبأته من حيث علمه بقيام جاهه في قلوب الخلق ولو عرف أنهم نسبوه الى جريمة في ديره أو صومعته لتشوش قلبه ولم يقنع بعلم الله ببراءة ساحته بل يشتد لذلك غمه ويسعى بكل حيلة في ازالة ذلك من قلوبهم مع انه قد قطع طمعه من أموالهم ولكنه يحب مجرد الجاه فانه لذيذ كما ذكرناه في أسبابه فانه نوع قدرة وكمال في الحال وان كان سريع الزوال لا يغتر به الا الجهال ولكن أكثر الناس جهال ومن المرائين من لا يقنع بقيام منزلته بل يلتمس مع ذلك اطلاق اللسان بالثناء والحمد ومنهم من يريد انتشار الصيت في البلاد لتكثر الرحلة اليه ومنهم من يريد الاشتهار عند الملوك لتقبل شفاعته وتنجز الحوائج على يده فيقوم له بذلك جاه عند العامة ومنهم من يقصد التوصل بذلك الى جمع حطام وكسب مال ولو من الاوقاف وأموال اليتامى وغير ذلك من الحرام وهؤلاء شر طبقات المرائين الذين يراؤن بالاسباب التي ذكرناها فهذه حقيقة الرياء وما به يقع الرياء فان قلت فالرياء حرام أو مكروه أو مباح أو فيه تفصيل فاقول فيه تفصيل فان الرياء هو طلب الجاه وهو اما أن يكون بالعبادات أو بغير العبادات فان كان بغير العبادات فهو كطلب المال فلا يحرم من حيث انه طلب منزلة في قلوب العباد ولكن كما يمكن كسب المال بتلبيسات وأسباب محظورات فكذلك الجاه وكما أن كسب قليل من المال وهو ما يحتاج اليه الانسان محمود فكسب قليل من الجاه وهو ما يسلم به عن الآفات أيضا محمود وهو الذي طلبه يوسف عليه السلام حيث قال اني حفيظ عليم وكما أن المال فيه سم ناقع ودرياق نافع فكذلك الجاه وكما أن كثير المال يلهي ويطغي وينسي ذكر الله والدار الآخرة فكذلك كثير الجاه بل أشد وفتنة الجاه أعظم من فتنة المال وكما أنا لا نقول تملك المال الكثير حرام فلا نقول أيضا تملك القلوب الكثيرة حرام الا اذا حملته كثرة المال وكثرة الجاه على مباشرة ما لا يجوز نعم انصراف الهم الى سعة الجاه مبدأ الشرور كانصراف الهم الى كثرة المال ولا يقدر محب الجاه والمال على ترك معاصي القلب واللسان وغيرها وأما سعة الجاه من غير حرص منك على طلبه ومن غير اغتمام بزواله ان زال فلا ضرر فيه فلا جاه أوسع من جاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاه الخلفاء الراشدين ومن بعدهم من علماء الدين ولكن انصراف الهم الى طلب الجاه

الله تعالى بذلك والقالب مركب القلب وبهما عمارة الدنيا والآخرة (وقد ورد) أرض الجنة قيعان نباتها التسبيح والتقديس والقالب بعفر ردعلى طبيعة الحيوانات يستعان به على عمارة الدنيا والروح والقلب على طبيعة الملائكة يستعان بهما على عمارة الآخرة وباجتماعهما صلحا لعمارة الدارين والله تعالى ركب الآدمي بلطيف حكمته من أخص جواهر الجسمانيات والروحانيات وجعله مستودع خلاصة الارضين والسموات وجعل عالم الشهادة وما فيهما من النبات والحيوان لقوام بدن الآدمي قال الله تعالى خلق لكم ما في الارض جميعا فكون الطبائع وهي الحرارة والرطوبة والبرودة واليبوسة وكون بواسطتها النبات وجعل النبات قواما للحيوانات

نقصان فى الدين ولا يوصف بالتحريم فعلى هذا نقول تحسين الثوب الذى يلبسه الانسان عند الخروج الى الناس مراآة وهو ليس بحرام لانه ليس رياء بالعبادة بل بالدنيا وقس على هذا كل تجمل للناس وتزين لهم والدليل عليه ماروى عن عائشة رضى الله عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يخرج يوما الى الصحابة فكان ينظر فى حب الماء ويسوى عمامته وشعره فقالت أوتفعل ذلك يارسول الله قال نعم ان الله تعالى يحب من العبد أن يتزين لاخوانه اذا خرج اليهم نعم هذا كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم عبادة لانه كان مأمورا بدعوة الخلق وترغيبهم فى الاتباع واستمالة قلوبهم ولو سقط من أعينهم لم يرغبوا فى اتباعه فكان يجب عليه أن يظهر لهم محاسن أحواله لئلا تزدريه أعينهم فان أعين عوام الخلق تمتد الى الظواهر دون السرائر فكان ذلك قصد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن لو قصد قاصد به أن يحسن نفسه فى أعينهم حذرا من ذمهم ولومهم واسترواحا الى توقيرهم واحترامهم كان قد قصد أمرا مباحا اذ للانسان أن يحترز من ألم المذمة ويطلب راحة الانس بالاخوان ومهما استثقلوه واستقذروه لم يأنس بهم فاذا المراآة بما ليس من العبادات قد تكون مباحة وقد تكون طاعة وقد تكون مذمومة وذلك بحسب الغرض المطلوب بها ولذلك نقول الرجل اذا أنفق ماله على جماعة من الاغنياء لا فى معرض العبادة والصدقة ولكن ليعتقد الناس أنه سخى فهذا مراآة وليس بحرام وكذلك أمثاله أما العبادات كالصدقة والصلاة والصيام والغزو والحج فللمرائى فيه حالتان احداهما أن لا يكون له قصد الا الرياء المحض دون الاجر وهذا يبطل عبادته لان الاعمال بالنيات وهذا ليس بقصد العبادة ثم لا يقتصر على احباط عبادته حتى نقول صار كما كان قبل العبادة بل يعصى بذلك ويأثم كما دلت عليه الاخبار والآيات والمعنى فيه أمران أحدهما يتعلق بالعباد وهو التلبيس والمكر لانه خيل اليهم انه مخلص مطيع لله وانه من أهل الدين وليس كذلك والتلبيس فى أمر الدنيا حرام أيضا حتى لو قضى دين جماعة وخيل للناس أنه متبرع عليهم ليعتقدوا سخاوته أثم به لما فيه من التلبيس وتملك القلوب بالخداع والمكر * والثانى يتعلق بالله وهو انه مهما قصد بعبادة الله تعالى خلق الله فهو مستهزئ بالله ولذلك قال قتادة اذا راءى العبد قال الله لملائكته انظروا اليه كيف يستهزئ بى ومثاله أن يتمثل بين يدى ملك من الملوك طول النهار كما جرت عادة الخدم وانما وقوفه لملاحظة جارية من جوارى الملك أو غلام من غلمانه فان هذا استهزاء بالملك اذ لم يقصد التقرب الى الملك بخدمته بل قصد بذلك عبدا من عبيده فأى استحقار يزيد على أن يقصد العبد بطاعة الله تعالى مراآة عبد ضعيف لا يملك له ضرا ولا نفعا وهل ذلك الا لانه يظن ان ذلك العبد أقدر على تحصيل اغراضه من الله وانه أولى بالتقرب اليه من الله اذ آثره على ملك الملوك فجعله مقصود عبادته وأى استهزاء يزيد على رفع العبد فوق المولى فهذا من كبائر المهلكات ولهذا سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الشرك الاصغر نعم بعض درجات الرياء أشد من بعض كما سيأتى بيانه فى درجات الرياء ان شاء الله تعالى ولا يخلو شئ منه عن اثم غليظ أو خفيف بحسب ما به المراآة ولو لم يكن فى الرياء الا أنه يسجد ويركع لغير الله لكان فيه كفاية فانه وان لم يقصد التقرب الى الله فقد قصد غير الله ولعمرى لو عظم غير الله بالسجود لكفر كفرا جليا الا أن الرياء هو الكفر الخفى لان المرائى عظم فى قلبه الناس فاقتضت تلك العظمة أن يسجد ويركع فكان الناس هم المعظمون بالسجود من وجه ومهما زال قصد تعظيم الله بالسجود وبقى تعظيم الخلق كان ذلك قريبا من الشرك الا أنه ان قصد تعظيم نفسه فى قلب من عظم عنده باظهاره من نفسه صورة التعظيم لله فعن هذا كان شركا خفيا لا شركا جليا وذلك غاية الجهل ولا يقدم عليه الا من خدعه الشيطان وأوهم عنده أن العباد يملكون من ضره ونفعه ورزقه وأجله ومصالح حاله ومآله أكثر مما يملكه الله تعالى فلذلك عدل بوجهه عن الله اليهم وأقبل بقلبه عليهم ليستميل بذلك قلوبهم ولو وكله الله تعالى اليهم فى الدنيا والآخرة لكان ذلك أقل مكافأة له على صنيعه فان العباد كلهم عاجزون عن أنفسهم لا يملكون لانفسهم نفعا ولا ضرا فكيف يملكون لغيرهم هذا فى الدنيا فكيف فى يوم لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا بل تقول الانبياء فيه نفسى نفسى فكيف يستبدل الجاهل عن ثواب الآخرة ونيل القرب عند الله ما يرتقبه بطمعه الكاذب فى الدنيا من الناس فلا ينبغى أن نشك فى أن المرائى بطاعة الله فى سخط الله من حيث النقل والقياس جميعا هذا اذا لم يقصد الاجر فأما اذا قصد الاجر والحمد جميعا فى صدقته أو صلاته فهو

وجعل الحيوانات مسخرة للآدمى يستعين بها على أمر معاشه لقوام بدنه فالطعام يصل الى المعدة وفى المعدة طباع أربع وفى الطعام طباع أربع فاذا أراد الله اعتدال مزاج البدن أخذ كل طبع من طباع المعدة ضده من الطعام فأخذ الحرارة للبرودة والرطوبة لليبوسة فيعتدل المزاج ويأمن الاعوجاج واذا أراد الله تعالى افناء قالب وتخريب بنيته أخذت كل طبيعة جنسها من المأكول فتميل الطبائع ويضطرب المزاج ويسقم البدن ذلك تقدير العزيز العليم (وروى) عن وهب بن منبه قال وجدت فى التوراة صفة آدم عليه السلام انى خلقت آدم وركبت جسده من أربعة أشياء من رطب ويابس وبارد وسخن وذلك لانى خلقته من التراب وهو يابس ورطوبته من الماء

الشرك الذي يناقض الاخلاص وقد ذكرنا حكمه في كتاب الاخلاص ويدل على مانقلناه من الآثار قول سعيد ابن المسيب وعبادة بن الصامت أنه لا أجر له فيه أصلا

(بيان درجات الرياء)

اعلم أن بعض أبواب الرياء أشد وأغلظ من بعض واختلافه باختلاف أركانه وتفاوت الدرجات فيه وأركانه ثلاثة المراءى به والمراءى لأجله ونفس قصد الرياء *(الركن الاول)* نفس قصد الرياء وذلك لا يخلو اما أن يكون مجردا دون ارادة عبادة الله تعالى والثواب واما أن يكون مع ارادة الثواب فان كان كذلك فلا يخلو اما أن تكون ارادة الثواب أقوى وأغلب أو أضعف أو مساوية لارادة العبادة فتكون الدرجات أربعا * الاولى وهي أغلظها أن لا يكون مراده الثواب أصلا كالذي يصلي بين أظهر الناس ولو انفرد لكان لا يصلي بل ربما يصلي من غير طهارة مع الناس فهذا جرد قصده الى الرياء فهو الممقوت عند الله تعالى وكذلك من يخرج الصدقة خوفا من مذمة الناس وهو لا يقصد الثواب ولو خلا بنفسه لما أداها فهذه الدرجة العليا من الرياء * الثانية أن يكون له قصد الثواب أيضا ولكن قصدا ضعيفا بحيث لو كان في الخلوة لكان لا يفعله ولا يحمله ذلك القصد على العمل ولو لم يكن قصد الثواب لكان الرياء يحمله على العمل فهذا قريب مما قبله ومافيه من شائبة قصد ثواب لا يستقل بحمله على العمل لا ينفي عنه المقت والاثم * الثالثة أن يكون له قصد الثواب وقصد الرياء متساويين بحيث لو كان كل واحد منهما خاليا عن الآخر لم يبعثه على العمل فلما اجتمعا انبعثت الرغبة أو كان كل واحد منهما لو انفرد لاستقل بحمله على العمل فهذا قد أفسد مثل ما أصلح فنرجو أن يسلم رأسا برأس لا له ولا عليه أو يكون له من الثواب مثل ما عليه من العقاب وظواهر الاخبار تدل على انه لا يسلم وقد تكلمنا عليه في كتاب الاخلاص الرابعة أن يكون اطلاع الناس مرجحا ومقويا لنشاطه ولو لم يكن لكان لا يترك العبادة ولو كان قصد الرياء وحده لما أقدم عليه فالذي نظنه والعلم عند الله أنه لا يحبط أصل الثواب ولكنه ينقص منه أو يعاقب على مقدار قصد الرياء ويثاب على مقدار قصد الثواب وأما قوله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى أنا أغنى الاغنياء عن الشرك فهو محمول على ما اذا تساوى القصدان أو كان قصد الرياء أرجح *(الركن الثاني)* المراءى به وهو الطاعات وذلك ينقسم الى الرياء بأصول العبادات والى الرياء بأوصافها * القسم الاول وهو الاغلظ الرياء بالاصول وهو على ثلاث درجات * الاولى الرياء بأصل الايمان وهذا أغلظ أبواب الرياء وصاحبه مخلد في النار وهو الذي يظهر كلمتي الشهادة وباطنه مشحون بالتكذيب ولكنه يرائي بظاهر الاسلام وهو الذي ذكره الله تعالى في كتابه في مواضع شتى كقوله عز وجل اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون أي في دلالتهم بقولهم على ضمائرهم وقال تعالى ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على مافي قلبه وهو ألد الخصام واذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها الآية وقال تعالى واذا لقوكم قالوا آمنا واذا خلوا عضوا عليكم الانامل من الغيظ وقال تعالى يراؤن الناس ولا يذكرون الله الا قليلا مذبذبين بين ذلك والآيات فيهم كثيرة وكان النفاق يكثر في ابتداء الاسلام ممن يدخل في ظاهر الاسلام ابتداء لغرض وذلك مما يقل في زماننا ولكن يكثر نفاق من ينسل عن الدين باطنا فيجحد الجنة والنار والدار الآخرة ميلا الى قول الملحدة أو يعتقد طي بساط الشرع والاحكام ميلا الى أهل الاباحة أو يعتقد كفرا أو بدعة وهو يظهر خلافه فهؤلاء من المنافقين المرائين المخلدين في النار وليس وراء هذا رياء وحال هؤلاء أشد حالا من الكفار المجاهرين لانهم جمعوا بين كفر الباطن ونفاق الظاهر * الثانية الرياء بأصول العبادات مع التصديق بأصل الدين وهذا أيضا عظيم عند الله ولكنه دون الاول بكثير ومثاله أن يكون مال الرجل في يد غيره فيأمره باخراج الزكاة خوفا من ذمه والله يعلم منه أنه لو كان في يده لما أخرجها أو يدخل وقت الصلاة وهو في جمع وعادته ترك الصلاة في الخلوة وكذلك يصوم رمضان وهو يشتهي خلوة من الخلق ليفطر وكذلك يحضر الجمعة ولولا خوف المذمة لكان لا يحضرها أو يصل رحمه أو يبر والديه لا عن رغبة ولكن خوفا من الناس أو يغزو أو يحج كذلك فهذا مراء معه أصل الايمان بالله يعتقد انه لا معبود سواه ولو كلف أن يعبد غير الله أو يسجد لغيره لم يفعل ولكنه يترك العبادات للكسل وينشط عند اطلاع الناس فتكون منزلته عند الخلق أحب اليه من منزلته عند الخالق وخوفه من مذمة الناس أعظم من خوفه من عقاب الله ورغبته في محمدتهم

وحرارته من قبل النفس وبرودته من قبل الروح وخلقت في الجسد بعد هذا الخلق الاول أربعة أنواع من الخلق هن ملاك الجسم باذني وبهن قوامه فلا يقوم الجسم الابهن ولا تقوم منهن واحدة الا بأخرى منهن المرة السوداء والمرة الصفراء والدم والبلغم ثم أسكنت بعض هذا الخلق في بعض فجعلت مسكن اليبوسة في المرة السوداء ومسكن الرطوبة في المرة الصفراء ومسكن الحرارة في الدم ومسكن البرودة في البلغم فأيما جسد اعتدلت فيه هذه الفطر الاربع التي جعلتها ملاكه وقوامه فكانت كل واحدة منهن ربعا لا يزيد ولا ينقص كملت صحته واعتدلت بنيته فان زادت منهن واحدة عليهن هزمتهن ومالت بهن ودخل عليه السقم من ناحيتها بقدر غلبتها حتى يضعف عن طاقتهن

أشد من رغبته فى ثواب الله وهذا غاية الجهل وما أجدر صاحبه بالمقت وان كان غير منسل عن أصل الايمان من حيث الاعتقاد * الثالثة أن لا يرائى بالايمان ولا بالفرائض ولكنه يرائى بالنوافل والسنن التى لو تركها لا يعصى ولكنه يكسل عنها فى الخلوة لفتور رغبته فى ثوابها ولايثار لذة الكسل على ما يرجى من الثواب ثم يبعثه الرياء على فعلها وذلك كحضور الجماعة فى الصلاة وعيادة المريض واتباع الجنازة وغسل الميت وكالتهجد بالليل وصيام يوم عرفة وعاشوراء ويوم الاثنين والخميس فقد يفعل المرائى جملة ذلك خوفا من المذمة وطلبا للمحمدة و يعلم الله تعالى منه انه لو خلا بنفسه لما زاد على أداء الفرائض فهذا أيضا عظيم ولكنه دون ما قبله فان الذى قبله آثر حمد الخلق على حمد الخالق وهذا أيضا قد فعل ذلك واتقى ذم الخلق دون ذم الخالق فكان ذم الخلق أعظم عنده من عقاب الله وأما هذا فلم يفعل ذلك لانه لم يخف عقابا على ترك النافلة لو تركها وكأنه على الشطر من الاول وعقابه نصف عقابه فهذا هو الرياء بأصول العبادات * القسم الثانى الرياء بأوصاف العبادات لا بأصولها وهو أيضا على ثلاث درجات * الاولى أن يرائى بفعل ما فى تركه نقصان العبادة كالذى غرضه ان يخفف الركوع والسجود ولا يطول القراءة فاذا رآه الناس أحسن الركوع والسجود وترك الالتفات وتمم القعود بين السجدتين وقد قال ابن مسعود من فعل ذلك فهو استهانة يستهين بها ربه عز وجل أى انه ليس يبالى باطلاع الله عليه فى الخلوة فاذا اطلع عليه آدمى أحسن الصلاة ومن جلس بين يدى انسان متربعا أو متكئا فدخل غلامه فاستوى وأحسن الجلسة كان ذلك منه تقديما للغلام على السيد واستهانة بالسيد لا محالة وهذا حال المرائى بتحسين الصلاة فى الملا دون الخلوة وكذلك الذى يعتاد اخراج الزكاة من الدنانير الرديئة أو من الحب الردىء فاذا اطلع عليه غيره أخرجها من الجيد خوفا من مذمته وكذلك الصائم يصون صومه عن الغيبة والرفث لاجل الخلق لا لكمال العبادة الصوم خوفا من المذمة فهذا أيضا من الرياء المحظور لان فيه تقديما للمخلوقين على الخالق ولكنه دون الرياء بأصول التطوعات فان قال المرائى انما فعلت ذلك صيانة لالسنتهم عن الغيبة فانهم اذا رأوا تخفيف الركوع والسجود وكثرة الالتفات أطلقوا اللسان بالذم والغيبة وانما قصدت صيانتهم عن هذه المعصية فيقال له هذه مكيدة للشيطان عندك وتلبيس وليس الامر كذلك فان ضررك من نقصان صلاتك وهى خدمة منك لمولاك أعظم من ضررك بغيبة غيرك فلو كان باعثك الدين لكان شفقتك على نفسك أكثر وما أنت فى هذا الا كمن يهدى وصيفة الى ملك لينال منه فضلا و ولاية يتقلدها فيهديها اليه وهى عوراء قبيحة مقطوعة الاطراف ولا يبالى به اذا كان الملك وحده واذا كان عنده بعض غلمانه امتنع خوفا من مذمة غلمانه وذلك محال بل من يراعى جانب غلام الملك ينبغى أن تكون مراقبته للملك أكثر نعم للمرائى فيه حالتان احداهما أن يطلب بذلك المنزلة والمحمدة عند الناس وذلك حرام قطعا والثانية أن يقول ليس يحضرنى الاخلاص فى تحسين الركوع والسجود ولو خففت كانت صلاتى عند الله ناقصة وآذانى الناس بذمهم وغيبتهم فاستفيد بتحسين الهيئة دفع مذمتهم ولا أرجو عليه ثوابا فهو خير من ان أترك تحسين الصلاة فيفوت الثواب وتحصل المذمة فهذا فيه أدنى نظر والصحيح أن الواجب عليه أن يحسن و يخلص فان لم تحضره النية فينبغى أن يستمر على عادته فى الخلوة فليس له أن يدفع الذم بالمراآة بطاعة الله فان ذلك استهزاء كما سبق * الدرجة الثانية أن يرائى بفعل ما لا نقصان فى تركه ولكن فعله فى حكم التكملة والتتمة لعبادته كالتطويل فى الركوع والسجود ومد القيام وتحسين الهيئة و رفع اليدين والمبادرة الى التكبيرة الاولى وتحسين الاعتدال والزيادة فى القراءة على السورة المعتادة وكذلك كثرة الخلوة فى صوم رمضان وطول الصمت وكاختيار الاجود على الجيد فى الزكاة واعتاق الرقبة الغالية فى الكفارة وكل ذلك مما لو خلا بنفسه لكان لا يقدم عليه * الثالثة أن يرائى بزيادات خارجة عن نفس النوافل أيضا كحضوره الجماعة قبل القوم وقصده للصف الاول وتوجهه الى يمين الامام وما يجرى مجراه وكل ذلك مما يعلم الله منه أنه لو خلا بنفسه لكان لا يبالى أين وقف ومتى يحرم بالصلاة فهذه درجات الرياء بالاضافة الى ما يرائى به و بعضه أشد من بعض والكل مذموم * الركن الثالث * المراءى لاجله فان للمرائى مقصودا لا محالة وانما يرائى لادراك مال أو جاه أو غرض من الاغراض لا محالة وله أيضا ثلاث درجات * الاولى وهى أشدها وأعظمها أن يكون مقصوده التمكن من

و يعجز عن مقدار هن فأهم الامور فى الطعام أن يكون حلالا وكل ما لا يذمه الشرع حلال رخصة و رحمة من الله لعباده ولولا رخصة الشرع لكثر الامر وأتعب طلب الحلال * ومن أدب الصوفية رؤية المنعم على النعمة وأن يبتدئ بغسل اليد قبل الطعام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الوضوء قبل الطعام ينفى الفقر وانما كان موجبا لنفى الفقر لان غسل اليد قبل الطعام استقبال النعمة بالادب وذلك من شكر النعمة والشكر يستوجب الزيد فصار غسل اليد مستجلبا للنعمة مذهبا للفقر وقد روى أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من أحب أن يكثر خير بيته فليتوضأ اذا حضر غداؤه ثم يسمى الله تعالى فقوله تعالى ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه

معصية كالذى يرائى بعباداته و يظهر التقوى والورع بكثرة النوافل والامتناع عن أكل الشبهات وغرضه أن يعرف بالامانة فيولى القضاء أو الاوقاف أو الوصايا أو مال الايتام فيأخذها أو يسلم اليه تفرقة الزكاة أو الصدقات ليستأثر بما قدر عليه منها أو يودع الودائع فيأخذها و يجحدها أو تسلم اليه الاموال التى تنفق فى طريق الحج فيختزل بعضها أو كلها أو يتوصل بها الى استتباع الحجيج و يتوصل بقوتهم الى مقاصده الفاسدة فى المعاصى وقد يظهر بعضهم زى التصوف وهيئة الخشوع وكلام الحكمة على سبيل الوعظ والتذكير وانما قصده التحبب الى امرأة أو غلام لاجل الفجور وقد يحضرون مجالس العلم والتذكير وحلق القرآن يظهرون الرغبة فى سماع العلم والقرآن وغرضهم ملاحظة النساء والصبيان أو يخرج الى الحج ومقصوده الظفر بمن فى الرفقة من امرأة أو غلام وهؤلاء أبغض المرائين الى الله تعالى لانهم جعلوا طاعة ربهم سلما الى معصيته واتخذوها آلة ومتجرا و بضاعة لهم فى فسقهم و يقرب من هؤلاء وان كان دونهم من هو مقترف جريمة اتهم بها وهو مصر عليها و يريد أن ينفى التهمة عن نفسه فيظهر التقوى لنفى التهمة كالذى جحد وديعة واتهمه الناس بها فيتصدق بالمال ليقال انه يتصدق بمال نفسه فكيف يستحل مال غيره وكذلك من ينسب الى الفجور بامرأة أو غلام فيدفع التهمة عن نفسه بالخشوع واظهار التقوى الثانية أن يكون غرضه نيل حظ مباح من حظوظ الدنيا من مال أو نكاح امرأة جميلة أو شريفة كالذى يظهر الحزن والبكاء و يشتغل بالوعظ والتذكير لتبذل له الاموال و يرغب فى نكاحه النساء فيقصد اما امرأة بعينها لينكحها أو شريفة على الجملة وكالذى يرغب فى أن يتزوج بنت عالم عابد فيظهر له العلم والعبادة ليرغب فى تزويجه ابنته فهذا رياء محظور لانه طلب بطاعة الله متاع الحياة الدنيا ولكنه دون الاول فان المطلوب بهذا مباح فى نفسه * الثالثة أن لا يقصد نيل حظ وادراك مال أو نكاح ولكن يظهر عبادته خوفا من أن ينظر اليه بعين النقص ولا يعد من الخاصة والزهاد و يعتقد انه من جملة العامة كالذى يمشى مستعجلا فيطلع عليه الناس فيحسن المشى و يترك العجلة كيلا يقال انه من أهل اللهو والسهو لا من أهل الوقار وكذلك ان سبق الى الضحك أو بدا منه المزاح فيخاف أن ينظر اليه بعين الاحتقار فيتبع ذلك بالاستغفار وتنفس الصعداء واظهار الحزن و يقول ما أعظم غفلة الآدمى عن نفسه والله يعلم منه انه لو كان فى خلوة لما كان يثقل عليه ذلك وانما يخاف أن ينظر اليه بعين الاحتقار لا بعين التوقير وكالذى يرى جماعة يصلون التراويح أو يتهجدون أو يصومون الخميس والاثنين أو يتصدقون فيوافقهم خيفة أن ينسب الى الكسل و يلحق بالعوام ولو خلا بنفسه لكان لا يفعل شيأ من ذلك وكالذى يعطش يوم عرفة أو عاشوراء أو فى الاشهر الحرم فلا يشرب خوفا من أن يعلم الناس أنه غير صائم فاذا ظنوا به الصوم امتنع عن الاكل لاجله أو يدعى الى طعام فيمتنع ليظن انه صائم وقد لا يصرح بانى صائم ولكن يقول لى عذر وهو جمع بين خبيثين فانه يرى أنه صائم ثم يرى أنه مخلص ليس بمراء وانه يحترز من أن يذكر عبادته للناس فيكون مرائيا فيريد أن يقال انه ساتر لعبادته ثم ان اضطر الى شرب لم يصبر عن أن يذكر لنفسه فيه عذرا تصريحا أو تعريضا بأن يتعلل بمرض يقتضى فرط العطش و يمنع من الصوم أو يقول أفطرت تطييبا لقلب فلان ثم قد لا يذكر ذلك متصلا بشربه كى لا يظن به أنه يعتذر رياء ولكنه يصبر ثم يذكر عذره فى معرض حكاية عرضا مثل أن يقول ان فلانا محب للاخوان شديد الرغبة فى أن يأكل الانسان من طعامه وقد ألح على اليوم ولم أجد بدا من تطييب قلبه ومثل أن يقول ان أمى ضعيفة القلب مشفقة على تظن أنى لو صمت يوما مرضت فلا تدعنى أصوم فهذا وما يجرى مجراه من آفات الرياء فلا يسبق الى اللسان الا لرسوخ عرق الرياء فى الباطن أما المخلص فانه لا يبالى كيف نظر الخلق اليه فان لم يكن له رغبة فى الصوم وقد علم الله ذلك منه فلا يريد أن يعتقد غيره ما يخالف علم الله فيكون ملبسا وان كان له رغبة فى الصوم لله قنع بعلم الله تعالى ولم يشرك فيه غيره وقد يخطر له أن فى اظهاره اقتداء غيره به وتحريك رغبة الناس فيه وفيه مكيدة وغرور وسيأتى شرح ذلك وشروطه فهذه درجات الرياء ومراتب أصناف المرائين وجميعهم تحت مقت الله وغضبه وهو من أشد المهلكات وان من شدته أن فيه شوائب هى أخفى من دبيب النمل كما ورد به الخبر يزل فيه فحول العلماء فضلا عن العباد الجهلاء بآفات النفوس وغوائل القلوب والله أعلم

(بيان الرياء الخفى الذى هو أخفى من دبيب النمل)

تفسيره تسمية الله تعالى عند ذبح الحيوان واختلف الشافعى وأبو حنيفة رحمهما الله فى وجوب ذلك وفهم الصوفى من ذلك بعد القيام بظاهر التفسير أن لا يأكل الطعام الا مقرونا بالذكر فقرنه فريضة وقته وأدبه ويرى أن تناول الطعام والماء ينتج من اقامة النفس ومتابعة هواها ويرى ذكر الله تعالى دواءه وترياقه (روت) عائشة رضى الله عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل الطعام فى ستة نفر من أصحابه فجاء اعرابى فأكله بلقمتين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما انه لو كان يسمى الله لكفاكم فاذا أكل أحدكم طعاما فليقل بسم الله فان نسى أن يقول بسم الله فليقل بسم الله أوله وآخره ويستحب أن يقول فى أول لقمة بسم الله وفى الثانية بسم الله الرحمن وفى

اعلم ان الرياء جلي وخفي فالجلي هو الذي يبعث على العمل ويحمل عليه ولو قصد الثواب وهو أجلاه وأخفى منه قليلا هو ما لا يحمل على العمل بمجرده الا أنه يخفف العمل الذي يريد به وجه الله كالذي يعتاد التهجد كل ليلة ويثقل عليه فاذا نزل عنده ضيف تنشط له وخف عليه وعلم أنه لولا رجاء الثواب لكان لا يصلي لمجرد رياء الضيفان وأخفى من ذلك ما لا يؤثر في العمل ولا بالتسهيل والتخفيف أيضا ولكنه مع ذلك مستبطن في القلب ومهما لم يؤثر في الدعاء الى العمل لم يمكن أن يعرف الا بالعلامات وأجلى علاماته أن يسر باطلاع الناس على طاعته فرب عبد يخلص في عمله ولا يعتقد الرياء بل يكرهه ويرده ويتمم العمل كذلك ولكن اذا اطلع عليه الناس سره ذلك وارتاح له وروح ذلك عن قلبه شدة العبادة وهذا السرور يدل على رياء خفي منه يرشح السرور ولولا التفات القلب الى الناس لما ظهر سروره عند اطلاع الناس فلقد كان الرياء مستكنا في القلب استكنان النار في الحجر فاظهر منه اطلاع الخلق أثر الفرح والسرور ثم اذا استشعر لذة السرور بالاطلاع ولم يقابل ذلك بكراهية فيصير بذلك قوتا وغذاء للعرق الخفي من الرياء حتى يتحرك على نفسه حركة خفية فيتقاضى تقاضيا خفيا ان يتكلف سببا يطلع عليه بالتعريض والقاء الكلام عرضا وان كان لا يدعو الى التصريح وقد يخفى فلا يدعو الى الاظهار بالنطق تعريضا وتصريحا ولكن بالشمائل كاظهار النحول والصفار وخفض الصوت ويبس الشفتين وجفاف الريق وآثار الدموع وغلبة النعاس الدال على طول التهجد وأخفى من ذلك أن يختفي بحيث لا يريد الاطلاع ولا يسر بظهور طاعته ولكنه مع ذلك اذا رأى الناس أحب أن يبدؤه بالسلام وأن يقابلوه بالبشاشة والتوقير وأن يثنوا عليه وأن ينشطوا في قضاء حوائجه وأن يسامحوه في البيع والشراء وأن يوسعوا له في المكان فان قصر فيه مقصر ثقل ذلك على قلبه ووجد لذلك استبعادا في نفسه كانه يتقاضى الاحترام مع الطاعة التي أخفاها مع أنه لم يطلع عليه ولو لم يكن قد سبق منه تلك الطاعة لما كان يستبعد تقصير الناس في حقه ومهما لم يكن وجود العبادة كعدمها في كل ما يتعلق بالخلق لم يكن قد قنع بعلم الله ولم يكن خاليا عن شوب خفي من الرياء أخفى من دبيب النمل وكل ذلك يوشك أن يحبط الاجر ولا يسلم منه الا الصديقون وقد روي عن علي كرم الله وجهه أنه قال ان الله عز وجل يقول للقراء يوم القيامة ألم يكن يرخص عليكم السعر ألم تكونوا تبتدؤن بالسلام ألم تكونوا تقضى لكم الحوائج وفي الحديث الآخر لا أجر لكم قد استوفيتم أجوركم وقال عبد الله بن المبارك روي عن وهب بن منبه انه قال ان رجلا من السواح قال لاصحابه انا انما فارقنا الاموال والاولاد مخافة الطغيان فنخاف أن نكون قد دخل علينا في أمرنا هذا من الطغيان أكثر مما دخل على أهل الاموال في أموالهم ان أحدنا اذا لقي أحب أن يعظم لمكان دينه وان سأل حاجة أحب أن تقضى له لمكان دينه وان اشترى شيأ أحب أن يرخص عليه لمكان دينه فبلغ ذلك ملكهم فركب في موكب من الناس فاذا السهل والجبل قد امتلا بالناس فقال السائح ما هذا قيل هذا الملك قد أظلك فقال للغلام ائتني بطعام فأتاه ببقل وزيت وقلوب الشجر فجعل يحشو شدقه ويأكل أكلا عنيفا فقال الملك أين صاحبكم فقالوا هذا قال كيف أنت قال كالناس وفي حديث آخر بخير فقال الملك ما عند هذا من خير فانصرف عنه فقال السائح الحمد لله الذي صرفك عني وأنت لي ذام فلم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفي يجتهدون لذلك في مخادعة الناس عن أعمالهم الصالحة يحرصون على اخفائها أعظم مما يحرص الناس على اخفاء فواحشهم كل ذلك رجاء أن تخلص أعمالهم الصالحة فيجازيهم الله في القيامة باخلاصهم على ملا من الخلق اذ علموا ان الله لا يقبل في القيامة الا الخالص وعلموا شدة حاجتهم وفاقتهم في القيامة وانه يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ولا يجزي والد عن ولده ويشتغل الصديقون بأنفسهم فيقول كل واحد نفسي نفسي فضلا عن غيرهم فكانوا كزوار بيت الله اذا توجهوا الى مكة فانهم يستصحبون مع أنفسهم الذهب المغربي الخالص لعلمهم بأن أرباب البوادي لا يروج عندهم الزائف والنبهرج والحاجة تشتد في البادية ولا وطن يفزع اليه ولا حميم يتمسك به فلا ينجي الا الخالص من النقد فكذا يشاهد أرباب القلوب يوم القيامة والزاد الذي يتزودونه له من التقوى فاذا شوائب الرياء الخفي كثيرة لا تنحصر ومهما أدرك من نفسه تفرقة بين أن يطلع على عبادته انسان أو بهيمة ففيه شعبة من الرياء فانه لما قطع طمعه عن البهائم لم يبال حضره البهائم أو الصبيان الرضع أم غابوا اطلعوا على حركته

ام

الثالثة ثم يشرب الماء بثلاثة أنفاس يقول في أول نفس الحمد لله اذا شرب وفي الثانية الحمد لله رب العالمين وفي الثالثة الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم وكما ان المعدة طباعا تتقدر كما ذكرناه بموافقة طباع الطعام فللقلب أيضا مزاج وطباع لارباب التفقد والرعاية واليقظة يعرف انحراف مزاج القلب من اللقمة المتناولة تارة تحدث من اللقمة حرارة الطيش بالنهوض الى الفضول وتارة تحدث في القلب برودة الكسل بالتقاعد عن وظيفة الوقت وتارة تحدث رطوبة السهو والغفلة وتارة يبوسة الهم والحزن بسبب الحظوظ العاجلة فهذه كلها عوارض يتفطن لها المتيقظ ويرى تغيير القلب بهذه العوارض تغيير مزاج القلب عن الاعتدال والاعتدال كما هو مهم طلبه للقالب

أم لم يطلعوا فلو كان مخلصا فانما يعلم الله لاستحقر عقلاء العباد كما استحقر صبيانهم ومجانينهم وعلم أن العقلاء لا يقدرون له على رزق ولا أجل ولا زيادة ثواب ونقصان عقاب كما لا يقدر عليه البهائم والصبيان والمجانين فاذا لم يجد ذلك ففيه شوب خفي ولكن ليس كل شوب محبطا للاجر مفسدا للعمل بل فيه تفصيل فان قلت فما نرى أحدا ينفك عن السرور اذا عرفت طاعاته فالسرور مذموم كله أو بعضه محمود وبعضه مذموم فنقول أولا كل سرور فليس بمذموم بل السرور منقسم الى محمود والى مذموم فأما المحمود فأربعة أقسام الاول أن يكون قصده اخفاء الطاعة والاخلاص لله ولكن لما اطلع عليه الخلق علم أن الله أطلعهم وأظهر الجميل من أحواله فيستدل به على حسن صنع الله به ونظره اليه وألطافه به فانه يستر الطاعة والمعصية ثم الله يستر عليه المعصية ويظهر الطاعة ولا لطف أعظم من ستر القبيح واظهار الجميل فيكون فرحه بجميل نظر الله له لا بحمد الناس وقيام المنزلة في قلوبهم وقد قال تعالى قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا فكأنه ظهر له أنه عند الله مقبول ففرح به * الثاني أن يستدل باظهار الله الجميل وستره القبيح عليه في الدنيا أنه كذلك يفعله في الآخرة اذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ستر الله على عبد ذنبا في الدنيا الا ستره عليه في الآخرة فيكون الاول فرحا بالقبول في الحال من غير ملاحظة المستقبل وهذا التفات الى المستقبل * الثالث أن يظن رغبة المطلعين على الاقتداء به في الطاعة فيتضاعف بذلك أجره فيكون له أجر العلانية بما أظهر آخرا وأجر السر بما قصده أولا ومن اقتدى به في طاعة فله مثل أجر أعمال المقتدين به من غير أن ينقص من أجورهم شيء وتوقع ذلك جدير بأن يكون سبب السرور فان ظهور مخايل الربح لذيذ وموجب للسرور لا محالة * الرابع أن يحمده المطلعون على طاعته فيفرح بطاعتهم لله في مدحهم وبحبهم للمطيع وبميل قلوبهم الى الطاعة اذ من أهل الايمان من يرى أهل الطاعة فيمقته ويحسده أو يذمه ويهزأ به أو ينسبه الى الرياء ولا يحمده عليه فهذا فرح بحسن ايمان عباد الله وعلامة الاخلاص في هذا النوع أن يكون فرحه بحمدهم غيره مثل فرحه بحمدهم اياه * وأما المذموم وهو الخامس فهو أن يكون فرحه لقيام منزلته في قلوب الناس حتى يمدحوه ويعظموه ويقوموا بقضاء حوائجه ويقابلوه بالاكرام في مصادره وموارده فهذا مكروه والله تعالى أعلم

(بيان ما يحبط العمل من الرياء الخفي والجلي وما لا يحبط)

فنقول فيه اذا عقد العبد العبادة على الاخلاص ثم ورد عليه وارد الرياء فلا يخلو اما أن يرد عليه بعد فراغه من العمل أو قبل الفراغ فان ورد بعد الفراغ سرور مجرد بالظهور من غير اظهار فهذا لا يفسد العمل اذ العمل قد تم على نعت الاخلاص سالما عن الرياء فما يطرأ بعده فنرجو أن لا ينعطف عليه أثره لا سيما اذا لم يتكلف هو اظهاره والتحدث به ولم يتمن اظهاره وذكره ولكن اتفق ظهوره باظهار الله ولم يكن منه الا ما دخل من السرور والارتياح على قلبه نعم لو تم العمل على الاخلاص من غير عقد رياء ولكن ظهرت له بعده رغبة في الاظهار فتحدث به وأظهره فهذا مخوف وفي الآثار والاخبار ما يدل على أنه محبط فقد روي عن ابن مسعود أنه سمع رجلا يقول قرأت البارحة البقرة فقال ذلك حظه منها وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لرجل قال له صمت الدهر يا رسول الله فقال له ما صمت ولا أفطرت فقال بعضهم انما قال ذلك لانه أظهره وقيل هو اشارة الى كراهة صوم الدهر وكيفما كان فيحتمل أن يكون ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن ابن مسعود استدلالا على أن قلبه عند العبادة لم يخل عن عقد الرياء وقصده له لما أن ظهر منه التحدث به اذ يبعد أن يكون ما يطرأ بعد العمل مبطلا لثواب العمل بل الاقيس أن يقال انه مثاب على عمله الذي مضى ومعاقب على مراآته بطاعة الله بعد الفراغ منها بخلاف ما لو تغير عقده الى الرياء قبل الفراغ من الصلاة فان ذلك قد يبطل الصلاة ويحبط العمل وأما اذا ورد وارد الرياء قبل الفراغ من الصلاة مثلا وكان قد عقد على الاخلاص ولكن ورد في أثنائها وارد الرياء فلا يخلو اما أن يكون مجرد سرور لا يؤثر في العمل واما أن يكون رياء باعثا على العمل فان كان باعثا على العمل وختم العبادة به حبط أجره ومثاله أن يكون في تطوع فتجددت له نظارة أو حضر ملك من الملوك وهو يشتهي أن ينظر اليه أو يذكر شيأ نسيه من ماله وهو يريد أن يطلبه ولولا الناس لقطع الصلاة فاستتمها خوفا من مذمة الناس فقد حبط أجره وعليه الاعادة ان كان في فريضة وقد قال صلى الله عليه وسلم العمل كالوعاء اذا طاب آخره طاب أوله

فالقلب أهم وأولى وتطرق الانحراف الى القلب أسرع منه الى القالب ومن الانحراف ما يسقم به القلب فيموت لموت القالب واسم الله تعالى دواء نافع مجرب يقي الاسواء ويذهب الداء ويجلب الشفاء *حكي أن الشيخ محمدا الغزالي لما رجع الى طوس وصف له في بعض القرى عبد صالح فقصده زائرا فصادفه وهو في صحراء له يبذر الحنطة في الارض فلما رأى الشيخ محمدا جاء اليه وأقبل عليه فجاء رجل من أصحابه وطلب منه البذر لينوب عن الشيخ في ذلك وقت اشتغاله بالغزالي فامتنع ولم يعطه البذر فسأله الغزالي عن سبب امتناعه فقال لاني أبذر هذا البذر بقلب حاضر ولسان ذاكر أرجو البركة فيه لكل من يتناول منه شيأ فلا أحب أن أسلمه الى هذا فيبذره بلسان غير ذاكر وقلب

أى النظر الى خاتمته وروى أنه من راءى بعمله ساعة حبط عمله الذى كان قبله وهذا منزل على الصلاة فى هذه الصورة لا على الصدقة ولا على القراءة فان كل جزء من ذلك مفرد فما يطرأ يفسد الباقى دون الماضى والصوم والحج من قبيل الصلاة وأما اذا كان وارد الرياء بحيث لا يمنعه من قصد الاتمام لاجل الثواب كما لو حضر جماعة فى أثناء الصلاة ففرح بحضورهم وعقد الرياء وقصد تحسين الصلاة لاجل نظرهم وكان لولا حضورهم لكان يتمها أيضا فهذا رياء قد أثر فى العمل وانتهض باعثا على الحركات فان غلب حتى انمحق معه الاحساس بقصد العبادة والثواب وصار قصد العبادة مغمورا فهذا أيضا ينبغى أن يفسد العبادة مهما مضى ركن من أركانها على هذا الوجه لانا نكتفى بالنية السابقة عند الاحرام بشرط أن لا يطرأ عليها ما يغلبها و يغمرها و يحتمل أن يقال لا يفسد العبادة نظرا الى حالة العقد والى بقاء قصد أصل الثواب وان ضعف بهجوم قصد هو أغلب منه ولقد ذهب الحرث المحاسبى رحمه الله تعالى الى الاحباط فى أمر هو أهون من هذا وقال اذا لم يرد الا مجرد السرور باطلاع الناس يعنى سرورا هو كحب المنزلة والجاه قال قد اختلف الناس فى هذا فصارت فرقة الى أنه محبط لانه نقض العزم الاول وركن الى حمد المخلوقين ولم يختم عمله بالاخلاص وانما يتم العمل بخاتمته ثم قال ولا أقطع عليه بالحبط وان لم يتزيد فى العمل ولا آمن عليه وقد كنت أقف فيه لاختلاف الناس والاغلب على قلبى أنه يحبط اذا ختم عمله بالرياء ثم قال فان قيل قد قال الحسن رحمه الله تعالى انهما حالتان فاذا كانت الاولى لله لم تضره الثانية وقد روى أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله اسر العمل لا احب ان يطلع عليه فيطلع عليه فيسرنى قال لك أجران أجر السر وأجر العلانية ثم تكلم على الخبر والاثر فقال أما الحسن فانه أراد بقوله لا يضره أى لا يدع العمل ولا تضره الخطرة وهو يريد الله ولم يقل اذا عقد الرياء بعد عقد الاخلاص لم يضره وأما الحديث فتكلم عليه بكلام طويل يرجع حاصله الى ثلاثة أوجه * أحدها أنه يحتمل أنه أراد ظهور عمله بعد الفراغ وليس فى الحديث أنه قبل الفراغ * والثانى أنه أراد ان يسر به للاقتداء به أو لسرور آخر محمود مما ذكرناه قبل لا سرورا بسبب حب المحمدة والمنزلة بدليل أنه جعل له به أجرا ولا ذاهب من الامة الى أن للسرور بالمحمدة أجرا وغايته أن يعفى عنه فكيف يكون للمخلص أجر وللمرائى أجران * والثالث أنه قال أكثر من يروى الحديث يرويه غير متصل الى أبى هريرة بل أكثرهم يوقفه على أبى صالح ومنهم من يرفعه فالحكم بالعمومات الواردة فى الرياء أولى هذا ما ذكره ولم يقطع به بل أظهر ميلا الى الاحباط والاقيس عندنا أن هذا القدر اذا لم يظهر أثره فى العمل بل بقى العمل صادرا عن باعث الدين وانما انضاف اليه السرور بالاطلاع فلا يفسد العمل لانه لم ينعدم به أصل نيته و بقيت تلك النية باعثة على العمل وحاملة على الاتمام وأما الاخبار التى وردت فى الرياء فهى محمولة على ما اذا لم يرد به الا الخلق وأما ما ورد فى الشركة فهو محمول على ما اذا كان قصد الرياء مساويا لقصد الثواب أو أغلب منه أما اذا كان ضعيفا بالاضافة اليه فلا يحبط بالكلية ثواب الصدقة وسائر الاعمال ولا ينبغى أن يفسد الصلاة ولا يبعد أيضا أن يقال ان الذى أوجب عليه صلاة خالصة لوجه الله والخالص ما لا يشوبه شئ فلا يكون مؤديا للواجب مع هذا الشوب والعلم عند الله فيه وقد ذكرنا فى كتاب الاخلاص كلاما أوفى مما أوردناه الآن فليرجع اليه فهذا حكم الرياء الطارئ بعد عقد العبادة اما قبل الفراغ أو بعد الفراغ (القسم الثالث) الذى يقارن حال العقد بأن يبتدئ الصلاة على قصد الرياء فان استمر عليه حتى سلم فلا خلاف فى أنه يقضى ولا يعتد بصلاته وان ندم عليه فى أثناء ذلك واستغفر ورجع قبل التمام ففيما يلزمه ثلاثة أوجه قالت فرقة لم تنعقد صلاته مع قصد الرياء فليستأنف وقالت فرقة تلزمه اعادة الافعال كالركوع والسجود وتفسد أفعاله دون تحريمة الصلاة لان التحريم عقد والرياء خاطر فى قلبه لا يخرج التحريم عن كونه عقدا وقالت فرقة لا يلزمه اعادة شئ بل يستغفر الله بقلبه و يتم العبادة على الاخلاص والنظر الى خاتمة العبادة كما لو ابتدأ بالاخلاص وختم بالرياء لكان يفسد عمله وشبهوا ذلك بثوب أبيض لطخ بنجاسة عارضة فاذا أزيل العارض عاد الى الاصل فقالوا ان الصلاة والركوع والسجود لا تكون الا لله ولو سجد لغير الله لكان كافرا ولكن اقترن به عارض الرياء ثم زال بالندم والتوبة وصار الى حالة لا يبالى بحمد الناس وذمهم فتصح صلاته ومذهب الفريقين الآخرين خارج عن قياس الفقه جدا خصوصا من قال يلزمه اعادة الركوع

والسجود

غير حاضر (وكان) بعض الفقراء عند الاكل يشرع فى تلاوة سورة من القرآن يحضر الوقت بذلك حتى تنغمر أجزاء الطعام بأنوار الذكر ولا يعقب الطعام مكروه و يتغير مزاج القلب وقد كان شيخنا أبو النجيب السهروردى يقول أنا آكل وأنا أصلى يشير الى حضور القلب فى الطعام وربما كان يوقف من يمنع عنه الشواغل وقت أكله لئلا ينفرق همه وقت الاكل ويرى للذكر وحضور القلب فى الاكل أثرا كبيرا لا يسعه الاهمال له ومن الذكر عند الاكل الفكر فيما هيأ الله تعالى من الاسنان المعينة على الاكل فمنها الكاسرة ومنها القاطعة ومنها الطاحنة وما جعل الله تعالى من الماء الحلو فى الفم حتى لا يتغير الذوق كما جعل

والسجود دون الافتتاح لان الركوع والسجود ان لم يصح صارت أفعالا زائدة في الصلاة فتفسد الصلاة وكذلك قول من يقول لو ختم بالاخلاص صح نظرا الى الآخر فهو أيضا ضعيف لان الرياء يقدح في النية وأولى الاوقات بمراعاة أحكام النية حالة الافتتاح فالذي يستقيم على قياس الفقه هو ان يقال ان كان باعثه مجرد الرياء في ابتداء العقد دون طلب الثواب وامتثال الامر لم ينعقد افتتاحه ولم يصح ما بعده وذلك فيمن اذا خلا بنفسه لم يصل ولما رأى الناس تحرم بالصلاة وكان بحيث لو كان ثوبه نجسا أيضا كان يصلي لاجل الناس فهذه صلاة لا نية فيها اذ النية عبارة عن اجابة باعث الدين وههنا لا باعث ولا اجابة فاما اذا كان بحيث لولا الناس أيضا لكان يصلي الا أنه ظهر له الرغبة في المحمدة أيضا فاجتمع الباعثان فهذا اما أن يكون في صدقة وقراءة وما ليس فيه تحليل وتحريم أو في عقد صلاة وحج فان كان في صدقة فقد عصى باجابة باعث الرياء وأطاع باجابة باعث الثواب فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره فله ثواب بقدر قصده الصحيح وعقاب بقدر قصده الفاسد ولا يحبط أحدهما الآخر وان كان في صلاة تقبل الفساد بتطرق خلل الى النية فلا يخلو اما ان تكون فرضا أو نفلا فان كانت نفلا فحكمها أيضا حكم الصدقة فقد عصى من وجه وأطاع من وجه اذا اجتمع في قلبه الباعثان ولا يمكن أن يقال صلاته فاسدة والاقتداء به باطل حتى ان من صلى التراويح وتبين من قرائن حاله أن قصده الرياء باظهار حسن القراءة ولولا اجتماع الناس خلفه وخلا في بيت وحده لما صلى لا يصح الاقتداء به فان المصير الى هذا بعيد جدا بل يظن بالمسلم أنه يقصد الثواب أيضا بتطوعه فتصح باعتبار ذلك القصد صلاته ويصح الاقتداء به وان اقترن به قصد آخر هو به عاص فاما اذا كان في فرض واجتمع الباعثان وكان كل واحد لا يستقل وانما يحصل الانبعاث بمجموعهما فهذا لا يسقط الواجب عنه لان الايجاب لم ينتهض باعثا في حقه بمجرده واستقلاله وان كان كل باعث مستقلا حتى لو لم يكن باعث الرياء لادى الفرائض ولو لم يكن باعث الفرض لانشأ صلاة تطوعا لاجل الرياء فهذا محل النظر وهو محتمل جدا فيحتمل أن يقال ان الواجب صلاة خالصة لوجه الله ولم يؤد الواجب الخالص ويحتمل أن يقال الواجب امتثال الامر بباعث مستقل بنفسه وقد وجد فاقتران غيره به لا يمنع سقوط الفرض عنه كما لو صلى في دار مغصوبة فانه وان كان عاصيا بايقاع الصلاة في الدار المغصوبة فانه مطيع بأصل الصلاة ومسقط الفرض عن نفسه وتعارض الاحتمال في تعارض البواعث في أصل الصلاة أما اذا كان الرياء في المبادرة مثلا دون أصل الصلاة مثل من بادر الى الصلاة في أول الوقت لحضور جماعة ولو خلا لاخر الى وسط الوقت ولولا الفرض لكان لا يبتدئ صلاة لاجل الرياء فهذا مما يقطع بصحة صلاته وسقوط الفرض به لان باعث أصل الصلاة من حيث انها صلاة لم يعارضه غيره بل من حيث تعيين الوقت فهذا أبعد عن القدح في النية هذا في رياء يكون باعثا على العمل وحاملا عليه وأما مجرد السرور باطلاع الناس عليه اذا لم يبلغ أثره الى حيث يؤثر في العمل فبعيد أن يفسد الصلاة فهذا ما نراه لائقا بقانون الفقه والمسألة غامضة من حيث ان الفقهاء لم يتعرضوا لها في فن الفقه والذين خاضوا فيها وتصرفوا لم يلاحظوا قوانين الفقه ومقتضى فتاوى الفقهاء في صحة الصلاة وفسادها بل حملهم الحرص على تصفية القلوب وطلب الاخلاص على افساد العبادات بادنى الخواطر وما ذكرناه هو الاقصد فيما نراه والعلم عند الله عز وجل فيه وهو عالم الغيب والشهادة وهو الرحمن الرحيم

﴿بيان دواء الرياء وطريق معالجة القلب فيه﴾

قد عرفت مما سبق أن الرياء محبط للاعمال وسبب للمقت عند الله تعالى وانه من كبائر المهلكات وما هذا وصفه فجدير بالتشمير عن ساق الجد في ازالته ولو بالمجاهدة وتحمل المشاق فلا شفاء الا في شرب الادوية المرة البشعة وهذه مجاهدة يضطر اليها العباد كلهم اذ الصبي يخلق ضعيف العقل والتمييز ممتد العين الى الخلق كثير الطمع فيهم فيرى الناس يتصنع بعضهم لبعض فيغلب عليه حب التصنع بالضرورة ويرسخ ذلك في نفسه وانما يشعر بكونه مهلكا بعد كمال عقله وقد انغرس الرياء في قلبه وترسخ فيه فلا يقدر على قمعه الا بمجاهدة شديدة ومكابدة لقوة الشهوات فلا ينفك أحد عن الحاجة الى هذه المجاهدة ولكنها تشق أولا وتخف آخرا وفي علاجه مقامان أحدهما قلع عروقه وأصوله التي منها انشعابه والثاني دفع ما يخطر منه في الحال (المقام الاول) في قلع عروقه واستئصال

ماء العين مالحا لما كان شحما حتى لا يفسد وكيف جعل النداوة تنبع من أرجائها للسان والفم ليعين ذلك على المضغ والسوغ وكيف جعل القوة الهاضمة مسلطة على الطعام تفصله وتجزئه متعلقا مددها بالكبد والكبد بمثابة النار والمعدة بمثابة القدر وعلى قدر فساد الكبد تقل الهاضمة ويفسد الطعام ولا ينفصل ولا يصل الى كل عضو نصيبه وهكذا تأثير الاعضاء كلها من الكبد والطحال والكليتين ويطول شرح ذلك فمن أراد الاعتبار فليطالع تشريح الاعضاء ليرى العجب من قدرة الله تعالى من تعاضد الاعضاء وتعاونها وتعلق بعضها بالبعض في اصلاح الغذاء واستجذاب القوة منه للاعضاء وانقسامه الى الدم والثفل واللبن

أصوله وأصله حب المنزلة والجاه واذا فصل رجع الى ثلاثة أصول وهي لذة المحمدة والفرار من ألم الذم والطمع
فيما في أيدي الناس ويشهد للرياء بهذه الاسباب وانها الباعثة للمرائي ما روى أبو موسى أن أعرابيا سأل النبي
صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله الرجل يقاتل حمية ومعناه انه يأنف أن يقهر أو يذم بأنه مقهور ومغلوب وقال
والرجل يقاتل ليرى مكانه وهذا هو طلب لذة الجاه والقدر في القلوب والرجل يقاتل للذكر وهذا هو الحمد باللسان
فقال صلى الله عليه وسلم من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله وقال ابن مسعود اذا التقى الصفان
نزلت الملائكة فكتبوا الناس على مراتبهم فلان يقاتل للذكر وفلان يقاتل للملك والقتال للملك اشارة الى الطمع
في الدنيا وقال عمر رضي الله عنه يقولون فلان شهيد ولعله يكون قد ملأ دفتي راحلته ورقا وقال صلى الله عليه وسلم
من غزا لا يبغي الا عقالا فله ما نوى فهذا اشارة الى الطمع وقد لا يشتهي الحمد ولا يطمع فيه ولكن يحذر من ألم الذم
كالبخيل بين الاسخياء وهم يتصدقون بالمال الكثير فانه يتصدق بالقليل كي لا يبخل وهو ليس يطمع في
الحمد وقد سبقه غيره وكالجبان بين الشجعان لا يفر من الزحف خوفا من الذم وهو لا يطمع في الحمد وقد هجم
غيره على صف القتال ولكن اذا أيس من الحمد كره الذم وكالرجل بين قوم يصلون جميع الليل فيصلي ركعات
معدودة حتى لا يذم بالكسل وهو لا يطمع في الحمد وقد يقدر الانسان على الصبر عن لذة الحمد ولا يقدر على
الصبر على ألم الذم ولذلك قد يترك السؤال عن علم هو محتاج اليه خيفة من أن يذم بالجهل ويفتي بغير علم ويدعي
العلم بالحديث وهو به جاهل كل ذلك حذرا من الذم فهذه الامور الثلاثة هي التي تحرك المرائي الى الرياء
وعلاجه ما ذكرناه في الشطر الاول من الكتاب على الجملة ولكنا نذكر الآن ما يخص الرياء وليس يخفى
أن الانسان انما يقصد الشيء ويرغب فيه لظنه انه خير له ونافع ولذيذ اما في الحال واما في المآل فان علم أنه
لذيذ في الحال ولكنه ضار في المآل سهل عليه قطع الرغبة عنه كمن يعلم أن العسل لذيذ ولكن اذا بان له أن
فيه سما أعرض عنه فكذلك طريق قطع هذه الرغبة أن يعلم ما فيه من المضرة ومهما عرف العبد مضرة الرياء
وما يفوته من صلاح قلبه وما يحرم عنه في الحال من التوفيق وفي الآخرة من المنزلة عند الله وما يتعرض له من
العقاب العظيم والمقت الشديد والخزي الظاهر حيث ينادي على رؤس الخلائق يا فاجر يا غادر يا مرائي
أما استحييت اذ اشتريت بطاعة الله عرض الدنيا وراقبت قلوب العباد واستهزأت بطاعة الله وتحببت الى العباد
بالتبغض الى الله وتزينت لهم بالشين عند الله وتقربت اليهم بالبعد من الله وتحمدت اليهم بالتذمم عند الله
وطلبت رضاهم بالتعرض لسخط الله أما كان أحد أهون عليك من الله فمهما تفكر العبد في هذا الخزي وقابل
ما يحصل له من العباد والتزين لهم في الدنيا بما يفوته في الآخرة وبما يحبط عليه من ثواب الاعمال مع أن
العمل الواحد ربما كان يترجح به ميزان حسناته لو خلص فاذا فسد بالرياء حول الى كفة السيئات فترجح به
ويهوي الى النار فلو لم يكن في الرياء الا احباط عبادة واحدة لكان ذلك كافيا في معرفة ضرره وان كان مع ذلك
سائر حسناته راجحة فقد كان ينال بهذه الحسنة علو الرتبة عند الله في زمرة النبيين والصديقين وقد حط عنهم
بسبب الرياء ورد الى صف النعال من مراتب الاولياء هذا مع ما يتعرض له في الدنيا من تشتت الهم بسبب
ملاحظة قلوب الخلق فان رضا الناس غاية لا تدرك فكل ما يرضى به فريق يسخط به فريق ورضا بعضهم في
سخط بعضهم ومن طلب رضاهم في سخط الله سخط الله عليه وأسخطهم أيضا عليه ثم أي غرض له في مدحهم
وايثار ذم الله لاجل حمدهم ولا يزيده حمدهم رزقا ولا أجلا ولا ينفعه يوم فقره وفاقته وهو يوم القيامة وأما الطمع
فيما في أيديهم فبأن يعلم أن الله تعالى هو المسخر للقلوب بالمنع والاعطاء وأن الخلق مضطرون فيه ولا رازق الا الله
ومن طمع في الخلق لم يخل من الذل والخيبة وان وصل الى المراد لم يخل عن المنة والمهانة فكيف يترك ما عند الله
برجاء كاذب ووهم فاسد قد يصيب وقد يخطئ واذا أصاب فلا تفي لذته بألم منته ومذلته وأما ذمهم فلم يحذر منه ولا
يزيده ذمهم شيأ ما لم يكتبه عليه الله ولا يعجل أجله ولا يؤخر رزقه ولا يجعله من أهل النار ان كان من أهل الجنة
ولا يبغضه الى الله ان كان محمودا عند الله ولا يزيده مقتا ان كان ممقوتا عند الله فالعباد كلهم عجزة لا يملكون لانفسهم
ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا فاذا قرر في قلبه آفة هذه الاسباب وضررها فترت رغبته وأقبل
على الله قلبه فان العاقل لا يرغب فيما يكثر ضرره ويقل نفعه ويكفيه أن الناس لو علموا ما في باطنه من قصد الرياء

واظهار

لتغذية المولود من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين فتبارك الله أحسن الخالقين فالفكر في ذلك وقت الطعام وتعرف لطيف الحكم والقدرة فيه من الذكر ومما يذهب داء الطعام المغير لمزاج القلب أن يدعو في أول الطعام ويسأل الله تعالى أن يجعله عونا على الطاعة ويكون من دعائه اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وما رزقتنا مما نحب اجعله عونا لنا على ما تحب وما زويت عنا مما نحب اجعله فراغا لنا فيما تحب

(الباب الثالث والاربعون في آداب الاكل)

فمن ذلك أن يبتدئ بالملح ويختم به روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لعلي رضي الله عنه يا علي ابدأ طعامك بالملح واختم بالملح فان الملح شفاء من سبعين داء منها الجنون والجذام والبرص ووجع البطن

واظهار الاخلاص لمقتوه وسيكشف الله عن سره حتى يبغضه الى الناس و يعرفهم أنه مراء وممقوت عند الله ولو أخلص لله لكشف الله لهم اخلاصه وحببه اليهم وسخرهم له وأطلق ألسنتهم بالمدح والثناء عليه مع أنه لا كمال فى مدحهم ولا نقصان فى ذمهم كما قال شاعر من بنى تميم ان مدحى زين وان ذمى شين فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم كذبت ذاك الله الذى لا اله الا هو اذ لا زين الا فى مدحه ولا شين الا فى ذمه فأى خير لك فى مدح الناس وأنت عند الله مذموم ومن أهل النار وأى شر لك من ذم الناس وأنت عند الله محمود فى زمرة المقربين فمن أحضر فى قلبه الآخرة ونعيمها المؤبد والمنازل الرفيعة عند الله استحقر ما يتعلق بالخلق أيام الحياة مع ما فيه من الكدورات والمنغصات واجتمع همه وانصرف الى الله قلبه وتخلص من مذلة الرياء ومقاساة قلوب الخلق وانعطف من اخلاصه أنوار على قلبه ينشرح بها صدره وينفتح بها له من لطائف المكاشفات ما يزيد به أنسه بالله ووحشته من الخلق واستحقاره للدنيا واستعظامه للآخرة وسقط محل الخلق من قلبه وانحل عنه داعية الرياء وتذلل له منهج الاخلاص فهذا وما قدمناه فى الشطر الاول هى الادوية العلمية القالعة مغارس الرياء (وأما الدواء العملى) فهو أن يعود نفسه اخفاء العبادات واغلاق الابواب دونها كما تغلق الابواب دون الفواحش حتى يقنع قلبه بعلم الله واطلاعه على عباداته ولا تنازعه النفس الى طلب علم غير الله به وقد روى أن بعض أصحاب أبى حفص الحداد ذم الدنيا وأهلها فقال أظهرت ما كان سبيلك أن تخفيه لا تجالسنا بعد هذا فلم يرخص فى اظهار هذا القدر لان فى ضمن ذم الدنيا دعوى الزهد فيها فلا دواء للرياء مثل الاخفاء وذلك يشق فى بداية المجاهدة واذا صبر عليه مدة بالتكلف سقط عنه ثقله وهان عليه ذلك بتواصل ألطاف الله وما يمد به عباده من حسن التوفيق والتأييد والتسديد ولكن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم فمن العبد المجاهدة ومن الله الهداية ومن العبد قرع الباب ومن الله فتح الباب والله لا يضيع أجر المحسنين وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴿المقام الثانى﴾ فى دفع العارض منه فى أثناء العبادة وذلك لا بد من تعلمه أيضا فان من جاهد نفسه وقلع مغارس الرياء من قلبه بالقناعة وقطع الطمع واسقاط نفسه من أعين المخلوقين واستحقار مدح المخلوقين وذمهم فالشيطان لا يتركه فى أثناء العبادات بل يعارضه بخطرات الرياء ولا تنقطع عنه نزغاته وهوى النفس وميلها لا ينمحى بالكلية فلا بد وأن يتشمر لدفع ما يعرض من خاطر الرياء وخواطر الرياء ثلاثة قد تخطر دفعة واحدة كالخاطر الواحد وقد تترادف على التدريج فالاول العلم باطلاع الخلق ورجاء اطلاعهم ثم يتلوه هيجان الرغبة من النفس فى حمدهم وحصول المنزلة عندهم ثم يتلوه هيجان الرغبة فى قبول النفس له والركون اليه وعقد الضمير على تحقيقه فالاول معرفة والثانى حالة تسمى الشهوة والرغبة والثالث فعل يسمى العزم وتصميم العقد وانما كمال القوة فى دفع الخاطر الاول ورده قبل أن يتلوه الثانى فاذا خطر له معرفة اطلاع الخلق أو رجاء اطلاعهم دفع ذلك بأن قال مالك وللخلق علموا أو لم يعلموا والله عالم بحالك فأى فائدة فى علم غيره فان هاجت الرغبة الى لذة الحمد تذكر ما رسخ فى قلبه من قبل آفة الرياء وتعرضه للمقت عند الله فى القيامة وخيبته فى أحوج أوقاته الى أعماله فكما أن معرفة اطلاع الناس تثير شهوة ورغبة فى الرياء فمعرفة آفة الرياء تثير كراهة له تقابل تلك الشهوة اذ يتفكر فى تعرضه لمقت الله وعقابه الاليم والشهوة تدعوه الى القبول والكراهة تدعوه الى الاباء والنفس تطاوع لا محالة أقواهما وأغلبهما فاذا لا بد فى رد الرياء من ثلاثة أمور المعرفة والكراهة والاباء وقد يشرع العبد فى العبادة على عزم الاخلاص ثم يرد خاطر الرياء فيقبله ولا تحضره المعرفة ولا الكراهة التى كان الضمير منطويا عليها وانما سبب ذلك امتلاء القلب بخوف الذم وحب الحمد واستيلاء الحرص عليه بحيث لا يبقى فى القلب متسع لغيره فيعزب عن القلب المعرفة السابقة بآفات الرياء وشؤم عاقبته اذ لم يبق موضع فى القلب خال عن شهوة الحمد أو خوف الذم وهو كالذى يحدث نفسه بالحلم وذم الغضب ويعزم على التحلم عند جريان سبب الغضب ثم يجرى من الاسباب ما يشتد به غضبه فينسى سابقة عزمه ويمتلئ قلبه غيظا يمنع من تذكر آفة الغضب ويشغل قلبه عنه فكذلك حلاوة الشهوة تملأ القلب وتدفع نور المعرفة مثل مرارة الغضب واليه أشار جابر بقوله بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة على أن لا نفر ولم نبايعه على الموت فأنسيناها يوم حنين حتى نودى يا أصحاب الشجرة فرجعوا وذلك لان القلوب امتلأت بالخوف فنسيت

ووجع الاضراس وروت عائشة رضى الله عنها قالت لدغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ابهامه من رجله اليسرى لدغة فقال على بذلك الابيض الذى يكون فى العجين فجئنا بملح فوضعه فى كفه ثم لعق منه ثلاث لعقات ثم وضع بقيته على اللدغة فسكنت عنه ويستحب الاجتماع على الطعام وهو سنة الصوفية فى الربط وغيرها (روى جابر) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال من أحب الطعام الى الله تعالى ما كثرت عليه الايدى وروى أنه قيل يا رسول الله انا نأكل ولا نشبع قال لعلكم تفترقون على طعامكم اجتمعوا واذكروا اسم الله عليه يبارك لكم فيه ومن عادة الصوفية الاكل على السفر وهو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم (أخبرنا) الشيخ أبو زرعة عن المقومى

العهد السابق حتى ذكر واوأكثر الشهوات التى تهجم فجأة هكذا تكون اذ تنسى معرفة مضرته الداخلة فى عقد الايمان ومهما نسى المعرفة لم تظهر الكراهة فان الكراهة ثمرة المعرفة وقد يتذكر الانسان فيعلم أن الخاطر الذى خطر له هو خاطر الرياء الذى يعرضه لسخط الله ولكن يستمر عليه لشدة شهوته فيغلب هواه عقله ولا يقدر على ترك لذة الحال فيسوف بالتوبة أو يتشاغل عن التفكر فى ذلك لشدة الشهوة فكم من عالم يحضره كلام لا يدعوه الى فعله الا رياء الخلق وهو يعلم ذلك ولكنه يستمر فتكون الحجة عليه أوكد اذ قبل داعى الرياء مع علمه بغائلته وكونه مذموما عند الله ولا تنفعه معرفته اذا خلت المعرفة عن الكراهة وقد تحضر المعرفة والكراهة ولكن مع ذلك يقبل داعى الرياء ويعمل به لكون الكراهة ضعيفة بالاضافة الى قوة الشهوة وهذا أيضا لا ينتفع بكراهيته اذ الغرض من الكراهة أن تصرف عن الفعل فاذا لا فائدة الا فى اجتماع الثلاث وهى المعرفة والكراهة والاباء فالاباء ثمرة الكراهة والكراهة ثمرة المعرفة وقوة المعرفة بحسب قوة الايمان ونور العلم وضعف المعرفة بحسب الغفلة وحب الدنيا ونسيان الآخرة وقلة التفكر فيما عند الله وقلة التأمل فى آفات الحياة الدنيا وعظيم نعيم الآخرة وبعض ذلك ينتج بعضا ويثمره وأصل ذلك كله حب الدنيا وغلبة الشهوات فهو رأس كل خطيئة ومنبع كل ذنب لان حلاوة حب الجاه والمنزلة ونعيم الدنيا هى التى تغضب القلب وتسلبه وتحول بينه وبين التفكر فى العاقبة والاستضاءة بنور الكتاب والسنة وأنوار العلوم فان قلت فمن صادف من نفسه كراهة الرياء وحملته الكراهة على الاباء ولكنه مع ذلك غير خال عن ميل الطبع اليه وحبه له ومنازعته اياه الا أنه كاره لحبه ولميله اليه وغير مجيب اليه فهل يكون فى زمرة المرائين فاعلم أن الله لم يكلف العباد الا ما تطيق وليس فى طاقة العبد منع الشيطان عن نزغاته ولا قمع الطبع حتى لا يميل الى الشهوات ولا ينزع اليها وانما غايته أن يقابل شهوته بكراهة استثارها من معرفة العواقب وعلم الدين وأصول الايمان بالله واليوم الآخر فاذا فعل ذلك فهو الغاية فى أداء ما كلف به ويدل على ذلك من الاخبار ما روى أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم شكوا اليه وقالوا تعرض لقلوبنا أشياء لان نخر من السماء فتخطفنا الطير أو تهوى بنا الريح فى مكان سحيق أحب الينا من أن نتكلم بها فقال عليه السلام أوقد وجدتموه قالوا نعم قال ذلك صريح الايمان ولم يجدوا الا الوسواس والكراهة له ولا يمكن أن يقال أراد بصريح الايمان الوسوسة فلم يبق الا حمله على الكراهة المساوية للوسوسة والرياء وان كان عظيما فهو دون الوسوسة فى حق الله تعالى فاذا اندفع ضرر الاعظم بالكراهة فبأن يندفع بها ضرر الاصغر أولى وكذلك روى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث ابن عباس أنه قال الحمد لله الذى رد كيد الشيطان الى الوسوسة وقال أبو حازم ما كان من نفسك وكرهته نفسك لنفسك فلا يضرك ما هو من عدوك وما كان من نفسك فرضيته نفسك لنفسك فعاتبها عليه فاذا وسوسة الشيطان ومنازعة النفس لا تضرك مهما رددت مرادهما بالاباء والكراهة والخواطر التى هى العلوم والتذكرات والتخيلات للاسباب المهيجة للرياء هى من الشيطان والرغبة والميل بعد تلك الخواطر من النفس والكراهة من الايمان ومن آثار العقل الا أن للشيطان ههنا مكيدة وهى أنه اذا عجز عن حمله على قبول الرياء خيل اليه أن صلاح قلبه فى الاشتغال بمجادلة الشيطان ومطاولته فى الرد والجدال حتى يسلبه ثواب الاخلاص وحضور القلب لان الاشتغال بمجادلة الشيطان ومدافعته انصراف عن سر المناجاة مع الله فيوجب ذلك نقصانا فى منزلته عند الله * والمتخلصون عن الرياء فى دفع خواطر الرياء على أربع مراتب * الاولى أن يرده على الشيطان فيكذبه ولا يقتصر عليه بل يشتغل بمجادلته ويطيل الجدال معه لظنه ان ذلك اسلم لقلبه وهو على التحقيق نقصان لانه اشتغل عن مناجاة الله وعن الخير الذى هو بصدده وانصرف الى قتال قطاع الطريق والتعريج على قتال قطاع الطريق نقصان فى السلوك * الثانية أن يعرف أن الجدال والقتال نقصان فى السلوك فيقتصر على تكذيبه ودفعه ولا يشتغل بمجادلته * الثالثة أن لا يشتغل بتكذيبه أيضا لان ذلك وقفة وان قلت بل يكون قد قرر فى عقد ضميره كراهة الرياء وكذب الشيطان فيستمر على ما كان عليه مستصحبا للكراهة غير مشتغل بالتكذيب ولا بالمخاصمة * الرابعة أن يكون قد علم أن الشيطان سيحسده عند جريان أسباب الرياء فيكون قد عزم على أنه مهما نزغ الشيطان زاد فيما هو فيه من الاخلاص والاشتغال بالله واخفاء الصدقة

باسناده الى ابن ماجه الحافظ القزوينى قال أنا محمد بن المثنى قال ثنا معاذ بن هشام قال ثنا أبى عن يونس بن الفرات عن قتادة عن أنس بن مالك قال ما أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم على خوان ولا فى سكرجة قال فعلام كانوا يأكلون قال على السفر ويصغر اللقمة ويجود الاكل بالمضغ وينظر بين يديه ولا يطالع وجوه الآكلين ويقعد على رجله اليسرى وينصب اليمنى ويجلس جلسة التواضع غير متكئ ولا متعزز نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأكل الرجل متكئا (وروى) أنه أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم شاة فجثا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتيه يأكل فقال اعرابى ما هذه الجلسة يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله خلقنى عبدا ولم يجعلنى جبارا

والعبادة غيظا للشيطان وذلك هو الذي يغيظ الشيطان ويقمعه ويوجب يأسه وقنوطه حتى لا يرجع * يروى عن الفضيل بن عز وان أنه قيل له ان فلانا يذكرك فقال والله لاغيظن من أمره قيل ومن أمره قال الشيطان اللهم اغفر له أي لاغيظنه بأن أطيع الله فيه ومهما عرف الشيطان من عبده هذه العادة كف عنه خيفة من أن يزيد في حسناته * وقال ابراهيم التيمي ان الشيطان ليدعو العبد الى الباب من الاثم فلا يطيعه وليحدث عند ذلك خيرا فاذا رآه كذلك تركه وقال أيضا اذا رآك الشيطان مترددا طمع فيك واذا رآك مداوما ملك وقلاك وضرب الحرث المحاسبي رحمه الله لهذه الاربعة مثالا أحسن فيه فقال مثالهم كاربعة قصدوا مجلسا من العلم والحديث لينالوا به فائدة وفضلا وهداية ورشدا فحسدهم على ذلك ضال مبتدع وخاف أن يعرفوا الحق فتقدم الى واحد فنعه وصرفه عن ذلك ودعاه الى مجلس ضلال فابى فلما عرف اباءه شغله بالمجادلة فاشتغل معه ليرد ضلاله وهو يظن أن ذلك مصلحة له وهو غرض الضال ليفوت عليه بقدر تأخره فلما مر الثاني عليه نهاره واستوقفه فوقف فدفع في نحر الضال ولم يشتغل بالقتال واستعجل ففرح منه الضال بقدر توقفه للدفع فيه ومر به الثالث فلم يلتفت اليه ولم يشتغل بدفعه ولا بقتاله بل استمر على ما كان فخاب منه وجاوزه بالكلية فر الرابع فلم يتوقف له وأراد أن يغيظه فزاد في عجلته وترك التأني في المشي فيوشك ان عادوا ومروا عليه مرة أخرى أن يعاودوا الجميع الا هذا الاخير فانه لا يعاوده خيفة من أن يزداد فائدة باستعجاله فان قلت فاذا كان الشيطان لا تؤمن نزغاته فهل يجب الترصد له قبل حضوره والحذر منه انتظار الوروده أم يجب التوكل على الله ليكون هو الدافع له أو يجب الاشتغال بالعبادة والغفلة عنه قلنا اختلف الناس فيه على ثلاثة أوجه فذهبت فرقة من أهل البصرة الى أن الاقوياء قد استغنوا عن الحذر من الشيطان لانهم انقطعوا الى الله واشتغلوا بحبه فاعتزلهم الشيطان وأيس منهم وخنس عنهم كما أيس من ضعفاء العباد في الدعوة الى الخمر والزنا فصارت ملاذ الدنيا عندهم وان كانت مباحة كالخمر والخنزير فارتحلوا من حبها بالكلية فلم يبق للشيطان اليهم سبيل فلا حاجة بهم الى الحذر وذهبت فرقة من أهل الشام الى أن الترصد للحذر منه انما يحتاج اليه من قل يقينه ونقص توكله فمن أيقن بأن لا شريك لله في تدبيره فلا يحذر غيره ويعلم أن الشيطان ذليل مخلوق ليس له أمر ولا يكون الا ما أراده الله فهو الضار والنافع والعارف يستحي منه ان يحذر غيره فاليقين بالوحدانية يغنيه عن الحذر وقالت فرقة من أهل العلم لا بد من الحذر من الشيطان وماذكره البصريون من أن الاقوياء قد استغنوا عن الحذر وخلت قلوبهم عن حب الدنيا بالكلية فهو وسيلة الشيطان يكاد يكون غرورا اذ الانبياء عليهم السلام لم يتخلصوا من وسواس الشيطان ونزغاته فكيف يتخلص غيرهم وليس كل وسواس الشيطان من الشهوات وحب الدنيا بل في صفات الله تعالى وأسمائه وفي تحسين البدع والضلال وغير ذلك ولا ينجو أحد من الخطر فيه ولذلك قال تعالى وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته وقال النبي صلى الله عليه وسلم انه ليغان على قلبي مع أن شيطانه قد أسلم ولا يأمره الا بخير فمن ظن أن اشتغاله بحب الله أكثر من اشتغال رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر الانبياء عليهم السلام فهو مغرور ولم يؤمنهم ذلك من كيد الشيطان ولذلك لم يسلم منه آدم وحواء في الجنة التي هي دار الامن والسرور بعد أن قال الله لهما ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ان لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ومع انه لم ينههما الا عن شجرة واحدة وأطلق له وراء ذلك ما أراد فاذا لم يأمن نبي من الانبياء وهو في الجنة دار الامن والسعادة من كيد الشيطان فكيف يجوز لغيره أن يأمن في دار الدنيا وهي منبع المحن والفتن ومعدن الملاذ والشهوات المنهي عنها وقال موسى عليه السلام فيما أخبر عنه تعالى هذا من عمل الشيطان ولذلك حذر الله منه جميع الخلق فقال تعالى يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة وقال عز وجل انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم والقرآن من أوله الى آخره تحذير من الشيطان فكيف يدعي الامن منه وأخذ الحذر من حيث أمر الله به لا ينافي الاشتغال بحب الله فان من الحب له امتثال أمره وقد أمر بالحذر من العدو كما أمر بالحذر من الكفار فقال تعالى وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم وقال تعالى وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل فاذا لزمك بامر الله الحذر من العدو الكافر وأنت تراه فبأن يلزمك

عنيدا * ولا يبتدئ بالطعام حتى يبدأ المقدم أو الشيخ روى حذيفة قال كنا اذا حضرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم طعاما لم يضع أحد نا يده حتى يبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ويأكل باليمين روى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ليأكل أحدكم بيمينه وليشرب بيمينه وليأخذ بيمينه وليعط بيمينه فان الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله ويأخذ بشماله ويعطي بشماله وان كان المأكول تمرا أو ماله عجم لا يجمع من ذلك ما يرمى وما يؤكل على الطبق ولا في كفه بل يضع ذلك على ظهر كفه من فيه ويرميه ولا يأكل من ذروة الثريد روى عبد الله بن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا وضع الطعام فخذوا من حاشيته وذروا وسطه فان البركة

الحذر من عدو يراك ولا تراه أولى ولذلك قال ابن محيريز صيد تراه ولا يراك يوشك أن تظفر به وصيد يراك ولا تراه يوشك أن يظفر بك فأشار الى الشيطان فكيف وليس في الغفلة عن عداوة الكافر الاقتل هو شهادة وفي اهمال الحذر من الشيطان التعرض للنار والعقاب الاليم فليس من الاشتغال بالله الاعراض عما حذر الله وبه يبطل مذهب الفرقة الثانية في ظنهم أن ذلك قادح في التوكل فان أخذ الترس والسلاح وجمع الجنود وحفر الخندق لم يقدح في توكل رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يقدح في التوكل الخوف مما خوف الله به والحذر مما أمر بالحذر منه وقد ذكرنا في كتاب التوكل ما يبين غلط من زعم أن معنى التوكل النزوع عن الاسباب بالكلية وقوله تعالى وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل لا يناقض امتثال التوكل مهما اعتقد القلب أن الضار والنافع والمحيي والمميت هو الله تعالى فكذلك يحذر الشيطان ويعتقد أن الهادي والمضل هو الله ويرى الاسباب وسائط مسخرة كما ذكرناه في التوكل وهذا ما اختاره الحرث المحاسبي رحمه الله وهو الصحيح الذي يشهد له نور العلم وما قبله يشبه أن يكون من كلام العباد الذين لم يغزر علمهم ويظنون أن ما يهجم عليهم من الاحوال في بعض الاوقات من الاستغراق بالله يستمر على الدوام وهو بعيد ثم اختلفت هذه الفرقة على ثلاثة أوجه في كيفية الحذر فقال قوم اذا حذرنا الله تعالى العدو فلا ينبغي أن يكون شيء أغلب على قلوبنا من ذكره والحذر منه والترصد له فانا ان غفلنا عنه لحظة فيوشك أن يهلكنا وقال قوم ان ذلك يؤدي الى خلو القلب عن ذكر الله واشتغال الهم كله بالشيطان وذلك مراد الشيطان منا بل نشتغل بالعبادة وبذكر الله ولا ننسى الشيطان وعداوته والحاجة الى الحذر منه فنجمع بين الامرين فانا ان نسيناه ربما عرض من حيث لا نحتسب وان تجردنا لذكره كنا قد أهملنا ذكر الله فالجمع أولى وقال العلماء المحققون غلط الفريقان أما الاول فقد تجرد لذكر الشيطان ونسي ذكر الله فلا يخفى غلطه وانما أمرنا بالحذر من الشيطان كيلا يصدنا عن الذكر فكيف نجعل ذكره أغلب الاشياء على قلوبنا وهو منتهى ضرر العدو ثم يؤدي ذلك الى خلو القلب عن نور ذكر الله تعالى فاذا قصد الشيطان مثل هذا القلب وليس فيه نور ذكر الله تعالى وقوة الاشتغال به فيوشك أن يظفر به ولا يقوى على دفعه فلم يأمرنا بانتظار الشيطان ولا بادمان ذكره وأما الفرقة الثانية فقد شاركت الاولى اذ جمعت في القلب بين ذكر الله والشيطان وبقدر ما يشتغل القلب بذكر الشيطان ينقص من ذكر الله وقد أمر الله الخلق بذكره ونسيان ما عداه ابليس وغيره فالحق أن يلزم العبد قلبه الحذر من الشيطان ويقرر على نفسه عداوته فاذا اعتقد ذلك وصدق به وسكن الحذر فيه فيشتغل بذكر الله ويكب عليه بكل الهمة ولا يخطر بباله أمر الشيطان فانه اذا اشتغل بذلك بعد معرفة عداوته ثم خطر الشيطان له تنبه له وعند التنبه يشتغل بدفعه والاشتغال بذكر الله لا يمنع من التيقظ عند نزغة الشيطان بل الرجل ينام وهو خائف من أن يفوته مهم عند طلوع الصبح فيلزم نفسه الحذر وينام على أن يتنبه في ذلك الوقت فيتنبه في الليل مرات قبل أوانه لما أسكن في قلبه من الحذر مع أنه بالنوم غافل عنه فاشتغاله بذكر الله كيف يمنع تنبهه ومثل هذا القلب هو الذي يقوى على دفع العدو واذا كان اشتغاله بمجرد ذكر الله تعالى قد أمات منه الهوى وأحيا فيه نور العقل والعلم وأماط عنه ظلمة الشهوات فأهل البصيرة أشعروا قلوبهم عداوة الشيطان وترصده وألزموها الحذر ثم لم يشتغلوا بذكره بل بذكر الله ودفعوا بالذكر شر العدو واستضاؤا بنور الذكر حتى صرفوا خواطر العدو ومثال القلب مثال بئر أريد تطهيرها من الماء القذر ليتفجر منها الماء الصافي فالمشتغل بذكر الشيطان قد ترك فيها الماء القذر والذي جمع بين ذكر الشيطان وذكر الله قد نزح الماء القذر من جانب ولكنه تركه جاريا اليها من جانب آخر فيطول تعبه ولا يجف البئر من الماء القذر والبصير هو الذي جعل لمجرى الماء القذر سدا وملأها بالماء الصافي فاذا جاء الماء القذر دفعه بالسكر والسد من غير كلفة ومؤنة وزيادة تعب

﴿ بيان الرخصة في قصد اظهار الطاعات ﴾

اعلم أن في الاسرار للاعمال فائدة الاخلاص والنجاة من الرياء وفي الاظهار فائدة الاقتداء وترغيب الناس في الخير ولكن فيه آفة الرياء قال الحسن قد علم المسلمون ان السر أحرز العملين ولكن في الاظهار أيضا فائدة ولذلك أثنى الله تعالى على السر والعلانية فقال ان تبدوا الصدقات فنعما هي وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو

تنزل في وسطه * ولا يعيب الطعام روى أبو هريرة رضي الله عنه قال ما عاب رسول الله صلى الله عليه وسلم طعاما قط ان اشتهاه أكله والا تركه واذا سقطت اللقمة يأكلها فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا سقطت لقمة أحدكم فليمط عنها الاذى وليأكلها ولا يدعها للشيطان ويلعق أصابعه فقد روى جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا أكل أحدكم الطعام فليمتص أصابعه فانه لا يدري في أي طعامه تكون البركة وهكذا أمر عليه السلام باسلات القصعة وهو مسحها من الطعام قال أنس رضي الله عنه أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم باسلات القصعة ولا ينفخ في الطعام فقد روت عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال النفخ في الطعام

خير لكم والاظهار قسمان أحدهما فى نفس العمل والآخر بالتحدث بما عمل *(القسم الاول)* اظهار نفس العمل كالصدقة فى الملا لترغيب الناس فيها كما روى عن الانصارى الذى جاء بالصرة فتتابع الناس بالعطية لما رأوه فقال النبى صلى الله عليه وسلم من سن سنة حسنة فعمل بها كان له أجرها وأجر من اتبعه وتجرى سائر الاعمال هذا المجرى من الصلاة والصيام والحج والغزو وغيرها ولكن الاقتداء فى الصدقة على الطباع أغلب نعم الغازى اذا هم بالخروج فاستعد وشد الرحل قبل القوم تحريضا لهم على الحركة فذلك أفضل له لان الغزو فى أصله من أعمال العلانية لا يمكن اسراره فالمبادرة اليه ليست من الاعلان بل هو تحريض مجرد وكذلك الرجل قد يرفع صوته فى الصلاة بالليل لينبه جيرانه وأهله فيقتدى به فكل عمل لا يمكن اسراره كالحج والجهاد والجمعة فالافضل المبادرة اليه واظهار الرغبة فيه للتحريض بشرط أن لا يكون فيه شوائب الرياء وأما ما يمكن اسراره كالصدقة والصلاة فان كان اظهار الصدقة يؤذى المتصدق عليه ويرغب الناس فى الصدقة فالسر أفضل لان الايذاء حرام فان لم يكن فيه ايذاء فقد اختلف الناس فى الافضل فقال قوم السر أفضل من العلانية وان كان فى العلانية قدوة وقال قوم السر أفضل من علانية لا قدوة فيها أما العلانية للقدوة فأفضل من السر ويدل على ذلك أن الله عز وجل أمر الانبياء باظهار العمل للاقتداء وخصهم بمنصب النبوة ولا يجوز أن يظن بهم أنهم حرموا أفضل العملين ويدل عليه قوله عليه السلام له أجرها وأجر من عمل بها وقد روى فى الحديث أن عمل السر يضاعف على عمل العلانية سبعين ضعفا ويضاعف عمل العلانية اذا استن بعامله على عمل السر سبعين ضعفا وهذا الاوجه للخلاف فيه فانه مهما انفك القلب عن شوائب الرياء وتم الاخلاص على وجه واحد فى الحالتين فما يقتدى به أفضل لا محالة وانما يخاف من ظهور الرياء ومهما حصلت شائبة الرياء لم ينفعه اقتداء غيره وهلك به فلا خلاف فى أن السر أفضل منه ولكن على من يظهر العمل وظيفتان احداهما أن يظهره حيث يعلم أنه يقتدى به أو يظن ذلك ظنا ورب رجل يقتدى به أهله دون جيرانه وربما يقتدى به جيرانه دون أهل السوق وربما يقتدى به أهل محلته وانما العالم المعروف هو الذى يقتدى به الناس كافة فغير العالم اذا أظهر بعض الطاعات ربما نسب الى الرياء والنفاق وذموه ولم يقتدوا به فليس له الاظهار من غير فائدة وانما يصح الاظهار بنية القدوة ممن هو فى محل القدوة على من هو فى محل الاقتداء به والثانية أن يراقب قلبه فانه ربما يكون فيه حب الرياء الخفى فيدعوه الى الاظهار بعذر الاقتداء وانما شهوته التجمل بالعمل وبكونه يقتدى به وهذا حال كل من يظهر أعماله الا الاقوياء المخلصين وقليل ما هم فلا ينبغى أن يخدع الضعيف نفسه بذلك فيهلك وهو لا يشعر فان الضعيف مثاله مثال الغريق الذى يحسن سباحة ضعيفة فنظر الى جماعة من الغرقى فرحمهم فأقبل عليهم حتى تشبثوا به فهلكوا وهلك والغرق بالماء فى الدنيا ألمه ساعة وليت كان الهلاك بالرياء مثله لا بل عذابه دائم مدة مديدة وهذه مزلة أقدام العباد والعلماء فانهم يتشبهون بالاقوياء فى الاظهار ولا تقوى قلوبهم على الاخلاص فتحبط أجورهم بالرياء والتفطن لذلك غامض ومحك ذلك أن يعرض على نفسه أنه لو قيل له أخف العمل حتى يقتدى الناس بعابد آخر من أقرانك ويكون لك فى السر مثل أجر الاعلام فان مال قلبه الى أن يكون هو المقتدى به وهو المظهر للعمل فباعثه الرياء دون طلب الاجر واقتداء الناس به ورغبتهم فى الخير فانهم قد رغبوا فى الخير بالنظر الى غيره وأجره قد توفر عليه مع اسراره فما بال قلبه يميل الى الاظهار لولا ملاحظته لاعين الخلق ومراآتهم فليحذر العبد خدع النفس فان النفس خدوع والشيطان مترصد وحب الجاه على القلب غالب وقلما تسلم الاعمال الظاهرة عن الآفات فلا ينبغى أن يعدل بالسلامة شيأ والسلامة فى الاخفاء وفى الاظهار من الاخطار ما لا يقوى عليه أمثالنا فالحذر من الاظهار أولى بنا وبجميع الضعفاء *(القسم الثانى)* أن يتحدث بما فعله بعد الفراغ وحكمه حكم اظهار العمل نفسه والخطر فى هذا أشد لان مؤنة النطق خفيفة على اللسان وقد تجرى فى الحكايات زيادة ومبالغة وللنفس لذة فى اظهار الدعاوى عظيمة الا أنه لو تطرق اليه الرياء لم يؤثر فى افساد العبادة الماضية بعد الفراغ منها فهو من هذا الوجه أهون والحكم فيه أن من قوى قلبه وتم اخلاصه وصغر نفسه فى عينه واستوى عنده مدحهم وذمهم وذكر ذلك عند من يرجو الاقتداء به والرغبة فى الخير بسببه فهو جائز بل هو مندوب اليه

يذهب بالبركة وروى عبد الله بن عباس أنه قال لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفخ فى طعام ولا فى شراب ولا يتنفس فى الاناء فليس من الادب ذلك والخل والبقل على السفرة من السنة قيل ان الملائكة تحضر المائدة اذا كان عليها بقل وروت أم سعد رضى الله عنها قالت دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على عائشة رضى الله عنها وأنا عندها فقال هل من غداء فقالت عندنا خبز وتمر وخل فقال عليه السلام نعم الادام الخل اللهم بارك فى الخل فانه كان ادام الانبياء قبلى ولم يفتقر بيت فيه خل ولا يصمت على الطعام فهو من سيرة الاعاجم ولا يقطع اللحم والخبز بالسكين ففيه نهى ولا يكف يده عن الطعام حتى يفرغ الجمع فقد ورد عن ابن عمر رضى الله عنهما أن

ان صفت النية وسلمت عن جميع الآفات لانه ترغيب في الخير والترغيب في الخير خير وقد نقل مثل ذلك عن جماعة من السلف الاقوياء قال سعد بن معاذ ما صليت صلاة منذ أسلمت فحدثت نفسي بغيرها ولا تبعت جنازة فحدثت نفسي بغير ما هي قائلة وما هو مقول لها وما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول قولا قط الا علمت أنه حق وقال عمر رضي الله عنه ما أبالي أصبحت على عسر أو يسر لاني لا أدري أيهما خير لي وقال ابن مسعود ما أصبحت على حال فتمنيت أن أكون على غيرها وقال عثمان رضي الله عنه ما تغنيت ولا تمنيت ولا مسست ذكري بيميني منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال شداد بن أوس ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت حتى أزمها وأخطمها غير هذه وكان قد قال لغلامه ائتنا بالسفرة لنعبث بها حتى ندرك الغداء وقال أبو سفيان لاهله حين حضره الموت لا تبكوا علي فاني ما أحدثت ذنبا منذ أسلمت وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى ما قضى الله في بقضاء قط فسرني أن يكون قضى لي بغيره وما أصبح لي هوى الا في مواقع قدر الله فهذا كله اظهار لاحوال شريفة وفيها غاية المراآة اذا صدرت ممن يرائي بها وفيها غاية الترغيب اذا صدرت ممن يقتدى به فذلك على قصد الاقتداء جائز للاقوياء بالشروط التي ذكرناها فلا ينبغي أن يسد باب اظهار الاعمال والطباع مجبولة على حب التشبه والاقتداء بل اظهار المرائي للعبادة اذا لم يعلم الناس أنه رياء فيه خير كثير للناس ولكنه شر للمرائي فكم من مخلص كان سبب اخلاصه الاقتداء بمن هو مراء عند الله وقد روي أنه كان يجتاز الانسان في سكك البصرة عند الصبح فيسمع أصوات المصلين بالقرآن من البيوت فصنف بعضهم كتابا في دقائق الرياء فتركوا ذلك وترك الناس الرغبة فيه فكانوا يقولون ليت ذلك الكتاب لم يصنف فاظهار المرائي فيه خير كثير لغيره اذا لم يعرف رياؤه وان الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم كما ورد في الاخبار وبعض المرائين ممن يقتدى به منهم والله تعالى أعلم

﴿ بيان الرخصة في كتمان الذنوب وكراهة اطلاع الناس عليه وكراهة ذمهم له ﴾

اعلم أن الاصل في الاخلاص استواء السريرة والعلانية كما قال عمر رضي الله عنه لرجل عليك بعمل العلانية قال يا أمير المؤمنين وما عمل العلانية قال ما اذا اطلع عليك لم تستحي منه وقال أبو مسلم الخولاني ما عملت عملا أبالي أن يطلع الناس عليه الا اتياني أهلي والبول والغائط الا أن هذه درجة عظيمة لا ينالها كل أحد ولا يخلو الانسان عن ذنوب بقلبه أو بجوارحه وهو يخفيها ويكره اطلاع الناس عليها لا سيما ما تختلج به الخواطر في الشهوات والاماني والله مطلع على جميع ذلك فارادة العبد لاخفائها عن العبيد ربما يظن أنه رياء محظور وليس كذلك بل المحظور أنه يستر ذلك ليرى الناس أنه ورع خائف من الله تعالى مع أنه ليس كذلك فهذا هو ستر المرائي وأما الصادق الذي لا يرائي فله ستر المعاصي ويصح قصده فيه ويصح اغتمامه باطلاع الناس عليه من ثمانية أوجه ﴿الاول﴾ أن يفرح بستر الله عليه واذا افتضح اغتم بهتك الله ستره ويخاف أن يهتك ستره في القيامة اذ ورد في الخبر أن من ستر الله عليه في الدنيا ستره الله عليه في الآخرة وهذا غم ينشأ من قوة الايمان ﴿الثاني﴾ انه قد علم ان الله تعالى يكره ظهور المعاصي ويحب سترها كما قال صلى الله عليه وسلم من ارتكب شيأ من هذه القاذورات فليستتر بستر الله فهو وان عصى الله بالذنب فلم يخل قلبه عن محبة ما أحبه الله وهذا ينشأ من قوة الايمان بكراهة الله ظهور المعاصي وأثر الصدق فيه أن يكره ظهور الذنب من غيره أيضا ويغتم بسببه ﴿ الثالث ﴾ أن يكره ذم الناس له به من حيث ان ذلك يغمه ويشغل قلبه وعقله عن طاعة الله تعالى فان الطبع يتأذى بالذم وينازع العقل ويشتغل عن الطاعة وبهذه العلة أيضا ينبغي أن يكره الحمد الذي يشغله عن ذكر الله تعالى ويستغرق قلبه ويصرفه عن الذكر وهذا أيضا من قوة الايمان اذ صدق الرغبة في فراغ القلب لاجل الطاعة من الايمان ﴿الرابع﴾ أن يكون ستره ورغبته فيه لكراهته لذم الناس من حيث يتأذى طبعه فان الذم مؤلم للقلب كما أن الضرب مؤلم للبدن وخوف تألم القلب بالذم ليس بحرام ولا الانسان به عاص وانما يعصي اذا جزعت نفسه من ذم الناس ودعته الى ما لا يجوز حذرا من ذمهم وليس يجب على الانسان أن لا يغتم بذم الخلق ولا يتألم به نعم كمال الصدق في أن تزول عنه رؤيته للخلق فيستوي عنده ذامه ومادحه لعلمه أن الضار والنافع هو الله وان العباد كلهم عاجزون وذلك قليل جدا وأكثر الطباع تتألم بالذم لما فيه من الشعور بالنقصان ورب تألم

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا وضعت المائدة فلا يقوم رجل حتى ترفع المائدة ولا يرفع يده وان شبع حتى يفرغ القوم وليتعلل فان الرجل يخجل جليسه فيقبض يده وعسى أن يكون له في الطعام حاجة * واذا وضع الخبز لا ينتظر غيره فقد روى أبو موسى الاشعري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكرموا الخبز فان الله تعالى سخر لكم بركات السماء والارض والحديد والبقر وابن آدم ومن أحسن الادب وأهمه أن لا يأكل الا بعد الجوع ويمسك عن الطعام قبل الشبع فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطنه ومن عادة الصوفية أن يلقم الخادم اذا لم يجلس مع القوم وهو سنة روى أبو هريرة رضي الله عنه قال قال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم اذا جاء

بالذم محمود اذا كان الذام من أهل البصيرة فى الدين فانهم شهداء الله وذمهم يدل على ذم الله تعالى وعلى نقصان فى
الدين فكيف لا يغتم به نعم الغم المذموم هو أن يغتم لفوات الحمد بالورع كانه يحب أن يحمد بالورع ولا يجوز أن يحب
أن يحمد بطاعة الله فيكون قد طلب بطاعة الله ثوابا من غيره فان وجد ذلك فى نفسه وجب عليه أن يقابله بالكراهة
والرد وأما كراهة الذم بالمعصية من حيث الطبع فليس بمذموم فله الستر حذرا من ذلك ويتصور أن يكون العبد
بحيث لا يحب الحمد ولكن يكره الذم وانما مراده أن يتركه الناس حمدا وذما فكم من صابر عن لذة الحمد لا يصبر على
ألم الذم اذ الحمد يطلب اللذة وعدم اللذة لا يؤلم وأما الذم فانه مؤلم فحب الحمد على الطاعة طلب ثواب على الطاعة فى
الحال وأما كراهة الذم على المعصية فلا محذور فيه الا أمر واحد وهو أن يشغله غمه باطلاع الناس على ذنبه عن
اطلاع الله فان ذلك غاية النقصان فى الدين بل ينبغى أن يكون غمه باطلاع الله وذمه له أكثر * الخامس * أن
يكره الذم من حيث ان الذام قد عصى الله تعالى به وهذا من الايمان وعلامته أن يكره ذمه لغيره أيضا فهذا التوجع
لا يفرق بينه وبين غيره بخلاف التوجع من جهة الطبع * السادس * أن يستر ذلك كيلا يقصد بشر اذا عرف
ذنبه وهذا وراء ألم الذم فان الذم مؤلم من حيث يشعر القلب بنقصانه وخسته وان كان ممن يؤمن شره وقد يخاف
شر من يطلع على ذنبه بسبب من الاسباب فله أن يستر ذلك حذرا منه * السابع * مجرد الحياء فانه نوع ألم وراء
ألم الذم والقصد بالشر وهو خلق كريم يحدث فى أول الصبا مهما أشرق عليه نور العقل فيستحى من القبائح اذا
شوهدت منه وهو وصف محمود اذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحياء خير كله وقال صلى الله عليه وسلم الحياء
شعبة من الايمان وقال صلى الله عليه وسلم الحياء لا يأتى الا بخير وقال صلى الله عليه وسلم ان الله يحب الحيى الحليم
فالذى يفسق ولا يبالى أن يظهر فسقه للناس جمع الى الفسق التهتك والوقاحة وفقد الحياء فهو أشد حالا ممن يستتر
ويستحى الا أن الحياء ممتزج بالرياء ومشتبه به اشتباها عظيما قل من يتفطن له ويدعى كل مراء انه مستحى وان سبب
تحسينه العبادات هو الحياء من الناس وذلك كذب بل الحياء خلق ينبعث من الطبع الكريم وتهيج عقيبه داعية
الرياء وداعية الاخلاص ويتصور أن يخلص معه ويتصور أن يرائى معه وبيانه أن الرجل يطلب من صديق له
قرضا ونفسه لا تسخو باقراضه الا أنه يستحى من رده وعلم أنه لو راسله على لسان غيره لكان لا يستحى ولا يقرض
رياء ولا لطلب الثواب فله عند ذلك أحوال احداها أن يشافهه بالرد الصريح ولا يبالى فينسب الى قلة الحياء وهذا
فعل من لا حياء له فان المستحى اما أن يتعلل أو يقرض فان أعطى فيتصور له ثلاثة أحوال أحدها أن يمزج
الرياء بالحياء بأن يهيج الحياء فيقبح عنده الرد فيهيج خاطر الرياء ويقول ينبغى أن تعطى حتى يثنى عليك
ويحمدك وينشر اسمك بالسخاء أو ينبغى أن تعطى حتى لا يذمك ولا ينسبك الى البخل فاذا أعطى فقد أعطى
بالرياء وكان المحرك للرياء هو هيجان الحياء * الثانى أن يتعذر عليه الرد بالحياء ويبقى فى نفسه البخل فيتعذر
الاعطاء فيهيج داعى الاخلاص ويقول له ان الصدقة بواحدة والقرض بثمان عشرة ففيه أجر عظيم وادخال سرور
على قلب صديق وذلك محمود عند الله تعالى فتسخو النفس بالاعطاء لذلك فهذا مخلص هيج الحياء اخلاصه
* الثالث أن لا يكون له رغبة فى الثواب ولا خوف من مذمته ولا حب لمحمدته لانه لو طلبه مراسلة لكان لا يعطيه
فاعطاه بمحض الحياء وهو ما يجده فى قلبه من ألم الحياء ولولا الحياء لرده ولو جاءه من لا يستحى منه من الاجانب
والاراذل لكان يرده وان كثر الحمد والثواب فيه فهذا مجرد الحياء ولا يكون هذا الا فى القبائح كالبخل ومقارفة
الذنوب والمرائى يستحى من المباحات أيضا حتى أنه يرى مستعجلا فى المشى فيعود الى الهدو وضاحكا فيرجع الى
الانقباض ويزعم أن ذلك حياء وهو عين الرياء وقد قيل ان بعض الحياء ضعف وهو صحيح والمراد به الحياء مما
ليس بقبيح كالحياء من وعظ الناس وامامة الناس فى الصلاة وهو فى الصبيان والنساء محمود وفى العقلاء غير
محمود وقد تشاهد معصية من شيخ فتستحى من شيبته أن تنكر عليه لان من اجلال الله اجلال ذى الشيبة المسلم
وهذا الحياء حسن وأحسن منه أن تستحى من الله فلا تضيع الامر بالمعروف فالقوى يؤثر الحياء من الله على الحياء
من الناس والضعيف قد لا يقدر عليه فهذه هى الاسباب التى تجوز لاجلها ستر القبائح والذنوب (الثامن) أن
يخاف من ظهور ذنبه أن يستجرئ عليه غيره ويقتدى به وهذه العلة الواحدة فقط هى الجارية فى اظهار

أحدكم خادمه بطعام فان
لم يجلسه معه فليناوله
أكلة أو أكلتين فانه
ولى حره ودخانه واذا
فرغ من الطعام يحمد
الله تعالى روى أبو سعيد
قال كان رسول الله صلى
الله عليه وسلم اذا أكل
طعاما قال الحمد لله الذى
أطعمنا وسقانا وجعلنا
مسلمين وروى عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم
أنه قال من أكل طعاما
فقال الحمد لله الذى
أطعمنى هذا ورزقنيه
من غير حول منى ولا قوة
غفر له ما تقدم من ذنبه
ويتخلل فقد روى عن
رسول الله صلى الله
عليه وسلم تخللوا فانه
نظافة والنظافة تدعو
الى الايمان والايمان
مع صاحبه فى الجنة
ويغسل يده فقد روى
أبو هريرة قال قال
رسول الله صلى الله عليه
وسلم من بات وفى يده غمر
لم يغسل فاصابه شئ فلا
يلومن الا نفسه ومن
السنة غسل الايدى فى

الطاعة وهو القدوة ويختص ذلك بالائمة أو بمن يقتدى به وبهذه العلة ينبغي أيضا أن يخفي العاصي أيضا معصيته من أهله وولده لانهم يتعلمون منه ففي ستر الذنوب هذه الاعذار الثمانية وليس في اظهار الطاعة عذر الاهذا العذر الواحد ومهما قصد بستر المعصية أن يخيل الى الناس أنه ورع كان مرائيا كما اذا قصد ذلك باظهار الطاعة فان قلت فهل يجوز للعبد أن يحب حمد الناس له بالصلاح وحبهم اياه بسببه وقد قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم دلني على ما يحبني الله عليه ويحبني الناس قال ازهد في الدنيا يحبك الله وانبذ اليهم هذا الحطام يحبوك فنقول حبك لحب الناس لك قد يكون مباحا وقد يكون محمودا وقد يكون مذموما فالمحمود أن تحب ذلك لتعرف به حب الله لك فانه تعالى اذا أحب عبدا حببه في قلوب عباده والمذموم أن تحب حبهم وحمدهم على حجك وغزوك وصلاتك وعلى طاعة بعينها فان ذلك طلب عوض على طاعة الله عاجل سوى ثواب الله والمباح أن تحب أن يحبوك لصفات محمودة سوى الطاعات المحمودة المعينة فحب ذلك كحب المال لان ملك القلوب وسيلة الى الاغراض كملك الاموال فلا فرق بينهما

﴿بيان ترك الطاعات خوفا من الرياء ودخول الآفات﴾

اعلم أن من الناس من يترك العمل خوفا من أن يكون مرائيا به وذلك غلط وموافقة للشيطان بل الحق فيما يترك من الاعمال وما لا يترك لخوف الآفات ما نذكره وهو أن الطاعات تنقسم الى ما لا لذة في عينه كالصلاة والصوم والحج والغزو فانها مقاساة ومجاهدات انما تصير لذيذة من حيث انها توصل الى حمد الناس وحمد الناس لذيذ وذلك عند اطلاع الناس عليه والى ما هو لذيذ وهو أكثر ما لا يقتصر على البدن بل يتعلق بالخلق كالخلافة والقضاء والولايات والحسبة وامامة الصلاة والتذكير والتدريس وانفاق المال على الخلق وغير ذلك مما تعظم الآفة فيه لتعلقه بالخلق ولما فيه من اللذة (القسم) الاول الطاعات اللازمة للبدن التي لا تتعلق بالغير ولا لذة في عينها كالصوم والصلاة والحج فخطرات الرياء فيها ثلاث احداها ما يدخل قبل العمل فيبعث على الابتداء لرؤية الناس وليس معه باعث الدين فهذا مما ينبغي أن يترك لانه معصية لا طاعة فيه فانه تدرع بصورة الطاعة الى طلب المنزلة فان قدر الانسان على أن يدفع عن نفسه باعث الرياء ويقول لها ألا تستحيين من مولاك لا تسخين بالعمل لاجله وتسخين بالعمل لاجل عباده حتى يندفع باعث الرياء وتسخو النفس بالعمل لله عقوبة للنفس على خاطر الرياء وكفارة له فليشتغل بالعمل الثانية أن ينبعث لاجل الله ولكن يعترض الرياء مع عقد العبادة وأولها فلا ينبغي أن يترك العمل لانه وجد باعثا دينيا فليشرع في العمل وليجاهد نفسه في دفع الرياء وتحسين الاخلاص بالمعالجات التي ذكرناها من الزام النفس كراهة الرياء والاباء عن القبول الثالثة أن يعقد على الاخلاص ثم يطرأ الرياء ودواعيه فينبغي أن يجاهد في الدفع ولا يترك العمل لكي يرجع الى عقد الاخلاص ويرد نفسه اليه قهرا حتى يتمم العمل لان الشيطان يدعوك أولا الى ترك العمل فاذا لم تجب واشتغلت فيدعوك الى الرياء فاذا لم تجب ودفعت بقي يقول لك هذا العمل ليس بخالص وأنت مراء وتعبك ضائع فاي فائدة لك في عمل لا اخلاص فيه حتى يحملك بذلك على ترك العمل فاذا تركته فقد حصلت غرضه ومثال من يترك العمل لخوفه أن يكون مرائيا كمن سلم اليه مولاه حنطة فيها زوان وقال خلصها من الزوان ونقها منه تنقية بالغة فيترك أصل العمل ويقول أخاف ان اشتغلت به لم تخلص خلاصا صافيا نقيا فترك العمل من أجله هو ترك الاخلاص مع أصل العمل فلا معنى له ومن هذا القبيل أن يترك العمل خوفا على الناس أن يقولوا انه مراء فيعصون الله به فهذا من مكايد الشيطان لانه أولا أساء الظن بالمسلمين وما كان من حقه أن يظن بهم ذلك ثم ان كان فلا يضره قولهم ويفوته ثواب العبادة وترك العمل خوفا من قولهم انه مراء هو عين الرياء فلولا حبه لمحمدتهم وخوفه من ذمهم فماله ولقولهم قالوا انه مراء أو قالوا انه مخلص وأي فرق بين أن يترك العمل خوفا من أن يقال انه مراء وبين أن يحسن العمل خوفا من أن يقال انه غافل مقصر بل ترك العمل أشد من ذلك فهذه كلها مكايد الشيطان على العباد الجهال ثم كيف يطمع في أن يتخلص من الشيطان بأن يترك العمل والشيطان لا يخليه بل يقول له الآن يقول الناس انك تركت العمل ليقال انه مخلص لا يشتهي الشهرة فيضطرك بذلك الى أن تهرب فان هربت ودخلت سربا تحت الارض ألقى في قلبك حلاوة معرفة الناس لتزهدك وهربك منهم وتعظيمهم لك بقلوبهم على ذلك فكيف تتخلص منه بل لا نجاة منه الا بأن

طست واحد روى ابن عمر رضي الله عنهما انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أترعوا الطسوس وخالفوا المجوس ويستحب مسح العين ببلل اليد (روى) أبو هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا توضأتم فأشربوا أعينكم الماء ولا تنفضوا أيديكم فانها مراوح الشيطان قيل لابي هريرة في الوضوء وغيره قال نعم في الوضوء وغيره وفي غسل اليد يأخذ الاسنان باليمين وفي الخلال لا يزدرد ما يخرج بالخلال من الاسنان وأما ما يلوكه باللسان فلا بأس به ويجتنب التصنع في أكل الطعام ويكون أكله بين الجمع كأكله منفردا فان الرياء يدخل على العبد في كل شيء وصف لبعض العلماء بعض العباد فلم يثن عليه قيل له تعلم به بأسا قال نعم رأيته يتصنع في الاكل ومن

تلزم قلبك معرفة آفة الرياء وهوانه ضرر في الآخرة ولانفع فيه في الدنيا لتلزم الكراهة والاباء قلبك وتستمر مع ذلك على العمل ولاتبالي وان نزغ العدو ونازع الطبع فان ذلك لاينقطع وترك العمل لاجل ذلك يجر الى البطالة وترك الخيرات فادمت تجد باعثا دينيا على العمل فلاتترك العمل وجاهد خاطر الرياء وألزم قلبك الحياء من الله اذا دعتك نفسك الى أن تستبدل بحمده حمد المخلوقين وهو مطلع على قلبك ولواطلع الخلق على قلبك وانك تريد حمدهم لمقتوك بل ان قدرت على أن تزيد في العمل حياء من ربك وعقوبة لنفسك فافعل فان قال لك الشيطان أنت مراء فاعلم كذبه وخدعه بما تصادف في قلبك من كراهة الرياء وابائه وخوفك منه وحيائك من الله تعالى وان لم تجد في قلبك له كراهية ومنه خوفا ولم يبق باعث ديني بل تجرد باعث الرياء فاترك العمل عند ذلك وهو بعيد فمن شرع في العمل لله فلابد أن يبقى معه أصل قصد الثواب فان قلت فقد نقل عن أقوام ترك العمل مخافة الشهرة روى ان ابراهيم النخعي دخل عليه انسان وهو يقرأ فأطبق المصحف وترك القراءة وقال لايرى هذا انانقرأ كل ساعة وقال ابراهيم التيمي اذا أعجبك الكلام فاسكت واذا أعجبك السكوت فتكلم وقال الحسن ان كان أحدهم ليمر بالاذى مايمنعه من دفعه الا كراهة الشهرة وكان أحدهم يأتيه البكاء فيصرفه الى الضحك مخافة الشهرة وقد ورد في ذلك آثار كثيرة قلنا هذا يعارضه ماورد من اظهار الطاعات ممن لايحصى واظهار الحسن البصري هذا الكلام في معرض الوعظ أقرب الى خوف الشهرة من البكاء واماطة الاذى عن الطريق ثم لم يتركه وبالجملة ترك النوافل جائز والكلام في الافضل والافضل انما يقدر عليه الاقوياء دون الضعفاء فالافضل أن يتم العمل ويجتهد في الاخلاص ولايتركه وأرباب الاعمال قد يعالجون أنفسهم بخلاف الافضل لشدة الخوف فالاقتداء ينبغي أن يكون بالاقوياء وأما اطباق ابراهيم النخعي المصحف فيمكن أن يكون لعلمه بانه سيحتاج الى ترك القراءة عند دخوله واستئنافه بعد خروجه للاشتغال بمكالمته فرأى ان لايراه في القراءة أبعد عن الرياء وهو عازم على الترك للاشتغال به حتى يعود اليه بعد ذلك وأما ترك دفع الاذى فذلك ممن يخاف على نفسه آفة الشهرة واقبال الناس عليه وشغلهم اياه عن عبادات هي أكبر من رفع خشبة من الطريق فيكون ترك ذلك للمحافظة على عبادات هي أكبر منها لابمجرد خوف الرياء وأما قول التيمي اذا أعجبك الكلام فاسكت يجوز أن يكون قد أراد به مباحات الكلام كالفصاحة في الحكايات وغيرها فان ذلك يورث العجب وكذلك العجب بالسكوت المباح محذور فهو عدول عن مباح الى مباح حذرا من العجب فاما الكلام الحق المندوب اليه فلم ينص عليه على أن الآفة مما تعظم في الكلام فهو واقع في القسم الثاني وانما كلامنا في العبادات الخاصة ببدن العبد مما لايتعلق بالناس ولاتعظم فيه الآفات ثم كلام الحسن في تركهم البكاء واماطة الاذى لخوف الشهرة ربما كان حكاية أحوال الضعفاء الذين لا يعرفون الافضل ولايدركون هذه الدقائق وانما ذكره تخويفا للناس من آفة الشهرة وزجرا عن طلبها (القسم الثاني) مايتعلق بالخلق وتعظم فيه الآفات والاخطار وأعظمها الخلافة ثم القضاء ثم التذكير والتدريس والفتوى ثم انفاق المال أما الخلافة والامارة فهي من أفضل العبادات اذا كان ذلك مع العدل والاخلاص وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم ليوم من امام عادل خير من عبادة الرجل وحده ستين عاما فاعظم بعبادة يوازي يوم منها عبادة ستين سنة وقال صلى الله عليه وسلم أول من يدخل الجنة ثلاثة الامام المقسط أحدهم وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة لاترد دعوتهم الامام العادل أحدهم وقال صلى الله عليه وسلم أقرب الناس مني مجلسا يوم القيامة امام عادل رواه أبو سعيد الخدري فالامارة والخلافة من أعظم العبادات ولم يزل المتقون يتركونها ويحترزون منها ويهربون من تقلدها وذلك لمافيها من عظيم الخطر اذ تتحرك بها الصفات الباطنة ويغلب على النفس حب الجاه ولذة الاستيلاء ونفاذ الامر وهو أعظم ملاذ الدنيا فاذا صارت الولاية محبوبة كان الوالي ساعيا في حظ نفسه ويوشك ان يتبع هواه فيمتنع من كل مايقدح في جاهه وولايته وان كان حقا ويقدم على مايزيد في مكانته وان كان باطلا وعند ذلك يهلك ويكون يوم من سلطان جائر شرا من فسق ستين سنة بمفهوم الحديث الذي ذكرناه ولهذا الخطر العظيم كان عمر رضي الله عنه يقول من يأخذها بمافيها وكيف لا وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم مامن والي عشيرة الاجاء يوم القيامة مغلولة يده الى عنقه أطلقه عدله أو أوبقه جوره رواه معقل

تصنع في الاكل لا يؤمن عليه التصنع في العمل وان كان الطعام حلالا فليقل الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وتنزل البركات اللهم صل على محمد وعلى آل محمد اللهم أطعمنا طيبا واستعملنا صالحا وان كان شبهة يقول الحمد لله على كل حال اللهم صل على محمد ولاتجعله عونا على معصيتك وليكثر الاستغفار والحزن ويبكي على أكل الشبهة ولايضحك فليس من يأكل وهو يبكي كمن يأكل وهو يضحك ويقرأ بعد الطعام قل هو الله أحد ولايلاف قريش ويجتنب الدخول على قوم في وقت أكلهم فقد ورد من مشى الى طعام لم يدع اليه مشى فاسقا وأكل حراما وسمعنا لفظا آخر دخل سارقا وخرج مغيرا الاأن يتفق دخوله على قوم يعلم منهم فرحهم بموافقته ويستحب أن يخرج الرجل مع

ابن يسار وولاه عمر ولاية فقال يا أمير المؤمنين اشر علي قال اجلس واكتم علي وروى الحسن أن رجلا ولاه النبي صلى الله عليه وسلم فقال للنبي خر لي قال اجلس وكذلك حديث عبد الرحمن بن سمرة اذ قال له النبي صلى الله عليه وسلم يا عبد الرحمن لا تسأل الامارة فانك ان أوتيتها من غير مسألة أعنت عليها وان أوتيتها عن مسألة وكلت اليها وقال أبو بكر رضي الله عنه لرافع بن عمر لا تأمر على اثنين ثم ولي هو الخلافة فقام بها فقال له رافع ألم تقل لي لا تأمر على اثنين وأنت قد وليت أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقال بلى وأنا أقول لك ذلك فمن لم يعدل فيها فعليه لعنة الله ولعل القليل البصيرة يرى ما ورد من فضل الامارة مع ما ورد من النهي عنها متناقضا وليس كذلك بل الحق فيه ان الخواص الاقوياء في الدين لا ينبغي أن يمتنعوا من تقلد الولايات وأن الضعفاء لا ينبغي أن يدوروا بها فيهلكوا وأعني بالقوي الذي لا تميله الدنيا ولا يستفزه الطمع ولا تأخذه في الله لومة لائم وهم الذين سقط الخلق عن أعينهم وزهدوا في الدنيا وتبرموا بها وبمخالطة الخلق وقهروا أنفسهم وملكوها وقمعوا الشيطان فأيس منهم فهؤلاء لا يحركهم الا الحق ولا يسكنهم الا الحق ولو زهقت فيه أرواحهم فهم أهل نيل الفضل في الامارة والخلافة ومن علم انه ليس بهذه الصفة فيحرم عليه الخوض في الولايات ومن جرب نفسه فرآها صابرة على الحق كافة عن الشهوات في غير الولايات ولكن خاف عليها أن تتغير اذا ذاقت لذة الولاية وان تستحلي الجاه وتستلذ نفاذ الامر فتكره العزل فيداهن خيفة من العزل فهذا قد اختلف العلماء في أنه هل يلزمه الهرب من تقلد الولاية فقال قائلون لا يجب لان هذا خوف أمر في المستقبل وهو في الحال لم يعهد نفسه الا قوية في ملازمة الحق وترك لذات النفس والصحيح أن عليه الاحتراز لان النفس خداعة مدعية للحق واعدة بالخير فلو وعدت بالخير جزما لكان يخاف عليها أن تتغير عند الولاية فكيف اذا أظهرت التردد والامتناع عن قبول الولاية أهون من العزل بعد الشروع فالعزل مؤلم وهو كما قيل العزل طلاق الرجال فاذا شرع لا تسمح نفسه بالعزل وتميل نفسه الى المداهنة واهمال الحق وتهوي به في قعر جهنم ولا يستطيع النزوع منه الى الموت الا أن يعزل قهرا وكان فيه عذاب عاجل على كل محب للولاية ومهما مالت النفس الى طلب الولاية وحملت على السؤال والطلب فهو أمارة الشر ولذلك قال صلى الله عليه وسلم أنا لا نولي أمرنا من سألنا فاذا فهمت اختلاف حكم القوي والضعيف علمت أن نهي أبي بكر رافعا عن الولاية ثم تقلده لها ليس بمتناقض * وأما القضاء فهو وان كان دون الخلافة والامارة فهو في معناهما فان كل ذي ولاية أمير أي له أمر نافذ والامارة محبوبة بالطبع والثواب في القضاء عظيم مع اتباع الحق والعقاب فيه أيضا عظيم مع العدول عن الحق وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم القضاة ثلاثة قاضيان في النار وقاض في الجنة وقال عليه السلام من استقضي فقد ذبح بغير سكين فحكمه حكم الامارة ينبغي أن يتركه الضعفاء وكل من للدنيا ولذاتها وزن في عينه وليتقلده الاقوياء الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم ومهما كان السلاطين ظلمة ولم يقدر القاضي على القضاء الا بمداهنتهم واهمال بعض الحقوق لاجلهم ولاجل المتعلقين بهم اذ يعلم أنه لو حكم عليهم بالحق لعزلوه أو لم يطيعوه فليس له أن يتقلد القضاء وان تقلده فعليه أن يطالبهم بالحقوق ولا يكون خوف العزل عذرا مرخصا له في الاهمال أصلا بل اذا عزل سقطت العهدة عنه فينبغي أن يفرح بالعزل ان كان يقضي لله فان لم تسمح نفسه بذلك فهو اذا يقضي لاتباع الهوى والشيطان فكيف يرتقب عليه ثوابا وهو مع الظلمة في الدرك الاسفل من النار * وأما الوعظ والفتوى والتدريس ورواية الحديث وجمع الاسانيد العالية وكل ما يتسع بسببه الجاه ويعظم به القدر فآفته أيضا عظيمة مثل آفة الولايات وقد كان الخائفون من السلف يتدافعون الفتوى ما وجدوا اليه سبيلا وكانوا يقولون حدثنا باب من أبواب الدنيا ومن قال حدثنا فقد قال أوسعوا لي ودفن بشر كذا كذا قمطرة من الحديث وقال يمنعني من الحديث أني أشتهي أن أحدث ولو اشتهيت أن لا أحدث لحدثت والواعظ يجد في وعظه وتأثر قلوب الناس به وتلاحق بكائهم وزعقاتهم واقبالهم عليه لذة لا توازيها لذة فاذا غلب ذلك على قلبه مال طبعه الى كل كلام مزخرف يروج عند العوام وان كان باطلا ويفر عن كل كلام يستثقله العوام وان كان حقا ويصير مصروف الهمة بالكلية الى ما يحرك قلوب العوام ويعظم منزلته في قلوبهم فلا يسمع حديثا وحكمة الا ويكون فرحه به من حيث انه يصلح لان يذكره على رأس المنبر وكان ينبغي أن يكون فرحه به من حيث انه عرف

ضيفه الى باب الدار ولا يخرج الضيف بغير اذن صاحب الدار ويجتنب المضيف التكلف الا أن يكون له نية فيه من كثرة الانفاق ولا يفعل ذلك حياء وتكلفا واذا أكل عند قوم طعاما فليقل عند فراغه ان كان بعد المغرب أفطر عندكم الصائمون وأكل طعامكم الابرار وصلت عليكم الملائكة (وروى) أيضا عليكم صلاة قوم أبرار ليسوا بآثمين ولا فجار يصلون بالليل ويصومون بالنهار كان بعض الصحابة يقول ذلك * ومن الادب أن لا يستحقر ما يقدم له من طعام وكان بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما ندري أيهم أعظم وزرا الذي يحتقر ما يقدم اليه أو الذي يحتقر ما عنده أن يقدمه * ويكره أكل طعام المباهاة وما تكلف للاعراس والتعازي فاعل للنوائح الا يؤكل

طريق السعادة وطريق سلوك سبيل الدين ليعمل به أولا ثم يقول اذا أنعم الله على بهذه النعمة وتفعنى بهذه الحكمة فاقصها الشاركنى فى نفعها اخوانى المسلمون فهذا أيضا مما يعظم فيه الخوف والفتنة فحكمه حكم الولايات فمن لا باعث له الا طلب الجاه والمنزلة والاكل بالدين والتفاخر والتكاثر فينبغى أن يتركه و يخالف الهوى فيه الى أن ترتاض نفسه وتقوى فى الدين همته و يأمن على نفسه الفتنة فعند ذلك يعود اليه فان قلت مهما حكم بذلك على أهل العلم تعطلت العلوم واندرست وعم الجهل كافة الخلق فنقول قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طلب الامارة وتوعد عليها حتى قال انكم تحرصون على الامارة وانها حسرة وندامة يوم القيامة الامن أخذها بحقها وقال نعمت المرضعة و بئست الفاطمة ومعلوم أن السلطنة والامارة لو تعطلت لبطل الدين والدنيا جميعا وثار القتال بين الخلق وزال الامن وخربت البلاد وتعطلت المعايش فلم نهى عنها مع ذلك وضرب عمر رضى الله عنه أبى بن كعب حين رأى قوما يتبعونه وهو فى ذلك يقول أبى سيد المسلمين وكان يقرأ عليه القرآن فمنع من أن يتبعوه وقال ذلك فتنة على المتبوع ومذلة على التابع وعمر كان بنفسه يخطب و يعظ ولا يمتنع منه واستأذن رجل عمر أن يعظ الناس اذا فرغ من صلاة الصبح فمنعه فقال أتمنعنى من نصح الناس فقال أخشى أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا اذ رأى فيه مخايل الرغبة فى جاه الوعظ وقبول الخلق والقضاء والخلافة مما يحتاج الناس اليه فى دينهم كالوعظ والتدريس والفتوى وفى كل واحد منهما فتنة ولذة فلا فرق بينهما فاما قول القائل نهيك عن ذلك يؤدى الى اندراس العلم فهو غلط اذ نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القضاء لم يؤد الى تعطل القضاء بل الرياسة وحبها يضطر الخلق الى طلبها وكذلك حب الرياسة لا يترك العلوم تندرس بل لو حبس الخلق وقيدوا بالسلاسل والاغلال عن طلب العلوم التى فيها القبول والرياسة لافلتوا من الحبس وقطعوا السلاسل وطلبوها وقد وعد الله أن يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم فلا تشغل قلبك بأمر الناس فان الله لا يضيعهم وانظر لنفسك ثم انى أقول مع هذا اذا كان فى البلد جماعة يقومون بالوعظ مثلا فليس فى النهى عنه الا امتناع بعضهم والافعلم أن كلهم لا يمتنعون ولا يتركون لذة الرياسة فان لم يكن فى البلد الا واحد وكان وعظه نافعا للناس من حيث حسن كلامه وحسن سمته فى الظاهر وتخييله الى العوام أنه انما يريد الله بوعظه وانه تارك للدنيا ومعرض عنها فلا نمنعه منه ونقول له اشتغل وجاهد نفسك فان قال لست أقدر على نفسى فنقول اشتغل وجاهد لانا نعلم انه لو ترك ذلك لهلك الناس كلهم اذ لا قائم به غيره ولو واظب وغرضه الجاه فهو الهالك وحده وسلامة دين الجميع أحب عندنا من سلامة دينه وحده فنجعله فداء للقوم ونقول لعل هذا هو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم ثم الواعظ هو الذى يرغب فى الآخرة و يزهد فى الدنيا بكلامه و بظاهر سيرته فاما ما أحدثه الوعاظ فى هذه الاعصار من الكلمات المزخرفة والالفاظ المسجعة المقرونة بالاشعار مما ليس فيه تعظيم لامر الدين وتخويف المسلمين بل فيه الترجية والتجرئة على المعاصى بطيارات النكت فيجب اخلاء البلاد منهم فانهم نواب الدجال وخلفاء الشيطان وانما كلامنا فى واعظ حسن الوعظ جميل الظاهر يبطن فى نفسه حب القبول ولا يقصد غيره وفيما أوردناه فى كتاب العلم من الوعيد الوارد فى حق علماء السوء ما يبين لزوم الحذر من فتن العلم وغوائله ولهذا قال المسيح عليه السلام يا علماء السوء تصومون وتصلون وتصدقون ولا تفعلون ما تؤمرون وتدرسون ما لا تعملون فيا سوء ما تحكمون تتوبون بالقول والامانى وتعملون بالهوى وما يغنى عنكم أن تنقوا جلودكم وقلوبكم دنسة بحق أقول لكم لا تكونوا كالمنخل يخرج منه الدقيق الطيب و يبقى فيه النخالة كذلك أنتم تخرجون الحكم من أفواهكم و يبقى الغل فى صدوركم يا عبيد الدنيا كيف يدرك الآخرة من لا تنقضى من الدنيا شهوته ولا تنقطع منها رغبته بحق أقول لكم ان قلوبكم تبكى من أعمالكم جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم والعمل تحت أقدامكم بحق أقول لكم أفسدتم آخرتكم بصلاح دنياكم فصلاح الدنيا أحب اليكم من صلاح الآخرة فاى ناس أخس منكم لو تعلمون و يلكم حتى متى تصفون الطريق للمدلجين وتقيمون فى محلة المتحيرين كأنكم تدعون أهل الدنيا ليتركوها لكم مهلا مهلا و يلكم ماذا يغنى عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره وجوفه وحش مظلم كذلك لا يغنى عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم وأجوافكم منه وحشة معطلة يا عبيد الدنيا لا كعبيد أتقياء ولا كاحرار كرام توشك الدنيا أن تقلعكم عن أصولكم فتلقيكم على وجوهكم ثم

وما عمل لاهل العزاء لا بأس به وما يجرى مجراه واذا علم الرجل من حال أخيه أنه يفرح بالانبساط اليه فى التصرف فى شئ من طعامه فلا حرج أن يأكل من طعامه بغير اذنه قال الله تعالى أو صديقكم (قيل) دخل قوم على سفيان الثورى فلم يجدوه ففتحوا الباب وأنزلوا السفرة وأكلوا فدخل سفيان ففرح وقال ذكرتمونى أخلاق السلف هكذا كانوا ومن دعى الى طعام فالاجابة من السنة وأوكد ذلك الوليمة وقد يتخلف بعض الناس عن الدعوة تكبرا وذلك خطأ وان عمل ذلك تصنعا ورياء فهو أقل من التكبر (روى) أن الحسن بن على مر بقوم من المساكين الذين يسألون الناس على الطرق وقد نثروا كسرا على الارض وهو على بغلته فلما مر بهم سلم عليهم فردوا عليه السلام وقالوا هلم

تكبكم على مناخركم ثم تأخذ خطايا كم بنواصيكم ثم يدفعكم العلم من خلفكم ثم يسلمكم الى الملك الديان حفاة عراة فرادى فيوقفكم على سوآتكم ثم يجزيكم بسوء أعمالكم وقد روى الحرث المحاسبى هذا الحديث فى بعض كتبه ثم قال هؤلاء علماء السوء شياطين الانس وفتنة على الناس رغبوا فى عرض الدنيا ورفعتها وآثروها على الآخرة وأذلوا الدين للدنيا فهم فى العاجل عار وشين وفى الآخرة هم الخاسرون فان قلت فهذه الآفات ظاهرة ولكن ورد فى العلم والوعظ رغائب كثيرة حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لان يهدى الله بك رجلا خير لك من الدنيا وما فيها وقال صلى الله عليه وسلم أيما داع دعا الى هدى واتبع عليه كان له أجره وأجر من اتبعه الى غير ذلك من فضائل العلم فينبغى أن يقال للعالم اشتغل بالعلم واترك مراآة الخلق كما يقال لمن خالجه الرياء فى الصلاة لا تترك العمل ولكن أتمم العمل وجاهد نفسك فاعلم ان فضل العلم كبير وخطره عظيم كفضل الخلافة والامارة ولا نقول لاحد من عباد الله اترك العلم اذ ليس فى نفس العلم آفة وانما الآفة فى اظهاره بالتصدى للوعظ والتدريس ورواية الحديث ولا نقول له أيضا اتركه مادام يجد فى نفسه باعثا دينيا ممزوجا بباعث الرياء فاذا لم يحركه الا الرياء فترك الاظهار أنفع له وأسلم وكذلك نوافل الصلوات اذا تجرد فيها باعث الرياء وجب تركها أما اذا خطر له وساوس الرياء فى أثناء الصلاة وهو لها كاره فلا يترك الصلاة لان آفة الرياء فى العبادات ضعيفة وانما تعظم فى الولايات وفى التصدى للمناصب الكبيرة فى العلم وبالجملة فالمراتب ثلاث * الاولى الولايات والآفات فيها عظيمة وقد تركها جماعة من السلف خوفا من الآفة * الثانية الصوم والصلاة والحج والغزو وقد تعرض لها أقوياء السلف وضعفاؤهم ولم يؤثر عنهم الترك لخوف الآفة وذلك لضعف الآفات الداخلة فيها والقدرة على نفيها مع اتمام العمل لله بأدنى قوة * الثالثة وهى متوسطة بين الرتبتين وهو التصدى لمنصب الوعظ والفتوى والرواية والتدريس والآفات فيها أقل مما فى الولايات وأكثر مما فى الصلاة فالصلاة ينبغى أن لا يتركها الضعيف والقوى ولكن يدفع خاطر الرياء والولايات ينبغى أن يتركها رأسا الضعفاء دون الاقوياء ومناصب العلم بينهما ومن جرب آفات منصب العلم علم انه بالولاة أشبه وان الحذر منه فى حق الضعيف أسلم والله أعلم وههنا رتبة رابعة وهى جمع المال وأخذه للتفرقة على المستحقين فان فى الانفاق واظهار السخاء استجلابا للثناء وفى ادخال السرور على قلوب الناس لذة للنفس والآفات فيها أيضا كثيرة ولذلك سئل الحسن عن رجل طلب القوت ثم أمسك وآخر طلب فوق قوته ثم تصدق به فقال القاعد أفضل لما يعرفون من قلة السلامة فى الدنيا وان من الزهد تركها قربة الى الله تعالى وقال أبو الدرداء ما يسرنى انى أقمت على درج مسجد دمشق أصيب كل يوم خمسين دينارا أتصدق بها أما انى لا أحرم البيع والشراء ولكنى أريد أن أكون من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وقد اختلف العلماء فقال قوم اذا طلب الدنيا من الحلال وسلم منها وتصدق بها فهو أفضل من أن يشتغل بالعبادات والنوافل وقال قوم الجلوس فى دوام ذكر الله أفضل والاخذ والاعطاء يشغل عن الله وقد قال المسيح عليه السلام يا طالب الدنيا لتبر بها تركك لها أبر وقال أقل ما فيه أن يشغله اصلاحه عن ذكر الله وذكر الله أكبر وأفضل وهذا فيمن سلم من الآفات فأما من يتعرض لآفة الرياء فتركه لها أبر والاشتغال بالذكر لا خلاف فى انه أفضل وبالجملة ما يتعلق بالخلق وللنفس فيه لذة فهو مثار الآفات والاحب أن يعمل ويدفع الآفات فان عجز فلينظر وليجتهد وليستفت قلبه وليزن ما فيه من الخير بما فيه من الشر وليفعل ما يدل عليه نور العلم دون ما يميل اليه الطبع وبالجملة ما يجده أخف على قلبه فهو فى الاكثر أضر عليه لان النفس لا تشير الا بالشر وقلما تستلذ الخير وتميل اليه وان كان لا يبعد ذلك أيضا فى بعض الاحوال وهذه الامور لا يمكن الحكم على تفاصيلها بنفى واثبات فهو موكول الى اجتهاد القلب لينظر فيه لدينه ويدع ما يريبه الى ما لا يريبه ثم قد يقع مما ذكرناه غرور للجاهل فيمسك المال ولا ينفقه خيفة من الآفة وهو عين البخل ولا خلاف فى أن تفرقة المال فى المباحات فضلا عن الصدقات أفضل من امساكه وانما الخلاف فيمن يحتاج الى الكسب أن الافضل الكسب والانفاق أو التجرد للذكر وذلك لما فى الكسب من الآفات فأما المال الحاصل من الحلال فتفرقته أفضل من امساكه بكل حال فان قلت فبأى علامة تعرف العالم والواعظ انه صادق مخلص فى وعظه غير مريد رياء الناس فاعلم أن لذلك علامات احداها انه لو ظهر من هو أحسن

الفداء يا ابن رسول الله فقال نعم ان الله لا يحب المتكبرين ثم ثنى وركه فنزل عن دابته وقعد معهم على الارض وأقبل يأكل ثم سلم عليهم وركب وكان يقال الاكل مع الاخوان أفضل من الاكل مع العيال (روى) ان هرون الرشيد دعا أبا معاوية الضرير وأمر أن يقدم له طعام فلما أكل صب الرشيد على يده فى الطست فلما فرغ قال يا أبا معاوية تدرى من صب على يدك قال لا قال أمير المؤمنين قال يا أمير المؤمنين انما أكرمت العلم وأجللته فأجلك الله تعالى وأكرمك كما أكرمت العلم

* الباب الرابع والاربعون فى ذكر أدبهم فى اللباس ونياتهم ومقاصدهم فيه *

اللباس من حاجات النفس وضرورتها لدفع الحر والبرد كما أن الطعام من حاجات النفس لدفع

منه وعظا أو أغزر منه علما والناس له أشد قبولا فرح به ولم يحسده نعم لا بأس بالغبطة وهو أن يتمنى لنفسه مثل علمه والاخرى أن الا كابر اذا حضر وامجلسه لم يتغير كلامه بل بقى كما كان عليه فينظر الى الخلق بعين واحدة والاخرى أن لا يحب اتباع الناس له فى الطريق والمشى خلفه فى الاسواق ولذلك علامات كثيرة يطول احصاؤها وقد روى عن سعيد بن أبى مروان قال كنت جالسا الى جنب الحسن اذ دخل علينا الحجاج من بعض أبواب المسجد ومعه الحرس وهو على برذون اصفر فدخل المسجد على برذونه فجعل يلتفت فى المسجد فلم ير حلقة أحفل من حلقة الحسن فتوجه نحوها حتى بلغ قريبا منها ثم ثنى وركه فنزل ومشى نحو الحسن فلما رآه الحسن متوجها اليه تجافى له عن ناحية مجلسه قال سعيد وتجافيت له أيضا عن ناحية مجلسى حتى صار بينى وبين الحسن فرجة ومجلس للحجاج فجاء الحجاج حتى جلس بينى وبينه والحسن يتكلم بكلام له يتكلم به فى كل يوم فما قطع الحسن كلامه قال سعيد فقلت فى نفسى لابلون الحسن اليوم ولانظرن هل يحمل الحسن جلوس الحجاج اليه أن يزيد فى كلامه يتقرب اليه أو يحمل الحسن هيبة الحجاج أن ينقص من كلامه فتكلم الحسن كلاما واحدا نحوا مما كان يتكلم به فى كل يوم حتى انتهى الى آخر كلامه فلما فرغ الحسن من كلامه وهو غير مكترث به رفع الحجاج يده فضرب بها على منكب الحسن ثم قال صدق الشيخ وبر فعليكم بهذه المجالس وأشباهها فاتخذوها حلقا وعادة فانه بلغنى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن مجالس الذكر رياض الجنة ولولا ما حملنا من أمر الناس ما غلبتمونا على هذه المجالس لمعرفتنا بفضلها قال ثم افترا الحجاج فتكلم حتى عجب الحسن ومن حضر من بلاغته فلما فرغ طفق فقام فجاء رجل من أهل الشام الى مجلس الحسن حيث قام الحجاج فقال عباد الله المسلمين ألا تعجبون أنى رجل شيخ كبير وانى أغزو فا كلف فرسا وبغلا وأ كلف فسطاطا وان لى ثلثمائة درهم من العطاء وان لى سبع بنات من العيال فشكا من حاله حتى رق الحسن له وأصحابه والحسن مكب فلما فرغ الرجل من كلامه رفع الحسن رأسه فقال مالهم قاتلهم الله اتخذوا عباد الله خولا ومال الله دولا وقتلوا الناس على الدينار والدرهم فاذا غزا عدو الله غزا فى الفساطيط الهبابة وعلى البغال السباقة واذا أغزى أخاه أغزاه طاويا راجلا فما فتر الحسن حتى ذكرهم باقبح العيب وأشده فقام رجل من أهل الشام كان جالسا الى الحسن فسعى به الى الحجاج وحكى له كلامه فلم يلبث الحسن ان أتته رسل الحجاج فقالوا أجب الامير فقام الحسن وأشفقنا عليه من شدة كلامه الذى تكلم به فلم يلبث الحسن أن رجع الى مجلسه وهو يتبسم وقلما رأيته فاغرا فاه يضحك انما كان يتبسم فاقبل حتى قعد فى مجلسه فعظم الامانة وقال انما تجالسون بالامانة كانكم تظنون أن الخيانة ليست الا فى الدينار والدرهم ان الخيانة أشد الخيانة أن يجالسنا الرجل فنطمئن الى جانبه ثم ينطلق فيسعى بنا الى شرارة من نار انى أتيت هذا الرجل فقال أقصر عليك من لسانك وقولك اذا غزا عدو الله كذا وكذا واذا أغزى أخاه أغزاه كذا لا أبالك تحرض علينا الناس أما انا على ذلك لانتهم نصيحتك فاقصر عليك من لسانك قال فدفعه الله عنى وركب الحسن حمارا يريد المنزل فبينما هو يسير اذ التفت فرأى قوما يتبعونه فوقف فقال هل لكم من حاجة أو تسألون عن شئ والا فارجعوا فما يبقى هذا من قلب العبد فبهذه العلامات وأمثالها تتبين سريرة الباطن ومهما رأيت العلماء يتغايرون ويتحاسدون ولا يتوانسون ولا يتعاونون فاعلم انهم قد اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فهم الخاسرون اللهم ارحمنا بلطفك يا أرحم الراحمين

﴿ بيان ما يصح من نشاط العبد للعبادة بسبب رؤية الخلق وما لا يصح ﴾

اعلم ان الرجل قد يبيت مع القوم فى موضع فيقومون للتهجد أو يقوم بعضهم فيصلون الليل كله أو بعضه وهو ممن يقوم فى بيته ساعة قريبة فاذا رآهم انبعث نشاطه للموافقة حتى يزيد على ما كان يعتاده أو يصلى مع انه كان لا يعتاد الصلاة بالليل أصلا وكذلك قد يقع فى موضع يصوم فيه أهل الموضع فينبعث له نشاط فى الصوم ولولاهم لما انبعث هذا النشاط فهذا ربما يظن أنه رياء وان الواجب ترك الموافقة وليس كذلك على الاطلاق بل له تفصيل لان كل مؤمن راغب فى عبادة الله تعالى وفى قيام الليل وصيام النهار ولكن قد تعوقه العوائق ويمنعه الاشتغال ويغلبه التمكن من الشهوات أو تستهويه الغفلة فربما تكون مشاهدة الغير سبب زوال الغفلة أو تندفع العوائق والاشغال فى بعض المواضع فينبعث له النشاط فقد يكون الرجل فى منزله فتقطعه الاسباب عن التهجد

الجوع وكما ان النفس غير قانعة بقدر الحاجة من الطعام بل تطلب الزيادات والشهوات فهكذا فى اللباس تتفنن فيه ولها فيه أهوية متنوعة ومآرب مختلفة فالصوفى يرد النفس فى اللباس الى متابعة صريح العلم (قيل) لبعض الصوفية ثوبك ممزق قال ولكنه من وجه حلال وقيل له وهو وسخ قال ولكنه طاهر فنظر الصادق فى ثوبه أن يكون من وجه حلال لانه ورد فى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال من اشترى ثوبا بعشرة دراهم وفى ثمنه درهم من حرام لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا أى لا فريضة ولا نافلة ثم بعد ذلك نظره فيه أن يكون طاهرا لان طهارة الثوب شرط فى صحة الصلاة وما عدا هذين النظرين فنظره فى كونه يدفع الحر والبرد لان ذلك مصلحة النفس وبعد ذلك ما تدعو

مثل تمكنه من النوم على فراش وثير أو تمكنه من التمتع بزوجته أو المحادثة مع أهله وأقاربه أو الاشتغال بأولاده أو مطالعة حساب له مع معامليه فاذا وقع فى منزل غريب اندفعت عنه هذه الشواغل التى تفتر رغبته عن الخير وحصلت له أسباب باعثة على الخير كمشاهدته اياهم وقد أقبلوا على الله وأعرضوا عن الدنيا فانه ينظر اليهم فينافسهم ويشق عليه أن يسبقوه بطاعة الله فتتحرك داعيته للدين لا للرياء أو ربما يفارقه النوم لاستنكاره الموضع أو سبب آخر فيغتنم زوال النوم وفى منزله ربما يغلبه النوم وربما ينضاف اليه أنه فى منزله على الدوام والنفس لا تسمح بالتهجد دائما وتسمح بالتهجد وقتا قليلا فيكون ذلك سبب هذا النشاط مع اندفاع سائر العوائق وقد يعسر عليه الصوم فى منزله ومعه أطايب الاطعمة ويشق عليه الصبر عنها فاذا أعوزته تلك الاطعمة لم يشق عليه فتنبعث داعية الدين للصوم فان الشهوات الحاضرة عوائق ودوافع تغلب باعث الدين فاذا سلم منها قوى الباعث فهذا وأمثاله من الاسباب يتصور وقوعه ويكون السبب فيه مشاهدة الناس وكونه معهم والشيطان مع ذلك ربما يصد عن العمل ويقول لا تعمل فانك تكون مرائيا اذ كنت لا تعمل فى بيتك ولا تزد على صلاتك المعتادة وقد تكون رغبته فى الزيادة لاجل رؤيتهم وخوفا من ذمهم ونسبتهم اياه الى الكسل لا سيما اذا كانوا يظنون به أنه يقوم الليل فان نفسه لا تسمح بأن يسقط من أعينهم فيريد أن يحفظ منزلته وعند ذلك قد يقول الشيطان صل فانك مخلص ولست تصلى لاجلهم بل لله وانما كنت لا تصلى كل ليلة لكثرة العوائق وانما داعيتك لزوال العوائق لا لاطلاعهم وهذا أمر مشتبه الا على ذوى البصائر فاذا عرف ان المحرك هو الرياء فلا ينبغى أن يزيد على ما كان يعتاده ولا ركعة واحدة لانه يعصى الله بطلب محمدة الناس بطاعة الله وان كان انبعاثه لدفع العوائق وتحرك الغبطة والمنافسة بسبب عبادتهم فليوافق وعلامة ذلك ان يعرض على نفسه أنه لو رأى هؤلاء يصلون من حيث لا يرونه بل من وراء حجاب وهو فى ذلك الموضع بعينه هل كانت نفسه تسخو بالصلاة وهم لا يرونه فان سخت نفسه فليصل فان باعثه الحق وان كان ذلك يثقل على نفسه لو غاب عن أعينهم فليترك فان باعثه الرياء وكذلك قد يحضر الانسان يوم الجمعة فى الجامع من نشاط الصلاة ما لا يحضره كل يوم ويمكن أن يكون ذلك لحب حمدهم ويمكن أن يكون نشاطه بسبب نشاطهم وزوال غفلته بسبب اقبالهم على الله تعالى وقد يتحرك بذلك باعث الدين ويقارنه نزوع النفس الى حب الحمد فهما علم أن الغالب على قلبه ارادة الدين فلا ينبغى أن يترك العمل بما يجده من حب الحمد بل ينبغى أن يرد ذلك على نفسه بالكراهة ويشتغل بالعبادة وكذلك قد يبكى جماعة فينظر اليهم فيحضره البكاء خوفا من الله تعالى لا من الرياء ولو سمع ذلك الكلام وحده لما بكى ولكن بكاء الناس يؤثر فى ترقيق القلب وقد لا يحضره البكاء فيتباكى تارة رياء وتارة مع الصدق اذ يخشى على نفسه قساوة القلب حين يبكون ولا تدمع عينه فيتباكى تكلفا وذلك محمود وعلامة الصدق فيه ان يعرض على نفسه انه لو سمع بكاءهم من حيث لا يرونه هل كان يخاف على نفسه القساوة فيتباكى أم لا فان لم يجد ذلك عند تقدير الاختفاء عن أعينهم فانما خوفه من ان يقال انه قاسى القلب فينبغى ان يترك التباكى قال لقمان عليه السلام لابنه لا ترى الناس أنك تخشى الله ليكرموك وقلبك فاجر وكذلك الصيحة والتنفس والانين عند القرآن أو الذكر أو بعض مجارى الاحوال تارة تكون من الصدق والحزن والخوف والندم والتأسف وتارة تكون لمشاهدته حزن غيره وقساوة قلبه فيتكلف التنفس والانين ويتحازن وذلك محمود وقد تقترن به الرغبة فيه لدلالته على أنه كثير الحزن ليعرف بذلك فان تجردت هذه الداعية فهى الرياء وان اقترنت بداعية الحزن فان أباها ولم يقبلها وكرهها سلم بكاؤه وتباكيه وان قبل ذلك وركن اليه بقلبه حبط أجره وضاع سعيه وتعرض لسخط الله به وقد يكون أصل الانين عن الحزن ولكن يمده ويزيد فى رفع الصوت فتلك الزيادة رياء وهو محظور لانها فى حكم الابتداء لمجرد الرياء فقد يهيج من الخوف ما لا يملك العبد معه نفسه ولكن يسبقه خاطر الرياء فيقبله فيدعو الى زيادة تحزين للصوت أو رفع له أو حفظ الدمعة على الوجه حتى تبصر بعد أن استرسلت لخشية الله ولكن يحفظ أثرها على الوجه لاجل الرياء وكذلك قد يسمع الذكر فتضعف قواه من الخوف فيسقط ثم يستحيى أن يقال له انه سقط من غير زوال عقل وحالة شديدة فيزعق ويتواجد تكلفا ليرى انه سقط لكونه مغشيا عليه وقد كان ابتداء السقطة عن صدق وقد

النفس اليه فكله فضول وزيادة ونظر الى الخلق والصادق لا ينبغى أن يلبس الثوب الا لله وهو ستر العورة أو لنفسه لدفع الحر والبرد (وحكى) ان سفيان الثورى رضى الله عنه خرج ذات يوم وعليه ثوب قد لبسه مقلوبا فقيل له ولم يعلم بذلك فهم أن يخلعه ويغيره ثم تركه وقال حيث لبسته نويت انى ألبسه لله والآن فما أغيره الا لنظر الخالق فلا أنقض النية الاولى بهذه والصوفية خصوا بطهارة الاخلاق وما رزقوا طهارة الاخلاق الا بالصلاحية والاهلية والاستعداد الذى هيأه الله تعالى لنفوسهم وفى طهارة الاخلاق وتعاضدها تناسب واقع لوجود تناسب هيئة النفس وتناسب هيئة النفس هو المشار اليه بقوله تعالى فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فالتناسب هو التسوية

يز ول عقله فيسقط ولكن يفيق سريعا فيجزع نفسه أن يقال حالته غير ثابتة وانما هي كبرق خاطف فيستديم الزعقة والرقص ليرى دوام حاله وكذلك قد يفيق بعد الضعف ولكن يزول ضعفه سريعا فيجزع أن يقال لم تكن غشيته صحيحة ولو كان لدام ضعفه فيستديم اظهار الضعف والانين فيتكئ على غيره يرى انه يضعف عن القيام ويتمايل في المشي ويقرب الخطا ليظهر انه ضعيف عن سرعة المشي فهذه كلها مكايد الشيطان ونزغات النفس فاذا خطرت فعلاجها أن يتذكر ان الناس لو عرفوا نفاقه في الباطن واطلعوا على ضميره لمقتوه وان الله مطلع على ضميره وهوله أشد مقتا كما روى عن ذى النون رحمه الله انه قام وزعق فقام معه شيخ آخر رأى فيه أثر التكلف فقال ياشيخ الذى يراك حين تقوم فجلس الشيخ وكل ذلك من أعمال المنافقين وقد جاء فى الخبر نعوذ بالله من خشوع المنافقين وانما خشوع النفاق أن تخشع الجوارح والقلب غير خاشع ومن ذلك الاستغفار والاستعاذة بالله من عذابه وغضبه فان ذلك قد يكون لخاطر خوف وتذكر ذنب وتندم عليه وقد يكون للمراآة فهذه خواطر ترد على القلب متضادة مترادفة متقاربة وهى مع تقاربها متشابهة فراقب قلبك فى كل ما يخطر لك وانظر ماهو ومن أين هو فان كان لله فامضه واحذر مع ذلك أن يكون قد خفى عليك شئ من الرياء الذى هو كدبيب النمل وكن على وجل من عبادتك أهى مقبولة أم لا لخوفك على الاخلاص فيها واحذر أن يتجدد لك خاطر الركون الى حمدهم بعد الشروع بالاخلاص فان ذلك مما يكثر جدا فاذا خطر لك فتفكر فى اطلاع الله عليك ومقته لك وتذكر ما قاله أحد الثلاثة الذين حاجوا أيوب عليه السلام اذ قال يا أيوب اما علمت أن العبد تضل عنه علانيته التى كان يخادع بها عن نفسه ويجزى بسريرته وقول بعضهم أعوذ بك أن يرى الناس انى أخشاك وأنت لى ماقت وكان من دعاء على بن الحسين رضى الله عنهما اللهم انى أعوذ بك أن تحسن فى لامعة العيون علانيتى وتقبح لك فيما أخلو سريرتى محافظا على رياء الناس من نفسى ومضيعا لما أنت مطلع عليه منى أبدى للناس أحسن أمرى وأفضى اليك بأسوإ عملى تقربا الى الناس بحسناتى وفرارا منهم اليك بسيآتى فيحل بى مقتك ويجب على غضبك أعذنى من ذلك يارب العالمين وقد قال أحد الثلاثة نفر لايوب عليه السلام يا أيوب ألم تعلم ان الذين حفظوا علانيتهم وأضاعوا سرائرهم عند طلب الحاجات الى الرحمن تسود وجوههم فهذه جمل آفات الرياء فليراقب العبد قلبه ليقف عليها ففى الخبر ان للرياء سبعين بابا وقد عرفت ان بعضه أغمض من بعض حتى ان بعضه مثل دبيب النمل وبعضه أخفى من دبيب النمل وكيف يدرك ماهو أخفى من دبيب النمل الا بشدة التفقد والمراقبة وليته أدرك بعد بذل المجهود فكيف يطمع فى ادراكه من غير تفقد للقلب وامتحان للنفس وتفتيش عن خدعها نسأل الله تعالى العافية بمنه وكرمه واحسانه

﴿ بيان ماينبغى للمريد أن يلزم نفسه قبل العمل وبعده وفيه ﴾

اعلم ان أولى مايلزم المريد قلبه فى سائر أوقاته القناعة بعلم الله فى جميع طاعاته ولا يقنع بعلم الله الا من لايخاف الا الله ولا يرجو الا الله فامامن خاف غيره وارتجاه اشتهى اطلاعه على محاسن أحواله فان كان فى هذه الرتبة فليلزم قلبه كراهة ذلك من جهة العقل والايمان لما فيه من خطر التعرض للمقت وليراقب نفسه عند الطاعات العظيمة الشاقة التى لايقدر عليها غيره فان النفس عند ذلك تكاد تغلى حرصا على الافشاء وتقول مثل هذا العمل العظيم أو الخوف العظيم أو البكاء العظيم لو عرفه الخلق منك لسجدوا لك فما فى الخلق من يقدر على مثله فكيف ترضى باخفائه فيجهل الناس محلك وينكرون قدرك ويحرمون الاقتداء بك ففى مثل هذا الامر ينبغى ان يثبت قدمه ويتذكر فى مقابلة عظم عمله عظم ملك الآخرة ونعيم الجنة ودوامه أبد الآباد وعظم غضب الله ومقته على من طلب بطاعته ثوابا من عباده ويعلم أن اظهاره لغيره محبب اليه وسقوط عند الله واحباط للعمل العظيم فيقول وكيف أتبع مثل هذا العمل بحمد الخلق وهم عاجزون لايقدرون لى على رزق ولا أجل فيلزم ذلك قلبه ولا ينبغى أن ييأس عنه فيقول انما يقدر على الاخلاص الاقوياء فاما المخلطون فليس ذلك من شأنهم فيترك المجاهدة فى الاخلاص لان المخلط الى ذلك أحوج من المتقى لان المتقى ان فسدت نوافله بقيت فرائضه كاملة تامة والمخلط لاتخلو فرائضه عن النقصان والحاجة الى الجبران بالنوافل فان لم تسلم صار مأخوذا بالفرائض وهلك به فالمخلط الى الاخلاص أحوج * وقد روى تميم الدارى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال يحاسب العبد يوم القيامة فان

فمن المناسب أن يكون لباسهم مشاكلا لطعامهم وطعامهم مشاكلا لكلامهم وكلامهم مشاكلا لمنامهم لان التناسب الواقع فى النفس مقيد بالعلم والتشابه والتماثل فى الاحوال يحكم به العلم ومتصوفة الزمان ملتزمون بشئ من التناسب مع مزج الهوى وماعندهم من التطلع الى التناسب رشح حال سلفهم فى وجود التناسب قال أبو سليمان الدارانى يلبس أحدهم عباءة بثلاثة دراهم وشهوته فى بطنه بخمسة دراهم أنكر ذلك لعدم التناسب فمن خشن ثوبه ينبغى أن يكون مأكوله من جنسه واذا اختلف الثوب والمأكول يدل على وجود انحراف لوجود هوى كامن فى أحد الطرفين امافى طرف الثوب لموضع نظر الخلق وامافى طرف المأكول لفرط الشره وكلا الوصفين مرض

نقص فرضه قيل انظر واهل له من تطوع فان كان له تطوع أكمل به فرضه وان لم يكن له تطوع أخذ بطرفيه
فالقى فى النار فيأتى المخلط يوم القيامة وفرضه ناقص وعليه ذنوب كثيرة فاجتهاده فى جبر الفرائض وتكفير
السيئات ولا يمكن ذلك الا بخلوص النوافل وأما المتقى فجهده فى زيادة الدرجات فان حبط تطوعه بقى من حسناته
ما يترجح على السيئات فيدخل الجنة فاذا ينبغى ان يلزم قلبه خوف اطلاع غير الله عليه لتصح نوافله ثم يلزم قلبه
ذلك بعد الفراغ حتى لا يظهره ولا يتحدث به واذا فعل جميع ذلك فينبغى أن يكون وجلا من عمله خائفا أنه ربما
داخله من الرياء الخفى ما لم يقف عليه فيكون شاكا فى قبوله ورده مجوزا أن يكون الله قد أحصى عليه من نيته
الخفية ما مقته بها ورد عمله بسببها ويكون هذا الشك والخوف فى دوام عمله وبعده الا فى ابتداء العقد بل ينبغى أن
يكون متيقنا فى الابتداء أنه مخلص ما يريد بعمله الا الله حتى يصح عمله فاذا شرع ومضت لحظة يمكن فيها الغفلة
والنسيان كان الخوف من الغفلة عن شائبة خفية أحبطت عمله من رياء أو عجب أولى به ولكن يكون رجاؤه
أغلب من خوفه لانه استيقن أنه دخل بالاخلاص وشك فى أنه هل أفسده برياء فيكون رجاء القبول أغلب
وبذلك تعظم لذته فى المناجاة والطاعات فالاخلاص يقين والرياء شك وخوفه لذلك الشك جدير بأن يكفر
خاطر الرياء ان كان قد سبق وهو غافل عنه والذى يتقرب الى الله بالسعى فى حوائج الناس وافادة العلم ينبغى
أن يلزم نفسه رجاء الثواب على دخول السرور على قلب من قضى حاجته فقط ورجاء الثواب على عمل
المتعلم بعلمه فقط دون شكر ومكافأة وحمد وثناء من المتعلم والمنعم عليه فان ذلك يحبط الاجر فمهما توقع من
المتعلم مساعدة فى شغل وخدمة أو مرافقة فى المشى فى الطريق ليستكثر باستتباعه أو ترددا منه فى حاجة فقد
أخذ أجره فلا ثواب له غيره نعم ان لم يتوقع هو ولم يقصد الا الثواب على عمله بعلمه ليكون له مثل أجره ولكن
خدمه التلميذ بنفسه فقبل خدمته فنرجو منه أن لا يحبط ذلك أجره اذا كان لا ينتظره ولا يريده منه ولا يستبعده
لو قطعه ومع هذا فقد كان العلماء يحذرون هذا حتى ان بعضهم وقع فى بئر وجاء قوم فأدلوا حبلا ليرفعوه
فحلف عليهم أن لا يقف معهم من قرأ عليه آية من القرآن أو سمع منه حديثا خيفة أن يحبط أجره وقال شقيق
البلخى أهديت لسفيان الثورى ثوبا فرده على فقلت له يا أبا عبد الله لست أنا ممن يسمع الحديث حتى ترده على
قال علمت ذلك ولكن أخوك يسمع منى الحديث فأخاف ان يلين قلبى لاخيك أكثر مما يلين لغيره وجاء رجل
الى سفيان ببدرة أو بدرتين وكان أبوه صديقا لسفيان وكان سفيان يأتيه كثيرا فقال له يا أبا عبد الله فى نفسك من
أبى شئ فقال يرحم الله أباك كان وكان وأثنى عليه فقال يا أبا عبد الله قد عرفت كيف صار هذا المال الى فأحب
ان تأخذ هذه تستعين بها على عيالك قال فقبل سفيان ذلك قال فلما خرج قال لولده يا مبارك ألحقه فرده على
فرجع فقال أحب أن تأخذ مالك فلم يزل به حتى رده عليه وكانه كانت اخوته مع أبيه فى الله تعالى فكره أن
يأخذ ذلك قال ولده فلما خرج لم أملك نفسى أن جئت اليه فقلت ويلك أى شئ قلبك هذا حجارة عد أنه ليس
لك عيال أما ترحمنى أما ترحم اخوتك أما ترحم عيالنا فأكثرت عليه فقال الله يا مبارك تأكلها أنت هنيأ مريأ واسئل
عنها أنا فاذا يجب على العالم ان يلزم قلبه طلب الثواب من الله فى اهتداء الناس به فقط ويجب على المتعلم أن يلزم
قلبه حمد الله وطلب ثوابه ونيل المنزلة عنده لا عند المعلم وعند الخلق وربما يظن أن له أن يرائى بطاعته لينال
عند المعلم رتبة فيتعلم منه وهو خطأ لان ارادته بطاعته غير الله خسران فى الحال والعلم ربما يفيد وربما لا يفيد
فكيف يخسر فى الحال عملا نقدا على توهم علم وذلك غير جائز بل ينبغى أن يتعلم لله ويعبد الله ويخدم المعلم لله
لا ليكون له فى قلبه منزلة ان كان يريد ان يكون تعلمه طاعة فان العباد أمروا أن لا يعبدوا الا الله ولا يريدوا
بطاعتهم غيره وكذلك من يخدم أبويه لا ينبغى أن يخدمهما لطلب المنزلة عندهما الا من حيث ان رضا الله عنه
فى رضا الوالدين ولا يجوز له أن يرائى بطاعته لينال بها منزلة عند الوالدين فان ذلك معصية فى الحال وسيكشف
الله عن ريائه وتسقط منزلته من قلوب الوالدين أيضا وأما الزاهد المعتزل عن الناس فينبغى له أن يلزم قلبه ذكر
الله والقناعة بعلمه ولا يخطر بقلبه معرفة الناس زهده واستعظامهم محله فان ذلك يغرس الرياء فى صدره حتى
تتيسر عليه العبادات فى خلوته به وانما سكونه لمعرفة الناس باعتزاله واستعظامهم لمحله وهو لا يدرى انه المخفف
للعمل عليه قال ابراهيم بن أدهم رحمه الله تعلمت المعرفة من راهب يقال له سمعان دخلت عليه فى صومعته فقلت

يحتاج الى المداواة ليعود الى حد الاعتدال لبس أبو سليمان الدارانى ثوبا غسيلا فقال له أحمد لو لبست ثوبا أجود من هذا فقال ليت قلبى فى القلوب مثل قميصى فى الثياب فكان الفقراء يلبسون المرقع وربما كانوا يأخذون الخرق من المزابل ويرقعون بها ثوبهم وقد فعل ذلك طائفة من أهل الصلاح وهؤلاء ما كان لهم معلوم يرجعون اليه فكما كانت رقاعهم من المزابل كانت لقمهم من الابواب (وكان) أبو عبد الله الرفاعى مثابرا على الفقر والتوكل ثلاثين سنة وكان اذا حضر للفقراء طعام لا يأكل معهم فيقال له فى ذلك فيقول أنتم تأكلون بحق التوكل وأنا آكل بحق المسكنة ثم يخرج بين العشاءين يطلب الكسر من الابواب وهذا شأن من لا يرجع الى معلوم ولا يدخل تحت منة (حكى) أن جماعة من

باسمعان منذ كم أنت فى صومعتك قال منذ سبعين سنة قلت فما طعامك قال يا حنيفى وما دعاك الى هذا قلت أحببت أن أعلم قال فى كل ليلة حمصة قلت فما الذى يهيج من قلبك حتى تكفيك هذه الحمصة قال ترى الدير الذى بحذائك قلت نعم قال انهم يأتونى فى كل سنة يوما واحدا فيزينون صومعتى و يطوفون حولها و يعظمونى فكلما تثاقلت نفسى عن العبادة ذكرتها عز تلك الساعة فأنا أحتمل جهد سنة لعز ساعة فاحتمل يا حنيفى جهد ساعة لعز الابد فوقر فى قلبى المعرفة فقال حسبك أو أزيدك قلت بلى قال انزل عن الصومعة فنزلت فادلى لى ركوة فيها عشرون حمصة فقال لى ادخل الدير فقد رأوا ما أدليت اليك فلما دخلت الدير اجتمع على النصارى فقالوا يا حنيفى ما الذى أدلى اليك الشيخ قلت من قوته قالوا فما تصنع به ونحن أحق به ثم قالوا ساوم قلت عشرون دينارا فأعطونى عشرين دينارا فرجعت الى الشيخ فقال يا حنيفى ما الذى صنعت قلت بعته منهم قال بكم قلت بعشرين دينارا قال أخطأت لو ساومتهم بعشرين ألف دينار لاعطوك هذا عز من لا تعبده فانظر كيف يكون عز من تعبده يا حنيفى أقبل على ربك ودع الذهاب والجيئة والمقصود ان استشعار النفس عز العظمة فى القلوب يكون باعثا فى الخلوة وقد لا يشعر العبد به فينبغى أن يلزم نفسه الحذر منه وعلامة سلامته أن يكون الخلق عنده والبهائم بمثابة واحدة فلو تغيروا عن اعتقادهم له لم يجزع ولم يضق به ذرعا الا كراهة ضعيفة ان وجدها فى قلبه فيردها فى الحال بعقله وايمانه فانه لو كان فى عبادة واطلع الناس كلهم عليه لم يزده ذلك خشوعا ولم يداخله سرور بسبب اطلاعهم عليه فان دخل سرور يسير فهو دليل ضعفه ولكن اذا قدر على رده بكراهة العقل والايمان و بادر الى ذلك ولم يقبل ذلك السرور بالركون اليه فيرجى له أن لا يخيب سعيه الا أن يزيد عند مشاهدتهم فى الخشوع والانقباض كى لا ينبسطوا اليه فذلك لا بأس به ولكن فيه غرور اذ النفس قد تكون شهوتها الخفية اظهار الخشوع وتتعلل بطلب الانقباض فيطالبها فى دعواها قصد الانقباض بموثق من الله غليظ وهو أنه لو علم أن انقباضهم عنه انما حصل بأن يعدو كثيرا أو يضحك كثيرا أو يأكل كثيرا فتسمح نفسه بذلك فاذا لم تسمح وسمحت بالعبادة فيشبه أن يكون مرادها المنزلة عندهم ولا ينجو من ذلك الا من تقرر فى قلبه أنه ليس فى الوجود أحد سوى الله فيعمل عمل من لو كان على وجه الارض وحده لكان يعمله فلا يلتفت قلبه الى الخلق الا خطرات ضعيفة لا يشق عليه ازالتها فاذا كان كذلك لم يتغير بمشاهدة الخلق ومن علامة الصدق فيه أنه لو كان له صاحبان أحدهما غنى والآخر فقير فلا يجد عند اقبال الغنى زيادة هزة فى نفسه لاكرامه الا اذا كان فى الغنى زيادة علم أو زيادة ورع فيكون مكرما له بذلك الوصف لا بالغنى فمن كان استرواحه الى مشاهدة الاغنياء أكثر فهو مراء أو طماع والا فالنظر الى الفقراء يزيد فى الرغبة الى الآخرة ويحبب الى القلب المسكنة والنظر الى الاغنياء بخلافه فكيف استروح بالنظر الى الغنى أكثر مما يستروح الى الفقير وقد حكى أنه لم ير الاغنياء فى مجلس أذل منهم فى مجلس سفيان الثورى كان يجلسهم وراء الصف ويقدم الفقراء حتى كانوا يتمنون أنهم فقراء فى مجلسه نعم لك زيادة اكرام للغنى اذا كان أقرب اليك أو كان بينك و بينه حق وصداقة سابقة ولكن يكون بحيث لو وجدت تلك العلاقة فى فقير لكنت لا تقدم الغنى عليه فى اكرام وتوقير ألبتة فان الفقير أكرم على الله من الغنى فايثارك له لا يكون الا طمعا فى غناه ورياء له ثم اذا سويت بينهما فى المجالسة فيخشى عليك أن تظهر الحكمة والخشوع للغنى أكثر مما تظهره للفقير وانما ذلك رياء خفى أو طمع خفى كما قال ابن السماك لجارية له مالى اذا أتيت بغداد فتحت لى الحكمة فقالت الطمع يشحذ لسانك وقد صدقت فان اللسان ينطلق عند الغنى بما لا ينطلق به عند الفقير وكذلك يحضر من الخشوع عنده ما لا يحضر عند الفقير ومكايد النفس وخفاياها فى هذا الفن لا تنحصر ولا ينجيك منها الا أن تخرج ما سوى الله من قلبك و تتجرد بالشفقة على نفسك بقية عمرك ولا ترضى لها بالنار بسبب شهوات منغصة فى أيام متقاربة وتكون فى الدنيا كملك من ملوك الدنيا قد أمكنته الشهوات وساعدته اللذات ولكن فى بدنه سقم وهو يخاف الهلاك على نفسه فى كل ساعة لو اتسع فى الشهوات وعلم أنه لو احتمى وجاهد شهوته عاش ودام ملكه فلما عرف ذلك جالس الاطباء وحارف الصيادلة وعود نفسه شرب الادوية المرة وصبر على بشاعتها وهجر جميع اللذات وصبر على مفارقتها فبدنه كل يوم يزداد نحولا لقلة أكله ولكن سقمه يزداد كل يوم نقصانا لشدة احتمائه فهما نازعته نفسه

أصحاب المرقعات دخلوا على بشر بن الحرث فقال لهم يا قوم اتقوا الله ولا تظهروا هذا الزى فانكم تعرفون به وتكرمون له فسكتوا كلهم فقال له غلام منهم الحمد لله الذى جعلنا ممن يعرف به ويكرم له والله ليظهرن هذا الزى حتى يكون الدين كله لله فقال له بشر أحسنت يا غلام مثلك من يلبس المرقعة فكان أحدهم يبقى زمانه لا يطوى غير ثوبه الذى عليه (وروى) أن أمير المؤمنين عليا رضى الله عنه لبس قميصا اشتراه بثلاثة دراهم ثم قطع كمه من رؤس أصابعه وروى عنه أنه قال لعمر بن الخطاب ان أردت أن تلقى صاحبك فرقع قميصك واخصف نعلك وقصر أملك وكل دون الشبع (وحكى) عن الجريرى قال كان فى جامع بغداد رجل لا تكاد تجده الا فى ثوب واحد فى الشتاء

الى شهوة تفكر فى توالى الاوجاع والآلام عليه وأداء ذلك الى الموت المفرق بينه و بين مملكته الموجب لشماتة الاعداء ومهما اشتد عليه شرب دواء تفكر فيما يستفيده منه من الشفاء الذى هو سبب التمتع بملكه ونعيمه فى عيش هنىء و بدن صحيح وقلب رخى وأمر نافذ فيخف عليه مهاجرة اللذات ومصابرة المكروهات فكذلك المؤمن المريد لملك الآخرة احتمى عن كل مهلك له فى آخرته وهى لذات الدنيا وزهرتها فاجتزى منها بالقليل واختار النحول والذبول والوحشة والحزن والخوف وترك المؤانسة بالخلق خوفا من أن يحل عليه غضب من الله فيهلك ورجاء أن ينجو من عذابه فخف ذلك كله عليه عند شدة يقينه وايمانه بعاقبة أمره و بما أعدله من النعيم المقيم فى رضوان الله أبد الآباد ثم علم أن الله كريم رحيم لم يزل لعباده المريدين لمرضاته عونا و بهم رؤفا وعليهم عطوفا ولوشاء لاغناهم عن التعب والنصب ولكن أراد أن يبلوهم و يعرف صدق ارادتهم حكمة منه وعدلا ثم اذا تحمل التعب فى بدايته أقبل الله عليه بالمعونة والتيسير وحط عنه الاعباء وسهل عليه الصبر وحبب اليه الطاعة ورزقه فيها من لذة المناجاة ما يلهيه عن سائر اللذات و يقويه على اماتة الشهوات و يتولى سياسته وتقويته وأمده بمعونته فان الكريم لا يضيع سعى الراجى ولا يخيب أمل المحب وهو الذى يقول من تقرب الى شبرا تقربت اليه ذراعا و يقول تعالى لقد طال شوق الابرار الى لقائى وانى الى لقائهم أشد شوقا فليظهر العبد فى البداية جده وصدقه واخلاصه فلا يعوزه من الله تعالى على القرب ما هو اللائق بجوده وكرمه و رأفته و رحمته تم كتاب ذم الجاه والرياء والحمد لله وحده

﴿ كتاب ذم الكبر والعجب وهو الكتاب التاسع من ربع المهلكات من كتب احياء علوم الدين ﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الخالق البارئ المصور العزيز الجبار المتكبر العلى الذى لا يضعه عن مجده واضع الجبار الذى كل جبار له ذليل خاضع وكل متكبر فى جناب عزه مسكين متواضع فهو القهار الذى لا يدفعه عن مراده دافع الغنى الذى ليس له شريك ولا منازع القادر الذى بهر أبصار الخلائق جلاله و بهاؤه وقهر العرش المجيد استواؤه واستعلاؤه واستيلاؤه وحصر ألسن الانبياء وصفه وثناؤه وارتفع عن حد قدرتهم احصاؤه واستقصاؤه فاعترف بالعجز عن وصف كنه جلاله ملائكته وأنبياؤه وكسر ظهور الاكاسرة عزه وعلاؤه وقصر أيدى القياصرة عظمته وكبرياؤه فالعظمة ازاره والكبرياء رداؤه ومن نازعه فيهما قصمه بداء الموت فأعجزه دواؤه جل جلاله وتقدست أسماؤه والصلاة على محمد الذى أنزل عليه النور المنتشر ضياؤه حتى أشرقت بنوره أكناف العالم وأرجاؤه وعلى آله وأصحابه الذين هم أحباء الله وأولياؤه وخيرته وأصفياؤه وسلم تسليما كثيرا (أما بعد) فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى الكبرياء ردائى والعظمة ازارى فمن نازعنى فيهما قصمته وقال صلى الله عليه وسلم ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه فالكبر والعجب داآن مهلكان والمتكبر والمعجب سقيمان مريضان وهما عند الله ممقوتان بغيضان واذا كان القصد فى هذا الربع من كتاب احياء علوم الدين شرح المهلكات وجب ايضاح الكبر والعجب فانهما من قبائح المرديات ونحن نستقصى بيانهما من الكتاب فى شطرين شطر فى الكبر وشطر فى العجب (الشطر الاول) من الكتاب فى الكبر وفيه بيان ذم الكبر و بيان ذم الاختيال و بيان فضيلة التواضع و بيان حقيقة التكبر وآفته و بيان من يتكبر عليه ودرجات التكبر و بيان ما به التكبر و بيان البواعث على التكبر و بيان أخلاق المتواضعين وما فيه يظهر التكبر و بيان علاج الكبر و بيان امتحان النفس فى خلق الكبر و بيان المحمود من خلق التواضع والمذموم منه

﴿ بيان ذم الكبر ﴾

قد ذم الله الكبر فى مواضع من كتابه وذم كل جبار متكبر فقال تعالى سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الارض بغير الحق وقال عز وجل كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار وقال تعالى واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد وقال تعالى انه لا يحب المستكبرين وقال تعالى لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا وقال تعالى ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين وذم الكبر فى القرآن كثير وقد قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم

والصيف فسئل عن ذلك فقال قد كنت ولعت بكثرة لبس الثياب فرأيت ليلة فيما يرى النائم كأنى دخلت الجنة فرأيت جماعة من أصحابنا من الفقراء على مائدة فأردت أن أجلس معهم فاذا بجماعة من الملائكة أخذوا بيدى وأقامونى وقالوا لى هؤلاء أصحاب ثوب واحد وأنت لك قميصان فلا تجلس معهم فانتبهت ونذرت أن لا ألبس الا ثوبا واحدا الى أن ألقى الله تعالى (وقيل) مات أبو يزيد ولم يترك الا قميصه الذى كان عليه وكان عارية فردوه الى صاحبه (وحكى) لنا عن الشيخ حماد شيخ شيخنا أنه بقى زمانا لا يلبس الثوب الا مستأجرا حتى أنه لم يلبس على ملك نفسه شيأ (وقال أبو حفص الحداد) اذا رأيت وضاءة الفقير فى ثوبه فلا ترج خيره وقيل مات ابن الكرنبى

وسلم لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من ايمان وقال أبو هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة ازاري فمن نازعني واحدا منهما ألقيته في جهنم ولا أبالي وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال التقى عبد الله ابن عمرو وعبد الله بن عمر على الصفا فتواقفا فمضى ابن عمرو وأقام ابن عمر يبكي فقالوا ما يبكيك يا أبا عبد الرحمن فقال هذا يعني عبد الله بن عمرو زعم أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر أكبه الله في النار على وجهه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين فيصيبه ما أصابهم من العذاب وقال سليمان بن داود عليهما السلام يوما للطير والانس والجن والبهائم أخرجوا فخرجوا في مائتي ألف من الانس ومائتي ألف من الجن فرفع حتى سمع زجل الملائكة بالتسبيح في السموات ثم خفض حتى مست أقدامه البحر فسمع صوتا لو كان في قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر لخسفت به أبعد مما رفعته وقال صلى الله عليه وسلم يخرج من النار عنق له أذنان تسمعان وعينان تبصران ولسان ينطق يقول وكلت بثلاثة بكل جبار عنيد وبكل من دعا مع الله الها آخر وبالمصورين وقال صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة بخيل ولا جبار ولا سيء الملكة وقال صلى الله عليه وسلم تحاجت الجنة والنار فقالت النار أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين وقالت الجنة مالي لا يدخلني الا ضعفاء الناس وسقاطهم وعجزتهم فقال الله للجنة انما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي وقال للنار انما أنت عذابي أعذب بك من أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها وقال صلى الله عليه وسلم بئس العبد عبد تجبر واعتدى ونسي الجبار الاعلى بئس العبد عبد تجبر واختال ونسي الكبير المتعال بئس العبد عبد غفل وسها ونسي المقابر والبلى بئس العبد عبد عتا وبغى ونسي المبدأ والمنتهى وعن ثابت أنه قال بلغنا انه قيل يا رسول الله ما أعظم كبر فلان فقال أليس بعده الموت وقال عبد الله بن عمرو ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان نوحا عليه السلام لما حضرته الوفاة دعا ابنيه وقال اني آمركما باثنتين وأنهاكما عن اثنتين أنهاكما عن الشرك والكبر وآمركما بلا اله الا الله فان السموات والارضين وما فيهن لو وضعت في كفة الميزان ووضعت لا اله الا الله في الكفة الاخرى كانت أرجح منهما ولو أن السموات والارضين وما فيهن كانتا حلقة فوضعت لا اله الا الله عليها لقصمتها وآمركما بسبحان الله وبحمده فانها صلاة كل شيء وبها يرزق كل شيء وقال المسيح عليه السلام طوبى لمن علمه الله كتابه ثم لم يمت جبارا وقال صلى الله عليه وسلم أهل النار كل جعظري جواظ مستكبر جماع مناع وأهل الجنة الضعفاء المقلون وقال صلى الله عليه وسلم ان أحبكم الينا وأقربكم منا في الآخرة أحاسنكم أخلاقا وان أبغضكم الينا وأبعدكم منا الثرثارون المتشدقون المتفيهقون قالوا يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون قال المتكبرون وقال صلى الله عليه وسلم يحشر المتكبرون يوم القيامة في مثل صور الذر تطؤهم الناس ذرا في مثل صور الرجال يعلوهم كل شيء من الصغار ثم يساقون الى سجن في جهنم يقال له بولس يعلوهم نار الانيار يسقون من طين الخبال عصارة أهل النار وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة في صور الذر تطؤهم الناس لهوانهم على الله تعالى وعن محمد بن واسع قال دخلت على بلال بن أبي بردة فقلت له يا بلال ان أباك حدثني عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان في جهنم واديا يقال له هبهب حق على الله أن يسكنه كل جبار فاياك يا بلال أن تكون ممن يسكنه وقال صلى الله عليه وسلم ان في النار قصرا يجعل فيه المتكبرون ويطبق عليهم وقال صلى الله عليه وسلم اللهم اني أعوذ بك من نفخة الكبرياء وقال من فارق الروح جسده وهو بريء من ثلاث دخل الجنة الكبر والدين والغلول

* الآثار *

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لا يحقرن أحد أحدا من المسلمين فان صغير المسلمين عند الله كبير وقال وهب لما خلق الله جنة عدن نظر اليها فقال أنت حرام على كل متكبر وكان الاحنف بن قيس يجلس مع مصعب بن الزبير على سريره فجاء يوما ومصعب ماد رجليه فلم يقبضهما وقعد الاحنف فزحمه بعض الزحمة فرأى أثر ذلك في وجهه فقال عجبا لابن آدم يتكبر وقد خرج من مجرى البول مرتين وقال الحسن العجب من ابن آدم يغسل الخرء بيده كل يوم مرة أو مرتين ثم يعارض جبار السموات وقد قيل في وفي أنفسكم أفلا تبصرون هو سبيل الغائط والبول وقال محمد بن الحسين

وكان أستاذ الجنيد وعليه مرقعة قيل كان وزن فردكم له وتخاريصه ثلاثة عشر رطلا فقد يكون جمع من الصالحين على هذا الزي والتخشن وقد يكون جمع من الصالحين يتكلفون لبس غير المرقع وزي الفقراء ويكون نيتهم في ذلك ستر الحال أو خوف عدم النهوض بواجب حق المرقعة (وقيل) كان أبو حفص الحداد يلبس الناعم وله بيت فرش فيه الرمل لعله كان ينام عليه بالاوطاء وقد كان قوم من أصحاب الصفة يكرهون أن يجعلوا بينهم وبين التراب حائلا ويكون لبس أبي حفص الناعم بعلم ونية يلق الله تعالى بصحتها وهكذا الصادقون ان لبسوا غير الخشن من الثوب لنية تكون لهم في ذلك فلا يعترض عليهم غير أن لبس الخشن والمرقع يصلح لسائر الفقراء بنية التقلل من

ابن علي ما دخل قلب امرئ شيء من الكبر قط الا نقص من عقله بقدر ما دخل من ذلك قل أو كثر وسئل سلمان عن السيئة التي لا تنفع معها حسنة فقال الكبر وقال النعمان بن بشير على المنبر ان للشيطان مصالي وفخوخا وان من مصالي الشيطان وفخوخه البطر بأنعم الله والفخر باعطاء الله والكبر على عباد الله واتباع الهوى في غير ذات الله نسأل الله تعالى العفو والعافية في الدنيا والآخرة بمنه وكرمه

﴿ بيان ذم الاختيال واظهار آثار الكبر في المشي وجر الثياب ﴾

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينظر الله الى رجل يجر ازاره بطرا وقال صلى الله عليه وسلم بينما رجل يتبختر في بردته اذ أعجبته نفسه فخسف الله به الارض فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة وقال صلى الله عليه وسلم من جر ثوبه خيلاء لا ينظر الله اليه يوم القيامة وقال زيد بن أسلم دخلت على ابن عمر فمر به عبد الله بن واقد وعليه ثوب جديد فسمعته يقول أي بني ارفع ازارك فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا ينظر الله الى من جر ازاره خيلاء وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بصق يوما على كفه ووضع أصبعه عليه وقال يقول الله تعالى ابن آدم أتعجزني وقد خلقتك من مثل هذه حتى اذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللارض منك وئيد جمعت ومنعت حتى اذا بلغت التراقي قلت أتصدق وأنى أوان الصدقة وقال صلى الله عليه وسلم اذا مشت أمتي المطيطاء وخدمتهم فارس والروم سلط الله بعضهم على بعض قال ابن الاعرابي هي مشية فيها اختيال وقال صلى الله عليه وسلم من تعظم في نفسه واختال في مشيته لقي الله وهو عليه غضبان (الآثار) عن أبي بكر الهذلي قال بينما نحن مع الحسن اذ مر علينا ابن الاهتم يريد المقصورة وعليه جباب خز قد نضد بعضها فوق بعض على ساقه وانفرج عنها قباؤه وهو يمشي يتبختر اذ نظر اليه الحسن نظرة فقال أف أف شامخ بأنفه ثاني عطفيه مصعر خده ينظر في عطفيه أي حميق أنت تنظر في عطفيك في نعم غير مشكورة ولا مذكورة غير المأخوذ بأمر الله فيها ولا المؤدي حق الله منها والله ان يمشي أحد طبيعته يتخلج تخلج المجنون في كل عضو من أعضائه لله نعمة وللشيطان به لفتة فسمع ابن الاهتم فرجع يعتذر اليه فقال لا تعتذر الي وتب الى ربك أما سمعت قول الله تعالى ولا تمش في الارض مرحا انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا ومر بالحسن شاب عليه بزة له حسنة فدعاه فقال له ابن آدم معجب بشبابه محب لشمائله كأن القبر قد وارى بدنك وكأنك قد لاقيت عملك ويحك داو قلبك فان حاجة الله الى العباد صلاح قلوبهم * وروى أن عمر بن عبد العزيز حج قبل أن يستخلف فنظر اليه طاوس وهو يختال في مشيته فغمز جنبه باصبعه ثم قال ليست هذه مشية من في بطنه خرء فقال عمر كالمعتذر يا عم لقد ضرب كل عضو مني على هذه المشية حتى تعلمتها ورأى محمد بن واسع ولده يختال فدعاه وقال أتدري من أنت أما أمك فاشتريتها بمائتي درهم وأما أبوك فلا أكثر الله في المسلمين مثله ورأى ابن عمر رجلا يجر ازاره فقال ان للشيطان اخوانا كررها مرتين أو ثلاثا ويروى أن مطرف بن عبد الله بن الشخير رأى المهلب وهو يتبختر في جبة خز فقال يا عبد الله هذه مشية يبغضها الله ورسوله فقال له المهلب أما تعرفني فقال بلى أعرفك أولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة وأنت بين ذلك تحمل العذرة فمضى المهلب وترك مشيته تلك وقال مجاهد في قوله تعالى ثم ذهب الى أهله يتمطى أي يتبختر واذ قد ذكرنا ذم الكبر والاختيال فلنذكر فضيلة التواضع والله تعالى أعلم

﴿ بيان فضيلة التواضع ﴾

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما زاد الله عبدا بعفو الا عزا وما تواضع أحد لله الا رفعه الله وقال صلى الله عليه وسلم ما من أحد الا ومعه ملكان وعليه حكمة يمسكانه بها فان هو رفع نفسه جبذاها ثم قالا اللهم ضعه وان وضع نفسه قالا اللهم ارفعه وقال صلى الله عليه وسلم طوبى لمن تواضع في غير مسكنة وأنفق مالا جمعه في غير معصية ورحم أهل الذل والمسكنة وخالط أهل الفقه والحكمة وعن أبي سلمة المديني عن أبيه عن جده قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عندنا بقباء وكان صائما فأتيناه عند افطاره بقدح من لبن وجعلنا فيه شيأ من عسل فلما رفعه وذاقه وجد حلاوة العسل فقال ما هذا قلنا يا رسول الله جعلنا فيه شيأ من عسل فوضعه وقال أما اني لا أحرمه ومن تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ومن اقتصد أغناه الله ومن بذر أفقره الله ومن أكثر ذكر الله أحبه الله وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في نفر من أصحابه في بيته يأكلون فقام سائل على الباب وبه زمانة يتكره منها فاذن له فلما

الدنيا وزهرتها وبهجتها وقد ورد من ترك ثوب جمال وهو قادر على لبسه ألبسه الله تعالى من حلل الجنة وأما لبس الناعم فلا يصلح الا لعالم بحاله بصير بصفات نفسه متفقد خفي شهوات النفس يلقى الله تعالى بحسن النية في ذلك فلحسن النية في ذلك وجوه متعددة يطول شرحها ومن الناس من لا يقصد لبس ثوب بعينه لخشونته ولا لنعومته بل يلبس ما يدخله الحق عليه فيكون بحكم الوقت وهذا حسن وأحسن من ذلك انه يتفقد نفسه فيه فان رأى للنفس شرها وشهوة خفية أو حلية في الثوب الذي أدخله الله عليه يخرجه الا أن يكون حاله مع الله ترك الاختيار فعند ذلك لا يسعه الا أن يلبس الثوب الذي ساقه الله اليه وقد كان شيخنا أبو النجيب السهروردي رحمه الله لا يتقيد بهيئة

دخل أجلسه رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذه ثم قال له اطعم فكان رجلا من قريش اشمأز منه وتكرهه فامات ذلك الرجل حتى كانت به زمانة مثلها وقال صلى الله عليه وسلم خيرني ربي بين أمرين أن أكون عبدا رسولا أو ملكا نبيا فلم أدر أيهما أختار وكان صفيي من الملائكة جبريل فرفعت رأسي اليه فقال تواضع لربك فقلت عبدا رسولا وأوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام انما أقبل صلاة من تواضع لعظمتي ولم يتعاظم على خلقي وألزم قلبه خوفي وقطع نهاره بذكري وكف نفسه عن الشهوات من أجلي وقال صلى الله عليه وسلم الكرم التقوى والشرف التواضع واليقين الغنى وقال المسيح عليه السلام طوبى للمتواضعين في الدنيا هم أصحاب المنابر يوم القيامة طوبى للمصلحين بين الناس في الدنيا هم الذين يرثون الفردوس يوم القيامة طوبى للمطهرة قلوبهم في الدنيا هم الذين ينظرون الى الله تعالى يوم القيامة وقال بعضهم بلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا هدى الله عبدا للاسلام وحسن صورته وجعله في موضع غير شائن له ورزقه مع ذلك تواضعا فذلك من صفوة الله وقال صلى الله عليه وسلم أربع لا يعطيهن الله الا من أحب الصمت وهو أول العبادة والتوكل على الله والتواضع والزهد في الدنيا وقال ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا تواضع العبد رفعه الله الى السماء السابعة وقال صلى الله عليه وسلم التواضع لا يزيد العبد الا رفعة فتواضعوا يرحمكم الله ويروى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يطعم فجاء رجل أسود به جدري قد تقشر فجعل لا يجلس الى أحد الا قام من جنبه فأجلسه النبي صلى الله عليه وسلم الى جنبه وقال صلى الله عليه وسلم انه ليعجبني أن يحمل الرجل الشئ في يده يكون مهنة لاهله يدفع به الكبر عن نفسه وقال النبي صلى الله عليه وسلم لاصحابه يوما مالي لا أرى عليكم حلاوة العبادة قالوا وما حلاوة العبادة قال التواضع وقال صلى الله عليه وسلم اذا رأيتم المتواضعين من أمتي فتواضعوا لهم واذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم فان ذلك مذلة لهم وصغار (الآثار) قال عمر رضي الله عنه ان العبد اذا تواضع لله رفع الله حكمته وقال انتعش رفعك الله واذا تكبر وعدى طوره رهصه الله في الارض وقال اخسأ أخسأك الله فهو في نفسه كبير وفي أعين الناس حقير حتى انه لاحقر عندهم من الخنزير وقال جرير بن عبد الله انتهيت مرة الى شجرة تحتها رجل نائم قد استظل بنطع له وقد جاوزت الشمس النطع فسويته عليه ثم ان الرجل استيقظ فاذا هو سلمان الفارسي فذكرت له ما صنعت فقال لي يا جرير تواضع لله في الدنيا فانه من تواضع لله في الدنيا رفعه الله يوم القيامة يا جرير أتدري ما ظلمة النار يوم القيامة قلت لا قال انه ظلم الناس بعضهم بعضا في الدنيا وقالت عائشة رضي الله عنها انكم لتغفلون عن أفضل العبادات التواضع وقال يوسف بن اسباط يجزي قليل الورع من كثير العمل ويجزي قليل التواضع من كثير الاجتهاد وقال الفضيل وقد سئل عن التواضع ما هو فقال أن تخضع للحق وتنقاد له ولو سمعته من صبي قبلته ولو سمعته من أجهل الناس قبلته وقال ابن المبارك رأس التواضع أن تضع نفسك عند من دونك في نعمة الدنيا حتى تعلمه أنه ليس لك بدنياك عليه فضل وأن ترفع نفسك عمن هو فوقك في الدنيا حتى تعلمه انه ليس له بدنياه عليك فضل وقال قتادة من أعطى مالا أو جمالا أو ثيابا أو علما ثم لم يتواضع فيه كان عليه وبالا يوم القيامة وقيل أوحى الله تعالى الى عيسى عليه السلام اذا أنعمت عليك بنعمة فاستقبلها بالاستكانة أتممها عليك وقال كعب ما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فشكرها لله وتواضع بها لله الا أعطاه الله نفعها في الدنيا ورفع له بها درجة في الآخرة وما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فلم يشكرها ولم يتواضع بها لله الا منعه الله نفعها في الدنيا وفتح له طبقا من النار يعذبه ان شاء أو يتجاوز عنه وقيل لعبد الملك بن مروان أي الرجال أفضل قال من تواضع عن قدرة وزهد عن رغبة وترك النصرة عن قوة ودخل ابن السماك على هرون فقال يا أمير المؤمنين ان تواضعك في شرفك أشرف لك من شرفك فقال ما أحسن ما قلت فقال يا أمير المؤمنين ان امرأ آتاه الله جمالا في خلقته وموضعا في حسبه وبسط له في ذات يده فعف في جماله وواسى من ماله وتواضع في حسبه كتب في ديوان الله من خالص أولياء الله فدعا هرون بدواة وقرطاس وكتبه بيده وكان سليمان بن داود عليهما السلام اذا أصبح تصفح وجوه الاغنياء والاشراف حتى يجيء الى المساكين فيقعد معهم ويقول مسكين مع مساكين وقال بعضهم كما تكره أن يراك الاغنياء في الثياب الدون فكذلك فاكره أن يراك الفقراء في الثياب المرتفعة وروى انه خرج يونس وأيوب والحسن

من الملبوس بل كان يلبس ما يتفق من غير تعمد تكلف واختيار وقد كان يلبس العمامة بعشرة دنانير ويلبس العمامة بدانق وقد كان الشيخ عبد القادر رحمه الله يلبس هيئة مخصوصة ويتطيلس وكان الشيخ على بن الهيتي يلبس لبس فقراء السواد وكان أبو بكر الفراء بزنجان يلبس فروا خشنا كآحاد العوام ولكل في لبسه وهيئته نية صالحة وشرح تفاوت الاقدام في ذلك يطول (وكان) الشيخ أبو السعود رحمه الله حاله مع الله ترك الاختيار وقد يساق اليه الثوب الناعم فيلبسه وكان يقال له ربما يسبق الى بواطن بعض الناس الانكار عليك في لبسك هذا الثوب فيقول لا نلتقي الا أحد رجلين رجل يطالبنا بظاهر حكم الشرع فنقول له هل ترى أن

يتذاكرون التواضع فقال لهم الحسن أتدرون ما التواضع التواضع أن تخرج من منزلك ولا تلقى مسلما الا رأيت له عليك فضلا وقال مجاهد ان الله تعالى لما أغرق قوم نوح عليه السلام شمخت الجبال وتطاولت وتواضع الجودى فرفعه الله فوق الجبال وجعل قرار السفينة عليه وقال أبو سليمان ان الله عز وجل اطلع على قلوب الآدميين فلم يجد قلبا أشد تواضعا من قلب موسى عليه السلام فخصه من بينهم بالكلام وقال يونس بن عبيد وقد انصرف من عرفات لم أشك فى الرحمة لولا أنى كنت معهم انى أخشى انهم حرموا بسببى ويقال أرفع ما يكون المؤمن عند الله أوضع ما يكون عند نفسه وأوضع ما يكون عند الله أرفع ما يكون عند نفسه وقال زياد النميرى الزاهد بغير تواضع كالشجرة التى لا تثمر وقال مالك بن دينار لو ان مناديا ينادى بباب المسجد ليخرج شركم رجلا والله ما كان أحد يسبقنى الى الباب الا رجل بفضل قوة أو سعى قال فلما بلغ ابن المبارك قوله قال بهذا صار مالك مالكا وقال الفضيل من أحب الرياسة لم يفلح أبدا وقال موسى بن القاسم كانت عندنا زلزلة وريح حمراء فذهبت الى محمد بن مقاتل فقلت يا أبا عبد الله أنت امامنا فادع الله عز وجل لنا فبكى ثم قال ليتنى لم أكن سبب هلاككم قال فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى النوم فقال ان الله عز وجل رفع عنكم بدعاء محمد بن مقاتل وجاء رجل الى الشبلى رحمه الله فقال له ما أنت وكان هذا دأبه وعادته فقال أنا النقطة التى تحت الباء فقال له الشبلى أباداالله شاهدك أو تجعل لنفسك موضعا وقال الشبلى فى بعض كلامه ذلى عطل ذل اليهود ويقال من يرى لنفسه قيمة فليس له من التواضع نصيب وعن أبى الفتح بن شخرف قال رأيت على بن أبى طالب رضى الله عنه فى المنام فقلت له يا أبا الحسن عظنى فقال لى ما أحسن التواضع بالاغنياء فى مجالس الفقراء رغبة منهم فى ثواب الله وأحسن من ذلك تيه الفقراء على الاغنياء ثقة منهم بالله عز وجل وقال أبو سليمان لا يتواضع العبد حتى يعرف نفسه وقال أبو يزيد مادام العبد يظن أن فى الخلق من هو شر منه فهو متكبر فقيل له فمتى يكون متواضعا قال اذا لم ير لنفسه مقاما ولا حالا وتواضع كل انسان على قدر معرفته بربه عز وجل ومعرفته بنفسه وقال أبو سليمان لو اجتمع الخلق على أن يضعونى كاتضاعى عند نفسى ماقدروا عليه وقال عروة بن الورد التواضع أحد مصايد الشرف وكل نعمة محسود عليها صاحبها الا التواضع وقال يحيى بن خالد البرمكى الشريف اذا تنسك تواضع والسفيه اذا تنسك تعاظم وقال يحيى بن معاذ التكبر على ذى التكبر عليك بماله تواضع ويقال التواضع فى الخلق كلهم حسن وفى الأغنياء أحسن والتكبر فى الخلق كلهم قبيح وفى الفقراء أقبح ويقال لا عز الا لمن تذلل لله عز وجل ولا رفعة الا لمن تواضع لله عز وجل ولا أمن الا لمن خاف الله عز وجل ولا ربح الا لمن ابتاع نفسه من الله عز وجل وقال أبو على الجوزجانى النفس معجونة بالكبر والحرص والحسد فمن أراد الله تعالى هلاكه منع منه التواضع والنصيحة والقناعة واذا أراد الله تعالى به خيرا لطف به فى ذلك فاذا هاجت فى نفسه نار الكبر أدركها التواضع مع نصرة الله تعالى واذا هاجت نار الحسد فى نفسه أدركتها النصيحة مع توفيق الله عز وجل واذا هاجت فى نفسه نار الحرص أدركتها القناعة مع عون الله عز وجل * وعن الجنيد رحمه الله أنه كان يقول يوم الجمعة فى مجلسه لولا أنه روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال يكون فى آخر الزمان زعيم القوم أرذلهم ماتكلمت عليكم وقال الجنيد أيضا التواضع عند أهل التوحيد تكبر ولعل مراده أن المتواضع يثبت نفسه ثم يضعها والموحد لا يثبت نفسه ولا يراها شيأ حتى يضعها أو يرفعها وعن عمر بن شبة قال كنت بمكة بين الصفا والمروة فرأيت رجلا راكبا بغلة وبين يديه غلمان واذاهم يعنفون الناس قال ثم عدت بعد حين فدخلت بغداد فكنت على الجسر فاذا أنا برجل حاف حاسر طويل الشعر قال فجعلت أنظر اليه وأتأمله فقال لى مالك تنظر الى فقلت له شبهتك برجل رأيته بمكة ووصفت له الصفة فقال له أنا ذلك الرجل فقلت ما فعل الله بك فقال انى ترفعت فى موضع يتواضع فيه الناس فوضعنى الله حيث يترفع الناس وقال المغيرة كنا نهاب ابراهيم النخعى هيبة الامير وكان يقول ان زمانا صرت فيه فقيه الكوفة لزمان سوء وكان عطاء السلمى اذا سمع صوت الرعد قام وقعد وأخذه بطنه كانه امرأة ماخض وقال هذا من أجلى يصيبكم لو مات عطاء لاستراح الناس وكان بشر الحافى يقول سلموا على أبناء الدنيا بترك السلام عليهم ودعا رجل لعبد الله بن المبارك فقال أعطاك الله ما ترجوه فقال ان الرجاء يكون بعد المعرفة فأين المعرفة وتفاخرت قريش عند سلمان الفارسى رضى الله عنه يوما فقال سلمان لكنى

ثوبا يكرهه الشرع أو يحرمه فيقول لا ورجل يطالبنا بحقائق القوم من أرباب العزيمة فنقول له هل ترى لنا فيما لبسنا اختيارا أو ترى عندنا فيه شهوة فيقول لا وقد يكون من الناس من يقدر على لبس الناعم ولبس الخشن ولكن يحب أن يختار الله له هيئة مخصوصة فيكثر اللجأ الى الله والافتقار اليه ويسأله أن يريه أحب الزى الى الله تعالى وأصلحه لدينه ودنياه لكونه غير صاحب غرض وهوى فى زى بعينه فالله تعالى يفتح عليه ويعرفه زيا مخصوصا فيلتزم بذلك الزى فيكون لبسه بالله ويكون هذا أتم وأكمل ممن يكون لبسه لله ومن الناس من يتوفر حظه من العلم وينبسط بما بسطه الله فيلبس الثوب عن علم وايقان ولا يبالى بما لبسه ناعما لبس أو خشنا

خلقت من نطفة قذرة ثم أعود جيفة منتنة ثم آتى الميزان فان ثقل فانا كريم وان خف فانا لئيم وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه وجدنا الكرم فى التقوى والغنى فى اليقين والشرف فى التواضع نسأل الله الكريم حسن التوفيق

﴿ بيان حقيقة الكبر وآفته ﴾

اعلم أن الكبر ينقسم الى باطن وظاهر فالباطن هو خلق فى النفس والظاهر هو أعمال تصدر عن الجوارح واسم الكبر بالخلق الباطن أحق وأما الاعمال فانها ثمرات لذلك الخلق وخلق الكبر موجب للاعمال ولذلك اذا ظهر على الجوارح يقال تكبر واذا لم يظهر يقال فى نفسه كبر فالاصل هو الخلق الذى فى النفس وهو الاسترواح والركون الى رؤية النفس فوق المتكبر عليه فان الكبر يستدعى متكبرا عليه ومتكبرا به وبه ينفصل الكبر عن العجب كما سيأتى فان العجب لا يستدعى غير المعجب بل لو لم يخلق الانسان الا وحده تصور أن يكون معجبا ولا يتصور أن يكون متكبرا الا أن يكون مع غيره وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير فى صفات الكمال فعند ذلك يكون متكبرا ولا يكفى أن يستعظم نفسه ليكون متكبرا فانه قد يستعظم نفسه ولكنه يرى غيره أعظم من نفسه أو مثل نفسه فلا يتكبر عليه ولا يكفى أن يستحقر غيره فانه مع ذلك لو رأى نفسه أحقر لم يتكبر ولو رأى غيره مثل نفسه لم يتكبر بل ينبغى أن يرى لنفسه مرتبة ولغيره مرتبة ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره فعند هذه الاعتقادات الثلاثة يحصل فيه خلق الكبر لا أن هذه الرؤية تنفى الكبر بل هذه الرؤية وهذه العقيدة تنفخ فيه فيحصل فى قلبه اعتداد وهزة وفرح وركون الى ما اعتقده وعز فى نفسه بسبب ذلك فتلك العزة والهزة والركون الى العقيدة هو خلق الكبر ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم أعوذ بك من نفخة الكبرياء وكذلك قال عمر أخشى أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا للذى استأذنه أن يعظ بعد صلاة الصبح فكان الانسان مهما رأى نفسه بهذه العين وهو الاستعظام كبر وانتفخ وتعزز فالكبر عبارة عن الحالة الحاصلة فى النفس من هذه الاعتقادات وتسمى أيضا عزة وتعظما ولذلك قال ابن عباس فى قوله تعالى ان فى صدورهم الا كبر ماهم ببالغيه قال عظمة لم يبلغوها ففسر الكبر بتلك العظمة ثم هذه العزة تقتضى أعمالا فى الظاهر والباطن هى ثمرات ويسمى ذلك تكبرا فانه مهما عظم عنده قدره بالاضافة الى غيره حقر من دونه وازدراه وأقصاه عن نفسه وأبعده وترفع عن مجالسته ومؤاكلته ورأى أن حقه ان يقوم ماثلا بين يديه ان اشتد كبره فان كان أشد من ذلك استنكف عن استخدامه ولم يجعله أهلا للقيام بين يديه ولا بخدمة عتبته فان كان دون ذلك فيأنف من مساواته وتقدم عليه فى مضايق الطرق وارتفع عليه فى المحافل وانتظر أن يبدأه بالسلام واستبعد تقصيره فى قضاء حوائجه وتعجب منه وان حاج أو ناظر أنف أن يرد عليه وان وعظ استنكف من القبول وان وعظ عنف فى النصح وان رد عليه شئ من قوله غضب وان علم لم يرفق بالمتعلمين واستذلهم وانتهرهم وامتن عليهم واستخدمهم وينظر الى العامة كأنه ينظر الى الحمير استجهالا لهم واستحقارا والاعمال الصادرة عن خلق الكبر كثيرة وهى أكثر من أن تحصى فلا حاجة الى تعدادها فانها مشهورة فهذا هو الكبر وآفته عظيمة وغائلته هائلة وفيه يهلك الخواص من الخلق وقلما ينفك عنه العباد والزهاد والعلماء فضلا عن عوام الخلق وكيف لا تعظم آفته وقد قال صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من كبر وانما صار حجابا دون الجنة لانه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها وتلك الاخلاق هى أبواب الجنة والكبر وعزة النفس يغلق تلك الابواب كلها لانه لا يقدر على أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه وفيه شئ من العز ولا يقدر على التواضع وهو رأس أخلاق المتقين وفيه العز ولا يقدر على ترك الحقد وفيه العز ولا يقدر أن يدوم على الصدق وفيه العز ولا يقدر على ترك الغضب وفيه العز ولا يقدر على كظم الغيظ وفيه العز ولا يقدر على ترك الحسد وفيه العز ولا يقدر على النصح اللطيف وفيه العز ولا يقدر على قبول النصح وفيه العز ولا يسلم من الازراء بالناس ومن اغتيابهم وفيه العز ولا معنى للتطويل فما من خلق ذميم الا وصاحب العز والكبر مضطر اليه ليحفظ به عزه وما من خلق محمود الا وهو عاجز عنه خوفا من أن يفوته عزه فمن هذا لم يدخل الجنة من فى قلبه مثقال حبة منه والاخلاق الذميمة متلازمة والبعض منها داع الى البعض لا محالة وشر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم وقبول الحق والانقياد له وفيه وردت الآيات التى فيها ذم الكبر والمتكبرين قال الله تعالى والملائكة باسطو أيديهم الى قوله وكنتم عن آياته

وربما لبس ناعما ولنفسه فيه اختيار وحظ وذلك الحظ فيه يكون مكفراله مردودا عليه موهو باله يوافقه الله تعالى فى ارادة نفسه ويكون هذا الشخص تام التزكية تام الطهارة محبوبا مرادا يسارع الله تعالى الى مراداته ومحابه غير أن ههنا مزلة قدم لكثير من المدعين (حكى) عن يحيى بن معاذ الرازى انه كان يلبس الصوف والخلقان فى ابتداء أمره ثم صار فى آخر عمره يلبس الناعم فقيل لابى يزيد ذلك فقال مسكين يحيى لم يصبر على الدون فكيف يصبر على التحف ومن الناس من يسبق اليه علم ما سوف يدخل عليه من الملبوس فيلبسه محمودا فيه وكل أحوال الصادقين على اختلاف تنوعها مستحسنة قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى

تستكبرون ثم قال ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ثم أخبر أن أشد أهل النار عذابا أشدهم عتيا على الله تعالى فقال ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا وقال تعالى فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون وقال عز وجل يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين وقال تعالى ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين وقال تعالى سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق قيل في التفسير سأرفع فهم القرآن عن قلوبهم وفي بعض التفاسير سأحجب قلوبهم عن الملكوت وقال ابن جريج سأصرفهم عن أن يتفكروا فيها ويعتبروا بها ولذلك قال المسيح عليه السلام ان الزرع ينبت في السهل ولا ينبت على الصفا كذلك الحكمة تعمل في قلب المتواضع ولا تعمل في قلب المتكبر ألا ترون أن من شمخ برأسه الى السقف شجه ومن طأطأ أظله وأكنه فهذا مثل ضربه للمتكبرين وأنهم كيف يحرمون الحكمة ولذلك ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم جحود الحق في حد الكبر والكشف عن حقيقته وقال من سفه الحق وغمص الناس

﴿ بيان المتكبر عليه ودرجاته وأقسامه وثمرات الكبر فيه ﴾

اعلم أن المتكبر عليه هو الله تعالى أو رسله أو سائر خلقه وقد خلق الانسان ظلوما جهولا فتارة يتكبر على الخلق وتارة يتكبر على الخالق فاذا التكبر باعتبار المتكبر عليه ثلاثة أقسام * الاول التكبر على الله وذلك هو أفحش أنواع الكبر ولا مثار له الا الجهل المحض والطغيان مثل ما كان من نمرود فانه كان يحدث نفسه بأن يقاتل رب السماء وكما يحكى عن جماعة من الجهلة بل ما يحكى عن كل من ادعى الربوبية مثل فرعون وغيره فانه لتكبره قال أنا ربكم الاعلى اذ استنكف أن يكون عبدا لله ولذلك قال تعالى ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين وقال تعالى لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون الآية وقال تعالى واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا * القسم الثاني التكبر على الرسل من حيث تعزز النفس وترفعها عن الانقياد لبشر مثل سائر الناس وذلك تارة يصرف عن الفكر والاستبصار فيبقى في ظلمة الجهل بكبره فيمتنع عن الانقياد وهو ظان انه محق فيه وتارة يمتنع مع المعرفة ولكن لا تطاوعه نفسه للانقياد للحق والتواضع للرسل كما حكى الله عن قولهم أنؤمن لبشرين مثلنا وقولهم ان أنتم الا بشر مثلنا ولئن أطعتم بشرا مثلكم انكم اذا لخاسرون وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا وقالوا لولا أنزل عليه ملك وقال فرعون فيما أخبر الله عنه أو جاء معه الملائكة مقترنين وقال الله تعالى واستكبر هو وجنوده في الارض بغير الحق فتكبر هو على الله وعلى رسله جميعا قال وهب قال له موسى عليه السلام آمن ولك ملكك قال حتى أشاور هامان فشاور هامان فقال هامان بينما أنت رب تعبد اذ صرت عبدا تعبد فاستنكف عن عبودية الله وعن اتباع موسى عليه السلام وقالت قريش فيما أخبر الله تعالى عنهم لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم قال قتادة عظيم القريتين هو الوليد بن المغيرة وأبو مسعود الثقفي طلبوا من هو أعظم رياسة من النبي صلى الله عليه وسلم اذ قالوا غلام يتيم كيف بعثه الله الينا فقال تعالى أهم يقسمون رحمة ربك وقال الله تعالى ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أي استحقارا لهم واستبعادا لتقدمهم وقالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم كيف نجلس اليك وعندك هؤلاء أشاروا الى فقراء المسلمين فازدروهم بأعينهم لفقرهم وتكبروا عن مجالستهم فأنزل الله تعالى ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي الى قوله ما عليك من حسابهم وقال تعالى واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ثم أخبر الله تعالى عن تعجبهم حين دخلوا جهنم اذ لم يروا الذين ازدروهم فقالوا ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الاشرار قيل يعنون عمارا وبلالا وصهيبا والمقداد رضي الله عنهم ثم كان منهم من منعه الكبر عن الفكر والمعرفة فجهل كونه صلى الله عليه وسلم محقا ومنهم من عرف ومنعه الكبر عن الاعتراف قال الله تعالى مخبرا عنهم فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به وقال وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا وهذا الكبر قريب من التكبر على الله عز وجل وان كان دونه ولكنه تكبر على قبول أمر الله والتواضع لرسوله * القسم الثالث التكبر على العباد وذلك بأن يستعظم نفسه ويستحقر غيره فتأبى نفسه عن الانقياد لهم وتدعوه

سبيلا ولبس الخشن من الثياب هو الاحب والاولى والاسلم للعبد والابعد من الآفات (قال مسلمة بن عبد الملك) دخلت على عمر ابن عبد العزيز أعوده في مرضه فرأيت قميصه وسخا فقلت لامرأته فاطمة اغسلوا ثياب أمير المؤمنين فقالت نفعل ان شاء الله قال ثم عدته فاذا القميص على حاله فقلت يا فاطمة ألم آمركم تغسلوه قالت والله ما له قميص غير هذا (وقال) سالم كان عمر بن عبد العزيز من ألين الناس لباسا من قبل أن يسلم اليه الخلافة فلما سلم اليه الخلافة ضرب رأسه بين ركبتيه وبكى ثم دعا بأطمار له رثة فلبسها (وقيل) لما مات أبو الدرداء وجد في ثوبه أربعون رقعة وكان عطاؤه أربعة آلاف (وقال يزيد بن وهب) لبس علي بن أبي طالب

الى الترفع عليهم فيزدريهم و يستصغرهم و يأنف من مساواتهم وهذا وان كان دون الاول والثانى فهو أيضا عظيم من وجهين * أحدهما أن الكبر والعز والعظمة والعلاء لا يليق الا بالملك القادر فأما العبد المملوك الضعيف العاجز الذى لا يقدر على شئ فمن أين يليق بحاله الكبر فمهما تكبر العبد فقد نازع الله تعالى فى صفة لا تليق الا بجلاله ومثاله أن يأخذ الغلام قلنسوة الملك فيضعها على رأسه و يجلس على سريره فما أعظم استحقاقه للمقت وما أعظم تهدفه للخزى والنكال وما أشد استجراءه على مولاه وما أقبح ما تعاطاه والى هذا المعنى الاشارة بقوله تعالى العظمة ازارى والكبرياء ردائى فمن نازعنى فيهما قصمته أى انه خاص صفتى ولا يليق الا بى والمنازع فيه منازع فى صفة من صفاتى واذا كان الكبر على عباده لا يليق الا به فمن تكبر على عباده فقد جنى عليه اذ الذى يسترذل خواص غلمان الملك و يستخدمهم و يترفع عليهم و يستأثر بما حق الملك أن يستأثر به منهم فهو منازع له فى بعض أمره وان لم تبلغ درجته درجة من أراد الجلوس على سريره والاستبداد بملكه فالخلق كلهم عباد الله وله العظمة والكبرياء عليهم فمن تكبر على عبد من عباد الله فقد نازع الله فى حقه نعم الفرق بين هذه المنازعة و بين منازعة نمرود وفرعون ما هو الفرق بين منازعة الملك فى استصغار بعض عبيده واستخدامهم و بين منازعته فى أصل الملك * الوجه الثانى الذى تعظم به رذيلة الكبر أنه يدعو الى مخالفة الله تعالى فى أوامره لان المتكبر اذا سمع الحق من عبد من عباد الله استنكف عن قبوله وتشمر لجحده ولذلك ترى المناظرين فى مسائل الدين يزعمون أنهم يتباحثون عن أسرار الدين ثم انهم يتجاحدون تجاحد المتكبرين ومهما اتضح الحق على لسان واحد منهم أنف الآخر من قبوله وتشمر لجحده واحتال لدفعه بما يقدر عليه من التلبيس وذلك من أخلاق الكافرين والمنافقين اذ وصفهم الله تعالى فقال وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون فكل من يناظر للغلبة والافحام لا ليغتنم الحق اذا ظفر به فقد شاركهم فى هذا الخلق وكذلك يحمل ذلك على الانفة من قبول الوعظ كما قال الله تعالى واذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم وروى عن عمر رضى الله عنه أنه قرأها فقال انا لله وانا اليه راجعون قام رجل يأمر بالمعروف فقتل فقام آخر فقال تقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فقتل المتكبر الذى خالفه والذى أمره كبرا وقال ابن مسعود كفى بالرجل اثما اذا قيل له اتق الله قال عليك نفسك وقال صلى الله عليه وسلم لرجل كل بيمينك قال لا أستطيع فقال النبى صلى الله عليه وسلم لا استطعت فما منعه الا كبره قال فما رفعها بعد ذلك أى اعتلت يده فاذا تكبره على الخلق عظيم لانه سيدعوه الى التكبر على أمر الله وانما ضرب ابليس مثلا لهذا وما حكاه من أحواله الا ليعتبر به فانه قال أنا خير منه وهذا الكبر بالنسب لانه قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين فحمله ذلك على أن يمتنع من السجود الذى أمره الله تعالى به وكان مبدؤه الكبر على آدم والحسد له فجره ذلك الى التكبر على أمر الله تعالى فكان ذلك سبب هلاكه أبد الآباد فهذه آفة من آفات الكبر على العباد عظيمة ولذلك شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم الكبر بهاتين الآفتين اذ سأله ثابت بن قيس بن شماس فقال يا رسول الله انى امرؤ قد حبب الى من الجمال ما ترى أفمن الكبر هو فقال صلى الله عليه وسلم لا ولكن الكبر من بطر الحق وغمص الناس وفى حديث آخر من سفه الحق وقوله وغمص الناس أى ازدراهم واستحقرهم وهم عباد الله أمثاله أو خير منه وهذه الآفة الاولى وسفه الحق هو رده وهى الآفة الثانية فكل من رأى انه خير من أخيه واحتقر أخاه وازدراه ونظر اليه بعين الاستصغار أو رد الحق وهو يعرفه فقد تكبر فيما بينه و بين الخلق ومن أنف من أن يخضع لله تعالى و يتواضع لله بطاعته واتباع رسله فقد تكبر فيما بينه و بين الله تعالى و رسله

* بيان ما به التكبر *

اعلم أنه لا يتكبر الا من استعظم نفسه ولا يستعظمها الا وهو يعتقد لها صفة من صفات الكمال وجماع ذلك يرجع الى كمال دينى أو دنيوى فالدينى هو العلم والعمل والدنيوى هو النسب والجمال والقوة والمال وكثرة الانصار فهذه سبعة أسباب * الاول * العلم وما أسرع الكبر الى العلماء ولذلك قال صلى الله عليه وسلم آفة العلم الخيلاء فلا يلبث العالم أن يتعزز بعز العلم و يستشعر فى نفسه جمال العلم وكماله و يستعظم نفسه و يستحقر الناس و ينظر اليهم نظره الى البهائم و يستجهلهم و يتوقع أن يبدؤه بالسلام فان بدأ واحدا منهم بالسلام أو رد عليه ببشر أو قام

فيصار ازريا وكان اذا مدكمه بلغ أطراف أصابعه فعابه الخوارج بذلك فقال أتعيبونى على لباس هو أبعد من الكبر وأجدر أن يقتدى بى المسلم (وقيل) كان عمر رضى الله عنه اذا رأى على رجل ثوبين رقيقين علاه بالدرة وقال دعوا هذه البرافات للنساء (وروى) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال نوروا قلوبكم بلباس الصوف فانه مذلة فى الدنيا ونور فى الآخرة واياكم أن تفسدوا دينكم بحمد الناس وثنائهم وروى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم احتذى نعلين فلما نظر اليهما أعجبه حسنهما فسجد لله تعالى فقيل له فى ذلك فقال خشيت أن يعرض عنى ربى فتواضعت له لا جرم لا يبيتان فى منزلى لما تخوفت المقت من الله تعالى من أجلهما فاخرجهما فدفعهما

له أو أجاب له دعوة رأى ذلك صنيعة عنده و يدا عليه يلزمه شكرها واعتقد أنه أكرمهم وفعل بهم ما لا يستحقون
من مثله وأنه ينبغي أن يرقوا له و يخدموه ويشكروه على صنيعه بل الغالب أنهم يبرونه فلا يبرهم و يزورونه فلا
يزورهم و يعودونه فلا يعودهم و يستخدم من خالطه منهم و يستسخره في حوائجه فإن قصر فيه استنكره كأنهم
عبيده أو أجراؤه وكأن تعليمه العلم صنيعة منه إليهم ومعروف لديهم واستحقاق حق عليهم هذا فيما يتعلق بالدنيا
أما في أمر الآخرة فتكبره عليهم بأن يرى نفسه عند الله تعالى أعلى وأفضل منهم فيخاف عليهم أكثر مما يخاف
على نفسه و يرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم وهذا بأن يسمى جاهلا أولى من أن يسمى عالما بل العلم الحقيقي هو
الذي يعرف الإنسان به نفسه و ربه و خطر الخاتمة وحجة الله على العلماء وعظم خطر العلم فيه كما سيأتي في طريق
معالجة الكبر بالعلم وهذا العلم يزيد خوفا وتواضعا وتخشعا و يقتضي أن يرى كل الناس خيرا منه لعظم حجة الله
عليه بالعلم وتقصيره في القيام بشكر نعمة العلم ولهذا قال أبو الدرداء من ازداد علما ازداد وجعا وهو كما قال
* فإن قلت فما بال بعض الناس يزداد بالعلم كبرا وأمنا فاعلم أن لذلك سببين * أحدهما أن يكون اشتغاله بما يسمى
علما وليس علما حقيقيا وإنما العلم الحقيقي ما يعرف به العبد ربه ونفسه وخطر أمره في لقاء الله والحجاب منه
وهذا يورث الخشية والتواضع دون الكبر والأمن قال الله تعالى إنما يخشى الله من عباده العلماء فأما ما وراء
ذلك كعلم الطب والحساب واللغة والشعر والنحو وفصل الخصومات وطرق المجادلات فإذا تجرد الإنسان لها حتى
امتلأ منها امتلأ بها كبرا ونفاقا وهذه بأن تسمى صناعات أولى من أن تسمى علوما بل العلم هو معرفة العبودية
والربوبية وطريق العبادة وهذه تورث التواضع غالبا * السبب الثاني أن يخوض العبد في العلم وهو خبيث
الدخلة رديء النفس سيء الأخلاق فإنه لم يشتغل أولا بتهذيب نفسه وتزكية قلبه بأنواع المجاهدات ولم يرض
نفسه في عبادة ربه فبقي خبيث الجوهر فإذا خاض في العلم أي علم كان صادف العلم من قلبه منزلا خبيثا فلم يطب
ثمره ولم يظهر في الخير أثره وقد ضرب وهب لهذا مثلا فقال العلم كالغيث ينزل من السماء حلوا صافيا فتشربه
الأشجار بعروقها فتحوله على قدر طعومها فيزداد المر مرارة والحلو حلاوة فكذلك العلم تحفظه الرجال
فتحوله على قدر هممها وأهوائها فيزيد المتكبر كبرا والمتواضع تواضعا وهذا لأن من كانت همته الكبر وهو
جاهل فإذا حفظ العلم وجد ما يتكبر به فازداد كبرا وإذا كان الرجل خائفا مع جهله فازداد علما علم أن الحجة قد
تأكدت عليه فيزداد خوفا وإشفاقا وذلا وتواضعا فالعلم من أعظم ما يتكبر به ولذلك قال تعالى لنبيه عليه
السلام واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين وقال عز وجل ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا
من حولك ووصف أولياءه فقال أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين وكذلك قال صلى الله عليه وسلم فيما
رواه العباس رضي الله عنه يكون قوم يقرؤن القرآن لا يجاوز حناجرهم يقولون قد قرأنا القرآن فمن أقرأ
منا ومن أعلم منا ثم التفت إلى أصحابه وقال أولئك منكم أيها الأمة أولئك هم وقود النار ولذلك قال
عمر رضي الله عنه لا تكونوا جبابرة العلماء فلا يفي علمكم بجهلكم ولذلك استأذن تميم الداري عمر رضي الله
عنه في القصص فأبى أن يأذن له وقال له إنه الذبح واستأذنه رجل كان إمام قوم أنه إذا سلم من صلاته ذكرهم
فقال إني أخاف أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا وصلى حذيفة بقوم فلما سلم من صلاته قال لتلتمسن إماما غيري أو
لتصلن وحدانا فإني رأيت في نفسي أنه ليس في القوم أفضل مني فإذا كان مثل حذيفة لا يسلم فكيف يسلم
الضعفاء من متأخري هذه الأمة فما أعز على بسيط الأرض عالما يستحق أن يقال له عالم ثم إنه لا يحركه عز العلم
وخيلاؤه فإن وجد ذلك فهو صديق زمانه ولا ينبغي أن يفارق بل يكون النظر إليه عبادة فضلا عن الاستفادة من
أنفاسه وأحواله ولو عرفنا ذلك ولو في أقصى الصين لسعينا إليه رجاء أن تشملنا بركته وتسري إلينا سيرته وسجيته
وهيهات فأنى يسمح آخر الزمان بمثلهم فهم أرباب الإقبال وأصحاب الدول قد انقرضوا في القرن الأول ومن يليهم
بل يعز في زماننا عالم يختلج في نفسه الأسف والحزن على فوات هذه الخصلة فذلك أيضا إما معدوم وإما عزيز ولولا
بشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله سيأتي على الناس زمان من تمسك فيه بعشر ما أنتم عليه نجا لكان جديرا
بنا أن نقتحم والعياذ بالله تعالى ورطة اليأس والقنوط مع ما نحن عليه من سوء أعمالنا ومن لنا أيضا بالتمسك
بعشر ما كانوا عليه وليتنا تمسكنا بعشر عشره فنسأل الله تعالى أن يعاملنا بما هو أهله ويستر علينا قبائح أعمالنا كما

إلى أول مسكين لقيه ثم أمر فاشترى له نعلان مخصوفتان وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبس الصوف واحتذى المخصوف وأكل مع العبيد وإذا كانت النفس محل الآفات فالوقوف على دسائسها وخفي شهواتها وكامن هواها عسر جدا فالأليق والأجدر والأولى الأخذ بالأحوط وترك ما يريب إلى ما لا يريب ولا يجوز للعبد الدخول في السعة إلا بعد إتقان علم السعة وكمال تزكية النفس وذلك إذا غابت النفس بقية هواها المتبع وتخلصت النية وتسدد التصرف بعلم صريح واضح وللعزيمة أقوام يركبونها ويراعونها لا يرون النزول إلى الرخص خوفا من فوت فضيلة الزهد في الدنيا واللباس الناعم من الدنيا (وقد قيل) من رق ثوبه رق

يقتضيه

يقتضيه كرمه وفضله ﴿الثاني﴾ العمل والعبادة وليس يخلو عن رذيلة العز والكبر واستمالة قلوب الناس الزهاد والعباد ويترشح الكبر منهم في الدين والدنيا أما في الدنيا فهو انهم يرون غيرهم بزيارتهم أولى منهم بزيارة غيرهم ويتوقعون قيام الناس بقضاء حوائجهم وتوقيرهم والتوسع لهم في المجالس وذكرهم بالورع والتقوى وتقديمهم على سائر الناس في الحظوظ الى جميع ماذكرناه في حق العلماء وكأنهم يرون عبادتهم منة على الخلق وأما في الدين فهو أن يرى الناس هالكين ويرى نفسه ناجيا وهو الهالك تحقيقا مهما رأى ذلك قال صلى الله عليه وسلم اذا سمعتم الرجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم وانما قال ذلك لان هذا القول منه يدل على أنه مزدر بخلق الله مغتر بالله آمن من مكره غير خائف من سطوته وكيف لا يخاف ويكفيه شرا احتقاره لغيره قال صلى الله عليه وسلم كفى بالمرء شرا أن يحقر أخاه المسلم وكم من الفرق بينه وبين من يحبه لله ويعظمه لعبادته ويستعظمه ويرجو له مالا يرجوه لنفسه فالخلق يدركون النجاة بتعظيمهم اياه لله فهم يتقربون لله تعالى بالدنو منه وهو يتمقت الى الله بالتنزه والتباعد منهم كانه مترفع عن مجالستهم فما أجدرهم اذا أحبوه لصلاحه أن ينقلهم الله الى درجته في العمل وما أجدره اذا ازدراهم بعينه أن ينقله الله الى حد الاهمال كما روي أن رجلا في بني اسرائيل كان يقال له خليع بني اسرائيل لكثرة فساده مر برجل آخر يقال له عابد بني اسرائيل وكان على رأس العابد غمامة تظله فلما مر الخليع به فقال الخليع في نفسه أنا خليع بني اسرائيل وهذا عابد بني اسرائيل فلو جلست اليه لعل الله يرحمني فجلس اليه فقال العابد أنا عابد بني اسرائيل وهذا خليع بني اسرائيل فكيف يجلس الي فانف منه وقال له قم عني فأوحى الله الى نبي ذلك الزمان مرهما فليستأنفا العمل فقد غفرت للخليع وأحبطت عمل العابد وفي رواية أخرى فتحولت الغمامة الى رأس الخليع وهذا يعرفك أن الله تعالى انما يريد من العبيد قلوبهم فالجاهل العاصي اذا تواضع هيبة لله وذل خوفا منه فقد أطاع الله بقلبه فهو أطوع لله من العالم المتكبر والعابد المعجب وكذلك روي أن رجلا في بني اسرائيل أتى عابدا من بني اسرائيل فوطئ على رقبته وهو ساجد فقال ارفع فوالله لا يغفر الله لك فأوحى الله اليه أيها المتألي علي بل أنت لا يغفر الله لك وكذلك قال الحسن وحتى أن صاحب الصوف أشد كبرا من صاحب المطرز الخز أي ان صاحب الخز يذل لصاحب الصوف ويرى الفضل له وصاحب الصوف يرى الفضل لنفسه وهذه الآفة أيضا قلما ينفك عنها كثير من العباد وهو أنه لو استخف به مستخف أو آذاه مؤذ استبعد أن يغفر الله له ولا يشك في أنه صار ممقوتا عند الله ولو آذى مسلما آخر لم يستنكر ذلك الاستنكار وذلك لعظم قدر نفسه عنده وهو جهل وجمع بين الكبر والعجب والاغترار بالله وقد ينتهي الحمق والغباوة ببعضهم الى أن يتحدى ويقول سترون ما يجري عليه واذا أصيب بنكبة زعم أن ذلك من كراماته وأن الله ما أراد به الا شفاء غليله والانتقام له منه مع انه يرى طبقات من الكفار يسبون الله ورسوله وعرف جماعة آذوا الانبياء صلوات الله عليهم فمنهم من قتلهم ومنهم من ضربهم ثم ان الله أمهل أكثرهم ولم يعاقبهم في الدنيا بل ربما أسلم بعضهم فلم يصبه مكروه في الدنيا ولا في الآخرة ثم الجاهل المغرور يظن أنه أكرم على الله من أنبيائه وأنه قد انتقم له بما لا ينتقم لانبيائه به ولعله في مقت الله باعجابه وكبره وهو غافل عن هلاك نفسه فهذه عقيدة المغترين وأما الاكياس من العباد فيقولون ما كان يقوله عطاء السلمي حين كان تهب ريح أو تقع صاعقة ما يصيب الناس ما يصيبهم الا بسببي ولو مات عطاء لتخلصوا وما قاله الآخر بعدما انصرف من عرفات كنت أرجو الرحمة لجميعهم لولا كوني فيهم فانظر الى الفرق بين الرجلين هذا يتقي الله ظاهرا وباطنا وهو وجل على نفسه مزدر لعمله وسعيه وذاك ربما يضمر من الرياء والكبر والحسد والغل ما هو ضحكة للشيطان به ثم انه يمتن على الله بعمله ومن اعتقد جزما انه فوق أحد من عباد الله فقد أحبط بجهله جميع عمله فان الجهل أفحش المعاصي وأعظم شئ يبعد العبد عن الله وحكمه لنفسه بانه خير من غيره جهل محض وأمن من مكر الله ولا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون ولذلك روي ان رجلا ذكر بخير للنبي صلى الله عليه وسلم فاقبل ذات يوم فقالوا يا رسول الله هذا الذي ذكرناه لك فقال اني أرى في وجهه سفعة من الشيطان فسلم ووقف على النبي صلى الله عليه وسلم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم أسألك بالله حدثتك نفسك أن ليس في القوم أفضل منك قال اللهم نعم فرأى رسول الله صلى

دينه وقد يرخص في ذلك لمن لا يلتزم بالزهد ويقف على رخصة الشرع (روى) علقمة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من الكبر فقال رجل انا لرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا فقال النبي عليه السلام ان الله جميل يحب الجمال فتكون هذه الرخصة في حق من يلبسه لا يهوى نفسه في ذلك غير مفتخر به ومختال فاما من لبس الثوب للتفاخر بالدنيا والتكاثر بها فقد ورد فيه وعيد (روى) أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ازرة المؤمن الى نصف الساق فيما بينه وبين الكعبين وما كان أسفل من الكعبين فهو في النار من جر ازاره بطرا لم ينظر الله اليه يوم القيامة فينما

الله عليه وسلم بنور النبوة مااستكن في قلبه سفمة في وجهه وهذه آفة لا ينفك عنها أحد من العباد الامن عصمه الله لكن العلماء والعباد في آفة الكبر على ثلاث درجات * الدرجة الاولى أن يكون الكبر مستقرا في قلبه يرى نفسه خيرا من غيره الا انه يجتهد ويتواضع ويفعل فعل من يرى غيره خيرا من نفسه وهذا قد رسخ في قلبه شجرة الكبر ولكنه قطع أغصانها بالكلية * الثانية أن يظهر ذلك على أفعاله بالترفع في المجالس والتقدم على الاقران واظهار الانكار على من يقصر في حقه وأدنى ذلك في العالم أن يصعر خده للناس كانه معرض عنهم وفي العابدان يعبس وجهه ويقطب جبينه كانه متنزه عن الناس مستقذر لهم أو غضبان عليهم وليس يعلم المسكين ان الورع ليس في الجبهة حتى تقطب ولا في الوجه حتى يعبس ولا في الخد حتى يصعر ولا في الرقبة حتى تطأطأ ولا في الذيل حتى يضم انما الورع في القلوب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم التقوى ههنا وأشار الى صدره فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكرم الخلق وأتقاهم وكان أوسعهم خلقا وأكثرهم بشرا وتبسما وانبساطا ولذلك قال الحرث بن جزء الزبيدي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبني من القراء كل طليق مضحاك فاما الذي تلقاه ببشر ويلقاك بعبوس يمن عليك بعلمه فلا أكثر الله في المسلمين مثله ولو كان الله سبحانه وتعالى يرضى ذلك لما قال لنبيه صلى الله عليه وسلم واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين وهؤلاء الذين يظهر أثر الكبر على شمائلهم فاحوالهم أخف حالا ممن هو في الرتبة الثالثة وهو الذي يظهر الكبر على لسانه حتى يدعوه الى الدعوى والمفاخرة والمباهاة وتزكية النفس وحكايات الاحوال والمقامات والتشمر لغلبة الغير في العلم والعمل أما العابد فانه يقول في معرض التفاخر لغيره من العباد من هو وما عمله ومن أين زهده فيطول اللسان فيهم بالتنقص ثم يثني على نفسه ويقول اني لم أفطر منذ كذا وكذا ولا أنام الليل وأختم القرآن في كل يوم وفلان ينام سحرا ولا يكثر القراءة وما يجري مجراه وقد يزكي نفسه ضمنا فيقول قصدني فلان بسوء فهلك ولده وأخذ ماله أو مرض أو ما يجري مجراه يدعي الكرامة لنفسه وأما مباهاته فهو انه لو وقع مع قوم يصلون بالليل قام وصلى أكثر مما كان يصلي وان كانوا يصبرون على الجوع فيكلف نفسه الصبر ليغلبهم ويظهر له قوته وعجزهم وكذلك يشتد في العبادة خوفا من أن يقال غيره أعبد منه أو أقوى منه في دين الله وأما العالم فانه يتفاخر ويقول أنا متفنن في العلوم ومطلع على الحقائق ورأيت من الشيوخ فلانا وفلانا ومن أنت وما فضلك ومن لقيت وما الذي سمعت من الحديث كل ذلك ليصغره ويعظم نفسه وأما مباهاته فهو أنه يجتهد في المناظرة أن يغلب ولا يغلب ويسهر طول الليل والنهار في تحصيل علوم يتجمل بها في المحافل كالمناظرة والجدل وتحسين العبارة وتسجيع الالفاظ وحفظ العلوم الغريبة ليغرب بها على الاقران ويتعظم عليهم ويحفظ الاحاديث ألفاظها وأسانيدها حتى يرد على من أخطأ فيها فيظهر فضله ونقصان أقرانه ويفرح مهما أخطأ واحد منهم ليرد عليه ويسوؤه اذا أصاب وأحسن خيفة من أن يرى انه أعظم منه فهذا كله أخلاق الكبر وآثاره التي يثمرها التعزز بالعلم والعمل وأين من يخلو عن جميع ذلك أو عن بعضه فليت شعري من الذي عرف هذه الاخلاق من نفسه وسمع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر كيف يستعظم نفسه ويتكبر على غيره ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول انه من أهل النار وانما العظيم من خلا عن هذا ومن خلا عنه لم يكن فيه تعظم وتكبر والعالم هو الذي فهم أن الله تعالى قال له ان لك عندنا قدرا ما لم تر لنفسك قدرا فان رأيت لها قدرا فلا قدر لك عندنا ومن لم يعلم هذا من الدين فاسم العالم عليه كذب ومن علمه لزمه أن لا يتكبر ولا يرى لنفسه قدرا فهذا هو التكبر بالعلم والعمل (الثالث) التكبر بالحسب والنسب فالذي له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب وان كان أرفع منه عملا وعلما وقد يتكبر بعضهم فيرى أن الناس له موال وعبيد ويأنف من مخالطتهم ومجالستهم وثمرته على اللسان التفاخر به فيقول لغيره يا نبطي ويا هندي ويا أرمني من أنت ومن أبوك فانا فلان بن فلان وأين لمثلك أن يكلمني أو ينظر الي ومع مثلي تتكلم وما يجري مجراه وذلك عرق دفين في النفس لا ينفك عنه نسيب وان كان صالحا وعاقلا الا أنه قد لا يترشح منه ذلك عند اعتدال الاحوال فان غلبه غضب أطفأ ذلك نور بصيرته وترشح منه كما روي عن أبي ذر أنه قال قاولت رجلا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقلت له يا ابن السوداء فقال النبي صلى الله عليه وسلم يا أبا

رجل ممن كان قبلكم يتبختر في ردائه أعجبه رداؤه فخسف الله به الارض فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة والاحوال تختلف ومن صح حاله بصحة علمه صحت نيته في مأكوله وملبوسه وسائر تصاريفه وفي كل الاحوال يستقيم ويتسدد باستقامة الباطن مع الله تعالى وبقدر ذلك تستقيم تصاريف العبد كلها بحسن توفيق الله تعالى

* الباب الخامس والاربعون في ذكر فضل قيام الليل *

قال الله تعالى اذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان نزلت هذه الآية في المسلمين يوم بدر حيث نزلوا على كثيب من الرمل تسوخ فيه الاقدام وحوافر الدواب وسبقهم المشركون الى ماء بدر العظمى وغلبوهم عليها

ذرطف الصاع طف الصاع ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل فقال أبو ذر رحمه الله فاضطجعت وقلت للرجل قم فطأ على خدى فانظر كيف نبهه رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى لنفسه فضلا بكونه ابن بيضاء وان ذلك خطأ وجهل وانظر كيف تاب وقلع من نفسه شجرة الكبر بأخمص قدم من تكبر عليه اذ عرف أن العز لا يقمعه الا الذل ومن ذلك ما روى أن رجلين تفاخرا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال أحدهما للآخر أنا فلان ابن فلان فمن أنت لا أم لك فقال النبي صلى الله عليه وسلم افتخر رجلان عند موسى عليه السلام فقال أحدهما أنا فلان بن فلان حتى عد تسعة فأوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام قل للذى افتخر بل التسعة من أهل النار وأنت عاشرهم وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليدعن قوم الفخر بآبائهم وقد صاروا فحما فى جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التى تدوف بآنافها القذر ﴿الرابع﴾ التفاخر بالجمال وذلك أكثر ما يجرى بين النساء ويدعو ذلك الى التنقص والثلب والغيبة وذكر عيوب الناس ومن ذلك ما روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت دخلت امرأة على النبى صلى الله عليه وسلم فقلت بيدى هكذا أى انها قصيرة فقال النبى صلى الله عليه وسلم قد اغتبتيها وهذا منشؤه خفاء الكبر لانها لو كانت أيضا قصيرة لما ذكرتها بالصغر فكأنها أعجبت بقامتها واستقصرت المرأة فى جنب نفسها فقالت ما قالت (الخامس) الكبر بالمال وذلك يجرى بين الملوك فى خزائنهم وبين التجار فى بضائعهم وبين الدهاقين فى أراضيهم وبين المتجملين فى لباسهم وخيولهم ومراكبهم فيستحقر الغنى الفقير ويتكبر عليه ويقول له أنت مكد ومسكين وأنا لو أردت لاشتريت مثلك واستخدمت من هو فوقك ومن أنت وما معك وأثاث بيتى يساوى أكثر من جميع مالك وأنا أنفق فى اليوم ما لا تأكله فى سنة وكل ذلك لاستعظامه للغنى واستحقاره للفقر وكل ذلك جهل منه بفضيلة الفقر وآفة الغنى واليه الاشارة بقوله تعالى فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا حتى أجابه فقال ان ترنى أنا أقل منك مالا وولدا فعسى ربى أن يؤتينى خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا وكان ذلك منه تكبرا بالمال والولد ثم بين الله عاقبة أمره بقوله يا ليتنى لم أشرك بربى أحدا ومن ذلك تكبر قارون اذ قال تعالى اخبارا عن تكبره فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون انه لذو حظ عظيم (السادس) الكبر بالقوة وشدة البطش والتكبر به على أهل الضعف (السابع) التكبر بالاتباع والانصار والتلامذة والغلمان وبالعشيرة والاقارب والبنين ويجرى ذلك بين الملوك فى المكاثرة بالجنود وبين العلماء فى المكاثرة بالمستفيدين وبالجملة فكل ما هو نعمة وأمكن أن يعتقد كمالا وان لم يكن فى نفسه كمالا أمكن أن يتكبر به حتى ان المخنث ليتكبر على أقرانه بزيادة معرفته وقدرته فى صنعة المخنثين لانه يرى ذلك كمالا فيفتخر به وان لم يكن فعله الا نكالا وكذلك الفاسق قد يفتخر بكثرة الشرب وكثرة الفجور بالنسوان والغلمان ويتكبر به لظنه أن ذلك كمال وان كان مخطئا فيه فهذه مجامع ما يتكبر به العباد بعضهم على بعض فيتكبر من يدلى بشئ منه على من لا يدلى به أو على من يدلى بما هو دونه فى اعتقاده وربما كان مثله أو فوقه عند الله تعالى كالعالم الذى يتكبر بعلمه على من هو أعلم منه لظنه انه هو الاعلم ولحسن اعتقاده فى نفسه نسأل الله العون بلطفه ورحمته انه على كل شئ قدير

﴿بيان البواعث على التكبر وأسبابه المهيجة له﴾

اعلم أن الكبر خلق باطن وأما ما يظهر من الاخلاق والافعال فهى ثمرة ونتيجة وينبغى أن تسمى تكبرا ويخص اسم الكبر بالمعنى الباطن الذى هو استعظام النفس ورؤية قدرها فوق قدر الغير وهذا الباطن له موجب واحد وهو العجب الذى يتعلق بالمتكبر كما سيأتى معناه فانه اذا أعجب بنفسه وبعلمه وبعمله أو بشئ من أسبابه استعظم نفسه وتكبر وأما الكبر الظاهر فأسبابه ثلاثة سبب فى المتكبر وسبب فى المتكبر عليه وسبب فيما يتعلق بغيرهما أما السبب الذى فى المتكبر فهو العجب والذى يتعلق بالمتكبر عليه هو الحقد والحسد والذى يتعلق بغيرهما هو الرياء فتصير الاسباب بهذا الاعتبار أربعة العجب والحقد والحسد والرياء * أما العجب فقد ذكرنا أنه يورث الكبر الباطن والكبر الباطن يثمر التكبر الظاهر فى الاعمال والاقوال والاحوال * وأما الحقد فانه قد يحمل على

وأصبح المسلمون بين محدث وجنب وأصابهم الظمأ فوسوس اليهم الشيطان انكم تزعمون انكم على الحق وفيكم نبى الله وقد غلب المشركون على الماء وأنتم تصلون محدثين ومجنبين فكيف ترجون الظفر عليهم فأنزل الله تعالى مطرا من السماء سال منه الوادى فشرب المسلمون منه واغتسلوا وتوضؤا وسقوا الدواب وملؤا الاسقية ولبد الارض حتى ثبتت به الاقدام قال الله تعالى ويثبت به الاقدام اذ يوحى ربك الى الملائكة أنى معكم أمدهم الله تعالى بالملائكة حتى غلبوا المشركين ولكل آية من القرآن ظهر وبطن وحد ومطلع والله تعالى كما جعل النعاس رحمة وأمنة للصحابة خاصة فى تلك الواقعة والحادثة فهو رحمة تعم المؤمنين والنعاس قسم صالح من الاقسام

التكبر من غير عجب كالذى يتكبر على من يرى انه مثله أو فوقه ولكن قد غضب عليه بسبب سبق منه فاورثه الغضب حقدا ورسخ فى قلبه بغضه فهو لذلك لا تطاوعه نفسه أن يتواضع له وان كان عنده مستحقا للتواضع فكم من رذل لا تطاوعه نفسه على التواضع لواحد من الاكابر لحقده عليه أو بغضه له ويحمله ذلك على رد الحق اذا جاء من جهته وعلى الانفة من قبول نصحه وعلى أن يجتهد فى التقدم عليه وان علم أنه لا يستحق ذلك وعلى أن لا يستحله وان ظلمه فلا يعتذر اليه وان جنى عليه ولا يسأله عما هو جاهل به وأما الحسد فانه أيضا يوجب البغض للمحسود وان لم يكن من جهته ايذاء وسبب يقتضى الغضب والحقد ويدعو الحسد أيضا الى جحد الحق حتى يمنع من قبول النصيحة وتعلم العلم فكم من جاهل يشتاق الى العلم وقد بقى فى رذيلة الجهل لاستنكافه أن يستفيد من واحد من أهل بلده أو أقاربه حسدا وبغيا عليه فهو يعرض عنه ويتكبر عليه مع معرفته بأنه يستحق التواضع بفضل علمه ولكن الحسد يبعثه على أن يعامله بأخلاق المتكبرين وان كان فى باطنه ليس يرى نفسه فوقه * وأما الرياء فهو أيضا يدعو الى أخلاق المتكبرين حتى ان الرجل ليناظر من يعلم أنه أفضل منه وليس بينه وبينه معرفة ولا محاسدة ولا حقد ولكن يمتنع من قبول الحق منه ولا يتواضع له فى الاستفادة خيفة من أن يقول الناس انه أفضل منه فيكون باعثه على التكبر عليه الرياء المجرد ولو خلا معه بنفسه لكان لا يتكبر عليه وأما الذى يتكبر بالعجب أو الحسد أو الحقد فانه يتكبر أيضا عند الخلوة به مهما لم يكن معهما ثالث وكذلك قد ينتمى الى نسب شريف كاذبا وهو يعلم أنه كاذب ثم يتكبر به على من ليس ينتسب الى ذلك النسب ويترفع عليه فى المجالس ويتقدم عليه فى الطرق ولا يرضى بمساواته فى الكرامة والتوقير وهو عالم باطنا بأنه لا يستحق ذلك ولا كبر فى باطنه لمعرفته بأنه كاذب فى دعوى النسب ولكن يحمله الرياء على أفعال المتكبرين وكان اسم المتكبر انما يطلق فى الاكثر على من يفعل هذه الافعال عن كبر فى الباطن صادر عن العجب والنظر الى الغير بعين الاحتقار وهو ان سمى متكبرا فلاجل التشبه بأفعال الكبر نسأل الله حسن التوفيق والله تعالى أعلم

* بيان أخلاق المتواضعين ومجامع ما يظهر فيه أثر التواضع والتكبر *

اعلم أن التكبر يظهر فى شمائل الرجل كصعر فى وجهه ونظره شزرا وأطراقه رأسه وجلوسه متربعا أو متكئا وفى أقواله حتى فى صوته ونغمته وصيغته فى الايراد ويظهر فى مشيته وتبختره وقيامه وجلوسه وحركاته وسكناته وفى تعاطيه لافعاله وفى سائر تقلباته فى أحواله وأقواله وأعماله فمن المتكبرين من يجمع ذلك كله ومنهم من يتكبر فى بعض ويتواضع فى بعض فمنها التكبر بأن يحب قيام الناس له أو بين يديه وقد قال على كرم الله وجهه من أراد أن ينظر الى رجل من أهل النار فلينظر الى رجل قاعد وبين يديه قوم قيام وقال أنس لم يكن شخص أحب اليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا اذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهته لذلك * ومنها أن لا يمشى الا ومعه غيره يمشى خلفه قال أبو الدرداء لا يزال العبد يزداد من الله بعدا ما مشى خلفه وكان عبد الرحمن بن عوف لا يعرف من عبيده اذ كان لا يتميز عنهم فى صورة ظاهرة ومشى قوم خلف الحسن البصرى فمنعهم وقال ما يبقى هذا من قلب العبد وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض الاوقات يمشى مع بعض الاصحاب فيأمرهم بالتقدم ويمشى فى غمارهم اما لتعليم غيره أو لينفى عن نفسه وسواس الشيطان بالكبر والعجب كما أخرج الثوب الجديد فى الصلاة وأبدله بالخليع لاحد هذين المعنيين * ومنها أن لا يزور غيره وان كان يحصل من زيارته خير لغيره فى الدين وهو ضد التواضع روى أن سفيان الثورى قدم الرملة فبعث اليه ابراهيم بن أدهم أن تعال فحدثنا فجاء سفيان فقيل له يا أبا اسحق تبعث اليه بمثل هذا فقال أردت أن أنظر كيف تواضعه ومنها أن يستنكف من جلوس غيره بالقرب منه الا أن يجلس بين يديه والتواضع خلافه قال ابن وهب جلست الى عبد العزيز بن أبى رواد فمس فخذى فخذه فنحيت نفسى عنه فاخذ ثيابى فجرنى الى نفسه وقال لى لم تفعلون بى ما تفعلون بالجبابرة وانى لا أعرف رجلا منكم شرا منى وقال أنس كانت الوليدة من ولائد المدينة تأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ينزع يده منها حتى تذهب به حيث شاءت ومنها أن يتوقى من مجالسة المرضى والمعلولين ويتحاشى عنهم وهو من الكبر دخل رجل وعليه جدرى قد تقشر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده ناس من أصحابه يأكلون فما جلس الى أحد

العاجلة للمريدين وهو أمنة لقلوبهم عن منازعات النفس لان النفس بالنوم تستريح ولا تشكو الكلال والتعب اذ فى شكايتها وتعبها تكدير القلب وباستراحتها بالنوم بشرط العلم والاعتدال راحة القلب لما بين القلب والنفس من المواطأة عند طمأنينتها للمريدين السالكين فقد قيل ينبغى أن يكون ثلث الليل والنهار نوما حتى لا يضطرب الجسد فيكون ثمان ساعات للنوم ساعتين من ذلك يجعلهما المريد بالنهار وست ساعات بالليل ويزيد فى أحدهما وينقص من الآخر على قدر طول الليل وقصره فى الشتاء والصيف وقد يكون بحسن الارادة وصدق الطلب ينقص النوم عن قدر الثلث ولا يضر ذلك اذا صار بالتدريج عادة وقد يحمل ثقل السهر وقلة النوم وجود الروح

الاقام من جنبه فأجلسه النبى صلى الله عليه وسلم الى جنبه وكان عبد الله بن عمر رضى الله عنهما لايحبس عن طعامه مجذوما ولا أبرص ولا مبتلى الا أقعدهم على مائدته * ومنها أن لايتعاطى بيده شغلا فى بيته والتواضع خلافه روى أن عمر بن عبد العزيز أتاه ليلة ضيف وكان يكتب فكاد السراج يطفأ فقال الضيف أقوم الى المصباح فأصلحه فقال ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه قال أفأنبه الغلام فقال هى أول نومة نامها فقام وأخذ البطة وملا المصباح زيتا فقال الضيف قمت أنت بنفسك يا أمير المؤمنين فقال ذهبت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر ما نقص منى شئ وخير الناس من كان عند الله متواضعا ومنها أن لايأخذ متاعه ويحمله الى بيته وهو خلاف عادة المتواضعين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك وقال على كرم الله وجهه لاينقص الرجل الكامل من كماله ما حمل من شئ الى عياله وكان أبو عبيدة بن الجراح وهو أمير يحمل سطلا له من خشب الى الحمام وقال ثابت ابن أبى مالك رأيت أبا هريرة أقبل من السوق يحمل حزمة حطب وهو يومئذ خليفة لمروان فقال أوسع الطريق للامير يا ابن أبى مالك وعن الاصبغ بن نباتة قال كأنى أنظر الى عمر رضى الله عنه معلقا لحما فى يده اليسرى وفى يده اليمنى الدرة يدور فى الاسواق حتى دخل رحله وقال بعضهم رأيت عليا رضى الله عنه قد اشترى لحما بدرهم فحمله فى ملحفته فقلت له أحمل عنك يا أمير المؤمنين فقال لا أبو العيال أحق أن يحمل ومنها اللباس اذ يظهر به التكبر والتواضع وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم البذاذة من الايمان فقال هرون سألت معنا عن البذاذة فقال هو الدون من اللباس وقال زيد بن وهب رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه خرج الى السوق وبيده الدرة وعليه ازار فيه أربع عشرة رقعة بعضها من أدم وعوتب على كرم الله وجهه فى ازار مرقوع فقال يقتدى به المؤمن ويخشع له القلب وقال عيسى عليه السلام جودة الثياب خيلاء فى القلب وقال طاوس انى لاغسل ثوبى هذين فأنكر قلبى ما داما نقيين ويروى أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله كان قبل أن يستخلف تشترى له الحلة بألف دينار فيقول ما أجودها لولا خشونة فيها فلما استخلف كان يشترى له الثوب بخمسة دراهم فيقول ما أجوده لولا لينه فقيل له أين لباسك ومركبك وعطرك يا أمير المؤمنين فقال ان لى نفسا ذواقة تواقة وانها لم تذق من الدنيا طبقة الا تاقت الى الطبقة التى فوقها حتى اذا ذاقت الخلافة وهى أرفع الطباق تاقت الى ما عند الله عز وجل وقال سعيد بن سويد صلى بنا عمر بن عبد العزيز الجمعة ثم جلس وعليه قميص مرقوع الجيب من بين يديه ومن خلفه فقال له رجل يا أمير المؤمنين ان الله قد أعطاك فلو لبست فنكس رأسه مليا ثم رفع رأسه فقال ان أفضل القصد عند الجدة وان أفضل العفو عند القدرة وقال صلى الله عليه وسلم من ترك زينة لله ووضع ثيابا حسنة تواضعا لله وابتغاء لمرضاته كان حقا على الله أن يدخر له عبقرى الجنة فان قلت فقد قال عيسى عليه السلام جودة الثياب خيلاء القلب وقد سئل نبينا صلى الله عليه وسلم عن الجمال فى الثياب هل هو من الكبر فقال لا ولكن من سفه الحق وغمص الناس فكيف طريق الجمع بينهما فاعلم ان الثوب الجيد ليس من ضرورته ان يكون من التكبر فى حق كل أحد فى كل حال وهو الذى أشار اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الذى عرفه رسول الله صلى الله عليه وسلم من حال ثابت بن قيس اذ قال انى امرؤ حبب الى من الجمال ما ترى فعرف ان ميله الى النظافة وجودة الثياب لا ليتكبر على غيره فانه ليس من ضرورته أن يكون من الكبر وقد يكون ذلك من الكبر كما أن الرضا بالثوب الدون قد يكون من التواضع وعلامة المتكبر أن يطلب التجمل اذا رآه الناس ولا يبالى اذا انفرد بنفسه كيف كان وعلامة طالب الجمال أن يحب الجمال فى كل شئ ولو فى خلوته وحتى فى ستور داره فذلك ليس من التكبر فاذا انقسمت الاحوال نزل قول عيسى عليه السلام على بعض الاحوال على ان قوله خيلاء القلب يعنى قد تورث خيلاء فى القلب وقول نبينا صلى الله عليه وسلم انه ليس من الكبر يعنى أن الكبر لا يوجبه ويجوز أن لا يوجبه الكبر ثم يكون هو مورثا للكبر وبالجملة فالاحوال تختلف فى مثل هذا والمحبوب الوسط من اللباس الذى لا يوجب شهرة بالجودة ولا بالرداءة وقد قال صلى الله عليه وسلم كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا فى غير سرف ولا مخيلة ان الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده وقال بكر بن عبد الله المزنى البسوا ثياب الملوك وأميتوا قلوبكم بالخشية وانما خاطب بهذا قوما يطلبون التكبر بثياب أهل الصلاح وقد قال عيسى عليه السلام ما لكم تأتونى وعليكم ثياب الرهبان

والانس فان النوم طبعه بارد رطب ينفع الجسد والدماغ ويسكن من الحرارة واليبس الحادث فى المزاج فان نقص عن الثلث يضر بالدماغ ويخشى منه اضطراب الجسم فاذا ناب عن النوم روح القلب وأنسه لا يضر نقصانه لان طبيعة الروح والانس باردة رطبة كطبيعة النوم وقد تقصر مدة طول الليل بوجود الروح فتصير بالروح أوقات الليل الطويلة كالقصيرة كما يقال سنة الوصل سنة وسنة الهجر سنة فيقصر الليل لاهل الروح (نقل) عن على بن بكار أنه قال منذ أربعين سنة ما أحزننى الا طلوع الفجر وقيل لبعضهم كيف أنت والليل قال ما راعيته قط يرينى وجهه ثم ينصرف وما تأملته قال أبو سليمان الدارانى أهل الليل فى ليلهم أشد لذة من أهل اللهو فى لهوهم وقال بعضهم ليس فى الدنيا شئ

وقلوبكم قلوب الذئاب الضوارى البسوا ثياب الملوك وأميتوا قلوبكم بالخشية ومنها أن يتواضع بالاحتمال اذا سب وأوذى وأخذ حقه فذلك هو الاصل وقد أوردنا ما نقل عن السلف من احتمال الاذى فى كتاب الغضب والحسد وبالجملة فجامع حسن الاخلاق والتواضع سيرة النبى صلى الله عليه وسلم فيه فينبغى أن يقتدى به ومنه ينبغى أن يتعلم وقد قال أبو سلمة قلت لابى سعيد الخدرى ما ترى فيما أحدث الناس من الملبس والمشرب والمركب والمطعم فقال يا ابن أخى كل لله واشرب لله والبس لله وكل شئ من ذلك دخله زهو أو مباهاة أو رياء أو سمعة فهو معصية وسرف وعالج فى بيتك من الخدمة ما كان يعالج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيته كان يعلف الناضح ويعقل البعير ويقم البيت ويحلب الشاة ويخصف النعل ويرقع الثوب ويأكل مع خادمه ويطحن عنه اذا أعيا ويشترى الشئ من السوق ولا يمنعه الحياء أن يعلقه بيده أو يجعله فى طرف ثوبه وينقلب الى أهله يصافح الغنى والفقير والكبير والصغير ويسلم مبتدئا على كل من استقبله من صغير أو كبير أسود أو أحمر حر أو عبد من أهل الصلاة ليست له حلة لمدخله وحلة لمخرجه لا يستحيى من أن يجيب اذا دعى وكان أشعث أغبر ولا يحقر ما دعى اليه وان لم يجد الا حشف الدقل لا يرفع غداء لعشاء ولا عشاء لغداء هين المؤنة لين الخلق كريم الطبيعة جميل المعاشرة طليق الوجه بسام من غير ضحك محزون من غير عبوس شديد فى غير عنف متواضع فى غير مذلة جواد من غير سرف رحيم لكل ذى قربى ومسلم رقيق القلب دائم الاطراق لم يبشم قط من شبع ولم يمد يده من طمع قال أبو سلمة فدخلت على عائشة رضى الله عنها فحدثتها بما قال أبو سعيد فى زهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت ما أخطأ منه حرفا ولقد قصر اذ ما أخبرك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمتلئ قط شبعا ولم يبث الى أحد شكوى وان كانت الفاقة لاحب اليه من اليسار والغنى وان كان ليظل جائعا يلتوى ليلته حتى يصبح فما يمنعه ذلك عن صيام يومه ولو شاء ان يسأل ربه فيؤتى بكنوز الارض وثمارها ورغد عيشها من مشارق الارض ومغاربها لفعل وربما بكيت رحمة له مما أوتى من الجوع فامسح بطنه بيدى وأقول نفسى لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقدر ما يقوتك ويمنعك من الجوع فيقول يا عائشة اخوانى من أولى العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم وقدموا على ربهم فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم فأجدنى أستحيى ان ترفهت فى معيشتى أن يقصر بى دونهم فاصبر أياما يسيرة أحب الى من أن ينقص حظى غدا فى الآخرة وما من شئ أحب الى من اللحوق باخوانى واخلائى قالت عائشة رضى الله عنها فوالله ما استكمل بعد ذلك جمعة حتى قبضه الله عز وجل فما نقل من أحواله صلى الله عليه وسلم يجمع جملة اخلاق المتواضعين فمن طلب التواضع فليقتد به ومن رأى نفسه فوق محله صلى الله عليه وسلم ولم يرض لنفسه بما رضى هو به فما أشد جهله فلقد كان أعظم خلق الله منصبا فى الدنيا والدين فلا عز ولا رفعة الا فى الاقتداء به ولذلك قال عمر رضى الله عنه انا قوم أعزنا الله بالاسلام فلا نطلب العز فى غيره لما عوتب فى بذاذة هيئته عند دخوله الشام وقال أبو الدرداء اعلم أن لله عبادا يقال لهم الابدال خلف من الانبياء هم أوتاد الارض فلما انقضت النبوة أبدل الله مكانهم قوما من أمة محمد صلى الله عليه وسلم لم يفضلوا الناس بكثرة صوم ولا صلاة ولا حسن حلية ولكن بصدق الورع وحسن النية وسلامة الصدر لجميع المسلمين والنصيحة لهم ابتغاء مرضاة الله بصبر من غير تجبن وتواضع فى غير مذلة وهم قوم اصطفاهم الله واستخلصهم لنفسه وهم أربعون صديقا أو ثلاثون رجلا قلوبهم على مثل يقين ابراهيم خليل الرحمن عليه السلام لا يموت الرجل منهم حتى يكون الله قد أنشأ من يخلفه واعلم يا أخى أنهم لا يلعنون شيأ ولا يؤذونه ولا يحقرونه ولا يتطاولون عليه ولا يحسدون أحدا ولا يحرصون على الدنيا هم أطيب الناس خبرا وألينهم عريكة وأسخاهم نفسا علامتهم السخاء وسجيتهم البشاشة وصفتهم السلامة ليسوا اليوم فى خشية وغدا فى غفلة ولكن مداومين على حالهم الظاهر وهم فيما بينهم وبين ربهم لا تدركهم الرياح العواصف ولا الخيل المجراة قلوبهم تصعد ارتياحا الى الله واشتياقا اليه وقدما فى استباق الخيرات أولئك حزب الله ألا ان حزب الله هم المفلحون قال الراوى فقلت يا أبا الدرداء ما سمعت بصفة أشد على من تلك الصفة وكيف لى ان أبلغها فقال ما بينك وبين أن تكون فى أوسعها الا أن تكون تبغض الدنيا فانك اذا أبغضت الدنيا أقبلت على حب الآخرة وبقدر حبك للآخرة تزهد فى الدنيا وبقدر ذلك تبصر ما ينفعك واذا علم الله من عبد حسن الطلب أفرغ عليه السداد

يشبه نعيم أهل الجنة الا ما يجده أهل التملق فى قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة فحلاوة المناجاة ثواب عاجل لاهل الليل (وقال) بعض العارفين ان الله تعالى يطلع على قلوب المستيقظين فى الاسحار فيملؤها نورا فترد الفوائد على قلوبهم فتستنير ثم تنتشر من قلوبهم الفوائد الى قلوب الغافلين وقد ورد ان الله تعالى أوحى فى بعض ما أوحى الى بعض أنبيائه ان لى عبادا يحبونى وأحبهم ويشتاقون الى وأشتاق اليهم ويذكرونى وأذكرهم وينظرون الى وأنظر اليهم فان حذوت طريقهم أحببتك وان عدلت عن ذلك مقتك قال يارب وما علامتهم قال يراعون الظلال بالنهار كما يراعى الراعى غنمه ويحنون الى غروب الشمس كما تحن الطير الى أوكارها فاذا جنهم الليل واختلط الظلام وخلا كل حبيب

واكتنفه بالعصمة واعلم يا ابن أخي ان ذلك في كتاب الله تعالى المنزل ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون قال يحيى بن كثير فنظرنا في ذلك فما تلذذ المتلذذون بمثل حب الله وطلب مرضاته اللهم اجعلنا من محبي المحبين لك يارب العالمين فانه لا يصلح لحبك الا من ارتضيته وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿بيان الطريق في معالجة الكبر واكتساب التواضع له﴾

اعلم أن الكبر من المهلكات ولا يخلو أحد من الخلق عن شيء منه وازالته فرض عين ولا يزول بمجرد التمني بل بالمعالجة واستعمال الادوية القامعة له وفي معالجته مقامان أحدهما استئصال أصله من سنخه وقلع شجرته من مغرسها في القلب الثاني دفع العارض منه بالاسباب الخاصة التي بها يتكبر الانسان على غيره (المقام الاول) في استئصال أصله وعلاجه علمي وعملي ولا يتم الشفاء الا بمجموعهما أما العلمي فهو أن يعرف نفسه ويعرف ربه تعالى ويكفيه ذلك في ازالة الكبر فانه مهما عرف نفسه حق المعرفة علم أنه أذل من كل ذليل وأقل من كل قليل وأنه لا يليق به الا التواضع والذلة والمهانة واذا عرف ربه علم أنه لا تليق العظمة والكبرياء الا بالله أما معرفته ربه وعظمته ومجده فالقول فيه يطول وهو منتهى علم المكاشفة وأما معرفته نفسه فهو أيضا يطول ولكنا نذكر من ذلك ما ينفع في اثارة التواضع والمذلة ويكفيه أن يعرف معنى آية واحدة في كتاب الله فان في القرآن علم الاولين والآخرين لمن فتحت بصيرته وقد قال تعالى قتل الانسان ما أكفره من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فاقبره ثم اذا شاء أنشره فقد أشارت الآية الى أول خلق الانسان والى آخر أمره والى وسطه فلينظر الانسان ذلك ليفهم معنى هذه الآية اما أول الانسان فهو أنه لم يكن شيأ مذكورا وقد كان في حيز العدم دهورا بل لم يكن لعدمه أول وأي شيء أخس وأقل من المحو والعدم وقد كان كذلك في القدم ثم خلقه الله من أرذل الاشياء ثم من أقذرها اذ قد خلقه الله من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ثم جعله عظاما ثم كسا العظم لحما فقد كان هذا بداية وجوده حيث كان شيأ مذكورا فما صار شيأ مذكورا الا وهو على أخس الاوصاف والنعوت اذ لم يخلق في ابتدائه كاملا بل خلقه جمادا ميتا لا يسمع ولا يبصر ولا يحس ولا يتحرك ولا ينطق ولا يبطش ولا يدرك ولا يعلم فبدأ بموته قبل حياته وبضعفه قبل قوته وبجهله قبل علمه وبعماه قبل بصره وبصممه قبل سمعه وبكمه قبل نطقه وبضلالته قبل هداه وبفقره قبل غناه وبعجزه قبل قدرته فهذا معنى قوله من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره ومعنى قوله هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيأ مذكورا انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه كذلك خلقه أولا ثم امتن عليه فقال ثم السبيل يسره وهذا اشارة الى ما تيسر له في مدة حياته الى الموت وكذلك قال من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا ومعناه أنه أحياه بعد ان كان جمادا ميتا ترابا أولا ونطفة ثانيا وأسمعه بعد ما كان أصم وبصره بعد ما كان فاقد البصر وقواه بعد الضعف وعلمه بعد الجهل وخلق له الاعضاء بما فيها من العجائب والآيات بعد الفقد لها وأغناه بعد الفقر وأشبعه بعد الجوع وكساه بعد العرى وهداه بعد الضلال فانظر كيف دبره وصوره والى السبيل كيف يسره والى طغيان الانسان ما أكفره والى جهل الانسان كيف أظهره فقال أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم اذا أنتم بشر تنتشرون فانظر الى نعمة الله عليه كيف نقله من تلك الذلة والقلة والخسة والقذارة الى هذه الرفعة والكرامة فصار موجودا بعد العدم وحيا بعد الموت وناطقا بعد البكم وبصيرا بعد العمى وقويا بعد الضعف وعالما بعد الجهل ومهديا بعد الضلال وقادرا بعد العجز وغنيا بعد الفقر فكان في ذاته لا شيء وأي شيء أخس من لا شيء وأي قلة أقل من العدم المحض ثم صار بالله شيأ وانما خلقه من التراب الذليل الذي يوطأ بالاقدام والنطفة القذرة بعد العدم المحض أيضا ليعرفه خسة ذاته فيعرف به نفسه وانما أكمل النعمة عليه ليعرف بها ربه ويعلم بها عظمته وجلاله وانه لا يليق الكبرياء الا به جل وعلا ولذلك امتن عليه فقال ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين وعرف خسته أولا فقال ألم يك نطفة من مني يمنى ثم كان علقة ثم ذكر منته عليه فقال فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والانثى ليدوم وجوده بالتناسل كما حصل وجوده أولا بالاختراع فمن كان هذا بدأه وهذه أحواله فمن أين له البطر والكبرياء والفخر والخيلاء وهو على التحقيق أخس الاخساء وأضعف الضعفاء ولكن هذه

بحبيبه نصبوا الى أقدامهم وافترشوا الى وجوههم وناجوني بكلامي وتملقوا الى بانعامي فبين صارخ وباك وبين متأوه وشاك بعيني ما يتحملون من أجلي وبسمعي ما يشكون من حبي أول ما أعطيهم أن أقذف من نوري في قلوبهم فيخبرون عني كما أخبر عنهم والثاني لو كانت السموات السبع والارضون وما فيهما في موازينهم لاستقللتها لهم والثالث أقبل بوجهي عليهم أفترى من أقبلت بوجهي عليه أيعلم أحد ما أريد أن أعطيه فالصادق المريد اذا خلا في ليلة بمناجاة ربه انتشرت أنوار ليله على جميع أجزاء نهاره ويصير نهاره في حماية ليله وذلك لامتلاء قلبه بالانوار فتكون حركاته وتصاريفه بالنهار تصدر من منبع الانوار المجتمعة من الليل ويصير قالبه في قبة من قباب الحق مسددا حركاته موفرة

عادة الخسيس اذا رفع من خسسته شمخ بانفه وتعظم وذلك لدلالة خسة أوله ولا حول ولا قوة الا بالله نعم لو أكمله وفوض اليه أمره وأدام له الوجود باختياره لجاز أن يطغى و ينسى المبدأ والمنتهى ولكنه سلط عليه فى دوام وجوده الامراض الهائلة والاسقام العظيمة والآفات المختلفة والطباع المتضادة من المرة والبلغم والريح والدم يهدم البعض من أجزائه البعض شاء أم أبى رضى أم سخط فيجوع كرها و يعطش كرها و يمرض كرها و يموت كرها لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا خيرا ولا شرا يريد ان يعلم الشئ فيجهله و يريد أن يذكر الشئ فينساه و يريد أن ينسى الشئ و يغفل عليه فلا يغفل عنه و يريد أن يصرف قلبه الى ما يهمه فيجول فى أودية الوساوس والافكار بالاضطرار فلا يملك قلبه قلبه ولا نفسه نفسه و يشتهى الشئ ور بما يكون هلاكه فيه و يكره الشئ ور بما تكون حياته فيه يستلذ الاطعمة وتهلكه وترديه و يستبشع الادوية وهى تنفعه وتحييه ولا يأمن فى لحظة من ليله أو نهاره أن يسلب سمعه و بصره وتفلج أعضاؤه و يختلس عقله و يختطف روحه و يسلب جميع ما يهواه فى دنياه فهو مضطر ذليل ان ترك بقى وان اختطف فنى عبد مملوك لا يقدر على شئ من نفسه ولا شئ من غيره فاى شئ أذل منه لو عرف نفسه وأنى يليق الكبر به لولا جهله فهذا أوسط أحواله فليتأمله وأما آخره ومورده فهو الموت المشار اليه بقوله تعالى ثم أماته فاقبره ثم اذا شاء أنشره ومعناه أنه يسلب روحه وسمعه و بصره وعلمه وقدرته وحسه وادراكه وحركته فيعود جمادا كما كان أول مرة لا يبقى الا شكل أعضائه وصورته لا حس فيه ولا حركة ثم يوضع فى التراب فيصير جيفة منتنة قذرة كما كان فى الاول نطفة مذرة ثم تبلى أعضاؤه وتتفتت أجزاؤه وتنخر عظامه و يصير رميما رفاتا و يأكل الدود أجزاءه فيبتدئ بحدقتيه فيقلعهما و بخديه فيقطعهما و بسائر أجزائه فيصير روثا فى أجواف الديدان و يكون جيفة يهرب منه الحيوان و يستقذره كل انسان و يهرب منه لشدة الانتان وأحسن أحواله ان يعود الى ما كان فيصير ترابا يعمل منه الكيزان و يعمر منه البنيان فيصير مفقودا بعدما كان موجودا وصار كان لم يغن بالامس حصيدا كما كان أول أمره أمدا مديدا وليته بقى كذلك فما أحسنه لو ترك ترابا لا بل يحييه بعد طول البلى ليقاسى شديد البلاء فيخرج من قبره بعد جمع أجزائه المتفرقة و يخرج الى أهوال القيامة فينظر الى قيامة قائمة وسماء مشققة ممزقة وأرض مبدلة وجبال مسيرة ونجوم منكدرة وشمس منكسفة وأحوال مظلمة وملائكة غلاظ شداد وجهنم تزفر وجنة ينظر اليها المجرم فيتحسر و يرى صحائف منشورة فيقال له اقرأ كتابك فيقول وما هو فيقال كان قد وكل بك فى حياتك التى كنت تفرح بها وتتكبر بنعيمها وتفتخر باسبابها ملكان رقيبان يكتبان عليك ما كنت تنطق به أو تعمله من قليل وكثير ونقير وقطمير وأكل وشرب وقيام وقعود قد نسيت ذلك وأحصاه الله عليك فهلم الى الحساب واستعد للجواب أو تساق الى دار العذاب فينقطع قلبه فزعا من هول هذا الخطاب قبل ان تنتشر الصحيفة و يشاهد ما فيها من مخازيه فاذا شاهده قال يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها فهذا آخر أمره وهو معنى قوله تعالى ثم اذا شاء أنشره فما لمن هذا حاله والتكبر والتعظم بل ماله وللفرح فى لحظة واحدة فضلا عن البطر والاشر فقد ظهر له أول حاله ووسطه ولو ظهر آخره والعياذ بالله تعالى ربما اختار أن يكون كلبا أو خنزيرا ليصير مع البهائم ترابا ولا يكون انسانا يسمع خطابا أو يلقى عذابا وان كان عند الله مستحقا للنار فالخنزير أشرف منه وأطيب وأرفع اذ أوله التراب وآخره التراب وهو بمعزل عن الحساب والعذاب والكلب والخنزير لا يهرب منه الخلق ولو رأى أهل الدنيا العبد المذنب فى النار لصعقوا من وحشة خلقته وقبح صورته ولو وجدوا ريحه لماتوا من نتنه ولو وقعت قطرة من شرابه الذى يسقى منه فى بحار الدنيا لصارت أنتن من الجيفة فمن هذا حاله فى العاقبة الا أن يعفو الله عنه وهو على شك من العفو كيف يفرح و يبطر وكيف يتكبر و يتجبر وكيف يرى نفسه شيأ حتى يعتقد له فضلا وأى عبد لم يذنب ذنبا استحق به العقوبة الا أن يعفو الله الكريم بفضله و يجبر الكسر بمنه والرجاء منه ذلك لكرمه وحسن الظن به ولا قوة الا بالله أرأيت من جنى على بعض الملوك فاستحق بجنايته ضرب ألف سوط فحبس فى السجن وهو ينتظر أن يخرج الى العرض وتقام عليه العقوبة على ملا من الخلق وليس يدرى أيعفى عنه أم لا كيف يكون ذله فى السجن افترى أنه يتكبر على من فى السجن وما من عبد مذنب الا والدنيا سجنه وقد استحق العقوبة من الله تعالى ولا يدرى كيف يكون آخر أمره

سكناته * وقد ورد من صلى بالليل حسن وجهه بالنهار ويجوز أن يكون لمعنيين أحدهما ان المشكاة تستنير بالمصباح فاذا صار سراج اليقين فى القلب يزهر بكثرة زيت العمل بالليل فيزداد المصباح اشراقا وتكتسب مشكاة القالب نورا وضياء كان يقول سهل ابن عبد الله اليقين نار والاقرار فتيلة والعمل زيت وقد قال الله تعالى سيماهم فى وجوههم من أثر السجود وقال تعالى مثل نوره كمشكاة فيها مصباح فنور اليقين من نور الله فى زجاجة القلب يزداد ضياء بزيت العمل فتبقى زجاجة القلب كالكوكب الدرى وتنعكس انوار الزجاجة على مشكاة القالب وأيضا يلين القلب بنار النور ويسرى لينه الى القالب فيلين القالب للين القلب فيتشابهان لوجود اللين الذى عمهما قال الله تعالى ثم تلين

فيكفيه ذلك حزنا وخوفا واشفاقا ومهانة وذلا فهذا هو العلاج العلمى القامع لاصل الكبر وأما العلاج العملى فهو التواضع لله بالفعل ولسائر الخلق بالمواظبة على أخلاق المتواضعين كما وصفناه وحكيناه من أحوال الصالحين ومن أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أنه كان يأكل على الارض ويقول انما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وقيل لسلمان لم لاتلبس ثوبا جديدا فقال انما أنا عبد فاذا أعتقت يوما لبست جديدا أشار به الى العتق فى الآخرة ولا يتم التواضع بعد المعرفة الا بالعمل ولذلك أمر العرب الذين تكبروا على الله ورسوله بالايمان وبالصلاة جميعا وقيل الصلاة عماد الدين وفى الصلاة أسرار لاجلها كانت عمادا ومن جملتها مافيها من التواضع بالمثول قائما وبالركوع والسجود وقد كانت العرب قديما يأنفون من الانحناء فكان يسقط من يد الواحد سوطه فلا ينحنى لاخذه وينقطع شراك نعله فلا ينكس رأسه لاصلاحه حتى قال حكيم بن حزام بايعت النبى صلى الله عليه وسلم على أن لا أخر الا قائما فبايعه النبى صلى الله عليه وسلم ثم فقه وكمل ايمانه بعد ذلك فلما كان السجود عندهم هو منتهى الذلة والضعة أمروا به لتنكسر بذلك خيلاؤهم ويزول كبرهم ويستقر التواضع فى قلوبهم وبه أمر سائر الخلق فان الركوع والسجود والمثول قائما هو العمل الذى يقتضيه التواضع فكذلك من عرف نفسه فلينظر كل مايتقاضاه الكبر من الافعال فليواظب على نقيضه حتى يصير التواضع له خلقا فان القلوب لاتتخلق بالاخلاق المحمودة الا بالعلم والعمل جميعا وفى ذلك خفاء العلاقة بين القلب والجوارح وسر الارتباط الذى بين عالم الملك وعالم الملكوت والقلب من عالم الملكوت ﴿المقام الثانى﴾ فيما يعرض من التكبر بالاسباب السبعة المذكورة وقد ذكرنا فى كتاب ذم الجاه أن الكمال الحقيقى هو العلم والعمل فأما ماعداه مما يفنى بالموت فكمال وهمى فمن هذا يعسر على العالم أن لا يتكبر ولكنا نذكر طريق العلاج من العلم والعمل فى جميع الاسباب السبعة * الاول النسب فمن يعتريه الكبر من جهة النسب فليداو قلبه بمعرفة أمرين أحدهما أن هذا جهل من حيث انه تعزز بكمال غيره ولذلك قيل

لئن فخرت بآباء ذوى شرف * لقد صدقت ولكن بئس ماولدوا

فالمتكبر بالنسب ان كان خسيسا فى صفات ذاته فن أين يجبر خسته بكمال غيره بل لو كان الذى ينسب اليه حيا لكان له أن يقول الفضل لى ومن أنت وانما أنت دودة خلقت من بولى أفترى أن الدودة التى خلقت من بول انسان أشرف من الدودة التى من بول فرس هيهات بل هما متساويان والشرف للانسان لا للدودة * الثانى أن يعرف نسبه الحقيقى فيعرف أباه وجده فان أباه القريب نطفة قذرة وجده البعيد تراب ذليل وقد عرفه الله تعالى نسبه فقال الذى أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الانسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين فمن أصله التراب المهين الذى يداس بالاقدام ثم خمر طينه حتى صار حمأ مسنونا كيف يتكبر وأخس الاشياء ما اليه انتسابه اذ يقال يا أذل من التراب ويا أنتن من الحمأة ويا أقذر من المضغة فان كان كونه من أبيه أقرب من كونه من التراب فنقول افتخر بالقريب دون البعيد فالنطفة والمضغة أقرب اليه من الاب فليحقر نفسه بذلك ثم ان كان ذلك يوجب رفعة لقربه فالاب الاعلى من التراب فمن أين رفعته واذا لم يكن له رفعة فمن أين جاءت الرفعة لولده فاذا أصله من التراب وفصله من النطفة فلا أصل له ولا فصل وهذه غاية خسة النسب فالاصل يوطأ بالاقدام والفصل تغسل منه الابدان فهذا هو النسب الحقيقى للانسان ومن عرفه لم يتكبر بالنسب ويكون مثله بعد هذه المعرفة وانكشاف الغطاء له عن حقيقة أصله كرجل لم يزل عند نفسه من بنى هاشم وقد أخبره بذلك والداه فلم يزل فيه نخوة الشرف فبينما هو كذلك اذ أخبره عدول لا يشك فى قولهم أنه ابن هندى حجام يتعاطى القاذورات وكشفوا له وجه التلبيس عليه فلم يبق له شك فى صدقهم أفترى أن ذلك يبقى شيأ من كبره لا بل يصير عند نفسه أحقر الناس وأذلهم فهو من استشعار الخزى لخسته فى شغل عن أن يتكبر على غيره فهذا حال البصير اذا تفكر فى أصله وعلم أنه من النطفة والمضغة والتراب اذ لو كان أبوه ممن يتعاطى نقل التراب أو يتعاطى الدم بالحجامة أو غيرها لكان يعلم به خسة نفسه لمماسة أعضاء أبيه للتراب والدم فكيف اذا عرف أنه فى نفسه من التراب والدم والاشياء القذرة التى يتنزه عنها هو فى نفسه * السبب الثانى التكبر بالجمال ودواؤه أن ينظر الى باطنه نظر العقلاء ولا ينظر الى الظاهر نظر البهائم ومهما نظر الى باطنه رأى من القبائح ما يكدر عليه تعززه

جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله وصف الجلود باللين كما وصف القلوب باللين فاذا امتلا القلب بالنور ولان القالب بما يسرى فيه من الانس والسرور تندرج الزمان والمكان فى نور القلب ويندرج فيه الكلام والآيات والسور وتشرق الارض أرض القالب بنور ربها اذ يصير القلب سماء والقالب أرضا ولذة تلاوة كلام الله فى محل المناجاة تستركون الكائنات والكلام المجيد بكونه ينوب عن سائر الوجود فى مزاحة صفو الشهود فلا يبقى حينئذ للنفس حديث ولا يسمع للهاجس حسيس وفى مثل هذه الحالة يتصور تلاوة القرآن من فاتحته الى خاتمته من غير وسوسة وحديث نفس وذلك هو الفضل العظيم * الوجه الثانى لقوله عليه السلام من صلى بالليل حسن وجهه

بالجمال فانه وكل به الاقذار فى جميع أجزائه الرجيع فى أمعائه والبول فى مثانته والمخاط فى أنفه والبزاق فى فيه والوسخ فى أذنيه والدم فى عروقه والصديد تحت بشرته والصنان تحت ابطه يغسل الغائط بيده كل يوم دفعة أو دفعتين و يتردد كل يوم الى الخلاء مرة أو مرتين ليخرج من باطنه مالو رآه بعينه لاستقذره فضلا عن أن يمسه أو يشمه كل ذلك ليعرف قذارته وذله هذا فى حال توسطه وفى أول أمره خلق من الاقذار الشنيعة الصور من النطفة ودم الحيض وأخرج من مجرى الاقذار اذ خرج من الصلب ثم من الذكر مجرى البول ثم من الرحم مفيض دم الحيض ثم خرج من مجرى القذر قال أنس رحمه الله كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يخطبنا فيقذر الينا أنفسنا و يقول خرج أحدكم من مجرى البول مرتين وكذلك قال طاوس لعمر بن عبد العزيز ما هذه مشية من فى بطنه خرء اذ رآه يتبختر وكان ذلك قبل خلافته وهذا أوله و وسطه ولو ترك نفسه فى حياته يوما لم يتعهدها بالتنظيف والغسل لثارت منه الانتان والاقذار وصار أنتن وأقذر من الدواب المهملة التى لا تتعهد نفسها قط فاذا نظر أنه خلق من أقذار وأسكن فى أقذار وسيموت فيصير جيفة أقذر من سائر الاقذار لم يفتخر بجماله الذى هو كخضراء الدمن وكلون الازهار فى البوادى فبينما هو كذلك اذ صار هشيما تذروه الرياح كيف ولو كان جماله باقيا وعن هذه القبائح خاليا لكان يجب أن لا يتكبر به على القبيح اذ لم يكن قبح القبيح اليه فينفيه ولا كان جمال الجميل اليه حتى يحمد عليه كيف ولا بقاء له بل هو فى كل حين يتصور أن يزول بمرض أو جدرى أو قرحة أو سبب من الاسباب فكم من وجوه جميلة قد سمجت بهذه الاسباب فمعرفة هذه الامور تنزع من القلب داء الكبر بالجمال لمن أكثر تأملها * السبب الثالث التكبر بالقوة والايدى و يمنعه من ذلك أن يعلم ما سلط عليه من العلل والامراض وأنه لو توجع عرق واحد فى يده لصار أعجز من كل عاجز وأذل من كل ذليل وأنه لو سلبه الذباب شيأ لم يستنقذه منه وان بقة لو دخلت فى أنفه أو نملة دخلت فى أذنه لقتلته وان شوكة لو دخلت فى رجله لاعجزته وان حمى يوم تحلل من قوته مالا ينجبر فى مدة فمن لا يطيق شوكة ولا يقاوم بقة ولا يقدر على أن يدفع عن نفسه ذبابة فلا ينبغى أن يفتخر بقوته ثم ان قوى الانسان فلا يكون أقوى من حمار أو بقرة أو فيل أو جمل وأى افتخار فى صفة يسبقك فيها البهائم * السبب الرابع * والخامس الغنى وكثرة المال وفى معناه كثرة الاتباع والانصار والتكبر بولاية السلاطين والتمكن من جهتهم وكل ذلك تكبر بمعنى خارج عن ذات الانسان لا كالجمال والقوة والعلم وهذا أقبح أنواع الكبر فان المتكبر بماله كانه متكبر بفرسه وداره ولو مات فرسه وانهدمت داره لعاد ذليلا والمتكبر بتمكين السلطان و ولايته لا بصفة فى نفسه بنى أمره على قلب هو أشد غليانا من القدر فان تغير عليه كان أذل الخلق وكل متكبر بأمر خارج عن ذاته فهو ظاهر الجهل كيف والمتكبر بالغنى لو تأمل لرأى فى اليهود من يزيد عليه فى الغنى والثروة والتجمل فأف لشرف يسبقك به اليهودى وأف لشرف يأخذه السارق فى لحظة واحدة فيعود صاحبه ذليلا مفلسا فهذه أسباب ليست فى ذاته وما هو فى ذاته ليس اليه دوام وجوده وهو فى الآخرة وبال ونكال فالتفاخر به غاية الجهل وكل ما ليس اليك فليس لك وشئ من هذه الامور ليس اليك بل الى واهبه ان أبقاه بقى لك وان استرجعه زال عنك وما أنت الا عبد مملوك لا تقدر على شئ ومن عرف ذلك لا بد وأن يزول كبره ومثاله أن يفتخر الغافل بقوته وجماله وماله وحريته واستقلاله وسعة منازله وكثرة خيوله وغلمانه اذ شهد عليه شاهدان عدلان عند حاكم منصف بأنه رقيق لفلان وان أبويه كانا مملوكين له فعلم ذلك وحكم به الحاكم فجاء مالكه فأخذه وأخذ جميع ما فى يده وهو مع ذلك يخشى أن يعاقبه و ينكل به لتفريطه فى أمواله وتقصيره فى طلب مالكه ليعرف أن له مالكا ثم نظر العبد فرأى نفسه محبوسا فى منزل قد أحدقت به الحيات والعقارب والهوام وهو فى كل حال على وجل من كل واحدة منها وقد بقى لا يملك نفسه ولا ماله ولا يعرف طريقا فى الخلاص ألبتة أفترى من هذا حاله هل يفخر بقدرته وثروته وقوته وكماله أم تذل نفسه و يخضع وهذا حال كل عاقل بصير فانه يرى نفسه كذلك فلا يملك رقبته و بدنه وأعضاءه وماله وهو مع ذلك بين آفات وشهوات وأمراض وأسقام هى كالعقارب والحيات يخاف منها الهلاك فمن هذا حاله لا يتكبر بقوته وقدرته اذ يعلم أنه لا قدرة له ولا قوة فهذا طريق علاج التكبر بالاسباب الخارجة وهو أهون من علاج التكبر بالعلم والعمل فانهما كمالان فى النفس جديران بأن يفرح بهما ولكن

بالنهار معناه أن وجوه أموره التى يتوجه اليها تحسن وتتداركه المعونة من الله الكريم فى تصاريفه و يكون معانا فى مصدره ومورده فيحسن وجه مقاصده وأفعاله و ينتظم فى سلك السداد مسددا أقواله لان الاقوال تستقيم باستقامة القلب

* الباب السادس والاربعون فى ذكر الاسباب المعينة على قيام الليل وأدب النوم *

فمن ذلك أن العبد يستقبل الليل عند غروب الشمس بتجديد الوضوء ويقعد مستقبل القبلة منتظرا مجىء الليل وصلاة المغرب مقيما فى ذلك على أنواع الاذكار ومن أولاها التسبيح والاستغفار قال الله تعالى لنبيه واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشى والابكار ومن ذلك أن يواصل بين العشاءين بالصلاة أو بالتلاوة أو

في التكبر بهما أيضا نوع من الجهل خفي كما سنذكره * السبب السادس الكبر بالعلم وهو أعظم الآفات وأغلب
الأدواء وأبعدها عن قبول العلاج إلا بشدة شديدة وجهد جهيد وذلك لأن قدر العلم عظيم عند الله عظيم عند
الناس وهو أعظم من قدر المال والجمال وغيرهما بل لا قدر لهما أصلا إلا إذا كان معهما علم وعمل ولذلك قال
كعب الأحبار إن للعلم طغيانا كطغيان المال وكذلك قال عمر رضي الله عنه العالم إذا زل زل بزلته عالم فيعجز العالم
عن أن لا يستعظم نفسه بالإضافة إلى الجاهل لكثرة ما نطق الشرع بفضائل العلم ولن يقدر العالم على دفع الكبر
إلا بمعرفة أمرين أحدهما أن يعلم أن حجة الله على أهل العلم آكد وأنه يحتمل من الجاهل ما لا يحتمل عشره من
العالم فإن من عصى الله تعالى عن معرفة وعلم فجنايته أفحش إذ لم يقض حق نعمة الله عليه في العلم ولذلك قال صلى
الله عليه وسلم يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحا فيطيف به
أهل النار فيقولون مالك فيقول كنت آمر بالخير ولا آتيه وأنهى عن الشر وآتيه وقد مثل الله سبحانه وتعالى
من يعلم ولا يعمل بالحمار والكلب فقال عز وجل مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل
أسفارا أراد به علماء اليهود وقال في بلعم بن باعوراء واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها حتى بلغ فمثله
كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث قال ابن عباس رضي الله عنهما أوتي بلعم كتابا فأخلد إلى
شهوات الأرض أي سكن حبه إليها فمثله بالكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث أي سواء آتيته الحكمة أو لم
أوته لا يدع شهوته ويكفي العالم هذا الخطر فأي عالم لم يتبع شهوته وأي عالم لم يأمر بالخير الذي لا يأتيه فمهما خطر
للعالم عظم قدره بالإضافة إلى الجاهل فليتفكر في الخطر العظيم الذي هو بصدده فإن خطره أعظم من خطر
غيره كما أن قدره أعظم من قدر غيره فهذا بذاك وهو كالملك المخاطر بروحه في ملكه لكثرة أعدائه فإنه إذا أخذ
وقهر اشتهى أن يكون قد كان فقيرا فكم من عالم يشتهي في الآخرة سلامة الجهال والعياذ بالله منه فهذا الخطر
يمنع من التكبر فإنه إن كان من أهل النار فالخنزير أفضل منه فكيف يتكبر من هذا حاله فلا ينبغي أن يكون العالم
أكبر عند نفسه من الصحابة رضوان الله عليهم وقد كان بعضهم يقول يا ليتني لم تلدني أمي ويأخذ الآخر تبنة
من الأرض ويقول يا ليتني كنت هذه التبنة ويقول الآخر ليتني كنت طيرا أوكل ويقول الآخر ليتني لم أك
شيأ مذكورا كل ذلك خوفا من خطر العاقبة فكانوا يرون أنفسهم أسوأ حالا من الطير ومن التراب ومهما
أطال فكره في الخطر الذي هو بصدده زال بالكلية كبره ورأى نفسه كأنه شر الخلق ومثاله مثال عبد أمره
سيده بأمور فشرع فيها فترك بعضها وأدخل النقصان في بعضها وشك في بعضها أنه هل أداها على ما يرتضيه
سيده أم لا فأخبره مخبر أن سيده أرسل إليه رسولا يخرجه من كل ما هو فيه عريانا ذليلا ويلقيه على بابه في الحر
والشمس زمانا طويلا حتى إذا ضاق عليه الأمر وبلغ به المجهود أمر برفع حسابه وفتش عن جميع أعماله قليلها
وكثيرها ثم أمر به إلى سجن ضيق وعذاب دائم لا يروح عنه ساعة وقد علم أن سيده قد فعل بطوائف من عبيده
مثل ذلك وعفا عن بعضهم وهو لا يدري من أي الفريقين يكون فإذا تفكر في ذلك انكسرت نفسه وذل وبطل
عزه وكبره وظهر حزنه وخوفه ولم يتكبر على أحد من الخلق بل تواضع رجاء أن يكون هو من شفعائه عند نزول
العذاب فكذلك العالم إذا تفكر فيما ضيعه من أوامر ربه بجنايات على جوارحه وبذنوب في باطنه من الرياء
والحقد والحسد والعجب والنفاق وغيره وعلم ما هو بصدده من الخطر العظيم فارقه كبره لا محالة * الأمر الثاني
أن العالم يعرف أن الكبر لا يليق إلا بالله عز وجل وحده وأنه إذا تكبر صار ممقوتا عند الله بغيضا وقد أحب الله
منه أن يتواضع وقال له إن لك عندي قدرا ما لم تر لنفسك قدرا فإن رأيت لنفسك قدرا فلا قدر لك عندي فلا بد
وأن يكلف نفسه ما يحبه مولاه منه وهذا يزيل التكبر عن قلبه وإن كان يستيقن أنه لا ذنب له مثلا أو تصور ذلك
وبهذا زال التكبر عن الأنبياء عليهم السلام إذ علموا أن من نازع الله تعالى في رداء الكبر باء قصمه وقد أمرهم
الله بأن يصغروا أنفسهم حتى يعظم عند الله محلهم فهذا أيضا مما يبعثه على التواضع لا محالة فإن قلت فكيف
يتواضع للفاسق المتظاهر بالفسق وللمبتدع وكيف يرى نفسه دونهم وهو عالم عابد وكيف يجهل فضل العلم
والعبادة عند الله وكيف يغنيه أن يخطر بباله خطر العلم وهو يعلم أن خطر الفاسق والمبتدع أكثر فاعلم أن ذلك

بالذكر وأفضل ذلك
الصلاة فإنه إذا وصل
بين العشاءين ينغسل
عن باطنه آثار الكدورة
الحادثة في أوقات النهار
من رؤية الخلق
ومخالطتهم وسماع
كلامهم فإن ذلك كله
له أثر وخدش في
القلوب حتى النظر
إليهم يعقب كدرا في
القلب يدركه من رزق
صفاء القلب فيكون أثر
النظر إلى الخلق للبصيرة
كالقذى في العين للبصر
وبالمواصلة بين
العشاءين يرجى ذهاب
ذلك الأثر ومن ذلك
ترك الحديث بعد
العشاء الآخرة فإن
الحديث في ذلك الوقت
يذهب طراوة النور
الحادث في القلب من
مواصلة العشاءين
ويقيد عن قيام الليل
سيما إذا كان عريا عن
يقظة القلب ثم تجديد
الوضوء بعد العشاء
الآخرة أيضا معين على
قيام الليل * حكى لي
بعض الفقراء عن شيخ
له بخراسان أنه كان

انما يامن بالتفكر فى خطر الخاتمة بل لو نظر الى كافر لم يمكنه أن يتكبر عليه اذ يتصور ان يسلم الكافر فيختم له بالايمان ويضل هذا العالم فيختم له بالكفر والكبير من هو كبير عند الله فى الآخرة والكلب والخنزير أعلى رتبة ممن هو عند الله من أهل النار وهو لا يدرى ذلك فكم من مسلم نظر الى عمر رضى الله عنه قبل اسلامه فاستحقره وازدراه لكفره وقد رزقه الله الاسلام وفاق جميع المسلمين الا أبا بكر وحده فالعواقب مطوية عن العباد ولا ينظر العاقل الا الى العاقبة وجميع الفضائل فى الدنيا تراد للعاقبة فاذا من حق العبد أن لا يتكبر على أحد بل ان نظر الى جاهل قال هذا عصى الله بجهل وأنا عصيته بعلم فهو أعذر منى وان نظر الى عالم قال هذا قد علم مالم أعلم فكيف أكون مثله وان نظر الى كبير هو أكبر منه سنا قال هذا قد أطاع الله قبلى فكيف أكون مثله وان نظر الى صغير قال انى عصيت الله قبله فكيف أكون مثله وان نظر الى مبتدع أو كافر قال ما يدرينى لعله يختم له بالاسلام ويختم لى بما هو عليه الآن فليس دوام الهداية الى كما لم يكن ابتداؤها الى فبملاحظة الخاتمة يقدر على ان ينفى الكبر عن نفسه وكل ذلك بأن يعلم ان الكمال فى سعادة الآخرة والقرب من الله لا فيما يظهر فى الدنيا مما لا بقاء له ولعمرى هذا الخطر مشترك بين المتكبر والمتكبر عليه ولكن حق على كل واحد أن يكون مصروف الهمة الى نفسه مشغول القلب بخوفه لعاقبته لا ان يشتغل بخوف غيره فان الشفيق بسوء الظن مولع وشفقة كل انسان على نفسه فاذا حبس جماعة فى جناية ووعدوا بان تضرب رقابهم لم يتفرغوا للتكبر بعضهم على بعض وان عمهم الخطر اذ شغل كل واحد هم نفسه عن الالتفات الى هم غيره حتى كان كل واحد هو وحده فى مصيبته وخطره فان قلت فكيف أبغض المبتدع فى الله وأبغض الفاسق وقد أمرت ببغضهما ثم مع ذلك أتواضع لهما والجمع بينهما متناقض فاعلم ان هذا أمر مشتبه يلتبس على أكثر الخلق اذ يمتزج غضبك لله فى انكار البدعة والفسق بكبر النفس والادلال بالعلم والورع فكم من عابد جاهل وعالم مغرور اذا رأى فاسقا جلس بجنبه أزعجه من عنده وتنزه عنه بكبر باطن فى نفسه وهو ظان أنه قد غضب لله كما وقع لعابد بنى اسرائيل مع خليعهم وذلك لان الكبر على المطيع ظاهر كونه شرا والحذر منه ممكن والكبر على الفاسق والمبتدع يشبه الغضب لله وهو خير فان الغضبان أيضا يتكبر على من غضب عليه والمتكبر يغضب وأحدهما يثمر الآخر ويوجبه وهما ممتزجان ملتبسان لا يميز بينهما الا الموفقون والذى يخلصك من هذا أن يكون الحاضر على قلبك عند مشاهدة المبتدع أو الفاسق أو عند أمرهما بالمعروف ونهيهما عن المنكر ثلاثة أمور أحدها التفاتك الى ما سبق من ذنوبك وخطاياك ليصغر عند ذلك قدرك فى عينك والثانى أن تكون ملاحظتك لما أنت متميز به من العلم واعتقاد الحق والعمل الصالح من حيث انها نعمة من الله تعالى عليك فله المنة فيه لا لك فترى ذلك منه حتى لا تعجب بنفسك واذا لم تعجب لم تتكبر والثالث ملاحظة ابهام عاقبتك وعاقبته أنه ربما يختم لك بالسوء ويختم له بالحسنى حتى يشغلك الخوف عن التكبر عليه فان قلت فكيف أغضب مع هذه الاحوال فأقول تغضب لمولاك وسيدك اذ أمرك ان تغضب له لا لنفسك وأنت فى غضبك لا ترى نفسك ناجيا وصاحبك هالكا بل يكون خوفك على نفسك بما علم الله من خفايا ذنوبك أكثر من خوفك عليه مع الجهل بالخاتمة وأعرفك ذلك بمثال لتعلم أنه ليس من ضرورة الغضب لله أن تتكبر على المغضوب عليه وترى قدرك فوق قدره فأقول اذا كان للملك غلام وولد هو قرة عينه وقد وكل الغلام بالولد ليراقبه وأمره أن يضربه مهما أساء أدبه واشتغل بما لا يليق به ويغضب عليه فان كان الغلام محبا مطيعا لمولاه فلا يجد بدا من أن يغضب مهما رأى ولده قد أساء الادب وانما يغضب عليه لمولاه ولانه أمره به ولانه يريد التقرب بامتثال أمره اليه ولانه جرى من ولده ما يكرهه مولاه فيضرب ولده ويغضب عليه من غير تكبر عليه بل هو متواضع له يرى قدره عند مولاه فوق قدر نفسه لان الولد أعز لا محالة من الغلام فاذن ليس من ضرورة الغضب التكبر وعدم التواضع فكذلك يمكنك أن تنظر الى المبتدع والفاسق وتظن أنه ربما كان قدرهما فى الآخرة عند الله أعظم لما سبق لهما من الحسنى فى الازل ولما سبق لك من سوء القضاء فى الازل وأنت غافل عنه ومع ذلك فتغضب بحكم الامر محبة لمولاك اذ جرى ما يكرهه مع التواضع لمن يجوز أن يكون عنده أقرب منك فى الآخرة فهكذا يكون بغض العلماء الاكياس فينضم اليه الخوف والتواضع. وأما المغرور فانه

يغتسل فى الليل ثلاث مرات مرة بعد العشاء الآخرة ومرة فى أثناء الليل بعد الانتباه من النوم ومرة قبل الصبح للوضوء والغسل بعد العشاء الآخرة أثر ظاهر فى تيسير قيام الليل ومن ذلك التعود على الذكر أو القيام بالصلاة حتى يغلب النوم فان التعود على ذلك يعين على سرعة الانتباه الا أن يكون واثقا من نفسه وعادته فيتعمل للنوم ويستجلبه ليقوم فى وقته المعهود والا فالنوم عن الغلبة هو الذى يصلح للمريدين والطالبين وبهذا وصف المحبون قيل نومهم نوم الغرقى وأكلهم أكل المرضى وكلامهم ضرورة فمن نام عن غلبة بهم مجتمع متعلق بقيام الليل يوفق لقيام الليل وانما النفس اذا أطمعت ووطنت على النوم استرسلت فيه واذا أزعجت بصدق العزيمة

يتكبر و يرجو لنفسه أكثر مما يرجوه لغيره مع جهله بالعاقبة وذلك غاية الغرور فهذا سبيل التواضع لمن عصى الله أو اعتقد البدعة مع الغضب عليه ومجانبته بحكم الامر ﴿السبب السابع﴾ التكبر بالورع والعبادة وذلك أيضا فتنة عظيمة على العباد وسبيله أن يلزم قلبه التواضع لسائر العباد وهو أن يعلم أن من يتقدم عليه بالعلم لا ينبغي أن يتكبر عليه كيفما كان لما عرفه من فضيلة العلم وقد قال تعالى هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون وقال صلى الله عليه وسلم فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي الى غير ذلك مما ورد في فضل العلم فان قال العابد ذلك لعالم عامل بعلمه وهذا عالم فاجر فيقال له أما عرفت أن الحسنات يذهبن السيئات وكما أن العلم يمكن أن يكون حجة على العالم فكذلك يمكن أن يكون وسيلة له وكفارة لذنوبه وكل واحد منهما ممكن وقد وردت الاخبار بما يشهد لذلك واذا كان هذا الامر غائبا عنه لم يجز له أن يحتقر عالما بل يجب عليه التواضع له فان قلت فان صح هذا فينبغي أن يكون للعالم أن يرى نفسه فوق العابد لقوله عليه السلام فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي فاعلم ان ذلك كان ممكنا لو علم العالم عاقبة أمره وخاتمة الامر مشكوك فيها فيحتمل أن يموت بحيث يكون حاله عند الله أشد من حال الجاهل الفاسق لذنب واحد كان يحسبه هينا وهو عند الله عظيم وقد مقته به واذا كان هذا ممكنا كان على نفسه خائفا فاذا كان كل واحد من العالم والعابد خائفا على نفسه وقد كلف أمر نفسه لا أمر غيره فينبغي أن يكون الغالب عليه في حق نفسه الخوف وفي حق غيره الرجاء وذلك يمنعه من التكبر بكل حال فهذا حال العابد مع العالم فاما مع غير العالم فهم منقسمون في حقه الى مستورين والى مكشوفين فينبغي أن لا يتكبر على المستور فلعله أقل منه ذنوبا وأكثر منه عبادة وأشد منه حبا لله وأما المكشوف حاله ان لم يظهر لك من الذنوب الا ما تزيد عليه ذنوبك في طول عمرك فلا ينبغي أن تتكبر عليه ولا يمكن أن تقول هو أكثر مني ذنبا لان عدد ذنوبك في طول عمرك وذنوب غيرك في طول العمر لا تقدر على احصائها حتى تعلم الكثرة نعم يمكن أن تعلم أن ذنوبه أشد كما رأيت منه القتل والشرب والزنا ومع ذلك فلا ينبغي أن تتكبر عليه اذ ذنوب القلوب من الكبر والحسد والرياء والغل واعتقاد الباطل والوسوسة في صفات الله تعالى وتخيل الخطأ في ذلك كل ذلك شديد عند الله فربما جرى عليك في باطنك من خفايا الذنوب ما صرت به عند الله ممقوتا وقد جرى للفاسق الظاهر الفسق من طاعات القلوب من حب الله واخلاص وخوف وتعظيم ما أنت خال عنه وقد كفر الله بذلك عنه سيئاته فينكشف الغطاء يوم القيامة فتراه فوق نفسك بدرجات فهذا ممكن والامكان البعيد فيما عليك ينبغي أن يكون قريبا عندك ان كنت مشفقا على نفسك فلا تتفكر فيما هو ممكن لغيرك بل فيما هو مخوف في حقك فانه لا تزر وازرة وزر أخرى وعذاب غيرك لا يخفف شيأ من عذابك فاذا تفكرت في هذا الخطر كان عندك شغل شاغل عن التكبر وعن أن ترى نفسك فوق غيرك وقد قال وهب بن منبه ما تم عقل عبد حتى يكون فيه عشر خصال فعد تسعة حتى بلغ العاشر فقال العاشرة وما العاشرة بها ساد مجده وبها علا ذكره أن يرى الناس كلهم خيرا منه وانما الناس عنده فرقتان فرقة هي أفضل منه وأرفع وفرقة هي شر منه وأدنى فهو يتواضع للفرقتين جميعا بقلبه ان رأى من هو خير منه سره ذلك وتمنى أن يلحق به وان رأى من هو شر منه قال لعل هذا ينجو وأهلك أنا فلا تراه الا خائفا من العاقبة و يقول لعل بر هذا باطن فذلك خير له ولا أدرى لعل فيه خلقا كريما بينه و بين الله فيرحمه الله و يتوب عليه و يختم له بأحسن الاعمال و برى ظاهر فذلك شر لى فلا يأمن فيما أظهره من الطاعة أن يكون دخلها الآفات فأحبطها ثم قال فحينئذ كمل عقله وساد أهل زمانه فهذا كلامه و بالجملة فمن جوز أن يكون عند الله شقيا وقد سبق القضاء في الازل بشقوته فما له سبيل الى أن يتكبر بحال من الاحوال نعم اذا غلب عليه الخوف رأى كل أحد خيرا من نفسه وذلك هو الفضيلة كما روى أن عابدا أوى الى جبل فقيل له في النوم ائت فلانا الاسكاف فسله أن يدعو لك فأتاه فسأله عن عمله فأخبره أنه يصوم النهار و يكتسب فيتصدق ببعضه و يطعم عياله ببعضه فرجع وهو يقول ان هذا الحسن ولكن ليس هذا كالتفرغ لطاعة الله فاتى في النوم ثانيا فقيل له ائت فلانا الاسكاف فقل له ما هذا الصفار الذى بوجهك فأتاه فسأله فقال له ما رأيت أحدا من الناس الا وقع لى أنه سينجو وأهلك أنا فقال العابد بهذه والذى يدل على فضيلة هذه الخصلة قوله تعالى يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم الى ربهم راجعون أى انهم يؤتون

لا تسترسل في الاستقرار وهذا الانزعاج في النفس بصدق العزيمة هو التجافي الذى قال الله تعالى تتجافى جنوبهم عن المضاجع لان الهم بقيام الليل وصدق العزيمة يجعل بين الجنب والمضجع نبوا وتجافيا وقد قيل للنفس نظران نظر الى تحت لاستيفاء الاقسام البدنية ونظر الى فوق لاستيفاء الاقسام العلوية الروحانية فارباب العزيمة تجافت جنوبهم عن المضاجع لنظرهم الى فوق الى الاقسام العلوية الروحانية فاعطوا النفوس حقها من النوم ومنعوها حظها فالنفس بما فيها مركوز من الترابية والجادية ترسب وتستحلس وتستلذ النوم قال الله تعالى هو الذى خلقكم من تراب وللآدمى بكل أصل من أصول خلقته طبيعة لازمة له والرسوب صفة التراب والكسل والتقاعد

الطاعات وهم على وجل عظيم من قبولها وقال تعالى ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون وقال تعالى انا كنا قبل فى أهلنا مشفقين وقد وصف الله تعالى الملائكة عليهم السلام مع تقدسهم عن الذنوب ومواظبتهم على العبادات على الدؤب بالاشفاق فقال تعالى مخبرا عنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون وهم من خشيته مشفقون فمتى زال الاشفاق والحذر مما سبق به القضاء فى الازل وينكشف عند خاتمة الاجل غلب الامن مكر الله وذلك يوجب الكبر وهو سبب الهلاك فالكبر دليل الامن والامن مهلك والتواضع دليل الخوف وهو مسعد فاذن ما يفسده العابد باضمار الكبر واحتقار الخلق والنظر اليهم بعين الاستصغار أكثر مما يصلحه بظاهر الاعمال فهذه معارف بها يزال داء الكبر عن القلب لا غير الا أن النفس بعد هذه المعرفة قد تضمر التواضع وتدعى البراءة من الكبر وهى كاذبة فاذا وقعت الواقعة عادت الى طبعها ونسيت وعدها فامن هذا لا ينبغى أن يكتفى فى المداواة بمجرد المعرفة بل ينبغى أن تكمل بالعمل وتجرب بأفعال المتواضعين فى مواقع هيجان الكبر من النفس وبيانه أن يمتحن النفس بخمس امتحانات هى أدلة على استخراج ما فى الباطن وان كانت الامتحانات كثيرة * الامتحان الاول أن يناظر فى مسألة مع واحد من أقرانه فان ظهر شئ من الحق على لسان صاحبه فثقل عليه قبوله والانقياد له والاعتراف به والشكر له على تنبيهه وتعريفه واخراجه الحق فذلك يدل على ان فيه كبرا دفينا فليتق الله فيه ويشتغل بعلاجه أما من حيث العلم فبأن يذكر نفسه خسة نفسه وخطر عاقبته وان الكبر لا يليق الا بالله تعالى وأما العمل فبأن يكلف نفسه ما ثقل عليه من الاعتراف بالحق وأن يطلق اللسان بالحمد والثناء ويقر على نفسه بالعجز ويشكره على الاستفادة ويقول ما أحسن ما فطنت له وقد كنت غافلا عنه فجزاك الله خيرا كما نبهتنى له فالحكمة ضالة المؤمن فاذا وجدها ينبغى أن يشكر من دله عليها فاذا واظب على ذلك مرات متوالية صار ذلك له طبعا وسقط ثقل الحق عن قلبه وطاب له قبوله ومهما ثقل عليه الثناء على أقرانه بما فيهم ففيه كبر فان كان ذلك لا يثقل عليه فى الخلوة ويثقل عليه فى الملا فليس فيه كبر وانما فيه رياء فليعالج الرياء بما ذكرناه من قطع الطمع عن الناس ويذكر القلب بان منفعته فى كماله فى ذاته وعند الله لا عند الخلق الى غير ذلك من أدوية الرياء وان ثقل عليه فى الخلوة والملا جميعا ففيه الكبر والرياء جميعا ولا ينفعه الخلاص من أحدهما ما لم يتخلص من الثانى فليعالج كلا الداءين فانهما جميعا مهلكان * الامتحان الثانى أن يجتمع مع الاقران والامثال فى المحافل ويقدمهم على نفسه ويمشى خلفهم ويجلس فى الصدور تحتهم فان ثقل عليه ذلك فهو متكبر فليواظب عليه تكلفا حتى يسقط عنه ثقله فبذلك يزايله الكبر وههنا للشيطان مكيدة وهو أن يجلس فى صف النعال أو يجعل بينه وبين الاقران بعض الارذال فيظن أن ذلك تواضع وهو عين الكبر فان ذلك يخف على نفوس المتكبرين اذ يوهمون انهم تركوا مكانهم بالاستحقاق والتفضل فيكون قد تكبر وتكبر باظهار التواضع أيضا بل ينبغى أن يقدم أقرانه ويجلس بينهم بجنبهم ولا ينحط عنهم الى صف النعال فذلك هو الذى يخرج خبث الكبر من الباطن * الامتحان الثالث أن يجيب دعوة الفقير ويمر الى السوق فى حاجة الرفقاء والاقارب فان ثقل ذلك عليه فهو كبر فان هذه الافعال من مكارم الاخلاق والثواب عليها جزيل فنفور النفس عنها ليس الا لخبث فى الباطن فليشتغل بازالته بالمواظبة عليه مع تذكر جميع ما ذكرناه من المعارف التى تزيل داء الكبر * الامتحان الرابع أن يحمل حاجة نفسه وحاجة أهله ورفقائه من السوق الى البيت فان أبت نفسه ذلك فهو كبر أو رياء فان كان يثقل ذلك عليه مع خلو الطريق فهو كبر وان كان لا يثقل عليه الا مع مشاهدة الناس فهو رياء وكل ذلك من أمراض القلب وعلله المهلكة له ان لم تتدارك وقد أهمل الناس طب القلوب واشتغلوا بطب الاجساد مع أن الاجساد قد كتب عليها الموت لا محالة والقلوب لا تدرك السعادة الا بسلامتها اذ قال تعالى الا من أتى الله بقلب سليم ويروى عن عبد الله ابن سلام أنه حمل حزمة حطب فقيل له يا أبا يوسف قد كان فى غلمانك وبنيك ما يكفيك قال أجل ولكن أردت أن أجرب نفسى هل تنكر ذلك فلم يقنع منها بما أعطته من العزم على ترك الانفة حتى جربها أهى صادقة أم كاذبة وفى الخبر من حمل الفاكهة أو الشئ فقد برئ من الكبر * الامتحان الخامس أن يلبس ثيابا بذلة فان نفور النفس عن ذلك فى الملا رياء وفى الخلوة كبر وكان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه له مسح يلبسه بالليل وقد قال صلى الله

عليه

والتناوم بسبب ذلك طبيعة فى الانسان فارباب الهمة أهل العلم الذين حكم الله تعالى لهم بالعلم فى قوله تعالى أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما حتى قال قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون حكم لهؤلاء الذين قاموا بالليل بالعلم فهم لموضع علمهم أزعجوا النفوس عن مقار طبيعتها ورقوها بالنظر الى اللذات الروحانية التى ذرى حقيقتها فتجافت جنوبهم عن المضاجع وخرجوا من صفة الغافل الهاجع (ومن ذلك) أن يغير العادة فان كان ذا وسادة يترك الوسادة وان كان ذا وطاء يترك الوطاء وقد كان بعضهم يقول لان أرى فى بيتى شيطانا أحب الى من أن أرى وسادة فانها تدعونى الى النوم ولتغيير العادة فى الوساد والغطاء والوطاء تأثير فى ذلك ومن ترك شيأ من

عليه وسلم من اعتقل البعير ولبس الصوف فقد برئ من الكبر وقال عليه السلام انما أنا عبد آكل بالارض وألبس الصوف وأعقل البعير والعق أصابعي وأجيب دعوة المملوك فن رغب عن سنتي فليس مني وروى أن أباموسى الاشعرى قيل له ان أقواما يتخلفون عن الجمعة بسبب ثيابهم فلبس عباءة فصلى فيها بالناس وهذه مواضع يجتمع فيها الرياء والكبر فما يختص بالملا فهو الرياء ومايكون في الخلوة فهو الكبر فاعرف فان من لا يعرف الشر لا يتقيه ومن لا يدرك المرض لا يداويه

﴿ بيان غاية الرياضة في خلق التواضع ﴾

اعلم أن هذا الخلق كسائر الاخلاق له طرفان و واسطة فطرفه الذي يميل الى الزيادة يسمى تكبرا وطرفه الذي يميل الى النقصان يسمى تخاسسا ومذلة والوسط يسمى تواضعا والمحمود أن يتواضع في غير مذلة ومن غير تخاسس فان كلا طرفى الامور ذميم وأحب الامور الى الله تعالى أوساطها فن يتقدم على أمثاله فهو متكبر ومن يتأخر عنهم فهو متواضع أي وضع شيأ من قدره الذي يستحقه والعالم اذا دخل عليه اسكاف فتنحى له عن مجلسه وأجلسه فيه ثم تقدم وسوى له نعله وغدا الى باب الدار خلفه فقد تخاسس وتذلل وهذا أيضا غير محمود بل المحمود عند الله العدل وهو أن يعطى كل ذى حق حقه فينبغي أن يتواضع بمثل هذا الاقرانه ومن يقرب من درجته فاما تواضعه للسوقى فبالقيام والبشر في الكلام والرفق في السؤال واجابة دعوته والسعي في حاجته وأمثال ذلك وأن لا يرى نفسه خيرا منه بل يكون على نفسه أخوف منه على غيره فلا يحتقره ولا يستصغره وهو لا يعرف خاتمة أمره فاذا سبيله في اكتساب التواضع أن يتواضع للاقران ولمن دونهم حتى يخف عليه التواضع المحمود في محاسن العادات ليزول به الكبر عنه فان خف عليه ذلك فقد حصل له خلق التواضع وان كان يثقل عليه وهو يفعل ذلك فهو متكاف لا متواضع بل الخلق ما يصدر عنه الفعل بسهولة من غير ثقل ومن غير روية فان خف ذلك وصار بحيث يثقل عليه رعاية قدره حتى أحب التملق والتخاسس فقد خرج الى طرف النقصان فليرفع نفسه اذ ليس للمؤمن أن يذل نفسه الى أن يعود الى الوسط الذي هو الصراط المستقيم وذلك غامض في هذا الخلق وفي سائر الاخلاق والميل عن الوسط الى طرف النقصان وهو التملق أهون من الميل الى طرف الزيادة بالتكبر كما أن الميل الى طرف التبذير في المال أحمد عند الناس من الميل الى طرف البخل فنهاية التبذير ونهاية البخل مذمومان وأحدهما أفحش وكذلك نهاية التكبر ونهاية التنقص والتذلل مذمومان وأحدهما أقبح من الآخر والمحمود المطلق هو العدل و وضع الامور مواضعها كما يجب وعلى ما يجب كما يعرف ذلك بالشرع والعادة ولنقتصر على هذا القدر من بيان أخلاق الكبر والتواضع

﴿ الشطر الثاني من الكتاب ﴾ في العجب وفيه بيان ذم العجب وآفاته و بيان حقيقة العجب والادلال وحدهما و بيان علاج العجب على الجملة و بيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه

﴿ بيان ذم العجب وآفاته ﴾

اعلم أن العجب مذموم في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيأ ذكر ذلك في معرض الانكار وقال عز وجل وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا فرد على الكفار في اعجابهم بحصونهم وشوكتهم وقال تعالى وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا وهذا أيضا يرجع الى العجب بالعمل وقد يعجب الانسان بعمل هو مخطئ فيه كما يعجب بعمل هو مصيب فيه وقال صلى الله عليه وسلم ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه وقال لابى ثعلبة حيث ذكر آخر هذه الامة فقال اذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا واعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك نفسك وقال ابن مسعود الهلاك في اثنتين القنوط والعجب وانما جمع بينهما لان السعادة لا تنال الا بالسعي والطلب والجد والتشمر والقانط لا يسعى ولا يطلب والمعجب يعتقد أنه قد سعد وقد ظفر بمراده فلا يسعى فالموجود لا يطلب والمحال لا يطلب والسعادة موجودة في اعتقاد المعجب حاصلة له ومستحيلة في اعتقاد القانط فن ههنا جمع بينهما وقد قال تعالى فلا تزكوا أنفسكم قال ابن جريج معناه اذا عملت خيرا فلا تقل عملت وقال زيد بن أسلم لا تبروها

ذلك والله عالم بغيبه وعز عنه شبه على ذلك بتيسير ما رام (ومن ذلك) خفة المعدة من الطعام ثم تناول ما يأكل من الطعام اذا اقترن بذكر الله و يقظة الباطن أعان على قيام الليل لان بالذكر يذهب داؤه فان وجد للطعام ثقلا على المعدة ينبغي أن يعلم أن ثقله على القلب أكثر فلا ينام حتى يذيب الطعام بالذكر والتلاوة والاستغفار (قال) بعضهم لان أنقص من عشائي لقمة أحب الى من أن أقوم ليلة والاحوط أن يوتر قبل النوم فانه لا يدري ماذا يحدث ويحدث طهوره وسواكه عنده ولا يدخل النوم الا وهو على الطهارة (قال) رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا نام العبد وهو على الطهارة عرج بروحه الى العرش فكانت رؤياه صادقة

أى لا تعتقدوا أنها بارة وهو معنى العجب ووقى طلحة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد بنفسه فا كب عليه حتى أصيبت كفه فكأنه أعجبه فعله العظيم اذ فداه بروحه حتى جرح فتفرس ذلك عمر فيه فقال مازال يعرف فى طلحة بأو منذ أصيبت أصبعه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والبأو هو العجب فى اللغة الا أنه لم ينقل فيه أنه أظهره واحتقر مسلما ولما كان وقت الشورى قال له ابن عباس أين أنت من طلحة قال ذلك رجل فيه نخوة فاذا كان لا يتخلص من العجب أمثالهم فكيف يتخلص الضعفاء ان لم يأخذوا حذرهم وقال مطرف لان أبيت نائما وأصبح نادما أحب الى من أن أبيت قائما وأصبح معجبا وقال صلى الله عليه وسلم لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك العجب العجب فجعل العجب أكبر الذنوب وكان بشر بن منصور من الذين اذا رؤا ذكر الله تعالى والدار الآخرة لمواظبته على العبادة فاطال الصلاة يوما ورجل خلفه ينظر ففطن له بشر فلما انصرف عن الصلاة قال له لا يعجبنك ما رأيت منى فان ابليس لعنه الله قد عبد الله تعالى مع الملائكة مدة طويلة ثم صار الى ما صار اليه وقيل لعائشة رضى الله عنها متى يكون الرجل مسيئا قالت اذا ظن أنه محسن وقد قال تعالى لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى والمن نتيجة استعظام الصدقة واستعظام العمل هو العجب فظهر بهذا أن العجب مذموم جدا

﴿بيان آفة العجب﴾

اعلم ان آفات العجب كثيرة فان العجب يدعو الى الكبر لانه أحد أسبابه كما ذكرناه فيتولد من العجب الكبر ومن الكبر الآفات الكثيرة التى لا تخفى هذا مع العباد وأما مع الله تعالى فالعجب يدعو الى نسيان الذنوب واهمالها فبعض ذنوبه لا يذكرها ولا يتفقدها لظنه أنه مستغن عن تفقدها فينساها وما يتذكره منها فيستصغره ولا يستعظمه فلا يجتهد فى تداركه وتلافيه بل يظن أنه يغفر له وأما العبادات والاعمال فانه يستعظمها ويتبجح بها ويمن على الله بفعلها وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكين منها ثم اذا أعجب بها عمى عن آفاتها ومن لم يتفقد آفات الاعمال كان أكثر سعيه ضائعا فان الاعمال الظاهرة اذا لم تكن خالصة نقية عن الشوائب قلما تنفع وانما يتفقد من يغلب عليه الاشفاق والخوف دون العجب والمعجب يغتر بنفسه وبرأيه ويأمن مكر الله وعذابه ويظن انه عند الله بمكان وأن له عند الله منة وحقا بأعماله التى هى نعمة من نعمه وعطية من عطاياه ويخرجه العجب الى أن يثنى على نفسه ويحمدها ويزكيها وان أعجب برأيه وعمله وعقله منع ذلك من الاستفادة ومن الاستشارة والسؤال فيستبد بنفسه ورأيه ويستنكف من سؤال من هو أعلم منه وربما يعجب بالرأى الخطأ الذى خطر له فيفرح بكونه من خواطره ولا يفرح بخواطر غيره فيصر عليه ولا يسمع نصح ناصح ولا وعظ واعظ بل ينظر الى غيره بعين الاستجهال ويصر على خطئه فان كان رأيه فى أمر دنيوى فيحقق فيه وان كان فى أمر دينى لا سيما فيما يتعلق بأصول العقائد فيهلك به ولو اتهم نفسه ولم يثق برأيه واستضاء بنور القرآن واستعان بعلماء الدين وواظب على مدارسة العلم وتابع سؤال أهل البصيرة لكان ذلك يوصله الى الحق فهذا وأمثاله من آفات العجب فلذلك كان من المهلكات ومن أعظم آفاته ان يفتر فى السعى لظنه انه قد فاز وانه قد استغنى وهو الهلاك الصريح الذى لا شبهة فيه نسأل الله تعالى العظيم حسن التوفيق لطاعته

﴿بيان حقيقة العجب والادلال وحدهما﴾

اعلم ان العجب انما يكون بوصف هو كمال لا محالة وللعالم بكمال نفسه فى علم وعمل ومال وغيره حالتان احداهما أن يكون خائفا على زواله ومشفقا على تكدره أو سلبه من أصله فهذا ليس بمعجب والاخرى ان لا يكون خائفا من زواله لكن يكون فرحا به من حيث انه نعمة من الله تعالى عليه لا من حيث اضافته الى نفسه وهذا أيضا ليس بمعجب وله حالة ثالثة هى العجب وهى ان يكون غير خائف عليه بل يكون فرحا به مطمئنا اليه ويكون فرحه به من حيث انه كمال ونعمة وخير ورفعة لا من حيث انه عطية من الله تعالى ونعمة منه فيكون فرحه به من حيث انه صفته ومنسوب اليه بانه له لا من حيث انه منسوب الى الله تعالى بأنه منه فمهما غلب على قلبه أنه نعمة من الله مهما شاء سلبها عنه زال العجب بذلك عن نفسه فاذا العجب هو استعظام النعمة والركون اليها مع نسيان اضافتها الى المنعم فان انضاف الى ذلك أن غلب على نفسه أن له عند الله حقا وأنه منه بمكان حتى يتوقع بعمله كرامة فى الدنيا

وان لم ينم على الطهارة قصرت روحه عن البلوغ فتكون المنامات أضغاث أحلام لا تصدق والمريد المتأهل اذا نام فى الفراش مع الزوجة ينتقض وضوؤه باللمس ولا يفوته بذلك فائدة النوم على الطهارة مالم يسترسل فى التلذذ النفس باللمس ولا يعدم بيقظة القلب فأما اذا استرسل فى الالتذاذ وغفل فتنحجب الروح أيضا لمكان صلافته ومن الطهارة التى تثمر صدق الرؤيا طهارة الباطن عن خدش الهوى وكدورة محبة الدنيا والتنزه عن أنجاس الغل والحقد والحسد وقد ورد من آوى الى فراشه لا ينوى ظلم أحد ولا يحقد على أحد غفر له ما اجترم واذا طهرت النفس عن الرذائل انجلت مرآة القلب وقابل اللوح المحفوظ فى النوم وانتقشت فيه عجائب

واستبعد أنه يجرى عليه مكروه استبعادا يزيد على استبعاده مايجرى على الفساق سمى هذا دلالا بالعمل فكأنه يرى لنفسه على الله دالة وكذلك قد يعطى غيره شيأ فيستعظمه و يمن عليه فيكون معجبا فان استخدمه أو اقترح عليه الاقتراحات أو استبعد تخلفه عن قضاء حقوقه كان مدلا عليه وقال قتادة فى قوله تعالى ولا تمنن تستكثر أى لا تدل بعملك وفى الخبر ان صلاة المدل لا ترفع فوق رأسه ولان تضحك وأنت معترف بذنبك خير من أن تبكى وأنت مدل بعملك والادلال وراء العجب فلا مدل الا وهو معجب و رب معجب لا يدل اذ العجب يحصل بالاستعظام ونسيان النعمة دون توقع جزاء عليه والادلال لا يتم الا مع توقع جزاء فان توقع اجابة دعوته واستنكر ردها بباطنه وتعجب منه كان مدلا بعمله لانه لا يتعجب من رد دعاء الفاسق و يتعجب من رد دعاء نفسه لذلك فهذا هو العجب والادلال وهو من مقدمات الكبر وأسبابه والله تعالى أعلم

﴿ بيان علاج العجب على الجملة ﴾

اعلم ان علاج كل علة هو مقابلة سببها بضده وعلة العجب الجهل المحض فعلاجه المعرفة المضادة لذلك الجهل فقط فلنفرض العجب بفعل داخل تحت اختيار العبد كالعبادة والصدقة والغزو وسياسة الخلق واصلاحهم فان العجب بهذا أغلب من العجب بالجمال والقوة والنسب ومالا يدخل تحت اختياره ولا يراه من نفسه فنقول الورع والتقوى والعبادة والعمل الذى به يعجب انما يعجب به من حيث انه فيه فهو محله ومجراه أو من حيث انه منه و بسببه و بقدرته وقوته فان كان يعجب به من حيث انه فيه وهو محله ومجراه يجرى فيه وعليه من جهة غيره فهذا جهل لان المحل مسخر ومجرى لا مدخل له فى الايجاد والتحصيل فكيف يعجب بما ليس اليه وان كان يعجب به من حيث انه هو منه واليه و باختياره حصل و بقدرته تم فينبغى أن يتأمل فى قدرته وارادته واعضائه وسائر الاسباب التى بها تم عمله انها من أين كانت له فان كان جميع ذلك نعمة من الله عليه من غير حق سبق له ومن غير وسيلة يدلى بها فينبغى أن يكون اعجابه بجود الله وكرمه وفضله اذ أفاض عليه مالا يستحق وآثره به على غيره من غير سابقة و وسيلة فهما برز الملك لغلمانه ونظر اليهم وخلع من جملتهم على واحد منهم لا لصفة فيه ولا لوسيلة ولا لجمال ولا لخدمة فينبغى أن يتعجب المنعم عليه من فضل الملك وحكمه وايثاره من غير استحقاق واعجابه بنفسه من أين وما سببه ولم ينبغى ان يعجب هو بنفسه نعم يجوز أن يعجب العبد فيقول الملك حكيم عدل لا يظلم ولا يقدم ولا يؤخر الا لسبب فلولا أنه تفطن فى صفة من الصفات المحمودة الباطنة لما اقتضى الايثار بالخلعة ولما آثرنى بها فيقال تلك الصفة أيضا هى من خلعة الملك وعطيته التى خصصك بها من غيرك من غير وسيلة أو هى عطية غيره فان كانت من عطية الملك أيضا لم يكن لك أن تعجب بها بل كان كما لو أعطاك فرسا فلم تعجب به فاعطاك غلاما فصرت تعجب به وتقول انما أعطانى غلاما لانى صاحب فرس فاما غيرى فلا فرس له فيقال وهو الذى أعطاك الفرس فلا فرق بين أن يعطيك الفرس والغلام معا أو يعطيك أحدهما بعد الآخر فاذا كان الكل منه فينبغى أن يعجبك جوده وفضله لا نفسك واما ان كانت تلك الصفة من غيره فلا يبعد ان تعجب بتلك الصفة وهذا يتصور فى حق الملوك ولا يتصور فى حق الجبار القاهر ملك الملوك المنفرد باختراع الجميع المنفرد بايجاد الموصوف والصفة فانك ان عجبت بعبادتك وقلت وفقنى للعبادة لحبى له فيقال ومن خلق الحب فى قلبك فستقول هو فيقال فالحب والعبادة كلاهما نعمتان من عنده ابتدأك بهما من غير استحقاق من جهتك اذ لا وسيلة لك ولا علاقة فيكون الاعجاب بجوده اذ أنعم بوجودك ووجود صفاتك و بوجود أعمالك وأسباب أعمالك فاذا لا معنى لعجب العابد بعبادته وعجب العالم بعلمه وعجب الجميل بجماله وعجب الغنى بغناه لان كل ذلك من فضل الله وانما هو محل لفيضان فضل الله تعالى وجوده والمحل أيضا من فضله وجوده فان قلت لا يمكننى أن أجهل أعمالى وانى أنا عملتها فانى أنتظر عليها ثوابا ولولا انها عملى لما انتظرت ثوابا فان كانت الاعمال مخلوقة لله على سبيل الاختراع فمن أين لى الثواب وان كانت الاعمال منى و بقدرتى فكيف لا أعجب بها فاعلم ان جوابك من وجهين أحدهما وهو صريح الحق والآخر فيه مسامحة أما صريح الحق

الغيب وغرائب الانباء فى الصدق يقين من يكون له فى منامه مكالمة ومحادثة فيأمره الله تعالى وينهاه ويفهمه فى المنام و يعرفه و يكون موضع ما يفتتح له فى نومه من الامر والنهى كالامر والنهى الظاهر بمعنى الله تعالى ان أخل بها بل تكون هذه الاوامر آكد وأعظم وقعا لان المخالفات الظاهرة تمحوها التوبة والتائب من الذنب كمن لا ذنب له وهذه أوامر خاصة تتعلق بحاله فيما بينه و بين الله تعالى فاذا أخل بها يخشى أن ينقطع عليه طريق الارادة ويكون فى ذلك الرجوع عن الله واستيجاب مقام المقت فان ابتلى العبد فى بعض الاحايين بكسل وفتور عزيمة يمنع من تجديد الطهارة عند النوم بعد الحدث يمسح أعضاءه بالماء مسحا حتى يخرج بهذا القدر عن زمرة

فهو أنك وقدرتك وارادتك وحركتك وجميع ذلك من خلق الله واختراعه فما عملت اذ عملت وما صليت اذ صليت وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى فهذا هو الحق الذى انكشف لارباب القلوب بمشاهدة أوضح من ابصار العين بل خلقك وخلق أعضاءك وخلق فيها القوة والقدرة والصحة وخلق لك العقل والعلم وخلق لك الارادة ولو أردت أن تنفى شيأ من هذا عن نفسك لم تقدر عليه ثم خلق الحركات فى أعضائك مستبدا باختراعها من غير مشاركة من جهتك معه فى الاختراع الا انه خلقه على ترتيب فلم يخلق الحركة مالم يخلق فى العضو قوة وفى القلب ارادة ولم يخلق ارادة مالم يخلق علما بالمراد ولم يخلق علما مالم يخلق القلب الذى هو محل العلم فتدريجه فى الخلق شيأ بعد شئ هو الذى خيل لك انك أوجدت عملك وقد غلطت وايضاح ذلك وكيفية الثواب على عمل هو من خلق الله سيأتى تقريره فى كتاب الشكر فانه أليق به فارجع اليه ونحن الآن نزيل اشكالك بالجواب الثانى الذى فيه مسامحة ما وهو ان تحسب ان العمل حصل بقدرتك فمن أين قدرتك ولا يتصور العمل الا بوجودك ووجود عملك وارادتك وقدرتك وسائر أسباب عملك وكل ذلك من الله تعالى لا منك فان كان العمل بالقدرة فالقدرة مفتاحه وهذا المفتاح بيد الله ومهما لم يعطك المفتاح فلا يمكنك العمل فالعبادات خزائن بها يتوصل الى السعادات ومفاتيحها القدرة والارادة والعلم وهى بيد الله لا محالة أرأيت لو رأيت خزائن الدنيا مجموعة فى قلعة حصينة ومفتاحها بيد خازن ولو جلست على بابها وحول حيطانها ألف سنة لم يمكنك ان تنظر الى دينار مما فيها ولو أعطاك المفتاح لاخذته من قريب بان تبسط يدك اليه فتأخذه فقط فاذا أعطاك الخازن المفاتيح وسلطك عليها ومكنك منها فمددت يدك وأخذتها كان اعجابك باعطاء الخازن المفاتيح أو بما اليك من مد اليد وأخذها فلا تشك فى أنك ترى ذلك نعمة من الخازن لان المؤنة فى تحريك اليد بأخذ المال قريبة وانما الشأن كله فى تسليم المفاتيح فكذلك مهما خلقت القدرة وسلطت الارادة الجازمة وحركت الدواعى والبواعث وصرف عنك الموانع والصوارف حتى لم يبق صارف الا دفع ولا باعث الا وكل بك فالعمل هين عليك وتحريك البواعث وصرف العوائق وتهيئة الاسباب كلها من الله ليس شئ منها اليك فمن العجائب أن تعجب بنفسك ولا تعجب بمن اليه الامر كله ولا تعجب بجوده وفضله وكرمه فى ايثاره اياك على الفساق من عباده اذ سلط دواعى الفساد على الفساق وصرفها عنك وسلط أخدان السوء ودعاة الشر عليهم وصرفهم عنك ومكنهم من أسباب الشهوات واللذات وزواها عنك وصرف عنهم بواعث الخير ودواعيه وسلطها عليك حتى تيسر لك الخير وتيسر لهم الشر فعل ذلك كله بك من غير وسيلة سابقة منك ولا جريمة سابقة من الفاسق العاصى بل آثرك وقدمك واصطفاك بفضله وأبعد العاصى وأشقاه بعدله فما أعجب اعجابك بنفسه اذا عرفت ذلك فاذا لا تنصرف قدرتك الى المقدور الا بتسليط الله عليك داعية لا تجد سبيلا الى مخالفتها فكانه الذى اضطرك الى الفعل ان كنت فاعلا تحقيقا فله الشكر والمنة لا لك وسيأتى فى كتاب التوحيد والتوكل من بيان تسلسل الاسباب والمسببات ما تستبين به أنه لا فاعل الا الله ولا خالق سواه والعجب ممن يتعجب اذا رزقه الله عقلا وأفقره ممن أفاض عليه المال من غير علم فيقول كيف منعنى قوت يومى وأنا العاقل الفاضل وأفاض على هذا نعيم الدنيا وهو الغافل الجاهل حتى يكاد يرى هذا ظلما ولا يدرى المغرور أنه لو جمع له بين العقل والمال جميعا كان ذلك بالظلم أشبه فى ظاهر الحال اذ يقول الجاهل الفقير يارب لم جمعت له بين العقل والغنى وحرمتنى منهما فهلا جمعتهما لى أو هلا رزقتنى أحدهما والى هذا أشار على رضى الله عنه حيث قيل له ما بال العقلاء فقراء فقال ان عقل الرجل محسوب عليه من رزقه والعجب أن العاقل الفقير ربما يرى الجاهل الغنى أحسن حالا من نفسه ولو قيل له هل تؤثر جهله وغناه عوضا عن عقلك وفقرك لامتنع عنه فاذا ذلك يدل على أن نعمة الله عليه أكبر فلم يتعجب من ذلك والمرأة الحسناء الفقيرة ترى الحلى والجواهر على الدميمة القبيحة فتتعجب وتقول كيف يحرم مثل هذا الجمال من الزينة ويخصص مثل ذلك القبح ولا تدرى المغرورة أن الجمال محسوب عليها من رزقها وأنها لو خيرت بين الجمال وبين القبح مع الغنى لآثرت الجمال فاذن نعمة الله عليها أكبر وقول الحكيم الفقير العاقل بقلبه يارب لم حرمتنى الدنيا وأعطيتها الجهال كقول من أعطاه الملك فرسا فيقول أيها الملك لم لا تعطينى الغلام وأنا صاحب فرس فيقول

الغافلين حيث تقاعد عن فعل المتيقظين وهكذا اذا كسل عن القيام عقيب الانتباه يجتهد ان يستاك ويمسح أعضاءه بالماء مسحا حتى يخرج فى تقلباته وانتباهاته عن زمرة الغافلين ففى ذلك فضل كثير لمن كثر نومه وقل قيامه (روى) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يستاك فى كل ليلة مرارا عند كل نوم وعند الانتباه منه ويستقبل القبلة فى نومه وهو على نوعين فاما على جنبه الايمن كالملحود واما على ظهره مستقبلا للقبلة كالميت المسجى ويقول باسمك اللهم وضعت جنبى وبك أرفعه اللهم ان أمسكت نفسى فاغفر لها وارحمها وان أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين اللهم انى أسلمت نفسى اليك ووجهت وجهى اليك وفوضت أمرى اليك وألجأت ظهرى اليك رهبة منك ورغبة

كنت لاتتعجب من هذا ولم أعطك الفرس فهب انى ما أعطيتك فرسا أصارت نعمتى عليك وسيلة لك وحجة تطلب بها نعمة أخرى فهذه أوهام لاتخلو الجهال عنها ومنشأ جميع ذلك الجهل و يزال ذلك بالعلم المحقق بأن العبد وعمله وأوصافه كل ذلك من عند الله تعالى نعمة ابتدأه بها قبل الاستحقاق وهذا ينفى العجب والادلال و يورث الخضوع والشكر والخوف من زوال النعمة ومن عرف هذا لم يتصور أن يعجب بعلمه وعمله اذ يعلم أن ذلك من الله تعالى ولذلك قال داود عليه السلام يارب ماتأتى ليلة الا وانسان من آل داود قائم ولا يأتى يوم الا وانسان من آل داود صائم وفى رواية ماتمر ساعة من ليل أونهار الا وعابد من آل داود يعبدك اما يصلى واما يصوم واما يذكرك فاوحى الله تعالى اليه ياداود ومن أين لهم ذلك ان ذلك لم يكن الا بى ولولا عونى اياك ماقويت وسأكلك الى نفسك قال ابن عباس انما أصاب داود ما أصاب من الذنب بعجبه بعمله اذ أضافه الى آل داود مدلا به حتى وكل الى نفسه فاذنب ذنبا أورثه الحزن والندم وقال داود يارب ان بنى اسرائيل يسألونك بابراهيم واسحق و يعقوب فقال انى ابتليتهم فصبروا فقال يارب وأنا ان ابتليتنى صبرت فادل بالعمل قبل وقته فقال الله تعالى فانى لم أخبرهم بأى شئ أبتليهم ولا فى أى شهر ولا فى أى يوم وأنا مخبرك فى سنتك هذه وشهرك هذا أبتليك غدا بامرأة فاحذر نفسك فوقع فيما وقع فيه وكذلك لما اتكل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين على قوتهم وكثرتهم ونسوا فضل الله تعالى عليهم وقالوا لانغلب اليوم من قلة وكلوا الى أنفسهم فقال تعالى و يوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيأ وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين * و روى ابن عيينة أن أيوب عليه السلام قال الهى انك ابتليتنى بهذا البلاء وما ورد على أمر الا آثرت هواك على هواى فنودى من غمامة بعشرة آلاف صوت يا أيوب أنى لك ذلك أى من أين لك ذلك قال فأخذ رمادا و وضعه على رأسه وقال منك يارب منك يارب فرجع من نسيانه الى اضافة ذلك الى الله تعالى ولهذا قال الله تعالى ولولا فضل الله عليكم و رحمته ماز كا منكم من أحد أبدا وقال النبى صلى الله عليه وسلم لاصحابه وهم خير الناس مامنكم من أحد ينجيه عمله قالوا ولا أنت يارسول الله قال ولا أنا الا أن يتغمدنى الله برحمته ولقد كان أصحابه من بعده يتمنون أن يكونوا ترابا وتبنا وطيرا مع صفاء أعمالهم وقلوبهم فكيف يكون لذى بصيرة أن يعجب بعمله أو يدل به ولا يخاف على نفسه فاذا هذا هو العلاج القامع لمادة العجب من القلب ومهما غلب ذلك على القلب شغله خوف سلب هذه النعمة عن الاعجاب بها بل هو ينظر الى الكفار والفساق وقد سلبوا نعمة الايمان والطاعة بغير ذنب أذنبوه من قبل فيخاف من ذلك فيقول ان من لايبالى أن يحرم من غير جناية و يعطى من غير وسيلة لايبالى أن يعود و يسترجع ما وهب فكم من مؤمن قد ارتد ومطيع قد فسق وختم له بسوء وهذا لايبقى معه عجب بحال والله تعالى أعلم

* بيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه *

اعلم أن العجب بالاسباب التى بها يتكبر كما ذكرناه وقد يعجب بما لايتكبر به كعجبه بالرأى الخطأ الذى يزين له بجهله فما به العجب ثمانية أقسام * الاول أن يعجب ببدنه فى جماله وهيئته وصحته وقوته وتناسب أشكاله وحسن صورته وحسن صوته و بالجملة تفصيل خلقته فيلتفت الى جمال نفسه و ينسى انه نعمة من الله تعالى وهو بعرضة الزوال فى كل حال وعلاجه ماذكرناه فى الكبر بالجمال وهو التفكر فى أقذار باطنه وفى أول أمره وفى آخره وفى الوجوه الجميلة والابدان الناعمة انها كيف تمزقت فى التراب وأنتنت فى القبور حتى استقذرتها الطباع * الثانى البطش والقوة كما حكى عن قوم عاد حين قالوا فيما أخبر الله عنهم من أشد منا قوة وكما اتكل عوج على قوته وأعجب بها فاقتلع جبلا ليطبقه على عسكر موسى عليه السلام فثقب الله تعالى تلك القطعة من الجبل بنقر هدهد ضعيف المنقار حتى صارت فى عنقه وقد يتكل المؤمن أيضا على قوته كما روى عن سليمان عليه السلام أنه قال لاطوفن الليلة على مائة امرأة ولم يقل ان شاء الله تعالى فحرم ما أراد من الولد وكذلك قول داود عليه السلام ان ابتليتنى صبرت وكان اعجابا منه بالقوة فلما ابتلى بالمرأة لم يصبر و يورث العجب بالقوة الهجوم فى الحروب والقاء النفس فى التهلكة والمبادرة الى الضرب والقتل لكل من قصده بالسوء وعلاجه ماذكرناه وهو أن يعلم أن حمى يوم تضعف قوته وانه اذا أعجب بها ربما سلبها الله تعالى بادنى آفة يسلطها عليه * الثالث العجب بالعقل والكياسة

اليك لاملجأ ولامنجى منك الا اليك آمنت بكتابك الذى أنزلت ونبيك الذى أرسلت اللهم قنى عذابك يوم تبعث عبادك الحمد لله الذى حكم فقهر الحمد لله الذى بطن خبيرا الحمد لله الذى ملك فقدر الحمد لله الذى هو يحيى الموتى وهو على كل شئ قدير اللهم انى أعوذ بك من غضبك وسوء عقابك وشر عبادك وشر الشيطان وشركه و يقرأ خمس آيات من البقرة الاربع من الاول والآية الخامسة ان فى خلق السموات والارض وآية الكرسى وآمن الرسول وان ربكم الله وقل ادعوا الله وأول سورة الحديد وآخر سورة الحشر وقل ياأيها الكافرون وقل هو الله أحد والمعوذتين وينفث بهن فى يديه و يمسح بهما وجهه وجسده وان أضاف الى ما قرأ عشرا من أول الكهف وعشرا من

والتفطن لدقائق الامور من مصالح الدين والدنيا وثمرته الاستبداد بالرأى وترك المشورة واستجهال الناس المخالفين له ولرأيه ويخرج الى قلة الاصغاء الى أهل العلم اعراضا عنهم بالاستغناء بالرأى والعقل واستحقارا لهم واهانة وعلاجه أن يشكر الله تعالى على ما رزق من العقل ويتفكر أنه بأدنى مرض يصيب دماغه كيف يوسوس ويجن بحيث يضحك منه فلا يأمن أن يسلب عقله ان أعجب به ولم يقم بشكره وليستقصر عقله وعلمه وليعلم انه ما أوتى من العلم الا قليلا وان اتسع علمه وان ما جهله مما عرفه الناس أكثر مما عرفه فكيف بما لم يعرفه الناس من علم الله تعالى وان يتهم عقله وينظر الى الحمقى كيف يعجبون بعقولهم ويضحك الناس منهم فيحذر أن يكون منهم وهو لا يدرى فان القاصر العقل قط لا يعلم قصور عقله فينبغى أن يعرف مقدار عقله من غيره لا من نفسه ومن أعدائه لا من أصدقائه فان من يداهنه يثنى عليه فيزيده عجبا وهو لا يظن بنفسه الا الخير ولا يفطن لجهل نفسه فيزداد به عجبا * الرابع العجب بالنسب الشريف كعجب الهاشمية حتى يظن بعضهم انه ينجو بشرف نسبه ونجاة آبائه وأنه مغفور له ويتخيل بعضهم أن جميع الخلق له موال وعبيد وعلاجه أن يعلم انه مهما خالف آباءه فى أفعالهم وأخلاقهم وظن أنه ملحق بهم فقد جهل وان اقتدى بآبائه فما كان من أخلاقهم العجب بل الخوف والازراء على النفس واستعظام الخلق ومذمة النفس ولقد شرفوا بالطاعة والعلم والخصال الحميدة لا بالنسب فليتشرف بما شرفوا وقد ساواهم فى النسب وشاركهم فى القبائل من لم يؤمن بالله واليوم الآخر وكانوا عند الله شرا من الكلاب وأخس من الخنازير ولذلك قال تعالى يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى أى لا تفاوت فى أنسابكم لاجتماعكم فى أصل واحد ثم ذكر فائدة النسب فقال وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ثم بين أن الشرف بالتقوى لا بالنسب فقال ان أكرمكم عند الله أتقاكم ولما قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم من أكرم الناس من أكيس الناس لم يقل من ينتمى الى نسبى ولكن قال أكرمهم أكثرهم للموت ذكرا وأشدهم له استعدادا وانما نزلت هذه الآية حين أذن بلال يوم الفتح على الكعبة فقال الحرث بن هشام وسهيل بن عمرو وخالد بن أسيد هذا العبد الاسود يؤذن فقال تعالى ان أكرمكم عند الله أتقاكم وقال النبى صلى الله عليه وسلم ان الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية أى كبرها كلكم بنى آدم وآدم من تراب وقال النبى صلى الله عليه وسلم يا معشر قريش لا تأتى الناس بالاعمال يوم القيامة وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم تقولون يا محمد يا محمد فأقول هكذا أى أعرض عنكم فبين أنهم ان مالوا الى الدنيا لم ينفعهم نسب قريش ولما نزل قوله تعالى وأنذر عشيرتك الاقربين ناداهم بطنا بعد بطن حتى قال يا فاطمة بنت محمد يا صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم اعملا لانفسكما فانى لا أغنى عنكما من الله شيأ فمن عرف هذه الامور وعلم ان شرفه بقدر تقواه وقد كان من عادة آبائه التواضع اقتدى بهم فى التقوى والتواضع والا كان طاعنا فى نسب نفسه بلسان حاله مهما انتمى اليهم ولم يشبههم فى التواضع والتقوى والخوف والاشفاق فان قلت فقد قال صلى الله عليه وسلم بعد قوله لفاطمة وصفية انى لا أغنى عنكما من الله شيأ الا أن لكما رحما سأبلها ببلالها وقال عليه الصلاة والسلام أترجوا سليم شفاعتى ولا يرجوها بنو عبد المطلب فذلك يدل على انه سيخص قرابته بالشفاعة فاعلم ان كل مسلم فهو منتظر شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم والنسب أيضا جدير بأن يرجوها لكن بشرط أن يتقى الله أن يغضب عليه فانه ان يغضب عليه فلا يأذن لاحد فى شفاعته لان الذنوب منقسمة الى ما يوجب المقت فلا يؤذن فى الشفاعة له والى ما يعفى عنه بسبب الشفاعة كالذنوب عند ملوك الدنيا فان كل ذى مكانة عند الملك لا يقدر على الشفاعة فيما اشتد عليه غضب الملك فمن الذنوب ما لا تنجى منه الشافعة وعنه العبارة بقوله تعالى ولا يشفعون الا لمن ارتضى وبقوله من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه وبقوله ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له وبقوله فما تنفعهم شفاعة الشافعين واذا انقسمت الذنوب الى ما يشفع فيه والى ما لا يشفع فيه وجب الخوف والاشفاق لا محالة ولو كان كل ذنب تقبل فيه الشفاعة لما أمر قريشا بالطاعة ولما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة رضى الله عنها عن المعصية ولكان يأذن لها فى اتباع الشهوات لتكمل لذاتها فى الدنيا ثم يشفع لها فى الآخرة لتكمل لذاتها فى الآخرة فالانهماك فى الذنوب وترك التقوى اتكالا على رجاء الشفاعة يضاهى انهماك المريض فى شهواته اعتمادا على طبيب حاذق قريب مشفق

آخرها الحسن ويقول اللهم أيقظنى فى أحب الساعات اليك واستعملنى بأحب الاعمال اليك التى تقربنى اليك زلفى وتبعدنى من سخطك بعدا أسألك فتعطينى وأستغفرك فتغفر لى وأدعوك فتستجيب لى اللهم لا تؤمنى مكرك ولا توانى غيرك ولا ترفع عنى سترك ولا تنسنى ذكرك ولا تجعلنى من الغافلين (ورد) أن من قال هذه الكلمات بعث الله تعالى اليه ثلاثة أملاك يوقظونه للصلاة فان صلى ودعا أمنوا على دعائه وان لم يقم تعبدت الاملاك فى الهواء وكتب له ثواب عبادتهم ويسبح ويحمد ويكبر كل واحد ثلاثا وثلاثين ويتمم المائة بلا اله الا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

* الباب السابع والاربعون فى أدب

من

من أب أو أخ أو غيره وذلك جهل لان سعي الطبيب وهمته وحذقه تنفع في ازالة بعض الامراض لا في كلها فلا يجوز ترك الحمية مطلقا اعتمادا على مجرد الطب بل للطبيب أثر على الجملة ولكن في الامراض الخفيفة وعند غلبة اعتدال المزاج فهكذا ينبغي أن تفهم عناية الشفعاء من الانبياء والصلحاء للاقارب والاجانب فانه كذلك قطعا وذلك لا يزيل الخوف والحذر وكيف يزيل وخير الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه وقد كانوا يتمنون أن يكونوا بهائم من خوف الآخرة مع كمال تقواهم وحسن أعمالهم وصفاء قلوبهم وما سمعوه من وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم اياهم بالجنة خاصة وسائر المسلمين بالشفاعة عامة ولم يتكلوا عليه ولم يفارق الخوف والخشوع قلوبهم فكيف يعجب بنفسه ويتكل على الشفاعة من ليس له مثل صحبتهم وسابقتهم * الخامس العجب بنسب السلاطين الظلمة وأعوانهم دون نسب الدين والعلم وهذا غاية الجهل وعلاجه أن يتفكر في مخازيهم وما جرى لهم من الظلم على عباد الله والفساد في دين الله وانهم الممقوتون عند الله تعالى ولو نظر الى صورهم في النار وأنتانهم وأقذارهم لاستنكف منهم ولتبرأ من الانتساب اليهم ولانكر على من نسبه اليهم استقذارا واستحقارا لهم ولو انكشف له ذلهم في القيامة وقد تعلق الخصماء بهم والملائكة آخذون بنواصيهم يجرونهم على وجوههم الى جهنم في مظالم العباد لتبرأ الى الله منهم ولكان انتسابه الى الكلب والخنزير أحب اليه من الانتساب اليهم فحق أولاد الظلمة ان عصمهم الله من ظلمهم أن يشكروا الله تعالى على سلامة دينهم ويستغفروا لآبائهم ان كانوا مسلمين فاما العجب بنسبهم فجهل محض * السادس العجب بكثرة العدد من الاولاد والخدم والغلمان والعشيرة والاقارب والانصار والاتباع كما قال الكفار نحن أكثر أموالا وأولادا وكما قال المؤمنون يوم حنين لا نغلب اليوم من قلة وعلاجه ما ذكرناه في الكبر وهو أن يتفكر في ضعفه وضعفهم وان كلهم عبيد عجزة لا يملكون لانفسهم ضرا ولا نفعا وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ثم كيف يعجب بهم وانهم سيفترقون عنه اذا مات فيدفن في قبره ذليلا مهينا وحده لا يرافقه أهل ولا ولد ولا قريب ولا حميم ولا عشير فيسلمونه الى البلى والحيات والعقارب والديدان ولا يغنون عنه شيأ وهو في أحوج أوقاته اليهم وكذلك يهربون منه يوم القيامة يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه الآية فأي خير فيمن يفارقك في أشد أحوالك ويهرب منك وكيف تعجب به ولا ينفعك في القبر والقيامة وعلى الصراط الا عملك وفضل الله تعالى فكيف تتكل على من لا ينفعك وتنسى نعم من يملك نفعك وضرك وموتك وحياتك * السابع العجب بالمال كما قال تعالى اخبارا عن صاحب الجنتين اذ قال أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا غنيا جلس بجنبه فقير فانقبض عنه وجمع ثيابه فقال عليه السلام أخشيت أن يعدو اليك فقره وذلك للعجب بالغنى وعلاجه أن يتفكر في آفات المال وكثرة حقوقه وعظم غوائله وينظر الى فضيلة الفقراء وسبقهم الى الجنة في القيامة والى ان المال غاد ورائح ولا أصل له والى أن في اليهود من يزيد عليه في المال والى قوله عليه الصلاة والسلام بينما رجل يتبختر في حلة له قد أعجبته نفسه اذ أمر الله الارض فأخذته فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة أشار به الى عقوبة اعجابه بماله ونفسه وقال أبو ذر كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل المسجد فقال لي يا أبا ذر ارفع رأسك فرفعت رأسي فاذا رجل عليه ثياب جياد ثم قال ارفع رأسك فرفعت رأسي فاذا رجل عليه ثياب خلقة فقال لي يا أبا ذر هذا عند الله خير من قراب الارض مثل هذا وجميع ما ذكرناه في كتاب الزهد وكتاب ذم الدنيا وكتاب ذم المال يبين حقارة الاغنياء وشرف الفقراء عند الله تعالى فكيف يتصور من المؤمن أن يعجب بثروته بل لا يخلو المؤمن عن خوف من تقصيره في القيام بحقوق المال في أخذه من حله ووضعه في حقه ومن لا يفعل ذلك فمصيره الى الخزي والبوار فكيف يعجب بماله * الثامن العجب بالرأي الخطأ قال الله تعالى أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا وقال تعالى وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ذلك يغلب على آخر هذه الامة وبذلك هلكت الامم السالفة اذ افترقت فرقا فكل معجب برأيه وكل حزب بما لديهم فرحون وجميع أهل البدع والضلال انما أصروا عليها لعجبهم بآرائهم والعجب بالبدعة هو استحسان ما يسوق اليه الهوى والشهوة مع ظن كونه

الانتباه من النوم والعمل بالليل * اذا فرغ المؤذن من أذان المغرب يصلي ركعتين خفيفتين بين الاذان والاقامة وكان العلماء يصلون هاتين الركعتين في البيت يعجلون بهما قبل الخروج الى الجماعة كيلا يظن الناس أنهما سنة مرتبة فيقتدى بهم ظنا منهم أنهما سنة واذا صلى المغرب يصلي ركعتي السنة بعد المغرب يعجل بهما فانهما يرفعان مع الفرض ويقرأ فيهما بقل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد ثم يسلم على ملائكة الليل والكرام الكاتبين فيقول مرحبا بملائكة الليل مرحبا بالملكين الكريمين الكاتبين اكتبا في صحيفتي أني أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله وأشهد أن الجنة حق والنار حق والحوض حق والشفاعة حق

حقا وعلاج هذا العجب أشد من علاج غيره لان صاحب الرأى المخطئ جاهل بخطئه ولو عرفه لتركه ولا يعالج الداء الذى لا يعرف والجهل داء لا يعرف فتعسر مداواته جدا لان العارف يقدر على أن يبين للجاهل جهله و يزيله عنه الا اذا كان معجبا برأيه وجهله فانه لا يصغى الى العارف و يتهمه فقد سلط الله عليه بلية تهلكه وهو يظنها نعمة فكيف يمكن علاجه وكيف يطلب الهرب مما هو سبب سعادته فى اعتقاده وانما علاجه على الجملة أن يكون متهما لرأيه أبدا لا يغتر به الا أن يشهد له قاطع من كتاب أوسنة أو دليل عقل صحيح جامع لشروط الادلة ولن يعرف الانسان أدلة الشرع والعقل وشروطها ومكامن الغلط فيها الا بقريحة تامة وعقل ثاقب وجد وتشمر فى الطلب وممارسة للكتاب والسنة ومجالسة لاهل العلم طول العمر ومدارسة للعلوم ومع ذلك فلا يؤمن عليه الغلط فى بعض الامور والصواب لمن لم يتفرغ لاستغراق عمره فى العلم أن لا يخوض فى المذاهب ولا يصغى اليها ولا يسمعها ولكن يعتقد أن الله تعالى واحد لا شريك له وأنه ليس كمثله شئ وهو السميع البصير وأن رسوله صادق فيما أخبر به و يتبع سنة السلف و يؤمن بجملة ما جاء به الكتاب والسنة من غير بحث وتنقير وسؤال عن تفصيل بل يقول آمنا وصدقنا و يشتغل بالتقوى واجتناب المعاصى وأداء الطاعات والشفقة على المسلمين وسائر الاعمال فان خاض فى المذاهب والبدع والتعصب فى العقائد هلك من حيث لا يشعر هذا حق كل من عزم على أن يشتغل فى عمره بشئ غير العلم فاما الذى عزم على التجرد للعلم فاول مهم له معرفة الدليل وشروطه وذلك مما يطول الامر فيه والوصول الى اليقين والمعرفة فى أكثر المطالب شديد لا يقدر عليه الا الاقوياء المؤيدون بنور الله تعالى وهو عزيز الوجود جدا فنسأل الله تعالى العصمة من الضلال ونعوذ به من الاغترار بخيالات الجهال * تم كتاب ذم الكبر والعجب والحمد لله وحده وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

* كتاب ذم الغرور وهو الكتاب العاشر من ربع المهلكات من كتب احياء علوم الدين *

* بسم الله الرحمن الرحيم *

الحمد لله الذى بيده مقاليد الامور وبقدرته مفاتيح الخيرات والشرور ومخرج أوليائه من الظلمات الى النور ومورد أعدائه ورطات الغرور والصلاة على محمد مخرج الخلائق من الديجور وعلى آله وأصحابه الذين لم تغرهم الحياة الدنيا ولم يغرهم بالله الغرور صلاة تتوالى على ممر الدهور ومكر الساعات والشهور (أما بعد) فمفتاح السعادة التيقظ والفطنة ومنبع الشقاوة الغرور والغفلة فلا نعمة لله على عباده أعظم من الايمان والمعرفة ولا وسيلة اليه سوى انشراح الصدر بنور البصيرة ولا نقمة أعظم من الكفر والمعصية ولا داعى اليهما سوى عمى القلب بظلمة الجهالة فالاكياس وأرباب البصائر قلوبهم كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار نور على نور والمغترون قلوبهم كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور فالاكياس هم الذين أراد الله أن يهديهم فشرح صدورهم للاسلام والهدى والمغترون هم الذين أراد الله أن يضلهم فجعل صدرهم ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء والمغرور هو الذى لم تنفتح بصيرته ليكون بهداية نفسه كفيلا وبقى فى العمى فاتخذ الهوى قائدا والشيطان دليلا ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا واذا عرف أن الغرور هو أم الشقاوات ومنبع المهلكات فلابد من شرح مداخله ومجاريه وتفصيل ما يكثر وقوع الغرور فيه ليحذره المريد بعد معرفته فيتقيه فالموفق من العباد من عرف مداخل الآفات والفساد فاخذ منها حذره وبنى على الحزم والبصيرة أمره ونحن نشرح أجناس مجارى الغرور وأصناف المغترين من القضاة والعلماء والصالحين الذين اغتروا بمبادى الامور الجميلة ظواهرها القبيحة سرائرها ونشير الى وجه اغترارهم بها وغفلتهم عنها فان ذلك وان كان أكثر مما يحصى ولكن يمكن التنبيه على أمثلة تغنى عن الاستقصاء وفرق المغترين كثيرة ولكن يجمعهم أربعة أصناف الصنف الاول من العلماء الصنف الثانى من العباد الصنف الثالث من المتصوفة الصنف الرابع من أرباب الاموال

والصراط والميزان حق وأشهد أن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور اللهم أودعك هذه الشهادة ليوم حاجتى اليها اللهم احطط بها وزرى واغفر بها ذنبى وثقل بها ميزانى وأوجب لى بها أمانى وتجاوز عنى يا أرحم الراحمين فان واصل بين العشاءين فى مسجد جماعته يكون جامعا بين الاعتكاف ومواصلة العشاءين وان رأى انصرافه الى منزله وأن المواصلة بين العشاءين فى بيته أسلم لدينه وأقرب الى الاخلاص وأجمع للهم فليفعل * وسئل رسول الله عليه السلام عن قوله تعالى تتجافى جنوبهم عن المضاجع فقال هى الصلاة بين العشاءين وقال عليه السلام عليكم بالصلاة بين العشاءين فانها تذهب بملاغاة النهار وتذهب آخره ويجعل

والمغترمن كل صنف فرق كثيرة وجهات غرورهم مختلفة فمنهم من رأى المنكر معروفا كالذى يتخذ المساجد و يزخرفها من المال الحرام ومنهم من لم يميز بين ما يسعى فيه لنفسه و بين ما يسعى فيه لله تعالى كالواعظ الذى غرضه القبول والجاه ومنهم من يترك الاهم و يشتغل بغيره ومنهم من يترك الفرض و يشتغل بالنافلة ومنهم من يترك اللباب و يشتغل بالقشر كالذى يكون همه فى الصلاة مقصورا على تصحيح مخارج الحروف الى غير ذلك من مداخل لا تتضح الا بتفصيل الفرق وضرب الامثلة ولنبدأ أولا بذكر غرور العلماء ولكن بعد بيان ذم الغرور و بيان حقيقته وحده

﴿ بيان ذم الغرور وحقيقته وأمثلته ﴾

اعلم أن قوله تعالى فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور وقوله تعالى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الامانى الآية كاف فى ذم الغرور وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حبذا نوم الاكياس وفطرهم كيف يغبنون سهر الحمقى واجتهادهم ولمثقال ذرة من صاحب تقوى و يقين أفضل من ملء الارض من المغترين وقال صلى الله عليه وسلم الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والاحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله وكل ما ورد فى فضل العلم وذم الجهل فهو دليل على ذم الغرور لان الغرور عبارة عن بعض أنواع الجهل اذ الجهل هو أن يعتقد الشئ و يراه على خلاف ما هو به والغرور هو جهل الا أن كل جهل ليس بغرور بل يستدعى الغرور مغرورا فيه مخصوصا ومغرورا به وهو الذى يغره فمهما كان المجهول المعتقد شيأ يوافق الهوى وكان السبب الموجب للجهل شبهة ومخيلة فاسدة يظن أنها دليل ولا تكون دليلا سمى الجهل الحاصل به غرورا فالغرور هو سكون النفس الى ما يوافق الهوى و يميل اليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان فمن اعتقد أنه على خير اما فى العاجل أو فى الآجل عن شبهة فاسدة فهو مغرور وأكثر الناس يظنون بأنفسهم الخير وهم مخطئون فيه فأكثر الناس اذا مغرورون وان اختلفت أصناف غرورهم واختلفت درجاتهم حتى كان غرور بعضهم أظهر وأشد من بعض وأظهرها وأشدها غرور الكفار وغرور العصاة والفساق فنورد لهما أمثلة لحقيقة الغرور ﴿ المثال الاول ﴾ غرور الكفار فمنهم من غرته الحياة الدنيا ومنهم من غره بالله الغرور أما الذين غرتهم الحياة الدنيا فهم الذين قالوا النقد خير من النسيئة والدنيا نقد والآخرة نسيئة فهى اذا خير فلا بد من ايثارها وقالوا اليقين خير من الشك ولذات الدنيا يقين ولذات الآخرة شك فلا نترك اليقين بالشك وهذه أقيسة فاسدة تشبه قياس ابليس حيث قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين والى هؤلاء الاشارة بقوله تعالى أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون وعلاج هذا الغرور اما بتصديق الايمان واما بالبرهان أما التصديق بمجرد الايمان فهو أن يصدق الله تعالى فى قوله ما عندكم ينفد وما عند الله باق وفى قوله عز وجل وما عند الله خير وقوله والآخرة خير وأبقى وقوله وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور وقوله فلا تغرنكم الحياة الدنيا وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك طوائف من الكفار فقلدوه وصدقوه وآمنوا به ولم يطالبوه بالبرهان ومنهم من قال نشدتك الله أبعثك الله رسولا فكان يقول نعم فيصدق وهذا ايمان العامة وهو يخرج من الغرور و ينزل هذا منزلة تصديق الصبى والده فى أن حضور المكتب خير من حضور الملعب مع أنه لا يدرى وجه كونه خيرا وأما المعرفة بالبيان والبرهان فهو أن يعرف وجه فساد هذا القياس الذى نظمه فى قلبه الشيطان فان كل مغرور فلغروره سبب وذلك السبب هو دليل وكل دليل فهو نوع قياس يقع فى النفس و يورث السكون اليه وان كان صاحبه لا يشعر به ولا يقدر على نظمه بألفاظ العلماء فالقياس الذى نظمه الشيطان فيه أصلان أحدهما أن الدنيا نقد والآخرة نسيئة وهذا صحيح والآخر قوله ان النقد خير من النسيئة وهذا محل التلبيس فليس الامر كذلك بل ان كان النقد مثل النسيئة فى المقدار والمقصود فهو خير وان كان أقل منها فالنسيئة خير فان الكافر المغرور يبذل فى تجارته درهما ليأخذ عشرة نسيئة ولا يقول النقد خير من النسيئة فلا أتركه واذا حذره الطبيب الفواكه ولذائذ الاطعمة ترك ذلك فى الحال خوفا من ألم المرض فى المستقبل فقد ترك النقد ورضى بالنسيئة والتجار كلهم يركبون البحار و يتعبون فى الاسفار نقدا لاجل الراحة والربح نسيئة فان كان عشرة فى ثانى الحال خيرا من واحد فى الحال فانسب لذة الدنيا من حيث مدتها الى مدة الآخرة فان

من الصلاة بين العشاءين ركعتين بسورة البروج والطارق ثم ركعتين بعد ركعتين يقرأ فى الاولى عشر آيات من أول سورة البقرة الآيتين والهكم اله واحد الى آخر الآيتين وخمس عشرة مرة قل هو الله أحد وفى الثانية آية الكرسى وآمن الرسول وخمس عشرة مرة قل هو الله أحد ويقرأ فى الركعتين الاخيرتين من سورة الزمر والواقعة و يصلى بعد ذلك ما شاء فان أراد أن يقرأ شيأ من حزبه فى هذا الوقت فى الصلاة أو غيرها وان شاء صلى عشرين ركعة خفيفة بسورة الاخلاص والفاتحة ولو واصل بين العشاءين بركعتين يطيلهما فحسن وفى هاتين الركعتين يطيل القيام تاليا القرآن حزبه أو مكررا آية فيها الدعاء والتلاو ومثل أن يقرأ مكررا ربنا عليك توكلنا واليك

أقصى عمر الانسان مائة سنة وليس هو عشر عشير من جزء من ألف ألف جزء من الآخرة فكأنه ترك واحدا ليأخذ ألف ألف بل ليأخذ مالا نهاية له ولا حد وان نظر من حيث النوع رأى لذات الدنيا مكدرة مشوبة بأنواع المنغصات ولذات الآخرة صافية غير مكدرة فاذا قد غلط في قوله النقد خير من النسيئة فهذا غرور منشؤه قبول لفظ عام مشهور أطلق وأريد به خاص فغفل به المغرور عن خصوص معناه فان من قال النقد خير من النسيئة أراد به خيرا من نسيئة هي مثله وان لم يصرح به وعند هذا يفزع الشيطان الى القياس الآخر وهو أن اليقين خير من الشك والآخرة شك وهذا القياس أكثر فسادا من الاول لان كلا أصليه باطل اذ اليقين خير من الشك اذا كان مثله والا فالتاجر في تعبه على يقين وفي ربحه على شك والمتفقه في اجتهاده على يقين وفي ادراكه رتبة العلم على شك والصياد في تردده في المقتنص على يقين وفي الظفر بالصيد على شك وكذا الحزم دأب العقلاء بالاتفاق وكل ذلك ترك لليقين بالشك ولكن التاجر يقول ان لم أتجر بقيت جائعا وعظم ضرري وان اتجرت كان تعبي قليلا وربحي كثيرا وكذلك المريض يشرب الدواء البشع الكريه وهو من الشفاء على شك ومن مرارة الدواء على يقين ولكن يقول ضرر مرارة الدواء قليل بالاضافة الى ما أخافه من المرض والموت فكذلك من شك في الآخرة فواجب عليه بحكم الحزم أن يقول أيام الصبر قلائل وهو منتهى العمر بالاضافة الى ما يقال من أمر الآخرة فان كان ما قيل فيه كذبا فما يفوتني الا التنعم أيام حياتي وقد كنت في العدم من الازل الى الآن لا أتنعم فاحسب اني بقيت في العدم وان كان ما قيل صدقا فابقى في النار أبد الآباد وهذا لا يطاق ولهذا قال علي كرم الله وجهه لبعض الملحدين ان كان ما قلته حقا فقد تخلصت وتخلصنا وان كان ما قلناه حقا فقد تخلصنا وهلكت وما قال هذا عن شك منه في الآخرة ولكن كلم الملحد على قدر عقله وبين له أنه وان لم يكن متيقنا فهو مغرور * وأما الاصل الثاني من كلامه وهو أن الآخرة شك فهو أيضا خطأ بل ذلك يقين عند المؤمنين وليقينه مدركان أحدهما الايمان والتصديق تقليدا للانبياء والعلماء وذلك أيضا يزيل الغرور وهو مدرك يقين العوام وأكثر الخواص ومثالهم مثال مريض لا يعرف دواء علته وقد اتفق الاطباء وأهل الصناعة من عند آخرهم على أن دواءه النبت الفلاني فانه تطمئن نفس المريض الى تصديقهم ولا يطالبهم بتصحيح ذلك بالبراهين الطبية بل يثق بقولهم ويعمل به ولو بقي سوادي أو معتوه يكذبهم في ذلك وهو يعلم بالتواتر وقرائن الاحوال أنهم أكثر منه عددا وأغزر منه فضلا وأعلم منه بالطب بل لا علم له بالطب فيعلم كذبه بقولهم ولا يعتقد كذبهم بقوله ولا يغترفي علمه بسببه ولو اعتمد قوله وترك قول الاطباء كان معتوها مغرورا فكذلك من نظر الى المقرين بالآخرة والمخبرين عنها والقائلين بأن التقوى هو الدواء النافع في الوصول الى سعادتها وجدهم خير خلق الله وأعلاهم رتبة في البصيرة والمعرفة والعقل وهم الانبياء والاولياء والحكماء والعلماء واتبعهم عليه الخلق على أصنافهم وشذ منهم آحاد من البطالين غلبت عليهم الشهوة ومالت نفوسهم الى التمتع فعظم عليهم ترك الشهوات وعظم عليهم الاعتراف بأنهم من أهل النار فجحدوا الآخرة وكذبوا الانبياء فكما أن قول الصبي وقول السوادي لا يزيل طمأنينة القلب الى ما اتفق عليه الاطباء فكذلك قول هذا الغبي الذي استرقته الشهوات لا يشكك في صحة أقوال الانبياء والاولياء والعلماء وهذا القدر من الايمان كاف لجملة الخلق وهو يقين جازم يستحث على العمل لا محالة والغرور يزول به وأما المدرك الثاني لمعرفة الآخرة فهو الوحي للانبياء والالهام للاولياء ولا تظنن أن معرفة النبي عليه السلام لامر الآخرة ولامور الدين تقليد لجبريل عليه السلام بالسماع منه كما أن معرفتك تقليد للنبي صلى الله عليه وسلم حتى تكون معرفتك مثل معرفته وانما يختلف المقلد فقط وهيهات فان التقليد ليس بمعرفة بل هو اعتقاد صحيح والانبياء عارفون ومعنى معرفتهم أنه كشف لهم حقيقة الاشياء كما هي عليها فشاهدوها بالبصيرة الباطنة كما تشاهد أنت المحسوسات بالبصر الظاهر فيخبرون عن مشاهدة لا عن سماع وتقليد وذلك بأن يكشف لهم عن حقيقة الروح وأنه من أمر الله تعالى وليس المراد بكونه من أمر الله الامر الذي يقابل النهي لان ذلك الامر كلام والروح ليس بكلام وليس المراد بالامر الشأن حتى يكون المراد به أنه من خلق الله فقط لان ذلك عام في جميع المخلوقات بل العالم عالمان عالم الامر وعالم الخلق ولله الخلق والامر فالاجسام ذوات الكمية

أن ماوا اليك المصير أو آية أخرى في معناها فيكون جامعا بين التلاوة والصلاة والدعاء في ذلك جمع للهم وظفر بالفضل ثم يصلي قبل العشاء أربعا وبعدها ركعتين ثم ينصرف الى منزله أو موضع خلوته فيصلي أربعا أخرى وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي في بيته أول ما يدخل قبل أن يجلس أربعا ويقرأ في هذه الاربع سورة لقمان ويس وحم الدخان وتبارك الملك وان أراد أن يخفف فيقرأ فيها آية الكرسي وآمن الرسول وأول سورة الحديد وآخر سورة الحشر ويصلي بعد الاربع احدى عشرة ركعة يقرأ فيها ثلثمائة آية من القرآن من والسماء والطارق الى آخر القرآن ثلثمائة آية هكذا ذكر الشيخ أبو طالب المكي رحمه الله وان أراد قراءة هذا القدر

والمقادير

والمقادير من عالم الخلق اذ الخلق عبارة عن التقدير في وضع اللسان وكل موجود منزه عن الكمية والمقدار فانه من عالم الامر وشرح ذلك سر الروح ولا رخصة في ذكره لاستضرار أكثر الخلق بسماعه كسر القدرة الذي منع من افشائه فمن عرف سر الروح فقد عرف نفسه واذا عرف نفسه فقد عرف ربه واذا عرف نفسه وربه عرف أنه أمر رباني بطبعه وفطرته وأنه في العالم الجسماني غريب وأن هبوطه اليه لم يكن بمقتضى طبعه في ذاته بل بأمر عارض غريب من ذاته وذلك العارض الغريب ورد على آدم صلى الله عليه وسلم وعبر عنه بالمعصية وهي التي حطته عن الجنة التي هي أليق به بمقتضى ذاته فانها في جوار الرب تعالى وانه أمر رباني وحنينه الى جوار الرب تعالى له طبعي ذاتي الا أن يصرفه عن مقتضى طبعه عوارض العالم الغريب من ذاته فينسى عند ذلك نفسه وربه ومهما فعل ذلك فقد ظلم نفسه اذ قيل له ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون أي الخارجون عن مقتضى طبعهم ومظنة استحقاقهم يقال فسقت الرطبة عن كمامها اذا خرجت عن معدنها الفطري وهذه اشارة الى أسرار يهتز لاستنشاق روائحها العارفون وتشمئز من سماع ألفاظها القاصرون فانها تضرهم كما تضر رياح الورد بالجعل وتبهر أعينهم الضعيفة كما تبهر الشمس أبصار الخفافيش وانفتاح هذا الباب من سر القلب الى عالم الملكوت يسمى معرفة وولاية ويسمى صاحبه وليا وعارفا وهي مبادي مقامات الانبياء وآخر مقامات الاولياء أول مقامات الانبياء * ولنرجع الى الغرض المطلوب فالمقصود أن غرور الشيطان بأن الآخرة شك يدفع اما بيقين تقليدي واما ببصيرة ومشاهدة من جهة الباطن والمؤمنون بألسنتهم وبعقائدهم اذا ضيعوا أوامر الله تعالى وهجروا الاعمال الصالحة ولابسوا الشهوات والمعاصي فهم مشاركون للكفار في هذا الغرور لانهم آثروا الحياة الدنيا على الآخرة نعم أمرهم أخف لان أصل الايمان يعصمهم عن عقاب الابد فيخرجون من النار ولو بعد حين ولكنهم أيضا من المغرورين فانهم اعترفوا بأن الآخرة خير من الدنيا ولكنهم مالوا الى الدنيا وآثروها ومجرد الايمان لا يكفي للفوز قال تعالى واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى وقال تعالى ان رحمة الله قريب من المحسنين ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه وقال تعالى والعصر ان الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر فوعد المغفرة في جميع كتاب الله تعالى منوط بالايمان والعمل الصالح جميعا لا بالايمان وحده فهؤلاء أيضا مغرورون أعني المطمئنين الى الدنيا الفرحين بها المترفين بنعيمها المحبين لها الكارهين للموت خيفة فوات لذات الدنيا دون الكارهين له خيفة لما بعده فهذا مثال الغرور بالدنيا من الكفار والمؤمنين جميعا * ولنذكر للغرور بالله مثالين من غرور الكافرين والعاصين فأما غرور الكفار بالله فمثاله قول بعضهم في أنفسهم وبألسنتهم انه لو كان لله من معاد فنحن أحق به من غيرنا ونحن أوفر حظا فيه وأسعد حالا كما أخبر الله تعالى عنه من قول الرجلين المتحاورين اذ قال وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت الى ربي لاجدن خيرا منها منقلبا وجملة أمرهما كما نقل في التفسير أن الكافر منهما بنى قصرا بألف دينار واشترى بستانا بألف دينار وخدما بألف دينار وتزوج امرأة على ألف دينار وفي ذلك كله يعظه المؤمن ويقول اشتريت قصرا يفنى ويخرب ألا اشتريت قصرا في الجنة لا يفنى واشتريت بستانا يخرب ويفنى ألا اشتريت بستانا في الجنة لا يفنى وخدما لا يفنون ولا يموتون وزوجة من الحور العين لا تموت وفي كل ذلك يرد عليه الكافر ويقول ما هناك شيء وما قيل من ذلك فهو أكاذيب وان كان فليكونن لي في الجنة خير من هذا وكذلك وصف الله تعالى قول العاص بن وائل اذ يقول لاوتين مالا وولدا فقال الله تعالى ردا عليه أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا كلا وروى عن خباب بن الارت أنه قال كان لي على العاص بن وائل دين فجئت أتقاضاه فلم يقض لي فقلت اني آخذه في الآخرة فقال لي اذا صرت الى الآخرة فان لي هناك مالا وولدا أقضيك منه فأنزل الله تعالى قوله أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لاوتين مالا وولدا وقال الله تعالى ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت الى ربي ان لي عنده للحسنى وهذا كله من الغرور بالله وسببه قياس من أقيسة ابليس نعوذ بالله منه وذلك أنهم ينظرون مرة الى

في أقل من هذا العدد من الركعات وان قرأ من سورة الملك الى آخر القرآن وهو ألف آية فهو خير عظيم كثير وان لم يحفظ القرآن يقرأ في كل ركعة خمس مرات قل هو الله أحد الى عشر مرات الى أكثر ولا يؤخر الوتر الى آخر التهجد الا أن يكون واثقا من نفسه في عادتها بالانتباه للتهجد فيكون تأخير الوتر الى آخر التهجد حينئذ أفضل (وقد كان بعض العلماء) اذا أوتر قبل النوم ثم قام يتهجد يصلي ركعة يشفع بها وتره ثم يتنفل ما شاء ويوتر في آخر ذلك واذا كان الوتر من أول الليل يصلي بعد الوتر ركعتين جالسا يقرأ فيهما باذا زلزلت وألهاكم وقيل فعل الركعتين قاعدا بمنزلة الركعة قائما يشفع له الوتر حتى اذا أراد التهجد يأتي به ويوتر في آخر تهجده ونية هاتين الركعتين نية النفل

نعم الله عليهم فى الدنيا فيقيسون عليها نعمة الآخرة و ينظرون مرة الى تأخير العذاب عنهم فيقيسون عليه عذاب الآخرة كما قال تعالى و يقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول فقال تعالى جوابا لقولهم حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير ومرة ينظرون الى المؤمنين وهم فقراء شعث غبر فيزدرون بهم و يستحقرونهم فيقولون أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا و يقولون لو كان خيرا ما سبقونا اليه وترتيب القياس الذى نظمه فى قلوبهم أنهم يقولون قد أحسن الله الينا بنعيم الدنيا وكل محسن فهو محب وكل محب فانه يحسن أيضا فى المستقبل كما قال الشاعر

لقد أحسن الله فيما مضى * كذلك يحسن فيما بقى

وانما يقيس المستقبل على الماضى بواسطة الكرامة والحب اذ يقول لولا أنى كريم عند الله و محبوب لما أحسن الى والتلبيس تحت ظنه ان كل محسن محب لا بل تحت ظنه ان انعامه عليه فى الدنيا احسان فقد اغتر بالله اذ ظن انه كريم عنده بدليل لا يدل على الكرامة بل عند ذوى البصائر يدل على الهوان و مثاله أن يكون للرجل عبدان صغيران يبغض أحدهما و يحب الآخر فالذى يحبه يمنعه من اللعب و يلزمه المكتب و يحبسه فيه ليعلمه الادب و يمنعه من الفواكه وملاذ الاطعمة التى تضره و يسقيه الادوية التى تنفعه والذى يبغضه يهمله ليعيش كيف يريد فيلعب ولا يدخل المكتب و يأكل كل ما يشتهى فيظن هذا العبد المهمل أنه عند سيده محبوب كريم لانه مكنه من شهواته ولذاته وساعده على جميع أغراضه فلم يمنعه ولم يحجر عليه وذلك محض الغرور وهكذا نعيم الدنيا ولذاتها فانها مهلكات ومبعدات من الله فان الله يحمى عبده من الدنيا وهو يحبه كما يحمى أحدكم مريضه من الطعام والشراب وهو يحبه هكذا ورد فى الخبر عن سيد البشر وكان أرباب البصائر اذا أقبلت عليهم الدنيا حزنوا وقالوا ذنب عجلت عقوبته و رأوا ذلك علامة المقت والاهمال واذا أقبل عليهم الفقر قالوا مرحبا بشعار الصالحين والمغرور اذا أقبلت عليه الدنيا ظن انها كرامة من الله واذا صرفت عنه ظن أنها هوان كما أخبر الله تعالى عنه اذ قال فأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن وأما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن فأجاب الله عن ذلك كلا أى ليس كما قال انما هو ابتلاء نعوذ بالله من شر البلاء و نسأل الله التثبيت فبين ان ذلك غرور قال الحسن كذبهما جميعا بقوله كلا يقول ليس هذا باكرامى ولا هذا بهوانى ولكن الكريم من أكرمته بطاعتى غنيا كان أو فقيرا والمهان من أهنته بمعصيتى غنيا كان أو فقيرا وهذا الغرور علاجه معرفة دلائل الكرامة والهوان اما بالبصيرة أو بالتقليد أما البصيرة فبأن يعرف وجه كون الالتفات الى شهوات الدنيا مبعدا عن الله ووجه كون التباعد عنها مقربا الى الله و يدرك ذلك بالالهام فى منازل العارفين والاولياء وشرحه من جملة علوم المكاشفة ولا يليق بعلم المعاملة وأما معرفته بطريق التقليد والتصديق فهو أن يؤمن بكتاب الله تعالى و يصدق رسوله وقد قال تعالى أيحسبون أن ما نمدهم به من مال و بنين نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون وقال تعالى سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وقال تعالى فتحنا عليهم أبواب كل شئ حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون وفى تفسير قوله تعالى سنستدرجهم من حيث لا يعلمون انهم كلما أحدثوا ذنبا أحدثنا لهم نعمة ليزيد غرورهم وقال تعالى انما نملى لهم ليزدادوا اثما وقال تعالى ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار الى غير ذلك مما ورد فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله فمن آمن به تخلص من هذا الغرور فان منشأ هذا الغرور الجهل بالله و بصفاته فان من عرفه لا يأمن مكره ولا يغتر بأمثال هذه الخيالات الفاسدة و ينظر الى فرعون وهامان وقارون والى ملوك الارض وما جرى لهم كيف أحسن الله اليهم ابتداء ثم دمرهم تدميرا فقال تعالى هل تحس منهم من أحد الآية وقد حذر الله تعالى من مكره واستدراجه فقال فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون وقال تعالى ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون وقال عز وجل ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين وقال تعالى انهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا فكما لا يجوز للعبد المهمل أن يستدل باهمال السيد اياه وتمكينه من النعم على حب السيد بل ينبغى أن يحذر أن يكون ذلك مكرا منه وكيدا مع أن السيد لم يحذره مكر نفسه فبأن يجب ذلك فى حق الله تعالى مع تحذيره استدراجه أولى فاذا من أمن مكر الله فهو مغتر ومنشأ هذا الغرور انه استدل بنعم الدنيا على انه كريم عند ذلك المنعم واحتمل أن يكون ذلك دليل

لا غير ذلك وكثيرا ما رأيت الناس يتفاوضون فى كيفية نيتهما وان قرأ فى كل ليلة المسبحات وأضاف اليها سورة الاعلى فتصير ستا فقد كان العلماء يقرؤن هذه السورة ويترقبون بركتها فاذا استيقظ من النوم فمن أحسن الادب عند الانتباه أن يذهب بباطنه الى الله و يصرف فكره الى أمر الله قبل أن يجول الفكر فى شئ سوى الله و يشغل اللسان بالذكر فالصادق كالطفل الكلف بالشئ اذا نام ينام على محبة الشئ واذا انتبه يطلب ذلك الشئ الذى كان كلفا به وعلى حسب هذا الكلف والشغل يكون الموت والقيام الى الحشر فلينظر وليعتبر عند انتباهه من النوم ما أهمه فانه هكذا يكون عند القيام من القبر ان كان همه الله فهمه هو والا فهمه غير الله والعبد اذا انتبه من النوم فباطنه

الهوان ولكن ذلك الاحتمال لا يوافق الهوى فالشيطان بواسطة الهوى يميل بالقلب الى ما يوافقه وهو التصديق بدلالته على الكرامة وهذا هو حد الغرور (المثال الثاني) غرور العصاة من المؤمنين بقولهم ان الله كريم وأنا نرجو عفوه واتكالهم على ذلك واهمالهم الاعمال وتحسين ذلك بتسمية تمنيهم واغترارهم رجاء وظنهم أن الرجاء مقام محمود في الدين وان نعمة الله واسعة ورحمته شاملة وكرمه عميم وأين معاصي العباد في بحار رحمته وانا موحدون ومؤمنون فنرجوه بوسيلة الايمان وربما كان مستند رجائهم التمسك بصلاح الآباء وعلو رتبتهم كاغترار العلوية بنسبهم ومخالفة سيرة آبائهم في الخوف والتقوى والورع وظنهم أنهم أكرم على الله من آبائهم اذ آباؤهم مع غاية الورع والتقوى كانوا خائفين وهم مع غاية الفسق والفجور آمنون وذلك نهاية الاغترار بالله تعالى فقياس الشيطان للعلوية ان من أحب انسانا أحب أولاده وان الله قد أحب آباءكم فيحبكم فلا تحتاجون الى الطاعة وينسى المغرور ان نوحا عليه السلام أراد أن يستصحب ولده معه في السفينة فلم يرد فكان من المغرقين فقال رب ان ابني من أهلي فقال تعالى يا نوح انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح وأن ابراهيم عليه السلام استغفر لابيه فلم ينفعه وأن نبينا صلى الله عليه وسلم وعلى كل عبد مصطفى استأذن ربه في أن يزور قبر أمه ويستغفر لها فاذن له في الزيارة ولم يؤذن له في الاستغفار فجلس يبكي على قبر أمه لرقته لها بسبب القرابة حتى أبكى من حوله فهذا أيضا اغترار بالله تعالى وهذا لان الله تعالى يحب المطيع ويبغض العاصي فكما أنه لا يبغض الاب المطيع ببغضه للولد العاصي فكذلك لا يحب الولد العاصي بحبه للاب المطيع ولو كان الحب يسري من الاب الى الولد لاوشك ان يسري البغض أيضا بل الحق أن لا تزر وازرة وزر أخرى ومن ظن أنه ينجو بتقوى أبيه كمن ظن أنه يشبع بأكل أبيه ويروى بشرب أبيه ويصير عالما بتعلم أبيه ويصل الى الكعبة ويراها بمشي أبيه فالتقوى فرض عين فلا يجزي فيه والد عن ولده شيأ وكذا العكس وعند الله جزاء التقوى يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه الا على سبيل الشفاعة لمن لم يشتد غضب الله عليه فيأذن في الشفاعة له كما سبق في كتاب الكبر والعجب فان قلت فاين الغلط في قول العصاة والفجار ان الله كريم وانا نرجو رحمته ومغفرته وقد قال أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي خيرا فما هذا الا كلام صحيح مقبول الظاهر في القلوب فاعلم أن الشيطان لا يغوي الانسان الا بكلام مقبول الظاهر مردود الباطن ولولا حسن ظاهره لما انخدعت به القلوب ولكن النبي صلى الله عليه وسلم كشف عن ذلك فقال الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والاحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله وهذا هو التمني على الله تعالى غير الشيطان اسمه فسماه رجاء حتى خدع به الجهال وقد شرح الله الرجاء فقال ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله يعني أن الرجاء بهم أليق وهذا لانه ذكر أن ثواب الآخرة أجر وجزاء على الاعمال قال الله تعالى جزاء بما كانوا يعملون وقال تعالى وانما توفون أجوركم يوم القيامة أفترى أن من استؤجر على اصلاح أوان وشرط له أجرة عليها وكان الشارط كريما يفي بالوعد مهما وعد ولا يخلف بل يزيد فجاء الاجير وكسر الاواني وأفسد جميعها ثم جلس ينتظر الاجر ويزعم أن المستأجر كريم أفتراه العقلاء في انتظاره متمنيا مغرورا أو راجيا وهذا للجهل بالفرق بين الرجاء والغرة قيل للحسن قوم يقولون نرجو الله ويضيعون العمل فقال هيهات هيهات تلك أمانيهم يترجحون فيها من رجا شيأ طلبه ومن خاف شيأ هرب منه وقال مسلم بن يسار لقد سجدت البارحة حتى سقطت ثنيتاي فقال له رجل انا لنرجو الله فقال مسلم هيهات هيهات من رجا شيأ طلبه ومن خاف شيأ هرب منه وكما أن الذي يرجو في الدنيا ولدا وهو بعد لم ينكح أو نكح ولم يجامع أو جامع ولم ينزل فهو معتوه فكذلك من رجا رحمة الله وهو لم يؤمن أو آمن ولم يعمل صالحا أو عمل ولم يترك المعاصي فهو مغرور فكما أنه اذا نكح ووطئ وأنزل بقي مترددا في الولد يخاف ويرجو فضل الله في خلق الولد ودفع الآفات عن الرحم وعن الام الى أن يتم فهو كيس فكذلك اذا آمن وعمل الصالحات وترك السيئات وبقي مترددا بين الخوف والرجاء يخاف أن لا يقبل منه وأن لا يدوم عليه وأن يختم له بالسوء ويرجو من الله تعالى أن يثبته بالقول الثابت ويحفظ دينه من صواعق سكرات الموت حتى يموت على التوحيد ويحرس قلبه عن الميل الى

عائد الى طهارة الفطرة فلا يدع الباطن يتغير بغير ذكر الله تعالى حتى لا يذهب عنه نور الفطرة الذي انتبه عليه ويكون فارا الى ربه بباطنه خوفا من ذكر الاغيار ومهما وفي الباطن بهذا المعيار فقد انتقى طريق الانوار وطرق النفحات الالهية فجدير ان تنصب اليه أقسام الليل انصبابا ويصير جناب القرب له موئلا ومآبا ويقول باللسان الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا واليه النشور ويقرأ العشر الاواخر من سورة آل عمران ثم يقصد الماء الطهور قال الله تعالى وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به وقال عز وجل أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما الماء القرآن والاودية القلوب فسالت بقدرها واحتملت ماوسعت

الشهوات بقية عمره حتى لايميل الى المعاصى فهو كيس ومن عداهؤلاء فهم المغرورون بالله وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا ولتعلمن نبأه بعد حين وعند ذلك يقولون كما أخبر الله عنهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا انا موقنون أى علمنا أنه كما لايولد ولد الا بوقاع ونكاح ولا ينبت زرع الا بحراثة وبث بذر فكذلك لايحصل فى الآخرة ثواب وأجر الا بعمل صالح فارجعنا نعمل صالحا فقد علمنا الآن صدقك فى قولك وأن ليس للانسان الا ما سعى وأن سعيه سوف يرى وكلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير أى ألم نسمعكم سنة الله فى عباده وأنه توفى كل نفس ما كسبت وان كل نفس بما كسبت رهينة فما الذى غركم بالله بعد أن سمعتم وعقلتم قالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير فان قلت فاين مظنة الرجاء وموضعه المحمود فاعلم أنه محمود فى موضعين أحدهما فى حق العاصى المنهمك اذا خطرت له التوبة فقال له الشيطان وانى تقبل توبتك فيقنطه من رحمة الله تعالى فيجب عند هذا أن يقمع القنوط بالرجاء ويتذكر أن الله يغفر الذنوب جميعا وان الله كريم يقبل التوبة عن عباده وان التوبة طاعة تكفر الذنوب قال الله تعالى قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم وأنيبوا الى ربكم أمرهم بالانابة وقال تعالى وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى فاذا توقع المغفرة مع التوبة فهو راج وان توقع المغفرة مع الاصرار فهو مغرور كما أن من ضاق عليه وقت الجمعة وهو فى السوق فخطر له أن يسعى الى الجمعة فقال له الشيطان انك لاتدرك الجمعة فاقم على موضعك فكذب الشيطان ومر يعدو وهو يرجو أن يدرك الجمعة فهو راج وان استمر على التجارة وأخذ يرجو تأخير الامام للصلاة لاجله الى وسط الوقت أو لاجل غيره أو لسبب من الاسباب التى لايعرفها فهو مغرور والثانى أن تفتر نفسه عن فضائل الأعمال ويقتصر على الفرائض فيرجى نفسه نعيم الله تعالى وما وعد به الصالحين حتى ينبعث من الرجاء نشاط العبادة فيقبل على الفضائل ويتذكر قوله تعالى قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون الى قوله أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون فالرجاء الاول يقمع القنوط المانع من التوبة والرجاء الثانى يقمع الفتور المانع من النشاط والتشمر فكل توقع حث على توبة أو على تشمر فى العبادة فهو رجاء وكل رجاء أوجب فتورا فى العبادة وركونا الى البطالة فهو غرة كما اذا خطر له أن يترك الذنب ويشتغل بالعمل فيقول له الشيطان مالك ولايذاء نفسك وتعذيبها ولك رب كريم غفور رحيم فيفتر بذلك عن التوبة والعبادة فهو غرة وعند هذا واجب على العبد ان يستعمل الخوف فيخوف نفسه بغضب الله وعظيم عقابه ويقول انه مع انه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب وانه مع أنه كريم خلد الكفار فى النار أبد الآباد مع انه لم يضره كفرهم بل سلط العذاب والمحن والامراض والعلل والفقر والجوع على جملة من عباده فى الدنيا وهو قادر على ازالتها فمن هذه سنته فى عباده وقد خوفنى عقابه فكيف لاأخافه وكيف أغتر به فالخوف والرجاء قائدان وسائقان يبعثان الناس على العمل فما لايبعث على العمل فهو تمن وغرور ورجاء كافة الخلق هو سبب فتورهم وسبب اقبالهم على الدنيا وسبب اعراضهم عن الله تعالى واهمالهم السعى للآخرة فذلك غرور فقد أخبر صلى الله عليه وسلم وذكر أن الغرور سيغلب على قلوب آخر هذه الامة وقد كان ما وعد به صلى الله عليه وسلم فقد كان الناس فى الاعصار الاول يواظبون على العبادات ويؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم الى ربهم راجعون يخافون على أنفسهم وهم طول الليل والنهار فى طاعة الله يبالغون فى التقوى والحذر من الشبهات والشهوات ويبكون على أنفسهم فى الخلوات وأما الآن فترى الخلق آمنين مسرورين مطمئنين غير خائفين مع اكبابهم على المعاصى وانهماكهم فى الدنيا واعراضهم عن الله تعالى زاعمين انهم واثقون بكرم الله تعالى وفضله راجون لعفوه ومغفرته كأنهم يزعمون أنهم عرفوا من فضله وكرمه ما لم يعرفه الانبياء والصحابة والسلف الصالحون فان كان هذا الامر يدرك بالمنى وينال بالهوينى فعلام اذا كان بكاء أولئك وخوفهم وحزنهم وقد ذكرنا تحقيق هذه الامور فى كتاب الخوف والرجاء وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه معقل بن يسار يأتى على الناس زمان يخلق فيه القرآن فى قلوب الرجال كما تخلق الثياب على الابدان أمرهم كله يكون طمعا لاخوف معه ان أحسن أحدهم

والماء مطهر والقرآن مطهر والقرآن بالتطهير أجدر فالماء يقوم غيره مقامه والقرآن والعلم لايقوم غيره مقامه ولا يسد مسده فالماء الطهور يطهر الظاهر والعلم والقرآن يطهران الباطن ويذهبان رجز الشيطان فالنوم غفلة وهو من آثار الطبع وجدير أن يكون من رجز الشيطان لما فيه من الغفلة عن الله تعالى وذلك أن الله تعالى أمر بقبض القبضة من التراب من وجه الارض فكانت القبضة جلدة الارض والجلدة ظاهرها بشرة وباطنها أدمة قال الله تعالى انى خالق بشرا من طين فالبشرة والبشر عبارة عن ظاهره وصورته والادمة عبارة عن باطنه وآدميته والآدمية مجمع الاخلاق الحميدة وكان التراب موطئ أقدام ابليس ومن ذلك اكتسب ظلمة وصارت تلك الظلمة

قال يتقبل مني وان أساء قال يغفر لي فأخبر أنهم يضعون الطمع موضع الخوف لجهلهم بتخويفات القرآن وما
فيه وبمثله أخبر عن النصارى إذ قال تعالى فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الادنى
ويقولون سيغفر لنا ومعناه أنهم ورثوا الكتاب أي هم علماء ويأخذون عرض هذا الادنى أي شهواتهم
من الدنيا حراما كان أو حلالا وقد قال تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد
والقرآن من أوله الى آخره تحذير وتخويف لا يتفكر فيه متفكر الا ويطول حزنه ويعظم خوفه ان كان
مؤمنا بما فيه وترى الناس يهذونه هذا يخرجون الحروف من مخارجها ويتناظرون على خفضها ورفعها
ونصبها وكأنهم يقرؤن شعرا من أشعار العرب لا يهمهم الالتفات الى معانيه والعمل بما فيه وهل في العالم
غرور يزيد على هذا فهذه أمثلة الغرور بالله وبيان الفرق بين الرجاء والغرور ويقرب منه غرور طوائف
لهم طاعات ومعاص الا أن معاصيهم أكثر وهم يتوقعون المغفرة ويظنون أنهم ترجح كفة حسناتهم مع
أن ما في كفة السيئات أكثر وهذا غاية الجهل فترى الواحد يتصدق بدراهم معدودة من الحلال والحرام
ويكون ما يتناول من أموال المسلمين والشبهات أضعافه ولعل ما تصدق به هو من أموال المسلمين وهو يتكل
عليه ويظن ان أكل ألف درهم حرام يقاومه التصدق بعشرة من الحرام أو الحلال وما هو الا كمن وضع عشرة
دراهم في كفة ميزان وفي الكفة الاخرى ألفا وأراد أن يرفع الكفة الثقيلة بالكفة الخفيفة وذلك غاية جهله نعم
ومنهم من يظن ان طاعاته أكثر من معاصيه لانه لا يحاسب نفسه ولا يتفقد معاصيه واذا عمل طاعة حفظها واعتد بها
كالذي يستغفر الله بلسانه أو يسبح الله في اليوم مائة مرة ثم يغتاب المسلمين ويمزق أعراضهم ويتكلم بما
لا يرضاه الله طول النهار من غير حصر وعدد ويكون نظره الى عدد سبحته انه استغفر الله مائة مرة وغفل عن هذيانه
طول نهاره الذي لو كتبه لكان مثل تسبيحه مائة مرة أو ألف مرة وقد كتبه الكرام الكاتبون وقد أوعده الله
بالعقاب على كل كلمة فقال ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد فهذا أبدا يتأمل في فضائل التسبيحات والتهليلات
ولا يلتفت الى ما ورد من عقوبة المغتابين والكذابين والنمامين والمنافقين يظهرون من الكلام ما لا يضمرونه
الى غير ذلك من آفات اللسان وذلك محض الغرور ولعمري لو كان الكرام الكاتبون يطلبون منه أجرة النسخ
لما يكتبونه من هذيانه الذي زاد على تسبيحه لكان عند ذلك يكف لسانه حتى عن جملة من مهماته وما نطق به في
فتراته كان يعده ويحسبه ويوازنه بتسبيحاته حتى لا يفضل عليه أجرة نسخه فيا عجبا لمن يحاسب نفسه ويحتاط خوفا
على قيراط يفوته في الاجرة على النسخ ولا يحتاط خوفا من فوت الفردوس الاعلى ونعيمه ما هذه الا مصيبة عظيمة
لمن تفكر فيها فقد دفعنا الى أمر ان شككنا فيه كنا من الكفرة الجاحدين وان صدقنا به كنا من الحمقى
المغرورين فما هذه أعمال من يصدق بما جاء به القرآن وانا نبرأ الى الله أن نكون من أهل الكفران فسبحان
من صدنا عن التنبه واليقين مع هذا البيان وما أجدر من يقدر على تسليط مثل هذه الغفلة والغرور على القلوب
أن يخشى ويتقى ولا يغتر به اتكالا على أباطيل المنى وتعاليل الشيطان والهوى والله أعلم

* بيان أصناف المغترين وأقسام فرق كل صنف وهم أربعة أصناف *

* الصنف الاول * أهل العلم والمغترون منهم فرق (ففرقة) أحكموا العلوم الشرعية والعقلية وتعمقوا فيها
واشتغلوا بها وأهملوا تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصي وإلزامها الطاعات واغتروا بعلمهم وظنوا أنهم عند
الله بمكان وأنهم قد بلغوا من العلم مبلغا لا يعذب الله مثلهم بل يقبل في الخلق شفاعتهم وأنه لا يطالبهم بذنوبهم
وخطاياهم لكرامتهم على الله وهم مغرورون فانهم لو نظروا بعين البصيرة علموا أن العلم علمان علم معاملة وعلم
مكاشفة وهو العلم بالله وبصفاته المسمى بالعادة علم المعرفة فأما العلم بالمعاملة كمعرفة الحلال والحرام ومعرفة
أخلاق النفس المذمومة والمحمودة وكيفية علاجها والفرار منها فهي علوم لا تراد الا للعمل ولولا الحاجة الى
العمل لم يكن لهذه العلوم قيمة وكل علم يراد للعمل فلا قيمة له دون العمل فمثال هذا كمريض به علة لا يزيلها الا دواء
مركب من أخلاط كثيرة لا يعرفها الا حذاق الاطباء فيسعى في طلب الطبيب بعد أن هاجر عن وطنه حتى عثر على
طبيب حاذق فعلمه الدواء وفصل له الاخلاط وأنواعها ومقاديرها ومعادنها التي منها تجتلب وعلمه كيفية دق كل

معجونة في طينة الآدمي ومنها الصفات المذمومة والاخلاق الرديئة ومنها الغفلة والسهو فاذا استعمل الماء وقرأ القرآن أتى بالطهرين جميعا ويذهب عنه رجز الشيطان وأثر وطأته ويحكم له بالعلم والخروج من حيز الجهل فاستعمال الطهور أمر شرعي له تأثير في تنوير القلب بازاء النوم الذي هو الحكم الطبيعي الذي له تأثير في تكدير القلب فيذهب نور هذا بظلمة ذلك ولهذا رأى بعض العلماء الوضوء مما مست النار وحكم أبو حنيفة رحمه الله بالوضوء من القهقهة في الصلاة حيث رآها حكما طبيعيا جالبا للاثم والاثم رجز من الشيطان والماء يذهب رجز الشيطان حتى كان بعضهم يتوضأ من الغيبة والكذب وعند الغضب لظهور النفس وتصرف الشيطان في هذه المواطن ولو أن

واحد منها وكيف خلطه وعجنه فتعلم ذلك وكتب منه نسخة حسنة بخط حسن ورجع الى بيته وهو يكررها ويعلمها المرضى ولم يشتغل بشربها واستعمالها أفترى أن ذلك يغني عنه من مرضه شيأ هيهات هيهات ولو كتب منه ألف نسخة وعلمه ألف مريض حتى شفي جميعهم وكرره كل ليلة ألف مرة لم يغنه ذلك من مرضه شيأ الا أن يزن الذهب ويشتري الدواء ويخلطه كما تعلم ويشربه ويصبر على مرارته ويكون شربه في وقته وبعد تقديم الاحتماء وجميع شروطه واذا فعل جميع ذلك فهو على خطر من شفائه فكيف اذا لم يشربه أصلا فمهما ظن أن ذلك يكفيه ويشفيه فقد ظهر غروره وهكذا الفقيه الذي أحكم علم الطاعات ولم يعملها وأحكم علم المعاصي ولم يجتنبها وأحكم علم الاخلاق المذمومة وما زكى نفسه منها وأحكم علم الاخلاق المحمودة ولم يتصف بها فهو مغرور اذ قال تعالى قد أفلح من زكاها ولم يقل قد أفلح من تعلم كيفية تزكيتها وكتب علم ذلك وعلمه الناس وعند هذا يقول له الشيطان لا يغرنك هذا المثال فان العلم بالدواء لا يزيل المرض وانما مطلبك القرب من الله وثوابه والعلم يجلب الثواب ويتلو عليه الاخبار الواردة في فضل العلم فان كان المسكين معتوها مغرورا وافق ذلك مراده وهواه فاطمأن اليه وأهمل العمل وان كان كيسا فيقول للشيطان أتذكرني فضائل العلم وتنسيني ما ورد في العالم الفاجر الذي لا يعمل بعلمه كقوله تعالى فمثله كمثل الكلب وكقوله تعالى مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا فأي خزي أعظم من التمثيل بالكلب والحمار وقد قال صلى الله عليه وسلم من ازداد علما ولم يزدد هدى لم يزدد من الله الا بعدا وقال أيضا يلقى العالم في النار فتندلق أقتابه فيدور بها في النار كما يدور الحمار في الرحى وكقوله عليه الصلاة والسلام شر الناس العلماء السوء وقول أبي الدرداء ويل للذي لا يعلم مرة ولو شاء الله لعلمه وويل للذي يعلم ولا يعمل سبع مرات أي ان العلم حجة عليه اذ يقال له ماذا عملت فيما علمت وكيف قضيت شكر الله قال صلى الله عليه وسلم أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه فهذا وأمثاله مما أوردناه في كتاب العلم في باب علامة علماء الآخرة أكثر من أن يحصى الا أن هذا فيما لا يوافق هوى العالم الفاجر وما ورد في فضل العلم يوافقه فيميل الشيطان قلبه الى ما يهواه وذلك عين الغرور فانه ان نظر بالبصيرة فمثاله ما ذكرناه وان نظر بعين الايمان فالذي أخبره بفضيلة العلم هو الذي أخبره بذم العلماء السوء وان حالهم عند الله أشد من حال الجهال ثم بعد ذلك اعتقاده أنه على خير مع تأكد حجة الله عليه غاية الغرور وأما الذي يدعي علوم المكاشفة كالعلم بالله وبصفاته وأسمائه وهو مع ذلك يهمل العمل ويضيع أمر الله وحدوده فغروره أشد ومثاله مثال من أراد خدمة ملك فعرف الملك وعرف أخلاقه وأوصافه ولونه وشكله وطوله وعرضه وعادته ومجلسه ولم يتعرف ما يحبه ويكرهه وما يغضب عليه وما يرضى به أو عرف ذلك الا انه قصد خدمته وهو ملابس لجميع ما يغضب به وعليه وعاطل عن جميع ما يحبه من زي وهيئة وكلام وحركة وسكون فورد على الملك وهو يريد التقرب منه والاختصاص به متلطخا بجميع ما يكرهه الملك عاطلا عن جميع ما يحبه متوسلا اليه بمعرفته له ولنسبه واسمه وبلده وصورته وشكله وعادته في سياسة غلمانه ومعاملة رعيته فهذا مغرور جدا اذ لو ترك جميع ما عرفه واشتغل بمعرفته فقط ومعرفة ما يكرهه ويحبه لكان ذلك أقرب الى نيله المراد من قربه والاختصاص به بل تقصيره في التقوى واتباعه للشهوات يدل على أنه لم ينكشف له من معرفة الله الا الاسامي دون المعاني اذ لو عرف الله حق معرفته لخشيه واتقاه فلا يتصور أن يعرف الاسد عاقل ثم لا يتقيه ولا يخافه وقد أوحى الله تعالى الى داود عليه السلام خفني كما تخاف السبع الضاري نعم من يعرف من الاسد لونه وشكله واسمه قد لا يخافه وكأنه ما عرف الاسد فمن عرف الله تعالى عرف من صفاته أنه يهلك العالمين ولا يبالي ويعلم انه مسخر في قدرة من لو أهلك مثله آلافا مؤلفة وأبد عليهم العذاب أبد الآباد لم يؤثر ذلك فيه أثرا ولم تأخذه عليه رقة ولا اعتراه عليه جزع ولذلك قال تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء وفاتحة الزبور رأس الحكمة خشية الله وقال ابن مسعود كفى بخشية الله علما وكفى بالاغترار بالله جهلا واستفتي الحسن عن مسألة فأجاب فقيل له ان فقهاءنا لا يقولون ذلك فقال وهل رأيت فقيها قط الفقيه القائم ليله الصائم نهاره الزاهد في الدنيا وقال مرة الفقيه لا يداري ولا يماري ينشر حكمة الله فان قبلت منه حمد الله وان ردت عليه حمد الله فاذا الفقيه من فقه عن

المتحفظ المراعي المراقب المحاسب كلما انطلقت النفس في مباح من كلام أو مساكنة الى مخالطة الناس أو غير ذلك مما هو بعرضة تحليل عقد العزيمة كالخوض فيما لا يعني قولا وفعلا عقب ذلك بتجديد الوضوء لتثبت القلب على طهارته ونزاهته ولكان الوضوء لصفاء البصيرة بمثابة الجفن الذي لا يزال بخفة حركته يجلو البصر وما يعقلها الا العالمون فتفكر فيما نبهتك عليه تجد بركته وأثره ولو اغتسل عند هذه المتجددات والعوارض والانتباه من النوم لكان أزيد في تنوير قلبه ولكان الاجدر أن العبد يغتسل لكل فريضة باذلا مجهوده في الاستعداد لمناجاة الله ويجدد غسل الباطن بصدق الانابة وقد قال الله تعالى منيبين اليه واتقوه وأقيموا الصلاة فقدم الانابة للدخول في

الله أمره ونهيه وعلم من صفاته ما أحبه وما كرهه وهو العالم ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين واذا لم يكن بهذه الصفة فهو من المغرورين (وفرقة أخرى) أحكموا العلم والعمل فواظبوا على الطاعات الظاهرة وتركوا المعاصي الا أنهم لم يتفقدوا قلوبهم ليمحوا عنها الصفات المذمومة عند الله من الكبر والحسد والرياء وطلب الرياسة والعلاء وارادة السوء للاقران والنظراء وطلب الشهرة في البلاد والعباد وربما لم يعرف بعضهم أن ذلك مذموم فهو مكب عليها غير متحرز عنها ولا يلتفت الى قوله صلى الله عليه وسلم أدنى الرياء شرك والى قوله عليه السلام لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر والى قوله عليه الصلاة والسلام الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب والى قوله عليه الصلاة والسلام حب الشرف والمال ينبتان النفاق كما ينبت الماء البقل الى غير ذلك من الاخبار التي أوردناها في جميع ربع المهلكات في الاخلاق المذمومة فهؤلاء زينوا ظواهرهم وأهملوا بواطنهم ونسوا قوله صلى الله عليه وسلم ان الله لا ينظر الى صوركم ولا الى أموالكم وانما ينظر الى قلوبكم وأعمالكم فتعهدوا الاعمال وما تعهدوا القلوب والقلب هو الاصل اذ لا ينجو الا من أتى الله بقلب سليم ومثال هؤلاء كبئر الحش ظاهرها جص وباطنها نتن أو كقبور الموتى ظاهرها مزين وباطنها جيفة أو كبيت مظلم باطنه وضع سراج على سطحه فاستنار ظاهره وباطنه مظلم أو كرجل قصد الملك ضيافته الى داره فجصص باب داره وترك المزابل في صدر داره ولا يخفى أن ذلك غرور بل أقرب مثال اليه رجل زرع زرعا فنبت ونبت معه حشيش يفسده فأمر بتنقية الزرع عن الحشيش بقلعه من أصله فأخذ يجز رؤسه وأطرافه فلا تزال تقوى أصوله فتنبت لان مغارس المعاصي هي الاخلاق الذميمة في القلب فمن لا يطهر القلب منها لا تتم له الطاعات الظاهرة الامع الآفات الكثيرة بل هو كمريض ظهر به الجرب وقد أمر بالطلاء وشرب الدواء فالطلاء ليزيل ما على ظاهره والدواء ليقطع مادته من باطنه فقنع بالطلاء وترك الدواء وبقي يتناول ما يزيد في المادة فلا يزال يطلي الظاهر والجرب دائم به يتفجر من المادة التي في الباطن (وفرقة أخرى) علموا أن هذه الاخلاق الباطنة مذمومة من جهة الشرع الا أنهم لعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم منفكون عنها وأنهم أرفع عند الله من أن يبتليهم بذلك وانما يبتلى به العوام دون من بلغ مبلغهم في العلم فأما هم فأعظم عند الله من أن يبتليهم ثم اذا ظهر عليهم مخايل الكبر والرياسة وطلب العلو والشرف قالوا ما هذا كبر وانما هو طلب عز الدين واظهار شرف العلم ونصرة دين الله وارغام أنف المخالفين من المبتدعين واني لو لبست الدون من الثياب وجلست في الدون من المجالس لشمت بي أعداء الدين وفرحوا بذلك وكان ذلي ذلا على الاسلام ونسي المغرور أن عدوه الذي حذره منه مولاه هو الشيطان وانه يفرح بما يفعله ويسخر به وينسى ان النبي صلى الله عليه وسلم بماذا نصر الدين وبماذا أرغم الكافرين ونسي ما روي عن الصحابة من التواضع والتبذل والقناعة بالفقر والمسكنة حتى عوتب عمر رضي الله عنه في بذاذة زيه عند قدومه الى الشام فقال انا قوم أعزنا الله بالاسلام فلا نطلب العز في غيره ثم هذا المغرور يطلب عز الدين بالثياب الرقيقة من القصب والديبقي والابريسم المحرم والخيول والمراكب ويزعم أنه يطلب به عز العلم وشرف الدين وكذلك مهما أطلق اللسان بالحسد في أقرانه أو فيمن رد عليه شيأ من كلامه لم يظن بنفسه أن ذلك حسد ولكن قال انما هذا غضب للحق ورد على المبطل في عدوانه وظلمه ولم يظن بنفسه الحسد حتى يعتقد أنه لو طعن في غيره من أهل العلم أو منع غيره من رياسة وزوحم فيها هل كان غضبه وعداوته مثل غضبه الآن فيكون غضبه لله أم لا يغضب مهما طعن في عالم آخر ومنع بل ربما يفرح به فيكون غضبه لنفسه وحسده لاقرانه من خبث باطنه وهكذا يرائي بأعماله وعلومه واذا خطر له خاطر الرياء قال هيهات انما غرضي من اظهار العلم والعمل اقتداء الخلق بي ليهتدوا الى دين الله تعالى فيتخلصوا من عقاب الله تعالى ولا يتأمل المغرور أنه ليس يفرح باقتداء الخلق بغيره كما يفرح باقتدائهم به فلو كان غرضه صلاح الخلق لفرح بصلاحهم على يد من كان كمن له عبيد مرضى يريد معالجتهم فانه لا يفرق بين أن يحصل شفاؤهم على يده أو على يد طبيب آخر وربما يذكر هذا له فلا يخليه الشيطان أيضا ويقول انما ذلك لانه اذا اهتدوا بي كان الاجر لي والثواب لي فانما فرحي بثواب الله لا بقبول الخلق قولي هذا ما يظنه بنفسه والله مطلع من ضميره على أنه لو أخبره نبي بان

الصلاة ولكن من رحمة الله تعالى وحكم الحنيفية السهلة السمحة أن رفع الحرج وعوض بالوضوء عن الغسل وجوز اداء مفترضات بوضوء واحد دفعا للحرج عن عامة الامة وللخواص وأهل العزيمة مطالبات من بواطنهم تحكم عليهم بالاولى وتلجئهم الى سلوك طريق الاعلى فاذا قام الى الصلاة وأراد استفتاح التهجد يقول الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا ويقول سبحان الله والحمد لله الكلمات عشر مرات ويقول الله أكبر ذو الملك والملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة والجلال والقدرة اللهم لك الحمد أنت نور السموات والارض ولك الحمد أنت بهاء السموات والارض ولك الحمد أنت قيوم السموات والارض ولك الحمد أنت رب السموات والارض ومن فيهن ومن

ثوابه في الخمول واخفاء العلم أكثر من ثوابه في الاظهار وحبس مع ذلك في سجن وقيد بالسلاسل لاحتال في هدم السجن وحل السلاسل حتى يرجع الى موضعه الذي به تظهر رياسته من تدريس أو وعظ أو غيره وكذلك يدخل على السلطان ويتودد اليه ويثني عليه ويتواضع له واذا خطر له أن التواضع للسلاطين الظلمة حرام قال له الشيطان هيهات انما ذلك عند الطمع في مالهم فاما أنت فغرضك أن تشفع للمسلمين وتدفع الضرر عنهم وتدفع شر أعدائك عن نفسك والله يعلم من باطنه أنه لو ظهر لبعض أقرانه قبول عند ذلك السلطان فصار يشفعه في كل مسلم حتى دفع الضرر عن جميع المسلمين ثقل ذلك عليه ولو قدر على أن يقبح حاله عند السلطان بالطعن فيه والكذب عليه لفعل وكذلك قد ينتهي غرور بعضهم الى أن يأخذ من مالهم واذا خطر له أنه حرام قال له الشيطان هذا مال لا مالك له وهو لمصالح المسلمين وأنت امام المسلمين وعالمهم وبك قوام الدين أفلا يحل لك أن تأخذ قدر حاجتك فيغتر بهذا التلبيس في ثلاثة أمور أحدها في أنه مال لا مالك له فانه يعرف أنه يأخذ الخراج من المسلمين وأهل السواد والذين أخذ منهم أحياء وأولادهم وورثتهم أحياء وغاية الامر وقوع الخلط في أموالهم ومن غصب مائة دينار من عشرة أنفس وخلطها فلا خلاف في أنه مال حرام ولا يقال هو مال لا مالك له ويجب ان يقسم بين العشرة ويرد الى كل واحد عشرة وان كان مال كل واحد قد اختلط بالآخر الثاني في قوله انك من مصالح المسلمين وبك قوام الدين ولعل الذين فسد دينهم واستحلوا أموال السلاطين ورغبوا في طلب الدنيا والاقبال على الرياسة والاعراض عن الآخرة بسببه أكثر من الذين زهدوا في الدنيا ورفضوها وأقبلوا على الله فهو على التحقيق دجال الدين وقوام مذهب الشياطين لا امام الدين اذ الامام هو الذي يقتدى به في الاعراض عن الدنيا والاقبال على الله كالانبياء عليهم السلام والصحابة وعلماء السلف والدجال هو الذي يقتدى به في الاعراض عن الله والاقبال على الدنيا فلعل موت هذا أنفع للمسلمين من حياته وهو يزعم أنه قوام الدين ومثله كما قال المسيح عليه السلام للعالم السوء انه كصخرة وقعت في فم الوادي فلا هي تشرب الماء ولا هي تترك الماء يخلص الى الزرع وأصناف غرور أهل العلم في هذه الاعصار المتأخرة خارجة عن الحصر وفيما ذكرناه تنبيه بالقليل على الكثير (وفرقة أخرى) احكموا العلم وطهروا الجوارح وزينوها بالطاعات واجتنبوا ظواهر المعاصي وتفقدوا أخلاق النفس وصفات القلب من الرياء والحسد والحقد والكبر وطلب العلو وجاهدوا أنفسهم في التبري منها وقلعوا من القلوب منابتها الجلية القوية ولكنهم بعد مغرورون اذ بقيت في زوايا القلب من خفايا مكايد الشيطان وخبايا خداع النفس مادق وغمض مدركه فلم يفطنوا لها وأهملوها وانما مثاله من يريد تنقية الزرع من الحشيش فدار عليه وفتش عن كل حشيش رآه فقلعه الا أنه لم يفتش على مالم يخرج رأسه بعد من تحت الارض وظن ان الكل قد ظهر وبرز وكان قد نبت من أصول الحشيش شعب لطاف فانبسطت تحت التراب فاهملها وهو يظن انه قد قلعها فاذا هو بها في غفلته وقد نبتت وقويت وأفسدت أصول الزرع من حيث لا يدري فكذلك العالم قد يفعل جميع ذلك ويذهل عن المراقبة للخفايا والتفقد للدفائن فتراه يسهر ليله ونهاره في جمع العلوم وترتيبها وتحسين ألفاظها وجمع التصانيف فيها وهو يرى ان باعثه الحرص على اظهار دين الله ونشر شريعته ولعل باعثه الخفي هو طلب الذكر وانتشار الصيت في الاطراف وكثرة الرحلة اليه من الآفاق وانطلاق الالسنة عليه بالثناء والمدح بالزهد والورع والعلم والتقديم له في المهمات وايثاره في الاعراض والاجتماع حوله للاستفادة والتلذذ بحسن الاصغاء عند حسن اللفظ والايراد والتمتع بتحريك الرؤس الى كلامه والبكاء عليه والتعجب منه والفرح بكثرة الاصحاب والاتباع والمستفيدين والسرور بالتخصص بهذه الخاصية من بين سائر الاقران والاشكال للجمع بين العلم والورع وظاهر الزهد والتمكن به من اطلاق لسان الطعن في الكافة المقبلين على الدنيا لا عن تفجع بمصيبة الدين ولكن عن ادلال بالتمييز واعتداد بالتخصيص ولعل هذا المسكين المغرور وحياته في الباطن بما انتظم له من أمر وامارة وعز وانقياد وتوقير وحسن ثناء فلو تغيرت عليه القلوب واعتقدوا فيه خلاف الزهد بما يظهر من أعماله فعساه يتشوش عليه قلبه ويتخلط أوراده ووظائفه وعساه يعتذر بكل حيلة لنفسه وربما يحتاج الى أن يكذب في تغطية عيبه

عليهن أنت الحق ومنك الحق ولقاؤك حق والجنة حق والنار حق والنبيون حق ومحمد عليه السلام حق اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وبك خاصمت واليك حاكمت فاغفر لي ماقدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت أنت المقدم وأنت المؤخر لا اله الا أنت اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها اللهم اهدني لاحسن الاخلاق لايهدي لاحسنها الا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها الا أنت أسألك مسئلة البائس المسكين وأدعوك دعاء الفقير الذليل فلا تجعلني بدعائك رب شقيا وكن بي رؤفا رحيما ياخير المسؤلين ويا أكرم المعطين ثم يصلي ركعتين تحية الطهارة يقرأ في الاولى بعد الفاتحة ولو أنهم اذ

وعساه يؤثر بالكرامة والمراعاة من اعتقد فيه الزهد والورع وان كان قد اعتقد فيه فوق قدره وينبو قلبه عمن
عرف حد فضله وورعه وان كان ذلك على وفق حاله وعساه يؤثر بعض أصحابه على بعض وهو يرى أنه يؤثره
لتقدمه فى الفضل والورع وانما ذلك لانه أطوع له وأتبع لمراده وأكثر ثناء عليه وأشد اصغاء اليه وأحرص على
خدمته ولعلهم يستفيدون منه ويرغبون فى العلم وهو يظن أن قبولهم له لاخلاصه وصدقه وقيامه بحق علمه
فيحمد الله تعالى على ما يسر على لسانه من منافع خلقه ويرى أن ذلك مكفر لذنوبه ولم يتفقد مع نفسه تصحيح
النية فيه وعساه لو وعد بمثل ذلك الثواب فى ايثاره الخمول والعزلة واخفاء العلم لم يرغب فيه لفقده فى العزلة
والاختفاء لذة القبول وعزة الرياسة ولعل مثل هذا هو المراد بقول الشيطان من زعم من بنى آدم انه بعلمه امتنع
منى فبجهله وقع فى حبائلى وعساه يصنف ويجتهد فيه ظانا انه يجمع علم الله لينتفع به وانما يريد به استطارة اسمه
بحسن التصنيف فلو ادعى مدع تصنيفه ومحا عنه اسمه ونسبه الى نفسه ثقل عليه ذلك مع علمه بأن ثواب الاستفادة
من التصنيف انما يرجع الى المصنف والله يعلم بأنه هو المصنف لا من ادعاه ولعله فى تصنيفه لا يخلو من الثناء
على نفسه اما صريحا بالدعاوى الطويلة العريضة واما ضمنا بالطعن فى غيره ليستبين من طعنه فى غيره انه أفضل
ممن طعن فيه وأعظم منه علما ولقد كان فى غنية عن الطعن فيه ولعله يحكى من الكلام المزيف ما يريد تزييفه
فيعزيه الى قائله وما يستحسنه فلعله لا يعزيه اليه ليظن أنه من كلامه فينقله بعينه كالسارق له أو يغيره أدنى تغيير
كالذى يسرق قميصا فيتخذه قباء حتى لا يعرف أنه مسروق ولعله يجتهد فى تزيين ألفاظه وتسجيعه وتحسين
نظمه كيلا ينسب الى الركاكة ويرى أن غرضه ترويج الحكمة وتحسينها وتزيينها ليكون أقرب الى نفع الناس
وعساه غافلا عما روى أن بعض الحكماء وضع ثلثمائة مصحف فى الحكمة فأوحى الله الى نبى زمانه قل له قد
ملأت الارض نفاقا وانى لا أقبل من نفاقك شيأ ولعل جماعة من هذا الصنف من المغترين اذا اجتمعوا ظن
كل واحد بنفسه السلامة عن عيوب القلب وخفاياه فلو افترقوا واتبع كل واحد منهم فرقة من أصحابه
نظر كل واحد الى كثرة من يتبعه وانه أكثر تبعا أو غيره فيفرح ان كان أتباعه أكثر وان علم أن غيره أحق
بكثرة الاتباع منه ثم اذا تفرقوا واشتغلوا بالافادة تغايروا وتحاسدوا ولعل من يختلف الى واحد منهم اذا انقطع
عنه الى غيره ثقل على قلبه ووجد فى نفسه نفرة منه فبعد ذلك لا يهتز باطنه لاكرامه ولا يتشمر لقضاء حوائجه
كما كان يتشمر من قبل ولا يحرص على الثناء عليه كما أثنى مع علمه بانه مشغول بالاستفادة ولعل التحيز منه
الى فئة أخرى كان أنفع له فى دينه لآفة من الآفات كانت تلحقه فى هذه الفئة وسلامته عنها فى تلك الفئة
ومع ذلك لا تزول النفرة عن قلبه ولعل واحدا منهم اذا تحركت فيه مبادى الحسد لم يقدر على اظهاره فيتعلل
بالطعن فى دينه وفى ورعه ليحمل غضبه على ذلك ويقول انما غضبت لدين الله لا لنفسى ومهما ذكرت عيوبه
بين يديه ربما فرح له وان أثنى عليه ربما ساءه وكرهه وربما قطب وجهه اذا ذكرت عيوبه يظهر أنه كاره
لغيبة المسلمين وسر قلبه راض به ومريد له والله مطلع عليه فى ذلك فهذا وأمثاله من خفايا القلوب لا يفطن له الا
الاكياس ولا يتنزه عنه الا الاقوياء ولا مطمع فيه لامثالنا من الضعفاء الا أن أقل الدرجات أن يعرف الانسان
عيوب نفسه ويسوؤه ذلك ويكرهه ويحرص على اصلاحه فاذا أراد الله بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه ومن سرته
حسنته وساءته سيئته فهو مرجو الحال وأمره أقرب من المغرور المزكى لنفسه الممتن على الله بعمله وعلمه الظان
أنه من خيار خلقه فنعوذ بالله من الغفلة والاغترار ومن المعرفة بخفايا العيوب مع الاهمال هذا غرور الذين
حصلوا العلوم المهمة ولكن قصروا فى العمل بالعلم ولنذكر الآن غرور الذين قنعوا من العلوم بما لم يهمهم
وتركوا المهم وهم به مغترون اما لاستغنائهم عن أصل ذلك العلم واما لاقتصارهم عليه (فمنهم فرقة) اقتصروا
على علم الفتاوى فى الحكومات والخصومات وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لمصالح العباد
وخصصوا اسم الفقه بها وسموه الفقه وعلم المذهب وربما ضيعوا مع ذلك الاعمال الظاهرة والباطنة فلم يتفقدوا
الجوارح ولم يحرسوا اللسان عن الغيبة ولا البطن عن الحرام ولا الرجل عن المشى الى السلاطين وكذا سائر
الجوارح ولم يحرسوا قلوبهم عن الكبر والحسد والرياء وسائر المهلكات فهؤلاء مغرورون من وجهين أحدهما

ظلموا أنفسهم الآية
وفى الثانية ومن يعمل
سوأ أو يظلم نفسه ثم
يستغفر الله يجد الله
غفورا رحيما ويستغفر
بعد الركعتين مرات ثم
يستفتح الصلاة بركعتين
خفيفتين ان أراد
يقرأ فيهما بآية
الكرسى وآمن الرسول
وان أراد غير ذلك ثم
يصلى ركعتين طويلتين
هكذا روى عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم
أنه كان يتهجد
هكذا ثم يصلى ركعتين
طويلتين أقصر من
الاولين وهكذا يتدرج
الى أن يصلى اثنتى عشرة
ركعة أو ثمان ركعات
أو يزيد على ذلك فان
فى ذلك فضلا كثيرا والله
أعلم

﴿ الباب الثامن والاربعون فى تقسيم قيام الليل ﴾

قال الله تعالى والذين
يبيتون لربهم سجدا
وقياما وقيل فى تفسير
قوله تعالى فلا تعلم نفس
ما أخفى لهم من قرة
أعين جزاء بما كانوا

من حيث العمل والآخر من حيث العلم أما العمل فقد ذكرنا وجه الغرور فيه وان مثالهم مثال المريض اذا تعلم
نسخة الدواء واشتغل بتكراره وتعليمه لا بل مثالهم مثال من به علة البواسير والبرسام وهو مشرف على الهلاك
ومحتاج الى تعلم الدواء واستعماله فاشتغل بتعلم دواء الاستحاضة وبتكرار ذلك ليلا ونهارا مع علمه بانه رجل
لا يحيض ولا يستحاض ولكن يقول ربما تقع علة الاستحاضة لامرأة وتسألني عن ذلك وذلك غاية الغرور
فكذلك المتفقه المسكين قد يسلط عليه حب الدنيا واتباع الشهوات والحسد والكبر والرياء وسائر المهلكات
الباطنة وربما يختطفه الموت قبل التوبة والتلافي فيلقى الله وهو عليه غضبان فترك ذلك كله واشتغل بعلم السلم
والاجارة والظهار واللعان والجراحات والديات والدعاوى والبينات وبكتاب الحيض وهو لا يحتاج الى شئ
من ذلك قط في عمره لنفسه واذا احتاج غيره كان في المفتين كثرة فيشتغل بذلك ويحرص عليه لما فيه من الجاه
والرياسة والمال وقد دهاه الشيطان وما يشعر اذ يظن المغرور بنفسه أنه مشغول بفرض دينه وليس يدرى
أن الاشتغال بفرض الكفاية قبل الفراغ من فرض العين معصية هذا لو كانت نيته صحيحة كما قال وقد كان قصد
بالفقه وجه الله تعالى فانه وان قصد وجه الله فهو باشتغاله به معرض عن فرض عينه في جوارحه وقلبه فهذا
غروره من حيث العمل وأما غروره من حيث العلم فحيث اقتصر على علم الفتاوى وظن أنه علم الدين وترك علم
كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وربما طعن في المحدثين وقال انهم نقلة أخبار وحملة أسفار
لا يفقهون وترك أيضا علم تهذيب الاخلاق وترك الفقه عن الله تعالى بادراك جلاله وعظمته وهو العلم الذى
يورث الخوف والهيبة والخشوع ويحمل على التقوى فتراه آمنا من الله مغترا به متكلا على أنه لا بد وأن يرحمه
فانه قوام دينه وانه لو لم يشتغل بالفتاوى لتعطل الحلال والحرام فقد ترك العلوم التى هى أهم وهو غافل مغرور
وسبب غروره ما سمع فى الشرع من تعظيم الفقه ولم يدر أن ذلك الفقه هو الفقه عن الله ومعرفة صفاته المخوفة
والمرجوة ليستشعر القلب الخوف ويلازم التقوى اذ قال تعالى فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا
فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون والذى يحصل به الانذار غير هذا العلم فان مقصود هذا
العلم حفظ الاموال بشروط المعاملات وحفظ الابدان بالاموال وبدفع القتل والجراحات والمال فى طريق الله
آلة والبدن مركب وانما العلم المهم هو معرفة سلوك الطريق وقطع عقبات القلب التى هى الصفات المذمومة فهى
الحجاب بين العبد وبين الله تعالى واذا مات ملوثا بتلك الصفات كان محجوبا عن الله فمثاله فى الاقتصار
على علم الفقه مثال من اقتصر من سلوك طريق الحج على علم خرز الراوية والخف ولا شك أنه
لو لم يكن لتعطل الحج ولكن المقتصر عليه ليس من الحج فى شئ ولا بسبيله وقد ذكرنا شرح ذلك فى كتاب
العلم ومن هؤلاء من اقتصر من علم الفقه على الخلافيات ولم يهمه الا تعلم طريق المجادلة والالزام
وافحام الخصوم ودفع الحق لاجل الغلبة والمباهاة فهو طول الليل والنهار فى التفتيش عن مناقضات
أرباب المذاهب والتفقد لعيوب الاقران والتلقف لانواع التسبيبات المؤذية وهؤلاء هم سباع الانس
طبعهم الايذاء وهمهم السفه ولا يقصدون العلم الا لضرورة ما يلزمهم لمباهاة الاقران فكل علم لا يحتاجون
اليه فى المباهاة كعلم القلب وعلوم سلوك الطريق الى الله تعالى بمحو الصفات المذمومة وتبديلها
بالمحمودة فانهم يستحقرونه ويسمونه التزويق وكلام الوعاظ وانما التحقيق عندهم معرفة تفاصيل العربدة
التى تجرى بين المتصارعين فى الجدل وهؤلاء قد جمعوا ما جمعه الذين من قبلهم فى علم الفتاوى لكن زادوا اذ
اشتغلوا بما ليس من فروض الكفايات أيضا بل جميع دقائق الجدل فى الفقه بدعة لم يعرفها السلف وأما أدلة الاحكام
فيشتمل عليها علم المذهب وهو كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وفهم معانيهما وأما حيل الجدل من
الكسر والقلب وفساد الوضع والتركيب والتعدية فانما ابدعت لاظهار الغلبة والافحام واقامة سوق الجدل بها
فغرور هؤلاء أشد كثيرا وأقبح من غرور من قبلهم (وفرقة أخرى) اشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة فى الاهواء
والرد على المخالفين وتتبع مناقضاتهم واستكثروا من معرفة المقالات المختلفة واشتغلوا بتعلم الطرق فى مناظرة
أولئك وافحامهم وافترقوا فى ذلك فرقا كثيرة واعتقدوا أنه لا يكون لعبد عمل الا بايمان ولا يصح ايمان الا بان
يتعلم جدلهم وما سموه أدلة عقائدهم وظنوا أنه لا أحد أعرف بالله وبصفاته منهم وانه لا ايمان لمن لم يعتقد مذهبهم

يعملون كان عملهم
قيام الليل وقيل فى تفسير
قوله تعالى استعينوا
بالصبر والصلاة
استعينوا بصلاة الليل
على مجاهدة النفس
ومصابرة العدو (وفى
الخبر) عليكم بقيام
الليل فانه مرضاة لربكم
وهو دأب الصالحين
قبلكم ومنهاة عن الاثم
وملفاة للوزر ومذهب
كيد الشيطان ومطردة
للداء عن الجسد (وقد
كان) جمع من
الصالحين يقومون
الليل كله حتى نقل ذلك
عن أربعين من التابعين
كانوا يصلون الغداة
بوضوء العشاء منهم
سعيد بن المسيب وفضيل
ابن عياض ووهيب بن
الورد وأبو سليمان
الدارانى وعلى بن بكار
وحبيب العجمى
وكهمس بن المنهال وأبو
حازم ومحمد بن المنكدر
وأبو حنيفة رحمه الله
وغيرهم عدهم وسماهم
بانسابهم الشيخ أبو
طالب المكى فى كتابه
قوت القلوب فمن عجز عن

ولم يتعلم علمهم ودعت كل فرقة منهم الى نفسها ثم هم فرقتان ضالة ومحقة فالضالة هي التي تدعو الى غير
السنة والمحقة هي التي تدعو الى السنة والغرور شامل لجميعهم * أما الضالة فلغفلتها عن ضلالها وظنها
بنفسها النجاة وهم فرق كثيرة يكفر بعضهم بعضا وانما أتيت من حيث انها لم تتهم رأيها ولم تحكم أولا شروط
الادلة ومنهاجها فرأى أحدهم الشبهة دليلا والدليل شبهة * وأما الفرقة المحقة فانما اغترارها من حيث انها
ظنت بالجدل انه أهم الامور وأفضل القربات في دين الله وزعمت أنه لا يتم لاحد دينه ما لم يفحص ويبحث
وأن من صدق الله ورسوله من غير بحث وتحرير دليل فليس بمؤمن أو ليس بكامل الايمان ولا مقرب عند
الله فلهذا الظن الفاسد قطعت أعمارها في تعلم الجدل والبحث عن المقالات وهذيانات المبتدعة ومناقضاتهم
وأهملوا أنفسهم وقلوبهم حتى عميت عليهم ذنوبهم وخطاياهم الظاهرة والباطنة وأحدهم يظن أن اشتغاله
بالجدل أولى وأقرب عند الله وأفضل ولكنه لالتذاذه بالغلبة والافحام ولذة الرياسة وعز الانتماء الى الذب عن
دين الله تعالى عميت بصيرته فلم يلتفت الى القرن الاول فان النبي صلى الله عليه وسلم شهد لهم بانهم خير الخلق وأنهم
قد أدركوا كثيرا من أهل البدع والهوى فما جعلوا أعمارهم ودينهم غرضا للخصومات والمجادلات وما اشتغلوا
بذلك عن تفقد قلوبهم وجوارحهم وأحوالهم بل لم يتكلموا فيه الا من حيث رأوا حاجة وتوسموا مخايل قبول
فذكروا بقدر الحاجة ما يدل الضال على ضلالته واذا رأوا مصرا على ضلالة هجروه وأعرضوا عنه
وأبغضوه في الله ولم يلزموا الملاحاة معه طول العمر بل قالوا ان الحق هو الدعوة الى السنة ومن السنة ترك الجدل
في الدعوة الى السنة اذ روى أبو أمامة الباهلي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما ضل قوم قط بعد هدى كانوا
عليه الا أوتوا الجدل وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما على أصحابه وهم يتجادلون ويختصمون فغضب
عليهم حتى كأنه فقئ في وجهه حب الرمان حمرة من الغضب فقال ألهذا بعثتم أبهذا أمرتم أن تضربوا كتاب الله
بعضه ببعض انظروا الى ما أمرتم به فاعملوا وما نهيتم عنه فانتهوا فقد زجرهم عن ذلك وكانوا أولى خلق الله
بالحجاج والجدال ثم انهم رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد بعث الى كافة أهل الملل فلم يقعد معهم في مجلس
مجادلة لالزام وافحام وتحقيق حجة ودفع سؤال وايراد الزام فما جادلهم الا بتلاوة القرآن المنزل عليهم ولم يزد في المجادلة
عليه لان ذلك يشوش القلوب ويستخرج منها الاشكالات والشبه ثم لا يقدر على محوها من قلوبهم وما كان
يعجز عن مجادلتهم بالتقسيمات ودقائق الاقيسة وأن يعلم أصحابه كيفية الجدل والالزام ولكن الاكياس وأهل
الحزم لم يغتروا بهذا وقالوا لو نجا أهل الارض وهلكنا لم تنفعنا نجاتهم ولو نجونا وهلكوا لم يضرنا هلاكهم وليس
علينا في المجادلة أكثر مما كان على الصحابة مع اليهود والنصارى وأهل الملل وما ضيعوا العمر بتحرير مجادلاتهم
فما لنا نضيع العمر ولا نصرفه الى ما ينفعنا في يوم فقرنا وفاقتنا ولم نخوض فيما لا نأمن على نفسنا الخطأ في
تفاصيله ثم نرى أن المبتدع ليس يترك بدعته بجداله بل يزيده التعصب والخصومة تشددا في بدعته فاشتغالي
بمخاصمة نفسي ومجادلتها ومجاهدتها لتترك الدنيا للآخرة أولى هذا لو كنت لم أنه عن الجدل والخصومة فكيف
وقد نهيت عنه وكيف أدعو الى السنة بترك السنة فالاولى أن أتفقد نفسي وأنظر من صفاتها ما يبغضه الله تعالى
وما يحبه لاتنزه عما يبغضه وأتمسك بما يحبه (وفرقة أخرى) اشتغلوا بالوعظ والتذكير وأعلاهم رتبة من يتكلم في
أخلاق النفس وصفات القلب من الخوف والرجاء والصبر والشكر والتوكل والزهد واليقين والاخلاص
والصدق ونظائره وهم مغرورون يظنون بانفسهم أنهم اذا تكلموا بهذه الصفات ودعوا الخلق اليها فقد
صاروا موصوفين بهذه الصفات وهم منفكون عنها عند الله الا عن قدر يسير لا ينفك عنه عوام المسلمين
وغرور هؤلاء أشد الغرور لانهم يعجبون بانفسهم غاية الاعجاب ويظنون أنهم ما تبحروا في علم المحبة الا وهم
محبون لله وما قدروا على تحقيق دقائق الاخلاص الا وهم مخلصون وما وقفوا على خفايا عيوب النفس الا وهم
عنها منزهون ولولا أنه مقرب عند الله لما عرفه معنى القرب والبعد وعلم السلوك الى الله وكيفية قطع المنازل
في طريق الله فالمسكين بهذه الظنون يرى أنه من الخائفين وهو آمن من الله تعالى ويرى أنه من الراجين وهو
من المغترين المضيعين ويرى أنه من الراضين بقضاء الله وهو من الساخطين ويرى أنه من المتوكلين على الله
وهو من المتكلين على العز والجاه والمال والاسباب ويرى أنه من المخلصين وهو من المرائين بل يصف

ذلك يستحب له قيام
ثلثيه أو ثلثه وأقل
الاستحباب سدس
الليل فاما أن ينام ثلث
الليل الاول ويقوم
نصفه وينام سدسه
الآخر أو ينام النصف
الاول ويقوم ثلثه
وينام السدس (وروى)
ان داود عليه السلام
قال يارب انى أحب أن
أتعبد لك فاى وقت
أقوم فاوحى الله تعالى
اليه ياداود لاتقم أول
الليل ولا آخره فانه من
قام أوله نام آخره ومن
قام آخره نام أوله ولكن
قم وسط الليل حتى
تخلو بي وأخلو بك وارفع
الى حوائجك ويكون
القيام بين نومتين والا
فيغالب النفس من
أول الليل ويتنفل فاذا
غلبه النوم ينام فاذا
انتبه يتوضأ فيكون
له قومان ونومتان
ويكون ذلك من أفضل
ما يفعله ولا يصلي وعنده
نوم يشغله عن الصلاة
والتلاوة حتى يعقل
ما يقول (وقد ورد)
لاتكابدوا الليل (وقيل)

الاخلاص فيترك الاخلاص فى الوصف و يصف الرياء و يذكره وهو يرائى بذكره ليعتقد فيه أنه لولا انه مخلص لما اهتدى الى دقائق الرياء و يصف الزهد فى الدنيا لشدة حرصه على الدنيا وقوة رغبته فيها فهو يظهر الدعاء الى الله وهو منه فار و يخوف بالله تعالى وهو منه آمن و يذكر بالله تعالى وهو له ناس و يقرب الى الله تعالى وهو منه متباعد و يحث على الاخلاص وهو غير مخلص و يذم الصفات المذمومة وهو بها متصف و يصرف الناس عن الخلق وهو على الخلق أشد حرصا ولو منع عن مجلسه الذى يدعو الناس فيه الى الله لضاقت عليه الارض بما رحبت و يزعم أن غرضه اصلاح الخلق ولو ظهر من أقرانه من أقبل الخلق عليه وصلحوا على يديه لمات غما وحسدا ولو أثنى أحد من المترددين اليه على بعض أقرانه لكان أبغض خلق الله اليه فهؤلاء أعظم الناس غرة وأبعدهم عن التنبه والرجوع الى السداد لان المرغب فى الاخلاق المحمودة والمنفر عن المذمومة هو العلم بغوائلها وفوائدها وهذا قد علم ذلك ولم ينفعه وشغله حب دعوة الخلق عن العمل به فبعد ذلك بماذا يعالج وكيف سبيل تخويفه وانما المخوف ما يتلوه على عباد الله فيخافون وهو ليس بخائف نعم ان ظن بنفسه أنه موصوف بهذه الصفات المحمودة يمكن ان يدل على طريق الامتحان والتجربة وهو أن يدعي مثلا حب الله فالذى تركه من محاب نفسه لاجله و يدعي الخوف فالذى امتنع منه بالخوف و يدعي الزهد فالذى تركه مع القدرة عليه لوجه الله تعالى و يدعي الانس بالله فمتى طابت له الخلوة ومتى استوحش من مشاهدة الخلق لا بل يرى قلبه يمتلئ بالحلاوة اذا أحدق به المريدون وتراه يستوحش اذا خلا بالله تعالى فهل رأيت محبا يستوحش من محبوبه و يستروح منه الى غيره فالاكياس يمتحنون أنفسهم بهذه الصفات و يطالبونها بالحقيقة ولا يقنعون منها بالتزويق بل بموثق من الله غليظ والمغترون يحسنون بانفسهم الظنون واذا كشف الغطاء عنهم فى الآخرة يفتضحون بل يطرحون فى النار فتندلق أقتابهم فيدور بها أحدهم كما يدور الحمار بالرحى كما ورد به الخبر لانهم يأمرون بالخير ولا يأتونه و ينهون عن الشر و يأتونه وانما وقع الغرور لهؤلاء من حيث انهم يصادفون فى قلوبهم شيأ ضعيفا من أصول هذه المعانى وهو حب الله والخوف منه والرضا بفعله ثم قدروا مع ذلك على وصف المنازل العالية فى هذه المعانى فظنوا انهم ما قدروا على وصف ذلك وما رزقهم الله علمه وما نفع الناس بكلامهم فيها الا لاتصافهم بها وذهب عليهم ان القبول للكلام والكلام للمعرفة وجريان اللسان والمعرفة للعلم وان كل ذلك غير الاتصاف بالصفة فلم يفارق آحاد المسلمين فى الاتصاف بصفة الحب والخوف بل فى القدرة على الوصف بل ربما زاد أمنه وقل خوفه وظهر الى الخلق ميله وضعف فى قلبه حب الله تعالى وانما مثاله مثال مريض يصف المرض و يصف دواءه بفصاحته و يصف الصحة والشفاء وغيره من المرضى لا يقدر على وصف الصحة والشفاء وأسبابه ودرجاته وأصنافه فهو لا يفارقهم فى صفة المرض والاتصاف به وانما يفارقهم فى الوصف والعلم بالطب فظنه عند علمه بحقيقة الصحة أنه صحيح غاية الجهل فكذلك العلم بالخوف والحب والتوكل والزهد وسائر هذه الصفات غير الاتصاف بحقائقها ومن التبس عليه وصف الحقائق بالاتصاف بالحقائق فهو مغرور فهذه حالة الوعاظ الذين لا عيب فى كلامهم بل منهاج وعظهم منهاج وعظ القرآن والاخبار و وعظ الحسن البصرى وأمثاله رحمة الله عليهم (وفرقة أخرى) منهم عدلوا عن المنهاج الواجب فى الوعظ وهم وعاظ أهل هذا الزمان كافة الا من عصمه الله على الندور فى بعض أطراف البلاد ان كان ولسنا نعرفه فاشتغلوا بالطامات والشطح وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع والعقل طلبا للاغراض وطائفة شغفوا بطيارات النكت وتسجيع الالفاظ وتلفيقها فاكثر همهم بالاسجاع والاستشهاد باشعار الوصال والفراق وغرضهم أن تكثر فى مجالسهم الزعقات والتواجد ولو على أغراض فاسدة فهؤلاء شياطين الانس ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل فان الاولين وان لم يصلحوا أنفسهم فقد أصلحوا غيرهم وصححوا كلامهم ووعظهم وأما هؤلاء فانهم يصدون عن سبيل الله ويجرون الخلق الى الغرور بالله بلفظ الرجاء فيزيدهم كلامهم جراءة على المعاصى و رغبة فى الدنيا لا سيما اذا كان الواعظ متزينا بالثياب والخيل والمراكب فانه تشهد هيئته من فرقه الى قدمه بشدة حرصه على الدنيا فما يفسده هذا المغرور أكثر مما يصلحه بل لا يصلح أصلا و يضل خلقا كثيرا ولا يخفى وجه كونه مغرورا (وفرقة أخرى) منهم قنعوا بحفظ كلام الزهاد وأحاديثهم فى ذم

لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان فلانة تصلى من الليل فاذا غلبها النوم تعلقت بحبل فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال ليصل أحدكم من الليل ما تيسر فاذا غلبه النوم فليتم (وقال عليه السلام) لا تشادوا هذا الدين فانه متين فمن يشاده يغلبه ولا تبغض الى نفسك عبادة الله ولا يليق بالطالب ولا ينبغى له أن يطلع الفجر وهو نائم الا أن يكون قد سبق له فى الليل قيام طويل فيعذر فى ذلك على أنه اذا استيقظ قبل الفجر بساعة مع قيام قليل سبق فى الليل يكون أفضل من قيام طويل ثم النوم الى بعد طلوع الفجر فاذا استيقظ قبل الفجر يكثر الاستغفار والتسبيح ويغتنم تلك الساعة وكلما صلى بالليل يجلس قليلا بعد كل ركعتين و يسبح و يستغفر و يصلى على رسول الله

الدنيافهم يحفظون الكلمات على وجهها و يؤدونها من غير احاطة بمعانيها فبعضهم يفعل ذلك على المنابر و بعضهم فى المحاريب و بعضهم فى الاسواق مع الجلساء وكل منهم يظن أنه اذا تميز بهذا القدر عن السوقة والجندية اذحفظ كلام الزهاد وأهل الدين دونهم فقد أفلح ونال الغرض وصار مغفورا له وأمن عقاب الله من غير أن يحفظ ظاهره و باطنه عن الآثام ولكنه يظن ان حفظه لكلام أهل الدين يكفيه وغرورهؤلاء أظهر من غرور من قبلهم (وفرقة أخرى) استغرقوا أوقاتهم فى علم الحديث أعنى فى سماعه وجمع الروايات الكثيرة منه وطلب الاسانيد الغريبة العالية فهمة أحدهم أن يدور فى البلاد ويرى الشيوخ ليقول أنا أروى عن فلان ولقد رأيت فلانا ومعى من الاسناد ماليس مع غيرى وغرورهم من وجوه منها أنهم كحملة الاسفار فانهم لا يصرفون العناية الى فهم معانى السنة ففهمهم قاصر وليس معهم الا النقل و يظنون أن ذلك يكفيهم ومنها أنهم اذا لم يفهموا معانيها لا يعملون بها وقد يفهمون بعضها أيضا ولا يعملون به ومنها أنهم يتركون العلم الذى هو فرض عين وهو معرفة علاج القلب و يشتغلون بتكثير الاسانيد وطلب العالى منها ولا حاجة بهم الى شئ من ذلك ومنها وهو الذى أكب عليه أهل الزمان أنهم أيضا لا يقومون بشرط السماع فان السماع بمجرده وان لم تكن له فائدة ولكنه مهم فى نفسه للوصول الى اثبات الحديث اذ التفهم بعد الاثبات والعمل بعد التفهم فالاول السماع ثم التفهم ثم الحفظ ثم العمل ثم النشر وهؤلاء اقتصروا من الجملة على السماع ثم تركوا حقيقة السماع فترى الصبى يحضر فى مجلس الشيخ والحديث يقرأ والشيخ ينام والصبى يلعب ثم يكتب اسم الصبى فى السماع فاذا كبر تصدى ليسمع منه والبالغ الذى يحضر ربما يغفل ولا يسمع ولا يصغى ولا يضبط وربما يشتغل بحديث أو نسخ والشيخ الذى يقرأ عليه لو صحف وغير مايقرأ عليه لم يشعر به ولم يعرفه وكل ذلك جهل وغرور اذ الاصل فى الحديث أن يسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيحفظه كما سمعه ويرويه كما حفظه فتكون الرواية عن الحفظ والحفظ عن السماع فان عجزت عن سماعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعته من الصحابة أو التابعين وصار سماعك عن الراوى كسماع من سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أن تصغى لتسمع فتحفظ وتروى كما حفظت وتحفظ كما سمعت بحيث لا تغير منه حرفا ولو غير غيرك منه حرفا وأخطأ علمت خطأه ولحفظك طريقان * أحدهما أن تحفظ بالقلب وتستديمه بالذكر والتكرار كما تحفظ ماجرى على سمعك فى مجارى الاحوال * والثانى أن تكتب كما تسمع وتصحح المكتوب وتحفظه حتى لا تصل اليه يد من يغيره و يكون حفظك للكتاب معك وفى خزانتك فانه لو امتدت اليه يد غيرك ربما غيره فاذا لم تحفظه لم تشعر بتغييره فيكون محفوظا بقلبك أو بكتابك فيكون كتابك مذكرا لما سمعته وتأمن فيه من التغيير والتحريف فاذا لم تحفظ لا بالقلب ولا بالكتاب وجرى على سمعك صوت غفل وفارقت المجلس ثم رأيت نسخة لذلك الشيخ وجوزت أن يكون مافيه مغيرا أو يفارق حرف منه للنسخة التى سمعتها لم يجز لك أن تقول سمعت هذا الكتاب فانك لا تدرى لعلك لم تسمع مافيه بل سمعت شيأ يخالف مافيه ولو فى كلمة فاذا لم يكن معك حفظ بقلبك ولا نسخة صحيحة استوثقت عليها التقابل بها فمن أين تعلم أنك سمعت ذلك وقد قال الله تعالى ولا تقف ماليس لك به علم وقول الشيوخ كلهم فى هذا الزمان انا سمعنا مافى هذا الكتاب اذا لم يوجد الشرط الذى ذكرناه فهو كذب صريح وأقل شروط السماع ان يجرى الجميع على السمع مع نوع من الحفظ يشعر معه بالتغيير ولو جاز ان يكتب سماع الصبى والغافل والنائم والذى ينسخ لجاز أن يكتب سماع المجنون والصبى فى المهد ثم اذا بلغ الصبى وأفاق المجنون يسمع عليه ولا خلاف فى عدم جوازه ولو جاز ذلك لجاز أن يكتب سماع الجنين فى البطن فان كان لا يكتب سماع الصبى فى المهد لانه لا يفهم ولا يحفظ فالصبى الذى يلعب والغافل والمشغول بالنسخ عن السماع ليس يفهم ولا يحفظ وان استجرأ جاهل فقال يكتب سماع الصبى فى المهد فليكتب سماع الجنين فى البطن فان فرق بينهما بان الجنين لا يسمع الصوت وهذا يسمع الصوت فما ينفع هذا وهو انما ينقل الحديث دون الصوت فليقتصر اذا صار شيخا على أن يقول سمعت بعد بلوغى أنى فى صباى حضرت مجلسا يروى فيه حديث كان يقرع سمعى صوته ولا أدرى ماهو فلا خلاف فى أن الرواية كذلك لا تصح ومازاد عليه فهو كذب صريح ولو جاز اثبات سماع التركى الذى

صلى الله عليه وسلم فانه يجد بذلك ترويحا وقوة على القيام وقد كان بعض الصالحين يقول هى أول نومة فان انتبهت ثم عدت الى نومة أخرى فلا أنام الله عينى (وحكى) لى بعض الفقراء عن شيخ له أنه كان يامر الاصحاب بنومة واحدة بالليل وأكلة واحدة لليوم والليلة (وقد جاء) فى الخبر قم من الليل ولو قدر حلب شاة وقيل يكون ذلك قدر أربع ركعات وقدر ركعتين (وقيل) فى تفسير قوله تعالى تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء هو قيام الليل ومن حرم قيام الليل كسلا وفتورا فى العزيمة أو تهاونا به لقلة الاعتداد بذلك أو اغترارا بحاله فليبك عليه فقد قطع عليه طريق كبير من الخير وقد يكون من أرباب الاحوال من يكون له ايواء الى القرب

لايفهم العربية لانه سمع صوتا غفلا لجاز اثبات سماع صبي في المهد وذلك غاية الجهل ومن أين يؤخذ هذا وهل للسماع مستند الاقول رسول الله صلى الله عليه وسلم نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فاداها كما سمعها وكيف يؤدي كما سمع من لايدري ماسمع فهذا أفحش أنواع الغرور وقد بلي بهذا أهل الزمان ولو احتاط أهل الزمان لم يجدوا شيوخا الا الذين سمعوه في الصبا على هذا الوجه مع الغفلة الا أن المحدثين في ذلك جاها وقبولا فخاف المساكين أن يشترطوا ذلك فيقل من يجتمع لذلك في حلقهم فينقص جاههم وتقل أيضا أحاديثهم التي قد سمعوها بهذا الشرط بل ربما عدموا ذلك وافتضحوا فاصطلحوا على أنه ليس يشترط الا أن يقرع سمعه دمدمة وان كان لايدري مايجري وصحة السماع لاتعرف من قول المحدثين لانه ليس من علمهم بل من علم علماء الاصول بالفقه وما ذكرناه مقطوع به في قوانين أصول الفقه فهذا غرور هؤلاء ولو سمعوا على الشرط لكانوا أيضا مغرورين في اقتصارهم على النقل وفي افنائهم أعمارهم في جمع الروايات والاسانيد واعراضهم عن مهمات الدين ومعرفة معاني الاخبار بل الذي يقصد من الحديث سلوك طريق الآخرة ربما يكفيه الحديث الواحد عمره كما روي عن بعض الشيوخ انه حضر مجالس السماع فكان أول حديث روي قوله عليه الصلاة والسلام من حسن اسلام المرء تركه مالايعنيه فقام وقال يكفيني هذا حتى أفرغ منه ثم أسمع غيره فهكذا يكون سماع الاكياس الذين يحذرون الغرور (وفرقة أخرى) اشتغلوا بعلم النحو واللغة والشعر وغريب اللغة واغتروا به وزعموا أنهم قد غفر لهم وأنهم من علماء الامة اذ قوام الدين بالكتاب والسنة وقوام الكتاب والسنة بعلم اللغة والنحو فافنى هؤلاء أعمارهم في دقائق النحو وفي صناعة الشعر وفي غريب اللغة ومثالهم كمن يفني جميع العمر في تعلم الخط وتصحيح الحروف وتحسينها ويزعم أن العلوم لايمكن حفظها الا بالكتابة فلابد من تعلمها وتصحيحها ولو عقل لعلم أنه يكفيه أن يتعلم أصل الخط بحيث يمكن أن يقرأ كيفما كان والباقي زيادة على الكفاية وكذلك الاديب لو عقل لعرف ان لغة العرب كلغة الترك والمضيع عمره في معرفة لغة العرب كالمضيع له في معرفة لغة الترك والهند وانما فارقتها لغة العرب لاجل ورود الشريعة بها فيكفي من اللغة علم الغريبين في الاحاديث والكتاب ومن النحو مايتعلق بالحديث والكتاب فاما التعمق فيه الى درجات لاتتناهى فهو فضول مستغنى عنه ثم لو اقتصر عليه وأعرض عن معرفة معاني الشريعة والعمل بها فهذا أيضا مغرور بل مثاله مثال من ضيع عمره في تصحيح مخارج الحروف في القرآن واقتصر عليه وهو غرور اذ المقصود من الحروف المعاني وانما الحروف ظروف وأدوات ومن احتاج الى أن يشرب السكنجبين ليزول مابه من الصفراء وضيع أوقاته في تحسين القدح الذي يشرب فيه السكنجبين فهو من الجهال المغرورين فكذلك غرور أهل النحو واللغة والادب والقراآت والتدقيق في مخارج الحروف مهما تعمقوا فيها وتجردوا لها وعرجوا عليها أكثر مما يحتاج اليه في تعلم العلوم التي هي فرض عين فاللب الاقصى هو العمل والذي فوقه هو معرفة العمل وهو كالقشر للعمل وكاللب بالاضافة الى مافوقه ومافوقه هو سماع الالفاظ وحفظها بطريق الرواية وهو قشر بطريق الاضافة الى المعرفة ولب بالاضافة الى مافوقه ومافوقه هو العلم باللغة والنحو وفوق ذلك وهو القشر الاعلى العلم بمخارج الحروف والقانعون بهذه الدرجات كلهم مغترون الا من اتخذ هذه الدرجات منازل فلم يعرج عليها الا بقدر حاجته فتجاوز الى ماوراء ذلك حتى وصل الى لباب العمل فطالب بحقيقة العمل قلبه وجوارحه وزجى عمره في حمل النفس عليه وتصحيح الاعمال وتصفيتها عن الشوائب والآفات فهذا هو المقصود المخدوم من جملة علوم الشرع وسائر العلوم خدم له ووسائل اليه وقشور له ومنازل بالاضافة اليه وكل من لم يبلغ المقصد فقد خاب سواء كان في المنزل القريب أو في المنزل البعيد وهذه العلوم لما كانت متعلقة بعلوم الشرع اغتر بها أربابها فاما علم الطب والحساب والصناعات ومايعلم أنه ليس من علوم الشرع فلايعتقد أصحابها أنهم ينالون المغفرة بها من حيث انها علوم فكان الغرور بها أقل من الغرور بعلوم الشرع لان العلوم الشرعية مشتركة في أنها محمودة كما يشارك القشر اللب في كونه محمودا ولكن المحمود منه لعينه هو المنتهى والثاني محمود للوصول به الى المقصود الاقصى فمن اتخذ القشر مقصودا وعرج عليه فقد اغتر به (وفرقة أخرى) عظم غرورهم في فن الفقه فظنوا أن حكم العبد

ويجد من دعة القرب مايفتر عليه داعية الشوق ويرى ان القيام وقوف في مقام الشوق وهذا يغلط فيه ويهلك به خلق من المدعين والذي له ذلك ينبغي أن يعلم أن استمرار هذه الحالة متعذر والانسان متعرض للقصور والتخلف والشبهة ولاحالة أجل من حال رسول الله صلى الله عليه وسلم وماستغنى عن قيام الليل وقام حتى تورمت قدماه وقد يقول بعض من يحاج في ذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل ذلك تشريعا فنقول مابالنا لانتبع تشريعه وهذه دقيقة فتعلم أن رؤية الفضيلة في ترك القيام وادعاء الايواء الى جناب القرب واستواء النوم واليقظة امتلاء وابتلاء حالي وهو تقيد بالحال وتحكيم للحال وتحكم من الحال في العبد والاقوياء

بينه و بين الله يتبع حكمه في مجالس القضاء فوضعوا الحيل في دفع الحقوق وأساؤا تأويل الالفاظ المبهمة واغتروا بالظواهر وأخطؤا فيها وهذا من قبيل الخطأ في الفتوى والغرور فيه والخطأ في الفتوى مما يكثر ولكن هذا نوع عم الكافة الا الاكياس منهم فنشير الى أمثلة فمن ذلك فتواهم بان المرأة متى أبرأت من الصداق برئ الزوج بينه و بين الله تعالى وذلك خطأ بل الزوج قد يسيء الى الزوجة بحيث يضيق عليها الامور بسوء الخلق فتضطر الى طلب الخلاص فتبرئ الزوج لتتخلص منه فهو ابراء لاعلى طيبة النفس وقد قال تعالى فان طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا وطيبة النفس غير طيبة القلب فقد يريد الانسان بقلبه مالا تطيب به نفسه فانه يريد الحجامة بقلبه ولكن تكرهها نفسه وانما طيبة النفس أن تسمح نفسها بالابراء لاعن ضرورة تقابله حتى اذا رددت بين ضررين اختارت أهونهما فهذه مصادرة على التحقيق باكراه الباطن نعم القاضي في الدنيا لا يطلع على القلوب والاغراض فينظر الى الابراء الظاهر وأنها لم تكره بسبب ظاهر والاكراه الباطن ليس يطلع الخلق عليه ولكن مهما تصدى القاضي الاكبر في صعيد القيامة للقضاء لم يكن هذا محسوبا ولا مفيدا في تحصيل الابراء ولذلك لا يحل أن يؤخذ مال انسان الابطيب نفس منه فلو طلب من الانسان مالا على ملأ من الناس فاستحيا من الناس أن لا يعطيه وكان يود أن يكون سؤاله في خلوة حتى لا يعطيه ولكن خاف ألم مذمة الناس وخاف ألم تسليم المال وردد نفسه بينهما فاختار أهون الالمين وهو ألم التسليم فسلمه فلا فرق بين هذا و بين المصادرة اذ معنى المصادرة ايلام البدن بالصوت حتى يصير ذلك أقوى من ألم القلب ببذل المال فيختار أهون الالمين والسؤال في مظنة الحياء والرياء ضرب للقلب بالسوط ولا فرق بين ضرب الباطن وضرب الظاهر عند الله تعالى فان الباطن عند الله تعالى ظاهر وانما حاكم الدنيا هو الذي يحكم بالملك بظاهر قوله وهبت لانه لا يمكنه الوقوف على ما في القلب وكذلك من يعطى اتقاء لشر لسانه أو لشر سعايته فهو حرام عليه وكذلك كل مال يؤخذ على هذا الوجه فهو حرام ألا ترى ما جاء في قصة داود عليه السلام حيث قال بعد أن غفر له يارب كيف لي بخصمي فامر بالاستحلال منه وكان ميتا فامر بندائه في صخرة بيت المقدس فنادى يا أوريا فاجابه لبيك يا نبي الله أخرجتني من الجنة فماذا تريد فقال اني أسأت اليك في أمر فهبه لي قال قد فعلت ذلك يا نبي الله فانصرف وقد ركن الى ذلك فقال له جبريل عليه السلام هل ذكرت له ما فعلت قال لا قال فارجع فبين له فرجع فناداه فقال لبيك يا نبي الله فقال اني أذنبت اليك ذنبا قال ألم أهبه لك قال ألا تسألني ما ذلك الذنب قال ما هو يا نبي الله قال كذا وكذا وذكر شان المرأة فانقطع الجواب فقال يا أوريا ألا تجيبني قال يا نبي الله ما هكذا يفعل الانبياء حتى أقف معك بين يدي الله فاستقبل داود البكاء والصراخ من الرأس حتى وعده الله أن يستوهبه منه في الآخرة فهذا ينبهك أن الهبة من غير طيبة قلب لا تفيد وان طيبة القلب لا تحصل الا بالمعرفة فكذلك طيبة القلب لا تكون في الابراء والهبة وغيرهما الا اذا خير الانسان واختياره حتى تنبعث الدواعي من ذات نفسه لا أن تضطر بواعثه الى الحركة بالحيل والالزام ومن ذلك هبة الرجل مال الزكاة في آخر الحول من زوجته واتهابه مالها لاسقاط الزكاة فالفقيه يقول سقطت الزكاة فان أراد به أن مطالبة السلطان والساعي سقطت عنه فقد صدق فان مطمح نظرهم ظاهر الملك وقد زال وان ظن أنه يسلم في القيامة و يكون كمن لم يملك المال أو كمن باع لحاجته الى البيع لا على هذا القصد فما أعظم جهله بفقه الدين وسر الزكاة فان سر الزكاة تطهير القلب عن رذيلة البخل فان البخل مهلك قال صلى الله عليه وسلم ثلاث مهلكات شح مطاع وانما صار شحه مطاعا بما فعله وقبله لم يكن مطاعا فقد تم هلاكه بما يظن ان فيه خلاصه فان الله مطلع على قلبه وحبه للمال وحرصه عليه وانه بلغ من حرصه على المال أن استنبط الحيل حتى يسد على نفسه طريق الخلاص من البخل بالجهل والغرور ومن ذلك اباحة الله مال المصالح للفقيه وغيره بقدر الحاجة والفقهاء المغرورون لا يميزون بين الاماني والفضول والشهوات و بين الحاجات بل كل ما لا تتم رعونتهم الا به يرونه حاجة وهو محض الغرور بل الدنيا خلقت لحاجة العباد اليها في العبادة وسلوك طريق الآخرة فكل ما تناوله العبد للاستعانة به على الدين والعبادة فهو حاجته وما عدا ذلك فهو فضوله وشهوته ولو ذهبنا نصف غرور الفقهاء في أمثال هذا لملأنا فيه مجلدات والغرض من ذلك التنبيه على أمثلة تعرف الاجناس دون الاستيعاب

لا يتحكم فيهم الحال و يصرفون الحال في صور الاعمال فهم متصرفون في الحال لا الحال متصرف فيه فليعلم ذلك فانا رأينا من الاصحاب من كان في ذلك ثم انكشف لنا بتأييد الله تعالى أن

فان ذلك يطول (الصنف الثانى) أرباب العبادة والعمل والمغرورون منهم فرق كثيرة فمنهم من غروره فى الصلاة ومنهم من غروره فى تلاوة القرآن ومنهم من فى الحج ومنهم من فى الغزو ومنهم فى الزهد وكذلك كل مشغول بمنهج من مناهج العمل فليس خاليا عن غرور الا الا كياس وقليل ماهم (فمنهم فرقة) أهملوا الفرائض واشتغلوا بالفضائل والنوافل وربما تعمقوا فى الفضائل حتى خرجوا الى العدوان والسرف كالذى تغلب عليه الوسوسة فى الوضوء فيبالغ فيه ولا يرضى الماء المحكوم بطهارته فى فتوى الشرع ويقدر الاحتمالات البعيدة قريبة فى النجاسة واذا آل الامر الى أكل الحلال قدر الاحتمالات القريبة بعيدة وربما أكل الحرام المحض ولو انقلب هذا الاحتياط من الماء الى الطعام لكان أشبه بسيرة الصحابة اذ توضأ عمر رضى الله عنه بماء فى جرة نصرانية مع ظهور احتمال النجاسة وكان مع هذا يدع أبوابا من الحلال مخافة من الوقوع فى الحرام ثم من هؤلاء من يخرج الى الاسراف فى صب الماء وذلك منهى عنه وقد يطول الامر حتى يضيع الصلاة ويخرجها عن وقتها وان لم يخرجها أيضا عن وقتها فهو مغرور لما فاته من فضيلة أول الوقت وان لم يفته فهو مغرور لاسرافه فى الماء وان لم يسرف فهو مغرور لتضييعه العمر الذى هو أعز الاشياء فيماله مندوحة عنه الا أن الشيطان يصد الخلق عن الله بطريق شتى ولا يقدر على صد العباد الا بما يخيل اليهم أنه عبادة فيبعدهم عن الله بمثل ذلك (وفرقة أخرى) غلب عليها الوسوسة فى نية الصلاة فلا يدعه الشيطان حتى يعقد نية صحيحة بل يشوش عليه حتى تفوته الجماعة ويخرج الصلاة عن الوقت وان تم تكبيره فيكون فى قلبه بعد تردد فى صحة نيته وقد يوسوسون فى التكبير حتى قد يغيرون صيغة التكبير لشدة الاحتياط فيه يفعلون ذلك فى أول الصلاة ثم يغفلون فى جميع الصلاة فلا يحضرون قلوبهم ويغترون بذلك ويظنون أنهم اذا أتعبوا أنفسهم فى تصحيح النية فى أول الصلاة وتميزوا عن العامة بهذا الجهد والاحتياط فهم على خير عند ربهم (وفرقة أخرى) تغلب عليهم الوسوسة فى اخراج حروف الفاتحة وسائر الاذكار من مخارجها فلا يزال يحتاط فى التشديدات والفرق بين الضاد والظاء وتصحيح مخارج الحروف فى جميع صلاته لا يهمه غيره ولا يتفكر فيما سواه ذاهلا عن معنى القرآن والاتعاظ به وصرف الفهم الى أسراره وهذا من أقبح أنواع الغرور فانه لم يكلف الخلق فى تلاوة القرآن من تحقيق مخارج الحروف الا بما جرت به عادتهم فى الكلام ومثال هؤلاء مثال من حمل رسالة الى مجلس سلطان وأمر أن يؤديها على وجهها فاخذ يؤدى الرسالة ويتأنق فى مخارج الحروف ويكررها ويعيدها مرة بعد أخرى وهو فى ذلك غافل عن مقصود الرسالة ومراعاة حرمة المجلس فما أحراه بان تقام عليه السياسة ويرد الى دار المجانين ويحكم عليه بفقد العقل (وفرقة أخرى) اغتروا بقراءة القرآن فيهذونه هذا وربما يختمونه فى اليوم والليل مرة ولسان أحدهم يجرى به وقلبه يتردد فى أودية الامانى اذ لا يتفكر فى معانى القرآن لينزجر بزواجره ويتعظ بمواعظه ويقف عند أوامره ونواهيه ويعتبر بمواضع الاعتبار فيه الى غير ذلك مما ذكرناه فى كتاب تلاوة القرآن من مقاصد التلاوة فهو مغرور يظن أن المقصود من انزال القرآن الهمهمة به مع الغفلة عنه ومثاله مثال عبد كتب اليه مولاه ومالكه كتابا وأشار عليه فيه بالاوامر والنواهى فلم يصرف عنايته الى فهمه والعمل به ولكن اقتصر على حفظه فهو مستمر على خلاف ما أمره به مولاه الا أنه يكرر الكتاب بصوته ونغمته كل يوم مائة مرة فهو مستحق للعقوبة ومهما ظن أن ذلك هو المراد منه فهو مغرور نعم تلاوته انما تراد كيلا ينسى بل لحفظه وحفظه يراد لمعناه ومعناه يراد للعمل به والانتفاع بمعانيه وقد يكون له صوت طيب فهو يقرؤه ويلتذ به ويغتر باستلذاذه ويظن ان ذلك مناجاة الله تعالى وسماع كلامه وانما هى لذته فى صوته ولو ردد ألحانه بشعر أو كلام آخر لالتذ به ذلك الالتذاذ فهو مغرور اذلم يتفقد قلبه فيعرفه ان لذته بكلام الله تعالى من حيث حسن نظمه ومعانيه أو بصوته (وفرقة أخرى) اغتروا بالصوم وربما صاموا الدهر أو صاموا الايام الشريفة وهم فيها لا يحفظون ألسنتهم عن الغيبة وخواطرهم عن الرياء وبطونهم عن الحرام عند الافطار وألسنتهم عن الهذيان بأنواع الفضول طول النهار وهو مع ذلك يظن بنفسه الخير فيهمل الفرائض ويطلب النفل ثم لا يقوم بحقه وذلك غاية الغرور (وفرقة أخرى) اغتروا بالحج فيخرجون الى الحج من غير خروج عن المظالم وقضاء الديون واسترضاء الوالدين وطلب الزاد الحلال وقد يفعلون ذلك بعد سقوط حجة الاسلام ويضيعون فى الطريق الصلاة والفرائض ويعجزون عن طهارة

ذلك وقوف وقصور (قيل) للحسن يا أبا سعيد انى أبيت معافى وأحب قيام الليل وأعد طهورى فما بالى لا أقوم قال ذنوبك قيدتك فليحذر العبد فى نهاره ذنوبا تقيده فى ليله (وقال

الثوب والبدن ويتعرضون لمكس الظلمة حتى يؤخذ منهم ولا يحذرون في الطريق من الرفث والخصام وربما
جمع بعضهم الحرام وأنفقه على الرفقاء في الطريق وهو يطلب به السمعة والرياء فيعصى الله تعالى في كسب
الحرام أولا وفي انفاقه بالرياء ثانيا فلا هو أخذه من حله ولا هو وضعه في حقه ثم يحضر البيت بقلب ملوث برذائل
الاخلاق وذميم الصفات لم يقدم تطهيره على حضوره وهو مع ذلك يظن أنه على خير من ربه فهو مغرور (وفرقة
أخرى) أخذت في طريق الحسبة والامر بالمعروف والنهى عن المنكر ينكر على الناس ويأمرهم بالخير
وينسى نفسه واذا أمرهم بالخير عنف وطلب الرياسة والعزة واذا باشر منكرا ورد عليه غضب وقال أنا المحتسب
فكيف تنكر على وقد يجمع الناس الى مسجده ومن تأخر عنه أغلظ القول عليه وانما غرضه الرياء والرياسة
ولو قام بتعهد المسجد غيره لحرد عليه بل منهم من يؤذن ويظن أنه يؤذن لله ولو جاء غيره وأذن في وقت غيبته
قامت عليه القيامة وقال لم آخذ حقي وزوحمت على مرتبتي وكذلك قد يتقلد امامة مسجد ويظن أنه على خير
وانما غرضه أن يقال انه امام المسجد فلو تقدم غيره وان كان أورع وأعلم منه ثقل عليه (وفرقة أخرى) جاوروا
بمكة أو المدينة واغتروا بمكة ولم يراقبوا قلوبهم ولم يطهروا ظاهرهم وباطنهم فقلوبهم معلقة ببلادهم ملتفتة الى
بلادهم ملتفتة لى قول من يعرف أن فلانا مجاور بمكة وتراه يتحدى ويقول قد جاورت بمكة كذا كذا سنة
واذا سمع أن ذلك قبيح ترك صريح التحدي وأحب أن يعرفه الناس بذلك ثم انه قد يجاور ويمد عين طمعه الى
أوساخ أموال الناس واذا جمع من ذلك شيأ شح به وأمسكه ولم تسمح نفسه بلقمة يتصدق بها على فقير فيظهر فيه
الرياء والبخل والطمع وجملة من المهلكات كان عنها بمعزل لو ترك المجاورة ولكن حب المحمدة وأن يقال انه
من المجاورين ألزمه المجاورة مع التضمخ بهذه الرذائل فهو أيضا مغرور ومامن عمل من الاعمال وعبادة
من العبادات الا وفيها آفات فمن لم يعرف مداخل آفاتها واعتمد عليها فهو مغرور ولا يعرف شرح ذلك الا
من جملة كتب احياء علوم الدين فيعرف مداخل الغرور في الصلاة من كتاب الصلاة وفي الحج من كتاب الحج
والزكاة والتلاوة وسائر القربات من الكتب التي رتبناها فيها وانما الغرض الآن الاشارة الى مجامع ماسبق في
الكتب (وفرقة أخرى) زهدت في المال وقنعت من اللباس والطعام بالدون ومن المسكن بالمساجد وظنت
أنها أدركت رتبة الزهاد وهو مع ذلك راغب في الرياسة والجاه اما بالعلم أو بالوعظ أو بمجرد الزهد فقد ترك أهون
الامرين وباء بأعظم المهلكين فان الجاه أعظم من المال ولو ترك الجاه وأخذ المال كان الى السلامة أقرب
فهذا مغرور اذ ظن أنه من الزهاد في الدنيا وهو لم يفهم معنى الدنيا ولم يدر أن منتهى لذاتها الرياسة وأن الراغب
فيها لابد وأن يكون منافقا وحسودا ومتكبرا ومرائيا ومتصفا بجميع خبائث الاخلاق نعم وقد يترك الرياسة
ويؤثر الخلوة والعزلة وهو مع ذلك مغرور اذ يتطاول بذلك على الاغنياء ويخشن معهم الكلام وينظر اليهم
بعين الاستحقار ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم ويعجب بعمله ويتصف بجملة من خبائث القلوب وهو
لايدري وربما يعطى المال فلا يأخذه خيفة من أن يقال بطل زهده ولو قيل له انه حلال فخذه في الظاهر ورده
في الخفية لم تسمح به نفسه خوفا من ذم الناس فهو راغب في حمد الناس وهو من ألذ أبواب الدنيا ويرى نفسه
أنه زاهد في الدنيا وهو مغرور ومع ذلك فربما لا يخلو من توقير الاغنياء وتقديمهم على الفقراء والميل الى المريدين
له والمثنين عليه والنفرة عن المائلين الى غيره من الزهاد وكل ذلك خدعة وغرور من الشيطان نعوذ بالله منه
وفي العباد من يشدد على نفسه في أعمال الجوارح حتى ربما يصلي في اليوم والليلة مثلا ألف ركعة ويختم القرآن
وهو في جميع ذلك لا يخطر له مراعاة القلب وتفقده وتطهيره من الرياء والكبر والعجب وسائر المهلكات فلا
يدري أن ذلك مهلك وان علم فلا يظن بنفسه وان ظن بنفسه ذلك توهم أنه مغفور له لعمله الظاهر وأنه غير مؤاخذ
بأحوال القلب وان توهم فيظن أن العبادات الظاهرة تترجح بها كفة حسناته وهيهات وذرة من ذي تقوى
وخلق واحد من أخلاق الاكياس أفضل من أمثال الجبال عملا بالجوارح ثم لا يخلو هذا المغرور مع سوء خلقه
مع الناس وخشونته وتلوث باطنه عن الرياء وحب الثناء فاذا قيل له أنت من أوتاد الارض وأولياء الله وأحبابه
فرح المغرور بذلك وصدق به وزاده ذلك غرورا وظن أن تزكية الناس له دليل على كونه مرضيا عند الله
ولا يدري أن ذلك لجهل الناس بخبائث باطنه (وفرقة أخرى) حرصت على النوافل ولم يعظم اعتدادها

النوري) رحمه الله حرمت قيام الليل سبعة أشهر بذنب أذنبته فقيل له ما كان الذنب قال رأيت رجلا بكاء فقلت في نفسي هذا مراء (وقال بعضهم) دخلت على كرز بن

بالفرائض ترى أحدهم يفرح بصلاة الضحى و بصلاة الليل وأمثال هذه النوافل ولا يجد للفريضة لذة ولا يشتد حرصه على المبادرة بها فى أول الوقت و ينسى قوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه ما تقرب المتقربون الى بمثل أداء ما افترضت عليهم وترك الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور بل قد يتعين على الانسان فرضان أحدهما يفوت والآخر لا يفوت أو فضلان أحدهما يضيق وقته والآخر يتسع وقته فان لم يحفظ الترتيب فيه كان مغرورا ونظائر ذلك أكثر من أن تحصى فان المعصية ظاهرة والطاعة ظاهرة وانما الغامض تقديم بعض الطاعات على بعض كتقديم الفرائض كلها على النوافل وتقديم فروض الاعيان على فروض الكفايات وتقديم فرض كفاية لا قائم به على ما قام به غيره وتقديم الاهم من فروض الاعيان على ما دونه وتقديم ما يفوت على ما لا يفوت وهذا كما يجب تقديم حاجة الوالدة على حاجة الوالد اذ سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل له من أبر يا رسول الله قال أمك قال ثم من قال أمك قال ثم من قال أمك قال ثم من قال أباك قال ثم من قال أدناك فأدناك فينبغى أن يبدأ فى الصلة بالاقرب فان استويا فبالاحوج فان استويا فبالاتقى والاورع وكذلك من لا يفى ماله بنفقة الوالدين والحج فربما يحج وهو مغرور بل ينبغى أن يقدم حقهما على الحج وهذا من تقديم فرض أهم على فرض هو دونه وكذلك اذا كان على العبد ميعاد ودخل وقت الجمعة تفوت فالجمعة والاشتغال بالوفاء بالوعد معصية وان كان هو طاعة فى نفسه وكذلك قد تصيب ثوبه النجاسة فيغلظ القول على أبويه وأهله بسبب ذلك فالنجاسة محذورة وايذاؤهما محذور والحذر من الايذاء أهم من الحذر من النجاسة وأمثلة تقابل المحذورات والطاعات لا تنحصر ومن ترك الترتيب فى جميع ذلك فهو مغرور وهذا غرور فى غاية الغموض لان المغرور فيه فى طاعة الا أنه لا يفطن لصيرورة الطاعة معصية حيث ترك بها طاعة واجبة هى أهم منها ومن جملته الاشتغال بالمذهب والخلاف من الفقه فى حق من بقى عليه شغل من الطاعات والمعاصى الظاهرة والباطنة المتعلقة بالجوارح والمتعلقة بالقلب لان مقصود الفقه معرفة ما يحتاج اليه غيره فى حوائجه فمعرفة ما يحتاج هو اليه فى قلبه أولى به الا أن حب الرياسة والجاه ولذة المباهاة وقهر الاقران والتقدم عليهم يعمى عليه حتى يغتر به مع نفسه و يظن أنه مشغول بمهم دينه

﴿الصنف الثالث﴾ المتصوفة وما أغلب الغرور عليهم والمغترون منهم فرق كثيرة (ففرقة منهم) وهم متصوفة أهل الزمان الا من عصمه الله اغتروا بالزى والهيئة والمنطق فساعدوا الصادقين من الصوفية فى زيهم وهيئتهم وفى ألفاظهم وفى آدابهم ومراسمهم واصطلاحاتهم وفى أحوالهم الظاهرة فى السماع والرقص والطهارة والصلاة والجلوس على السجادات مع اطراق الرأس وادخاله فى الجيب كالمتفكر وفى تنفس الصعداء وفى خفض الصوت فى الحديث الى غير ذلك من الشمائل والهيئات فلما تكلفوا هذه الامور وتشبهوا بهم فيها ظنوا أنهم أيضا صوفية ولم يتعبوا أنفسهم قط فى المجاهدة والرياضة ومراقبة القلب وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية والجلية وكل ذلك من أوائل منازل التصوف ولو فرغوا عن جميعها لما جاز لهم أن يعدوا أنفسهم فى الصوفية كيف ولم يحوموا قط حولها ولم يسوموا أنفسهم شيأ منها بل يتكالبون على الحرام والشبهات وأموال السلاطين و يتنافسون فى الرغيف والفلس والحبة و يتحاسدون على النقير والقطمير و يمزق بعضهم أعراض بعض مهما خالفه فى شئ من غرضه وهؤلاء غرورهم ظاهر ومثالهم مثال امرأة عجوز سمعت أن الشجعان والابطال من المقاتلين تثبت أسماؤهم فى الديوان و يقطع لكل واحد منهم قطر من أقطار المملكة فتاقت نفسها الى أن يقطع لها مملكة فلبست درعا و وضعت على رأسها مغفرا وتعلمت من رجز الابطال أبياتا وتعودت ايراد تلك الابيات بنغماتهم حتى تيسرت عليها وتعلمت كيفية تبخترهم فى الميدان وكيف تحريكهم الايدى وتلقفت جميع شمائلهم فى الزى والمنطق والحركات والسكنات ثم توجهت الى المعسكر ليثبت اسمها فى ديوان الشجعان فلما وصلت الى المعسكر أنفذت الى ديوان العرض وأمر بأن تجرد عن المغفر والدرع و ينظر ما تحته وتمتحن بالمبارزة مع بعض الشجعان ليعرف قدر عنائها فى الشجاعة فلما جردت عن المغفر والدرع فاذا هى عجوز ضعيفة زمنة لا تطيق حمل الدرع والمغفر فقيل لها جئت للاستهزاء بالملك وللاستخفاف بأهل حضرته والتلبيس عليهم خذوها فالقوها قدام الفيل لسخفها فالقيت الى الفيل فهكذا يكون حال المدعين للتصوف فى القيامة اذا كشف عنهم الغطاء وعرضوا على القاضى الاكبر الذى

و بره وهو يبكى فقلت ما بالك أتاك نعى بعض أهلك فقال أشد فقلت وجع يؤلمك قال أشد فقلت وماذاك قال بابى مغلق وسترى مسبل ولم أقرأ حزبى البارحة وماذاك الا بذنب أحدثته (وقال

لاينظر الى الزى والمرقع بل الى سر القلب (وفرقة أخرى) زادت على هؤلاء فى الغرور اذشق عليها الاقتداء بهم فى بذاذة الثياب والرضا بالدون فارادت أن تتظاهر بالتصوف ولم تجد بدا من التزين بزيهم فتركوا الحرير والابريسم وطلبوا المرقعات النفيسة والفوط الرقيقة والسجادات المصبغة ولبسوا من الثياب ما هو أرفع قيمة من الحرير والابريسم وظن أحدهم مع ذلك أنه متصوف بمجرد لون الثوب وكونه مرقعا ونسى أنهم انما لونوا الثياب لئلا يطول عليهم غسلها كل ساعة لازالة الوسخ وانما لبسوا المرقعات اذ كانت ثيابهم مخرقة فكانوا يرقعونها ولا يلبسون الجديد فاما تقطيع الفوط الرقيقة قطعة قطعة وخياطة المرقعات منها فمن أين يشبه ما اعتادوه فهؤلاء أظهر حماقة من كافة المغرورين فانهم يتنعمون بنفيس الثياب ولذيذ الاطعمة ويطلبون رغد العيش ويأكلون أموال السلاطين ولا يجتنبون المعاصى الظاهرة فضلا عن الباطنة وهم مع ذلك يظنون بأنفسهم الخير وشر هؤلاء مما يتعدى الى الخلق اذ يهلك من يقتدى بهم ومن لا يقتدى بهم تفسد عقيدته فى أهل التصوف كافة ويظن أن جميعهم كانوا من جنسه فيطول اللسان فى الصادقين منهم وكل ذلك من شؤم المتشبهين وشرهم (وفرقة أخرى) ادعت علم المعرفة ومشاهدة الحق ومجاوزة المقامات والاحوال والملازمة فى عين الشهود والوصول الى القرب ولا يعرف هذه الامور الا بالاسامى والالفاظ لانه تلقف من ألفاظ الطامات كلمات فهو يرددها ويظن أن ذلك أعلى من علم الاولين والآخرين فهو ينظر الى الفقهاء والمفسرين والمحدثين وأصناف العلماء بعين الازراء فضلا عن العوام حتى ان الفلاح ليترك فلاحته والحائك يترك حياكته ويلازمهم أياما معدودة ويتلقف منهم تلك الكلمات المزيفة فيرددها كانه يتكلم عن الوحى ويخبر عن سر الاسرار ويستحقر بذلك جميع العباد والعلماء فيقول فى العباد انهم أجراء متعبون ويقول فى العلماء انهم بالحديث عن الله محجوبون ويدعى لنفسه انه الواصل الى الحق وانه من المقربين وهو عند الله من الفجار المنافقين وعند أرباب القلوب من الحمقى الجاهلين لم يحكم قط علما ولم يهذب خلقا ولم يرتب عملا ولم يراقب قلبا سوى اتباع الهوى وتلقف الهذيان وحفظه (وفرقة أخرى) وقعت فى الاباحة وطووا بساط الشرع ورفضوا الاحكام وسووا بين الحلال والحرام فبعضهم يزعم ان الله مستغن عن عملى فلم أتعب نفسى وبعضهم يقول قد كلف الناس تطهير القلوب عن الشهوات وعن حب الدنيا وذلك محال فقد كلفوا ما لا يمكن وانما يغتر به من لم يجرب وأما نحن فقد جربنا وأدركنا ان ذلك محال ولا يعلم الاحمق أن الناس لم يكلفوا قلع الشهوة والغضب من أصلهما بل انما كلفوا قلع مادتهما بحيث ينقاد كل واحد منهما لحكم العقل والشرع وبعضهم يقول الاعمال بالجوارح لاوزن لها وانما النظر الى القلوب وقلوبنا والهة بحب الله وواصلة الى معرفة الله وانما نخوض فى الدنيا بأبداننا وقلوبنا عاكفة فى الحضرة الربوبية فنحن مع الشهوات بالظواهر لا بالقلوب ويزعمون أنهم قد ترقوا عن رتبة العوام واستغنوا عن تهذيب النفس بالاعمال البدنية وان الشهوات لا تصدهم عن طريق الله لقوتهم فيها ويرفعون درجة أنفسهم على درجة الانبياء عليهم السلام اذ كانت تصدهم عن طريق الله خطيئة واحدة حتى كانوا يبكون عليها وينوحون سنين متوالية وأصناف غرور أهل الاباحة من المتشبهين بالصوفية لا تحصى وكل ذلك بناء على أغاليط ووساوس يخدعهم الشيطان بها لاشتغالهم بالمجاهدة قبل أحكام العلم ومن غير اقتداء بشيخ متقن فى الدين والعلم صالح للاقتداء به واحصاء أصنافهم يطول (وفرقة أخرى) جاوزت حد هؤلاء واجتنبت الاعمال وطلبت الحلال واشتغلت بتفقد القلب وصار أحدهم يدعى المقامات من الزهد والتوكل والرضا والحب من غير وقوف على حقيقة هذه المقامات وشروطها وعلاماتها وآفاتها فمنهم من يدعى الوجد والحب لله تعالى ويزعم أنه واله بالله ولعله قد تخيل فى الله خيالات هى بدعة أو كفر فيدعى حب الله قبل معرفته ثم انه لا يخلو عن مقارفة ما يكره الله عز وجل وعن ايثار هوى نفسه على أمر الله وعن ترك بعض الامور حياء من الخلق ولو خلا لما تركه حياء من الله تعالى وليس يدرى ان كل ذلك يناقض الحب وبعضهم ربما يميل الى القناعة والتوكل فيخوض البوادى من غير زاد ليصحح دعوى التوكل وليس يدرى أن ذلك بدعة لم تنقل عن السلف والصحابة وقد كانوا أعرف بالتوكل منه فافهموا أن التوكل المخاطرة بالروح وترك الزاد بل كانوا يأخذون الزاد وهم متوكلون على الله تعالى لا على الزاد وهذا ربما يترك الزاد وهو متوكل على سبب من الاسباب واثق به وما من مقام من المقامات

بعضهم) الاحتلام عقوبة وهذا صحيح لان المراعى المتحفظ بحسن تحفظه وعلمه بحاله يقدر ويتمكن من سد باب الاحتلام ولا يتطرق الاحتلام الا على جاهل بحاله أو مهمل حكم وقته

المنجيات الا وفيه غرور وقد اغتر به قوم وقد ذكرناه مداخل الآفات في ربع المنجيات من الكتاب فلا يمكن اعادتها (وفرقة أخرى) ضيقت على نفسها في أمر القوت حتى طلبت منه الحلال الخالص وأهملوا تفقد القلب والجوارح في غير هذه الخصلة الواحدة ومنهم من أهمل الحلال في مطعمه وملبسه ومسكنه وأخذ يتعمق في غير ذلك وليس يدري المسكين أن الله تعالى لم يرض من عبده بطلب الحلال فقط ولا يرضى بسائر الاعمال دون طلب الحلال بل لا يرضيه الا تفقد جميع الطاعات والمعاصي فمن ظن أن بعض هذه الامور يكفيه وينجيه فهو مغرور (وفرقة أخرى) ادعوا حسن الخلق والتواضع والسماحة فتصدوا لخدمة الصوفية فجمعوا قوما وتكلفوا بخدمتهم واتخذوا ذلك شبكة للرياسة وجمع المال وانما غرضهم التكبر وهم يظهرون الخدمة والتواضع وغرضهم الارتفاع وهم يظهرون أن غرضهم الارفاق وغرضهم الاستتباع وهم يظهرون أن غرضهم الخدمة والتبعية ثم انهم يجمعون من الحرام والشبهات وينفقون عليهم لتكثر أتباعهم وينشر بالخدمة اسمهم وبعضهم يأخذ أموال السلاطين ينفق عليهم وبعضهم يأخذها لينفق في طريق الحج على الصوفية ويزعم أن غرضه البر والانفاق وباعث جميعهم الرياء والسمعة وآية ذلك اهمالهم لجميع أوامر الله تعالى عليهم ظاهرا وباطنا ورضاهم بأخذ الحرام والانفاق منه ومثال من ينفق الحرام في طريق الحج لارادة الخير كمن يعمر مساجد الله فيطينها بالعذرة ويزعم أن قصده العمارة (وفرقة أخرى) اشتغلوا بالمجاهدة وتهذيب الاخلاق وتطهير النفس من عيوبها وصاروا يتعمقون فيها فاتخذوا البحث عن عيوب النفس ومعرفة خدعها علما وحرفة فهم في جميع أحوالهم مشغولون بالفحص عن عيوب النفس واستنباط دقيق الكلام في آفاتها فيقولون هذا في النفس عيب والغفلة عن كونه عيبا عيب والالتفات الى كونه عيبا عيب ويشغفون فيه بكلمات مسلسلة تضيع الاوقات في تلفيقها ومن جعل طول عمره في التفتيش عن العيوب وتحرير علم علاجها كان كمن اشتغل بالتفتيش عن عوائق الحج وآفاته ولم يسلك طريق الحج فذلك لا يغنيه (وفرقة أخرى) جاوزوا هذه الرتبة وابتدؤا سلوك الطريق وانفتح لهم أبواب المعرفة فكلما تشمموا من مبادي المعرفة رائحة تعجبوا منها وفرحوا بها وأعجبتهم غرابتها فتقيدت قلوبهم بالالتفات اليها والتفكر فيها وفي كيفية انفتاح بابها عليهم وانسداده على غيرهم وكل ذلك غرور لان عجائب طريق الله ليس لها نهاية ولو وقف مع كل أعجوبة وتقيد بها قصرت خطاه وحرم الوصول الى المقصد وكان مثاله مثال من قصد ملكا فرأى على باب ميدانه روضة فيها أزهار وأنوار لم يكن قد رأى قبل ذلك مثلها فوقف ينظر اليها ويتعجب حتى فاته الوقت الذي يمكن فيه لقاء الملك (وفرقة أخرى) جاوزوا هؤلاء ولم يلتفتوا الى ما يفيض عليهم من الانوار في الطريق ولا الى ما تيسر لهم من العطايا الجزيلة ولم يعرجوا على الفرح بها والالتفات اليها جادين في السير حتى قاربوا فوصلوا الى حد القربة الى الله تعالى فظنوا أنهم قد وصلوا الى الله فوقفوا وغلطوا فان لله تعالى سبعين حجابا من نور لا يصل السالك الى حجاب من تلك الحجب في الطريق الا ويظن أنه قد وصل واليه الاشارة بقول ابراهيم عليه السلام اذ قال الله تعالى اخبارا عنه فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي وليس المعنى بهذه الاجسام المضيئة فانه كان يراها في الصغر ويعلم أنها ليست آلهة وهي كثيرة وليست واحدا والجهال يعلمون أن الكوكب ليس باله فمثل ابراهيم عليه السلام لا يغره الكوكب الذي لا يغر السوادية ولكن المراد به أنه نور من الانوار التي هي من حجب الله عز وجل وهي على طريق السالكين ولا يتصور الوصول الى الله تعالى الا بالوصول الى هذه الحجب وهي حجب من نور بعضها أكبر من بعض وأصغر النيرات الكوكب فاستعير له لفظه وأعظمها الشمس وبينهما رتبة القمر فلم يزل ابراهيم عليه السلام لما رأى ملكوت السموات حيث قال تعالى وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والارض يصل الى نور بعد نور ويتخيل اليه في أول ما كان يلقاه أنه قد وصل ثم كان يكشف له أن وراءه أمرا فيترقى اليه ويقول قد وصلت فيكشف له ما وراءه حتى وصل الى الحجاب الاقرب الذي لا وصول الا بعده فقال هذا أكبر فلما ظهر له أنه مع عظمه غير خال عن الهوي في حضيض النقص والانحطاط عن ذروة الكمال قال لا أحب الآفلين اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض وسالك هذه الطريق قد يغتر في الوقوف على بعض

وأدب حاله ومن كل تحفظه ورعايته وقيامه بادب حاله قد يكون من ذنبه الموجب للاحتلام ووضع الرأس على الوسادة اذا كان ذا عزيمة في ترك الوسادة وقد يتمهد للنوم ووضع الرأس على

هذه الحجب وقد يغتر بالحجاب الاول وأول الحجب بين الله وبين العبد هو نفسه فانه أيضا أمر ربانى وهو نور من أنوار الله تعالى أعنى سر القلب الذى تتجلى فيه حقيقة الحق كله حتى انه ليتسع لجملة العالم ويحيط به وتتجلى فيه صورة الكل وعند ذلك يشرق نوره اشراقا عظيما اذ يظهر فيه الوجود كله على ما هو عليه وهو فى أول الامر محجوب بمشكاة هى كالساتر له فاذا تجلى نوره وانكشف جمال القلب بعد اشراق نور الله عليه ربما التفت صاحب القلب الى القلب فيرى من جماله الفائق ما يدهشه وربما يسبق لسانه فى هذه الدهشة فيقول أنا الحق فان لم يتضح له ما وراء ذلك اغتر به ووقف عليه وهلك وكان قد اغتر بكوكب صغير من أنوار الحضرة الالهية ولم يصل بعد الى القمر فضلا عن الشمس فهو مغرور وهذا محل الالتباس اذ المتجلى يلتبس بالمتجلى فيه كما يلتبس لون ما يتراءى فى المرآة بالمرآة فيظن أنه لون المرآة وكما يلتبس ما فى الزجاج بالزجاج كما قيل

رق الزجاج وراقت الخمر * فتشابها فتشاكل الامر فكأنما خمر ولا قدح * وكأنما قدح ولا خمر

وبهذه العين نظر النصارى الى المسيح فرأوا اشراق نور الله قد تلالا فيه فغلطوا فيه كمن يرى كوكبا فى مرآة أو فى ماء فيظن أن الكوكب فى المرآة أو فى الماء فيمد يده اليه ليأخذه وهو مغرور وأنواع الغرور فى طريق السلوك الى الله تعالى لا تحصى فى مجلدات ولا تستقصى الا بعد شرح جميع علوم المكاشفة وذلك مما لا رخصة فى ذكره ولعل القدر الذى ذكرناه أيضا كان الاولى تركه اذ السالك لهذا الطريق لا يحتاج الى أن يسمعه من غيره والذى لم يسلكه لا ينتفع بسماعه بل ربما يستضر به اذ يورثه ذلك دهشة من حيث يسمع ما لا يفهم ولكن فيه فائدة وهو اخراجه من الغرور الذى هو فيه بل ربما يصدق بأن الامر أعظم مما يظنه ومما يتخيله بذهنه المختصر وخياله القاصر وجدله المزخرف ويصدق أيضا بما يحكى له من المكاشفات التى أخبر عنها أولياء الله ومن عظم غروره ربما أصر مكذبا بما يسمعه الآن كما يكذب بما سمعه من قبل ﴿الصنف الرابع﴾ أرباب الاموال والمغترون منهم فرق (ففرقة منهم) يحرصون على بناء المساجد والمدارس والرباطات والقناطر وما يظهر للناس كافة ويكتبون أساميهم بالآجر عليها ليتخلد ذكرهم ويبقى بعد الموت أثرهم وهم يظنون أنهم قد استحقوا المغفرة بذلك وقد اغتروا فيه من وجهين * أحدهما انهم يبنونها من أموال اكتسبوها من الظلم والنهب والرشا والجهات المحظورة فهم قد تعرضوا لسخط الله فى كسبها وتعرضوا لسخطه فى انفاقها وكان الواجب عليهم الامتناع من كسبها فاذا قد عصوا الله بكسبها فالواجب عليهم التوبة والرجوع الى الله تعالى وردها الى ملاكها اما بأعيانها واما برد بدلها عند العجز فان عجزوا عن الملاك كان الواجب ردها الى الورثة فان لم يبق للمظلوم وارث فالواجب صرفها الى أهم المصالح وربما يكون الاهم التفرقة على المساكين وهم لا يفعلون ذلك خيفة من أن يظهر ذلك للناس فيبنون الابنية بالآجر وغرضهم من بنائها الرياء وجلب الثناء وحرصهم على بقائها لبقاء أسمائهم المكتوبة فيها لا لبقاء الخير * والوجه الثانى انهم يظنون بأنفسهم الاخلاص وقصد الخير فى الانفاق على الابنية ولو كلف واحد منهم أن ينفق دينارا ولا يكتب اسمه على الموضع الذى أنفق عليه لشق عليه ذلك ولم تسمح به نفسه والله مطلع عليه كتب اسمه أو لم يكتب ولولا أنه يريد به وجه الناس لا وجه الله لما افتقر الى ذلك (وفرقة أخرى) ربما اكتسبت المال من الحلال وأنفقت على المساجد وهى أيضا مغرورة من وجهين * أحدهما الرياء وطلب الثناء فانه ربما يكون فى جواره أو بلده فقراء وصرف المال اليهم أهم وأفضل وأولى من الصرف الى بناء المساجد وزينتها وانما يخف عليهم الصرف الى المساجد ليظهر ذلك بين الناس * والثانى أنه يصرف الى زخرفة المسجد وتزيينه بالنقوش التى هى منهى عنها وشاغلة قلوب المصلين ومختطفة أبصارهم والمقصود من الصلاة الخشوع وحضور القلب وذلك يفسد قلوب المصلين ويحبط ثوابهم بذلك ووبال ذلك كله يرجع اليه وهو مع ذلك يغتر به ويرى أنه من الخيرات ويعد ذلك وسيلة الى الله تعالى وهو مع ذلك قد تعرض لسخط الله تعالى وهو يظن أنه مطيع له وممتثل لامره وقد شوش قلوب عباد الله بما زخرفه من المسجد وربما شوقهم به الى زخارف الدنيا فيشتهون مثل ذلك فى بيوتهم ويشتغلون بطلبه ووبال ذلك كله فى رقبته اذ المسجد للتواضع ولحضور القلب مع الله تعالى قال مالك بن دينار أتى رجلان مسجدا فوقف أحدهما على الباب وقال

الوسادة بحسن النية من لا يكون ذلك ذنبه وله فيه نية للعون على القيام وقد يكون ذلك ذنبا بالنسبة الى بعض الناس فاذا كان هذا القدر يصلح أن يكون ذنبا جالبا للاحتلام فقس على هذا ذنوب

مثلي لايدخل بيت الله فكتبه الملكان عند الله صديقا فهكذا ينبغي أن تعظم المساجد وهو أن يرى تلويث المسجد بدخوله فيه بنفسه جناية على المسجد لاأن يرى تلويث المسجد بالحرام أو بزخرف الدنيا منة على الله تعالى وقال الحواريون للمسيح عليه السلام انظر الى هذا المسجد ماأحسنه فقال أمتي أمتي بحق أقول لكم لايترك الله من هذا المسجد حجرا قائما على حجر الاأهلكه بذنوب أهله ان الله لايعبأ بالذهب والفضة ولا بهذه الحجارة التي تعجبكم شيأ وان أحب الاشياء الى الله تعالى القلوب الصالحة بها يعمر الله الارض وبها يخرب اذا كانت على غير ذلك وقال أبو الدرداء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا زخرفتم مساجدكم وحليتم مصاحفكم فالدمار عليكم وقال الحسن ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يبني مسجد المدينة أتاه جبريل عليه السلام فقال له ابنه سبعة أذرع طولا في السماء لاتزخرفه ولاتنقشه فغرور هذا من حيث انه رأى المنكر معروفا واتكل عليه (وفرقة أخرى) ينفقون الاموال في الصدقات على الفقراء والمساكين ويطلبون به المحافل الجامعة ومن الفقراء من عادته الشكر والافشاء للمعروف ويكرهون التصدق في السر ويرون اخفاء الفقير لما يأخذه منهم جناية عليهم وكفرانا وربما يحرصون على انفاق المال في الحج فيحجون مرة بعد أخرى وربما تركوا جيرانهم جياعا ولذلك قال ابن مسعود في آخر الزمان يكثر الحاج بلاسبب يهون عليهم السفر ويبسط لهم في الرزق ويرجعون محرومين مسلوبين يهوي بأحدهم بعيره بين الرمال والقفار وجاره مأسور الى جنبه لايواسيه وقال أبو نصر التمار ان رجلا جاء يودع بشر بن الحرث وقال قد عزمت على الحج فتأمرني بشئ فقال له كم أعددت للنفقة فقال ألفي درهم قال بشر فأي شئ تبتغي بحجك تزهدا أو اشتياقا الى البيت أو ابتغاء مرضات الله قال ابتغاء مرضات الله قال فان أصبت مرضات الله تعالى وأنت في منزلك وتنفق ألفي درهم وتكون على يقين من مرضات الله تعالى أتفعل ذلك قال نعم قال اذهب فأعطها عشرة أنفس مديون يقضي دينه وفقير يرم شعثه ومعيل يغني عياله ومربي يتيم يفرحه وان قوي قلبك تعطيها واحدا فافعل فان ادخالك السرور على قلب المسلم واغاثة اللهفان وكشف الضر واعانة الضعيف أفضل من مائة حجة بعد حجة الاسلام قم فأخرجها كما أمرناك والا فقل لنا ما في قلبك فقال يا أبا نصر سفري أقوى في قلبي فتبسم بشر رحمه الله تعالى وأقبل عليه وقال له المال اذا جمع من وسخ التجارات والشبهات اقتضت النفس أن تقضي به وطرا فأظهرت الاعمال الصالحات وقد آلى الله على نفسه أن لايقبل الاعمل المتقين (وفرقة أخرى) من أرباب الاموال اشتغلوا بها يحفظون الاموال ويمسكونها بحكم البخل ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التي لايحتاج فيها الى نفقة كصيام النهار وقيام الليل وختم القرآن وهم مغرورون لان البخل المهلك قد استولى على بواطنهم فهو يحتاج الى قمعه باخراج المال فقد اشتغل بطلب فضائل هو مستغن عنها ومثاله مثال من دخل في ثوبه حية وقد أشرف على الهلاك وهو مشغول بطبخ السكنجبين ليسكن به الصفراء ومن قتلته الحية متى يحتاج الى السكنجبين ولذلك قيل لبشر ان فلانا الغني كثير الصوم والصلاة فقال المسكين ترك حاله ودخل في حال غيره وانما حال هذا اطعام الطعام للجياع والانفاق على المساكين فهذا أفضل له من تجويعه نفسه ومن صلاته لنفسه مع جمعه للدنيا ومنعه للفقراء (وفرقة أخرى) غلبهم البخل فلاتسمح نفوسهم الابأداء الزكاة فقط ثم انهم يخرجون من المال الخبيث الردىء الذي يرغبون عنه ويطلبون من الفقراء من يخدمهم ويتردد في حاجاتهم أومن يحتاجون اليه في المستقبل للاستسخار في خدمة أومن لهم فيه على الجملة غرض أو يسلمون ذلك الى من يعينه واحد من الاكابر ممن يستظهر بحشمه لينال بذلك عنده منزلة فيقوم بحاجاته وكل ذلك مفسدات للنية ومحبطات للعمل وصاحبه مغرور ويظن أنه مطيع لله تعالى وهو فاجر اذ طلب بعبادة الله عوضا من غيره فهذا وأمثاله من غرور أصحاب الاموال أيضا لايحصى وانما ذكرنا هذا القدر للتنبيه على أجناس الغرور (وفرقة أخرى) من عوام الخلق وأرباب الاموال والفقراء اغتروا بحضور مجالس الذكر واعتقدوا أن ذلك يغنيهم ويكفيهم واتخذوا ذلك عادة ويظنون أن لهم على مجرد سماع الوعظ دون العمل ودون الاتعاظ أجرا وهم مغرورون لان فضل مجلس الذكر لكونه مرغبا في الخير فان لم يهيج الرغبة فلاخير فيه والرغبة محمودة لانها تبعث على العمل فان ضعفت عن الحمل على العمل فلاخير فيها ومايراد لغيره فاذا قصر عن الاداء الى

ذلك

الاحوالى فانها تختص بأربابها ويعرفها أصحابها وقد يرتفق بأنواع الرفق من الفراش الوطىء والوسادة ولا يعاقب بالاحتلام وغيره على فعله اذا كان عالما ذانية يعرف مداخل

ذلك الغير فلا قيمة له و ربما يغتر بما يسمعه من الواعظ من فضل حضور المجالس وفضل البكاء و ربما تدخله رقة كرقة النساء فيبكي ولا عزم و ربما يسمع كلاما مخوفا فلا يزيد على أن يصفق بيديه و يقول يا سلام سلم أو نعوذ بالله أو سبحان الله و يظن أنه قد أتى بالخير كله وهو مغرور وانما مثاله مثال المريض الذي يحضر مجالس الاطباء فيسمع ما يجري أو الجائع الذي يحضر عند من يصف له الاطعمة اللذيذة الشهية ثم ينصرف وذلك لا يغني عنه من مرضه وجوعه شيأ فكذلك سماع وصف الطاعات دون العمل بها لا يغني من الله شيأ فكل وعظ لم يغير منك صفة تغييرا يغير أفعالك حتى تقبل على الله تعالى اقبالا قويا أو ضعيفا وتعرض عن الدنيا فذلك الوعظ زيادة حجة عليك فاذا رأيته وسيلة لك كنت مغرورا فان قلت فما ذكرته من مداخل الغرور أمر لا يتخلص منه أحد ولا يمكن الاحتراز منه وهذا يوجب اليأس اذ لا يقوى أحد من البشر على الحذر من خفايا هذه الآفات فأقول الانسان اذا فترت همته في شئ أظهر اليأس منه واستعظم الامر واستوعر الطريق واذا صح منه الهوى اهتدى الى الحيل واستنبط بدقيق النظر خفايا الطرق في الوصول الى الغرض حتى ان الانسان اذا أراد أن يستنزل الطير المحلق في جو السماء مع بعده منه استنزله واذا أراد أن يخرج الحوت من أعماق البحار استخرجه واذا أراد أن يستخرج الذهب أو الفضة من تحت الجبال استخرجه واذا أراد أن يقتنص الوحوش المطلقة في البراري والصحاري اقتنصها واذا أراد أن يستسخر السباع والفيلة وعظيم الحيوانات استسخرها واذا أراد أن يأخذ الحيات والافاعي و يعبث بها أخذها واستخرج الدرياق من أجوافها واذا أراد أن يتخذ الديباج الملون المنقش من ورق التوت اتخذه واذا أراد أن يعرف مقادير الكواكب وطولها وعرضها استخرج بدقيق الهندسة ذلك وهو مستقر على الارض وكل ذلك باستنباط الحيل واعداد الآلات فسخر الفرس للركوب والكلب للصيد وسخر البازي لاقتناص الطيور وهيأ الشبكة لاصطياد السمك الى غير ذلك من دقائق حيل الآدمي كل ذلك لان همه أمر دنياه وذلك معين له على دنياه فلو أهمه أمر آخرته فليس عليه الا شغل واحد وهو تقويم قلبه فعجز عن تقويم قلبه وتخاذل وقال هذا محال ومن الذي يقدر عليه وليس ذلك بمحال لو أصبح وهمه هذا الهم الواحد بل هو كما يقال * لو صح منك الهوى أرشدت للحيل * فهذا شئ لم يعجز عنه السلف الصالحون ومن اتبعهم باحسان فلا يعجز عنه أيضا من صدقت ارادته وقويت همته بل لا يحتاج الى عشر تعب الخلق في استنباط حيل الدنيا ونظم أسبابها فان قلت قد قربت الامر فيه مع انك أكثرت في ذكر مداخل الغرور فبم ينجو العبد من الغرور فاعلم أنه ينجو منه بثلاثة أمور بالعقل والعلم والمعرفة فهذه ثلاثة أمور لا بد منها * أما العقل فأعني به الفطرة الغريزية والنور الاصلي الذي به يدرك الانسان حقائق الاشياء فالفطنة والكيس فطرة والحمق والبلادة فطرة والبليد لا يقدر على التحفظ عن الغرور فصفاء العقل وذكاء الفهم لا بد منه في أصل الفطرة فهذا ان لم يفطر عليه الانسان فاكتسابه غير ممكن نعم اذا حصل أصله أمكن تقويته بالممارسة فأساس السعادات كلها العقل والكياسة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تبارك الله الذي قسم العقل بين عباده أشتاتا ان الرجلين ليستوي عملهما وبرهما وصومهما وصلاتهما ولكنهما يتفاوتان في العقل كالذرة في جنب أحد وما قسم الله لخلقه حظا هو أفضل من العقل واليقين وعن أبي الدرداء أنه قيل يا رسول الله أرأيت الرجل يصوم النهار و يقوم الليل و يحج و يعتمر و يتصدق و يغزو في سبيل الله و يعود المريض و يشيع الجنائز و يعين الضعيف ولا يعلم منزلته عند الله يوم القيامة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما يجزى على قدر عقله وقال أنس أثنى على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا خيرا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف عقله قالوا يا رسول الله نقول من عبادته وفضله وخلقه فقال كيف عقله فان الاحمق يصيب بحمقه أعظم من فجور الفاجر وانما يقرب الناس يوم القيامة على قدر عقولهم وقال أبو الدرداء كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا بلغه عن رجل شدة عبادة سأل عن عقله فاذا قالوا حسن قال أرجوه وان قالوا غير ذلك قال لن يبلغ وذكر له شدة عبادة رجل فقال كيف عقله قالوا ليس بشئ قال لم يبلغ صاحبكم حيث تظنون فالذكاء وصحيح غريزة العقل نعمة من الله تعالى في أصل الفطرة فان فاتت ببلادة وحماقة فلا تدارك لها الثاني المعرفة وأعني بالمعرفة أن يعرف أربعة أمور يعرف نفسه و يعرف ربه و يعرف الدنيا و يعرف الآخرة فيعرف

الامور ومخارجها وكم من نائم يسبق القائم لوفور علمه وحسن نيته (وفي الخبر) اذا نام العبد عقد الشيطان على رأسه ثلاث عقد فان قعد وذكر الله تعالى

نفسه بالعبودية والذل وبكونه غريبا فى هذا العالم وأجنبيا من هذه الشهوات البهيمية وانما الموافق له طبعا هو
معرفة الله تعالى والنظر الى وجهه فقط فلا يتصور أن يعرف هذا ما لم يعرف نفسه ولم يعرف ربه فليستعن
على هذا بما ذكرناه فى كتاب المحبة وفى كتاب شرح عجائب القلب وكتاب التفكر وكتاب الشكر اذ فيها اشارات
الى وصف النفس والى وصف جلال الله ويحصل به التنبه على الجملة وكمال المعرفة وراءه فان هذا من علوم
المكاشفة ولم نطنب فى هذا الكتاب الا فى علوم المعاملة وأما معرفة الدنيا والآخرة فيستعين عليها بما ذكرناه
فى كتاب ذم الدنيا وكتاب ذكر الموت ليتبين له أن لا نسبة للدنيا الى الآخرة فاذا عرف نفسه وربه وعرف
الدنيا والآخرة ثار من قلبه بمعرفة الله حب الله وبمعرفة الآخرة شدة الرغبة فيها وبمعرفة الدنيا الرغبة عنها
ويصير أهم أموره ما يوصله الى الله تعالى وينفعه فى الآخرة واذا غلبت هذه الارادة على قلبه صحت
نيته فى الامور كلها فان أكل مثلا أو اشتغل بقضاء الحاجة كان قصده منه الاستعانة على سلوك طريق الآخرة
وصحت نيته واندفع عنه كل غرور منشؤه تجاذب الاغراض والنزوع الى الدنيا والجاه والمال فان ذلك هو
المفسد للنية وما دامت الدنيا أحب اليه من الآخرة وهوى نفسه أحب اليه من رضا الله تعالى فلا يمكنه الخلاص
من الغرور فاذا غلب حب الله على قلبه بمعرفته بالله وبنفسه الصادرة عن كمال عقله فيحتاج الى المعنى
الثالث وهو العلم أعنى العلم بمعرفة كيفية سلوك الطريق الى الله والعلم بما يقرب به من الله وما يبعده عنه
والعلم بآفات الطريق وعقباته وغوائله وجميع ذلك قد أودعناه كتب احياء علوم الدين فيعرف من ربع
العبادات شروطها فيراعيها وآفاتها فيتقيها ومن ربع العادات أسرار المعايش وما هو مضطر اليه فيأخذه
بادب الشرع وما هو مستغن عنه فيعرض عنه ومن ربع المهلكات يعلم جميع العقبات المانعة فى طريق الله
فان المانع من الله الصفات المذمومة فى الخلق فيعلم المذموم ويعلم طريق علاجه ويعرف من ربع المنجيات
الصفات المحمودة التى لا بد وان توضع خلفا عن المذمومة بعد محوها فاذا أحاط بجميع ذلك أمكنه الحذر من
الانواع التى أشرنا اليها من الغرور وأصل ذلك كله أن يغلب حب الله على القلب ويسقط حب الدنيا منه حتى
تقوى به الارادة وتصح به النية ولا يحصل ذلك الا بالمعرفة التى ذكرناها فان قلت فاذا فعل جميع ذلك فما الذى
يخاف عليه فاقول يخاف عليه أن يخدعه الشيطان ويدعوه الى نصح الخلق ونشر العلم ودعوة الناس الى ما عرفه
من دين الله فان المريد المخلص اذا فرغ من تهذيب نفسه وأخلاقه وراقب القلب حتى صفاه من جميع المكدرات
واستوى على الصراط المستقيم وصغرت الدنيا فى عينه فتركها وانقطع طمعه عن الخلق فلم يلتفت اليهم ولم يبق له
الا هم واحد وهو الله تعالى والتلذذ بذكره ومناجاته والشوق الى لقائه وقد عجز الشيطان عن اغوائه اذ يأتيه من
جهة الدنيا وشهوات النفس فلا يطيعه فيأتيه من جهة الدين ويدعوه الى الرحمة على خلق الله والشفقة على
دينهم والنصح لهم والدعاء الى الله فينظر العبد برحمته الى العبيد فيراهم حيارى فى أمرهم سكارى فى دينهم
صما عميا قد استولى عليهم المرض وهم لا يشعرون وفقدوا الطبيب وأشرفوا على العطب فغلب على قلبه الرحمة
لهم وقد كان عنده حقيقة المعرفة بما يهديهم ويبين لهم ضلالهم ويرشدهم الى سعادتهم وهو يقدر على ذكرها من
غير تعب ومؤنة ولزوم غرامة فكان مثله كمثل رجل كان به داء عظيم لا يطاق ألمه وقد كان لذلك يسهر ليله ويقلق
نهاره لا يأكل ولا يشرب ولا يتحرك ولا يتصرف لشدة ضربان الالم فوجد له دواء عفوا صفوا من غير ثمن ولا تعب
ولا مرارة فى تناوله فاستعمله فبرئ وصح فطاب نومه بالليل بعد طول سهره وهدأ بالنهار بعد شدة القلق
وطاب عيشه بعد نهاية الكدر وأصاب لذة العافية بعد طول السقام ثم نظر الى عدد كثير من المسلمين واذا بهم
تلك العلة بعينها وقد طال سهرهم واشتد قلقهم وارتفع الى السماء أنينهم فتذكر أن دواءهم هو الذى يعرفه ويقدر
على شفائهم باسهل ما يكون وفى أرجى زمان فاخذته الرحمة والرأفة ولم يجد فسحة من نفسه فى التراخى عن
الاشتغال بعلاجهم فكذلك العبد المخلص بعد ان اهتدى الى الطريق وشفى من أمراض القلوب شاهد
الخلق وقد مرضت قلوبهم وأعضل داؤهم وقرب هلاكهم واشفاؤهم وسهل عليه دواؤهم فانبعث من ذات
نفسه عزم جازم فى الاشتغال بنصحهم وحرضه الشيطان على ذلك رجاء أن يجد مجالا للفتنة فلما اشتغل بذلك
وجد الشيطان مجالا للفتنة فدعاه الى الرياسة دعاء خفيا أخفى من دبيب النمل لا يشعر به المريد فلم يزل ذلك الدبيب

انحلت عقدة وان توضأ انحلت عقدة أخرى وان صلى ركعتين انحلت العقد كلها فأصبح نشيطا طيب النفس والا أصبح كسلان خبيث النفس (وفى خبر آخر) ان من

في قلبه حتى دعاه الى التصنع والتزين للخلق بتحسين الالفاظ والنغمات والحركات والتصنع في الزي والهيئة فاقبل الناس اليه يعظمونه ويبجلونه ويوقرونه توقيرا يزيد على توقير الملوك اذ رأوه شافيا الادوائهم بمحض الشفقة والرحمة من غير طمع فصار أحب اليهم من آبائهم وأمهاتهم وأقاربهم فآثروه بأبدانهم وأموالهم وصاروا له خولا كالعبيد والخدم نخدموه وقدموه في المحافل وحكموه على الملوك والسلاطين فعند ذلك انتشر الطبع وارتاحت النفس وذاقت لذة يالها من لذة أصابت من الدنيا شهوة يستحقر معها كل شهوة فكان قد ترك الدنيا فوقع في أعظم لذاتها فعند ذلك وجد الشيطان فرصة وامتدت الى قلبه يده فهو يستعمله في كل ما يحفظ عليه تلك اللذة وأمارة انتشار الطبع وركون النفس الى الشيطان أنه لو أخطأ فرد عليه بين يدي الخلق غضب فاذا أنكر على نفسه ما وجده من الغضب بادر الشيطان نخيل اليه أن ذلك غضب لله لانه اذا لم يحسن اعتقاد المريدين فيه انقطعوا عن طريق الله فوقع في الغرور بما أخرجه ذلك الى الوقيعة فيمن رد عليه فوقع في الغيبة المحظورة بعد تركه الحلال المتسع ووقع في الكبر الذي هو تمرد عن قبول الحق والشكر عليه بعد أن كان يحذر من طوارق الخطرات وكذلك اذا سبقه الضحك أو فتر عن بعض الاوراد جزعت النفس أن يطلع عليه فيسقط قبوله فاتبع ذلك بالاستغفار وتنفس الصعداء وربما زاد في الاعمال والاوراد لاجل ذلك والشيطان يخيل اليه أنك انما تفعل ذلك كيلا يفتر رأيهم عن طريق الله فيتركون الطريق بتركه وانما ذلك خدعة وغرور بل هو جزع من النفس خيفة فوت الرياسة ولذلك لا تجزع نفسه من اطلاع الناس على مثل ذلك من أقرانه بل ربما يحب ذلك ويستبشر به ولو ظهر من أقرانه من مالت القلوب الى قبوله وزاد أثر كلامه في القبول على كلامه شق ذلك عليه ولولا أن النفس قد استبشرت واستلذت الرياسة لكان يغتنم ذلك اذ مثاله أن يرى الرجل جماعة من اخوانه قد وقعوا في بئر وتغطى رأس البئر بحجر كبير فعجز وا عن الرقي من البئر بسببه فرق قلبه لاخوانه فجاء ليرفع الحجر من رأس البئر فشق عليه فجاءه من أعانه على ذلك حتى تيسر عليه أو كفاه ذلك ونحاه بنفسه فيعظم بذلك فرحه لامحالة اذ غرضه خلاص اخوانه من البئر فان كان غرض الناصح خلاص اخوانه المسلمين من النار فاذا ظهر من أعانه أو كفاه ذلك لم يثقل عليه أرأيت لو اهتدوا جميعهم من أنفسهم أكان ينبغي أنه يثقل ذلك عليه ان كان غرضه هدايتهم فاذا اهتدوا بغيره فلم يثقل عليه ومهما وجد ذلك في نفسه دعاه الشيطان الى جميع كبائر القلوب وفواحش الجوارح وأهلكه فنعوذ بالله من زيغ القلوب بعد الهدى ومن اعوجاج النفس بعد الاستواء فان قلت فمتى يصح له أن يشتغل بنصح الناس فاقول اذا لم يكن له قصد الا هدايتهم لله تعالى وكان يود لو وجد من يعينه أو لو اهتدوا بأنفسهم وانقطع عنهم بالكلية طمعه عن ثنائهم وعن أموالهم فاستوى عنده حمدهم وذمهم فلم يبال بذمهم اذا كان الله يحمده اذا لم يقترن به حمد الله تعالى ونظر اليهم كما ينظر الى السادات والى البهائم أما الى السادات فمن حيث انه لا يتكبر عليهم ويرى كلهم خيرا منه لجهله بالخاتمة وأما الى البهائم فمن حيث انقطاع طمعه عن طلب المنزلة في قلوبهم فانه لا يبالي كيف تراه البهائم فلا يتزين لها ولا يتصنع لراعي الماشية انما غرضه رعاية الماشية ودفع الذئب عنها دون نظر الماشية اليه فما لم يرسائر الناس كالماشية التي لا يلتفت الى نظرها ولا يبالي بها لا يسلم من الاشتغال باصلاحهم نعم ربما يصلحهم ولكن يفسد نفسه باصلاحهم فيكون كالسراج يضيء لغيره ويحترق في نفسه فان قلت فلو ترك الوعاظ الوعظ الا عند نيل هذه الدرجة لخلت الدنيا عن الوعظ وخربت القلوب فاقول قد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حب الدنيا رأس كل خطيئة ولولم يحب الناس الدنيا لهلك العالم وبطلت المعايش وهلكت القلوب والابدان جميعا الا أنه صلى الله عليه وسلم علم أن حب الدنيا مهلك وان ذكر كونه مهلكا لا ينزع الحب من قلوب الاكثرين الاالاقلين الذين لا تخرب الدنيا بتركهم فلم يترك النصح وذكر ما في حب الدنيا من الخطر ولم يترك ذكره خوفا من أن يترك نفسه بالشهوات المهلكة التي سلطها الله على عباده ليسوقهم بها الى جهنم تصديقا لقوله تعالى ولكن حق القول مني لاملان جهنم من الجنة والناس أجمعين فكذلك لا تزال ألسنة الوعاظ مطلقة لحب الرياسة ولا يدعونها بقول من يقول ان الوعظ لحب الرياسة حرام كما لا يدع الخلق الشرب والزنا والسرقة والرياء والظلم وسائر المعاصي بقول الله تعالى ورسوله ان ذلك حرام فانظر لنفسك

نام حتى يصبح بال الشيطان في أذنه والذي يخل بقيام الليل كثرة الاهتمام بامور الدنيا وكثرة أشغال الدنيا واتعاب الجوارح

وكن فارغ القلب من حديث الناس فان الله تعالى يصلح خلقا كثيرا بافساد شخص واحد وأشخاص ولولا دفع الله لناس بعضهم ببعض لفسدت الارض وان الله يؤيد هذا الدين بأقوام لاخلاق لهم فانما يخشى أن تنسد طريق الاتعاظ فانما أن تخرس ألسنة الوعاظ و وراءهم باعث الرياسة وحب الدنيا فلا يكون ذلك أبدا فان قلت فان علم المريد هذه المكيدة من الشيطان فاشتغل بنفسه وترك النصح أو نصح وراعى شرط الصدق والاخلاص فيه فما الذى يخاف عليه وما الذى بقى بين يديه من الاخطار وحبائل الاغترار فاعلم أنه بقى عليه أعظمه وهو أن الشيطان يقول له قد أعجزتنى وأفلت منى بذكائك وكمال عقلك وقد قدرت على جملة من الاولياء والكبراء وما قدرت عليك فما أصبرك وما أعظم عند الله قدرك ومحلك اذ قواك على قهرى ومكنك من التفطن لجميع مداخل غرورى فيصغى اليه ويصدقه ويعجب بنفسه فى فراره من الغرور كله فيكون اعجابه بنفسه غاية الغرور وهو المهلك الاكبر فالعجب أعظم من كل ذنب ولذلك قال الشيطان يا ابن آدم اذا ظننت أنك بعلمك تخلصت منى فبجهلك قد وقعت فى حبائلى فان قلت فلو لم يعجب بنفسه اذ علم أن ذلك من الله تعالى لا منه وان مثله لا يقوى على دفع الشيطان الا بتوفيق الله ومعونته ومن عرف ضعف نفسه وعجزه عن أقل القليل فاذا قدر على مثل هذا الامر العظيم علم أنه لم يقو عليه بنفسه بل بالله تعالى فما الذى يخاف عليه بعد نفى العجب فأقول يخاف عليه الغرور بفضل الله والثقة بكرمه والامن من مكره حتى يظن أنه يبقى على هذه الوتيرة فى المستقبل ولا يخاف من الفترة والانقلاب فيكون حاله الاتكال على فضل الله فقط دون أن يقارنه الخوف من مكره ومن أمن مكر الله فهو خاسر جدا بل سبيله أن يكون مشاهدا جملة ذلك من فضل الله ثم خائفا على نفسه أن يكون قد سدت عليه صفة من صفات قلبه من حب دنيا ورياء وسوء خلق والتفات الى عز وهو غافل عنه ويكون خائفا أن يسلب حاله فى كل طرفة عين غير آمن من مكر الله ولا غافل عن خطر الخاتمة وهذا خطر لا محيص عنه وخوف لا نجاة منه الا بعد مجاوزة الصراط ولذلك لما ظهر الشيطان لبعض الاولياء فى وقت النزع وكان قد بقى له نفس فقال أفلت منى يا فلان فقال لا بعد ولذلك قيل الناس كلهم هلكى الا العالمون والعالمون كلهم هلكى الا العاملون والعاملون كلهم هلكى الا المخلصون والمخلصون على خطر عظيم فاذا المغرور هالك والمخلص الفار من الغرور على خطر فلذلك لا يفارق الخوف والحذر قلوب أولياء الله أبدا فنسأل الله تعالى العون والتوفيق وحسن الخاتمة فان الامور بخواتيمها * تم كتاب ذم الغرور وبه تم ربع المهلكات ويتلوه فى أول ربع المنجيات كتاب التوبة والحمد لله أولا وآخرا وصلى الله وسلم على من لا نبى بعده وهو حسبى ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

والامتلاء من الطعام وكثرة الحديث واللغو واللغط واهمال القيلولة والموفق من يغتنم وقته ويعرف داءه ودواءه ولا يهمل فيهمل

﴿ تم طبع الجزء الثالث من احياء علوم الدين ويليه الجزء الرابع وأوله كتاب التوبة ﴾

﴿فهرست الجزء الثالث وهو الربع الثالث من كتاب احياء علوم الدين لحجة الاسلام الغزالى﴾

صحيفة

صحيفة

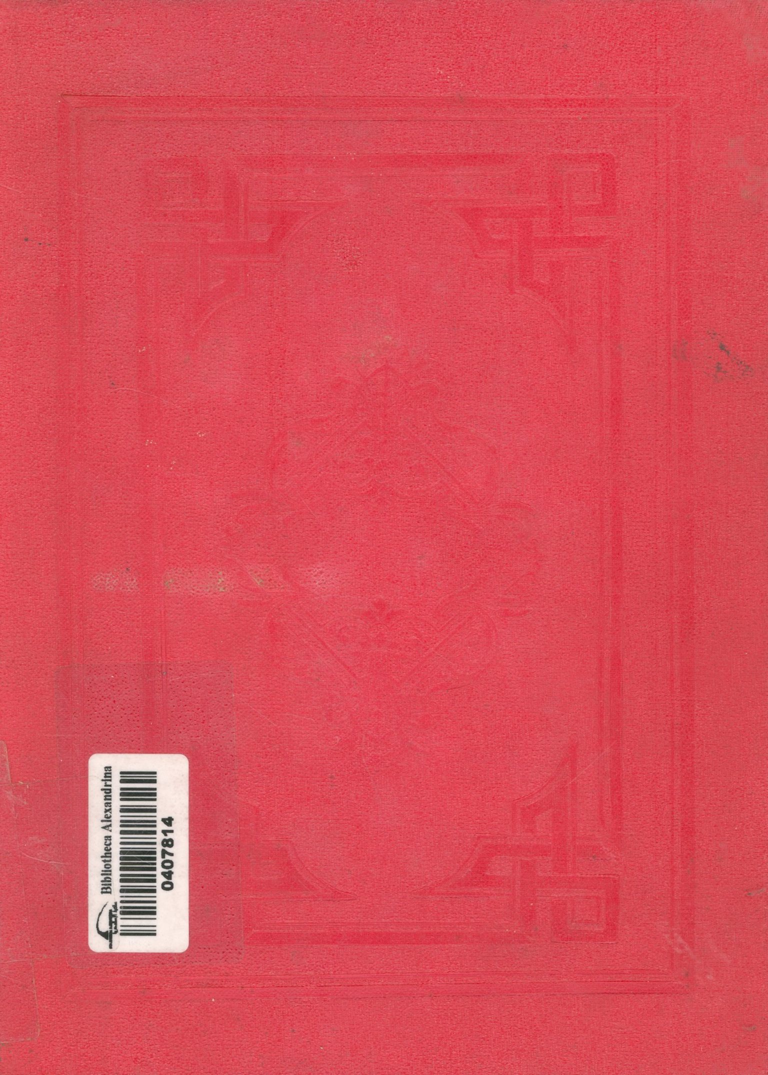
﴿ تمت ﴾

﴿فهرست الجزء الرابع وهو الربع الرابع من كتاب احياء علوم الدين لحجة الاسلام الغزالى﴾

صحيفة

صحيفة

﴿ تمت ﴾


Bibliotheca Alexandrina
0407814